

جامعة أم القري
مكتبة المكرمة
كلية اللغة العربية
فرع الأرب

العدد

١٢



١٢

الشعر العربي

في رثاء الدول والامصار
حتى نهاية سقوط الاندلس

بت مقدم لنبيل درجبة الدكتوراة في ارب لعربي

إعداد
شاعر جرحس واللقاوين

اتراف الالهناو الدكتور

حسنة محمد باجمورة



٩٣٤

١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م

۹



شكرو وتقدير

أحمدك اللهم وأشكرك على جزيل انعامك وعظيم فضلك . أنت
الموفق لكل خير ، والميسر لكل عسير . وأصلى وأسلم على نبيك
محمد وعلى آله وصحبه ومعهد :

فعملاً بالتوجيه النبوي الكريم القائل : (لا يشكر الله من لا يشكر
(١)
الناس) فأنى أقدم خالص شكرى وعظيم تقديرى للقائمين على
جامعة أم القرى الفتيه ، الذين لا يدخرون وسعاً فى العمل على
الارتقاء بالجامعة وتطويرها من مختلف الجوانب .

واعترافاً بالفضل لأهله ، ووفاءً بالجميل لمن أسداه أزهى
عظيم الشكر لأساتذتى الذين أفدت منهم ، وأخص أستاذى الدكتور
حسن محمد باجوده رئيس قسم الدراسات العليا المرمية بجامعة
أم القرى ، والمشرف على هذه الرسالة . الذى واكب مسيرة هذا
البحث موجهها ومرشداً ، وضحنى من وقته الثمين وطمسه الغزير
مأعانتى على انجاز هذا البحث . فجزاه الله خير الجزاء وسارك
فيه ونفع بعلمه .

كما أشكر جميع من بذل لى المساعدة العلمية أو أسدى لى نصيحة
خالصة أو وجه نقداً بنياً . ونسأل الله أن يوفق الجميع لما فيه
الخير والرشاد .

(١) الحديث فى مسند أحمد : ٢٤٦ / ٣ ، سنن أبى داود : ٢٥٥ / ٢ .

مفتاح الرموز

- ق : قسم
ع : عدد
مج : مجلد
ج : جزء
د.ت : دون تاريخ طبع
ط : مكان الطبع

المقدمة

الحمد لله الذي يرث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين ، كتب على
المخلوقات الفناء واستأثر بالبقاء . أحمد ه سبحانه وأشكره على انعامه
وتوفيقه ، وأصلى وأسلم على سيدنا محمد خاتم النبيين ، أفصح من نطق
ببيان ، وأعظم من جاهد لا حقاق الحق وقمع الطغيان ، وعلى آله وصحبه
الذين هجروا الأوطان - على حبها - طمعا في الجنان ومغفرة الرحمن .

أما بعد ، فان الشعر الذي يستحق الخلود والعناية ، ويقع الاعتزاز
به في كل أوان ، هو الذي يمثل وجدان الأمة في التعبير عن أحاسيسها
وعواطفها وأفكارها في خضم ملاحم البقاء وهو - أيضا - المرأة الدقيقة
الصادقة التي تعكس أفوار النفس البشرية وما فيها من صور وانفعالات .
أما الشعر التائه الذي لا يعرف له هدف ، ولا يدفعه الى الوجود سوى
حب الظهور فسرعان ما يسقط في زاوية الإهمال والموت ، ذلك لأنه مجرد
من الفكرة التي هي شريان حياته الرئيس ، وأي جناية على الأدب أكبر من
سلبه رسالته بفصله عن غمار الحياة ، واتخاذ زينة وترفا وتحفا مزخرفة
ان بعض أبناء العربية من الأدباء والنقاد المحدثين استموتهم النظرية
التي ابتدعها نقاد الغرب ، والتي تترجم بعبارة " الفن للفن " أي أن الشعر
هدف في ذاته ، يقول بودلير : " ليس للشعر غاية وراء نفسه ، فان اتجه
الشاعر نحو غاية خلقية فقد أنقص من قوته الشعرية . " ويقول برادلي :
في الشعر الخالص تنمو القصيدة بشكلها ، ومحتواها معا بين يدي صاحبها
وتم خلقا وابداعا ، فاذا سألت مامحفاها ؟ قيل لك انها تعني نفسها .

(١) احسان عباس ، فن الشعر : ١٧٢ .

(٢) المرجع نفسه : ١٧٥ .

ومن هذا يتضح أن قيمة الفن عند هؤلاء تتحصر في قدرته على إثارة إعجابنا بواسطة وسائله التعبيرية والأسلمية بقطع النظر عن الأهداف والغايات .
وإذا كان هذا الفريق من شعراء الحرب وأدبائه قد لجأوا إلى هذا ردا على تنكر جمهورهم لهم ، وضياح أصواتهم وسط ضجيج الحضارة فأى مبرر لوجود هذه الفكرة في الأدب العربي الذي لم يواجه رجاله شيئا مما واجهه أضرابهم ففى الحرب ؟ : لا شك أنه التقليد غير المتروى الناتج عن الإعجاب بالجدى والفریب والا فآى قيمة للأدب فى ذاته ، ان قيمته الحقيقية تكمن فى مدى قدرته على تفسير الحياة والسموبها عن طريق مزج القيمة الجمالية فيه بالقيم الأخرى السياسية والاجتماعية والخلقية ، واخراجها فى ثوب واحد .

ان الالتزام فى الشعر العربى قديم قدم الفن نفسه ، والنظر الى مختلف عصور الأدب يتضح ذلك جليا ، فشعراء القبائل فى الجاهلية منذ أن أدركوا تميزهم على الباقين بسلاح الشعر شعروا بتبعية النضال الفنى الذى يقع عليهم تجاه قضايا الجماعة ، فوقفوا أشعارهم على الفخر بأساب تلك القبائل وشجاعتها ، وعلى ذكر حروبها الظاهرة ، ثم مدح المقاتلين بصفات الحمية والبأس ورثاء من قتل منهم ، وظلوا ملتزمين بهذا النهج مدى حياتهم .
وربما التزم الشاعر بمسايرة وضع سائد ، وتأيبس نظام مقور على الناس الذين يعيش بينهم كأن يعجب بنظام سياسى أو اجتماعى ويرى فيه تحقيق ماتصبو إليه أمته ، فيصرف فنه الشعرى الى بيان ذلك والدفاع عنه طائعا مدفوعا بمحرصه على تحسيس مايدفع بمجتمعه الى درجات الرقى . وآفة الالتزام فى الشعر أن يتحول الى الزام ، بمعنى أن يفرض على الشاعر فرضا وتحت رقابة شديدة ممارسة فنه من خلال مبدأ محين أو مذهب يختار له ، والشعر الناتج فى هذه الحالة - بلاشك - زيف لا يلبث أن يضمحل حين تخف الضرورات التى كانت سبب فرضه .

ولعل اللبس الذي يقع من عدم التفريق بين الالتزام والالزام هو السبب في نفور الكثيرين من الأدب الملتزم حيث ينظرون اليه على أنه مقيد ضمن دائرة ضيقة من المعاني والأفكار وما هو كذلك .

وإيماننا متى بضرورة الالتزام في الشعر ، فقد جعلت موضوع رسالتي (١) للدكتوراه في جانب من جوانب هذا الشعر هو رثاء الدول والأمصار . وقد دفعني إلى الكتابة في هذا الموضوع سببان هما :-

أولاً : عزوف الباحثين في الأدب العربي عن التعرف لهذا الفن الأصيل بالدراسة أو التحليل أو القيام بجمع نصوصه الشعرية المتناثرة في بطون أسفار التأريخ وكتب الرحلات ، ومعاجم البلدان ولست أدري - سبب هذا المزوف ، أهو النسيان ؟ أم الزهد على اعتبار أن هذا الشعر يمثل الجانب السلبي في حياة الأمة عبر القرون ؟ : لعل السبب الأخير هو الأرجح ، لأننا نلاحظ أن مؤرخي الأدب - وخاصة أدب الأندلس - عندما يؤرخون لعصور الأدب هناك ويصلون إلى هذا الفن الجديد الذي أذكته المحن والنكبات المتوالية ، يقفون عنده وقفة قصيرة مشيرين إلى قصيدة أبي البقاء الرندي ، وهي قصائد المعتمد بن عباد ثم ينصرفون بسرعة ليسهبوا في وصف شعر الطبيعة والسورود والأزهار ثم شعر الخمريات والخراميات ، ثم الموشحات ومجالس الفناء . حتى انطبعت هذه الصورة المشوهة بالميوعة عن طبيعة الأدب الأندلسي

(١) المصير : كل كورة تقام فيها الحدود ويقسم فيها الفئ والمصدقات ممن غير مؤامرة للخليفة .

والمصيران كانت تطلق على الكوفة والبصرة . / انظر اللسان مادة (مصير) .

والحياة الأندلسية في أذهان الكثير من الدارسين والباحثين ناهيك
عن الجمهور العام . وقد أردت بتناول هذا الموضوع سدّ تلك الثغرة
بإبراز جانب مشرق من جوانب الشعر العربي تظهر فيه الصورة الصادقة
الدافقة للواقع الذي كان يسود المجتمعات بعيدا عن البهجة والزخرف
أما القول بسلبية هذا الشعر ، فيمكن أن يطلق على القوائد التي
تقتصر على الهكاه والندب ، وتشجيع جوا من اليأس والتشاؤم الانهزامي
في نفوس الناس ، والتي يكون شعراؤها بعيدين عن الانفعال الحقيقي
والتأثر الوجداني ، وهذا اللون من القوائد قليل جدا في هذا البحث .
أما غالبية القوائد ففيها الاحساس الصادق الناتج عن تجربة ومعاناة
فكثير من الشعراء الذين رشوا مدنهم عندما سقطت كانوا من المواكبين
لحركة الجهاد والمشاركين فيها بشعرهم ، فألهبوا الحماس وتغننوا
بالبطولات ، ثم رفعوا أصواتهم مستغيثين بمن حولهم من المسلمين
في ساعات الشدة والحصار ، ثم جاء الرثاء من تلك النفوس النائرة فسو
نهاية المطاف .

ثانيا : ان الناظر في الوضع الذي تعيشه الأمة الاسلامية في الوقت الحاضر
يرى أن هذا البحث قد جاء في أوانه ، فالضعف الشديد والفرقة
القاتلة ، والتطاحن المدمر والتفاضي عن أصوات الحق المخلصة التي
تنبعت من هنا وهناك هذه الأمور التي تسود دول العالم
الاسلام الآن تذكرنا بالفترات التاريخية المشابهة لها التي مرت بنا
في هذا البحث ، ونتج عنها أوجع المواقب وخير مثال على ذلك عصر
طوك الطوائف في الأندلس ، حيث انقسمت البلاد الى ممالك كثيرة
فكل مدينة فيها أمير المؤمنين ومنير ، وسرعان ما تلبدت سما تلك الممالك

بغضبوم المنافسة والمد اوة نتيجة للأطماع والرغبة فى السيطرة فاستمرت الحرب بينها ، فوجد بذلك العدو النصرانى فرصته فأخذ يبتلعها الواحدة تلو الأخرى ، فكان ذلك العصر المشؤوم أول خطوة فى سلّم نهاب الأندلس كلها . ونحن هنا لا نريد أن نحفر قبورا لآمال الأمة التى تسمى جاهدة فى تحقيقها ، ولكن لعل الاطلاع على شعر الرثاء والنكبات التى قيل فيها يعتبر من أبلغ أساليب التنبيه ، ولطف النظر الى الأوضاع المتردية التى قد تؤدى الى ما أدت اليه مثيلاتها فى السابق فالتاريخ يحيد نفسه .

وقد اقتضت طبيعة البحث أن يكون فى ثلاثة أبواب مسبوقه بتمهيد ومختومة بخاتمة .

مهدت لهذا البحث بذكر الأوطان ومكانتها فى نفوس الشعراء باعتبارهم أقوى الناس شعورا بالصلة التى تربطهم بها ، وأكثرهم احساسا بالوعشة والشوق عند مفارقتها ، حتى أصبح الحنين الى الأوطان غرضا شعريا مستقلا فى أدبنا العربى ، وبينه وبين الرثاء صلة وثيقة ، فكلاهما يصدر عن تجربة صادقة وعاطفة متأججة اضافة الى التشابه فى المعجم الشعرى الى حد كبير .

الباب الأول : رثاء الدول والأمصار فى المشرق .

ويتألف هذا الباب من أربعة فصول تسير وفق تسلسل زمنى : تحدثت فى الفصل الأول عن رثاء الممالك فى الجاهلية ، وأوردت عدة قصائد ومقطوعات فى رثاء القصور والحصون الخيبرية والكسروية التى كان الشعراء آنذاك ينظرون اليها بعين العظمة والالجال بالاضافة الى طائفة من الشعر الداعى الى أخذ العبرة من تقلب الدنيا بأهلها .

أما الفصل الثاني فكان في رثاء الدولة الأموية ، وقد ذكرت بإيجاز ملامسات سقوطها على يد العباسيين ، ثم وقفت عند القصائد التي قيلت في رثائها ومن أهمها سينيتان لأبي العباس الأعشى وأبي عدي العجلي يمكن أن نعتبرهما نواة للقصائد السينية الرثائية التي جاءت بعدهما حيث تجلت فيهما قوة العاطفة التي غذاها عب هذين الشاعرين لتلك الدولة وولاؤهما لها حتى بعد زوالها وجمعت الفصل الثالث لرثاء الدول والأصاغر حتى عصر السلاجقة . وقد اشتمل على ثلاثة مهاجرات الأولى : في رثاء المدن الستة دمرت بسبب الثورات والفتن الداخلية في الدولة العباسية .

وأهم تلك الفتن ، فتنة الأمين والمأمون ، وصراعهما على الحكم ، والستة نتج عنها تدمير بغداد وازهاق آلاف الأرواح البريئة . هال الشمع هذا الأمر فراحوا يفرغون انفعالاتهم شعرا باكيا حيناً ، وغنيفاً ساخطاً حيناً آخر ويذكر في هذا المجال أبو يعقوب العزيمي ورائيته الطويلة التي تنفجح بالصدق ، وتكشف عن معاناة صاحبها الذي كان يضح الآلم بعيداً عن بلاطات الحكام . ومن الثورات التي حصلت في هذا العهد - أيضاً - ثورة الزنج ، نسبة للزنج الذين قاموا بها وهي ثورة عارمة استمرت سنين طويلة ونتج عنها دمار كبير من المناطق ونهبها ، وعلى رأس تلك المناطق مدينتي البصرة التي اجتاحتها اجتياحاً صاعقاً ودمروها تدميراً شنيعاً وحرقوا جامعها بمن فيه ، وقد بكأها ابن الروم بلوعة صادقة تحسبها من خصال التكرار المتفجع الذي ظل يعيش في دوايته طيلة القصيدة ، كما رثاها شاعر آخر من أهلها يصرف بالسدوس بقصيدة جيدة يخلفها الحزن والألم النفسى لفداحة الخطب وتشرذم الناس .

أما المبحث الثاني فقد خصصته برثاء الدولة الطولونية والفاطمية ، وقد
أوضحت بنهذة تاريخية موجزة عن كيفية قيام كل منهما ، ثم عرضت لضعفهما
وسحقهما نهائيا ، وقد كان بلاط ابن طولون في مصر مرتعا خصبا للشعراء
ولذلك نجد في رثاء دولته وخاصة قصره المسمى بالميدان شعرا كثيرا ، وما هذا
الذي وصلنا منه الا جزء يسير ما ذهب . أما الدولة الفاطمية فمراثيها قليلة
بالنظر الى ضخامة سلطانها وربما يعود ذلك لطبيعتها المذهبية ، فلا نجد
في رثائها الا قصيدة شاعرها المخلص عمارة اليمنى الذي ظل يحمل لارجماع
سلطان الفاطميين عن طريق التحريض والمؤمرات حتى ظفر به وأعدم .

وجعلت المبحث الثالث لرثاء بيت المقدس عندما سقط بيد الصليبيين في
نهاية القرن الخامس الهجرى . وقد كان لسقوطه رنة حزن عميقة في أرجاء
العالم الاسلامى نظرا لقدسيته ، ولشاعة الجرائم التى ارتكبتها الصليبيون
فيه ، فقد أفرغوا نار حقدهم على أهله فقتلوا منهم ما يفوق الحصر ، كما قاموا
بتدنيس المسجد الأقصى بكل وسيلة ، تماما كما يفعل اليهود في هذه الأيام
ووقف العالم الاسلامى آنذاك مكتوف الأيدى مشغولا بنزاعاته ونفاهاته كما يقف
اليوم دون انصاف لنداء الجهاد والكرامة الذى يطلقه المخلصون .

وقد تجاوت أصداة أصوات الشعراء في مختلف البقاع ، فجاء صوت أبى
المظفر الأبهردى من بغداد يصرخ داعيا للجهاد ، وناعيا على الأمة
تفريطها في هذا المعلم الاسلامى ، ومصورا غضب الرسول - صلى الله عليه وسلم
- لا تنبأك مسراه . ثم جاءت قصائد مجهولة القائل من هنا وهناك ترثى حال
المستضعفين الذين عذبوا وشردوا وتدعوا الى افتكاك أسرهم .

الفصل الرابع : ثناوت فيه تدمير بغداد والشام على يد التتار وروثنا*
الشعرا* لهما ، وقد أوضحت سبب زحفهم الماحقة وتدميرهم الدولة
الخوارزمية ، ثم زحفهم على بغداد وسحقها سحقا وحشيا جعلها أطالالا
وقد كثر الباكون على هذه المدينة نظرا لكونها مقر الخلافة وضار العلم
والأدب ولكن الملاحظ على تلك القصائد اسرافها في الصلحة البلاغية تشبها
مع أسلوب العصر .

ثم عرضت لتوجههم الى الشام وتدميرهم بعض مدنها ثم تقدم بهم الى مصر
حيث رجعوا خائبين بعد هزيمتهم في عين جالوت على يد المماليك . ولكنهم
عادوا المرة ثانية على الشام في أوائل القرن التاسع الهجري فدمروا مدنها
وأهلكوا الحرث والنسل ، وسلطوا النصارى على المسلمين فساموهم سوء العذاب
وقد أنكت هذه الفجائع حمرة الشعر فانطلق يصور واقع الأمة المؤلم ويشارك
في تخليد المعالم والمقدسات التي دمرها الأعداء .

الباب الثاني : رثاء الدول والأصاغر في الأندلس والغرب ،

وتحت هذا الباب تندرج أربعة فصول مسبقة بتوطئة أوضحت فيها أن الأندلس
بحكم موقعها كانت ثغرا حربيا مجاورا للعدو والنصارى المترين ، فهي بحاجة
الى قوة واستعداد دائم للدفاع والهجوم وقد حدث هذا فعلا في عصورها
الأولى أيام عهد الرحمن الداخل ومن تبعه حتى غدت الأندلس من القسوة
بمكان جعل كل الدول التي حولها تسعى لكسب رضاها ، ثم يحل القسور
الخامس الهجري ويبدأ معه عصر طوك الطوائف وتدخل الأندلس في طور جديد
من الضعف والتفكك ، وتبدأ نذر السقوط تلوح في الأفق .

الفصل الأول : رثاء المدن : وأول المدن المدمرة في آواخر حكم الدولة

العامرية هي مدينة قرطبة حيث نشبت فتنة بين بقايا الأمويين وأبناء الأسرة

العامرية واستحمان الطرفان بطوائف من البربر الذين دخلوا المدينة واستباحوها وطمسوا كل معالمها الحضارية ، وقد رثاها ابن شهيد الأندلس بقصيدة طويلة تقليدية ، كما رثاها عدد من الشعراء المجاهيل محذرين من عواقب الاختلاف والفرقة ناسجين على منوال الوعظ والارشاد .

ثم تأتي أول النكبات بسقوط بريشتر بيد النصارى ، ولما كان هذا أول انتصار لهم فقد فعلوا بالمدينة وأهلها أفملا مروعة تحدثت عن بعضها بايجاز ، وقد رثاها الفقيه ابن العسال بقصيدة انهال فيها على طسوك الطوائف ووصمهم بالجبن ، ثم ثنى بالناس موحا اياهم على فعل المعاصى التى جرت عليهم البلاء ، وقد استشعر أهل الأندلس الخطر بعد سقوط هذه المدينة فقام الفقهاء بدور الوساطة لجمع الكلمة وتوحيد الصف ، ولكن هيهات أن يسمع الانتهازيون ندا المصلحة العامة ، فسقطت طليعة السنى كانت حلما يراود النصارى من مئات السنين ، وعلى الفور حولت الى مدينسة نصرانية واتخذت عاصمة لهم لمناعتها وجودة أرضها . وقد رثيت بقصيدة طويلة لمجهول بكى فيها محنة الاسلام وأظهر انعدام الثقة من قبل الأمة بحكامها وتشوقها الى حاكم يكون قائد معركة يظل انتصار .

بعد ذلك تدخل الأندلس عهدا جديدا من الأمن والمنعة فى ظلال سيف المرابطين والموحدين حتى أوائل القرن السابع الهجرى ان أخذت تتخبر الأحوال وخاصة بعد معركة العقاب التى تحطمت فيها قوة الموحدين وبدأ نجمهم فى الأفول . عندئذ تحرك النصارى بخطة جديدة لاقتسام الأندلس ، فتحرك طك أراجوان نحو بلنسية وحاصرها طويلا ، ولم يستطع اقتحامها لصمود أهلها ، وتم الأمر فى النهاية على تسليمها صلحا حين نضبت أقواتها ولم تصلها النجدات . ولقد كانت بلنسية أما لكثير من الشعراء أمثال ابن الأبار وابسن

كعقوبة المخزوم وغيرهما فلا عجب أن تحظى بجطة وافرة من المراثى الشعرية والنثرية التي تفيض مرارة ولوعة .

وفي المقابل تحرك ملك قشتاله صوب اشبيلية بجيش لجب ، وأمدّه الباسبان بنجدات متوالية لأن المدينة كانت ، من المتعة والتحصين بمكان مكن ، فضرب النصارى حولها حصارا خانقا مدة خمسة عشر شهرا حتى اضطرت إلى التسليم في النهاية ، وقد فعل بها القشتاليون أفاعيل شنيعة صورها الشعر أصدق تصوير .

وقد ختمت هذا الفصل بالحديث عن رثاء صقلية ومدن المغرب . وغير من رثى صقلية بعد سقوطها بيد النورمان ورحيل الاسلام عنها بعد أن عمرها قرنين ونصف ، شاعرها ابن حمد يس بأسلوب يتدفق حماسة وقوة ، ويشف عن ألم نفس شديد يكوى فؤاده لما لاقاه من الخذلان لدى من راح يستغيث بهم .

وأما المدن المغربية فأشهرها القيروان التي دمرت ونهبت على يد القبائل الهلالية التي زحفت اليها من الصعيد المصري في القرن الخامس الهجري وقد كانت آنذاك في أوج عزها الحضاري والعلمي والأدبي ، وكانت حلقة وصل بين المشرق والأندلس .

وقد رثيت بقصائد كثيرة لشعرائها المشهورين الذين شردوا منها فيما بعد كابن رشيق ، وابن شرف والحصري القيرواني وغيرهم ، وشعرهم يمتاز بالصدق وحرارة العاطفة ، وشكوى الغربة ، والحنين الدائم إلى القيروان ، - على الرغم مما واجده بعضهم من الحظوة في البلاد التي نزح اليها .

ونجد - أيضا - قصيدة للسان الدين ابن الخطيب في رثاء مراكن عاصمة المرابطين والموحدين من بعدهم ، وذلك أنه عندما تغلب المرينيون على

الموحدين وثلوا عرشهم انتقلوا عن مراكز الى فاس فأصاب الأوطى الخراب وطواها الإهمال فاعتبر ابن الخطيب بهذا الانقلاب والتحول ، وأطلق زفرته على تلك الأطلال .

الفصل الثاني : تحدث فيه عن شعر الاستصراخ الذي ظهر في الأندلس بان تحرك النصارى لمحصرة المدن الاسلامية التي ذكرناها في الفصل السابق . وقد أدى الشعراء دورا ايجابيا في سبيل الدفاع عن بلادهم فنظموا القصائد الحماسية التي تحث على الجهاد ، وتذكر بوجوب نصرة المسلمين وانقاذ بلادهم ، وتوجهوا الى المغرب وقاموا بحركة الاستفسار عامة ، وكللت مساعيهم بالنجاح في أغلب الأحيان ، وقد ظل شعر الاستصراخ مستمرا بعد سقوط الأندلس حيث كان المسلمون الذين يواجهون التنصير يرسلون صرختهم الى السلطان العثماني والمطوكي . وقد تميزت قصائد الاستصراخ بطولها وتخلصها من المقدمات ، والاكتار من الاستشهاد بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية المناسبة .

الفصل الثالث : عقدت هذا الفصل لرثاء الممالك أو الامارات التي أنشأها طوك الطوائف في الأندلس ، وقوس أركانها المرابطون ضمن خطتهم لتوحيد الأندلس وشحنها بالجنود لتكون جبهة قوية تقف في وجه النصارى ومن أهم تلك الامارات : امارة بني عباد في اشبيلية ، وامارة بني الأفطس في بطليوس ، وامارة آل صمادح في المرية . وقد كان التنافس بين هذه الامارات على أشده في مجال تزيين البلاط بفضائل الشعراء والكتاب ، فكانت تفقد عليهم الصلات وتقرر لهم الأرزاق ، ومما زاد الاهتمام في هذا الأمر ، كون بعض أولئك الحكام من الشعراء الفحول أو الخطباء والنقاد الكبار ، وهنالك أن يقف الدارس عند سيرة المعتمد بن عباد ليتبين مقدار اتساع سلطان الأدب في

عنده . ولهذا ما أن انتهت دولته وسبق أسيرا حتى ارتفعت أصوات الشعراء بالبكا وتحويل الخطب بوصف المآثر العظيمة التي احتوتها القيود وكبليها الذل ووصف بنيات ابن عباد بالجوع والخوف **والاعكاس الأمر السني** جعلهم يكسبون عطف التاريخ على قضية ابن عباد ، فراح كثير من المؤرخين والأدباء يكيلون التهم والسباب للمرابطين تحت تأثير سحر ذلك الشعر وقد ناقشت هذه القضية وحاولت وضعها في الاطار الصحيح .

أما آل الأفضس فقد رثاهم وزيرهم ابن عبدون بقصيدته المشهورة بالبسامة ، والتي بدأها بمقدمة تاريخية طويلة عن الأمم العظيمة التي هلكت في الدهر منذ أقدم العصور وحتى عصره ثم أفاض في ذكر مآثر قومه ، وأبرز عظمتهم في كل جوانب الحياة .

ورثى أبو الحسن بن الحاج بنى صمادح بمخمسة ذكر فيها أمجادهم ، وتأسف على فراقهم ، وانقطاع معروفهم عنه .

الفصل الرابع : أوردت في هذا الفصل القصائد التي قيلت في رثاء الأندلس بصفة عامة وقد قسمت هذه القصائد الى قسمين : القسم الأول يشمل القصائد التي قيلت على أثر سقوط قواعد الأندلس الهامة كقرطبة ولنسية واشبيلية ، وكان شعراء هذه القصائد يستشفون من هذا السقوط المتسلسل النتيجة الحتمية للأندلس كلها ، فراحوا يبكونها ، وينديبون معالم الاسلام فيها ، وأشهر قصيدة في هذا الجانب نونية أبي البقاء الرندي .

أما القسم الثاني فيشمل القصائد التي قيلت بعد غروب شمس الأندلس نهائيا بسقوط غرناطة في آخر القرن التاسع الهجري وأهمها قصيدة طويلة لشاعر مجهول صور بها محنة الأندلس أصدق تصوير ، وكأها أحر البكا منتقلا من مدينة الى أخرى واصفا ما حل بها من الهول ، ومحللا للأحداث وأسبابها .

الباب الثالث : دراسة تفصيلية لشعر رثاء الدول والأمصار .
ويحتوى على ثلاثة فصول : الفصل الأول رثاء الدول والأمصار بين التأثير
والتأثير . عرضت فيه لأقوال الباحثين بنشوء هذا الفن في الأندلس ، ثم
تأثر المشرق به بعد ذلك كما عرضت للآراء التي تصف رثاء المشرق بضمف
العاطفة أو انعدامها ، وبينت اعجابها ، وقد توصلت الى أن القسول
يسبق الأندلس في هذا المجال يحتاج الى إعادة نظر ، لأن دواعي هذه
المراثى موجودة في كل زمان ومن غير الممكن تحديد مكان نشأتها الأولى .

الفصل الثاني : دراسة لشكل قصيدة الرثاء ، ويشمل أربعة مباحث .

المبحث الأول : مقدمة القصيدة ، فقد تنوعت المقدمات حسب حالة
الشاعر الانفعالية وقوة شاعريته ، فبعضهم تقليدى يبدأ بالوقوف طمس
الأطلال ، وآخر يفتتح قصيدته بذكر الأجل المحتوم أو بذكر القضاء والقدر
أو بوصف حالته وما داخله من حزن وغم ، وثالث يدخل في موضوع الرثاء
مباشرة .

المبحث الثاني : الألفاظ ، بينت فيه دور الألفاظ المتناسقة في اشاعة
الجو الذى يريد الشاعر أن ييشه في نفوس السامعين ، كما لاحظت اختيار
الشعراء للألفاظ المشبعة بالحركة والجرس والتي توحى بمعان كلية متداخلة
تفهم بمجرد سماع اللفظ وتتعدر تجزأتها .

المبحث الثالث : الأوزان والقوافي : تبينت من خلال دراستي لأوزان -
الشعر الذى مر في هذا البحث أن شعراء الرثاء نظموا في معظم البحور
تقريباً ، ولكن الملاحظ كثرة دوران البحور ذات التفاعيل الكثيرة كالطويل
والبيسط ثم الكامل والوافر وقد ذكرت تعليلاً لهذه الظاهرة أما
القوافي فقد برزت القافية المطلقة التي تلائم مد الصوت بالصراخ والتفجيع

كما برز أيضا الروى المكسور الذى تؤدى كسوته دور النائحىه .

المبحث الرابع : الاقتباس والتضمين ، فقد أكثر شعرا الرثاء كثرة طحوظه من الاستشهاد بالآيات والأحاديث ، كما ضمنوا قصائد هم كثيرا من أبيات الشعر المشهورة ، وهذا غير كونه وسيلة لاظهار الثقافة يعطى القصيدة قوة تزيد من تأثيرها فى نفوس السامعين .

الفصل الثالث : دراسة لمضمون قصيدة الرثاء . ويشمل أربعة مباحث أيضا .

المبحث الأول : الواقعية ، فالشاعر فى مجال رثاء دولته أو مدينته يصدر عن واقع يعيشه ويصف أحداثا تجرى أمامه ، فلا يجد مجالا للخيال المجنح ، وليس معنى هذا أن يقف الشاعر دائما عند حدود النقل المباشر للحوادث فيكون سطحيا ، لكنه يرسم صورا طسونة بشاعره وحواطفه تؤثر فى السامع ولا تخرج عن الواقع ، وهذه هى الواقعية الروعية التى يعنى بها الشعراء .

المبحث الثانى : التكرار ، وهذه الظاهرة تلاحظ فى معظم القصائد التى وردت فى هذا المبحث فنجد الشاعر يكرر بيتا أو شطرا أو عبارة وما إلى ذلك ، ولحل هذا التكرار وسيلة من وسائل التنفيس عن نفس الشاعر التى تتمزق بفعل جيشان الانفعالات ، أو لعله أثر من آثار الألم النفسى الشديد الذى يجعل الشاعر فى حالة هذيان ، وخاصة عندما يكرر اسم المدينته المرثية . وللتكرار أيضا دور فى تقوية موسيقى القصيدة وتناسقها ، وينفكس ملاحظة ذلك فى الجناس ورد المعزطى الصدر .

المبحث الثالث : الروح الجماعية : فالشاعر ابن بيئته ووطيد مجتمعه ، -

يعيش وسط جمهور تربطه به علاقات وشائج ، فهو يحس بما يحسون ، ويتلمس همومهم وآلامهم ليحبر عنها ، فهو لسان حالهم ، وفى ما بين أيدينا سنن مرث

نجد الشعراء يصبون اهتمامهم على بيان ما حلّ بالناس من قتل وتشريد وهتك
ويأخذون في تحليل النفسيات المحطمة ، وخاصة عند النساء والأطفال
والمهاجرين ومن جانب آخر فان بكاء الشعراء على المساجد والمحاربي والمنابر
المدرومة أو المفيرة هو نوع من الروح الجماعية ، فتلك المعالم المقدسة
ينغرس فيها في نفس كل فرد في المجتمع الاسلامي .

المبحث الرابع : أسباب النكبات ، تطالعنا في شعر رثاء الدول والأمصارع
ظاهرة تلمس الشعراء للأسباب التي أدت الى حدوث الكوارث ، ولكن الأسباب
التي يوردونها لا تمثل جوهر الحقيقة الا نادرا فهم يلجأون الى ذكر العيب
الحاسده ، وذنوب الأمة ، وحكم القدر المحتوم مع علمهم أن السبب الحقيقي
يكن في ضعف الحاكم وجبنه وخيائته ولكنهم يكتفون بذلك خوفا من سيطرة
العذاب التي تصب على كل منتقد أو معارض .

وفي الخاتمة ذكرت بعض النتائج الهامة التي توصلت اليها من دراستي
لشعر رثاء الدول والأمصارع . هذا وقد جعلت من منهجي في هذا البحث
الوقوف عند النصوص ودراستها من داخلها بعد الا حاطة بالظروف التاريخية
التي تلتقي ضوءا على ملامسات الحادث الذي هز الشاعر ودفعه الى القول ،
وقد حرصت على ايراد ما أمكن من النصوص الهامة التي تدل على هذا الفن
محاولة وضعها في متناول القارئ بعد أن كانت في طي النسيان . وقد
يلاحظ المتابع لفصول هذه الرسالة وخاصة القسم الأندلسي منها شيئا من
التكرار في المادة التاريخية ، وهذا أمر لا يستطيع الباحث تفاديه لتداخل
الأحداث وتشابكها ، وقد حاولت التخفيف من ذلك ما استطعت . ولا أدعي
أنني بلغت الكمال في هذا البحث ، فذلك بعيد من عمل الانسان ولكني أرجو
أن أكون قد أضفت شيئا جديدا لأدبنا العربي .

والله موفق والهادي الى سواء السبيل

شاهر الكفاوين

غرة جمادى الآخرة - ١٤٠٤ هـ .

التحبيد : الأوطان ومكانتها في نفوس الشعراء .

لقد أودع الله - تعالى - في النفس البشرية مجموعة من العواطف
تمكّنها من تحديد تعاملها مع الأشياء المعينة بها ، وتشكل هذه العواطف
عند الانسان - في العادة - من جراء تعامله مع الأشياء وتكرار اتصاله بها
وردود الفعل الناتجة عن ذلك . ويأتي على رأس العواطف الانسانية عاطفتان
رئيسيتان هما : عاطفة الحب وعاطفة الكره . فاذا كانت الردود الانفعالية
الناتجة عن الاحتكاك بشيء ماسارة تكونت عاطفة الحب والا كان العكس .

ومادام الأمر كذلك ، فأى شيء أقرب وأحب الى نفس الانسان من موطنه
الذي ضمه بين أحضانه منذ أن رأى النور لأول مرة على ظهر هذه الأرض ثم
ثم دج على تربه ، وتنفس هواه ، وشرب مائه ، حتى أصبح جزءاً من نفسه
لا يمكن أن يستغنى عنه أو يفارقه بسهولة . بل ان الهوى والحنين تبيداً
لواعجه تعصف بالنفس منذ اللحظة الأولى التي تختفي فيها معالم ذلك الوطن
عن عيني المخبتر أو المهاجر .

وقد ذكر الله - عز وجل - في كتابه الكريم مقدار حب الانسان لوطنه
وتعلقه به فقال : (ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من
دياركم ما فعلوه الا قليل منهم) .
(١)

فقرن الخروج من الديار وفارقتها بقتل النفس وفارقة الروح لجسدها
، ولا شيء أشق على الانسان من قتل نفسه ، ولذلك عقب في الآية بقوله :

(١) سورة النساء ، الآية ٦٦ .

(ما فعلوه الا قليل منهم) وقال أيضا : (قل ان كان آباؤكم وأبناؤكم
واخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم ، وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها
وساكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتمسكوا بعصمتي
(١)
يأتى الله بأمره) .

فقد عدد في الآية كل ما يحبه الانسان وما يتعلق به في هذه الحياة ،
كالاقارب والعشيرة ، والأموال والتجارات ثم عطف عليها المساكن التي هي
جزء من الوطن الكبير .

وحب الوطن والحنين اليه غير قاصر على أمة من الأمم أو طمة من الطل ، بل
ان هذا موجود عند بعض أصناف الحيوانات ، ويروى عن الأصمعي أنه قال :
" قالت الهند ثلاث خصائل في ثلاثة أصناف من الحيوان : الابل تحب السوا
أوطانها وان كان عهدا بعيدا ، والطير الى وكره وان كان موضعه مجدها ،
والانسان الى وطنه وان كان غيره أكثر له نفعا " .
(٢)

ولعل المشاهد والمعروف عن أكثر الحيوانات أنها تدافع عن ما واصلها
ان اذا هوجم حتى الموت . أما حب الوطن عند غير العرب فهو يدعو الى الدهشة
حقا ، فقد بلغوا فيه مبلغا عظيما ، فهو عند اليونان يولد مع الانسان ، يقول
بعض فلاسفتهم : " فطرة الرجل معجونة بحب الوطن " ويروى عن جالينوس
طبيهم وحكيم قوله : " يتروح العليل بنسيم أرضه كما تنبت الحبة ببسمل
(٤)
القطر " .

(٥)
أما الهنود فقالوا : " عنين الرجل الى وطنه من علامات الرشده " وقالوا
(٦)
أيضا : " حرمة بلدك عليك مثل حرمة أبوك لأن غذاك منها وذاهما منه " .

-
- (١) سورة التوبة ، الآية ٢٤ .
(٢) السخاوى ، المقاصد الحسنة : ١٨٣ .
(٣) الراجب الأصفهاني ، محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء : ٦٢٠ / ٤ .
(٤) رسائل الجاحظ : ٣٨٢ / ٢ .
(٥) العسكري ، ديوان المعاني : ١٨٢ / ٢ .
(٦) رسائل الجاحظ : ٣٨٥ / ٢ .

ويروي أن ساهور ملك الفرس **أسر** في إحدى معاركه ببلاد الروم واعتل هناك فقالت له بنت الطرك - وقد عشقته - ما تشتهي ؟ فقال : شربة من ماء دجلة (١) وشمة من تراب اصطخر ، فحطلا اليه فبرأ .

وهي النظر عن صحة هذه الرواية أو عدمها إلا أنها تدل على ما يكنه ذلك الطرك لوطنه من عظيم الحب والتقدير ، فهو لم يطلب أهلاً ولا مالا وإنما شربة من ماء وحفنة تراب من ثرى وطنه ليشمه ، فيشعر بارتباطه القوي بهذا التراب الذي التصق به زمناً ، وكان مهداً لتطوراته النفسية والفكرية .

وهذا الأسكندر المقدوني الذي جال في البلدان وغرب الأقاليم ، وأباد الخلق ، مرضي بعصرة باهل فلما أشفى على الموت أوصى وزراءه وحكامه أن يحطوا بجثته في تابوت من ذهب إلى بلده ليتزط بتراب وطنه . وهكذا لو استمررتنا في استقصاء الأم القديمة لوجدنا نماذج رائعة لحب الوطن ومكانته فسوى نفوس أبنائه ، ولكن المجال لا يتسع لذلك .

أما العرب فهم أمة شاعرة تميزت برفاهة الحس وتدفق العاطفة ، كما عرف عنهم الحب الشديد للوطن والشوق والحنين اليه في حالات البعد والفرق ولا أدل على ذلك من افتتاحهم لقصائدهم بذكر الديار الغابرة التي قطنوها في يوم من الأيام .

فالشاعر الذي يضطر إلى ترك **وطنه والتروح** عن داره ، تزدحم في نفسه أمواج الشوق والحنين والحزن ، ولكنه لا يسكبها دماً كغيره ، وإنما يترجمها إلى عمل فني صادق ينبع من قراره وجدانه فتحس حرارته حين تسممه أو حين تفرؤه ولو بعد مئات السنين .

(١) الأصفهاني ، المصدر السابق : ٦٢١/٤ . وساهور هو التاسخ ممن

ملوك الفرس الساسانية . انظر : الطبري : ٦٢/٢ .

(٢) رسائل الجاحظ : ٤٠٦/٢ .

(١)

انظر الى قول الأعرابي يحن الى وطنه منعج :

- ألم تعلني ياد ارمحاء أنسه * اذا أجدبت أو كان خصبا جنابها .
- أحب بلاد الله ما بين منعج * التي ولسى أن يصوب صحابها .
- بلاد بها حل الشباب تميمتي * وأول أرض من جلدى ترابها .

وهذا الحب للوطن الأول ، الذي كان مهذا لذكريات الطفولة والشباب

(٢)

صاغه أبو تمام :

- نقل فؤادك حيث شئت من المهوى * ما الحب الا للحييب الأول .
- كم منزل في الأرض يعشقه الفتى * وحنينه أبدا أول منزل .

ولعل قائلنا يقول : كيف نمت عاطفة الحنين الى الأوطان ، واشتدت فسى البادية العربية مع أنه لم يكن هناك للقبائل العربية ما يمكن أن نطلق عليه وطنا بمعنى السكن والاقامة الدائمة ؟ فالعرب - كما هو معلوم - كانوا رحلا ينتحجون مناطق عديدة سميا وراة الماء والكلاء . ولكنهم كانوا يقطنون فسى بعض المواضع حقبة من الزمن فيكون هذا المكان هو وطنهم ، ثم يضطرون الى تركه ، وقد خلفوا فيه ذكريات خالدة وأياما جميلة ، تثير في أنفسهم الحنين اليه كلما مروا به ، وخاصة عندما تطمس الآثار التي عهدوها فيه وتصبح رسوما وأطلالا ومن هنا جاءت سنة الوقوف بالأطلال وكاء الرسم ، والدعاء لها بالسقيا التي استمرت منها للشعر العربي قرونا طويلا .

(٣)

وقد أشار الى هذا ابن رشيق بقوله من العرب : " وكانوا أصحاب خيام ينتظون من موضع الى آخر ، فلذلك أول ماتبدأ أشعارهم بذكر الديار ، فتلك ديارهم .

(١) يا قوت العموى ، معجم البلدان : مادة (منعج) ومنعج واد لبني

أسد ، ومن أيام العرب يسمى يوم منعج وهو لبني يربوع بن حنظلة بن

تميم على كلاب .

(٢) ديوانه : ١٥٧/٣ .

(٣) الحمدة : ١٨٨/١ .

(١)

" كما أشار اليه - أيضا - الدكتور شوقي ضيف بقوله :

" وما يكا^١ الديار والأطلال الا الصورة الثابتة لهذا الحنين الذي نسا

معهم (أى العرب) على مر الزمن واختلاف المنازل والأمكنه . "

وإذا كان الشاعر البدوي يحن الى أطلاله ورسومه فان الشاعر الحضري

أشد حنيناً لكونه ألف واستقر وعرف قيمة الوطن . فلدينا شعراء من أهل

الحضر - في العصر الجاهلي - لهم شعر رقيق في الحنين لأوطانهم السحي

أرغموا على مفارقتها . يقول عمرو بن الحارث بن مضاء الأصغر في الحنين

(٢)

الى مكة :

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا * أنيس ولم يسمر بمكة سامر .

ولم يتربح واسطاً فجنوهه * الى السر من وادي الأراكة حاضر .

بلى نحن كنا أهلها فأبادننا * صروف الليالي والجدود الحواسر .

وكنا ولاة البيت من بعد نابت * نطوف بباب البيت والخير ظاهر .

فان تنثنى الدنيا علينا بحالها * فان لها حالا وفيها التشاجر .

فأخرجنا منها الطيبك بقدره * كذلك يالللناس تجرى المقادير .

الى أن يقول : فساحت دموع العين تبيكي لبلدة * بها حرم آمن وفيها المشاعر .

وتظهر لوعة الشاعر وحنينه الى أيامه السابقة التي أمضاها في ربوع وطنه

من خلال استرجاعه لسجل حياته الماضية ، ومقارنته بما آل اليه الآن من

الغربة والتشرد . فبينما كان في وطنه من السادة المجاورين لبيت الله بمكة

إذا به في دار غربة جائعاً يتهدده العدو فحق له أن تسح دموعه ، ويخفق

قلبه عند الذكرى .

(١) دراسات في الشعر العربي المعاصر : ٢٦٣ .

(٢) محمد ابراهيم حور ، الحنين الى الوطن في الأدب العربي : ١٤٦ .

ثم يأتي الاسلام فيؤكد هذه العاطفة ، ويجعل حب الوطن من الايمان
، كما يجعل الدفاع عنه : فرضاً على المسلم في بعض الأحوال .

وطقد كان المسلمون يحملون في قلوبهم حبا عظيما لوطنهم الأول مكة ،
على الرغم مما نالهم فيها من العذاب بأيدي المشركين فمجرد أن هاجسروا
منها ووصلوا الى المدينة ، حتى بلغ منهم الشوق كل مبلغ . فمن عائشة
(١)
رضي الله عنها - قالت : (لما قدم رسول الله - صلى الله عليه وسلم -

المدينة وعك أبو بكر بلال ، فدخلت طيها فقلت : يا أبت كيف تجدك ؟
وبالبل كيف تجدك ؟ قالت : فكان أبو بكر اذا أخذته الحمى يقول :
كل امرئ مصبح في أهله * والموت أدنى من شرك نعلته .

وكان بلال اذا أقبلت عنه الحمى يرفع عقيرته ويقول :

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة بيواد وحطى إذ خراً وجليل (٢)

وهل أردن يوماً مياه مجنة * وهل بيدون لى شامة وطفيل (٣)

قالت عائشة ، فجئت رسول الله فأخبرته فقال : اللهم حبب إلينا المدينة
كحبنا مكة أو أشد وصحبها ، وبارك لنا في صاعها ومدّها ، وانقل حماها
فاجعلها في الجحفة) .

فمن هذين البيتين نلاحظ مدى حب الوطن والارتباط به مهما نال الانسان
فيه من الصنت فبلال رضي الله عنه - تكون أمنيته الأخيرة أن يبيت ليلة فسى
بطاح مكة ليشم رائحة أمخوها الذكيه ، ويشاهد معالمها الخالدة . والرسول
عليه الصلاة والسلام - كان لا يهل عن أصحابه حيننا الى مكة ولولا أن أهلها

(١) صحيح البخاري : ٨٤ / ٥ ، ابن كثير ، البداية والنهاية : ٣ / ٢٢١ .

(٢) الانخر عشيشة طيبة الرائحة ، الجليل : نبات قصير لا يطول . انظر :

ابن الأثير ، النهاية في غريب الحديث : ٣٣ / ١ .

(٣) مجنة : موضع بأسفل مكة ، شامة وطفيل : جبلان . انظر معجم البلدان ،

المواد ، (مجنة) (شامة) ، (طفيل) .

(١)

أخرجوه منها ماخرج ، وفي الحديث : (وفد أصيل الغفاري على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قبل أن يضرب الحجاب ، فقالت له عائشة : كيف تركت مكة ؟ قال : تركتها وقد أخضرت جنباتها ، وأبيضت بطحاؤها ، وأعذق أذخرها ، وانتشر سلمها ، فقال النبي فيها يا أصيل دع القلوب تقر .) وفي رواية أخرى أنه قال : حسبك يا أصيل لا تحزني .

وإذا ما انتقلنا إلى حنين الشعراء نجد أنه يتخذ طابعا مميذا من حيث رهافة الشعور ودقة الاحساس ، فالشاعر عندما يعصف به الشوق يدفعه إلى تصوير ذلك الوطن بصورة تجعل منه جنة تحوى جميع الخيرات ومعانيس الجمال ، فترثته مسك وكافور وماؤه شهد أو خمر إلى غير ذلك مما يجعله يتمنى أن يستنشق هواه ، ويشرب مائه ويكحل بترابه . يقول الشاعر نهبان (٢)

المبشمى :

(٣)

يقربميني أن أرى من مكانه * نرى عقداً الأبرق المتقاسود .
(٤)
وأن أرى الماء الذي شربت به * سلمي وقد ملّ السرى كل واغد .
والصق أحشائي ببرد ترابها * وإن كان مخلوطاً بسم الأسود .

فقرة عين هذا الشاعر أن يلصق أحشائه بتراب وطنه ليشفي غلته بذلك

الاحتضان ولو كان فيه الهلاك .

(٥)

وهذا الشاعر أبو قطفينة الأموي كان يعيش في المدينة المنورة ، متطببا

-
- (١) المجلوني ، كشف الخفا ومزيل الألباس : ٤١٤ / ١ .
(٢) المبرد ، الكامل : ٣١ .
(٣) العقدة : المتراكم من الرمل ، اللسان (عقد) ، المتقاود : المستطيل على وجه الأرض . المصدر نفسه (قود) .
(٤) الوخذ سرعة السير للابل / انظر ، القالى ، الأمالى : ٦٣ / ١ .
(٥) هو عمرو بن الوليد بن عقبة بن أبي محيط القرشي ، شاعر رقيق الشعر جلس الممانى عاش في المدينة ، ومات قريبا من سنة سبعين للهجرة / الأغاني : ٤ / ١ وما بعدها . ابن قتيبة : عيون الأخبار : ٢٣٠ / ١ .

في نعمائها ثم يأمر ابن الزبير بنفيه الى الشام مع من نفى عندما أظن الخروج على بني أمية ، وخلع طاعة يزيد بن معاوية ، فشق الأمر على الشاعر ومزقبيه الشوق ، فقال في قوله ، عدة مقطوعات تذو بركة وصباية ، كانت احداها من المائه صوت التي اختارها صاحب الأغاني وذلك قوله :

(١)

القصر والنخل فالجما بينهما * أشهى الى القلب من أبواب جيرون .

ومما قاله في الحنين الى المدينة :

(٢)

ألا ليت شعري هل تغير بعدنا * جبوب المصلى أم كعهدى القرائن ؟

وهل أدور حول البلاط عواصر * من الحى أم هل بالمدينة ساكن ؟

إذا برقت نحو الحجاز سحابية * دعا الشوق منى برقتها المقياسن .

فلم أتركها رغبة عن بلادها * ولكنه ما قدر الله كائــــــــــــن .

أحن الى تلك الوجوه صباية * كأنى أسير في السلاسل راهــــن .

وله أيضا :

ألا ليت شعري هل تغير بعدنا * قباء وهل زال الحقيق وحاضره ؟

وهل برحت بطحاء قبر محمد * أراهط غر من قرينى تباكــــــــــــره ؟

لهم منتهى حبي وصفو مودتى * ومحنى الهوى منى وللمناس سائــــــــــــره .

ان هذه الأبيات تصدر عن عاطفة شفيها الوجد ، ونفس أضناها الحنــــــــــــين فالشاعر كلما طال مقامه في الشام زاد اشتياقه للمدينة ، فنراه يسبح فســــــــــــى

(١) الأغاني : ٨ / ١ ، القصر والنخل : مواضع بالمدينة لسعيد بن العاص واليهما من قهل معاوية ، جيرون : من أبواب دمشق / معجم البلدان (جيرون) .

(٢) القرائن : دور متلاصقة لسعيد بن العاص ، سميت بالقرائن لا قترانها معجم البلدان : (القرائن) .

(٣) البلاط : موضع بالمدينة مهبط بالحجارة بين المسجد النبوي وسوق المدينة / معجم البلدان " بلاط " .

شبه أحلام يقظة يناجى نفسه ومسائلها عن تلك المعالم التي كان يرتادها كقباء والمعيق والقرائن وغيرها ، وعن تلك الرفقة القرشية التي منحها خلاصة حبه ، هل هم كما كانوا أم تغير كل شيء بعده . ان البرق الخافق من صوب الحجاز يثير شجنه ويحرك فؤاده ، فيئن أنين الأسير من القيود والسلاسل .
ويقول أيضا :

(١)

- ليت شعري وأين منى ليست * أطلى الصهدين يلبن فبرام ؟
 أم كعهدى المعيق أم غيرته * بعدى الحادثات والأيام ؟
 وأهلنى بدلت عكا وخمسا * وهذا ما ، وأين منى جذام ؟
 وتبدلت من مساكن قومي * والقصور التي بها الأطمام .
 كل قصر مشمسيد نى أواس * يتفنى على ذراه الحممام .
 اقر منى السلام ان جئت قومي * وقليل لهم لدى السسلام .

ان الشاعر يعيش حالة من الاضطراب والقلق النفسى ، فكل شيء يألفه قد ذهب ، فيدل بأهله أقواما لا عهد له بصحبتهم من قبائل عك وجذام أنظار معاوية من أهل الشام ومساكنه بدل قصورا شامخة ، ولكنه يحاول أن ينسى هذا الواقع ويتجه بمشاعره نحو مغانبه الأوطى جبال المدينة ووديانها ، وكأنى بالشاعر قد يئس من العودة إليها ثانية ، ولهذا فهو يفتتح جميع مقطوعاته التي مرت بنا بالتمنى المشرب بالياس (ليت شعري) ، ثم نراه يرسل بسلامة من بعيد كوداع أخير لالقاء بمسده .

-
- (١) يلبن : جبل أو غدير قرب المدينة / معجم البلدان (يلبن)
 برام : جبل فى ديار بنى سليم عند الحرة من ناحية البقيع / المصدر نفسه (برام) .
 (٢) أواس : جمع آسية وهو الأساس أو الأصل . انظر : ابن واصيل :
 تجريد الأختات : ٢٢ / ١ .

(١)

ويروي أن ابن الزبير عندما سمع هذه الأبيات قال : " حن والله أبـو
قطيفة ، وعليه السلام ورحمة الله ، من لقيه فليخبره أنه آمن فليرجع . " وما كان
الخبر يطرق سمع شاعرنا حتى أخذ السير من فوره إلى الحديبية ليطوف جرة وجدده ،
ولكنه توفي قبل أن يصل إليها .

وهذا الامام الشافعي - رحمه الله - يحن إلى مسقط رأسه مدينته
غزة " على الرغم من أنه غادرها صغيرا ، وجمال في أقطار كثيرة وأصبح عظيما
من أعلام الفقه الاسلامي ، ومع ذلك بقي حبه لوطنه الأول مشتتلا لا يستطيع
(٢)
كتمانها . يقول :

واني لمشتاق إلى أرض غزة * وان خانني بعد التفرق كمانس
سقى الله أرضا لو ظفرت بتربها * كحلت به من شدة الشوق أجفانس
(٣)
ويقول ابن الرومي :

ولى وطن البيت أن لا أبيعـه * وأن لا أرى غيرى له الدهر مالكا
فقد ألفتـه النفس حتى كأنـه * لها جسد ان بان غودرت هالكا
وحبيب أوطان الرجال اليهم * مآرب قضاهـا الشباب هنالكا
اذا ذكروا أوطانهم ذكـرتهم * عهد الصبا فيها فحنوا لذلك
فهذه صورة جميلة لتعلق الشاعر بوطنه ، فهو ينظر إليه على أنه جسد
يحتضن روحه ، فالعلاقة علاقة عطف وامتزاج لا يمكن معه الانفكاك ، وكيف
لا ، والوطن سجل لحياة الشاعر منذ بدايتها ، ينظر في مخانيه فيذكـره
عهد الصبا ومآرب الشباب .

(١) الأغاني : ٣٠ / ١ .

(٢) معجم البلدان / (غزة) ، وغزة مدينة بفلسطين المحتلة تقع على
البحر المتوسط ، تشتهر بخصبها وكثرة مزارعها ، وفيها قبر هاشم
بن عبد مناف / الحميري ، الروض المعطار / (غزة) .
(٣) أسامة بن منقذ ، المنازل والديار : ٧ / ٢ .

(١) أما ابن أبي الجنوب فيقول في حنينه الى نجد وقد كان ببغداد :
سقى الله نجدا والسلام على نجد وياحبذا نجد على النأي والبعد
نظرت الى نجد وبغداد دونها لعلى أرى نجدا وهيهات من نجد
ونجد بها قوم هواهم زيارتى ولا شئ أحلى من زيارتهم عندي

والأبيات - كما هو ملاحظ - طائفة بالشوق العارم ، فالشاعر يكرر اسم
وطنه (نجد) في كل بيت مرة أو مرتين في وله يشبه هذيان المحموم .

وربما رحل بعض أهل البادية الى الحضر وأقام ماشاء هناك ورأى البيئـة
الحضرارية تختلف رقتها وتوفر متطلبات العيش الرغيد فيها عن خشونة البادية
وشظف عيشها ، ولكن لا يستهويه ذلك ولا ينسبه متاركة في البادية فيقول :-
(٣)

- لعمري لنهر الأحوان بحائل * ونهر الخزامى فى ألا * وعرفج .
- أحب الينا يا حميد بن مالك * من الورد والغنيرى ودهن البنفسج .
- وأكل يرابع وضب وأرنجب * أحب الينا من سمانسى ودرج .
- ونص القلائى الصهب تدمى أنوفها * يجين بنا ما بين قو ومنمـج .
- أحب الينا من سفين بدجلة * ودرب متى ما يظلم الليل يرتج .

(١) هو أبو السمط مروان بن يحيى بن مروان بن أبى حفصة ، وهو صـرف
بمروان الأصغر تميزا له عن جده الشاعر المشهور . كان أبو السمط
ينادم الخليفة المتوكل ويتقرب اليه بالطمع على العلويين ، ويقال
أن جده كان يهوديا وأسلم على يد عثمان رضى الله عنه - وهو مسن
الشعراء المشاهير الذين مدحوا عددا من الخلفاء العباسيين ، وتوفى
سنة ٢٤٠ هـ .

- انظر : / ابن قتيبة ، ٧٦٣/٢ ، طبقات ابن المحتر : ٣٩٢ .
- (٢) الطبرى ، تاريخ الأمم والطوك : ٦٨ / ١١ .
- (٣) معجم البلدان : (قو) ، وقو ، ومنمـج أسما ، أماكن بن الهماسة
وهجر .

فالعيش مهما طابت لذاته ، وتقلب الانسان فيه كيف ماشا في غير وطنه
لا بد أن يتذكر أنه في غريب الدار بعيد عن الأحباب فيأخذ الحنين والشوق
(١)
ورحم الله شوقي حين قال :

وطغى لوشفت بالخلد عنه * نازعتني اليه في الخلد نفسي
فانظر الى هذه الوطنية الصادقة ، والحب الكبير للوطن الذي يصدر من
قلب شاعر بعيد عن وطنه في المنفى ، ولكن البعد لا ينسى بل يزيد العاطفة
اشتمالا حتى انه لو كان في جنان الخلد - التي هي أعز أمل ومطلب -
لا شأقت نفسه الى تراب وطنه .

وهذا عهد الرحمن الداخل - صقر قريش - الذي فر من أعدائه العباسيين
وحيدا طريدا ثم عبر البحر الى الأندلس واستطاع بدهائه وحسن سياسته
أن يجند الأجناد ويحصر الأوصار ويقيم دولة ذات حضارة عظيمة تضاهي
حضارة المشرق ان لم تفقها ، رأى يوما نخلة فريدة في منية الرصافة بقرطبة
أول نزوله بها أميرا ، فهاجت شجنه وتذكر بلده في المشرف ففتت به هذه
(٢)
الآيات :-

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة * تنامت بأرض المغرب من وطن النخل
فقلت : شبيهي في التصرب والنوى وطول التناهي عن بني ومن أهلي
نشأت بأرض أنت فيها غريبة * فضلك في الأقطاب والمنتأى مثلني
سقتك فوادي المزن من صوبها الذي يسبح ويستمرى السماكين بالمرسل
فالأمير الداخل رغم عزه ومجده وترجمه على كوسى الطك بالأندلس
أهاجت وجده نخله لأنه رأى فيها ما يشبه حالته لأن الأندلس ليس ببلاد

(١) انظر الشوقيات : ٤٦/٢ .

(٢) أين الأبار ، الحلة السيرا : ٣٧/١ ، وأنظر أخبار الداخل في :

ابن عذاري ، البيان المصرب : ٤٠/٢ .

نخل لذلك نراه يحنو عليها ويدعولها بالسقيا ، وهكذا الشاعر ذو الماطفة
الرقيقة يحسن بتفاطله مع أجزاء الكون ويصنع طبيها صفات الاحياء لأنه يحس
أنها تشاركه حزنه وحنينه ، فاذا طلعت الشمس - مثلا - اعتبرها تعية أجزائها
وطنه البعيد اليه ، واذا هبت الريح نظمت اليه أخبار بلده وأهله واذا لمع
البرق وخفق خفق قلبه لأنه يشعر بأن البرق اشارة من وطنه تدعوه للمسودة .
(١)
وهكذا كان حال الشاعر أبي عبد الله التلمساني الذي فارق وطنه تلمسان
في بلاد المغرب الى غرناطة في الأندلس يقول :-

- سل الريح ان لم تسعد السفن آتوا * فعند صباحها من تلمسان أنبا .
وفي خفقان البرق منها اشارة * اليك بما تمنى اليها وايماء .
(٢)
تمر الليالي ليلة بعد ليلة * ولأذن اصفا * وللمين اكلاء .
وأهدى اليها كل يوم تحية * وفي رد اهداء التحية اهداء .
(٣)
وأستجلب النوم الفرار ومضجعي * قتاد كما شئت نواها وسلاء .
لعل خيالا من لدنها يصرّبو * فف مرّه بي من جوى الشوق ابراء .
واني لمشتاق اليها ومنبو * ببعض اشتياق لو تمكّن انبا .

(١) هو محمد بن عمر بن خميس التلمساني الحجري . كان يسبح وعنده
زهدا وانقباضا وأدبا ، عالما بالمعارف القديمة طيقة الوقت في الشعر وأقدر
الناس على اجتلاب الضريب . كان كاتباً لبني زيان طوك تلمسان ثم قعد
لاقراء العربية بحضرة غرناطة وكان كثير التجوال ، توفي قتيلاً بغرناطة
سنة ٧٠٨ هـ . أنظر : ابن الخطيب : الاحاطة في أخبار غرناطة :
٥٢٨/٢ ، المقري : نفع الطيب : ٣٦٢/٥ ، درة الحجال : ٢٧/٢ ،
الدرر الكامنه : ١١٣/٤ .
(٢) الاكلاء : ترديد البصر
(٣) السلاء : الشوك / انظر لسان العرب : مادة (كلاً) ، ومادة (سلاً) .

ان الشاعر قد برّح به الشوق وكأنى به قد يئس من رؤية بلده ثانية فلجأ الى طريقه أخرى هي استجلاب النوم أو التناوم وطوفى ذلك المضجع المطلق الذى كان مهاده الشوك . يفعل هذا لعل طيف بلاده يمر به فى هذه السنه فيخفف مرآة مابه من جوى الشوق وشدة الوجد . ولعل هذه الصورة البديعة تذكر ببيت مجنون ليلى :

(١)

وانى لأستنشى وماين نعسة * لعل خيالاً منك يلقى خيالياً .

ولعله من الجدير بالذكر هنا القول بأن حنين الأندلسيين جاء قوهنا وصادقاً ومتميزاً . ولا أريد أن أقارن بينهم وبين المشاركة فى هذا المقام لان لكل عاطفته ومؤثراته النفسية والبيئية . والذى يبدو أن الذى عمسّق احساسهم بالحنين والشوق هو كثرة رحيلهم وتجوّالهم داخل الأندلس نفسها أو خارجها الى بلاد بعيدة وراء الرزق والمعيش الأفضل ، وربما لمجرد الرحلة والاستجمام ، فهم فى حنين دائم الى حياة جميلة فارقوها ولذات متعددة عاشوها ، وقوم يهفو الطيب ويتوق لجالسهم والحديث معهم ،

(٢)

وأهم من ذلك طبيعة الأندلس الجميلة التى تأسر القلوب ، فهى كما قال الشاعر :-

أنهارها فضة والمسك تربتها * والخزروفتها ، والدّرر حصبا .
 وطلبوا بها لطف يرق بـه * من لا يرق وتبند ومنه أهـوا .
 ليس النسيم الذى يهفو بها سحرها * ولا انتشار لظى الطلّ أنداء .
 وانما أرح الندّ استثار بهـا * فى ما ورد فطابت منه أرجاء .
 وأين يبلغ منها ما أصفه * وكيف يحوى الذى حازته احصاء .
 قد ميزت من وجهات الأرض حين بدت * فريدة وتولى ميزها الماء .
 دارت عليها نطاقاً أبحر خفقت * وجدابها ان تبدت وهى حسناء .

(١) ابن قتيبة ، الشعر والشعراء : ٥٧٣ / ٢ .

(٢) الأبيات فى النفع : ٢١٠ / ١ . والشاعر هو ابن سفر الميرنى ولم أعثر

لذالك يبسم فيها الزهر من طرب * والطيير يشدو ولالأفغان اصفا .
فيها خلعت عذارى مابها عوش * فهي الرياض وكل الأرض صحرا .
فهي اذن جنة الدنيا حتى ان الهواء بها له تأثير على طباع البشر
فيجعل من قسوى قلبه يرق وتبدو صابته فمادما يستطيع الشاعر العظيم بحبها
اذن أن يحصى من مناقبها التي فاقت كل حصر ووصف ، انه لا يملك الا أن يفضلها
على جميع بقاع الدنيا ولا يرضى عنها بديلا أبدا وكيف يستبدل بالجنات
القفار والصحارى ؟ .

والملاحظ على شعر الأندلسيين أنهم يذكرون محاسن الأندلس كبلد واحد
وليس على شكل مدن وأما وهناك وصف آخر لجمال الأندلس وروعيتها لشاعر
(١)
الوصف المشهور في الأندلس ابن خفاجه حيث يقول :-

ان للجنة بالأندلس * مجتلى مرأى ورأى نفس
فسنا صبحتها من شنب * ودجو ظلمتها من لحن
فاذا ماهبت الريح صبا * صحت وأشوقني الى الأندلس

وهذا المعتمد بن عباد أشهر ملوك الطوائف بالأندلس كان عاملا على
(٢)
مدينة شلب أيام حكم أبيه المعتضد وهي مدينة جميلة فسيحة على مرمى البصر

(١) النفج : ١٢٠/١ ، ١١٠ ، شكيب أرسلان ، الحلل السندسية :
٢٤٣/١ .

(٢) شلب : مدينة أندلسية تقع جنوب مدينة باجة لها بسائط فسيحة وطائح
عريضة ولها جبل عظيم كثير المياه أكثر نباته شجر التفاح المجيب . يفتوح
منه روائح العود اذا أحرق ، والبحر منها في الغرب على بعد ثلاثة
أميال وهي مدينة حسنة الهيئة بديعة البناء مرتبة الأسواق وأهلها
عرب من اليمن وهم فصحاء يقولون الشعر ، انظر : الروى المعطار
ومعجم البلدان : (شلب) .

من المحيط الأطلنطي وكان قصر الشراجيب من معالمها وكانت للمعتمد فيها خلوات ولمهوات فهي مهد شبابيه وملتقى أحابيه ، ولما تولى الطك بعد أبيه عام واحد وستين وأربعمائة اختص بها أحب شعرائه اليه آنذاك أبا بكر بسن عمار عاملاً عليها متفقداً لأحوالها فلما وردّه عن أهاجته الذكرى وطلبه الشوق

(٢)

فأرسل التحية الى شلب مع واليهما الجديد يقول :

ألا هي أو طانى بشلب أبا بكر * وسلمن : هل عهد الوصال كما أدري ؟
وسلم على قصر الشراجيب من فتى * له أبدا شوق الى ذلك القصر .
منازل آسان وبيض نواعس * فناهيك من غيل وناهيك من خدر .
ليال بسد النهر لبوا قطعتهما * بذات سوار مثل منعطف البدر .
فرغم أن المعتمد أصبح ملك اشبيلية التي هى أجمل المدن الأندلسية وأهمها فانه لم ينس المدينة التي جرت فيها أفراس صباه وما خلف فيها مسن ذكريات جادة ولا هيه فبعت اليها أحب الرجال اليه حبا لها ووفاء بعهدها .
ومما يثير العجب حقا من مقدار ما يبلغ الشوق والحنين بالانسان نفي الشعور الشفاف ، ما يرويه ابن بشكوال عن الشيخ أبي بكر بن سعادة أنه دخل مدينة طليطلة مع أخيه على الشيخ الأستاذ أبي بكر المخزومي قال : فسألنا مسن آين فقلنا : من قرطبه ، فقال : متى عهدكما بها ؟ فقلنا : الآن وصلنا

(١) يقول فيه الفتح بن خاقان : وقصر الشراجيب هذا متناه فى البيها

والاشراف مياه لزورا العراق ركضت فيه جياذ راحاته وأومضت ، بسبروق

أمانيه فى ساحاته . . . الخ . قلائد الحقيان : ٣٦ .

(٢) عنان ، تراجم اسلامية : ٢٨٣ ، الطاهر أحمد مكى ، دراسات أندلسية

: ٢٣٢ - ٢٣٣ ، بلنشيا ، تاريخ الفكر الأندلسى : ٤٠ .

منها ، فقال : قربا الى أشم نسيم قرطابه ، ففرينا منه ، فشم رأسى وقبلته ،
(١)
وقال لى اكتب :-

- أقرطبة الفراء هل لى آمنة * اليك وهل يدنولنا ذلك الصيد .
- سقى الجانب الغربى منك غمامة * وقعق فى ساحات دوحاتك الرعد .
- لياليك أسحار وأرضك روضة * وتربك فى استنشاقها عنبر ورد .

وممن شاقه الحنين الى قرطبة أيضا أبو الوليد ابن زيدون فقد نشأ لها
محبا لما ناله فيها من سعادة ومكانة فقد كان وزيرا لأبى الحزم ابن جهور
فعاث فى رغد وخفض وقد كان على علاقة حب وغرام مع ولادة بنت المستكفى
الأدبية المشهورة فى تاريخ الأندلس ، وكانت هذه الحبيبة مصدر الهامه
الشعرى مما جعله ينفث بفرر القصائد ، ولكن سرعان ما قلب الدهر له ظهر
المجن بدسائس الوشاه فاتهم بتآمره على أميره مما اضطره الى الهرب الى
اسبيلية ، وفى الطريق صادق حلول عيد الأضحى " فتأربه الوجد بين كنان
يألفه والخرام ، وتراى لعينيه تلك الظباء الاوانس والارام " ، فذكر أعياده
(٢)
بها ومتقلب نزهاته ، فمضى يسترجعها مهبطا وراء آخر قافلا :

- خليلى لا فطر يسر ولا أضحى * فما حال من أسى مشوقا كما أضحى .
- لئن شاقنى شرق العقاب فلم أزل * أضحى بمخصوص الهوى ذلك السفحا .
- وما نفك جوفى الرصافة مشعري * دواعى بث تعقب الأسف الجرحا .
- ويهتاج قصر الفارسي صبابسة * لظبى لا يألوزناد الاسى قدحا .
- وأيام وصل بالعقيق اقتضيتته * فان لم يكن ميعاده العيد فالفصحا .

(١) المراكشى ، الذيل والتكلمه : ١١٦/١ .

(٢) ابن بسام ، الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ، القسم الأول ، ١ .

• الجزء الأول : ٤٢٣ .

معاهد لذات وأوطان صبوة * أجلت المعلقى فى الأمانى بها قدحا
الاهل الى الزهراء أمة ناسخ * تقضى تنائىها مدا معة نزعها
مقاصير ملك أشرفت جنباتها * فخلنا المشايا الجون أثناءها صباحا
محل ارتياح يذكر الخلد طيبه * اذا عزّ أن يصدى الفتى فيه أويضو

انها دعة محزون ونفثة مصدر من نفس أرقها الشوق الى الوطن (قرطبه)
وما يتبعها من أماكن كان له فيها أيام وصل وأيام عز أثناء ثقبه فى مقاصير
الملك ، ويتساءل فى شئ من الارتياح هل من الممكن أن تكون هناك أوسمة
الى ذلك البلد الذى يذكره بجنة الخلد ، حيث كان لا يظما فيها ولا يضحى .
ولعلنا نلاحظ فى هذا المجال نزعة الغلو عند الشعراء فكل منهم
يحاول أن يجعل من بلده أو وطنه مثلا أعلى للجمال والحسن ، فهـم
يشبهونه بالجنة ، وترابه بالمسك والعنبر وأنهاره بالفضة وغير ذلك كما أن
الشاعر عند مقارنة وطنه بالبلاذ الأخرى يجعل بلاد رياء ونعيما بينما
البلاذ الأخرى صحراء جرداء ، وهو فى هذا إنما يصدر عن العاطفة المشبوهة
المفعمة بحب الوطن ، وهذا موجود عند الأندلسيين والمشاركة الا أنه عند

الأندلسيين أقوى وأظهر .

(٢)

(١)

انظر الى قول البهاء زهير فى حبه لموطنه مصر :

(١) ولد سنة ٥٨١ هـ بمكة المكرمة ولكنه غادرها صبيا الى قوص حيث نشأ
وتعلم على علمائها ومكث فترة فى خدمة أميرها ثم رحل الى القاهرة
حيث التحق بخدمة الملك مسعود بن الكامل ثم بالصالح نجم الدين
وتولى له ديوان الانشاء وكان يحب مصر حبا جما توفى سنة

٦٥٦ هـ . أنظر ديوانه : ١٨٨ .

(٢) المصدر نفسه ، محمد زطول سلام ، الأدب فى العصر الأيوبي : ٢٥٢ .

- وكم رأيت عيني بلاداً كثيرة * فلم أرفيها مايسراً ومايرضى
- ولم أرمضوا مثل مصر تروقني * ولا مثل ما فيها من العيش والخفض
- وبعد بلادى ، فالبلاد جميعها * سواء فلا أختار بعضها على بعض .
(١)
ويقول أيضا :

- * من الغيث هطال الشايب هتان سقى واديا بين العريش وهرقة
- * هناك أوطانا اذا قيل أوطان وحيا النسيم الرطب عنى اذا سرى
- * لعينك منها كل ماشئت رضوان بلاد متى ماجئتها جئت جنسة
- * وحصباها مسك يفوح وعقبان تمثل لى الأشواق أن ترابها
- * بأنى مالى عنكم الدهر سسلوان فياساكنى مصرأ تراكم علمتتم
- * ومن أين فيه وهو بالشوق ملآن ومافى فؤادى موضع لسواكم
- * فتمهدأ أحشاء وترقأ أجفان عسى الله يبارى شقة البعد بيننا
- * وعندى على رأى التصوف شكران على بذاك اليوم صوم نذرتكه

ورغم الذى ذكره وتغنى به اليها زهير من جمال مصر وتفضيله اياها على كثير من البلدان التى رآها ولم يجد فيها مايرضى ولا يسرفان ابن سعيد (٢) الأندلسى عندما رحل اليها - وكان قد سمع عنها الشئ الكثير - لم يجد فيها

(١) الديوان : ٣٤٦ .
(٢) هو على بن موسى بن عبد الملك بن سعيد ، صاحب كتاب " المشرب فى حلى المغرب " أديب ومؤرخ مشهور عرف بكثرة الترحال وسعة الأفق توفى سنة ٦٨٥ هـ .
انظر : المغرب : ١٧٢/٢ - ١٧٣ ، الاحاطة : ٢٨٣/٢ .

(١)

بغيتته ولم ترقه فاشتاق الى الأندلس وأيامه بها فقال :

هذه مصر ، فأين المغرب * فقد نأى عنى دموعى تسكيب
فارقته النفس جهلاً انمسا * يعرف الشئ إذا ما يذهـب
أين حمص ؟ أين أيامى بها * بعدها لم ألق شيئاً يعجب
كم تقضى لى بها من لـذة * حيث للنهر خريـر مطـرب
وحمام الأيك تشدو وحولنا * والمثاني فى ذراها تصخب
أى عيش قد قطعناه بها * ذكره من كل نعمى أطيب
ولكم بالمرج لى من لـذة * بعدها ما العيش عندى يحسب
والنواعير التى تذكـارها * بالنوى عن مهجتي لا يسكب
بلدة طابت درب غافـر * ليتنى ما زلت فيها أنـسب
أين حسن النيل من نهر بها * كل نعمات لديـه تلـسب
الى أن يقول :

هذه حالى وأما حالـتى * فى ذرى مصر ففكـر متعب
أسمعت أننى محالا ليتها * لم تصدق وحبها من يكذب
وكذا الشئ إذا غاب انتهوا * فيه وصفاكى يميل الخيب
ها أنا فيها فريد مهمـل * وكلامى ولسانـى محـسب
وأرى الألفاظ تنبوعندما * أكتب الطرس ، أفيه عقـرب ؟

فابن سعيد فى هذه الأبيات يعرض لنا حياته السابقة فى الأندلس حيث الطبيعة الجذابة من مروج تشدو وأطيـارها ومطاح تجرى أنهارها ، تلك الأنهار التى بطربه خريـرها وشتان بينها وبين نيل مصر فهو لا يكاد يذكر إذا ما ذكرت جمالها ورقتها ، أما حالته فى مصر فيرشى لها فهو فيها مهمل لا يؤبه لـه

(١) بلنينا ، تاريخ الفكر الأندلسى : ١٢٦ - ١٢٧ .

(٢) حمص : قصد بها اشبيلية ، لأنها كانت تسمى بذلك من أيام بنى أمية .

بالرغم كونه منزه الكلام واللسان فهو أديب شاعر وكاتب تاريخ مشهور ، وربما ظن أن يقال شهرة عريضة في مصر ، ولكن لكونه غريبا لم يقبل عليه أحد أو يأخذ عنه ، حتى تمنى أنه لم يرحل عن بلده وإن كانت ذنبه تزداد كل يوم لأنه في " بلدة طيبة قرب غفور " وهناك كاتب وشاعر أندلسي آخر موبنفس للتجربة حيث ارتحل الى الشرق فجال في العراق وأقام في حلب بالشام ، وذلك عندما نبت به بلده قرطبة عند تقلب نولها وتحول ملكوها ، وذلك فسو عصر ملوك الطوائف في القرن الخامس الهجري والشاعر هو : أبو بكر محسن (١)

بن القاسم الطقب " اشكبهاده " يقول :

أين أقصى الغرب من أرض حبيب * أمل في الغرب موصول التمسب
 عن من شوق الى أوطانه * من جفاه صبره لما اغترب
 جال في الأرض لجاجا حائرا * بين شوق وهنسا ونصب
 كل من يلقاه لا يعرفه * ستفثشا بين عجم وهرب
 لهف نفسي أين هاتيك الملا * وأضاعاه هاغبين الحسب
 والذي قد كان ذخرا ونبه * أرتجى المال وادراك المرتب
 صار لي أبهى ما أعدت * بين قوم مادروا طعم الأرب
 يا أحيائي اسموا بعض السدى * يتلقاه الطريد المفترب
 ما يكن زجوا لكم عن غربة * يرجع الرأس لديها كالذنب

(١) من أهل وادي الحجارة يعرف باشكبهاده وهي تعنى بلسان أهل الأندلس " ما هذا " جال في الشرق ثم رجع الى الأندلس وحل بحضرة دانيه عند ملكها مجاهد العامري ونال من بلوغ الآمال ما ليس ظهره مزيد . انظر النفح : ٢٩٨ / ٢ ، تحقيق محى الدين عبد الحميد ، ابن سعيده ، المغرب في حلى المغرب : ٣١ / ٢ ، الذخيرة : القسم الأول ، ج ١ ، ص ٢٣٠ .

ان القارئ لهذه الأبيات يشعر فعلا بالمرارة التي كانت تنطق نفس الشاعر
الغريب فهو يمشى في الأرض مستوحشا حائرا فاقد الصبر من شدة الغربة
وشدة الشوق الى الوطن فهو يعيش بين هاتين النارين ، وسبب ذلك أنه
ضاع قدره في هذا المجتمع الذي لا يعرفه وكسدت بضاعته من شعر ونثر تلك
البضاعة التي جاء يعرضها في الشرق ليكسب فيها الأموال وادراك الرتب
لذا نراه يوجه نصيحة لأهائه من الأندلسيين بأن لا يفكروا في الغربة السني
تضيع الحساب والكرامة وهذا كقول القائل : "عسرك في دارك أعزلك من يسرك
(١)
في غربتك " .

وقد يطرد بعض الناس من أوطانهم لسبب من الأسباب فيبتسم له الحظ
بوجد راحة وكراما وأمانا - وخاصة اذا كان ملكا أو أميرا - ولكن هذه النعم
التي يتقلب فيها لا يشعر بطعمها ، وهي لا تساوي عنده جليصة واحدة فسي
ذرى وطنه ومع أحبائه . وهذا ما حصل مع الأمير الفرناطي ابن الأحمر حين
أخرجه بنوهم من ملوك بني الأحمر النصريين خوفا على سلطانهم منه " وذلك
لأجل واثق مردود ومطلق بذلك غير ودود ، يظهر لهم النصيحة حاليسه
مخوفهم ما وقع في الأيام الخالية " فيخرج الى بر العروة عند

(١) البيهقي ، المحاسن والمساوي : (١/٤٩٠) .
(٢) هو اسماعيل بن يوسف بن محمد بن أبي سعيد المدعوب بالأحمر ، ولد
بفرناتة سنة ٧٢٥ هـ ، وكان الفرع الذي ينتس اليه هذا الأمير قد
اضطرب بسبب الخلاف حول الملك فاصطدم اسماعيل بن فرج (خامس
ملوك بني الأحمر) بهذا المذكور ووالده وأخيه ففروا الى فاس بالمغرب
انظر ترجمته : ابن القاضى المكاسي ، جذوة الاقتباس : (١/١٦٦) .
محمد بن مخلوف ، شجرة النمر الزكية : ٢٣٨ ، ابن القاضى ، درة
الحجال : (١/٢١٣) .

ملوك المغرب وقد أمطروا علينا سحاب كرمهم ، وحسنت الأحوال ، وذهبت
الأهوال ، وطاب المقام ، ونجم الأمن واستقام ومع ذلك اشتاق الى وطنه
(١)
فقال :

فؤادى يشتكى داءً دفيناً * لبعدى عن مزار الظاعنينى
وأكبادى من الأشواق ذابت * ووجدى بعد هم ألف الشجونى
ورب البيت لا أنس هواهم * وكيف ؟ وهم بظهى ساكنونى
لمضى ما التوى إلا عذاب * وأنى قد بليت به سنينى
يهيج زفرتى تذكار أرضى * وبفجسى يستهفون الجنونى
حنينى ما حبيت لها عظيم * وما بسوى محبتها بلينى
فما صبر وان بعدت بيباق * كذا سنن الكرام الماجدينى
وما مراد نفسى كان عنهما * بما دى ، لا ورب العالمينى

ومعد هذا قال " فلولا أن هدر الملوك بنوعى بوطى لى لسرت اليه
(٢)
على رأسى لاطى قدسى " ، ومعد ، فمن خلال هذه الأمثلة التى قدمناها
- وماهى الا قطرة من بحر شعر الحنين الى الأوطان - يتضح لنا مدى
ما للوطن من عظيم حب فى نفوس أبنائه ولا سيما الشعراء منهم فهم اللسان
الناطق المعبر عن العاطفة الجياشة بالحب والحنين لتراب الوطن ، وقد
يتفنى الشاعر بوصف بلاده ويمجدها أشد التمجيد ، الا أنه عندما يفترب
عنها يزيد حبه بشدة فى نفسه وتستهميه مغانبها ويبدأ بتذكر أيام الشباب
والطفولة السعيدة فتثور نفسه وتشرب فتجود قريحته عنده إذ يتصاعد فى منتهى
الرقة والجمال تقطر بالأسى وصدق العاطفة بعيدة عن التكلف وتعمد الزخرفة

(١) اسماعيل ابن الأحمر ، تثير انجمان فى شعر من نظمى وایاه الزمان

• ٢٥ :

(٢) المصدر نفسه : ٢٦ •

اللفظية والمحسنات المعنوية لأن المجال لا يسمح بذلك فالشاعر في حالته
أشواق شائره وحنين مطلق وهو يحاول أن ينفس عما يجده من طويق الشمس
كما ينفس المحزون عن نفسه بالبكاء والسرور عن فرجه بالضحك . . . وهكذا .

وإذا كان الشاعر يفعل هذا إذا كان في غربة قد تطول مدتها وقصد
تقصر فيعود الى وطنه وتهبأ نفسه وتطمئن ، فما بالك بالشاعر ذي العاطفة
الرقيقة الذي يكون شاهدا على نكبة بلده واحتلالها من قبل الأعداء
وتدمير حضارتها ، وآمال أهلها . لاشك أن النكبة ستطك عليه نفسه
وجوانحه وتؤثر عليه سلبا وإيجابا فينطلق بقصائد أقوى عاطفة وتأثيرا فسى
السامعين من شعر الحنين . وهذا ما نراه في الفصول التالية ان شاء
الله تعالى

الباب الأول

رثا الدول والأمصار في المشرق

الفصل الأول

رثاء الدول والأمصارع في العصر الجاهلي

الرثاء فن من الفنون الشعرية الجميلة ، يجمع بين روعة الخيال وعمسق
العاطفة وحرارة المشاعر ممزوجة بجلال الحقيقة وصدق الواقع . فالشاعر
المبدع عندما يعيش تجربة الحزن والأسى ، تتحول دموعه ولوعته الى صور
بيانية ذات روعة شجية تنطبع في نفس السامع أو القارئ تاركة أثرا عميقا .

ولعل صدق المشاعر هذا ، وانتفاها أي غرض أو منفعة من وراء القصيدة
هو الذي جعل الرثاء أشرف أغراض الشعر عند العرب .

وإذا كان رثاء الأشخاص بشكل عام يجعل هذه المنزلة الرفيعة - لأنه
هو الخائب - فما بالك برثاء أعظم وأشمل ، ذلك هو رثاء الدول والأوطان
التي عاشت حيناً من الدهر وازدهرت ، ونعم أهلها في ظلالها ، ثم
طارت يد الحدثان ، فأودت بها بشكل أو بآخر .

لا شك أن العواطف ستتدفق وتنتج شعرا فياضا بالأسف والحزن يعسر
عن مشاعر الجماهير المصابة وينطق بلسانها . فهل كان في العصر الجاهلي
الذي لم يعرف العرب فيه الاستقرار في الحواضر شيئا من هذا النوع ؟ هذا
ما سنعرفه في هذا الفصل ان شاء الله .

(١)

ان أول نص نجد في العهد الجاهلي هو قصيدة الشاعر يعرف بذي جـدن

(١) لم أجد له ترجمة تفصيلية ، ولكن السهيلي يذكر أنه لقب بذي جـدن
لحسن صوته ، والجدن الصوت بلغتهم ، وهو أول من غنى في اليمن
انظر : الروض الأنف : ٢٢٨ / ١ .

الحميري يروى فيها دولة قومه الحميريين في اليمن والتي دمرت على يــــد
(١)
الأعباش وهدمت حصونها وقصورها التي لم يكن في الناس مثلها كضمــــدان
وسلحين وغيرها يقول :

هونك ليس يرد الدمع مافاتا * لا تهلكي أسفا في ذكر من ماتا
(٢)
أبعد بينون لا عين ولا أثر * وعد سلحين بيني الناس أبياتا
ويقول أيضا :

دعيني لا أبالك لن تطيقسى * لحاك الله قد أنزفت ريقسى
لدى عرق القيان اذا انتشينا * واذا نسق من الخمر الرحيق
وشرب الخمر ليس على عارا * اذا لم يشكني فيها رفيقسى
(٣)
فان الموت لا ينهاه نساءه * ولو شرب الشفاء مع النشوق
(٤)
ولا مترهب في أسطوان * يناطح جدره بيني الأنوق

(١) تم ذلك عندما أغار ذو نواس ملك حمير - وكان يهوديا - على أهل نجران
- النصراني - وقتل منهم مقتلة عظيمة لعدم قبولهم اليهودية ، وأقلست
منهم رجل يقال له " دوس ثعلبان " وذهب الى قيصر الروم يستجد به
لكن قيصر لم يستطع امداده بالجنود لبعده الشقة ، فكتب الى ملك
الحبشة بذلك ، وكان نصرانيا ، فبعث هذا سبعين ألف مقاتل من
الأعباش بقيادة أرياط ، وأمره أن يقتل ثلث رجال حمير ، ويخرب
ثلث بلادهم ، ويسبي ثلث نساءهم وأبنائهم ، ففعل ذلك وأكسب
ولم يطلق ذو نواس ذلك فانتحرب بالقاء نفسه في البحر / انظر ، الطبري
: ١٢٦/٢ .

(٢) بينون وسلحين : من حصون اليمن العظيمة للملوك التابعة / معجم
البلدان : (بينون) ، (سلحين) .
(٣) النشوق : ما يشم عن طريق الأنف / اللسان (نشق) .
(٤) الأنوق : الرخم ، ويقال في المثل لما لا يوجد : أعز من بيني الأنوق .

(١)

- وغمدان الذي حدثت عنده * بنوه مسكاً في رأس نبيق
(٢)
بمنهمة وأسفله جروب * وحر الموحل اللثق الزليق
مصابيح السليط تلوح فيه * اذا يمسى كتوماً السجوق
ونخلته التي غرست اليه * يكاد اليسر يهصر بالعسندوق
فأصبح بعد جدته رمادا * وغير حسنه لهب الحريق
وأسلم ذو نواس مستميتاً * وحذر قومه ضنك المضيق

والشاعر يبدأ قصيدته على نسق عمود الشعر القديم حيث يزجر صاحبه
التي أفرطت في لومه على تهالكه على شرب الخمر وسماع القيان ، ليمهد
بذلك لذكر الفناء الذي يلحق كل شيء على هذه الأرض مهما بلغ من القوة
والمنعة ، فهذا قصر غمدان مقر طوك اليمن العظام ، الذي كان مضرب المثل
في الجلال ومثانة البناء يهوى صريعاً بفعل الهدم والحرق ويفر عنه
صاحبه ذو نواس الى غير رجعة ، ويسلم رعيته للقتل والأسر .

والقصيدة لا يبدو فيها احساس أو تأثير بالحدث نفسه الذي أودى بال دولة
وان كانت لا تخلو من نغمة أسى لاستشعارها الفناء الشامل الأكيد .

(١) غمدان : قصر باليمن بنى على أربعة ألوان ، وله سبعة سقوف بسين

كل سقوف منها أربعون ذراعاً وفي أعلاه مجلس مني بالرخام الطيبون
وعلى كل ركن من أركانه تمثال أسد ، وكانت تسج فيه المصابيح ليلاً
فيلمع من ظاهره كالبرق ، هدم آخر الأمر أيام عثمان بن عفان رضي الله
عنه وقيل : ان سليمان عليه السلام - أمر الشياطين فبنوا في صنعاء -
لهلقيم - ثلاثة قصور هي غمدان وسينون وسلحين / معجم البلدان /
(غمدان) .

(٢) اللثق الزليق : اختلاط التراب بالماء ، المنهمة : موضع الرهبان ،
جروب : حجارة سوداء / اعطى القصيدة ومعانيها في : ابن هشام ،
السيرة النبوية : ١ / ٣١ - ٣٣ .

وممن رثى دولة حمير - أيضا - حين دمرها الأعباش الشاعر المسمى بابن
(١)
الذئبية يقول :

- لعمر ك ماللفتى من مفسر * مع الموت يدعقه والكبر
- لعمر ك ماللفتى صحرة * لعمر ك ما ان له من وزن (٢)
- أبعد قهائل من حمير * أثوا ذا صباح بذات العبر
- بألف ألف وحرابسة * كمثل السماء قبيل المطر
- يصم صياحهم المقربات * وينفون من قاتلوا بالزمر (٣)
- سمالي كمثل عديد الترا * بيبس منهم رطاب الشجر

وفى هذه الأبيات نجد تقريبا - المعانى نفسها التى مرت فى القصيدة
السابقة الا أنها أكثر تفصيلا للحادث ، وأشد عاطفة ، فبعد أن يؤكد
الشاعر على النهاية الحتمية لى عن طريق التكرار الذى ينبىء عن جو
حزين يعيشه الشاعر ويريد اشاعته بعد ذلك يصف لنا الالاف المؤلفه من
جيش الأعباش التى انهالت على الحميريين ويرسم لهم صورة مرعبة يستشف منها
النتيجة التى حصلت بالفعل . فهم سمالي يزحفون على الأخضر واليابس
ولهم عجب عجب وضجيج يصم الاذان .

(١) هوربيمة بن عبد ياليل بن سالم بن جشم بن قصى ، والذئبية
اسم أمه / انظر : السيرة النبوية : ٣١ / ١ ، البكرى ، سمط الالكسى
٧٦٢ / ٢ .

(٢) صحرة : متسع ، الصحاح (صحر)
وزن : طجا ، المصدر نفسه (وزن) .
(٣) المقربات : الخيل المعتاق التى تربط قريبا من البيوت ، وتكون معدة
للحرب . الصحاح (قرب) .
الزمر : الجماعات / اللسان (زمر) .

ويقول الأعشى في رثاء قصر ريمان الفخم الذي بناه تبع اليمن وزخرفه

(١)

ثم دمر على يد الأحباش والفرس الذين تعاقبوا على اليمن قبل الاسلام :

- يامن يري ريمان أمسه * سي خاوما خربا كعابه
أمسى الثعالب أهله * بعد الذين هم مآبسه
من سوقة حكيم ، ومن * ملك يعد له ثوابسه
بكرت عليه الفرس بعد * د الحبش حتى هدّ بابسه
فتراه مهديم الأعسا * لي ، وهو مسحول ترابسه
ولقد أراه بغبطة * في العيش مخضرا جنابسه
فغوى ومامن ذي شبا * ب دائم أبدا شبابسه

فالأعشى يري قصرًا لم يمش في فناءه ولم تربطه به روابط وثيقة وذكريات
قديمة وإنما قد يكون عاج عليه لغرض من أغراض الشعراء ، ثم زاره تارة أخرى
ف رأى ما حل به من التدمير ، أو ربما سمع عن خرابه فقال في رثائه تلك الأبيات
ولهذا لا نرى عاطفة قوية مشبوبة بالحزن ، وإنما الأبيات تجري مجرى الحكمة
والدعوة إلى التدبر في تغليات الأيام ، فهذا القصر الشامخ أمسى أطلالا
تسكته الثعالب بعد أن غدا مهديم الأعلى والأسافل ، ويختتم أبياته بتسلك
الحكمة التي تشير إلى سنة الحياة في التفسير الدائم لكل ما عليها .

(٢)

ومن الشعر الذي يري القصور والمنازل بصفة عامة قول رجل من كندة :

(٣)

- أولم ترى ريدان أسلم أهله * وأتى الحوادث رأس قلة معنق .
وعد أن عاد اثم عدن عليهم * وشمود أجساد بهمضية أغلغ .

(١) ديوانه : ٢١ - ٢٢ .

(٢) القصيدة بتناسها في : البحري ، الحماسة : ١١٥ - ١١٦ .

(٣) ريدان : بلد باليمن وهو قصر ملكة ظفار / الحميري ، الروض المعطار

: (ريدان) .

- فأرى المشقر كان يحرس بابسه * ألف وألف من يرمه يخلق . (١)
ثبت اذا طاف العدو وبيابسه * نصلت معاولة وليس بمرتقى .
وأصبن أبرهة الذي سجدت له * صم الفيول صوامتا لم تنطسق .
والأسد مسكة على أبوابسه * فاذا الطوك تحزوا لم يفسرق .
وأصبن كسرى وابن كسرى بعده * والمرء قيصر وأنتحين لسورق . (٢)
وأصبن نوحا بعدما بلفت به * أفق البلاد سفينة لم تفسرق .
ويقول عدى بن زيد العبادى فى رثاء الممالك الزائلة :
أيها الشامت الممسير بالده * رأأت المبرأ الموفور .
أم لديك العهد الوثيق من ال * أيام أم أنت جاهل مفور .
من رأيت المنون خلدن أم من * ذأ عليه من أن يضام خفير .
أين كسرى كسرى الطوك أبوسا * سان أم أين قبلة سابور .
وينو الأصفر الكرام ملوك السر * وم لم يبق منهم مذكور .

(١) المشقر : قصر عظيم بالبحرين ، وقيل هو مدينة عظيمة فى وسطها
قلعة / المصدر نفسه (المشقر) .

(٢) مورق : موضع به بلاد فارس / المصدر السابق (مورق) .

(٣) هو عدى بن يزيد بن حماد التميمى العبادى ، من أهل الحيرة ،

شاعر مجيد ، وكان يحسن العربية والفارسية وهو أول من كتب بالعربية

فى ديوان كسرى أنوشروان . توفى مقتولا سنة ٣٥ قبل الهجرة طسسى

يد النعمان بن المنذر انظر / ابن الأثير : اللباب : ٣١١ / ٢ ، الأغاني

٢٧ / ٢ .

(٤) ابن قتيبة ، الشعر والشعراء : ٢٢٥ - ٢٢٦ .

- وأخو الحضرة ان بناه وان رجـ * لة تجبى اليه والخابور . (١)
شاده مرمرا وجلله كلـ * سا فللطير فو ذراه وكور .
وتبين رب الخورنق ان أشـ * رف يوما وللمدى تفكير . (٢)
سرة حاله وكثرة مايـ * لك والبحر معرضا والسدير . (٣)
فارعوى ظبه فقال : وماغـ * طة حى الى المات يصير .
ثم بعد الفلاح والطق والـ * امة وارتمهم هناك قبور . (٤)
ثم أضحوا كأنهم ورق جفـ * ف فألوت بها الصبا والدبور .

ان هاتين القصيدتين تسيران على نمط واحد هو الحديث عن مصف
الدهر ، واطاحته بالأمم منذ عهد نوح - عليه السلام - مروراً بقوم عاد ثم
ثمود أهل القوة والمنعة ثم الأعباش والفرس والروم . . . الخ وكيف أصبح
جميعهم أحاديث وعبر وهضرب لنا الشاعر العبادى مثلاً لهوان الدنيا بالملك
النعمان بن المنذر صاحب قصر الخورنق المشهور ، إذ أتتهما اجتمعت لذات
الدنيا لديه أنعم فيها النظر ببصيره فرآها زائلة لا دوام لها ، ولا تأتي سعادة
الا ويعقبها نكد وشقاء ، فترك القصور ، وخلع حلد الطك ، ولبس مسسوح
(٥)
الرهبان والزهاد ، وساح فى الأرض .

-
- (١) أخو الحضرة : صاحبه ، والحضرة مدينة بناها الساطرون الجرمقى على
نهر الثرثار بين دجلة والزاب انظر / الروض العطار (حضر) .
الخابور : نهر شرق دجلة يصل بينه وبين الرقة / المصدر نفسه
(الخابور) .
(٢) الخورنق : قصر للنعمان بن المنذر بالحيرة .
(٣) السدير : قصر قريب من الخورنق ، وقيل نهر بناحية الحيرة / انظر
حماسة البحتري : ١٢٢ .
(٤) الامة بكسر الهمزة : النعمة وفضارة العيش / الصحاح . (أمم) .
(٥) المقدسى ، البدء والتاريخ : ١٤٤ / ٣ .

ولعله من الملاحظ اثار المبادئ من الحديث عن الفرس وحلفائهم

المناذره بشكل خاص وذلك لعيشه في الحيرة ومخالفاته لهم عن قرب .

(١)

والواقع أن لدينا قصائد كثيرة تشير على هذا النهج فتذكر الفرس والسرور

ومن دار في فلهم وتشيد بعزهم وسلطانهم ، بينما لا نجد ذكرا لقبائل

(٢)

العرب الا على ندره شديدة والسبب يتضح من الفرق الشاسع في الحضارة

والعمران والملك بين الام المذكورة والعرب ، ولا أدل على ذلك من ايوان

كسرى المشهور الذي ظل الشعراء العرب يذكرونه ويتخذونه مثلا أعلى

لعزة الملك والسلطان حتى في العصور الاسلامية الزاهرة .

وربما كان الشبب في تشابه هذه القصائد هو التقليد والاتباع ، لأننا

نجد تأثيرها في النفس قليلا ، فأما أن يكون الشعراء قد وجدوا في هذا

الفن لونا جديدا طريفا ينظمون فيه الشعر ، واما أن يكون الغرض من ذلك

اظهار الحكمة والحنكة من خلال مرور الحوادث على نفس الشاعر ، وذلك لما

كان للانسان المجرب - وخاصة الشاعر - من قيمة في أوساط قبيلته . وربما

يكون أقرب الأدلة على هذا ، الشاعر المشهور الأعشى ميمون بن قيس السني

كان مولعا بالخمر الى درجة كبيرة ، حتى انه صده عن اعتناق الاسلام فيما

(٣)

يروى . ومع ذلك نجد له عدة قصائد في رثاء الممالك وتغيب الدهر ، ومخاطبة

السامعين بالعظة والعبرة مذكرا بالموت والفناء موصيا بالحدز من الدنيا

والتقل منها .

(١) انظر حماسة البحتري : ١٢٨ قصائد الأعشى ، وقصائد لبيد فسق

المصدر نفسه : ١١٨ - ١١٩ .

(٢) انظر قصيدة الأسود بن يعفر النهشلي في المفضليات : ٤٤٥ - ٤٥١

وهو شاعر جاهلي فحل كان ينادم النعمان بن المنذر / انظر ترجمته :

ابن سلام ، طبقات فحول الشعراء : ٣٢ - ٣٤ .

(٣) البكري ، سمط اللالكى : ٢٢١ / ١ .

(١)

وفي السنة الثانية عشرة للهجرة النبوية نجد قصيدة في رثاء الحيرة لأحد
(٢)
أبنائها يدعى ابن ببيعة ، وذلك عندما غزاها خالد بن الوليد - رضي الله
عنه - وقت منصرفه من حروب الردة في اليمامة وعند القضاء على مسيلمة الكذاب
زعيم المرتدين ، وعندما وصل خالد إليها طلب رجلا من عقلاء أهلها
ليفاوضه ، ويعرض عليه الاسلام أو الجزية أو الحرب . فخرج اليه ابن ببيعة
هذا وكان آنذاك كبير السن ، وعندما تكلم أعجب خالد بحكمته وحسن جوابه
وانتهى الأمر بالصلح مقابل دفع الجزية .

(٣)

وعندما دخل المسلمون المدينة أخذ الحزن نفس الرجل فقال :-
أبعد المنذرين أرى سواما * تروح بالخوثق والسديير .
وعند فوارس النعمان أروعى * فوصا بين مرة والحفـير . (٤)
تحاماه فوارس كل قـوم * مخافة ضيفم على الزئير .
(٥)
فصرنا بعد هلك أبي قبيس * كجرب الممزق في اليوم المطير .

-
- (١) هي مدينة صغيرة جاهلية حسنة البناء طيبة الثرى ، على ثلاثة أميال
من الكوفة وبها منازل طوك - بنى لخم ونصر وهم آل النعمان بن المنذر
الرومي المعطار : (حيره) .
- (٢) هو عبد المسيح بن عمرو بن قيس ، وقيلة اسمه ثعلبه أو الحارث ، وسمى
بذلك لأنه خرج في بردين أخضرين على قومه فقالوا له : ما أنت الا بقيلة
فسمى بذلك . وقد أدرك ابن ببيعة الاسلام ولكنه بقى على نصرانيته
وعمر طويلا / انظر : أمالي المرتضى : ٢٦٢ / ١ ، تاريخ الطبري
٣ / ٣٤٥ .
- (٣) الأبيات في معجم البلدان / تحت كلمة (خوثق) و (سديير) .
- (٤) مرة أو مريرة : ما لبني عمرو بن كلاب / المصدر السابق (المريرة) .
الحفير : ما لباهله بينه وبين البصرة أربعة أميال / المصدر نفسه
(الحفير) .
- (٥) هو أبو قابوس ، أحد طوك الحيرة المشهورين من المناذرة / انظر
تاريخ اليعقوبي : ١ / ٢١١ .
ولعله شبيهه هنا بجبل أبي قبيس بمكة المكرمة لعزته ومنعة دولته .

- تقسنا القبائل من محسد * علانية كأيسار الجزور
- وكنا لا يرام لنا حريم * فنحن كضرة الضرع الفخور (١)
- نؤدى الخرج بعد خراج كسرى وخرج من قريظة والنضير
- كذاك الدهر دولته سجال * فيوم من مساة أو سمرور

وهذه القصيدة كما يبدو وأوفر حظا من حيث العاطفة وصدق الشعور
مما سبقها من القصائد وذلك لأن يتحدث عن تجربة واقعية مر بها ، فالمدينة
مدينته ، وأهلها قومه . ورغم أن المدينة لم تدم ولم تصب بأذى إلا أنه اعتبر
دفع الجزية مقابل دفاع المسلمين عنها نوعا من ضربات الدهر القاصم ، فراح
يتذكر طوكها العظام أرباب الخونق والسدير ، الذين هلكوا فأصبح الناس
بعدهم نهبا للقبائل قد مسهم الذل ولا يجدون طجأ فهم (كجرب الممزر
في اليوم المطير) وهذه الصورة تدل على الحزن والكلم النفس الذي يعاتبه
الشاعر . لكنه يستسلم لحكم الدهر لأن دولته سجال ومن سره زمن ساءتسسه
أزمان .

وقد وضعت هذه القصيدة ضمن العصر الجاهلي رغم أنها قبلت بمسند
مجيء الاسلام لأن قائلها جاهلي وفقى الاسلام ، ولأنها تسير على النمط
الجاهلي في الرثاء الذي مر سابقا .

(١) ناقة فخور : هي العظيمة الضرع الضيقة الأحليل فلا يخرج لبنها
إلا بصعوبة / الصحاح : (فخر) وقد قصد في البيت القوة والهيبة
وشدة المحافظة .

الفصل الثاني

رثاء الدولة الأموية

إذا أنتظنا من العصر الجاهلي الى العصر الاسلامي ، نلاحظ أنفسه في بداية هذا العصر - أي في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين - لا يوجد شعر في رثاء الدول أو المدن وذلك لأن هذا العهد كان عهد قوة ، وفتح للأقاليم المعادية للإسلام لتحطيم رؤوس الكفر وطواغيتهم وليفسح المجال أمام الشعوب لتدخل في دين الله مختاره ، بعد أن أزيلت من طريقها الحواجز والرقم من حصول كثير من الفتن في هذه الفترة ، وخاصة فترة خلافة الامام علي - كرم الله وجهه - وعروبه مع معاوية - رضي الله عنه - وسيطرة أحد الفريقين على بعض ما بأيدي الفريق الآخر من الأرض والمدن في بعض الأحيان ، فانه وجد خلال ذلك شعر في رثاء الأشخاص وتمجيد بطولاتهم وشجاعتهم ، ولم يوجد رثاء مدن لأن الأمر لا يتعدى تفسير وال بأسر مع حاشيته وكمهم يدينون بالاسلام فلا تتغير معالم المدينة ، ولا يرحل عنها أهلها ولا يستباحون الا في النادر .

تمخضت الأحداث السالفة الذكر عن ولادة الدولة الأموية برئاسة معاوية بن أبي سفيان ثم أفضت بعده الى ابنه يزيد وهكذا أصبحت ملكا وراثيا وكان هذا أول انحراف عن سنن الراشدين ، ولعل هذا الأمر هو السبب عجل بانقراض دولة بني أمية إذ أن قانون الوراثة هذا جعل الخلافة من حق ولي العهد مهما كان صبيا صغيرا ، أو ماجنا عابثا ، فانغمس هؤلاء في الترف وتركوا أمور البلاد الشاسعة ، والترف - كما هو معروف - داء السبب والعضال الذي لا يبدأ الا بالانقراض والزوال . ومما زاد الطين بلّة التناسخ الشديد الذي كان يقوم داخل البيت الأموي الحاكم نفسه على السلطة فكل

يحاول أن يستأثر بها دون الآخرين ويحتكرها في أولاده دون اخوانه
(١)
وأقاربه . وهذا ماصوره الشاعر الأموي أبو عدي العجلي في قصيدة يحذر فيها
بنى أمية من الخلاف وتجريد السيوف في وجوه بعضهم وقصيدته هذه تجمع
بين التحذير والتعنيف والبكاء يقول :
(٢)

ما بال عينك جاثلا أقذاؤها * شرقت بعبرتها فطال بكاؤها
واعتادها ذكر العشيرة بالأسى * فصالحها ناب بها ومساؤها
شركوا العدا في أمرهم فتعاقمت * منها الفتون ومزقت أهواؤها
ظلت هناك وما يعاتب بعضها * بعضها فينفع ذا الرجا رجاءها
الا بمرهفة الطببات كأنها * شهب تقل - اذا هوت أخطاؤها
ومعسل زرق يكون خضابها * طق النحور اذا تفيض دماؤها
فبذاكم أمست تعاتب بينها * فلقد خشيت بأن يحم فناؤها

ان الشاعر وان كان لا يرضى عن تصرفات بنى قومه الامويين كسب طوس
- رضى الله عنه - وآله ومعاملتهم تلك المعاملة القاسية التي فيها كثير من
الاهانة ناهيك عن القتل والتشريد . رغم ذلك فانه يحزن عليهم ويجذبه الرحم
وهتاف العشيرة فيقف باكيا وراثيا وداعيا لهم بالرشاد :

(١) هو عبد الله بن عمر بن علي بن عدي ، يكنى أبا عدي . شاعر مجيد من
شعراء قريش ومن مخلصي الدولتين الأموية والعباسية ، كان في أيام
بنى أمية يميل الى بنى هاشم ، ويذم قومه بنى أمية ، فلم يكن منهم اليه
صنيع جميل فسلم بذلك أيام العباسيين ، ثم خرج علي أبي جعفر المنصور
مع محمد بن عبد الله بن الحسن المعروف بالنفس الزكية ، ووضعه واليا
على الطائف ، ثم هرب الى اليمن بعد القضاء على الثورة ولعله مات
هناك / انظر الأغاني : ٢٩٤ / ١١ ، مصطفى الشكعة ، رحلة الشعر
من الأموية الى العباسية : ٤١٢ .

(٢) الأغاني : ٣٠٧ / ١١ - ٣٠٨ .

- ماذا أو مل ان أمية ودعت * ومقاة سكان البلاد بقاؤها
- غيث البلاد هم وهم أمراؤها * سرح يرضو دجن الظلام ضياؤها
- فلئن أمية ودعت وتتايغت * لغواية حميت لها خلفاؤها
- لمودعن من البرية عزها * ومن البلاد جمالها ورجاؤها
- ومن البلية أن بقيت خلافهم * فردا تهيجك د ورهم وخلاؤها
- هلا نهي تنهي الفوى عن السقى * يخشى على سلطانها غوغاؤها
- وتقى وأحلام لها مضربية * فيها اذا تدمى القلوب د واؤها

ومعد هذا الزجر وتذكيرهم بتقوى الله ثم تحكيم العقل فى أمر المصلحة العامة ، وردع السفية الباغى ، لا يجد الشاعر طجأ الا الله فيتوجه اليه متضرعا بأن يصلح ذات البين :-

- لما رأيت الحرب توقد بينها * ويشب نار وقودها أنكاؤها
- نوهت بالطك المهيمين دعوة * ورواح نفسى فى البلاد دعاؤها
- ليرد ألفتها ويجمع شملها * بخيارها فخيرها رحماؤها
- فبنو أمية خير من ولى الشرى * شرفا وأفضل ساسة أمراؤها

والذى بيد وأن هذه القصيدة بالرغم من جودتها الأسلوبية وسبكها المحكم ، وتلمسها لحساسيات النفوس ، فانها لم تجد أننا صاغية ، فلم يك القوم عما هم فيه فازدادت الأوضاع ترديا واضطرابا ، وانتهمز العباسيون الفرصة السانحة فى مثل هذه الظروف وقام محمد بن على بن عبد الله بن عباس بالدعوة لال البيت وان الخلافة حق من حقوقهم المقتضية حيث رسله فى خراسان ليكون أبعد عن مركز الخلافة الأموية بدمشق . وكانت الدعوة سرية والاعتماد فيها على غير العرب من الفرس وغيرهم ، وربما كان هذا لعدم معرفة العجم للعربية فيكون اطلاعهم على الأمر لا يكشف سرا ، وثانيا عاطفتهم الدينية

القوة بحب آل البيت والميل اليهم وخاصة أن دعاة العباسيين ماكانسوا
لا يدعون لامام بعينه بل للرضا من آل محمد - صلى الله عليه وسلم - ولم يلبث
محمد بن علي هذا أن مات وكان قد عهد بالامامة بعده الى ابنه ابراهيم
فاتخذ هذا له مقرا بالحيممة وهي منطقة في جنوب الأردن على طريق الحاج
واصطنع الرجال والموالي وكان من أشهرهم أبو مسلم الخراساني الداهية
الذي أستداع أن يفوق رسله في كور خراسان وأصبح لديه من القوة والأتباع
ما أشعر والى الأمويين بخراسان نصر بن سيار بالخطر الداهم ، فكتب الس

الخليفة مروان بن محمد يخبره بالأمر :- (١)

- أرى غلل الرماد وهي جمر * فيوشك أن يكون لها ضرام
- فان النار بالعودين تذكو * وان الحرب أظها الكلام
- فان لم تطفئوها تجن حربا * شجرة يشيب لها الضلام
- فظت من التعجب ليت شعري * أيقاظ أمية أم نيام
- فان كانوا لحينهم نياما * فقل قوموا فقد حان القيام
- ففرى عن رحالك ثم قولى * على الاسلام والعرب السلام

فكتب اليه مروان : " ان الشاهد يرى مالا يرى الفائب فاحسم التؤولول
فقال نصر عند ما وصله كتاب مروان مخاطبا من حوله : " أما صاحبكم فقد
أعلمكم ألا نصره عنده . وعندئذ وجه نصر بن سيار همه لجمع وحده الصنف
واخماد الفتن التي كانت تائره بين المضربة واليمانية في خراسان ومرو وغيرها
(٣)
ويحذروهم من العدو والداخل اليهم قائلا :

(١) الأزدى ، تاريخ الموصل : ١٠٦ - ١٠٧ ، ابن عبد ربه ، العقد

الفريد : ٤٧٨ / ٤

(٢) تاريخ الموصل : ١٠٧

(٣) تاريخ الطبري : ٣٧ / ٢

- أبلغ ربيعة في مرو واخوتهم * فليفضبوا قبل أن لا ينفخ الغضب .
- ولينصبوا الحرب ان القوم قد نصبوا حربا يحرق في حافاتهما الحطب .
- ما بالكم تلحفون الحرب بينكم * كأن أهل الحجا عن فعلكم غيب .
- وتتركون عدا وقد أظلكم * مما تأشب لا دين ولا حسب .
- قد ما يدينون دينا ماسمعت به * عن الرسول ولم تنزل به الكتب .
- فمن يكن سائلا عن أصل دينهم * فان دينهم أن تقسل العسرب .

فالشاعر هنا يحاول لفت انتباه القبائل الى العدو المشترك ثم هو يكشف عن حقيقة هذا العدو - وهو يعني أبا مسلم ومن تبعه من قومه الفرس - فهم قوم ذوو حقد دفين على العرب ، فالدولة الأموية - كما هو معروف - كانت دولة عربية صرفة لم يبلغ الأعاجم فيها أي مرتبة حساسه ، فاستغل هؤلاء - أيضا - اعتماد الامام ابراهيم بن محمد عليهم وابعادهم للعرب ، فأظهروا ما بأنفسهم ، فيروي عن أبي مسلم بعد تمكنه أنه لم يترك طبقة من طبقات المجتمع الا قتل منها بادئا بالقادة والوزراء ثم القضاة والعلماء والخبر
(١)
. . . الخ .

كما تروي عن ابراهيم في هذا الشأن روايات منها ما يرويه ابن هساكر
قال : (٢)

" كان أبو مسلم يكتب ابراهيم فقدم على ابراهيم رسول أبي مسلم ، فسأله فاذا هو رجل من عرب خراسان ، فصيح ، ففمه ذلك . فكتب الى أبي مسلم ألم أنك عن أن يكون رسولك عربيا . يطلع مثل هذا على أمرك ، فاذا أتاك فاقتله " وتضيف الرواية أن الرسول قرأ الكتاب فأتى به مروان بن محمد فأرسل من جنده الى ابراهيم فجاءوا به فحبس ثم قتل في سجنه سنة اثنتين وثلاثين ومائة .

(١) انظر : المقدسو ، الهدى والتاريخ : ٦ / ٢٢ .
(٢) تهذيب تاريخ دمشق الكبير : ٢ / ٣٦٤ ، وما بعده .

ويروي الطبري أيضا : " وكان ابراهيم بن محمد كتب الى أبيه مسلم - فيما قالوا - الا يدع بخراسان أحدا يتكلم العربية الا قتله " .
(١)

وربما كان في هذه الروايات شيء من المبالغة أو الزيادة ولكنها ذات دلالة على فقدان ثقته في العرب ، وتخوفه من موالاة تهم لحكامهم من بني أمية الذين لا تأخذهم رحمة ، ولا هوادة فيمن ظنوا به سوءا .

ومهما يكن الأمر فقد اشتد أمر أبي مسلم حتى استولى على خراسان كلها وهرب نصر بن سيار وولده حتى مات بساوة بين الرى وهمذان ثم أقبلت الجيوش من خراسان رافعة السواد شعار العباسيين ، وبدأت شمس الدولة الأموية به الأفل ، وكانت النهاية المحتومة حين قتل مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين بعد معركة الزاب الكبير وقامت دولة بني العباس ، وهو إسحاق بن العباس السفاح أول خليفة . ومن بكي الدولة الفارسية شميرا الشاعر الأموي الآتي الذكر أبو عدي العجلي حيث قال : (٢)

تقول أمانة لصا رأيت * نشوزي عن المضجع أله نفس
وقلة نومي على مضجعي * لدى هجعة الأعين النصص .
أبي ، ما عراك ؟ فقلت الهموم * عرون أباك فلا تبلسس (٣)
عرون أباك فحبسسه * من الذل في شر ما محبسس .
لقد العشيرة ان نالها * سهام من الحدث المئسس .
رمتها الضنون بلا ينصل^{٥٩} * ولا طائشات ولا نكسس (٤)
بأسهمها الخالسات النفوس * متى ما أقتضت مهجة تخلص .

(١) تاريخ الطبري : ٢ / ٢٧٧ .

(٢) الأغانى : ١١ / ٢٩٨ - ٢٩٩ ، رحلة الشعر : ٤٢٢ .

(٣) تبلسس : من الابلاس وهو الحيرة واليأس وقطع الرجاء من رحمة الله . اللسان

مادة (بلس) .

(٤) النكس : سهم نكس : انكسر فوقه فجعل أعلاه أسفله . الزمخشري ، أساس

البلاغة مادة (نكس) .

ان عاطفة الحزن تصبغ هذه الأبيات وتظلمها ، فالمصيبة قد عمت بفقد
عشيرة الشاعر ذات المجد العريق ، لذلك فهو مهوم ومضطرب لم يبق لسه
سند من الناس بعد أن رمت المنون دوة قومه بأسهمها المصميت فبدلت
عزهم ذلا ونعيمهم بؤسا ، ويبلغ الشاعر ذروة تأثيره الحزين عندما يتكلم
عن البلاء الذى حل بقومه بشئ من التفصيل :-

فصرعاهم فى نواحي البلاد * تلقى بأرض ولم ترمس (١)
كريم أصيب وأثوابه * من العار والذام لم تدنس .
وآخر قد دار خوف الردى * وكان الهمام فلم يحسن .

ان العباسيين عند قيام دولتهم تتبعوا الأمويين فى كل مكان يقتلونهم
أينما وجدوهم حتى الذين أعطوهم الأمان كسليمان بن هشام بن عبد الملك
وربط معه من بنى قومه ، رجموا وقتلوهم صبرا . ويرى أن شاعرا كان يحقد
على بنى أمية ويؤلب عليهم ، دخل يوما على أبى العباس السفاح فرأى فس
مجلسه قوما ممن بقى من بنى أمية فصاح على الفور مخاطبا الخليفة السفاح :
(٢)

-
- (١) ترمس : تدفن / اللسان ماده (رمن) .
(٢) الشاعر هو سديف بن ميمون . مولى بنى العباس وشاعرهم . كان مولى
لأمرأة من خزاعة ، وكان زوجها من اللهبين فادعى سديف بذلك
ولا بنى هاشم . وكان أدبيا بارعا ، وخطيبا مصقعا . تشيع لبني على
الخارجيين على المنصور ، فظفر به عامل المنصور على مكة وقتله سنة ٤٦ هـ
انظر ، ابن قتيبة ، الشعر والشعراء : ٤٧٩ ، تهذيب ابن عساكر
: ٦٨/٦ .
(٣) طبقات ابن الممتر : ٤٠ .

- لا يفرك ماترى من رجال * ان تحت الضلع داه دويما .
- فضع السيف وارفع السوط حتى * لا ترى فوق ظهرها أمويما .

فألهمت هذه الأبيات غضب الخليفة ، وأثارت كوامن حقه ، فأمر بضرب كل من حضر من الأمويين ، وقيل أنه بسط الانطاع عليهم وأمر بغدائه فتناوله فوقهم وان بعضهم لا يزال يتحرك أو يئن . وان كان الأمر مرعبا ومفرعا الى هذا الحد فما حال من بقى بعد قتل الرجال ؟ يجيب العبلو :

- فكم غادروا من بواكى العيو * ن مرض ومن صببية بسؤس .
- اذا ما ذكرتهم لم تتم * لحرّ الهموم ولم تجلس .
- يرجعن مثل بكاء الحمما * م فى ماتم طق المجلس .
- فذاك الذى غالى فاعلمسى * ولا تسألينى فتستحسى .
- وأشياء قد ضفنى بالبلاد * ولست لهن بمستحسى . (١)

ان نفس الشاعر يمتصرها الألم والحزن لحالة الأطفال والنساء الذين أصبحوا يعيشون فى ماتم دائم وحزن متواصل لفقد العائل . وبعد ذلك يذهب العبلو ليعدد الأماكن التى قتل فيها بنو أمية ، وهى كثيرة ومتعددة فيزيد تفجعه لبيان شمول النكبة وكأنه يقول ، لا أدرى لمن أبكى ؟ أهؤلاء أم لا ولئك ؟ .

- أفاض المدام قتل كدى * وقتلى بكنوة لم ترمى . (٢)
- وقتلى بوج ضلالا بتسين * من يثرب خير ما أنفسى . (٣)

(١) المستحسى : المقيم الذى لا يبرح / اللسان : ماله (جلس) .
(٢) كدى : موضع بأسفل مکه وهو الذى دخل منه الرسول - صلى الله عليه وسلم - يوم فتح مکه / البكرى ، معجم ما استعجم ٤ / ١١١٧ ، كسوة : موضع يعينه لم تحده المعاجم / معجم البلدان (كسوة) .
(٣) ج : هو الطائف ، أو واد بها / الروض الممطار : (ج) .

- والزبايين نفوس ثـوت * وقتلى بنهر أبي فطرس . (١)
أولئك قوم تداعت بهم * نواب من زمن متعس .
أذلت قيادي لمن رامني * وألقت الرغم بالمعطس .
فما أنس لا أنس قتلاهم * ولا عاش بعد هم من نسى .

ويعد ، فالشاعر وفق كل التوفيق في رسم صورة خزينة بائسة لفناء قومته
وزوال ملكهم ومجدهم ، وقد أشرك نفسه معهم في الصورة ، غير أنهم ذهبوا
أعزاء ، وفق هو على آثارهم يقاسى الأسى والذل راغم الأنف . وقد كانت عاطفة
الشاعر من الصدق بمكان ، فابتعد عن التكلف والزخرفة اللفظية والمعنوية
بل كان شعره ينساب سهلاً بشكل حوار حزين يفعل فيه الشاعر وتصوره
المهموم السودا* وتطك عليه نفسه .

وقد جاء روى القصيدة - السين المكسورة - مناسباً كل المناسبة لهـذـه
القصيدة فالسين حرف هامس يناسب النفس الحزينة التي هدّها النبأ الفاجع .
ولعل هذه القصيدة تفتح باباً جديداً من أبواب الشعر العربي الاسلامي
وهو باب رثاء الدول ، وذلك لأن هذه القصيدة من أوائل القصائد التي قيلت
في هذا الموضوع ان لم تكن هي الأولى . ولعل القصائد البسيطة التي ستمر
بنا في هذا الموضوع تأثرت أو اجتزت هذه القصيدة ، فكانها أصبحت نموذجاً

(١) الزبايان أو الزبايان : نهران أسفل الفرات ، هما الزاب الأعلى ،
والأسفل يأتيان من بلاد أرمينية ويصبان في دجلة ، ومدينة السزاب
بينهما / المصدر السابق (الزاب) .

نهر أبي فطرس : اسم نهر قرب الرملة بفلسطين / معجم البلدان (فطرس) .

للرثاء الصادق لما توفر فيها من جودة البناء والسبك . ومن الشعراء الذين
(١)
رثوا دولة بني أمية الشاعر أبو العباس الأعمى الذي كان يوالى بني أمية
أشد الولاء ويحبهم حبا جما ولا يشرك معهم أحدا فى هذا الحب حتى
انه كان يعادى آل بيت النبى - صلى الله عليه وسلم - لمناوأتهم للأمويين .
فعندما يشتد الخطب على الدولة الأموية وتبدأ بالانهيار التدريجى ، يجد
الأعمى من واجبه أن يذهب الى الشام ليقيم على منازل الأحياب عند مروان
بن محمد الذى كانت الأرض قد ضاقت عليه بما رحبت لما يرى من تناقض
أطراف مملكته يوما بعد يوم فينشده الأعمى :-

- ليت شعرى أفاح راحة المسك * ك وما ان اخال بالخيف انسى .
- حين غابت بنو أمية عنسه * والبهاليل من بنى عبد شمس .
- خطباء على المنابر فرسسا * ن عليها وقاله غير خسرس .
- لا يعابون صامتين وان قسا * لوا أصابوا ولم يقطوا بلبس (٢)
- بحلوم اذا الحلوم تقضت * ووجوه مثل الدنانير طمس .

ومن عجيب المصادفة أن يلتقى شاعرنا بأبى جعفر المنصور وهو فى طريقه
الى الشام ويخبره بوجهته وينشده هذه الأبيات التى هى رثاء مشوب بالمدح

(١) هو السائب بن فروخ المكي . مولى لبني جذيمة بن عدى ، كان هجاء
خبثا فاسقا مبغضا لال الرسول مائلا الى بني أمية ، أكثر شعره فى
هجاء آل الزبير غير مصعب لأنه كان يحسن اليه ، سمع عبد الله بن عمرو
يروى عنه عطاء ، وعمرو بن دينار ، ووثقه أحمد ، وروى له البخارى
ومسلم وأصحاب السنن مات ما بين ١٣٦ - ١٤٠ هـ .

انظر : ترجمة : الصفدى ، نكت الهميان : ١٥٤ ، الأعلام : ١١٠ / ٣ .
(٢) الأغاني : ٢٩٩ / ١٦ - ٣٠٠ ، ط دار الكتب .

والثنا على الأمويين ، فهم الفرسان وأهل الفصاحة والعقول الراجحة
..... الخ ، وماهى الا فترة زمنية بسيطة حتى تسقط دولة الأمويين
وتقوم دولة العباسيين ويتولى أبو جعفر المنصور الخلافة بعد السفاح ويخرج
حاجا فى احدى سنوات خلافته فيصر بالأعمى واقرب منه ، وقال له : أنا
رفيقتك وأنت تريد الشام أيام مروان ، فيتشهد أبو العباس وينشد بالشم
وحسرة :- (١)

- آمت نساء بنى أمية منهم * وناتهم بمضيعة أيتام .
- نامت جدودهم وأسقط نجمهم * والنجم يسقط والجدود تنام .
- خلت المناير والأسرة منهم * فعليهم حتى الممات سلام .

ان الخليفة العباسى قد قصد من كلامه مع الأعمى اختيار لائه لمواليه
الأول وهل كان حبه لهم للعطاء فقط ؟ وموقفه من الدولة الجديدة ؟ فيكون
جواب الشاعر هذه الأبيات التى تقطر حزنا وأسى لفقد أولئك القوم عند ما
خانهم الحظ وفارقهم السعد ، ثم يثبت الشاعر أنه لا يزال وفيا لهم حتى بعد
موتهم ، وسيتقى كذلك حتى الممات . الأمر الذى جعل المنصور يسأله متعجبا
: " كم كان مروان أعطاك بأبى أنت " ؟ فيقول : أغنانى أن أسأل أحدا بعنده
فيفتاظ المنصور وهم بضرب عنقه غير أنه يتذكر حق الصحبة فيمسك عنقه
ويغيب الشاعر عن الخليفة زما ثم يطلبه فلا يعثر له على أثر ، وكأنما البيداء
بادت به .

ان أبيات أبى العباس - رغم قلتها - تدل على شاعرية فذه ، وشكيمة قوية
وقد تميز أسلوبه بالسلاسة مع الفخامة وقوة الجرس .

وقال عثمان بن الوليد بن عماره القرشى ، يذكر فعل الدهر بينى أميه : (٢)

(١) الأبيات والأخبار الواردة معها فى المصدر نفسه ص ٣٠٠ .

(٢) حماسة البحترى : ص ١٢٦ .

أما عاطفته فهي حزينة ولا شك ولكنها غائمة اتسمت الذكر عدد غير قليل من الخلفاء الأمويين وذكر عزهم ومجدهم ثم مالوا اليه من الهلاك والفساد ، ولم تنصب عاطفته بحراره على الحدث الأهم أو الرئيس في رثاء الدول وهو الكارثة التي أودت بالدولة فقضت على الحكام وكل من كان من بني قومههم وخربت البيوت والقصور وهتكت الحرمات وسيقت النساء المترفات الناعمات أسيرات سبايا ، والأطفال ذاقوا مرارة اليتيم وما إلى ذلك من الأجزاء المهمة التي عندما تجتمع تكون الصورة الحزينة التي توشح قصيدة الرثاء . ولمس هذا الصدق في العاطفة هو الذي يميز بين قصيدة وأخرى من حيث التأثير في نفوس السامعين أو القراء وهذا ما جعل شعر الصبلي وأبي المباسم الأعمى في غاية الجودة والتأثير فالأول أموي يبكي عشيرته والثاني مخلص محب يسرى الوفاء لهم دينا عليه حتى يوارى في ريسه .

الفصل الثالث

زهاء الدول والأصوار حتى عصر السلاجقة

المبحث الأول : الثورات والفتن الداخلية في الدولة العباسية :

بعد أن قضى العباسيون على دولة بني أمية وتبعوا كل من يمت إليهم
بولاء ، اتجهوا إلى تثبيت أركان دولتهم والعناية بشئونها السياسية والإدارية
والاقتصادية والعلمية ، فجندها والجيش العظيم لحماية البلاد من غارات
الروم والفرس والجهاد في سبيل الله وفتح البلدان ، وكانت موارد الدولة
عظيمة الحجم ، فعاش الناس في رخاء ونعيم واتجهوا تبعاً لذلك إلى
العمران والترفيه وكثرت الجوارى والمغنيات من الرقيق المجلوب حتى كان لهم
سوق خاصة فازدهر الفناء ازدهاراً كبيراً وشجع ذلك كثرة الشعراء الذين
ينظمون للقيان ما يثمن من الشعر ذي الأوزان والبحور الغنائية ، كما بلغ
العلم والعلماء مرتبة عظيمة في الدولة العباسية ومازاد في نموه كون الخلفاء
أنفسهم من العلماء والأدباء كالمصور والرشيدي والمأمون وغيرهم وكانوا يجزلون
الهيئات للعلماء والشعراء بالإضافة إلى ظهور الترجمة ونقل علوم الأمم الأخرى
إلى اللغة العربية نتيجة امتزاج الشعوب ببعضها في المجتمع العباسي الذي
أصبح يحوي أجناساً مختلفة من البشر وخاصة الجنس الفارسي ، وقد ازدهرت
بفداد عاصمة الخلافة ازدهاراً عظيماً ، وذاع صيتها في الشرق والغرب ، وأصبحت
قبة العلماء والأدباء والشعراء يقدون عليها من أقصى البقاع ليجد كل
بغيتته فيها .

واستمر الحال هذا مدة قرن من الزمان تقريباً حتى توفي هارون الرشيد
سنة ثلاث وتسعين ومائة حينئذ أطلت الفتنة المظلمة بقرنيها ، أعنى بها الفتنة

التي وقعت بين الشقيقتين الأمين والمأمون ومزقت البلاد ودمرت عاصمة الخلافة بغداد وأصابها من أمر الله ما أصابها .

وترجع البداية الأولى لهذه الفتنة إلى عهد الرشيد نفسه ، إذ أنه لما حج البيت في عام سته وثمانين ومائه أخذ البيعة لابنه محمد وطقه بالأميين ليكون ولياً لعهدده ثم بايع لابنه عبد الله وطقه بالمأمون ليكون ولياً لعهدده الأمين . وكتب بذلك كتاباً وأشهد فيه أكابر أهل الإسلام ووجوه الكتاب والقواد وسائر أركان الدولة وطلقه في الكعبة . وشرط عليهما فيه أن هو جاءه الأجل المحتوم ، تكون بغداد ، والعراق ، والحجاز واليمن ، والجبال وفارس تحت حكم الأمين ويكون هو الخليفة ، وأن تكون الزى ، وطبرستان وخراسان ، والترك تحت حكم المأمون ويكون ولي عهد المسلمين .

ومما يذكر هنا أن المأمون كان أكبر سناً وأرجح عقلاً وأكثر حنكة من الأمين ، وإنما قدم الأمين إكراماً لأمه زبيدة بنت جعفر بن المنصور بنت عم هارون الرشيد . (٢)

وقد كان الناس بين متفائل ومتشائم وكان من المتشائمين شاعر حصيف قال

عندما سمع النبأ : لقد ألقى بأسهم بينهم ، وأنشد : - (٣)

- رأى الملك المهدب شر رأى * بقسمته الخلافة والبلاد ا .
- رأى مالو تعقبه بملم * لبيش من مفارقه السود ا .
- أراد به ليقطع عن بنييه * خلافهم وبيتدلو السود ا ا .

(١) انظر الطبري : ٢٧٧/٨ وما بعدها ، وقد أورد نص الكتاب السنني كتبه الرشيد وطلقه في الكعبة .

(٢) ابن العمري ، الانباء في تاريخ الخلفاء : ٧٦ .

(٣) تاريخ الطبري : ٢٧٧/٨ .

- فقد غرس المداوة غير آل * وأورث شمل ألفتهم ببغداد .
- وألقح بينهم حربا عوانا * وسلس لاجتثاثهم القيادا .
- فويل للرعية ، عن قليل * لقد أهدى لها الكرب الشدادا .
- ستجري من دمائهم بحور * زواخر لا يرون لها نفاذا .
- فصور بلائهم أبد عليه * أغيا كان ذلك أم رشادا .

ولقد كان احساس الشاعر صادقا ، فلقد حصل ماتوقعه وأكثر ، فمضى
أن توفي الرشيد وبيع الأمين بالخلافة أخذ يسعى في خلع المأمون من ولاية
العهد وجعل ولده موسى مكانه .

وكان يزين له هذا الأمر اثنان من أكابر قواده ومستشاريه وهما : الفضل
بن الربيع ، وعيسى بن ماهان . ^(١) والفعل أمر الأمين بقطع الدعاء للمأمون
والدعاء لابنه الطفل موسى الذي لقبه بالناطق بالحق ، وطلب من المأمون
أن يخلع نفسه ويأتيه في بغداد فلما سمع المأمون بذلك رفض الأمر وأسقط
اسم الأمين من الطراز ، وقطع عنه البريد .

فاعتبر الأمين ذلك خروجا عن الطاعة ، وأرسل للمأمون جيشا كبيرا بقيادة
عيسى بن ماهان فندب المأمون لمحاربه طاهر بن الحسين الذي سار بجيشه
حتى التقى بجيش عيسى بالري فاقتتلوا قتالا شديدا كان النصر فيها حليف
طاهر فقتل عيسى بن ماهان واحتز رأسه ، واستباح عسكره . وبعد ذلك أمره
المأمون بالتوجه الى بغداد فتوجه اليها بجيشه حتى أحاط بها ونزل
ببساتينها وفرت أمامه جيوش الأمين وصاكره واستطاع طاهر أن يستميلهم
اليه باعنائهم الأمان والهبات الكبيرة ، فتبعضه منهم كثيرون عنئذ شدد طاهر
الحصار على بغداد ونصب المجانيق التي تقذف الحجارة في كل الاتجاهات .

(١) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ : ٢٢٧/٦ .

ولا يبالي رماها من أصابت وفي ذلك يقول الوراق :- (١)

- يارماة المنجنيق * كلكم غير شفيق
- ماتبالون صديقا * كان أو غير صديق
- ويلكم تدررون ماتر * مون مرار الطريق

كما استعمل أيضا من آلات الدمار العرادات والسفن البحرية الستى
تقذف النفط والنيران . واستعملت هذه الآلات أيضا من قبل جيش الأميين
المحاصر الأمر الذى جعل الأرباض والمنازل والأسواق هى ميدان الممركه
ومواقع الجند ، ففكر القتل والتدمير والخراب حتى درست محاسن ببغداد

والتهمتها النيران وفي هذا يقول الوراق أيضا : (٢)

- من ذا أصابك يابغداد بالعيين * ألم تكونى زمانا قرّة العيين
- ألم يكن فيك قوم كان مسكنهم * وكان قريبهم زينا من الزين
- صاح الخراب بهم بالبين فافترقوا * ماذا بقيت بهم من لوعة البين
- أستودع الله قوما ماذا كرتهم * الا تحدر ماء العيين من عيني
- كانوا ففرقهم دهر وصدعهم * والدهر يصدع ما بين الفريقين

ان الشاعر هنا يرجع سبب الهلاك الذى حل ببغداد الى العيين أو الحسد
ففرق أهلها شيئا بعد أن كانوا ينعمون فيها بجمعهم والشاعر واحد منهم
فهو يتذكر تلك الأيام وسكب الدمع توجعا لفراق أولئك القوم .

(١) هو عمرو بن عبد الملك المعتري أصله من البصرة شاعر ماجن ، اشتهر
فى أيام الرشيد له شعر كثير ، توفى نحو ٢٠٠ هـ / المرزبانى ، معجم

الشعراء : ٢١٨ .

(٢) تاريخ الطبرى : ٤٤٧ / ٨ .

ونلاحظ هنا أن الشاعر قد شغل نفسه بالزخرفة اللفظية كالجناس الذي
عم معظم الأبيات ، والذي صرف الشاعر عن قوة التأثير في السامعين ، وصرفه
أيضا عن تفصل الحادثة وملاقطه . بغداد من الدمار ، فكانه هنا يقف على أطلال
باليه يخاطبها لا على مدينة عظيمة هي حاضرة العالم في ذلك الزمان .
وتستمر هذه الحال مدة من الزمان لم يمد الناس يحتملون ، ولا يطيقون
معها صبرا فكان لابد لهم من ترك بغداد والنزوح عنها ، فخرجوا منها
زرافات ووجدانا ، حتى أوحشت بغداد وخاف الناس أن تبقى خرابا . وفي
ذلك يقول الخليل :- (١)

أسرع الرجله أغـذانا * عن جانبي بغداد أم مساذا ؟
ألم تر الفتنة قد ألفت * إلى أطى الفتنة شذانا
وانتقضت بغداد عمرانها * عن رأى لاناك ولا هـذا
هدما وحرقا قد أبعد أهلها * عقوبة لاناك بحـسنا

ان الشاعر مندعش لشدة الهول الذي لحق بالناس فجعلتهم يسرعون في
الرحيل عن بغداد ويتركونها نهبا لأطى الفتنة من الحثالات والشذان يسلبون
وينهبون ويفتكون ، فمن وجد سبيلا إلى الهرب ناجيا بنفسه فعسل

(١) هو الحسين بن الضحاک بن ياسر المعروف بالخليل ، مولی بأهلـه ،
وأصله من خراسان ولكنه ولد بالبصرة سنة ١٦٢ ونشأ فيها . وهو شاعر
ماجن له مع أبي نواس أخبار معروفة ، ورد بغداد وأقام فيها دهرا
ينادم الخلفاء وخاصة الأمين حتى اذا قتل فر إلى البصرة حتى أفضت
الخلافة إلى المعتصم عاد فمدحه ومدح الواثق من بعده . وهو شاعر
مطبوع ، حسن الاقتان في ضروب الشعر / انظر الأغاني : ١٤٧/٧ -
٢٢٨ ، الوفيات ، ١٦٤/٢ ، تاريخ بغداد : ٥٤/٨ ، والأبيات
في الطبری : ٤٤٧/٨ .

حتى لم يبق في دار السلام الا العاجزون أو المجرمون . يقول الوراق فسـ

ذلك :- (١)

- لم يبق في بغداد الا امرؤ * خالفه الفقر كثير العيال
- لا أم تحصى عن حماهـنا ولا * خال له يحصى ولا غير خال
- ليس له مال سوى مطـرد * مطرده في كفه رأسـ مال
- هان على الله فأجرى طـس * كفيه للشقوة قتل الرجال
- ان صار ذا الأمر الى واحد * صار الى القتل على كل حال

ومادام الأمر قد وصل الى ما وصل اليه من الدمار والاستهتار بالدمـاء
والأعراس فحق ان لاهل بغداد الذين ذاقوا فيها حلاوة العيش أن يبـكوهـا
من قلوبهم عند تبدل حالها ، يقول بعض فتيانها :

بكيت دما على بغداد لما * فقدت غضارة العيش الأنيق . (٢)

• تبدلنا هموما من سرور * ومن سعة تبدلنا بضيق

• أصابتها من الحساد عين * فأفنت أهلها بالمنجنيق

ثم يأخذه في تفصيل مصائر القوم قائلا :

• فقوم أحرقوا بالنار قسـرا * ونائحة تنوح على غريق

• وصائحة تنادى واصباحا * وماكية لفقدان الشفيق

• وهوراء المدام ذات دل * بمضمخة المجاسد بالخلوق

• تفر من الحريق الى انتهاب * ووالدها يفر الى الحريق

• وسالبة الغزاة مقتيمـا * مضاحكها كلالاة السجوق

• حيارى كالهدايا مفكرات * عطين القلائد في الحلوق

• ينادين الشفيق ولا شفيق * وقد فقد الشقيق من الشقيق

(١) المصدر السابق : ٤٦٠ .

(٢) المصدر نفسه : ٤٥٧ .

- وقوم أخرجوا من ظل دنيا * متاعهم يباع بكل سوق .
- ومخترب غريب الدار ملقى * بلا رأس بقارعة الطريق .
- نوسط من قتالهم جميعا * فما يدرون من أي الفريق .
- فلا ولد يقيم على أبيه * وقد هرب الصديق بلا صديق .

أن قائل هذه الأبيات يرسم صورة هيه ناطقة لتلك المشاهد الحزينة التي خلفتها هذه الفتنة العمياء التي أججها نكت العمود المبرومة ، ودسائس الوزراء الغشقة التي تكن صدورهم الكيد والحقد للمسلمين ، وقد وشى الشاعر صورته باطار أسود نابع من شدة حزنه وكائه وهو يسمع النائحات الثكالى على ذمهم الذين أحرقوا بالنار أو ألقوا في الأنهار ، وهو يبرى النساء الخيد ، ربات الخدور يؤخذن سبايا وينتهبن كالسلع والمتاع ، وقد بحث حلوقهن من الصراخ والاستغاثة ولكن لا مفيت ولا ناصر ، وكسان الناس في يوم القيامة فلا ولد يعرف أباه ، ولا الصديق صديقه أو أخاه .

وما زاد الأمر سوءا والوضع تفجرا كون الخليفة الأمين ماجنا متهتكما لا يتوقف عن شرب الخمر مع ظمانه وجواربه المغنيات حتى في أهل الظرف فما كان منه في أيامه الأخيرة وعندما حصر بقصره المسمى بقصر الخلد إلا أن أطلق أيدي الذعار والشطار والعيارين وأهل السجون ، واللصوص والأفارقة الزنوج في بغداد وأصبح هؤلاء هم السادة ووضع لهم رئيسا يسمى الهرش فلا تسأل عما أحدثه هؤلاء من البلاء والرعب الشديد بأهل بغداد حتى أنهم كانوا يسلبون البيوت كل ما فيها ثم يدمرونها ويحرقونها لا لشى إلا رغبة في الفساد والفضو ، ويصف الطبرى ما فعله هؤلاء الأماش بقوله : " فكان منهم في ذلك مالم يبلغنا أن مثله كان في شى من سائر بلاد

(١) "وقد أمر الأمين المهشوش ومن معه من الأشرار بمهاجمة الكرخ ،
والكناسة وأرباض المدينة ، كما بعث معهم غلاما له يسمى زويحا وأمسه
بقتيح الأغنيا" وجمع أموالهم لينفقها سيده الخليفة على لهوه ولعبه ، ففصل
ذلك وجمع أموالا كثيرة ففر الناس وخاصة الأغنيا من تلك المناطق بعلية
أنهم يريدون الحج ، فقال بعضهم :- (٢)

- أظهروا الحج ومايتوونه * بل من المهشوش يريدون الهرب .
- كم أناس أصجوا في غبطة * وكل المهشوش عليهم بالمطرب .
- كل من راد زويح بهتته * لقي الذل ووفاه الحرب .

(٣)

وقد هزت الفتنة العظيمة الشاعر الكبير أبا يعقوب الخريص فقال في ذلك
قصيدة عصما بلفت حوالى ستة وثلاثين ومائة بيت ، وتعتبر هذه القصيدة
من أوائل النصوص الشعرية المتكاملة التي قيلت في رثاء مدينة دمرت .

(١) تاريخ الطبرى : ٤٥٦/٨ .

(٢) المصدر نفسه : ص ٤٦٣ .

(٣) هو اسحاق بن حسان بن قوهى ، أصله من الصفد وهو كوره عاصمتها

(سمرقند) ، تنقل في البلاد حتى ظفر بعثمان بن خريم القائسد

الشجاع فلازمه ومدحه حتى نسب اليه ، ثم نزل بفداد أيام الرشيد

واتصل بأشهر أدبائها وفق فيها الى أن شهر فتنة الأمين والمأمون

ثم توفى سنة ٢١٤ هـ ، وهو شاعر متقدم مطبوع ، وكلامه عذب حسن

قال عنه ابن المعتز : كان الخريص شاعرا **مفلقا** مطبوعا مقتدرا على

الشعر ، وقال عنه أيضا أنه من المشهورين .

طبقات ابن المعتز : ٢٩٣ . وانظر ، الجراح ، الورقة : ١٠٩ ، ديوان

الخريص : ٥ ، البيان والتبيين : ١١٥/١ .

وقصيدته بطولها في الطبرى : ٤٤٨/٨ ومابعدها .

يمهد الخريص لقصيدته الطويلة بذكر حال بغداد قبل أن يطرقها حدشان
الدهر فيقول :-

- قالوا : ولم يلعب الزمان ببغـ * داد وتعثر بها عواثرها
- ان هي مثل العروس باطنها * مشوق للفتى وظاهرها
- جنة خلد ودار مغبطة * قل من النايبات واترها
- درت خلوف الدنيا لساكنها * وقل معسورها وعاسرها
- وانفرجت بالنعيم وانتجمت * فيها بلذاتها حواضرها
- فالقوم منها في روضة أنف * أشرف غب القطان زائرها
- دار ملوك رست قواعدها * فيها وموت بها منابرها
- أفراخ تسمى في ارث ملكة * شد عراها لها أكابرها

ومما يلفت النظر في مطلع هذه القصيدة أن الشاعر بدأها بقوله : قالوا
وكانه يريد أن يتحدث عن قصة قديمة رغم كونه من شهود الفتنة ، ومن حضروا
الحرب في ميدانها حيث كان يقيم في بغداد .

ولعله أراد من ذلك اظهار مقدار الدمار والخراب الذي حل ببغداد
وما صاحب ذلك من قتل وتشريد لأهلها وبالتالي بيان حزنه وألمه الشديد فكان
لسان حاله يقول : كانت هنا مدينة اسمها بغداد وكانت من الحسن والجمال
كأنها جنة وكأنها الخ فهو يتنهد ويطلق زفراته الحزينة من
أول القصيدة للمفارقة الحاصلة بين ماضي تلك المدينة الزاهر فهي دار الملوك
وموطن الأكابر الذين شدوا عرى الدولة وساسوها بالحكمة ، كما هي أيضا
مرتع خصب لأصحاب اللذات والعيش الرفيد .

بمنا حالها بعد أن تولى أمور الملك سفهاؤها تبدل وحدث ما حدث

يقول :

- فلم يزل والزمان ذو غير * يقدح في ملكها أصاغرها .
- حتى تسافت كأسا مثلثة * من فتنة لا يقال عاثرها .
- وافتقرت بعد ألفة شيما * مقطوعة بينها أو اصرها .

ثم يبين أن سبب هذه الفتنة التي لا تقال عثرتها هم الطوك الذين اتهموا أهواءهم ، وظب عليهم حب الحياة ، وحب الملك والسيطره ، ولو كان ذلك على حساب رعيتهم . أضف الى ذلك أنهم لم يجدوا الناصح الأمين التقى الذي يجرهم عن غيهم :

- يا هل رأيت الأملاك ما صنعت * إذ لم يرعها بالنصح زاجرها .
- أورد أملاكنا نفوسهم * هوة في أعيت مصادرها .
- ماضرها لو فقت بموثقها * واستحكمت في التقى بصاثرها .
- ولم تسافك دما شيعتها * وتبتعث فتية تكابرها .
- تبغى فضول الدنيا مكاشرة * حتى أبيضت كرها ذخائرها .

ويستمر هؤلاء الطوك في غيهم حتى تتقدم الحرب الطاحنة التي تكاد تقضى على كل مظاهر الحياة في بغداد ، فالجنان الزاهره أصبحت رمادا والقصور الشاهقة أقمرت من سكانها فأصبحت :

- قفرا خلا* تعوى الكلاب بها * ينكر منها الرسوم زائرها .
- وأصبح البؤس ما يفارقها * الفالها والسرور هاجرها .
- فأين حراسها وحارسها * وأين مجبورها وجابرها .
- أين الجرادية الصقالب وال * أحيش تعد وهدلا مشافرها . (١)
- أين الظباء الأبقار في روضة ال * ملك تهادى بها غرائرها .
- أين غضاراتها ولذتها * وأين مجبورها وجابرها .

(١) يشير في هذا البيت الى الأنواع المجلوبة من الموالى والفتيان الذين امتلأت بهم بغداد .

وهكذا يمضى الشاعر فى بكائه وتفجعه على ما أصاب عاصمة الخلافة من
الدمار والبوار فذهب فتيانها واماؤها ورقاصها وزامرها . . . الخ وهو
يكرر كلمة (أين) ليدلل على شدة حزنه وصدق عاطفته ، كما يدل أيضا
على التحول الخطير فى حالة المدينة فقد ذهب منها كل شئ حتى انها :

أست كجوف الحمار خالية * يسمرها بالجحيم ساعرها .

كانما أصبحت بساحتهم * (عاد) وصتهم جمر أهرها . (١)

ويضيف الخريص سببا آخر للفتنة وهو فساد الناس ومعدهم من الدين
واستحلالهم .. ما حرم الله - تعالى - فعاقبهم الله بالجوع والخوف والهلاك
جزا* كرههم بنعمه يقول :-

يابؤس ببغداد دار مطكئة * دارت على أهلها دوائرها .

أهلها الله ثم عاقبها * لما أحاطت بها كباثرها .

بالخسف والقذف والحريق وال * حرب التى أصبحت تساورها .

كم قد رأينا من المعاصى ببغدا * د ، فهل ذو الجلال غافرها .

حلت ببغداد وهى آمنة * داهية لم تكن تحاذرها .

طالعها السوء من مطالعه * وأدركت أهلها جرائرها .

رق بها الدين واستخف بزي ال * فضل ، وعز النساء فاجرها . (٢)

وخطم العبد أنف سـيـده * بالرغم ، واستعبدت حرائرها .

وصار رب الجيران فاسقهم * وابتز أمر الدروب ذاعرها .

فهذه هى سنة الله - تعالى - يمهل ولا يمهل ، وهكذا كان الحال بالنسبة
لبغداد وأهلها فقد اتاهم الله بسطة فى الرزق والنعم ، ولكنهم تسادوا

(١) صراصرها : هى ريح جافة سهلكة يعثها الله على قوم عاد ، قال تعالى :

(وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية) . الحاقه آيه ٦ .

(٢) عز : غلب . / اللسان (عزز) .

في اقتراف المعاصي والكبائر فأرسل الله عليها هذا العذاب من حيث لا تشمّر
ثم يعرض الشاعر لحالة بعض الأحياء من بغداد كحملة الكرخ ، وهذه
المحلة كانت بؤرة فساد وانحلال ، فكان فيها سوق الجوارى وسوق النخاسة
وسوق الخمر والفواحش وغير ذلك .

فسلط الله عليها من لصوصها وعيارها ، وعراتها من يسومها سـو
العذاب . يقول :-

- والكرخ أسواقها معطلـة * يستن عيارها وعائرها . (١)
أخرجت الحرب من سواقطها * اساد غيل ظبا تساورها .
من البوارى تواسها ومن الـ * خوص اذا استلأمت مغافرها . (٢)
تخدو الى الحرب في جواشنها الـ * صوف اذا ماعدت أساورها . (٣)
كئاب الهرش تحت رايتـه * ساعد طرارها مقامرها .
لا الرزق تبغى ولا المطاـه ولا * يحشرها للقاء حاشرها .
في كل درب وكل ناحيـة * خطارة يستهل خاطرها .
بمثل هام الرجال من فلق الصخـ * ر يزود المقلاع بائرها .

(١) يستن : يضطرب / اللسان (سنن) .

(٢) البوارى : جمع بارية ، وهي الحصير المنسوج ، فارسية معربة / الصحاح
(بور) .

استلأمت : ليست لامة الحرب وهي الدرع / المغافر : جمع مففر ، زرد
يلبس تحت القننسوة .

(٣) الجواشن : جمع جوش ، وهو الدرع / الصحاح ، (جشن) .

وهؤلاء الأشرار الذين يذكركم الخرمي ، قد أوتوا من الشجاعة الفائقة
والثخن في ضرب القتال ما جعلهم يصمدون في وجه جيش طاهر بن الحسين
فترة طويلة ، ويؤخرون سقوط بغداد في يده ما يقارب من ثلاث سنوات ، على
أنهم لم يكونوا يملكون من السلاح إلا الحجارة والمقلاع الذي يقذفها ،
وترسا من الخوص ، وكانوا عراة من الملابس إلا بعض الجواشن من الصوف
وفيهم يقول الشاعر : - (١)

- كم بصير غدا بعينين كويبيـــــــــــــــــ * صر ما حالهم ففساد بعين .
- ليس يخطون ما يريدون مايمـــــــــــــــــ * مد راميم سوى الناظرين .

وهؤلاء القوم لا بد أن يكونوا قد نشأوا نشأة فيها كثير من الفقر والحرمان
بجانب الغنى المفرط في المجتمع العباسي المفتوح ، فحملوا في أنفسهم
غيظا ، وحقدًا على هذا المجتمع وتمنوا خرابه . وقد حانت فرصتهم عند ما
شبت نار هذه الفتنة ، فاهتبلوها وأصبحوا هم السادة المسيطرين وتبلغ
عاطفة الشاعر الحزينة ذروتها عندما يأخذ في تصوير حالة النساء اللواتي
أخرجتهن الحرب سافرات والمهات لا يجدن ملجأ ولا يهتدين سبيلا ، كما
يصور لنا أحوال الأمهات اللواتي تكون أولادهن بطريقة واقعية فنية تجعل
الدمع يتقزم من عيون القاسية ظلمهم ، يقول :

- كل رقاد الضحى مغبــــــــــــــــة * لم تبد في أهلها محاجرهما .
- بيضة خدر مكنونة بسررت * للناس منشورة فدائرهــــــــــــــــما .
- تمثر في ثوبها وتعجلهاــــــــــــــــما * كبة خيل ريمت حوافرها .
- تسأل : أين الطريق ؟ والهــــــــــــــــة * والنار من خلفها تبادرها .

(١) الشاعر هو الوراق ، الطبري : ٤٦٦ / ٨ ، وانظر أخبارهم وقصة

حروبهم مع أصحاب طاهر وغيرهم في المصدر السابق ص ٤٥٨ .

- لم تجتل الشمس حسن بهجتها * حتى اجتلتها حرب تباشرها .
- ياهل رأيت الثلكى موطولة * فو الطرق تسمى والجمهر باهرها .
- فو اثر نعش عليه واحدها * فو صدره طعنة يساورها .
- تنظر فو وجهه وتهتف ، بالثك * ل وجرى الدموع حادرها .
- فرغر بالنفس ثم أسلمها * مطلولة لا يخاف فائرها .

ان شعراء رثاء الدول والمدن فو الشعر العربي دالما يركزون على المرأة وما أصابها من ذل ومهانة من جراء فقدتها للمعيل ، ووقعها فو يد العدو وما يجبر اليه ذلك ، وهم فو هذا يضربون على أوتار القلوب الحساسة لدى السامعين أو القارئين الذين يتفاعلون مع القصيدة بدورهم ، لما للعربى والشرف من المنزلة فو نفس العربي أو المسلم ، وهذا يكون الشاعر قد وفق لنقل الصورة التي فو نفسه الى نفوس الآخرين .

وفو المقطع الأخير من القصيدة يتشبه الشاعر بحبل الرجاء فو أن يلتئم الشمل وتحود البلاد الى ما كانت عليه من الازدهار :

- ياليت شعري والدهر ذو دول * يرجو وأخرى تخشى بوادرها .
- هل ترجمن أرضنا كما غنيت * وقد تناهت بنا مصائرنا .

ولا بد له من أن يقف من المأمون - الذي أصبح خليفة ، ويوع له بمسئولية
(١)
أن قضت الفتنة على الأمين - موقف الناصح والمادح فقد أصبح هو أطل الأمة
المرتجو لما يتحلو به من صفات كريمة كالتقى والعدل وحسن السياسة

(١) هلك الأمين سنة ثمان وتسعين ومائه ، واحتز رأسه وصح الى المأمون
ودخل طاهر بن الحسين بغداد ، وأخذ البيعة للمأمون فو خيبر
طويل / انظر الطبري : ٤٧٨/٨ - ٤٨٢ .

والأدب ، كما لا ينسى الشاعر أن يمدح وزيره الحكيم ، ومدبر دولته الداهية
(١)

المسمى بذى الرياستين يقول :-

- من مبلغ "ذا الرياستين" رسا * لات تأتى للنصح شاعرها .
- بأن خير الولاة ، قد علم النـ * اس ، اذا عدت مآثرها .
- خليفة الله في بريته الـ * مأمون منتاشها وجابرها .
- سمت اليه آمال أمتـه * منقادة برها وفاجرها .
- شاموا حيا العدل من مخايله * وأصحرت بالتقسى بصائرهم .
- واستجمعت طاعة برفقك للـ * مأمون نجديها وغائرهم .
- وأنت سمع في العالمين لـه * ومقنة مايكل ناظرهم .
- أصبحت في أمة أوائلهم * قد فارقت هديها وأخرهم .
- وأنت سرسورها وسائسها * فهل على الحق أنت قاسرهم .
- أدب رجالا رأيت سيرتهم * خالف حكم الكتاب سائرهم .
- وأمدد الى الناس كف مرحمة * تسد منهم بها مقارهم .

فهو هنا يشير الى اجتماع أهل الأقطار على طاعة المأمون ووزيره ويضعهم
بالحنكة في تدبير الأمور ومتابعتها ، كما يخصهم على قسر الأمة على الحق

(١) هو الفضل بن سهل . وسمى بذى الرياستين ، رياسة الحرب ورياسة

التدبير سماه بذلك المأمون عندما عقد له لواء الولاية على المشرق من

جبل همذان الى التبت طولا ، ومن بحر فارس الى البحر الديلم وجرجان

عرضا وذلك سنة ١٤٦ هـ ، بعد مقتل علي بن عيسى قائد جيش الأمين

على يد طاهر بن الحسين / انظر الطبري : ٤٢٤ / ٨ .

(٢) السرسور : الفطن العالم الذي يقوم بالأمر / اللسان مادة (سرر) .

قسرا ذلك لأنها قد فارقت هدى الصالحين الأواثل في كثير من أمورها ،
ورز فيها قوم تجافوا عن هدى الكتاب العزيز فهم بحاجة إلى التأديب
والضرب على أيديهم ، ثم يوجه خطابه إلى ندى الرياستين مذكرا آياه بحسب
القربة والفرحام الذي بينهما ولعله أراد بذلك الأصل الفارسي الذي يجمعها
ويهدى إليه قصيدته هذه التي اعتبرها في مقام النصيحة لوجه الله - تعالى -
فلم يقلها دائما في مغمم ولا شهوة في قول الشعر وإنما هي زفرة نفس بها
عما يجده في صدره :-

- كم عندنا من نصيحة لك في اللد :- به وقربى عزت زواجرها .
- وحرمة قربت أو اصبرها :- * ملك ، وأخرى هل أنت ذاكها .
(١)
- ونك غرام كالوزيلة لا :- تفقد في بلدة سواجرها .
- لا طمعا قلبها ولا بطرا :- لكل نفس هوى يؤامرها .
- سيرها الله بالنصيحة وال :- خشية فاستد مجت مرائرها . (٢)
- جارك تحكى لك الأمور كما :- ينشربز التجار ناشرها .

ومعد ، فلقد عاش الخزيص هذه التجربة المبررة المؤلمة ، وأحسها بقلبها
ومشاعره وهواطفه ، فكانت النتيجة هذه الرائية الرائعة التي دهرت العواث
الدامية أوضح تصوير وأصدق ، فلقد كان الشاعر ينتقل من مشهد إلى مشهد
سلسلة المأسى في واقعية بعيدة عن الخيال لأنه كان يصف عواث تجرى
أمام عينيه ، لذلك تراه يكثر من استعمال "ياهل رأيت" فقد أتى بها نحو
من ست مرات في قصيدته ، وتكشف القصيدة عن شاعرية الخزيص الفذة ، وطول

-
- (١) الوزيله : المرأة ، أو القطعة من الفضة / أساس البلاغة : (وذل) .
 - (٢) المرائر : الحبال القوية المفتلة على أكثر من طاق / النسان (مرر) .

نفسه في الشعر ، فان الذي ينظم مثل هذه القصيدة لابد أن يكون قد قال الكثير من أمثالها وان كان لم يصلنا من شعره الا اليسير ، يذكر ابن النديم أن للخريبي ديوانا في مائتي ورقة . (١)

كما نتبين أيضا أسلوب الشاعر الجزل مع السهولة ، فالحزبي شاعر مطبوع يعتمد عن أي تكلف أو استكراه ، ولا نكاد نحس بشيء من ذلك فموسيقى قصيدته بالرغم من طولها ويبدو أنه يميل الى مذهب البداوة فيأتي ببعض الكلمات الصعبة التي تحتاج الى تفسير ، وهي ذات دلالة في الوقت نفسه . على سعة محفوظة من مفردات العربية وتراكيبها . فالحزبي - بلا شك - شاعر فذ مقلق . ألقى قصيدة عصماء تعتبر دعامة أساسية لفن رثاء الدول والمسلمين في الشعر الخريبي .

وهناك قصيدة أخرى في رثاء بغداد ومكاء أهلها أثناء فتنة الأميين (٢) والمأمون لشاعر يعرف بعلي بن أبي طالب ويلقب بالأعشى . وهي لا تخرج عن مضمونها ومعانيها عما تقدم من القصائد التي أوردناها ويبدأها متأسفا على زهاب حسنها ويرد ذلك الى حكم القدر ، فيقول :

- كأن لم تكن بغداد أحسن منظرا * وطهى رآته عين لاه وناظر .
- بلى ، هكذا كانت فأنهب حسنها ومدد منها الشمل حكم المقادر .
- وحل بهم ما حل بالناس قبلهم * فأضحوا أحاديثا لباد وحاضر .

ثم يقف الشاعر وقفة تأمل واستعبار ويخاطب بغداد التي قدت أطلالا بعد أن كانت دار الملوك أهل المواكب الفخمة ودار القضاة والشعراء والأدباء . . . الخ . . .

(١) انظر الفهرست : ١٦٤ .

(٢) المسعودي ، مروج الذهب : ٤١٠ / ٣ .

- أبغداد يادار الطوك ، ومجتنى * صنوف المنى ، يامستقر المنايسر .
- وياجنة الدنيا ، وياطلب الفسنى * ومستنبت الأموال عند المتاجر .
- أبيني لنا : أين الذين عهدتهم * يحلون في روض من العيش زاهر . ؟
- وأين الطوك في المواكب تغتدى * تشبه حسنا بالنجوم الزواهر . ؟
- وأين القضاة الحاكمون برأيهم * لورد أمور مشكلات الأوامر . ؟
- أو القائلون الناطقون بحكمة * وورصف كلام من خطيب وشاعر .

وهكذا يمضي الشاعر يندب أهل بغداد من شتى الأصناف وسائل عنهم
ربوعهم ونوادبهم مكررا كلمة " أين " الدالة على الدهشة والتساؤل الحزين . . .
ولكن لا مجيب الا الذكريات والمعبر وفي نهاية القصيدة - يعد أن يذكر قصور
الطوك وجواهرها ، وأرضها المرشوشة بالمسك وماء الورد - بعد هذا ينحس
باللوم على الطوك الذين أهطوا أمر الدولة واكتفوا بمجدهم القديم الذي بناه
آباؤهم فعاشوا في سكون الماضي ولم يفيقوا الا على طبول الحرب تزلزلهم :-
فما للطوك الخرم من آل هاشم * وأشياهم فيها اكتفوا بالمفاخر .
يرحون في سلطانهم وكأنهم * يرحون في سلطان بعض المشائخ .
تخاذل عما نالهم كبراً وهم * فنالهم بالكره أيدي الأصغر .
فأقسم لو أن الطوك تناصروا * لثأرت لها خوفا رقاب الجبابر . (١)
الثورة على المتوكل وقطعه :-

في سنة اثنتين وثلاثين ومائتين توفي الخليفة العباسي الواثق بالله ،
(١)
وهو بعدد لجعفر بن محمد بن هارون الطقب بالمتوكل على الله ، وهو

(١) القصيدة طويلة بلغت سبعة وثلاثين بيتا أوردت هنا بعضها .

(٢) الطبري : ١٥٤ / ٩ .

بالعمران والبناء ، فقد عقد العزم سنة خمس وأربعين ومائتين على أن يبني له مدينة تخذل اسمه وتنسب اليه فاختر موصفا يقال له الماحوزة ، وسنى مدينة الجعفرية ، ونى بها قصورا فخمة أشهرها قصره الجعفري الذي قتل به ، وانتقل اليها سنة سبع وأربعين ومائتين ونقل اليها الدواوين ، وأنفق عليها فيما قيل أكثر من ألفي ألف دينار ، وجمع فيها القراء فقرأوا ، ثم حضر أصحاب الملاهي فوهب لهم أموالا كثيرة . وقد مكث بها قرابة تسعمئة أشهر وثلاثة أيام ثم قتل . أما سبب قتله فكان السبب نفسه الذي اشتعلت به الفتنة بين الأمين والمأمون وهو ولاية العهد . ففي سنة خمس وثلاثين ومائتين عقد المتوكل البيعة لبيته الثلاثة معمد وسماه المنتصر ، والزبير ولقبه المعترز وابراهيم ولقبه المؤيد ، وقسم البلاد بينهم ، ولم يأخذ العبرة بما صنع الرشيد من قبله وما آل اليه الأمر بل كتب بذلك كتابا وأشهد عليه وجعل ولاية عهد المسلمين لمحمد ثم للمعترز ومن بعده للمؤيد ، ولكن وزراء المتوكل كالفتح بن خاقان وعبيد الله بن يحيى كانوا يميلون الى المعترز أكثر من المنتصر فمازالا بالمتوكل حتى أقتعاه بأن يصلى المعترز بالناس الجمعة وقد كان المتوكل قد عهد الى المنتصر بذلك حيث كان هو يشك من وعكة وضيق صدر فوافق على ذلك وتم ما أراد الوزراء ، ثم أمر المتوكل أن يضرب اسم المعترز على السكة ، فكانت هذه ارهاصات لتقديم المعترز على المنتصر بولاية العهد الأمر الذي أوفر صدر المنتصر على أبيه فراح يدبر الأمر للتخلص منه ، وبالفعل اتفق مع القواد الأتراك أمثال باغر التركي ومفا الشرايين ، وغيرهم ، وشبوا عليه في مجلسه ليلا فقتلوه وقتلوا وزيره الفتح بن خاقان ، ووجه المنتصر فس اليوم التالي بالخلافة ، وخلع أخويه من ولاية العهد وانتقل الى سامراء وأمر بمدينة الجعفرية والقصر الجعفري أن يهدم ، فخربت تلك القصور ونقض

(١) ابن رسته ، الأعلام النفسية : ٣٦٦/٧ - ٣٦٧ .

بنيانها وهجرها الناس وفي هذا يقول البحترى : (١)

- تفير حسن الجعفري وأنسه * وقوش يادى الجعفري وحاضره .
- تحمل عنه ساكوه فجاءة * فأضحت سوا دوره ومقابره .
- ولم أر مثل القصر ان ربيع سربه * وان زعرت أطلاؤه وجانزه .
- وان صبح فيه بالرحيل فهتكت * على عجل أستاره وستائره .
- اذا نحن زرنه أجد لنا الأسى * وقد كان قبل اليوم يَبْهَجُ زائره .
- ووحشته حتى كان لم يقيم به * أنيس ولم تحسن لعين مناظره .
- كان لم تبت فيه الخلافة طلقة * بشاشتها والملك يشرق زاهره .
- ولم تجمع الدنيا اليه بهاءها * ومهجتها والعيش غنى مكاسره .
- فأين الحجاب الصعب حين تمنعت * بهيبتها أبوابه ومقاصره .

ان البحترى عندما يقف باكيا على أثار القصر الجعفري فانه يؤدى بذلك

حقا ودينا عليه لولى نعمته الخليفة المتوكل ، ومن ثم فهو لا يقف على

أثر دارس ، ولا يبكيه من بعيد ، بل هو يرثيه عن خبرة به ، فلطالما تردد

على بلاطه ، ودبح المدائح فى فناءه ، ونال جوائز وصلاته . فالشاعر كان

يمر نفسه أثناء رثائه للقصر الذى أصبح حطاما ورحل عنه من كان يعمره

من أهله وخدمه وولماته وجواربه ، وما أسرع ما دب اليه الخراب

فلم يعيش أكثر من سنة واحدة ، ثم هتكت أستاره وستائره ، فهو مظلم موحش

بعد أن كان يتلأأ ببهجة الخلافة وشاشتها . ثم يشتد الحزن بالشاعر عندما

يذكر سيده الخليفة وكيف صرع فيقول :-

• وأين عميد الناس فى كل نوبة * تنوب وناهى الدهر فيهم وأموره .

• تخفى له مفتاله تحت غمرة * وأولى لمن يفتاله لو يجاهره .

(١) ديوانه : ١٠٤٥ / ٢ وما بعدها .

صريع تقاضاه السيوف حشاشة * وجود بها الموت حمراً أظافسره . (١)

ومعد هذه الصورة المؤلمة التي يرسمها الشاعر للخليفة المقتال غدرا
والتي يحاول فيها إثارة أهل الدم للثأر من القتل المتآمرين ، يعود لنفسه
فيذكر أن رأس هذه الشرنمة هو ابن الخليفة وطيه ، وهو القائم بالخلافة
بعده ، فلا بد إذن أن يذهب دم المتوكل هدرا .

فحق للشاعر أن يهلك عليه أسي ، وأن يبكيه عمره كله ، فيقول بانفصال

غاضب :-

(٢)

حرام علىّ الراح بمدك أو أرى * دما بدم يجرى على الأرض مائسره .

وهل أرتجى أن يطلب الدم واتسر * يد الدهر والموتور بالدم واتره .

أكان علىّ العهد أضمر غـدـره * فمن عجب أن علىّ العهد قادره .

(٣)

فلا علىّ الباقي تراث الذي مضى * ولا حطت ذاك الدعاء منابسره .

(٤)

ولا أوال المشكوك فيه ، ولا نجسا * من السيف ناض السيف غدرا وشاهره .

لنعم الدم المسفوح ليلة جعفر * هرقتم ، وجنح الليل سود دياجره .

والملاحظ علىّ الأبيات الأخيرة أن الشاعر يحمل حملة عنيفة وجريئة

علىّ علىّ العهد فيدعوه عليه بأن يلقي نفس المصير الذي صير أباه إليه ، وكأن

الشاعر قد أذهلته المصائب عن التفكير في العواقب ، وقد صاغ ذلك كله

بأسلوبه العذب ، وديباجته الناصعة البعيدة عن الغموض والتكلف .

(١) تقاضاه : تطالبه . اللسان (قضي) ، الحشاشة : بقية الروح . اللسان

(حشش) .

(٢) المائر : السائل / المصدر نفسه (مور) .

(٣) علىّ : متع / المصدر السابقة (ملا) .

(٤) وأل : نجا أو التجأ . المصدر السابق (وأل) .

وماد منا بصدد الحديث عن شعر البحترى فى رثاء المدن والقصور الستى
 خلت من أنيسها واندثرت بعد ازدهار واشتهار ، فلا بد أن نعروض لوقتته
 على ايوان كسرى ، ذلك الأثر الحضارى الذى بقى أمدا طويلا شاهدا على
 روعة البنيان ورفعة الحضارة .

ولعل الشاعر قال هذه القصيدة الرائعة بعد مقتل المتوكل وخراب قصوره
 يفرغ فيها أحزانه ، ويتأسى بالعظماء الذاهبين ، فذكره للإيوان وما أصابه
 يخفف من حزنه على الجعفرى وذكره لكسرى ومصرعه يهون من ألمه لمصرع
 المتوكل . هذه الحالة النفسية ، ونظرة العظمة التى يراها فى المتوكل
 هى التى حطت البحترى على الوقوف على الإيوان دون غيره من آثار الماضيين
 ويبدأ قصيدته السينية بوصف حالته المتغيرة التى أوصلته إليها الأيام
 الجاهدة فى محاربه والحق التماسه به ، ولكنه يتجلد ، وهو بهذا يرفع
 من شأن نفسه لأن الأيام لا تحارب الا من له خطر . يقول : (١)

- صنت نفسى عما يدنس نفسى * وترفعت عن جدا كل جيس . (٢)
 وتماسكت حين زرعنى الده * ر التماسا منه لتمسى ونكسى .
 وكان الزمان أصبح محمـو * لا هواه مع الأخص الأخص .
 واشترائى المراق خطبة فبين * بعد بيمنى الشام بيمة وكسى . (٣)
 لا ترزنى مزاولا لا ختبارى * بعد هذى البلوى فتنكوسى . (٤)
 و قد يما عهدتنى ذا هنـات * أبيات على الدنيا شمس . (٥)

(١) ديوانه : ١١٥٢ / ٢ - ١١٦٢ .

(٢) الجيس : الجبان اللئيم / اللسان (جيس) .

(٣) الوكسى : النقصان والخساره / المصدر نفسه (وكسى) .

(٤) ترزنى : تجرئنى / المصدر السابق (روز) .

(٥) هنات : خصال ، شمس : عنيدة لا تنزل / انظر الامدى ، الموازنه :

ان الشاعر يحس انقلابا في حياته ، فالدهر يلعب به ، والأحباب والأقارب
يقلبون له ظهر المجن ، ويعاملونه بجفاء ، ونفسه لا تقبل الاقامة على السدل ،
فلا بد له اذن من الرحيل الى حيث الايوان الدائر ليسلوا عما به . وهو هنا
من الناحية الفنية يسير حسب تسلسل قصيدة المدح المعروف بعمود الشعر
العربي ، فبعد شرح حالته جاءت الرحلة يقول :

- واذا ما جفيت كنت جديرا * أن أرى غير مصبح حيث أسسى .
حضرت رحلي المهوم فوجهي * ت الى "أبيش المدائن" عنسى . (١)
أتسلى عن المظوظ وآسى * لمحل من آل ساسان "درسى" .
ذكرتهم الخطوب التوالى * ولقد تذكر الخطوب وتتسى .

وعندما يقف الشاعر على محل آل ساسان يرجع بذاكرته الى الجهود الخوالى
يصف حالهم أيام العز والمجد ، فيقول :

- وهم خافضون في ظل عسال * مشرف يحسر العميون ويخسسى .
مفلق بابيه على جبل ألقب * ق الى دارتي "خلاط" و"مكس" (٢)
حلل لم تكن كأطلال سمدي * في قفار من البسابس طسس .
ومساع لولا المحاباة منى * لم تطقها مسعاة عنس وعيسسى . (٣)

(١) أبيش المدائن : قصر الأكاسره ، كان من عجائب الدنيا لم يزل قائما
الى أيام الخليفة المكثف بالله في حدود سنة ٢٤٠ هـ فانه نقض وسنى
بشرفاته التاج الذي بدار الخلافة / معجم البلدان (المدائن) .

(٢) جبل القبق : جبل ضخم يمثل آخر حدود أرمينية ، يقال أن طولها
خمسائة ميل / معجم البلدان / (القبق) .
خلاط : هي قرية أرمينية الوسطى ، تشتهر ببحيرتها ، وكثرة فواكهها
المصدر نفسه : (خلاط) .

مكس : موضع بأرمينية من ناحية البسفور / المصدر السابق (مكس) ،
وانظر : المعرى ، عبث الوليد : ١٢٢ .

(٣) عنس : قبيلة يمنية قحطانية / انظر عمر كحالة ، معجم قبائل العرب :
٧٣٨ / ٢ ، ٨٤٧ .

عيس : قبيلة عدنانية نجدية ، ومراده من البيت العرب كافة .

نقل الدهر عهدهن عن الجد * دة حتى رجمن أنضاً لبس .
 لقد كان القوم في رغد من العيش وسعة من الرفاهية في ظل ملكهم
 الشامخ بجباله وسهولة وأنهاره وشتان بينهم - في ذلك - هيمن العرب أهل
 الصحراء والتكشف والعيش الصعب ، كما أن أعمال الفرس وساعيهم الجليسة
 لا تقوم بازائها أعمال العرب البسيطة ، ولكنها المحابة من جانب الشعراء
 العرب تجعله يقارن هذه بتلك . ثم ينتقل الى حالة الايوان الراهنسة
 المحزنة فيصفها بقوله :

- فكان الجرماز من عدم الأنس * س واخلاله بنية رمس . (١)
 لو تراه علمت أن الليالسي * جعلت فيه ماتما بعد عرس .
 وهو ينبئك عن عجائب قوم * لا يشاب البيان فيهم بلبس .
 واذا مارأيت صورة * أنطسا * كية * ارتعت بين روم وفرس . (٢)
 والمنايا موائل وأنوشتر * وان يزجى الصفوف تحت الدرفس .
 في اخضرار من اللباس على أص * فريختال في صبيغة روس .
 وهراك الرجال بين يديه * في خفوت منهم واغماشي جرس .
 من مشيح يهوى بعامل رمح * وطيح من السنان بسترس .
 تصف العين أنهم جد أحياء * لهم بينهم اشارة فرس .
 يفتل فيهم ارتياح حتى * تتقراهم يداي بلمس .

(١) الجرماز : الايوان (معربة عن كرمازی الفارسية) . حاشية ديوان

البحترى : ١١٥٥ / ٢ .

(٢) أنوشروان : هو كسرى ملك الفرس .

(٣) الدرفس : العلم الكبير . (معرب عن (درفش) الفارسيه . المصدر

السابق : ١١٥٦ .

يصف الشاعر في هذه الأبيات الايوان وصفا حسيا نابضا بالحركة ، يضع
 البحترى على رأس شعر الوصف ، فهو عندما يصف الجرماز من ناحية هيكله
 الخارجى يصفى عليه شيئا من الكلبة والوحشة ، وكأنه مقبرة أو ماتم ، ولكنه
 اذا تأملته عن قرب ينبئك عن تاريخ أمة مجيدة كانت سمع العالم ومصيره
 ثم نرى الشاعر يفتن في تصوير المشاهد التى يجدها في جنبات الايوان
 وكأنه رسام ماهر الريشه ، فهذا منظر مهيب مرعب للحرب بين الفرس والروم فى
 أنطاكية حيث كسرى أنوشروان يقف بكبريا تحت اللواء الضخم ينظم صفوف
 جنده المرججين بالسيوف والرماح والتروس ، ومن خلال الوصف يجعلك
 تشاهد حركة الجند السريعة ، وتسمع أصواتهم وهساتهم فلا تكاد تلتقط
 أنفاسك لشدة متابعتك للحركات المتوالية بسرعة . ويبلغ القمة فى الدقة
 حينما يبين أن حقيقة هذا المشهد قد عميت عليه بين الحقيقة والظل . حتى
 يكشف عن ذلك باللمس .

ومعد هذا تفتن نفس الشاعر لذهاب هؤلاء القوم ، فيهرب الى كأس خمسر
 بيد وفيها الأمامه :

قد سقانى ولم يصر أبو الفخو * ث على العسكرين شربة خلص . (٢)

-
- (١) كانت تسمى أنطوخيا نسبة الى أنطخين اليونانى الذى بناها ، وهى
 مدينة حسنة الموضع ، كان يقال أنه ليس فى أرض الاسلام ولا أرض الروم
 مثلها ، وتمثل الآن ما يسمى بلوا* الأسكندرونة . انظر صبح الأعشى : ١٢٩ / ٤ .
 نزهة المشتاق : ١٤٥ ، محمد الفزالى ، هموم داعية : ٩٧ .
 (٢) أبو الفخو : هو يحيى بن البحترى / معجم الأدبا* : ٢٥٦ / ٧٩ ،
 يصرّ : يقلل .

أفرغت في الرجاء من كل قلب * فهي محبوبة الى كل نفسى .
وتوهمت أن "كسرى أبرويش" زمعاطى ، و"البليهد" أنسى . (١)
حلم مطابق على الشك عيبنى * أم أمان غيرن ظنى وحرسى .
ومعد هذا الشرود الخيالى الذى جعل كسرى ينادم الشاعر ، والبليهد
يشجيه بألحانه وأغانيه ، يفيق من سكرته ليجد أنه كان يفرق فى بحر من
الأحلام والأمانى فتعاوده الهوم والأحزان فيصبتها أوصافا معنوية لشئ
محسوس ، فيجعل الايوان كنيها مزعجا لفراق الأهل والأحباب . وهذا اللون
من الوصف يبعث الحياة فى الجمادات ويمطئها روحا تحس ، وتكون
صلة عطف واشفاق - مع الشاعر الذى يرثيها . يقول :-

وكان " الايوان " من عجب الصنع * لة جوب فى جنب أرعن جليس . (٢)
يتظنى من الكتابة ان يبش * ولعيني مصبح أو ممسسى .
مزعجا بالفراق عن أنس الصف * عز ، أو مرهقا بتطليق عرس .
عكست عظه الليالى ، مات الـ * مشتري فيه وهو كوكب نحس . (٣)

انا هنا نشعر بفعالية اللغة من خلال الألفاظ التى يستخدمها
الشاعر ، فالجو الذى رسمته كلمات : الكتابة ، ومصبح ومسى . مزعجا بالفراق
..... مرهقا بتطليق عرس . يوحى بالبؤس ويرسم على صفحة الايوان
خطوطا من الحزن والتشائم الداعمين ، فهو منكش على المدى ، قد ولست

-
- (١) البليهد : هو معنى كسرى أبرويش ونديمه / انظر معجم البلدان (قصر
شيرين) .
(٢) الجوب : الخرق أو النحت فى الجبل ، الأرعن : الجبل ، الجليس :
العالى / انظر التعليل ، شار الطوب : ١٤٣ .
(٣) المشتري : كوكب من المجموعة الشمسية وهو كوكب سعد عند العرب .

زهرة شبابه ، وماتت سموده نحوسا ، ولم يعد ينفعه التجلد مادام
الدهر قد أناخ بكللته عليه :

فهو يبدى تجلدا وعليه * كلكل من كلاكل الدهر موسى .
ان الشاعر - فيما يبدو - في حالة اضطراب نفس ، مصحوبة باعجاب
لا يجعله يفارق هذا الأثر الحضاري الرائع ، فنراه بعد أن وصف ماتم
الايوان يعود مرة أخرى ليذكر أيام هذا الايوان الزاهر ، وما كان يجيده
كسرى من التعظيم في رحابه :-

- ليس يدري أصنع انس لجسن * سگوه أم صنع جن لانس .
- غير أنى أراه يشهد أن لــــم * يك بانية في الطوك بنكس .
- فكأنى أرى المراتب والقــــو * م اذا ما بلغت آخر حسس .
- وكان الوفود ضاحين حســــرى * من وقوف خلف الزحام وخفس .
- وكان القيان وسط المقاصــــي * ريرجمن بين حو ولعسس .

ثم بعد ذلك يعود للوقوف عليه في حالة اندثاره مبينا سبب وقوفه

ومكائه :-

- عمرت للسور دهرًا فصارت * للتعزى رباعهم والتأسى .
- فلها أن أعينها بد مــــوع * موقوفات على الصباية حبس .
- ذاك عندي وليست الدار داري * باقتراب منها ، ولا الجنس جنس .
- غير نعى لأهلها عند أهلى * فرسوا من زكائها خير فرس .
- أيدوا ملكنا وشدوا قــــواه * بكماة تحت السنور حمس . (١)
- وأرائى من بعد أكلف بالأشــــ * راف طرا من كل سنخ وأس . (٢)

(١) السنور : السلاح الحديدي ، أو الدرع . وهو معرب / انظر الجواليقي

المعرب : ٢٠٠ .

(٢) السنخ والأس : الأصل / الصحاح (سنخ) ، (أسس) .

ان الشاعر يقف على ايوان كسرى ، ويبيكه بدموع غزار بالرغم من أنه ليس بداره ، كما أن ساكنيه وطوكه الذين فنسوا ليسوا بأهل الشاعر ولا منسقين قومه ولكن عاطفة الشاعر الانسانية هي التي تدفعه الى أن يوفى أولئك القوم - الفرس - ما لهم من حقوق على دولة بني العباس ، فعلى أكتافهم قامت منذ البداية ، ثم اشتد عودها بفضل القادة والجيوش الضخمة التي قدمت من خراسان وغيرها واستطاعت أن تثمم كل مقاومة حتى ثبت الملك على أساس قوى ، ولما أن الشاعر يعتبر نفسه من بيت الخلافة ولا وهو لا يقدر على تقديم شيء يذكر لأهل الايوان لغنائهم فلا أقل اذن من أن يقف على آثارهم .

وسبب آخر لوقوف الشاعر على هذا الايوان هو ولعنه بالأشراف والسادة الكرام عامة ، بغض النظر عن جنسهم ووطنهم ، وكأنه يريد - من وراء ذلك - أن يبين لنا منزلته ، وأى رجل هو .

أما القصيدة فهي في الذروة من الشعر العربي ، صاغها الشاعر بأسلوبه السلس السهل وان كان أحيانا يعمد الى الفخامة حينما يتطلب الموقف ذلك ولكن في غير تعور ولا تقعر ، فألفاظه حلوة الجرس لا تكاد تحس فيها ظلمته وقد وشى البحترى قصيدته بألوان من المحسنات ، وخاصة الطباق والمقابلة التي وقعت في مواضعها أحسن موقع لأنها جاءت من غير تعمل ، كقولته " ولقد تذكر الخطوب وتنسى " ، وقوله : " وهم خافضون في ظل عال .. " . كما أنه وفق لروى مناسب للقصيدة " السين المخفوضة " اذ أنه حرف هامس يناسب موقف الرثاء والحزن ، وأدت الكسرة - أيضا - دورها في زيادة التأثير .

يقول ابن المعتز عن البحترى : " لولم يكن له الا قصيدته في ايوان كسرى

(١)

فليس للعرب سينييه مثلها - وقصيدته في بركة المتوكل لكان أشعر الناس " .

وممن سبق البحتري بزمن طويل في الوقوف على بقايا ايوان كسرى
(١)
الشاعر آدم ابن عبد العزيز ، ومقطوعته التي وصلت اليها قليلة الأبيات
ولكنها ذات معان كبيرة .

يقول : (٢)

- أقول وراعني ايوان كسرى * برأس معان أو أدرو سفان
- وأبصرت البفال مريطات * به من بعد أزمنة حسان
- يعز على أبي ساسان كسرى * بموقنن في هذا المكان
- شربت على تذكر عيش كسرى * شرابا لونه كالزعفران
- ورحت كأنني كسرى اذا ما * علاه التاج يوم المهرجان

ان الشاعر - كما يبدو لي - يتخذ من الوقوف على ايوان كسرى تعة للبكاء
على ملك قومه الأمويين الذي أحيط به ، وأصبح عبرا وأحاديث ، ونظرا
للوضع الذي كان يعيش فيه الشاعر عبر بالتلميح بدل التصريح . ويتألم
آدم بن عبد العزيز لما حل بهذا الايوان الضخم من نوائب الدهر ، حتى
أصبح مريطا للبفال ، من بعد أن كان مقرا للحسان ، ومرثعا للطبائء .

(١) هو آدم بن عبد المزيذ بن عمر بن عبد العزيز بن مروان . كان بالشام
حين ذهب ملك قومه الأمويين ، وأراد العباسيون قتله مع من قتلوا
بنهر أبي فطرس ، ولكنه استعطفهم فتركوه . وقيل لقربته من عمر
بن عبد العزيز ، ثم عاش بعد ذلك في العراق ، فهو من مخضرمي
الدولتين . وقد كان ماجنا خليعا في أول حياته ثم نسك بعد ما عمر
ومات على طريقة محموده سنة ١٦٠ هـ / انظر الأغاني : ٢٨٧/١٥ ،
الشكفة ، رحلة الشعر : ٤٩٥ .

(٢) الأغاني : ٢٨٩/١٥ .

وهذا الوضع المؤسف مما يحزن ويؤلم كسرى - صاحب الايوان - الذي يتقمص
الشاعر شخصيته وينطق بلسانه معبرا عن شعوره ، وعندما يأخذ الشاعر
الأسف والحسرة على نهاب هذا الأثر العظيم يلجأ الى تناسي ذلك بكأس
خمر يعجب منها ، فتجعله كسرى جديدا يتألف تاجه في مواسم الفرح .

ولعلنا هنا نلاحظ الشبه في هذه الصورة المتخيلة - لفعل الخمره -
عند كل من آدم والبحترى فالبحترى جعل كسرى ينادمه ، والبلهذ يفنيسه
أما آدم فتصور نفسه كسرى بذاته . فهل يعنى هذا أن آدم قد أوحى الى
البحترى بهذه الصورة - لكونه أسبق منه اليها ؟ ربما كان الأمر كذلك . ومن
الجدير بالذكر في هذا المقام ، القول بأن هذه الصورة لفعل الخمر بشاربها
ونقله ما هو فيه من هموم وحضيني الى السعادة والقامة موجودة منذ القديم

في شعر الشعراء . يقول حسان بن ثابت رضى الله عنه - : - (١)

ونشربها فتركا طوكا * وأسدا ما ينهننا اللقا .

ويقول المنخل : (٢)

فاذا سكرت فاننى * رب الخورنق والسدير .

واذا صحت فاننى * رب الشهوة والبصير .

(١) ديوان حسان : ١٧ / ١ .

(٢) هو المنخل بن عبيد بن عامر اليشكري . شاعر جاهلي قديم / ابن

قتيبة ، الشعر والشعراء : ٤٠٤ / ١ - ٤٠٥ .

رثاء البصرة حين تدميرها على يد الزنج :-

من الثورات الخطيرة والحنيفة التي وقعت في العصر العباسي الثاني ،
وكادت تؤدي بالخلافة العباسية - لولا لطف الله - الثورة السامة بثورة
الزنج ، لأن معظم جيشها كان من الغلمان والزنج والعبيد . ولقد شغلت
هذه الثورة الدولة العباسية ما يزيد على أربع عشرة سنة ، فقد كانت البداية
الأولى لها في سنة خمس وخمسين ومائتين حينما ظهر رجل في فرات البصرة
يدعى أنه طوي ، وأن اسمه علي بن محمد بن أحمد بن زيد الس (١)
يصل إلى طوي بن أبي طالب . ثم لم يلبث أن رحل إلى البحرين ، ودعا
الناس فيها إلى اتباعه وبيعته - بوصفه أحق بالخلافة من بني العباس - فتبعه
خلق كثير من أهلها ولحق فيها من التعظيم والاحترام ما يفوق الوصف ،
حيث أحلوه من أنفسهم محل النبي فحسب له الخراج ، ونفذت أحكامه فيهم
ولكنه لقي معارضة من قوم آخرين من سكان تلك النواحي ، فاشتعلت الحرب
بين المؤيدين والمعارضين ، مما اضطره إلى التحول عنهم إلى البادية
فاجتمع له بها جماعة كثيرة ، وزحف بهم إلى موضع بالبحرين يقال له (السوم)
فكانت بينه وبين أهلها وقعة كبيرة دارت الدائرة فيها عليه وعلى أصحابه

(١) ذكر أن اسمه الحقيقي هو طوي بن عبد الرحيم من بني عبد القيس .

من قرية من قرى الري يقال لها ووزنين . انظر : الطبري : ٤١٠ / ٩ ،

ابن خلدون ، تاريخ العبر : ١٨ / ٤ .

(٢) البحرين : اسم جامع لبلاد طوي ساحل بحر الهند بين البصرة وحسان

وعدها قوم من اليمن ، وفيها عيون كثيرة في ناحية قراها بحيرة طوي باب

الأحساء ، ولذلك سميت بالبحرين / معجم البلدان : (بعيرين) .

فنفروا منه ، وكرهوا صحبتته ، فجارنى أمره وأخذ يفكر بمنطقة أخرى
يذهب اليها . يقول : (١)

" فأظلتنى سحابة فبرقت ووردت ، واتصل صوت الرعد منها بسمعى ،
فخطبت فيه ، فقيل : أقصد البصرة ، فقلت لأصحابى وهم يكفوننى ، انى
أمرت بصوت هذا الرعد بالمصير الى البصرة " . فمضى اليها ودعا بها لنفسه
ولكنه لم يجب ، ولم يخبره واليها محمد بن رجا الحضارى ، فوجه اليه
حملة عسكرية ، ولكنه هرب منها حتى دخل بيفداد وكان يرافقه من أصحابه
الذين اتبعوه فى البحرين يحيى البحرانى وسليمان بن جامع اللذان أصبحا
فيما بعد من قادة جيوشه المفضلين ، ومكث فى بيفداد قرابة العام ، حتى
سمع بمسزل ابن رجا الحضارى عن البصرة ، ووقع الفتن الطاحنة بين أهلها
توجه اليها ونزل قصر يعرف بقصر القرشى ، على نهر يعرف بمسعود ابن
المنجم ، وادعى أنه وكيل لولد الخليفة الواثق فى بيع السباخ ، وبدأ
دعوته من هناك وسط الزنوج الذين كانوا يعملون بتلك السباخ حتى اجتمع
اليه منهم جيش جرار . فنظّمهم ورتب أمورهم وجعل عليهم قوادا منهم - ثم
قام فيهم خطيبا فمناهم وبذل لهم الوعود بأنه سيقودهم الى امتلاك الأموال
والضياع ، وحلف لهم بأغلظ الأيمان ألا يفدر بهم ولا يخذلهم ، ولا يدع شيئا
من الاحسان الا صنعه لهم ثم انه لدهائه وخبثه أمر الزنوج أن يأتوا بمواليهم
فأتوا بهم مكتوفين ، ووخهم قائلا : " قد أردت ضرب أعناقكم لما كنتم تأتون
الى هؤلاء الغلمان الذين استضعفتموهم وقهرتموهم ، وجعلتم عليهم -
مالا يطيقون ، فكلمنى أصحابى فيكم ، فرأيت اطلاقكم " ثم أمر قوما من غلمانته

(١) الطبرى : ٤١١ / ٩ ، وقد فصل أخبار الزنج وشورتهم فى هذا الجزء
تفصيلا دقيقا .

(٢) واحدها سبخه : وهى الأرض الملحة التى لا تصلح للزراعة الا بعد كسبها
الصحاح : (سبخ) .

أن يجلدوا مواليتهم بالجريد خصمائة جلدة ثم أطلقهم . وهذا العمل ثبت في نفوس الزنج أن حركتهم هذه ما هي الا ثورة العبيد ضد السادة الظالمين وان غلفت بغلاف ديني . عندئذ أخذ الزنج يغيرون على دور السلاح وينتهبونها ، كما انتهبوا بعض المراكب البحرية والزوارق وما الى ذلك حتى أصبحوا على استعداد تام لأي هجوم على أقوى الجيوش وأكبرها ، عندئذ حاصر البصرة وضيق عليها ، وحارب أهلها ، ولكنه لم يدخلها في العمام المذكور (٢٥٥) . وكأنه بذلك يريد اختيار القوة الموجودة فيها ، فلما رأى ضعفها صمم على اقتحامها . ففي سنة سبع وخمسين ومائتين ، وجسه صاحب الزنج الى الأعراب الذين حول البصرة وأغراهم بالمال ، فأتاه منهم أفواج كثيرة ، فأمرهم بمهاجمة البصرة ، ففعلوا . ثم هجم هو بقواته وظمانه على المدينة من جهاتها المختلفة ، وكان ذلك والناس في صلاة الجمعة ، فأخذ يقتل ويدمر ويحرق بيوم الجمعة والسبت ، فأصاب الناس بلا^(١) وجهسد شديدان يقول المسعودي : " واخفقوا الناس نذرا في الدور والآبار ، وكانوا يظهرون بالليل فيأخذون الكلاب فيذبونها ويأكلونها وكذلك الثيران والسنانير وكانوا اذا مات فيهم الواحد أكلوه ، كماعدوا مع ذلك الماء العذب ولما هلك الناس وتشردوا خرج الى صاحب الزنج بعض القوم يطلبونه الأمان ، فأمنهم على أن يجتمع كل من يريد الأمان في المسجد الجامع بالبصرة ففعلوا ، فما كان منه الا أن وضع فيهم السيف حتى أبادهم جميعا وأحرق المسجد الجامع ونهب أصحابه كل ما يقدر على من مال ومناج ، وقيل ان عدد القتلى من أهل البصرة بلغ ثلثمائة ألف بين ذكر وأنثى وشيخ وطفل . ولقد هـال

(١) مروج الذهب : ١١٩/٤ .

(٢) تاريخ الطبري : ٤٨١/٩ - ٤٨٣ .

القتل والخراب الذي لحق بالبصرة صاحب الزنج نفسه ، حتى نسب
(١)
ذلك الى فعل الملائكة التي كانت تؤيده - كما يزعم - فيروي عنه أنه قال :
دعوت على أهل البصرة في غداة اليوم الذي دخلها أصحابي ، واجتهدت
في الدعاء ، وسجدت وجعلت أدعوني سجودي ، ورفعت الي البصرة
فرايتها ورأيت أصحابي يقاتلون فيها ، ورأيت بين السماء والأرض رجلا واقفا
في الهواء ، وقد خفي يده اليسرى ، ورفع يده اليمنى ، يريد قلب البصرة
بأهلها فعلمت أن الملائكة تولت اخرابها دون أصحابي ، ولو كان أصحابي
مثلوا ذلك لما بلغوا هذا الأمر العظيم . وان الملائكة لتضربني وتؤيدنني
في حربى ، وتثبت من ضعف قلبه من أصحابي .

ويورد الطبرى عددا كبيرا من المعجزات والخوارق التي كان صاحب
الزنج يذكرها لأصحابه ليطمئنهم بأنه ولي أوتى مؤيد ، وخاصة عندما
ينوى خوض معركة كبيرة ، أو يكون قد انتهى من قتال يخشى بعده تزعمزاع
ثقة قومه به ، فكان يشن على أسماع قومه غارة من الخرافات والبشارات الكاذبة
وهم لجهلهم يصدقون ، قال فيه وفيهم المعتز ، وهى من أرجوزته
الطويلة :- (٢)

- مازال حينما يخدع السود انما * ويدعى الباطل والبهتاننا .
- وقال : سوف أفتح السوادا * وأملك العباد والبسلادا .
- وقال : انى أعلم الفيوميا * لم ير منهم عالما مجيبا .
- صاحب قوما كالحمير جهلة * وكل شئ : يدعه فهو لسه .

على أن أهم مارثيت به البصرة من الشعر قصيدة ابن الروص الميمية
الباكية التي تشمر عند قراءتها أن قائلها قد مسته النكبة وهزته المصيبة

(١) انظر تاريخ الطبرى : ٤٨٧/٤ .

(٢) ديوان ابن المعتز : ٤٨٤ .

يقول :- (١)

- زاد عن مطلق لذيق المنام * شغلها عنه بالدموع السجام .
- أى نوم من بعد ما حل بالبص * رة ما حل من هنات عظام .
- أى نوم من بعد ما انتهك الزند * ج جهارا محارم الاسلام .
- ان هذا من الأمور لأمر * كان أن لا يقوم فى الأوهام .
- لرأينا - مستيقظين - أمورا * حسبنا أن تكون رؤيا منام .
- أقدم الخائن اللعين عليها * وطى الله أيما اقتدام .
- وتسمى بخير حق اماما * لا هدى الله سعيه من امام .

بيدأ الشاعر قصيدته بوصف وقع الحادث الأليم على نفسه ، فقد لهج
بالبكاء واشتغل به عن النوم والراحة ، وهل هناك مجال للنوم من بعد
أن دمرت البصرة ، وأحرقت ، وانتهكت فيها محارم الاسلام على يد أولئك
الأشام ، ثم يتعجب ابن الرومى من شدة الحدث ، وكأنه لا يصدق ، أولا -
يريد أن يصدق ما يسمع من الأنبياء التى لم يكن يتوقع وقوعها حتى نفس
الأوهام والأحلام . ولكن ذلك حدث حقيقة ، بفعل ذلك اللعين - صاحب
الزنج - الذى لا يرمى الا ولا ذمة ، ولا تأخذه بالضعفاء شفقة ولا رحمة ، وهو
مع ذلك يدعى أنه امام وأنه طوى ، وهل هذا فعل امام مسلم يريد الخسر
للأمة : ؟ أما ماورد فى أرجوزة ابن المعتز السالفة الذكر من نسبة ذلك الدعى
الى العلميه ، حين قال :

والعلموى قائد الفساق * ورائع الأحرار فى الأسواق .

(٢)

فلعله أراد من ذلك الاساءة الى آل على بن أبى طالب بنمبه هذا الفاجر

(١) ديوان ابن الرومى : ٤١٩ - ٤٢٧ .

(٢) الموسوى الأصفهاني ، رياض الجنات : ١٠٣ / ٥ .

اليهم ، وجعله مثالا للثائرين منهم ، المطالبين بحقهم في الخلافة المنصوبة
(١)
مع علمه الأكيد أن آل علي ، منه بغراء وأنه مدّع كاذب ، فيروي عنه أنه لما نزل
قريباً من الكوخ أتاه أهلها فسلموا عليه وأمدوه بما يحتاج ، وجاءه فيمن
جاء رجل يهودي يقال له مائدويه فقبل يده ، وسجد له - زعم شكري لرؤيته
إياه - ثم سأله عن مسائل كثيرة فأجابها عنها ، فزعم أنه يجد صفته في
التوراة ، وأنه يرى القتال معه ، وسأله علامات في بدنه ذكر أنه عرفها
فيه ، فأقام معه ليلته تلك يحادثه .

ثم يأخذ ابن الرومي في التلطف والحسرة على هذه المدينة التي تعتبر من
عواصم الاسلام فيقول :

- لهف نفسي عليك أيتها البص - * رة لهفا كمثل لهب الضرام .
- لهف نفسي عليك يامعدن الـ * خيرات ، لهفا يعضني ابهاص .
- لهف نفسي عليك يا قبة الاسـ * لام ، لهفا يطول منه غرامس .
- لهف نفسي عليك يافرضة البلـ * دان ، لهفا يبقو على الأعوام .
- لهف نفسي لجمعك المتفانسـ * لهف نفسي لعرك المستضام .

ان هذا التكرار في عبارات التلطف ، يدل على الألم الممض الذي ألم
بالشاعر ، فمضى يحدث نفسه التي أخذها الذهول بمنزلة البصرة ، وما حل
بها من النكبات العظام ، وكأنه بذلك يضمها من الراحة أو السلوان .

ومعد هذه الزفرات الحارة التي يطلقها الشاعر الحزين ، يأخذ في تفصيل
الحادث ومجرياته ومآسيه ، ولعل هذا راجع لتأثير الفلسفة والمنطق الذي
ألم ابن الرومي بطرف منه ، فأثرف في أسلوبه بعض الشيء ، فهو أجمل في
بداية القصيدة عند حديثه عما حل بالبصرة من المهنت العظام ، والآن يريد

(١) تاريخ الطبري : ٤٢٠/٩ . الفرضة : العظيمة ، وفرصة البحر : محط

السفن . اللسان (فرس) .

أن يفصل بعد الاجمال فيقول :-

- بينما أهلها بأحسن عـال * ان رماهم عبيد هم باصطـلام . (١)
دخلوها كأنهم قطع اللـيـ * ل ان ا راح مد لهم الظنـلام .
أى هول رأوا بهم ، أى هول * حق منه يشيب رأس الفـلام .
ان رموهم بنارهم من يمين * وشمال وغلفهم وأمام .
كم أغضوا من شارب بشـراب * كم أغضوا من طاعم بطعام .
كم ضنين بنفسه رام منجـبا * فطلقوا جبينه بالحسـام .
كم أخ قد رأى أخاه صريـما * ترب الخد بين صرعى كـرام .
كم أب قد رأى عزيز بنـيـه * وهو يعلى بصارم صمـام .
كم مفدى فى أهله أسلمـوه * حين لم يعمه هناك حامـى .
كم رضيع - هناك - قد فطمـوه * بشبا السيف قبل حين القطـام .
كم فتاة - بخاتم الله بكـر - * فضحوها جهرا بنير اكتـام .
كم فتاة مصونة قد سبـوها * بارزا وجهها بنير لثـام .
صبحوهم فكابد القوم منـهم * طول يوم كأنه ألف عـام .
من رآهن فى المساق سبـايـما * داميات الوجوه لذقـدام .
من رآهن فى المقاسم وسط الزنـم * ج يقسمن بينهم بالسـمـام .
من رآهن يتخذن اسمـا * بعد ملك الاما والخـدام .

ان الشاعر فى هذه الأبيات يحدد - بمراره - صنوف العذاب التى أذاقها

أولئك الزوج لأهل البصرة ، الذين لم يكونوا يتوقعون مثل هذا الهجـوم

من عبيدهم وخولهم ، فقد أحاط بهم أولئك الأعداء من جميع الجهات ، -

وأعطوا فيهم السيف والقنا ، حتى أذهلوا الأخ عن أخيه ، والأب عن بنـيـه

(١) أصل المـشـى : قطعته من أصله . لسان العرب : (صلم) .

فكل يريد النجاة بنفسه ، ولكن أين هو من ذلك ؟ ان القوم له بالمرصاد .
كافعلوا الأفاعيل الشنيعة بالنساء ، والفتيات الحرائر المصونات ، فأخذوهن
سبايا حاسرات ، وانتهكوا منهن ما حرم الله جهرا بخير اکتتام ، وأقاموا
سوقا لبيعهن يقول الصعدي : " كان ينادى في عسكر الزنج على المرأة
من ولد الحسن والحسين والعباس ابن عبد المطلب وغيرهم من ولد هاشم
وقريش ، ومن سائر أبناء الناس ، فتباع الجارية بالدرهمين والثلاثين ،
وينادى عليها بنسبها هذه فلانة ابنة فلان ، وكل زنج منهن الحشرة
والعشرون والثلاثون " كما كانت النساء يقسمن بينهم بالاستهزام
فيتخذون اماه وخداما لا يجدن من ذلك فكاكا ، فيروى أن امرأة هاشمية
من ولد الحسن بن علي أبو طالب كانت عند بعض الزنج ، الفلاظ واستفانت
بالخبيث صاحب الزنج أن ينظما الي غيره أو يعتقها ما هي فيه ، فقال
لها : " هو مولاك وأولى بك من غيره " . (٢)

ان هذه الصورة البائسة التي وصل اليها حال أهل البصرة لتضرم القلوب
نارا ، لما لا قاه أولئك الناس من الذلة والمهانة التي تعدى أثرها الي من
سمع بها ومنهم شاعرنا ابن الرومي :-

- | | |
|----------------------------|-----------------------------|
| • ماتذكرت ما أتى الزنج الا | * أضرمت القلوب أيضا اضرام |
| • ماتذكرت ما أتى الزنج الا | * أوجعتني صرارة الارغام |
| • رب بيع هناك قد أرخصوه | * طال ما قد غلا على السوام |
| • رب بيت هناك قد أخربوه | * كان مأوى الضعاف والأيتام |
| • رب قصر هناك قد دخلوه | * كان من قبل ذلك صعب المرام |

(١) مرج الذهب : ١٢٠ / ٤ .

(٢) المصدر نفسه : ١٢١ .

رب ذى نعمته هناك ومسال * تركوه محالف الاعساد .

رب قوم باتوا بأجمع شمل * تركوا شطهم بخير نظام .

ان ابن الرومي شاعر أحتل العزن من قلبه ومن شعره مكان لا يستهان به
وذلك بعد أن اخترم الموت أولاده الثلاثة وزوجته ، فهو بذلك يجيد التفتن
في البكاء والتفجع ، وتراه اذا مارى بكى بصدق وحرارة عاطفة ، وأتى بصور
حقيقية للمرثى بعيدة عن التمهول والاغراق في الخيال ، ففي هذه القصيدة
نجده يرثى البصرة وكأنه موجود بها ، وشاهدنا حدثا لها عن قيسرب ،
وحزن عليها حزنا يشعر بصدق من يقرأ قصيدته ، مع أنه كان في بغداد
لا يفارقها الا قليلا .

ثم يعرض طينا الشاعر صورة للبصرة وقد هدمت دورها وقصورها ، وأسواقها
واستحالت الى انقاض ، وتلال من الرماد من فعل الحريق يقول :-

- عرجا صاحبي بالبصرة الزهـ * را* تعريج مدن ذى سقام .
فاسألاها - ولا جواب لديهما * لسؤال - ومن لها بالكلام . ؟
أين ضوضاء ذلك الخلق فيهما * أين أسواقها ذوات الزحام . ؟
أين فلك فيهما ، وفلك اليهما * منشآت في البحر كالأعلام . ؟
أين تلك القصور والدور فيهما * أين ذاك البنيان ذو الأحكام . ؟
بدلت تلك القصور تلالا * من رماذ ومن تراب ركمام .
سلط البثق والحريق عليهما * فتداعت أركانها بانهم دام . (١)
وخلت من حلولها ، فهي قفسر * لا ترى العمين بين تلك الأكمام .
غير أيد وأرجل بائنسات * نبذت بينهن أفلاق هام .
ووجوه قد رطمتها دسا * بأبي تلكم الوجوه الدوامس .

(١) البثق ، بثق السيل موضع كذا : خرقه وشقه / الصحاح (بثق) .

- وطئت بالهوان والذل قسرا * بعد طول التجميل والاعظام
- فتراها ، تسقى الرياح عليها * جاريات بهيوة وقتسام
- خاشعات ، كأنها باكينات * باديات الثغور ، لا لا بتسام

ان ابن الرومي في هذا المشهد يجعل البصرة أطلالا ورسوما وذلك بعد أن سيطر عليها شحوب الموت وسكونه فسكنت ضواؤها ، وغسلت أسواقها التجارية الشهيرة من الحركة ، ولم يعد يرى فيها الا الأشلاء المتناثره بين الركام ، هنا وهناك تسقى الرياح عليها لتغطى تلك الوجوه الحسان التي أنزلت بعد طول عز ومجد . وما دامت المدينة أصبحت كذلك ، فانا نراه يسلك لذلك سبيل الوقوف على الأطلال المعروف في الشعر العربي منذ أقدم عصوره ، فيطالب من صاحبيه أن يعوجا أو يعرجا طمس البصرة ، تعريج ذي العلة المدنف الذي قصمت ظهره الأرزاء والحسوات ، وقد أعطى وصفه للبصرة بالزهراء ، مع وصفه للمعرج بالسقم معنى جميلا ، يدل على شدة وجده وشوقه لتلك البلدة التي عهد لها زاهرة فأضحت بآثره . ثم يردف الوقوف بالسؤال ومناشدة الديار عن حالها وتغييرها وعيها عن الجواب . وهذا عين مايفعله الشعراء الجاهليون والمحافظون على عمود الشعر من بعدهم في مطالع قصائدهم ، انظر الى قول الشاعر الجاهلي :

مايكأ الكبير بالأطلال * وسؤ الى فهل ترد سؤالى . (١)

انه يقف بالأطلال ويسائلها ليكمل ذلك تمهيدا لفرضه الأصلي مسكن القصيدة وهو المدح في الخالب . أما ابن الرومي فانه يقف على مدينة زاهره ليرثيها ويتعسر على ماجرى لها من نواب ومصاب فحسب ، فخايتته هي الرثاء ولا يريد شيئا غيره ، وهذا هو الفرق بين الوقفتين .

(١) البيت مطلع قصيدة للأعشى ، أنظر ديوانه : ٣٩ .

ثم يطلب الشاعر من رفيقيه أن يزورا أهم معلم في مدينة البصرة ، وهو
مسجدها الجامع الذي أحرق بعد أن عاش دهرًا طويلًا مؤثلاً للعلماء والعباد
يقول :-

- بل ألما بساحة المسجد الجا * مع ، ان كتما ذوى الممام .
- فاسألاه ، ولا جواب لديـــــــــــــــــه * أين عباد الطوال القيام .
- أين عماره الألسى عـــــــــــــــــروه * دهرهم ، فى تلاوة وصيام .
- أين فتياه الحسان وجــــــــــــــــوها * أين أشياخه أولو الأحلام .

انه فى هذه الأبيات لا يركز رثاءه وكأهه للمسجد بذاته كمعلم اسلامى
بقدر ما يركز على أهل المسجد وعواده ، فيرسم لذلك صورة متخيلة ، عند ما
يدعى كل من حقل أهل البصرة من المسلمين على رؤوس الأشهاد ليحاكمهم
أمام الله ويحاسب على تقصيره فى الدفاع عن الحرمات فيندم ، ولكن ذلك
لا يخفى عنه شيئًا . يقول :-

- كم خذلنا من ناسك ذى اجتهاد * وفقيه فى دينه ملام .
- واندانى على التخلف عنــــــــــــــــم * وقيل عنهم غنا ندامى .
- واعياى منهم اذا ما التقينا * وهم عند حاكم الحكام .
- أى عذر لنا ، وأى جــــــــــــــــواب * حين ندعى على رؤوس الأنام .
- يا عبادى أما غضبت لوجهــــــــــــــــى * ذى الجلال العظيم والاكرام ؟
- أخذلت اخوانكم ، وقصدتــــــــــــــــم * عنهم - ويحكم - معود اللئام .
- كيف لم تعطفوا على أغــــــــــــــــوات * فى حبال العبيد من آل حمام .
- لم تغاروا لفيرتى ، فتركتــــــــــــــــتم * حرماى ، لمن أحل حرامى .
- ان من لم يفر على حرماــــــــــــــــتى * غير كف لقاصرات الخيام .
- كيف ترضى العمراء بالمرء بــــــــــــــــلا * وهو من دون حرمة لا يحاصى ؟

ان الشاعر - كما يلاحظ من الأبيات - يحاول الضرب على وتر حساس فوس نفوس الناس هو وتر العقيدة والأخوة الإسلامية ، فهو يضيف الى الصورة الأولى . صورة أخرى في نفس الموقف حين يتولى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مخاصمة المتقاصين عن الجهاد وتوبيخهم لأنهم لم يراعوا حرصة النبي فينصروا من استفات به :-

- واحيائي من النبي اذا ما * لا معنى فيهم أشد الملام
 - وانقطاي اذا هم خاصونى * وتولى النبي عنهم خصامى
 - مثل مثلوا قوله لكم - أيها النا * س - اذا لامكم مع اللسوام
 - " أمى : أين كنتم - ان دعنى * حرة من كرائم الأقسوام
 - صرخت : " يا محمد اه " فهلا * قام فيها رعاة حق مقامى
 - لم أجبها ان كنت ميتا - فلولا * كان حيي أجابها عن عظامى
- انه يصور النبي - عليه الصلاة والسلام - وقد غضب أشد الغضب ، طوى أمتة لخذلانهم اخوانهم في العقيدة ، وهو يمهّد بذلك لهب الحماس فوس نفوسهم عندما يحرضهم في آخر قصيدته على الثأر والانتقام من أطوائك الطفام الذين استباحوا الحرمات فيخاطب الناس قائلاً :-

- انفروا أيها الكرام خفافا * وثقالا الى العبيد الطفام
- أبرموا أمرهم ، وأنتم نيام * سوءة سوءة لنوم النيام
- صدقوا ظن اخوة أطوكم * ورجوكم لنسوة الأييام
- أدركوا ثأرهم ، فذاك لديهم * مثل رد الأرواح في الأجسام
- لم تقرروا العيون منهم بنصر * فأقروا عيونهم بانتقام
- أنقذوا سبيهم - وقل لهم ذا * ك - حفاظا ورعية للذمام
- عارهم لازم لكم أيها النا * س ، لأن الأديان كالأرحام

- ان قدمت عن اللعين فأنتم * شركاء اللعين في الاثام
- بادروه قبل الروية بالعز * م ، وقبل الاسراج بالاجام
- من فدا سرجه على ظهر طرف * فحرام عليه شمس الحزام
- لا تطيلوا المقام عن جنة الخ * لد ، فأنتم في غير دار مقام
- فاشتروا الباقيات بالعرض الأد * نى ويحسوا انقطاعه بالندوام

ان ابن الروي يخرج في آخر قصيدته الى الاستصراخ والاستغاثه مما يؤكد تفاعله مع الحدث بصدق وايجابية ، فنراه يتهج نهجا خطابيا حماسيا مركزا على المعانى الاسلامية التي هي أهم الروابط التي تربط فئات الناس ببعضهم ، في مجتمع كبير كالعباسي . كما أنه لا يجد أبلغ من العبارات القرآنية يذكر بها ويذجر أولئك الناس حاضا اياهم على الاسراع بالفتك باللعين صاحب الزنج ورهطه ، وافتكك الأسرى والسبايا من أيديهم ، حفظا لكرامة اخوانهم الذين مضوا وعرضهم . لأن ذلك أقل ما يبذل لاخوان العقيدة . فيطلب منهم أن ينفروا خفافا وثقالا للحرب والجهاد ، وأن يربأوا بأنفسهم عن قصود الجبناء اللثام ، فيكونوا عوناً للزنج على جرائمهم ، وشركاءهم في الاثام . ثم يذكرهم بالجنة ونعيمها الخالد الأبدى ، والفرق الشاسع بينهما وبين الدنيا الفانية ، ويدفعهم للمع أنفسهم وماطكوا من عرض الدنيا لله - بالجهاد في سبيله - لينعموا بتلك الجنان .

والذي يبدو أن استغاثة ابن الروي قد وجدت أذنا صاغية من الخليفة والحكام العباسيين وعامة الشعب ، حيث ندب الخليفة المعتمد على الله أخاه أبا أحمد الموفق طاحه ، وكان هذا داهية شجاعا ، أعد جيشا ضخما مجهزا بالمعدات البرية والبحرية ، واستطاع أن يلحق بالزنج هزائم متتالية وان يقتل منهم أعدادا كبيرة ، ويستفد كثيرا من البلدان والأسرى الذين

كانوا في أيديهم . ولكنه توفي قبل أن يقضى عليهم تماما في سنة خمس وستين ومائتين فخلفه على حربهم المعتضد بالله ابن الخليفة المعتمد ، وكان هذا - أيضا - شجاعا مقداما ، فأرهب الزنج بكثرة الغارات والحروب ، وحصرهم وضيق عليهم تضيقا شديدا ، مما اضطر أكثرهم أن يطلب من نفسه الأمان ، ويحارب معه ضد الزنج واستمر على ذلك من نصر إلى نصر حتى جاءت سنة سبعين ومائتين ، حيث استطاع أن يقضى على ثورة الزنج نهائيا وذلك بقتل **الدهلي** رأس الثورة وأسر قائديه المشهورين سليمان بن جاسع والمهلبى ، وحث بها إلى بغداد حيث قتل وصلبا هناك . (١)

(٢)

ومن رثى البصرة أيضا شاعر يعرف بأبي ناظرة السدوسي ، وهو أحد

أبناء البصرة الذين شهدوا خرابها على أيدي الزنج . يقول :- (٣)

- أبي الصبر تذكاري الديار التي خلست * مجالسها من سود وخطوب .
ومغدى ذوى الحاجات في كل شارق * إلى كل مفضى الفناء مهيب .
وكل مطاع في العشيرة ماجسد * معين على ريب الزمان وهوب . (٤)
منازل فارقت العمود ولم تكن * معانا لناقوس ولا لصليب .
منازل قوم أسرع السيف منهم * إلى كل وضاح الجبين نجيب .
وكل صميم من ذؤابه قومسه * كريم لغايات الكرام طلوب . (٥)
أبوا أن يرى الله اليهود منهم * لأعضة عن دين النبي تكسوب .

(١) انظر الخبر في تاريخ الطبري : ٦٠٢ / ٢ وما بعدها .

(٢) يبدو أنه شاعر مغمور ، فلم أعثر له على ترجمه الا قول المبرد عنه :

كان رجلا من أهل العلم والمعرفة بكلام العرب ، وحسن التصرف فيه

التعازي والمراسي : ٢٨٢ .

(٣) القصيدة بتمامها في المصدر السابق : ٢٨٢ - ٢٨٨ .

(٤) معانا : مكانا . اللسان . (معن) .

(٥) الأعضة : المفترى . اللسان (ضه) .

- فأودوا وقد عاشوا كراما أفضة * على فتن مرت بهم وحسروب .
 تفاد بهم ضربا على الهام تبارة * وذبحا بأقصى أنفس وقلوب .
 فكم من رعى دارت وكم من مصيبة * توالت ومن يوم هناك عصيب .
 على ألف ألف من ملوك وسوقة * شووا بين أبواب لهم ودروب .
 بخلقة هاماتهم وشريد هسم * شماطيط شتى أوجه وشروب .
 الى غير راع يرتجى النصر عنده * ولا عطن يؤوى اليه رحيب .
 عباديد من ناج على جذم بقلعة * ومن راح يشكو الكلال جنيب .
 ومن راسب طاف على الماء شلوه * ونى ظمأ أودى به وسحب .
 فيها أرضهم أخلوك فابكى عليهم * وجودى عليهم ياسما وصوب .

يبدأ الشاعر قصيدته بمطلع يتحسر فيه على دياره التي فارقها مرغما ويحاول أن يبدي شيئا من التجلد حينما يجول بفكره خاطر العودة مسن النزوح ولو عن بعد . ولكن هذا الصبر والتجلد لا يلبث أن ينهزم تحت طارق الشوق العارم الذي يبعثه تذكار المصاب الفادح . وأى صبر يبقو بعد دمار المدينة الشامخة التي كان خيرها للقريب وللمعيد شامل ، فهى قبلة نوى الحاجات ، يفشونها من كل صوب فينالون ما أرادوا لسماحة أهلها وكرمهم ، وكثيرا ما تكون الشهامة والعزة هى سبب المنية ، كما هو الحال عند

(١) شماطيط : أرهاط مختلفة - وهو جمع لا يفرد له واحد / اللسان -

(شمط) .

(٢) عباديد : جماعات متفرقة . وهو جمع لا يفرد له واحد / أيضا

اللسان (عبد) .

الرائح : الذى لا يقوى على النهوض ضعفا وتعيا ، اللسان (ربح) ،

الجنيب : المصاب بداء ذات الجنب (نوع من الأمراض) .

(٣) الشفوب : الجوع . اللسان (سغب) .

أهل البصرة ، فقد أبوا أن يستكينوا للذل والقهر ، فوقفوا بعزم أمام قوات الزنج الكاسحة على الرغم من ضعفهم إزاءها فقتلوا بعزة وشرف . وهنا نعت دفة العاطفة عندما يستطرد الشاعر في وصف المذبحة الرهيبة التي أقترنها وحوش الزنج ، فأماج الدماء تقذف بالهجمات الضلقة هنا وهناك ، ورحى الموت لاتزال تدور ، وتنتج الخراب والدمار والتشرد ، حتى هذه الزرافات من المشردين لا تدرى إلى أين تتجه ، فقد قل النصير وحسب الأمن والمأوى فمن نجا منهم من الزنج ، ابتلعته النهر ، ومن عبر النهر قتله الجوع والظما .

وبعد هذه الصورة المفعمة بالحركة والضجيج والتي أشاعت في جـمـو القصيدة روحا من العنف والسفاهة ، وأضفت عليها - ظلالة طونة بثقتي الألوان الصاخبة ، بعد ذلك نرى الشاعر يتطككه الأسى والشحوب حين تجسست أمامه مصيبة المدينة ومن بقى من أهلها فيقول :-

- أرى كل قوم لا يزال مظننة * منازلهم من آيب ومـؤوب .
سوانا فانا حشو كل مديننة * وألقاؤها من نازح وقريب . (١)
ذو أوجه فيها كواب وأعين * بواك وفقر ظاهر وشحوب . (٢)
فذو العزنا مستكين وذو الفنى * كأن لم يكن ذارحة وركوب .
فماحل بالاسلام مثل مصابنا * وسلطاننا للدين حق فصبوب .
فلا المرید المعمر بالعز والنهى * وكل فتى للمكرمات كسبوب . (٣)

(١) الألقا : جمع لقي : وهو الملقى أو المطروح . اللسان (لقا) .

(٢) كواب : ذابله مسوده . اللسان (كبا) .

(٣) المرید : من أشهر محال البصرة ، كان فيه يقسم سوق الابل قديما

ثم صار محلة عظيمة سكنها الناس ، به كانت مفاخرات الشمران ومجالس

الخطباء ، ويبعد عن البصرة ثلاثة أميال . / معجم البلدان : (مرید) .

- ولا قصر أوس والمناخ الذى به * وما حوله من روضة وكثيب . (١)
بمرتجع يوما ولا المسجد الذى * اليه تنهى علم كل أديب .
ولا قائم لله أنا ليلية * به كل أوامه اليه منيب .
ولا الشط ان فيه لنا الخير كله * وان معتفاه - الدهر - غير جديب .
ودجلة أحى جانبها كليهما * ككاتب زنج كالظنين دبوب . (٢)
مؤلفة أسنانهم وعيونهم * توقد فى كهرورة وقطوب . (٣)

ان اليأس والاستسلام هو العنصر البارز فى هذه الأبيات ، فالشاعر
ينظر بواقعيه الى الواقع المائل أمامه ، ومنه يستشف المصير المظلم الذى
ينتظر قومه بعد أن فقدوا كل أمل فى العودة الى مدينتهم . أما حالهم
فى غربتهم القاتلة فيشرحها الشاعر بمرارة وألم ، مرارة العزة والكرامة التى
تحولت الى ذلة وهوان ، فهم يعيشون هملا لا يؤبه لهم أينما حلوا وأقاموا
ولا يعرف شريفهم من وضيعهم ، وكأن الشاعر هنا يشير الى الجحود وسوء
المعاملة التى لقبها أولئك المشردون من أهل المناطق التى نزحوا اليها
حتى تغيرت ألوانهم وتلوحت وجوههم من الأسى والمهانة .

ثم يرجع السدوسى بذاكرته الى الأسى القريب وكيف كانت معالم المدينة
البارزة وما آلت اليه بعد الكارثة . فالمريد الذى كان يزدحم بالشعراء والخطباء
وكانه مدرسة تخرج النابهين فى كل فن أصبح خاليا من الأنيس ، صامتا صموت
المقابر . والمسجد الجامع مأوى العلماء والمتبتلين أصبح أطلالا سوداء موحشة
بعد أن أحرق ودمر .

-
- (١) قصر أوس : ينسب لأوس بن وديعة والى خراسان لبنى أمية ، وهو قصر
عظيم بنواحي البصرة وصفته الشعراء .
معجم البلدان : مادة (قصر) .
(٢) دبوب : الذى يمشى على مهل لضخامته ، اللسان (دبب) ، الظنين :
صوت الذباب / والشطر كناية عن البكرة .
(٣) مؤلفة : محددة الأطراف . الصحاح (ألل) ، كهرورة : عبوس وتحفز
اللسان (كهر) ، القطوب هو العبوس أيضا .

أما الشط الذي كان مصدر رزق للبصرة ، فقد خلا من سفن الخـيـر ،
وماتحمه ، وأبدل بها كتائب زنج فاغرة الأفواه للقتل والسلب والتدمير .
تمر بالشاعر هذه الحالة المنقبه فيتصور أنه لم يبق في الدنيا نعيم يطيب
مصه العيش :-

- نعت أرضنا الدنيا الينا وأدبرت * بكل نعيم في الحياة وطيب .
 - وما كانت الدنيا سوى البلد الذي * خلا اليوم من داع به ومجيب .
 - وما عيش هذا الناس بعد زهابه * بعيش ولا مفناهم برغيب . (١)
 - اذا الدمع لم يسعد كئيبا فاننى * سأبكي وأبكي - الدهر - كل كئيب . (٢)
 - على دمن جرت بها الريح بعدنا * ذيول البلى من شمال وجنوب . (٣)
 - وما كل بصرى شكها بمفند * ولا كل بصرى بكى بمعيب .
 - ولو أن بصريا بكى كسه شجوه * بكى بدم حتى المات صبيب .
- الى أن يقول :

- فيا بصركم من هالك مات حسرة * عليكم ومن صب اليك طسروب . (٤)
- يظل شعاعا قلبه ومببته * على سنن من ربه ونجيب .
- عليك سلام الله منا فاننا * نرى العيش الا فيك غير حبيب .

ان مدينة البصرة تمثل عالم الشاعر وديناه ، فيها عرف السعادة وطيب
العيش ، أما وقد انطفأت شعلتها ، وذوت نضارتها ، فانه قد نفس
يديه من لقاء السعادة والتمتع بلذات الحياة . بل انه يقطع على نفسه

(١) المفتى : المنزل / الصحاح (غنى) .

(٢) مأخوذ من قول امرئ القيس : فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها *
لما نسجتها من جنوب وشمال .

/ ديوانه : ٣٠ .

(٣) التفتيد : اللوم والتكذيب وتضعيف الرأي . الصحاح (فند) .

(٤) الشعاع : التفرق . الصحاح (شعع) .

عهدا بالبكاء المستمر مادام حيا ، وسيخلف لكل كتيب ثروة من الأحزان
والالام يستعين بها على استدرار الدمع - على مر الأيام . وهو في ذلك لا يلتفت
الى لوم اللائمين ، بل يستهجن فعل كل من يعترض على شاك أوك من أهل
البصرة الذين خرجوا من جنتهم ، فلو يگوا دما وهلكوا وهذا الحق لهم
ذلك دون عيب وانتقاص .

ومعد ، فالشاعر قد عاش تجربة مريرة ، تحطت في شهوده عن قرب
للسقوط المروع لمدينته الحبيبة ، ثم تشده في الآفاق مع آلاف المشردين
وقد استطاع الشاعر أن يعبر بصدق عن هذه التجربة ، وان كانت درجات
الانفعال تتذبذب بين الشدة والخفوت عبر أجزاء القصيدة ، فتشور عاطفته
عند تصوير القتل والأسرى والفرق ، والحيارى المضطربين الذاهلين وتهدأ
عندما يكون هناك بعد زمني يفصل بين حرارة الحادثة وبين ما هو بصدد
الحديث عنه ، وذلك كوصفه لحالة المشردين الذين استقروا - فيما بعد -
في مختلف المدن والنواحي ، وخشيتهم سحاب الكابة حين أيقنوا باستحالة
الرجوع الى مدينتهم ثانية .

وقد استعمل الشاعر الأسلوب التقريرى المباشر في نقل صور الأحداث
فابتعد عن الخيال فجاء خطابه لأسماعنا وأبصارنا أكثر من خطابه لأعماقنا
ووجد اننا ، وقد جاءت القصيدة سهلة الألفاظ والتراكيب مع حسن الانتقال
والترابط المحكم بين أجزائها ، على الرغم من طولها ، وهذا أمر لا يجيده
الا أذنان الشعراء ، كما أنها خلت من المقدمات كشكوى الدهر أو بيت هموم
النفس وما الى ذلك .

والأمر الغريب الذي يمكن ملاحظته على القصيدة هو خلوها من الصوت
القوى الذي يرتفع صارخا ومناديا للناس والحكام أن حي على الجهاد لافتكاك

الأرض والأرواح المسلمة من أيدي الزنج المجرمين ، كما فعل ابن الرومى من قبل . تخلو القصيدة من هذا على الرغم من مبالغتها قائلها في وصف النكبة حتى زعم أنه لم يحلّ بالاسلام مثلها ، ولعل سبب ذلك هو طول المسددة التي عاشتها ثورة الزنج ، وعنهم المذهل في التخريب والقتل والمهتك حيث استقر في النفوس أن لا طاقة لأحد بهم .

ومن الفتن التي حصلت في العصر العباسي الثاني ، في أيام الخليفة المعتمد ، ما وقع في المدينة المنورة في سنة إحدى وسبعين ومائتين ، حيث دخلها محمد وعلی ابنا الحسن بن جعفر بن موسى بن الحسين بن علي ابن أبي طالب ، وقتلا جماعة من أهلها ، وطالبا أهلها بالأموال وأخذوا شيئا من ذلك ، فانتشر الرعب في المدينة وخربت حتى انه لم يصل في مسجد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أربع جمع ، لا جمعة ولا جماعة فقال في ذلك أبو العباس بن الفضل العلوي :- (١)

- أخربت دار هجرة المصطفى البر * رفأبكي خرابها المسلمين
- عين فابكي مقام جبريل والقبـ * رفبكي والمنبر الميمونا
- وعلى المسجد الذي أسه التقـ * وي خلاء أضحى من العابدينا
- وعلى طيبة التي بارك اللـ * به عليها بخاتم المرسلينا

ان هذه الأبيات بالرغم من قلة عددها ، وساطة أسلوبها فانها تعدل على عاطفة جياشة مفعمة بالحزن والأسى لما أصاب مقدسات المسلمين من الخراب .

(١) الطبرى : ٧ / ١٠ ، ابن الأثير ، الكامل في التاريخ : ٤١٣ / ٧ .
ابن الجوزى ، المنتظم : ٨٠ / ٥ .

ان الوضع يختلف من حيث الرثاء بالنسبة لقيمة المدينة الموثية ، فهنا
الموثية مدينة عظيمة في نفوس المسلمين جميعا ، فلا تخص فئة دون أخرى
ففيها مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي أسس على التقوى ، وفيها
القبر الشريف ، والمنبر الميمون أي منبر النبي عليه الصلاة والسلام ، فعندما
تدمر هذه المعالم الشريفة ويمسها المهجر والخراب يحق لكل عين أن تبكس
وتبكي .

ما قيل من الشعر في رثاء العواصم بعد انتقال الخلافة عنها :-

منذ أن بنى أبو جعفر المنصور - الخليفة العباسي الثاني - مدينة بغداد
وهي مقر الخلافة العباسية وعاصمتها وقد أخذت تزدهر ازدهارا عظيما
وخاصة في عهد الرشيد حيث أصبحت جنة الدنيا وأمل المتمنى ثم جاء
عهد الأمين فخربت بغداد عند وقوع الفتنة بين الأمين والمأمون التي انحاز
فيها الفرس الى جانب المأمون ، والعرب الى جانب الأمين ، وعندما جاء
المعتصم بعد المأمون أراد أن يتخلص من هذين الحزبين - الموالى الفرس
والعرب - معا فوجه همه لجلب أعداد هائلة من الأتراك لأن أمة تركية
والفعل جلب منهم ما يقرب من سبعين ألفا فضاقت بهم بغداد ، وكسرت
حوادثهم فتدمرت العامة منهم ، فأمر المعتصم سنة احدى وعشرين ومائتين
ببناء مدينة سامراء أوسر من رأى ، واختط فيها قصورا له ولوزرائه ، وبالسخ
في تجميلها ، فساق اليها الساج والخشب والجذوع من البصرة ومن أنطاكية

(١) القلقشندي ، مآثر الانافة في معالم الخلافة : ٢٢١ / ١ .

وعن بناء المدينة وصفتها انظر : دائرة المعارف الاسلامية : ٨٤ / ١١ ،

يونس السامرائي ، سامراء في أدب القرن الثالث الهجري : ٥٢ .

وسواحل الشام ، وساق اليها الرخام من اللاذقية كما حمل اليها النخيل
والغروس من بغداد والشام وزرع الناس أصناف البقل والزرع والرياض الخ
واتسع الناس في البناء بسر من رأى أكثر من اتساعهم ببغداد ، ونوا المنازل
الواسعة وتأنقوا فيها وارتحلوا عن بغداد بالمئات فأوحشت بغداد وهجرت
لازدهار جارتها سامراء التي أصبحت هي دار الخلافة ، وقبلة المشركين
(١)
والأدباء ، وفي ذلك يقول ابن الزيات راثيا حال بغداد : (٢)

الآن قام على بغداد ناعيتها * * فلييكها لخراب الدهر يا كيتها
كانت على ما بها والحرب باركة * * والهدم يهدم وطيها في نواحيها
ترجى لها عودة في الدهر صالحة * * فالآن أضرم منها اليأس راجيها
مثل المعجوز التي ولت شبيبتها * * وان عنها جمال كان يحظيها
لزت بها حرة زهراء واضحة * * كالشمس مكسوة درا تراقيها

-
- (١) هو محمد بن عبد الملك بن أبان بن أبي حمزة الزيات
كان من أسرة غنية اشتهرت بتجارة الزيت ، ولد سنة ١٧٣ هـ بالكرخ
شغف بمجالسة العلماء والأدباء في عهده كعمر بن سعد ، سهل
بن هارون والجاحظ حتى تحرف في العلم وأصبح من أساطين
الكتابة والشعر فبلغ بذلك الوزارة ، فوزر للمعتصم ثم للواثق ، وقتل
في عهد المتوكل سنة ٢٣٣ هـ لأمور كثيرة .
أنظر : شذرات الذهب : ٧٨/٢ ، الوفيات : ٩١٤/٥ ، معجم
المجوس ، محمد بن عبد الملك الزيات صاحب الثور : ٢٦ - ٢٧ .
(٢) ديوان ابن الزيات : ٩٦ .

على أن هذا الازدهار الذي عاشته سامراء لم يدم طويلاً ، حيث استفحل أمر الأتراك في هذه المدينة وسياروا على كل شيء حتى حجروا على الخليفة نفسه وحجبه عن الناس ، ولم يبق له إلا السلطة الاسمية والدعاء على المنابر ، فبدأت المحاولات من قبل الخلفاء للتحويل عن سامراء وكان آخر هذه المحاولات ، ما قام به الخليفة المعتمد ، حين أمر بنقل عاصمة الخلافة الى بغداد في سنة تسع وسبعين ومائتين ، وذلك فقدت سامراء المنصر الأساس في وجودها وحياتها . فما كادت الخلافة ~~تتحول~~ عنها ، والد واوين والد وائر والجيش تفسد رها ، حتى أسرع اليها الخراب ودب الدمار والمهلك في بنيانها الضخم ، فأخذ الناس ينقضون ما بنوه فيها ، وينقلونه الى بغداد للبناء والاقامة هناك . فأصبحت تلك الأبنية والمنشآت الضخمة أطلالا غربة تستدر العطف وتستنزف العيون ، وتبعث في النفس التذكير والمعبره

ولعل خير من يصف ما حدث لها أبنها الذي ولد فيها ونشأ وترعرع

عبد الله بن المعتز ، ان يقول من رسالة الى صديق : (١)

" كتبت اليك من بلدة قد أنهش الدهر سكانها ، وأفقده جدرانها فشاهد اليأس فيها ينطق ، وحبل الرجاء فيها يقصر ، فكان عمرانها يطسوي وكان غرابها ينشر ، وقد وكلت الى البحر نواحيها ، واستحثت باقيها التي فانيها ، وقد تمزقت بأهلها الديار ، فما يجب فيها حق جوار ، فالظاعين منها محو الأثر ، والمقيم بها على طرف سفر ، نهاره ارجاف ، وسروره أحلام ليس له زاد فيرحل ولا موى فيرتج ، فحالها تصف للحيون الشكوى ، وتشير الى ذم الدنيا ، بعد ما كانت بالمراى القريب جنة الأرض ، وقوار الطك "

(١) معجم البلدان : ١٧٧/٢ .

وفى رثائها يقول :- (١)

- قد أقفرت سر من را * ومالشىء دوام .
- فالنقى يحمل منها * كأنه آجام .
- ماتت كما مات فيل * تسل منه العظام .

وفيهما يقول أيضا ، وقد جعل الصدر له والعجز من شعر أمروء القيس

فى معلقته :-

- غدت سر من را فى العفاء كأنها * (قفا نيك من زكري حبيب ومنزل)
 - وأصبح أهلها شبيها بحالها * (لما نسجتها من جنوب وشمال)
 - اذا ما امرؤ منهم شكا سوء حاله * (يقولون لا تهلك أسى وتجعل)
- اننا نلمس الصدق فى عاطفة ابن المعتز من خلال أبياته التى يرثى فيها حال مدينته ، فهو يؤكّد حتمية الموت والفناء لكل شىء وكأنه يتمزى بذلك ، ولكنه كان يعزو خراب سامراء الى بغداد لذلك نراه دائم الهجاء لبغداد وأهلها ، يقول من قصيدة يذكر فيها سامراء ويذم بغداد : (٢)

- هاتيك دار الملك مقفورة * ما ان بها من أهلها شغى
- عهدى بها والخيلى جائلة * لا يستبين لشمسها قرص
- والملك منشور الجناح ، ولم * يهتك قوادم ريشه قـص
- ومعاشر وجدوا مشيئتهم * وما تحب نفوسهم خصوا
- فمضى بذاك الصيىر أخيرة * والهيم ماسر مـقتضى
- والدهر يخبط أهله بيد * فى كل جارحة لسه قرص

(١) المصدر نفسه : ١٧٨ .

(٢) ديوان ابن المعتز : ٢٨٤ .

ثم يقول في بغداد :

- أما ترى بلدا أقمت به * أطل ساكن أهله خص
- وولاته نبط زناد قسوة * ملأى البطون وأهلها خص
- أسيافها خشب معلقة * مصنوعة ، وقربها خص
- وجنودهم تحص رعيتهم * ولهم على أكبادهم رقص
- غلبت خيانتهم أمانتهم * وظفى على تقواهم الحرص

وهكذا تستمر القصيدة الى نهايتها وهي تمتلئ بالسباب والشائم والقذف

بكل ما هو قبيح لأهل بغداد على كافة طبقاتهم .

ولعله من الجدير بالذكر هنا أن الحنين لم ينقطع لسامرا^١ عن

الكثيرين ، فيروي عن الخليفة الراضى انه كان كثير التردد عليها ، والحزن

لخرابها وقال في ذلك : (١)

- بسر من را بلاد الملك طاب كفا * معرى عيشه باللهم ومذموم
- أرض متى اختلفت الحاظها نظرا * اهتاج ذو طرب وارتاح مهصوم^(٢)
- والحير والقصر والقاطول جنتها * والجعفرى بكف الدهر مزموم
- منازل آنت دهر فأوحشها * ظلم الزمان فمثلوم ومهسوم
- عفت وفيها وصل الرياح لها * والوصل منها بجبل الهجر محتوم

(١) أحمد سوسه ، روى سامرا^١ : ٢ / ٢٠٠ .

(٢) الحير : اسم قصر بسامرا^١ بناه المتوكل ، القاطول : نهر كان في موضع

سامرا^١ قبل أن تعمرو . / معجم البلدان : (الحير) ، (القاطول) .

المبحث الثاني

٢٢٢

رثاء الدولة الطولونية والفاطمية :

كان قيام الدولة الطولونية بمصر يمثل أول محاولة للانفصال عن سلطة الخلافة في بغداد . وقد قامت هذه الدولة على يد أحمد بن طولون التركي الأصل ، وذلك عندما اشتدت سلطة الأتراك في بغداد ، وتولوا أمور الدولة ، ففي عهد الخليفة الواثق بالله نال القائد التركي بايكباك ولاية مصر ، ولكنه آثر البقاء في بغداد ، وأرسل إليها أحمد بن طولون والياً (١) ينوب عنه في إدارتها . فوصل إليها سنة أربع وخمسين ومائتين ، وكان داهية حسن التصرف ، قرن إلى ذلك حسن الخلق والسيرة المحمودة عند الناس ، فاستغل هذه الثقة وأخذ يحسن إلى الناس ويوزع فيهم الأموال الكثيرة ، ويظهر إخلاصه في خدمتهم حتى تمكن ولاؤه من قلوبهم ، فبدأ بعزل عمال العباسيين ، وجمع في يده مقاليد البلاد ، وصار هو الحاكم الإداري والمالي والعسكري ، وكانت الخطوة التالية أن أعلن استقلاله بطرك مصر عن الخلافة العباسية ، مستغلاً الوضع السياسي المتدهور ، وثورة الزنج التي كانت على أشدها ، وكانت الجهود منصرفة لمقاومتها ، وكون طرس الفور - جيشاً بلغ تعداده مائة ألف جندي عندئذ ظهرت قوته ، فاضطرت الخلافة إلى أن تخطب وده ، وتتخذ مؤيداً لها ضد الروم البيزنطيين الذين دأبوا على الإغارة من آسيا الصغرى على شمال الشام الذي كان يعرف آنذاك بالظيم العواصم والشفور ، كما عهد الخليفة إلى ابن طولون بولاية الشفور الشامية ، فبعث ابن طولون جزءاً من جيشه وأسطوله للمرابطة فيها ، ولم

(١) الأتابكي ، النجوم الزاهرة : ٣ / ٥ وما بعدها أخبار الدولة الطولونية حتى سقوطها .

يلبت والى الشام التركي أن توفي سنة أربع وستين ومائتين ، فضم ابن طولون الشام كلها الى ملكه ، وصارت مصر والشام وحدة واحدة أدت واجبتها فسي الدفاع عن أرض الاسلام في الوقت الذي عجزت فيه الخلافة عن فعل شئ يذكر في هذا المجال . ولا أدل على تلك القوة من أن الروم راسلوا أحمد بن طولون لمقد هدنة معه تخوفا منه . (١) ومع هذه القوة كان ابن طولون يبعث الى خزينة الخلافة ببغداد ما يرضى الخليفة وأعوانه من الأموال والمتاع ، وكأنه بذلك يرضى على ملكه صفة الشرعية ، كما كان يرصد الأموال للفقراء في مصر وفي بغداد ، ويرضى أهل الثغور والحواصم والحرمين بما كان يحمل اليهم من المعدات والمؤن والثياب والأموال .

وفي سنة سبع وخمسين ومائتين بنى أحمد بن طولون مدينة القطائع له ولعلمانه وجنوده ، وبنى فيها قصره ووسعه وحسنه ، وبنى فيه ميدانا حسنا يضرب فيه الصوالجس ، فسوى القصر كله بالميدان لأجل ذلك ، وقد عمل له أبوابا وسوى كسل باب منها باسم فضها : باب الميدان ، وباب الخاصه وباب الساج وهو أجطها ومصنوع من الساج ، وباب السباع الخ وكان على باب السباع هذا مجلس يشرف منه ابن طولون ليلة العيد على القطائع وعلى البحر ، وعلى باب المدينة وغيره وكان متزها حسنا (٢) . وفي سنة تسع وخمسين ومائتين بنى ابن طولون مسجدا عظيما بالغ في تحسينه ، وجلب اليه الصناع والبنائين المهره وأنفق عليه ما يقارب عشرين ومائة ألف دينار ، من كز يروي أنه وجدته يحوى ألف ألف دينار . (٣) ثم مات أحمد بن طولون بمعد

(١) البلوى ، سيرة أحمد بن طولون : ١٠٩ .

(٢) سيرة أحمد بن طولون : ٥٦ .

(٣) النجوم الزاهرة : ٧ / ٣ .

أن حكم اثنتي عشرة سنة . وخلفه ابنه خمارويه ، وكان قويا كوالده ، فاهتم
بمراقب الدولة ، واستطاع أن يهزم جيوش العباسيين التي أرسلت لمحاربتة
عند دمشق ، مما اضطر الخليفة العباسي المعتمد على الله أن يتزوج من
ابنته " العباسة " تقريبا له ، ومضى على ذلك إلى أن ذبح على يد خدمه
سنة اثنتين وثمانين ومائتين ، فخلف من بعده أمراء ضعاف كان آخرهم
الأمير شيبان بن أحمد بن طولون الذي ثار على ابن أخيه هارون وذبحه
سنة اثنتين وتسعين ومائتين ، وبلغت الدولة الطولونية في هذا العام من
الضعف والفضى حدا بعيدا فاستغل هذا الوضع الخليفة العباسي المتكفي
بالله ، ومعت محمد بن سليمان الكاتب على رأس جيش لمحاربة الطولونيين
الذين لم يصمدوا طويلا في وجهه فدخل مصر وقتل منها خلقا كثيرا ، وهدمها
حتى أصبحت خرابا بيابا ، وفعل بها من النهب والسلب والتهتك ما لا يحل
الله ، ومقت مصر على هذه الحال أياما كثيرة حتى أمّن محمد بن سليمان
آل طولون جميعا وساقهم معه إلى بغداد بالأغلال ، فخلت منهم الديار
وعفت منهم الآثار ، وحل بهم الذل بعد العز ، وزالت الدولة الطولونية
وكانت من غرر الدول ، وغرب الميدان والقصور التي كانت به والتي مدحها
الشعراء .

ويبدو أن هذا الدمار الذي أصاب مصر والميدان خاصة قد أودى بكثير
من الشعراء الذين قيل في بني طولون ، لأن ما وقفنا عليه منه يحد يسيرا جسدا
بالنسبة لما يذكر عن كثرة شعرائهم .

(١) المصدر نفسه ص ٥٢ ، وانظر ابراهيم المدوي ، التاريخ الاسلامي

آفاقه السياسيه وأبعاده الحضاريه : ٣٦٣ - ٣٦٤ .

يروى صاحب النجوم الزاهرة " قال القاضي أبو عمرو عثمان النابلسي في
كتاب " حسن السير في اتخاذ الحصن بالجزيرة " رأيت كتابا قد رايتني عشرة
كراسه مضمونه فهرست شعراء الميدان الذي كان لأحمد بن طولون ، قال :
فإذا كان اسم الشعراء في اثنتي عشرة كراسه ، فكم يكون شعورهم ؟ : (١)

(٢)

ومن الذين رثوا دولة بني طولون بعد زوالها أبو يعقوب الكاتب إذ يقول :

- ان كنت تسأل عن جلالة ملكهم * فارتع وحج بمراتب الميدان .
- وانظر الى تلك القصور وما حوت * وأمرح بزهرة ذلك البستان .
- وان اعتبرت ففيه أيضا عسيرة * تنبئك كيف تصرف العسيران .
- يا قتل هارون اجثثت أصولهم * وأشبت رأس أميرهم شيبان .

وهو يشير في البيت الأخير الى السبب المباشر الذي أضعف الدولة ، وزاد

فيها الفوضى والاضطراب ، وهو قيام شيبان بن أحمد بن طولون بقتل

ابن أخيه هارون بن خمارويه بن أحمد بن طولون ، ليستولى على السلطة

مكانه ، فكانت ولايته اثني عشر يوما ثم سقطت الدولة بعد ذلك لفساده

وسوء تدبيره .

(١) النجوم الزاهرة : ٣ / ١٤٠ .

(٢) هو أحمد بن اسحاق بن جعفر المعروف باليعقوبي . مؤرخ وجغرافي

كثير الأسفار ، كان جده من موالى المنصور العباسي ، وعاش هو وأقسام

في بغداد ثم رحل الى أرمينية ثم الى المغرب وعاد الى بغداد ، وتوفي

بعد سنة ٢٩٢ هـ من مؤلفاته : تاريخ اليعقوبي ، وكتاب البلدان ، -

وأخبار الأمم السالفة وغيرها . أنظر : معجم الأدباء : ١٥٣ / ٥ ، معجم

المطبوعات : ١٩٤٨ .

وقال اسماعيل بن أبي هاشم في رثائهم : (١)

- قف وقففة بفناء باب السجاج * والقصر ذي الشرفات والأبراج .
- وروع قوم أزعجوا عن دارهم * بعد الإقامة أيما ازعجاج .
- كانوا مصابيحاً لدى ظلم الدجى * يسرى بها السارون فسو الاندلاج .
- كانوا ليوشا لا يرام حماهم * في كل طحمة وكل هيئجاج .
- فانظر الى آثارهم تلقى لهم * علما بكل تهيئة وفججاج .
- وطيهم ما عشت لا أدع البكسا * مع كل ذي نظر وطرف ساجس .

وقال أيضا :

- يامتزلا لبنى طولون قد دشرا * سقاك صوب الفوادي القطر والمطرا .
 - يامتزلا صرت أجفوه وأهجره * وكان يعدل عندي السمع والبصرا .
 - بالله عندك علم من أحببتنا * أم هل سمعت لهم من بعدنا خبرا ؟
- وعندما هدم قصر الميدان ، وبيعت أنقاضه ، قال في ذلك محمد بن

طسويه :- (٢)

- من لم ير الهدم للميدان لم يره * تبارك الله ما أعلا وأقندر .
- لو أن عين الذي أنشاه تبصره * والحادثات تعاديه لا كمبصره .

ومنها :

- وأين من كان يحميه ويحرسه * من كل ليث يهاب الليث منظره .
- صاح الزمان بمن فيه ففرقهم * وحمل ريب البلوى فيه فدعسثره .
- وأخلق الدهر منه عسن جدته * مثل الكتاب معا العصران أسطره .
- دكت مناظره واجتث جوسقه * كأنما الخسف فاجاه فدسسه .
- أوهب اعصار نار في جوانبسه * فعاد معروفه للعين منكورة .

(١) النجوم الزاهرة : ١٤٠ / ٣ ، ١٤٣ .

(٢) المقرئ ، الخطاط القرئيه : ١٠٩ / ٢ - ١١٠ .

- أين ابن طوطن بانية وساكنة * أماتة الطك الأعلى فأقبره .
 - ما أوضح الأمر لوضعت لنا فكرر * طوي لعن خصه رشد فذكره .
- وقال أيضا :

- قف وقفة وانظر الى الميدان * والقصر ذى الشرفات والايوان (١)
 - والجوسق العالى الضيف بناؤه ماباله قفر من السكبان ؟ :
 - أين الذين لهوبه وحنوا به * زما مع القينات والنسوان ؟ .
 - يجبى الخراج اليهم فى دراهم * لا يرهبون فوائل الحدشان .
 - فانظر الى ماشيد وا من بعدهم * هل فيه غير اليوم والغريبان ؟ .
 - كانوا طوك الأرض فى أيامهم * كبراء كل مدينة ومكبان .
 - فتمزقوا وتمرقوا فهناك هم * تحت الثرى يبلون فى الاكبان .
 - الا أغلجة أسارى بعدهم * فى دار ضيعة ودار هوان .
 - متذللين بأسرهم قد شردوا * ونفوا عن الأهلين والأطبان .
 - والله وارث كل حى بعدهم * وله البقاء وكل شىء فان .
- والملاحظ على هذه المقطوعات الرثائية أنها بالاضافة الى اتحادها فى اللف تنحد تقريبا فى النهج والأسلوب ، فهى تتحدث عن تقلب الدهر ووصفه بالألم والدول مع التأكيد على النهاية الحتمية لكل حى ، مقرونة بالحكمة والعظة لمن أراد الاعتاط ألم يقلل اليمقوى :

- وان اعتبرت ففيه أيضا عبرة * تنبيك كيف تصرف المصران .

وقال ابن طموه :

- ما أوضح الأمر لوضعت لنا فكر * طوي لمن خصه رشد فذكره .
- ومع أننا نحس صدق العاطفة ومخاطبة فى قصيدة ابن أبي هاشم الذى سيظل بيكيهم أبدا ما عاش ، وفاء لحقهم وشكرا لنعمتهم عليه ، فاننا لانجد فى هذا

الشعر صوراً خيالية جميلة أوحاها الموقف المؤسف الحزين على اندثار
الدولة وانهايار قصر خلافتها العظيم ، كما أن هذه المقطوعات ابتعدت عن
ذكر تفاصيل الحادث المروع ، كالقتل والنهب والاعراق تلك الأمور
التي تضيق على قصيدة الرثاء صوراً جميلة أثناء تفجع الشاعر واجتراره لها
ولعل المطالع لهذا الشعر الذي نحن بصدده - يجد بوضوح صور الرثاء
في الشعر القديم فالوقوف على أطلال الميدان المحطمة أول ما يدعسوك
الشاعر أن تقف عليها أو تنوح بها : " فارتع وهج بمراتع الميدان " ، " قف
وقفة بفناء باب الساج " " رويح قوم أزعجوا . . . " " قف وقفة
وانظر الى الميدان " .

ثم مسائلة القصر الخرب : بالله عندك علم من أحببنا

أم هل سمعت لهم من بعدنا خبراً ؟

وقول الآخر :

والجوسق العالي الهيف بناؤه * ما باله قعر من السكان ؟

ومعد ذلك الدعاء له بالسقيا على عادة شعراء الأطلال والدمن :-

يا منزلاً لبني طولون قد دشرا * سقاك صوب الفوادي القطار والمطار .

ثم يأخذ في مدح بني طولون ويصفهم بأنهم ليوث لا يرام حماهم ، وأنهم
ملوك الأرض جميعاً وشادوا المدن والقصور الفخمة ، وهموها بالعز والمجد
وغير ذلك من الأوصاف الحميدة إلى أن صاح الزمان بهم ، وطرقتهم حوادثه
فهلكوا وكان الأرض قد خسفت بهم ، وقد ماشيدوه مأوى للهوم والفرمان لشدة
مأصابه من البلى ، ومن بقى منهم حياً فهو غارق في ذله وأسرته بعيد عن
الأهل والوطن . ولكن الأبيات التي تشير إلى مصرعهم لا تناسب مأخذ وبسه
من الشدة والعنف كقول ابن طسويه :-

أين ابن طولون بانيه وساكنه * أماته الملك الأعلى فأقبره .
وقوله :

فتمزقوا ، وتفرقوا فهناك هم * تحت الثرى يبيلون في الأكاف .
ولعل السبب الذي جعله ينحو هذا النحو هو الخوف من المباسطين
الذين تولوا القضاء على دولة بني طولون . لذلك لانجد تعنيفا أو لومًا
بسيطا في هذه المقطوعات الشعرية للذين قاموا بالأفعال الشنيعة ليس ضد
بني طولون بعينهم وإنما ضد غيرهم من الناس الذين كانوا تحت حكمهم فسى
مصر .

وهناك قصيدة أخرى بلغت ما يزيد عن الأربعين بيتا لشاعر يسمى سميد
القاس يرضى فيها الدولة الطولونية : (١)

يبدأ الشاعر قصيدته بوصف حالته الكئيبة وقلّة صبره لما أصاب بني طولون
فيقول :-

(٢)

- جرى دمعه مابين سحر الى نحر * ولم يجر حتى أسلمته يد الصبر .
(٣)
- مات وقيدا للذي غامر الحشا * مثن كما أن الأسير من الأسر .
- وهل يستطيع الصبر من كان ذا أسى * يبيت على جمر ويضجى على جمر .
- تتابع أهداك يضيعن صبره * وغدر من الأيام والدهر ذو غدر .
- أصاب على رغام الأنوف وجدعها * ذوى الدين والدنيا بقاصمة الظهر .
- طوى زينة الدنيا ومصباح أهلها * بفقد بني طولون والأنجم الزهر .
- وفقد بني طولون في كل موطن * أمر على الاسلام فقدا من القطر .
- فبادوا وأضحوا بعد عز ومنمة * أهاديث لا تخفى على كل ذى حجره .

(١) القصيدة بكاملها في الخطط المقرئيه : ١٠٧/٢ - ١٠٨ .
(٢) السحر : الرثه ، والمقصود هنا ما يحاذيها من الصدر / أساس البلاغه
(سحر) .
(٣) وقيدا : أى موقدا يشتعل نارا . / اللسان (وقد) .

ان الشاعر يسكب الدمع ، ويئن أئين الأسير العاني ، وذلك لما رماه
به الدهر من الأرزاء العظام التي لا يطيق لها صبرا ، وذلك أن الأيام
الفادرة قد أودت بسادة الدنيا عمارة الدين بنى طولون ، ويهدو أن الشاعر
ذو عاطفة دينية ، فهو يبكي بنى طولون لأنهم كانوا السد المنيع في وجهه
أعداء الاسلام البيزنطيين ، الذين أزهقوا الخلافة العباسية بغاراتهم
المتكررة . ثم يأخذ الشاعر في تعداد محاسن الأمراء الطولونيين وماعطسوا
وأشادوا إلى آخر القصيدة فمن أحمد بن طولون مؤسس الدولة يقول :

كأن ليال الدهر كانت لحسنها * واشراقها في عصره ليلة القدر .
يدل على فضل ابن طولون همسة * محلقة بين السماكين والغفر . (١)
فان كنت تبغى شاهدا ذا عدالة * يخبر عنه بالجلى من الأمـر .
فبالجبل الغربي خطة يشكر ^(٢) * له مسجد يخنى عن المنطق الهذر .
بناه بأجر وساج وعرفـرـر * والصرر المسنون والجعر والصخر .
فسبح رحاب يحصر الطرف دونـه * رقيق نسيم طيب العرف والنشـر .
تخال سنا قد يله وضياؤه * سهيلا اذا ملاح في الليل للسفر .

ثم يصف عيني العاء العذبة والملحة اللتين كانتا ملحقتين بالجامع حيث

الأولى للشرب والأخرى للطهاره يقول :

- وعين معين الشرب عين زكية * وعين أجاج للرواة وللطهر
- بناه لو أن الجن جاءت بمثلـه * لقليل لقد جاءت بمشتفطع نكر

(١) الغفر : ثلاثة أنجم صفار ينزلها القمر وهي الميزان . / الصحاح ،
(غفر) .

(٢) خطة يشكر : اسم الجبل الذي بنى فيه الجامع ، وهو جبل يشكر
بن جديله من لخم . أنظر ميخائيل شارويم ، الكافي في تاريخ مصر

، وتضمن القصيدة على هذا النحو ، تقف عند أعمال ابن طولون مهجلة لها ،
فتصف المارستان واتساعه والحصن والقنطرة والجسور ، ثم تنتقل الى توسيع
أحمد بن طولون على الناس في الرزق والعطاء . . . ثم تذكر من جاء بعده
من خلفائه وأولاده غمارويه أبي الجيش ، ثم ابنه هارون وغيرهما وكيف أتت
الحوادث عليهم . ثم يختم القصيدة بقوله :-

- تذكرتهم لما مضوا فتتابعوا * كما أرفق سلك من حبان ومن شذر .
- فمن بيك شيئا ضاع من بعد أهله * لفقد هم فليبك حزنا على مصر .
- لبيك بنى طولون ان بان عصرهم * فبورك من دهر وبورك من عصر .

ان الشاعر سلك سبيل تعداد مآثرهم وحسناتهم التي خلفوها للأمة
وطعاصتهم مصر بالذات فقد كانت جنة الدنيا أيامهم ، وهو بذلك يحسول
التأثير في نفوس السامعين أو القارئین ولكنه لم يتطرق للمصاب الجلل متممقا
ومحللا ، فكانت قصيدته أقرب الى قصائد المدح منها الى الرثاء ، ولم تبلغ
من التأثير ما بلغت المقطوعات التي تحدثنا عنها قبلها .

رثاء الدولة الفاطمية :-

بلغت الدولة العباسية في آواخر القرن الثالث الهجري وهداية الرابع
الغاية في الفوضى والاضطراب ، والاستغناء بالخلفاء من قبل العناصر
المتسلطة وخاصة الأتراك الذين أصبحوا هم الحكام وقد شجعت هذه
الحالة كثيرا من الولاة الطامعين في الحكم على الانفصال عن عاصمة الخلافة
بفداد . كما فعل ابن طولون في مصر على ما أوضحناه سابقا . وشجعت
هذه الحالة أيضا أصحاب الدعوات السرية المناوئة للعباسيين على الظهور
والكشف عن أهدافهم واصرارهم على تحقيقها بالقوة . وهذا ما كان من
الفاطميين الداعين الى المذهب الشيعي الباطني ، الذين بدأوا هذه
الدعوة في وقت مبكر ، ولكنهم وجدوا عنتا شديدا من الخلافة العباسية
حيث كان الموت العاجل نصيب كل من يظفر به منهم ، فاستغلوا ما صارت
اليه الخلافة من الضعف وعثوا دعواتهم الى المغرب ، وافريقيه (تونس)
ونجحوا في استمالة **البربر** سكان تلك المناطق ، وذلك تمهيد الطريق لاقامة
دولة شيعية في المغرب ، والفعل دخل داعي الشيعة الصمعي عبيد الله
المهدي المغربي في سنة ست وتسعين ومائتين ، واتخذ من مدينة رقناده
جنوبي القيروان عاصمة له ، وتلقب بأبى المؤمنين ، وأبطل اسم الخليفة
العباسي من الخطبه ، وزاد في الاذان عبارة " حى على خير العطل " . (٢)

(١) اختلف المؤرخون قديما وحديثا في نسب الفاطميين فمن قائل أنهم من آل البيت من ولد الحسين بن علي بن أبى طالب وقائل أنهم من ولد عبد الله بن ميمون القداح الأهوازي وأصله من المجوس ، ولم يصلوا الى رأى فاصل في ذلك .

انظر : الخطط المقرئيه : ١٥٠/٢ - ١٥١ ، حسن ابراهيم حسن ،
تاريخ الدولة الفاطمية : ٥٧ - ٥٩ .

(٢) البكري ، المغرب في ذكر بلاد أفريقيا والمغرب : ٢٧ .

وعبيد الله هذا هو رأس الدولة الفاطمية واليه تنسب فيقال دولة العبيديين وأخذ المهدي يحاول مد سلطانه على جميع المغرب ، فأزال دولة بني الأظب من تونس ، وأزال أوساهم في ازالة دولة الأدارسة ، وكذلك يكون قد مهد الطريق للمعز لدين الله الذي جاء بعده بنصف قرن أي نحو سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة ، ووضع المغرب كله تحت لوائه ، وخطب للمعز بن طلس جميع منابر المغرب ، ثم بدأ المعز محاولته للسيطرة على مصر التي كان يحكمها الأخشيديون من قبل الدولة الحباسية ، وقد كانت مصر في آواخر حكم كافور الأخشيدي تعاني من القحط الشديد الذي سببه انخفاف النيل (٢) وأصاب الناس بلاءٌ وجهد شديد حتى قيل انهم عجزوا عن تكفين موتاهم وزاد الطين بلة غارات القرامطة المتوالية ، وموت كافور سنة سبع وخمسين وثلاثمائة وصحى أبو الفوارس أحمد حفيد الأخشيد خلفا له ، وكان هذا غلاما لم يتجاوز الحادية عشرة من عمره فمجز عن صد غارات المغيريين ، ومن انقاز البلاد صاهى فيه من الاضطراب والشدة .

فاستغل المعز الفاطمي هذا الوضع ، وأرسل قائده الطيم جوهر الصقلي على رأس جيش مرمم بلغ تعداده مائة ألف جندي الى مصر ، فدخل الأسكندرية دون مقاومة تذكر ثم دخل الفسطاط وأمن الشعب ، وضحهم الحرية التامة في شعائرهم وجميع أمورهم . حتى اذا استتب الأمر لجوهر دعا خلفته المعز ، فدخل هذا مصر سنة احدى وستين وثلاثمائة واتخذها عاصمة له ، واخط مدينة القاهرة وفصل مصر نهائيا عن الخلافة الحباسية ، ثم

(١) السلاوي ، الاستقصاء في اخبار المغرب الأقصى : ٨٦ / ١ - ٨٧ .

(٢) الخطاط المقرئية : ٣٣٠ / ١ .

أنتهها بعد ذلك بالشام والحجاز وغيرها حتى فدت الدولة الفاطمية تمتد من المحيط الأطلس غربا إلى البحر الأحمر شرقا ، وبلغت قوتها مبلغا عظيما ، ولكن هذه القوة وهذا الاتساع لم يغبيا عنها عندما بدأت نهايتها تتسرح في الأفق ، فقد انقضى عهد الخلفاء الأتقيا وبقا دور الضعف - كما هو السنة المطردة في قيام الدول وسقوطها - والتنازع وسيطرة الوزراء طسسى الخلفاء وأصبح الوزير يأخذ لقب طك ، وكثرت الأحزاب المتضادة المتناحرة والأهم من ذلك هو غارات الصليبيين على أجزاء من الدولة الفاطمية واعتلالها ففي سنة تسع وأربعين وخمسمائة استولوا على عسقلان آخر ممالك الفاطمية في فلسطين ، ولم يمنحهم من احتلال مصر الا ظهور قوة نور الدين زنكى في الشام . ولكن السبب المباشر في سقوط هذه الدولة الكبير هو اغتيال الخليفة الظافر ، وتولى ابنه الفائز وكان طفلا ، فاستنجد أهل القصر بالأمير طلائع بن رزيق والى الأشمونين الذى لى النداء وضبط الأمور بحكمه وتولى بدوره رجلا يقال له شاور على الصعيد ، ولم يلبث الوزير طلائع أن قتل بدسيسة من الخليفة الماض آخر الخلفاء الفاطميين ، وتولى مكانه ابنه العادل ، ولكن شاور خلعه وقتله ، فاستاء الناس من ذلك الفعل وخاصة أن شاور لم يستطع دفع الصليبيين الذين زحفوا إلى مصر سنة أربع وستين وخمسمائة فلم يجد بدا من استصراخ نور الدين ، فبعث نور الدين معه بجيش كبير يقوده أسد الدين شيركوه فبافت الصليبيين وهزمهم ، ودخل القاهرة ودخل الفاتحين ، فخلع عليه الخليفة الماض ، ولكن شاور بدأ يظن من بقا شيركوه في مصر ، واتصل بالصليبيين يطلب العون ، ولكن شيركوه قضى عليه وقتله ، وأصبح هو وزير الخليفة الماض الذى لم يجد يملك شيئا ، ولكن شيركوه سرعان ماتوفى ، فخلفه في الوزارة ابن أخيه صلاح الدين بن أيوب

الذي عمل على توطيد مركزه بالحكمة ، وكسب رضی الشعب بما كان يتمتع به من الأخلاق والصفات الحميدة ، وبدأ بتركز خطاته على الصليبيين فسوس الكرك والشهك ، كما أنه دجرهم عندما غزوا ديهاط فانهزموا مخذ ولصيين فلقهم الى عقرب ادهم ، الأمر الذي جعل المصريين من الشيعة والسنة يلتفتون حوله ، ويجدون فيه الحامى الأمين لهم ، عندئذ استقرت سلطة صلاح الدين على أساس متين ، فقام بعزل الشيعة من **الحجاب الديني** والفقيهيه ، وتوليقيها للسنيين (الشافعية) سنة سبع وستين وخمسائة ، كما بدأ ينزل من الدولة والجيش العناصر غير الموشوق بها ، وأبطل زيادات الأذان التي وضعها الفاطميون ، وجميع شعائرهم كالأعياد وغيرها ، ثم أسقط اسم الخليفة العاضد من الخطبة رسميا بأمر نور الدين ، ودعى للخليفة العباسى الصنصن ، وكان العاضد مريضا آنذاك ، ومات وهو لم يعلم بهذا التغيير . (١)

هذلك زالت الدولة الفاطمية بعد أن حكمت أكثر من قرنين من الزمان .
(٢) (٣)
وأشهر من رثى الدولة الفاطمية شاعرها عمارة اليمنى الذى يقول :-

(١) ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ : ١٤٧/١١ ، المقرئى ، اتعاضد الحنفا : ٣٢٤ - ٣٢٥ .

(٢) هو أبو محمد عمارة بن أبى الحسن الحكيم المقحجى . نشأ فى مدينة مروطان من تهمامه ، ثم رحل الى زييد سنة ٥٣١ فتسقه فيها على المذهب الشافعى ، وأخذ يقول الشعر من ذلك الحين ، قدم مصر سنة ٥٤٩ هـ أيام الخليفة الفائز . ووزيره ابن رزيك فأجولا صلته ، والضا فى اكرامه فأطنب فى مدحهم وأحبههم ، وظل يبعث الى الفاطميين بعد زوال دولتهم وانتهى به الأمر أن ائتمر مع عدد من المصريين للفتك بصلاح الدين ، ولكنهم كسفوا ، فأهدوا سنة ٥٦٤ هـ من تصانيفه : أخبار اليمنى ، النكت العصرية فى اخبار وزراء الدولة المصرية . أنثر :- العماد الأصفهانسى : خريده القصر (قسم شعرا الشام) ١٠١/٣ - ١٠٢ ، المقدسسى ، الروشئين فى أخبار الدولتين : ٢٢٤/١ ، أخبار اليمنى ص ٢٢ .

(٣) القصيدة فى ديوانه : ١٤٨ ، ابن واصل ، مفرج الكروب : ٢١٢/١ -

- رميت ياد هر كف المجد بالمشعل * وجيدة بعد حسن الطين بالمطل .
 - سميت في ضبح الدهر العثور فان * قدرت من هرات الدهر فاستقسل .
 - هدمت قاعدة المعروف من عجل * سقيت ، مهلا أما تثنى طي مهسل .
 - لهفو ولهف بنى الآمال قاطبة * طي فجهتها في أكرام السدول .
- يبدأ الشاعر قصيدته بهذا المطلع الوقور ، مجرماً بأفعال الدهر السني
رمي قاعدة المعروف ، وضيء الآمال وأعظم الدول بقاصمة الظهر ، فزلسزل
أركانها وأذهب خلفاً لها . ولكن الشاعر مع لهفته وتفجعه لا يبد وثائر النفس
ولا عنيف العبارة ، وذلك للحقيقة التي استقرت في نفسه وهي أنه لا أحد
يستطيع الهرب بما هو مقدر عليه ، بل ستأتيه به الأيام عاجلاً أو آجلاً .

ثم يبين الشاعر حبه للدولة الفاطمية لماناله طي أيدي خلفائها ممن

الحفاوة والتكريم حين قدم مصر :-

- قدمت مصر فأولتني خلائفها * من المكارم ما أرى طي أطس .
 - ونلت من عظام الجيش تكرمسة * وخدمة حوست من عرض الخلل .
 - يا عانلي في هوى أبنا فاطمة * لك الملامة ان قصرت في فذلي .
- ثم ينتقل إلى البكا طي دولة الفاطميين ومعالمتها الحضارية كالقصور
التي أزيح أهلها عنها وبعضها هدم ، وبعضها الآخر سلكه أناس من غير أهله
الذين عرفهم الشاعر :-

- بالله زر ساحة القصرين وإياك معي * طييهما لا طي صفون والجمل .
 - وقل لأهلها والله ما التأمست * فيكم جروحي ولا قرحي بمنديل .
 - مررت بالقصر والأركان خالصة * من الوفود وكانت قلة القبل .
 - فطلت عنها بوجهي خوف منتقد * من الأعادي ووجهه الودام يبل .
 - أسليت من أسف ومعى فداة خلعت * رحاهمك وفدت مهجورة السبل .
- والقصران اللذان بيكهما الشاعر في هذه الأبيات هما : القصر الكبير ،

(١)

وقصر المؤلفه عيث مقر الخلفاء الفاطميين ، وكانا يعجان بخزائن الأموال
والعبيد والجواري ، فوضع صلاح الدين يده على الأموال ، هاج وأعتسق
واستخدم ماشاء من أولئك العبيد والجواري .

ثم أعطى القصر الكبير للأمرء والقواد فسكوه ، وأسكن أباه نجم الدين
أيوب في قصر المؤلفه وهزور الشاعر هذه القصور التي طالما رتع في بلاطها
ودبح المدائح في أربابها ، فلا يرى تلك الوفود التي كانت تغص بهيها
عراش قصر الطك ورحابه ، فيخفق قلبه للذكريات الماضية ، ولكنه أشاح بوجهه
عنها خوف الرقبا والأعداء ، وأسبل دموعه على تذكير الرحاب المهجورة ،
والمكارم التي لا تزال آثارها تنبئ عنها :-

- أبكى على مآثرات من مكارمكم * حال الزمان عليها وهي لم تعمل .
- دار الضيافة كانت أنس وافدكم * واليوم أوحش من رسم ومن طسلسل .
- وفطرة الصوم إذ أضحت مكارمكم * تشكو من الدهر حيفا غير محتمل .
- وكسوة الناس في الفصلين قد درست ورث عنها جديد عندهم ولبسوا .
- وموسم كان في يوم الخليج لكم * فبهن من هل جود ليس بالوشل .
- والأرض تعرض في وشى وفي شعبة * مثل العرائس في حلوى وفي حليل .
- وما خصتم بئر أهل ملتكم * حتى عمتم به الأقص من الطل .
- وما حطتم قري الأضياف من سعة الـ * أطباق الا على الأكاف والحجل .
- كانت روايتكم للوافدين وللضـ * ضيف المقيم وللطاري من الرسل .

بذكر عبارة البعق في هذه الأبيات - بعزن وألم - ما كان للفاطميون ممن
المآثر العظيمة التي نال خيرها القريب والبعيد ، كدار الضيافة التي بناها
الوزراء الفاطميون وجمعوها بكل ما يلزم الساكن ، لتكون مأوى للوفود السستى
تقدم إلى قصر الحكم من خارج الدولة أو داخلها ، كما كان من عادة الخلفاء
والوزراء ومراسمهم اطعام الناس في شهر رمضان ، فكانوا يجلسون معهم
على مائدة واحدة تسمى سطاط شهر رمضان تحل من أصناف الطعام والشراب
ما يجزئه الوصف ويقى هذا الحال ليلة الشهر الكريم ، حتى إذا كان
يوم العيد زيد في الأطلعة ووزعت الهدايا والدنانير والأكسية . ولهم موسم
كان يسمى بيوم الخليج ، وهو يوم ازدياد منسوب مياه النيل فيفرجون بذلك
أشد الفرح ، ويخرج الخليفة والحاشية وركبون القوارب المائيه الضخمة ،
ثم ينزلون في مكان معين على شاطئ النهر وقد ضربت لهم المضارب الفخمة
واحتشد الناس احتشادا عظيما ، فيأتى القراء ، ويقرؤون القرآن حتى يختموا ،
ثم تقام صلاة الشكر لله على هذه النعمة يصلحها الخليفة بالناس ، ويبيتون
تلك الليلة في ذلك المكان يكبرون حتى إذا جاء الصباح نثرت على الناس
الأموال والثياب بغزارة ، ثم ينصرف الخليفة والوزراء وسط موكب فخم تزعمو
به الأرض . (٢)

وعد هذه الأفعال الخيرة التي كانوا يقومون بها ، وفقدت بعد هم
يأخذ الشاعر في مدحهم والثنا عليهم مركزا على مذهبيهم الديني مضمينا
عليهم أوصاف الألبيا الصالحين من أئمة الهدى وأن الاعتصام بحبيبهم هو أصل
الدين ونجاح السعى في الدنيا والآخرة يقول :-

(١) و (٢) أنظر تفصيل هذه المواسم في المصدر السابق : ص ٣٤١ ،

- والله لا فاز يوم الحشر مهضكم * ولا نجا من عذاب النار غير طي
- ولا سقى الماء من حر ومن ظمسا * من كف خير البرايا خاتم الرسل
- ولا رأى جنة الله التي خلقت * من غان عهد الامام الحاضر بن طي
- أضحى وهداني والذخيرة لسي * اذا ارتفعت بما قدمت من عسل
- تالله لم أوفهم في المدح حقهم * لأن حقهم كالوابل المطسل
- باب النجاة هم دنيا وأخرى * وعيهم فهو أصل الدين والعقل
- نور الدجى وصاحب الهدى وصل * ل النفيث ان وثت الأنوار في المحل
- أئمة خلقوا نورا فنسورهم * من نور خال نور الله لم يغسل
- والله لا زلت عن عبي لهم أبدا * ما أخر الله لي في مدة الأجل

اننا لنؤمن صدق العاطفة ، والولا ، والا خلاص لا ولئك القوم في أبيات
الشاعر هذه . كما نحن أيضا الاندفاع والثورة التي لم يستطع الشاعر ضبطها
فهو في الأبيات الثلاثة الأولى يعرض بوضوح بصلاح الدين وأصحابه الذين
أزاحوا الخليفة الحاضر ، وقضوا على الخلافة الفاطمية . ثم هذه المبالغات
التي يضيفها ، والتي يوصلهم بها الى حد التقديس مع طمعه بما كان من
الاختلاف في حقيقة نسبهم العلوي ، فهم عنده نور من نور الله الخالص
الذي يجلو الدياجي ، وينير سبل الهدى وهو يؤكف في ختام تصيدته طس
عبه الأبدى لهم **ما أتم الله له في الأجل** .

ومن الجدير بالذكر في هذا المقام أن عبارة اليمنى الذي قد يتوهم
(١)
من شعره أنه طي مذهب الشيعة الفاطميين كان سنيا شافعيا . ويروي أن
الملك الصالح طلائع بن رزيق الفاطمي بعث الى عماره الأبيات التالية يدعوه

فيها الى مذهبه الشيعي ، ومعها ثلاثة أكياس من الذهب فيها ثلاثة آلاف -

دينار :-

- قل للفقير عمارة ياخير من * أضى يولف خطبة وخطابها .
 - اقل نصيحة من دعاك الى الهدى قل حطة وادخل طينا الهابا .
 - تلق الأئمة شافعين ولا تجسد * الا لدينا سنة وكتابها .
 - وتمجّل الآلاف وهي ثلاثة * صلة وحقك لا تكسون ثوابها .
- فأبى عمارة وأنكر ذلك ، وأجاب داعيه مع رسوله :-

- حاشاك من هذا الخطاب خطابا * ياخير أملاك الزمان نصابا .
- لكن اذا ما أفسدت طماؤكم * معمر معتقدي وصار خرابا .
- ودعوتكم فكري الى أقوالكم * من بعد ذلك أطاعكم وأجابا .
- فاشدد يديك على صفا مودتي * وأمن على سد هذا الهابا .

ويقول عمارة - أيضا - في رثاء الفاطميين ، وهو بذلك يستثير حفيظة

أصحاب صلاح الدين :- (١)

- لما رأيت عراض القصر خالية * من الأنيس وما في الربيع سادات .
- أيقنت أنهم عن ربهم رحلوا * وخلفوني وفي ظبي حزازات .
- سألت أبله ظبي في السلو وقد * يقال للبله في الدنيا أصابات .
- فقال رأى ضعيف لا يطاوعني * كيف السلو وأهل القصر قد ماتوا .
- يارب ان كان لي في قورهم طمع * عجل بذاك فللتسوية أمسات .

لقد ظل الشاعر وفيما لمن يرثيهم ، حتى بعد زوال دولتهم ، هزمن ، وقيام الدولة الأيوبية مكانها ، وكأنه لا يكاد يصدق أن تلك الدولة الواسعة المظيمة

(١) أخبار اليمن : ٣٣ - ٣٤ .

قد دالت دولتها ، حتى اذا ما رأى خلق قصورهم من الأنبياء أيقن برحيلهم
ففارت في نفسه الاحن والحزازات على أهدائهم . تلك الحزازات التي تمنع
قلبه من السلو والنسيان ، وقد ساق لنا المحاوره بينه وبين قلبه بقالب
خيالي جميل زاد في توضيح ألمه لفراقهم وتصميمه على فعل شيء ما ممن
أجلهم . والفعل فقد دفعه ذلك الحقد على الأيوبيين أهداء أحبائه
الفاطميين الى أن يؤلب الناس على صلاح الدين وأن يشترك في مؤامره
مع وجهاء المصريين وقضاتهم لارجاع الأمر الى الفاطميين ، واتصل هؤلاء
الضامرون (بأما لريك) ملك بيت المقدس الصليبي ، ووليم الثاني ملك
النورمان بصقلية ، ولكن خابت آمالهم عندما اكتشفهم رجال صلاح الدين ،
وقتلوهم ومنهم شاعرنا الذي استجاب الله دعوته . كما في البيت الأخير -
فألحقه بقومه على عجل . (١)

(١) انظر الخبر في : وفيات الأعيان : ٣٧٦ / ١ ، عنان ، تراجم اسلامية

غراب المدن بالحوادث الطبيعية وما قيل في ذلك من الشعر :-

لم يقف دور الشعر عند رثاء المدن والدول الساقطة والمدمره بفعل
الحروب والفتن بل تعدى ذلك الى متابعة الحوادث الطبيعية التي تصيب
المدن بقضاء الله وقدره كالزلازل والأماطار وغير ذلك .

ولقد حدثت في آواخر الدولة الفاطمية وفي سنة اثنتين وخمسين وخمسائه
زلازل عنيفة في بلاد الشام ، فانهدمت حماه وشيبر ، ومات من أهلها
وتشرد الكثير " ولولم تدرك العباد والبلاد رحمة الله - تعالى - ولطفه ،
ورأفته لكان الخطب الخطير ، والأمر الفظيح المزيج " (١) .
وفي ذلك يقول بعض الشعراء :-

- روعتنا زلازل حادثات * بقضاء قضاء رب السما *
- هدمت حصن شيزر وحماة * أهلكت أهلها بسوء القضاء *
- ميلاد كثيرة وحصوننا * وثخورا موثقات البننا *
- وإذا مارنت عيسون اليها * أجرت الدمع عندها بالدماء *
- وإذا ما قضى من الله أمر * سابق في عبادته بالفضا *
- حار قلب اللبيب فيه ومن كا * ن له فطنة وحسن نكسا *
- وتراه سبعا باكي العيب * من مروعنا من سخطة وبلنا *
- جل ربى في ملكه وتعالى * عن مقال الجهال والسفها *

والملاحظ على هذه الأبيات التسليم الكامل لقضاء الله ، وقدره السدى
نزل بتلك البلاد فدمرها وأهلك أهلها ، فلا يسع الشاعر والحالة هذه الا أن
يسكب دموعه في صمت وخشوع ، ولعل الشاعر المجهول لم يكن من أهل هاتين
المدنيتين المنكوبتين لأنه لم يذكر لنا تفاصيل الحادث وما حوى من هدم
، وهلاك ومال ذلك .

(١)

ومن رثى شيرز بقصائد كثيرة باكية مؤثرة ابنها الأمير أسامة بن منقذ ،
وكان مبعدا عنها بأمر عمه أبو العساكر سلطانها آنذاك ، وقد كان فـسـى
بعده عنها ، الخير له ولأسرته إذ أنهم نجوا من الزلزال الذي دمر المدينة
وقضى على بني منقذ بأسرهم وأزال ملكهم .

يقول أسامة :- (٢)

- أنظر منازل آل منقذ انها * عظة اللبيب وعبرة للناظر .
- كانوا بها في نعمة محروسة * بمكارم ، وذوايل ، وهواتر .
- مارامها طك ولا ذوق قدرة * إلا اثني عنها بقلب طائر .
- مثلها ما استطاعها ومن السدى * يلج العرب على الهزير الخادر .
- فأصابها قدر فأهلك من بها * وأعاد شامخها كرسم دائر .
- فإذا ذكرتهم مرتنى حسرة * تسمى سحائب دمعى المتبادر .

(١) هو مؤيد الدولة أبو مظفر أسامة بن مرشد بن منقذ ، ولد سنة ٤٨٨
بشيزر ، كان فارسا شجاعا حارب الفرنجة مع السلطان نور الدين
زنكي ثم خرج الى القاهرة فأكرمه الخليفة الفاطمي الحافظ لدين الله
سنة ٥٣٩ هـ ، ولكنه تركها عائدا الى دمشق عندما كثرت الدساس حولها
وكان شاعرا وأديبا صنف عدة كتب منها " الاعتبار " و" المنازل والديار "
وله ديوان شعر . توفي سنة ٥٨٤ هـ / أنظر ترجمته في : معجم الأديب
١٨٨/٥ ، تهذيب ابن عساكر ٢/٤٠٠ ، الاعتبار : ١-٢ .

(٢) أسامة بن منقذ ، المنازل والديار : ٢/١ .

ان أمر شيزر يدعو لأخذ العظة والعبرة ، فبينما هي في عز قوتها
ومنعتها التي أعيت الطوك وأرتدوا عنها غائبين ان ربما أصابها قدر الله
الذى لا اراد له فأعادها أثرا بعد عين .
ويقول أيضا :

- غاضت دموعي في المنازل وارعوي * صبري وراجعتي الرقاد النافر .
- ان لم أسح بها محائب أدمع * ينجاب خشيتها الغمام الباكر .
- أحمل الأطلال ضنة عارضي * وسحاب دموعي مستهل ما طر .
- انى اذا بشؤن عيني باغسل * ومعه من سكن المنازل غادر .

ان حادثة الزلزال وقعت على نفس الشاعر وقوع الصاعقة ، فلم يعسد
يطيق صبرا أو هجوفا وكيف لا ؟ والبلد مسقط رأسه والقوم عمومته ونوهم
والحادث لا يجدى معه دفاع أو مقاومه فلا بد ان من اهراق الدمع الخزيير
الذى يستخنى به الشاعر عن السحاب لسقيا أطلال قومه ، لأنه يخشى أن يحمل
أطلال الكرام منة جود السحاب فيكون بذلك قد قدر بمعهدهم وهذه الصورة
الجميلة تبين مدى حب الشاعر لوطنه وقومه رغم حداوتهم له ، كما تبين حزنه
الشديد وكأه المتواصل لفراقهم الأبدى ، وقد سلك فيها سبيل المبالغة
التي يقبلها الموقف الشعري .

وقال أيضا بيكي بلده شيزر :- (١)

- حيا ربوعك من ربا ومنازل * سارى الغمام بگل هام هامل .
- وسقتك ياد ار الهوى بعد النوى وطفاء تسفح بالمهتون الهائل .
- أبكيك أم أبكى زمانى فيك أم * أهليك أم شرح الشباب الراجل .
- درست منازلهم وأوحش منهم * مانوس أندىة وعزم معافسل .

(١) عمر موسى باشا ، أدب الدول المتتابعة : ٢٢٥ .

- واهـا لهم من عالم ومعالـم * ومنمعات عقائل ومماقل
- ذهبوا ذهاب الأمس مامن مخبر * عنهم ءوزالوا كالظلال الزائل
- وقيت بعدهم حليف كآبـة * مستورة بتجمل وتعامل
- سعدوا براحتهم ء وها أنا بعدهم: فـى شقوة تضنى وهم داخل

انها لمصيبة عظمى منى بها الشاعر ء فهو ييكنى ويتفجع على أشـيها
كثيرة ء على مدينته التى قضى فيها شطرا من حياته على أهلها الذين بادوا
و درست منازلهم ء ولم يبق لهم أثر ء ولا عنهم مخبر واذا كانوا ماتوا
واستراحوا ء فقد أورشوا شاعرنا هما و شقوة قاتله ء وهو فـى أسـلوسه
وخاصة فى هذه القصيدة يكثر من استعمال المحسنات كالجناس والطبـاق
والمقابلة وغيرها ولعل هذا مراعاة لأسلوب الشعر الذى كان سائدا فى ذلك
الوقت .

وله قصيدة أخرى باكيه يقول منها :-

- ما استدج الموت قوصى فى هلاكهم * ولا تحزمتهم مثنى ووحيد انسا .
- ماتوا جميعا كرجع الطرف وانقضوا * هل ماترى ء تارك للعين انسانا .
- لم يترك الموت منهم من يخبرنسى * عنهم فيوضح مالا قوة تبسانا .
- هذى قصورهم أمست قبورهم * كذاك كانوا بها من قبل سگانا .
- ووج الزلازل ء أفنت معشرى فاذا * نكرتهم خلتنى فى القوم سكرانا .
- أغنت على معشرى الأدين فاصالمت * منهم كهولا وشبانا وولد انسا .
- لم يحصم حصنهم منها ولا رهبت * بأسا تناذره الأقران أزمانسا .
- بنو أبى ء ونوعى ء دى دهم * وان أرونى مناواة وشنانسا .
- يطيب النفس عنهم أنهم رحلوا * وخلقفون على الآثار عجلانسا .

وهو هنا يصور مصرعهم الرهيب الفاجع ، حيث هلكوا جميعا في ساعة واحدة ، فأصبحت القصور الشامخة قبورا لهم ، ولم تحصم ظعنهم المنيمية حيث سقطت على السلطان أبو العساكر ومن معه من الأهل والحاشية فأردتهم وهو في البيت الأخير يستعجل اللحاق بهم .

المبحث الثالث : الشعر يريث سقوط بيت المقدس بيد الصليبيين :-

لقد ظل احتلال بيت المقدس ، وارجاعه الى الهيمنة النصرانية العلم الذي دأب خيال الافرنج قرونا طويلة تمتد الى أيام فتحه الأوغوس في عهد الخليفة صربن الخطاب - رضى الله عنه - فكانوا يمدّون المسنة وينتهزون الفرص لتحقيق هذا الهدف الكبير ، ولا طفا* نار غيظهم بالانتقام من المسلمين . ولقد واتتهم الظروف في النصف الثاني من القرن الخامس الهجرى ، عندما كان العالم الاسلامى موزعا بين عدة قوى ومراكز فالأتراك السلاجقة يسيطرون على الشام بعد أن حلّوا محل بنى بويه في بسط نفوذهم على الخلافة العباسية في بغداد سنة سبع وأربعين وأربعمائة يقابلهم الفاطميون في مصر حيث كان العدا* مستحكما بين الدولتين بسبب الأطماع السياسية ، والخلافات المذهبية وفي سنة تسع وثمانين وأربعمائة وردت الى البابا أوربان الثاني - صاحب السلطة الواسعة في أوربا آنذاك - رسائل كثيرة تحمل شكاوى من معاطة السلاجقة الذين كانوا يحكمون بيت المقدس - للعجاج النصارى ، كما وصلت - أيضا - في هذا الوقت رسل امبراطور الدولة البيزنطية " الكسيوس " تحمل رسائل الاستغاثة وتطلب المساعدة العاجلة الفورية لانقاذ الامبراطورية البيزنطية (النصرانية) من غزوات السلاجقة التي تكررت بعد انتصارهم في معركة ملاذكرد سنة أربع وستين وأربعمائة حسنت استطاعوا أن يقهروا هذه الدولة الكبرى ويفرضوا عليها جزية بلغت ثلاث مائة ألف دينار ، وما جا* في رسائل ذلك الامبراطور للبابا قوله : " ان من الحكمة أن يحارب الأتراك في أرض آسيا بدل أن تنتظرهم حتى يقتحموا بجحافلهم بلاد الهلقتان الى عواصم أوربا الغربية " .

(١) سعيد عاشور ، بعوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى : ٦٥ .
(٢) ول ديورانت ، قصة الحضارة : الجزء الرابع من المجلد الرابع : ص ١٣ الترجمة العربية .

كما لا ننسى الأطماع المادية لدى الأوروبيين في خيرات الشرق الوفسيه
وأطماع البابا نفسه بمد نفوذه على الكنيسة الشرقية ، وتكوين عالم مسيحي
عظيم القوة متحد تحت حكم البابوات . لذلك استغل البابا أوريان اجتماع
المجمع الديني النصراني الكبير في مدينة كيرمون بفرنسا ، وكان يحضره
ألف من الفرسان بالإضافة إلى رجال الدين والنبلاء وغيرهم . وألقى في هذا
الجمع خطابا حماسيا ، عمل عمله في انكا* الروح القتالية عند النصراني
أدى إلى خروجهم بعداد الآلاف إلى الشرق لانقاذ القبر المقدس من أيدي
المسلمين ، حتى ينالوا رضى البابا ورضى الرب بالتالي ، وقد جعلوا
شعارهم صليبا من القماش الأحمر يوضح على الكنف ، فصرفوا لذلك
بالصليبيين وكان ما قاله البابا : " تقدموا إلى البيت المقدس ، انتمزعوا
تلك الأرض الطاهرة ، واحفظوها لأنفسكم ، فهي تدرسنا وعسلا . انكم
إذا انتصرت على عدوكم ووثتم ممالك الشرق ، وان خذتم فستقتلون حيث مات
يسوع فتخلدون في النعيم الدائم . اذهبوا إلى القتال ، وسرتب أموركم
وأموالكم في غيابكم ، سأغفر لكم ذنوبكم وخطاياكم بالقوة التي زودني بها
الله فليترهتكم ضريح المسيح المقدس ربنا ومنقذنا ، الضريح الذي
تملكه الآن أم نجسه ان اورشليم أرض لا نظير لها في شاربها هي
فردوس المباهج ، ان المدينة العظمى القائمة في وسط العالم تستغيث بكم
أن هبوا لانقاذها "

(١) فليب عتي وآخرون ، تاريخ العرب المأول : ٧٥٢/٢ - ٧٥٣ .

(٢) محمد كرد علي ، خطب الشام : ٢٤٨/١ - ٢٤٩ .

(٣) محمد صبيح ، القدس معاركنا الكبرى : ٣٦٦/١ .

ثم أخذ بعد ذلك يطوف بنواحي فرنسا وإيطاليا ويدعو الى العرب ، ويخمد
النزاع القائم بين الطوائف النصرانية ، وكان يهرع اليه الناس بالآلاف وخاصة
من الفرنسيين الذين كانوا في أزمة اقتصادية شديدة ووجدوا في هذه
الحرب متنفسا يدمعون به أنفسهم ماديا . (١)

ولقد أسفرت جهود البابا بعد تسعة أشهر من العمل المتواصل عن
تكوين حملة صليبية قوامها ثلاثون ألف جندي بقيادة طوك أوروبا يرافقهم
المندوب البابوي الذي يمثل الزعيم الروحي . وساروا حتى وصلوا سنة تسعين
وأربعمائة الى أنطاكية ، وحاصروها حصارا شديدا مدة تسعة أشهر هناك
منهم في ذلك خلق كثير ولم يستطيعوا اقتحامها الا بخيانة أحد الحراس
وانه لمن المؤسف والمحزن أن تصل في هذه الظروف التي يستبجح فيها
الصليبيون أنطاكية سفارة من الأفضل بن بدر الجمالي وزير الدولة الفاطمية
تحط عروضا للاتفاق مع الصليبيين ضد السلاجقة على أن يكون القسم الشمالي
من بلاد الشام للصليبيين ، والجنوبي (فلسطين) للفاطميين ، فظاهر
الصليبيون بالقبول وأرسلوا سفارة الى مصر تؤكد التعاون . عندئذ جسر
الأفضل حملة قوية وحاصر بيت المقدس واحتله وأرد الحاكم السلجوقي وأتبع
القدس لدولته وأتاب فيه رجلا من قبله يعرف بافتخار الدولة وكان هذا
الخائن لا يعلم أن الصليبيين يهدفون في المقام الأول الى الاستيلاء على
القدس . واستمر الصليبيون في زحفهم نحو بيت المقدس وفي طريقهم عرجوا

(١) سعيد عاشور ، الحروب الصليبية ؛ ٣٤ / ١ .

* الأسكندرونه حاليا .

(٢) الأتابكي ، النجوم الزاهرة ؛ ١٤٧ / ٥ .

(١)

على معرة النعمان فقاتلهم أهلها قتالا عنيفا ، ولكنهم دخلوها في النهاية
وأعملوا السيف في رقاب أهلها فقتلوا منهم ما يزيد على مائة ألف إنسان ،
وسبوا النساء ، وأقاموا فيها أربعين يوما يحطون الأعمال المروعة دون أن تجد
نصيرا .

(٢)

وقد رثى هذه المدينة الشاعر وجيه بن عبد الله بن نصر التنوخي بقوله :-

- هذه صاح بلدة قد قضى اللـ * به عليها كما ترى بالخراب .
- وقف الحيس وقفه وأهلك من كسا * ن بها من شيوخها والشباب .
- واعتبر ان دخلت يوما اليها * فهي كانت منازل الأهباب .

ثم استمرت الحطة في سيرها نحو القدس بعد أن أغضعت كل المسلمين
التي مرت عليها وأخذت منها الجزية ، وفي سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة
وصل الصليبيون إلى أسوار بيت المقدس وخرّبوا حوله طوقا من الحصار
دام شهرا ونصف الشهر ، ثم جاءوا ببرجين يطلان على سور المدينة فأحرق
المسلمون أحدهما ، ولكنهم زحفوا بالآخر حتى ألقوه بالسور ، هزموا من
عليه بالمجانيق والسهام فانهمزم المقاتلون من المسلمين ، ودخل الصليبيون
المدينة دخولا مروها وحبوا ما بأنفسهم من حقد على الاسلام والمسلمين على

(١) مدينة بالشام قديمة ، كبيرة كثيرة المباني لها سبعة أبواب ، من أغصب
بلاد الله وأكثرها أرزاقا يصل التفاف بساتين الزيتون والتين وأنسواع
الفواكه فيها مسافة طويلة ، وقيل أنها تنسب إلى الصحابي النعمان
بن بشير / انظر البلاذري ، فتوح البلدان : ١٥٦ ، رحلة ابن جبیر

: ٢٥٤ .

(٢) اليافعي ، مرآة الجنان : ١٥٤/٣ .

رؤوس أهل هذه المدينة المقدسه فلم يفرقوا بين رجل وامرأة أو طفلاً وشيخ ، ثم انجفل الناس الى المسجد الأقصى يحتمون به ، فتمتعتهم خييل الصليبيين الى داخله وأعطوا فيهم السيف ، فقتلوا فيه ما يزيد على سبعين ألف إنسان منهم جماعة كثيرة من أئمة المسلمين وطوائهم ومجاهداهم وزهادهم من فارق الأوطان ، وجاور بذلك الموضع الشريف . (١) وقد هزت هذه الحادثة ضمائر الناس ونفوسهم فأطالوا البكاء والتعجب فقال بعضهم :- (٢)

- أهل الكفر بالاسلام ضيماً * يطول عليه للدين النحيب .
- فحق ضائع ، وعمى صباح * وسيف قاطع ، ودم صيب .
- وكم من مسلم أسس سليماً * وصلمة لها حرم سلب .
- وكم من مسجد جعلوه ديراً * على محرابه وضع الصليب .
- دم الخنزير فيه لهم خلصوق * وتحريق المصاحف فيه طيب .
- أمور لو تأملهن طفلاً * لطفل في عوارضه الشيب .
- أتسبى المسلمات بكل ثغر * وهبى المسلمين اذا يطيب .
- أما لله والاسلام حقيق * يدافع عنه شبان وشيب :
- فقل لذوى البصائر حيث كانوا * أجيئوا الله ويحكم أجيئوا .

انها عبرة حزينة يذوقها الشاعر على ما حل بالبلد الشريف وأهله من القتل والحرق واستباحة الحرم ، وتحويل المساجد الى كنائس نصبت الصليان على محاربيها ، وغابت عنها أصوات المؤذنين . كما مزقت المصاحف وديست وأحرقت الأمر الذى أحدث جرحاً غائراً في نفوس المسلمين ، ويذكر المؤرخون

(١) انظر تفاصيل احتلال القدس في : ابن الأثير ، الكامل : ٢٧٢ / ١٠ -

(٢) النجوم الزاهرة : ١٥١ / ٥ .

أن الصليبيين حطوا قبة الصخرة الى كنيسة ، وأعطوا قسما منها لفرسان
المهيكل ليسكنوا فيه ، واتخذوا الأبنية السفلى اسطبلات لخيولهم وودعوها
باسطبلات سليمان . (١)

وحدد أن يحدد الشاعر الأمور الشنيعة التي حلت بالمسلمين ، والتي
يشيب لهولها الأطفال يرفع صوته صارخا بقوة ، مستثمرا لعزة الاسلام
بأن حقوق الله والاسلام قد انتهكت من قبل الأعداء فأيمن الذين يعرفون
هذه الحقوق من المسلمين لم يهروا لحمايتها أينما كانوا .

لقد كان للقدس - خاصة - منزلة عظيمة في نفوس المسلمين على اختلاف
ديارهم فهي أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين ، فمنذ أن تقادم
الصليبيون لحصارها شعر أهل الشام بالخطورة والخسارة العظيمة اذا
أحطت ، فتوجه وفد من الشام على رأسه قاضي دمشق الى بغداد ليستجد
بالخليفة العباسي المستظهر بالله باعتباره المسئول الأول عن حماية المسلمين
فحضروا بين يديه ونقلوا له الأخبار التي تدمى القلوب وتبكي العيون ، فخرج
الناس في الجوامع يستغيثون ويهتفون حتى انهم كانوا صائمين وأفطروا لشدة
وقوع الخبر عليهم ولكن الخليفة كان لا يقدر على شيء مما يطرك ولا حول له
ولا قوة ، كما أن سلطان السلاجقة آنذاك (بركياروق) لم يفعل شيئا يذكر
فوقع التقاعس من الجميع ، فتمكن الصليبيون من البلد وأقاموا فيه مطكهم

(١) محمود العابدی ، قدسنا : ص ٦٢ .

(٢) تاريخ أبي الفداء : ٢٢٢ / ٢ .

التي كانت حلما طالما تمنوا تحقيقه .

وفي هذا الموقف الرهيب والغدلان العجيب قال الأبيوردى :- (١)

- مزجنا دما^١ بالدموع السواجم * فلم يبق منا عروضة للمراحم .
- وشر سلاح المرء دمع يفيضه * اذا الحرب شبت نارها بالصوارم .
- فأيها بني الاسلام ان وراكم * وقائع يلحقن الذرى بالمناسم .

يبدأ الشاعر قصيدته بهذا المطلع الحزين الباكي الذي يمزج فيه السدم بالدمع ألما وحسرة على ما يجري للمسلمين بفعل الأعداء من جانب ويخذلنا نهم من قبل اخوانهم المسلمين من جانب آخر ، وما أن الشاعر لا يستطيع أن يفصل شيئا في الميدان الجهادي بمفرده فقد لجأ لسلاح العاجز يسكن وهو الدمع الذي لا يخفى شيئا . ثم يتوجه الى بني الاسلام في بغداد وغيرها ويخطبهم باسم الأخوة الاسلامية ليهبوا لنجدة اخوانهم في الشام :-

- أنائمة في ظل أمن وخطوة * وميثاق كسوار الخميعة ناعم .
- وكيف تنام العين طمء جفونهما * على هفوات أيقظت كل نائم .
- واخوانكم بالشام يضحى مقبلهم * ظهرو المذاكي أو بطون القشاعم .
- تسومهم الروم الهوان وانتقم * تجرون نيل الخفض فعل المسالم .

(١) القصيدة في : السيوطي ، تاريخ الخلفاء : ٤٢٧ - ٤٢٨ ، ابن

الأثير ، الكامل : ٢٨٤ / ١٠ - ٢٨٥ .

والأبيوردى هو أبو المظفر محمد بن أبي العباس يصل نسبة الى عبد
شمر بن عبد مناف القرشي الأموي ، كان شاعرا مشهورا ورواية ، ونسابة
وأحد قراء أبيورد وهو مدينة بخراسان ، ومن آثاره : كتاب " تاريخ
أبيورد ونسا " " والمؤلف والمختلف " ، " تعلقه المشتاق الى ساكني العراق " ،
وفيها / انظر الوفيات : ٤ / ٤٤٤ ، السيوطي ، بغية الوفاة : ٤٠ / ١ ،
الصفدي ، الوافي بالوفيات : ٢ / ٤١ .

- فكلم من دما قد أهدت ومن دوى * توارى حيا عسنتها بالمعاصم .
- بعثت السيوف البيض محمرة الظبا * وسمر العوالي داميات اللهازم .
- وبين اختلاس الطمن والضرب وقفة تظل لها الولدان شيب القوادم .
- وتلك حروب من يخب عن فمارها * ليسلم يقرع بعدها سن نادم .

ان الشاعر يلجأ الى الأسلوب الخطابى والعبارات العجزة ذات الوقع القوى على النفوس بغية أن تثير فيها الحماس وتدفعها الى الجهاد ، فهو يتساءل متعجبا من لا يزال يفظ في نومه آثما ، ولا يبالي بتلك المصائب والفواجع ، التارزه بالمسلمين وديارهم ، والتي أطار ذكرها النوم من العيون ، وهل يجوز لمسلم أن ينام هانئا واخوانه في بيت المقدس قد أخذتهم سيوف الصليبيين فهم بين قتيل مخرج بدماه وبين أسير يروح في قيود الذل والهوان ، يقول القس رفيد الأجيلي ، وهو نصراني وشاهد عيان للمذبحة المروعة : " وشاهدنا أشياء عجيبة ان قطعت رؤوس عدد كبير من المسلمين ، وقتل غيرهم بالسهم ، وأرغموا أن يلقوا أنفسهم من فسوق الأبراج ، وحضهم عذب عدة أيام ثم أحرق ، وكنت ترى في الشوارع أكموام الرؤوس والأيدى والأقدام ، وكان الانسان أينما سار فوق جواده يسير بين جثث الرجال والخيل والنساء كن يقطن طمنا بالسيوف والحرايب والأطفال يخطفون بأرجلهم ويقذف بهم من فوق الأسوار ، أو تدق رؤوسهم بالحمد وما دام الأمر على هذه الحال التي يذكرها هذا الصليبي ، فسان الشاعر لا يلام على توبيخه المتعاصمين طالبا للسلامه وتذكيره اياهم بأنهم

(١) قصة الحضارة : الجزء الرابع من المجلد الرابع ص ٢٥ .

- سيندمون على ذلك أشد الندم ، ثم يبين أن أفعال هؤلاء المتقاصين عن
الجهاد قد أزعجت النبي - صلى الله عليه وسلم - حتى كاد يصرخ مستنجدا :
• سللن بأيدي المشركين قواضيبا * ستغمد منهم في الطلح والجمام .
• يكاد لهمن المستجن بطيبة * ينادى بأعلى الصوت يال هاشم .
• أرى أمتي لا يشرعون إلى الهدى * رماهم والدين واهو الدعائم .
• ويجتنبون النار خوفا من السرى * ولا يحسبون العار ضرورة لازم .
• أترضى صناديد الأعراب بالأذى * وتغضى على ذل كفاة الأعاجم .
• فليتهم إن لم يزدوا وحمية * عن الدين ضنوا فيرة بالمعصام .
• وإن زهدوا في الأجر ، إن حصر الوفي بفهلا أتوه رغبة في الفنائم
(١)
• لئن أذعنت تلك الخياشيم للجرى * فلا عطسوا إلا بأجدع رافئم .

أن الشاعر يخاطب الناس على لسان النبي - صلى الله عليه وسلم - كما فصل
ابن الرومي في رثاء البصرة آنفا . فالنبي يعز في نفسه أن يرى أمة قد
دخلها الوهن ، فلم تعلن الحرب دفاعا عن الدين وإنما ضنوا بأنفسهم
وتحطوا في سبيل ذلك الذل والعار ، سوا في ذلك العرب ولعلهم أراد
العباسيين أو العجم كالأترك السلاجقة وغيرهم الذين لم تحركهم الحرقرة
على الإسلام والغيره على حرمانه ، ولم يطمعوا أيضا - لجنينهم وعجزهم - بالفنائم
والأسلاب .

إن الشاعر يبدو وقوى النفس ذاعزيمة فهو لا يلجأ إلى البكاء السلبي الانهزامي
في قصيدته وإنما يقف وقفة شجاعة ، يستعمل فيها ما استطاع من وسائل التأثير

(١) الجرى : مفردا براءة وهي القوة ، والمقصود هنا الذل لقوة الأعداء .

انظر اللسان (برى) .

وهتت العمام ، فهبل من سامع مجيب ؟ والذي بيد و يؤيده الواقع التاريخي
أن استصراخه ذهب مع الريح ، وكأنه ينادى أمواتا . يقول في ختام القصيدة :-

- دعوناكم والحرب ترنوطحسة * البنا بالحاظ النصور القشاعم
- تراقب فينا غارة عريسة * تطيل عليها الروم عن الأباهم
- فان أقم لم تفضبوا بعد هذه * رمينا الى أعدائنا بالجرائم

وقى الصليبيون بجوسون خلال الديار ويدنسون الأقصى برجهم
مايقارب القرن من الزمان حتى قهق الله للأمة الاسلامية البطل صلاح الدين
الأيوبي فجمع شتاتها ، ووحدها على الاسلام والقرآن ، ثم رفع راية الجهاد
في سبيل الله فانصر على الصليبيين انتصارات ساحقه واستطاع أن يرجع
الأقصى وبيت المقدس الى دائرة الاسلام ، وأن يدخل العار الذي لازم ،
المسلمين حينما من الدهر ، وذلك سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة ، فعاد
للقدس اشراقه ونوره بصودة شعائر الاسلام الى رحابه ، ولكن خلفاء صلاح
الدين في الحكم لم يكن لهم قوته ، وسداد رأيه وذلك أنه في سنة ست عشرة
وستمائه شعر الصليبيون - الذين لم يرحلوا كلياً عن الشام - بقوتهم
فخرجوا وانتشروا في البلاد ، فما كان من الملك المعظم عيسى بن العادل
الأيوبي حاكم بيت المقدس آنذاك إلا أن خربه خراباً شنيعاً أوحش الناس منه
فرهبوا عن السكنى فيه ، وذلك خوفاً من وقوعه ثانية بأيدي الصليبيين ، فأصاب
الناس غم شديد وكوه أحر البكاء ، ورثاه الفاضل شهاب الدين يعقوب بن
المجاور بقصيدة يقول فيها : (١)

(١) المقدسي ، الروضتين : ٢٠٥ / ٢ - ٢٠٦ . والشاعر هو يوسف بن
الحسين بن محمد ، أبو الفتح ، ابن المجاور فارسي الأصل من شيراز
نشأ ومات في دمشق . أديب وشاعر . كان معلماً للعزيب بن صلاح الدين
ثم وزر له بعد وفاة أبيه / أنظر : ابن سعيد ، الخصون اليانعة : ١٩ -
٢٥ ، الشذرات : ٤٦ / ٢ .

- أعينى لا ترقى من العسبرات * صلى فو الهكسا الاصال بالهكرات .
- لعل سيول الدمع يطفو فيضها * توقد مافى القلب من جمسرات .
- ويقلب أسعر نار وجدك كلما * خبت بادكتر ييمث الحسرات .
- ويافم بح بالشجوماتك لعله * يروح مألقي صمن الكريسات .

يشرح الشاعر حالته وما دخله من الهم والعزن الشديد الذى أشعل قلبه نارا ، فأرسل الدمع مدارا يحاول به أن يطفو ذلك اللهب ، ولكن هيهات أن تخمد هذه النار مادام القلب يزيد اشتعالها بتذكرة ما حصل للقدس - موطنه الحبيب - من الخراب والدمار فهو لذلك يظل حبيس كرباتة ولا سيما عند تذكارة ما حبا الله - تعالى - به ذلك البلد :-

- على المسجد الأقصى الذى جل قدره * على موطن الاخيات والصلوات .
- (١)
- على منزل الأملك والوحى والمهدى * على مشهد الأبدال والهندلات .
- على سلم المعراج والصخرة السقى * أنافت بما فى الأرض من صفرات .
- على القبلة الأطى التى اتجهت لها * صلاة البرايا فى اختلاف جهات .
- على خير معمور وأكرم عامر * وأشرف مبنى لخير بنىة .
- وما زال فيه للنبيين معبود * يوالون فى أرجائه السجدات .
- عفا المسجد الأقصى المبارك حوله الر * رفيع العماد العالى الشرفات .
- عفا بعد ما قد كان للخير موسما * ولبر والا حسان والقربات .
- يوافق اليه كل أشمت قنانت * لمولاة بر دائم الخلسوات .
- خلا من حنين التائبين وهزتهم * فمن بين نواح صين بكساة .

(١) الأبدال : الأولياء والعباد . سمو بذلك لأنهم كلما مات منهم واحد أبدل
بآخر . اللسان : (بدل) .

ان المسجد الأقصى كان له فضل كبير وأثر مجيد في تاريخ المسلمين فهو موطن الاسراء والمعراج ، وصلاة النبيين أجمع مأمومين بسيد المرسلين عليه وعليهم الصلاة والسلام . وهو القبلة الأولى التي اتجه اليها المسلمون كما أنه كان طيلة العصور التي مرت به موثلاً لأهل العلم والتقى المنقطعين فيه للعبادة ، والذين يأتون اليه من مختلف الأصقاع يجاورون فيه ، كما كان يحصل هذا - أيضا - في حرم مكة والمدينة . لهذا فالأقصى لجميع المسلمين دون تخصيص فليتكوه أذن جميعا :-

لتبك على القدس البلاد بأسرها * وتعلن بالأحزان والترحسات .
لتبك عليها مكة فهي أختها * وتشكو الذي لاقت ال عرفات .
لتبك على ما حل بالقدس طيبة * وتشرحه في أكرم الحجرات .
ثم ينتقل الشاعر لينحى باللوم على من هدم القدس ويصفه بأنه أشمت
بذا الفعل امارات الصليبيين المقامة في صور وعكا ، كما أنه لجبهه وحققه
قد هدم مجد الأيوبيين الذي بناه عظيمهم صلاح الدين ، وتوجه بفتح
القدس :

لقد أشتوا عكا وصور بهدمها * وما طالما غادتها بشمات .
لقد شتوا عنها جماعة أهلها * وكل اجتماع مؤذن بشمات .
وقد هدموا مجد صلاح بهدمها * وقد كان مجدا بانح الخرافات .
وقد أخذوا صوتا وصيتا أنساره * لهم عظام ماوالوا من الشجرات .
أما طمت أبناء أيوب أنهم * بصمات عدوا من السموات .
وان افتتح القدس زهرة طكهم * وهل ثمر الا من الزهرات .
وفي غتام القصيدة لا يطلب الشاعر الثوث والنجدة من المسلمين لأن الفاعل
ليس عدوا أجنبيا ، وانما يطلب نواجح يندين غراب القدس بأصوات شجيبة
ليبقى الأسى متجددا والحزن مستمرا .

- فمن لى بنسوح ينحن على الذى * شجاني بأصوات لهن شجاسة .
 - يرددن بيتا للخزاعي قاله * يؤمن، فيه خيرة الغسيرات .
 - مدارس آيات خلت من تلاوة * ومنزل وحى مقفصر العرصات .
- والمقصود بالخزاعي هو دهل الشاعر الذى قال البيت الأخير من هذه القصيدة يرثى فيه أهل بيت النبى - صلى الله عليه وسلم :- (١)
- ومن الجدير بالذكر أننى فى هذا الفصل اقتصرت على إبراز قصائد الرثاء الخالص ولم أتمرس لأبيات الرثاء أو البحث على استئقاز القدامى التى تأتى ضمن قصائد المدح التى قيلت فى صلاح الدين أو فى سلاطين آل زنكى وغيرهم لأن ذلك خارج عن موضوع البحث من حيث الطبيعة والأسلوب .

الفصل الرابع : تدمير بغداد والشام على يد التتار ، ورثاء الشعراء لهما :-

من أعظم المصائب والأخطار التي ابتليت بها الأمة الاسلامية وحضارتها عبر تاريخها الطويل الهجوم الكاسح الذي قامت به جموع التتار المدمره على **المانك** الاسلامية واحكام السيطرة عليها وسط بحور من الدماء وجبال من الجثث والهائم الأ طرف الممزقة بالاضافة الى الخراب الشامل الذي لحق كل شئ وصلت اليه أيديهم ، ويصف المؤرخ ابن الأثير ذلك يقوله : (١)

" الحادثة الكبرى والمصيبة العظمى التي عمقت الأيام والليالي عن مثلها ، عمت الخلائق وخصت المسلمين ، فلو قال قائل ان العالم منذ خلق الله آدم والى الان لم يبتلوا بمثلها لكان صادقا " وقد أعرس ابن الأثير في بداية الأمر عن تدوين ما أحدثه التتار من الحوادث الشنيعة في البلاد الاسلامية الشرقية كالدولة الخوارزمية استفظاعا لذلك يقول : " لقد بقيت عدة سنين معرضا عن ذكر هذه الحادثة استعظاما لها ، كارها لذكرها — فأنا أقدم اليها رجلا وأؤخر أخرى ، فمن يهون عليه ذكر ذلك ، ومن السدى يسهل عليه أن يكتب نعي الاسلام والمسلمين فياليت أمي لم تلدنني ، وهاليتني كنت نسيا منسيا " .

وقد كان خروج هذه الوعوش التخرية في سنة ست عشرة وستمائه من أطراف الصين ثم عبروا نهر جيحون الى الدولة الخوارزمية التي كانت أقوى وأكبر دولة اسلامية في الشرق ، حيث قضت على سلطان السلاجقة ونفوذهم في بغداد وأخذت الصفة الشرعية من الخليفة العباسي وكان حاكمها آنذاك

(١) الكامل في التاريخ : ٣٥٨ / ١٢ .

(٢) المصدر نفسه : ص ٣٥٩ .

السلطان علاء الدين محمد خوارزمشاه ، وكان شرها في ابتلاع الدولات التي تجاوره وضمها الى دولته ، حتى ان أطماعه وصلت الى بغداد نفسها لأن الخليفة الناصر لدين الله لم يأمر بذكر اسم هذا السلطان بعده على منابر بغداد ، فاعتنق المذهب الشيعي ، وحصل على فتوى من علماء دولته تقول ان العباسيين قد اغتصبوا الملك من العلويين فسلطانهم غير شرعي يجب ازالته ، فجهز جيشا كثيفا لغزو بغداد ، وجاء برجل طوي يسمى (علاء الملك) ونادى به خليفة ، وخطب له وهما باسمه السكة . وسار بجيشه حتى اذا بلغ منتصف الصافة رمته العواصف والثلوج بقوارعها فأهلكت معظم جيشه فارتد الى بلاده ليجد الخطر التتري ماثلا أمامه . وهنا تقول بعض الروايات التاريخية ان الخليفة استنجد بجنكيزخان زعيم التتر لينقذه من بطش خوارزمشاه الذي أراد أن يقضى على الخلافة ، فكانت البلية العظيمة بخروج جحافل الرهيبة .

(٢)

يقول ابن الأثير عند كلامه عن الخليفة الناصر ، وكان سبب ما ينسب به المعجم اليه صحيحا من أنه هو الذي اطمح التتري في البلاد ، وراسلهم فمس ذلك فهو الطاعة الكبرى التي يصفروندها كل ذنب عظيم .

(٣)

وقال المقرئ - أيضا - : " وفي خلافته خرب التتري بلاد الشرق حسنت وصلوا همذان ، وكان هو السبب في ذلك ، فانه كتب اليهم بالمعبور الى البلاد خوفا من السلطان محمد علاء الدين خوارزمشاه لما هم بالاستيلاء على بغداد "

(١) فؤاد الصياد ، المفلح في التاريخ : ٧١ .

(٢) الكامل : ٣٦١ / ٤ .

(٣) السلوك لمعرفة دول الملوك : القسم الأول ، ج ١ ص ٢١٨ .

ولكن السبب المباشر في غزو التتر مطرقة خوارزم هو اعتداء ^(١) أحمد ولاية خوارزمشاه على تجار المصول الذين يمرون بأرضه آمنين وقتلهم ونهب ماصهم من متاع بحجة أنهم جواسيس ، وكان هذا الوالي خلا للشاه ، فرفض تسليمه للمتترلينال العقاب ، بنا ^(٢) على طلب جنكيزخان ذلك فوقع الخلاف والتهديد بينهما ، فعبروا النهر لقتال السلطان فبدأوا بذلك الوالي وقتلوه بطريقة بشعة ثم تقدموا نحو بخارى وسمرقند وأحدثوا بهما مذبحه كسبرى فقد بلغ عدد القتلى في سمرقند ما يزيد على سبعين ألفا بعد أن أخسفوا منها كل من يصلح للقتال ، ثم ساروا الى نيسابور فالري حيث لاقنا نفس المصير ، وهرب السلطان خوارزم شاه ، ومات طليلا مغموما سنة عشرة وستمائه ^(٣) ثم وصل التتار الى مدينة جرجانية عاصمة اقليم خوارزم فحاصروها بشدة وضربوها بالمجانيق ثم دخلوها ، وقتلوا جميع أهلها ثم هدموا السد المقام على نهر جيحون فأغرقوا المدينة بالماء فتهدمت وأصبحت أطلالا . ثم تركوها الى مدينة مرواحة أعظم مدن بلاد أذربيجان ، وكانت محصنة وبها طعمه ^(٤)

(١) السيوطي ، تاريخ الخلفاء : ٤٦٩ .

(٢) ابن كثير ، البداية والنهاية : ٨٢ / ١٣ وما بعدها .

(٣) قاعدة خوازم المعظم على الضفة النهر يبلغ طولها تسعة أميال في مثلها يحيط بها سور عظيم وبها أسواق كبيرة عامرة وكانت مقر السلطان محمد خوارزم الشاه الذي سقطت في عهده سنة ٦١٨ هـ / الحميري ، الروض المعطار : (جرجانية) .

(٤) بلدة مشهورة أعظم وأشهر بلاد أذربيجان ، بناها مروان بن الحكم وهو والي على أرمينية وأذربيجان ثم صارت الى العباسيين أيام الرشيد منيعة الأسوار كثيرة الخيرات والفلات . معجم البلدان (مراغه) .

تقيم فيها المرأة التي كانت تحكم المدينة آنذاك ، فعاصروها مدة ثم دخلوها
عنوة وقهرا ، فوضعوها السيف في أهلها فقتل منهم ما يخرج عن الحد والاحصاء
ونهبوا كل ما يصلح لهم ، وما لا يصلح أحرقوه وتركوا المدينة أكواما من الرماد .
ونتيجة لهذه الأخبار المرعبة عن فظائع التتر وقصوتهم وضمت طي النساء
الذلة فلا يدفعون عن أنفسهم ان تأكد عندهم أن التتر لا يظليون ، يقول
ابن الأثير عن أهل مراغة : " سمعت من بعض أهلها أن رجلا من التتر دخل
دريا فيه نائه رجل فما زال يقتلهم واحدا واحدا حتى أفناهم ولم يجد أحيدا
يده اليه بسوا " .

وفى رثاء مدينة مراغة قال أبو الحسن المرافى : - (٢)

- حرمت جفوني من همد و فرار * وصميم قلبي من نعيم قسار
- ونفاد دمي من بكائي داءسا * بمدامع حال البكاء غسزار
- وعقود عمري اليوم تمت خمسة * وبها تنهى أكثر الأعسار
- والشيب شامل عارض ومفارقسى * لطبيعة طلعت بجيش بسوار
- ماصار لولا تلك رأسى أغسبرا * فالجيش يقدمه مشار غسبار

(١) الكامل ٣٧٨/١٢
(٢) هو عهد المجيد بن الحسن بن الخطاب المرافى ، من فضلا * أن ربيجان

غزير العطف عالما بالأدب مبرزاً في اللغة والشعر ، لم يكن في زمانه
من يضاهيه فيما يتعلق بالفنون الأدبية وصناعة النظم والنثر . من كتبه
شرح الملح ، شرح سقط الزند وغيرها ، استشهد سنة ٦٢٧ هـ بقريسة
من قرى اربل . انظر : ابن الشعار العوصلى : عقود الجمان في شعراء
هذا الزمان : ج ٤ لوجه ٣٩ والقصيدة في المصدر نفسه : ج ٤ ، لوجه

يذكر الشاعر في مقدمة قصيدته الطويلة مآلت إليه حالته النفسية حين
جرا* هجوم الجيوش الفارسية على موطنه ، فقد فزاه هو - أيضا - جيش من
الغم والحزن أطار النوم عن جفونه وأجرى دمه مدرارا ، وأصاب رأسه
مؤذنا اياه بالفناء ، وهو يشرح حالته هذه بمهد لتفصيل الحادثة الكبرى
التي لا يستغرب معها ما أصابه من الحزن والألم . :-

- أو ما رأيتم أن طوفان السرى * أخذ المراغة من هجوم تتار .
- ان المراغة كالسفينة أغرقت * في لجة من صكر جرار .
- في النصف من يومين قد ظفروا بها * قهرا بعكم الواحد القهار .
- فظميرة الأعد ابتداء* حصارهم * والأخذ في الإثنين شرّ نهار .
- هجموا وقد أخذوا أعلى سورها * بمجانق يمتطرن بالأحجار .

ثم يفيض الشاعر على هذا النحوف وصف العجارة التي تصبها المجانيق
على أسوار تلك البلدة المنكبة حتى أحدثت فيه ثغرات وشقوقا في أساسه
الأمر الذي جعل الناس يتركون الأسوار منهزمين وسقط السور في النهاية
ودخل العدو . كل هذه الأحداث يسردها الشاعر بأسلوب قصصي واقعي
ينقلك إلى تلك المدينة ويجعلك تشاهده أعزانه وهمومه :-

- بسقوطه ارتفع الغبار راعاً أهـ * ل الحق فاندروا من الأسوار .
- لما رأى الكفار سورا غاليا * وهوى ببحر تساقط منهمار .
- صعدوا إليه رافعين لواءهم * قصاد قل الزمرة الأبرار .
- لجأت إلى دار الهمام امام دية * ن الله الآف من الأخيار .
- فأجارهم ووقاهم فسي داره * قاضي لحق اجاره وجوار .
- وأطاب قلبهم بطيب وسوده * ان قال أحميكم أنا في داري .
- فعما هموما وطيبلا كاملا * عن ناب قوم كالكلاب ضواري .

(١)

- وقد ا استداروا حولها * كاحاطة الهالات بالأقسام .
- فمما فيهم تطرد ااره * مطر السما الصيب المطار .
- وعلا ليمنعهم أعالي داره * فلم تيسر فتح حساب السدار .
- دخلوا وقد ظفروا بمن في داره * من نسوة وشاهينج وذاري .
- قتلوا جميعهم بأدنى غلبة * ما من مجير فندهم ومجار .

يتحدث الشاعر هنا عن مشهد آخر من مشاهد المأساة وذلك بعد أن دخل التتر البلدة وحكموا السيف في الناس والنار في البيوت والمقاع ، هرع جمع كثير من الناس الى دار قاضي مراغه يحتمون بها ، ظنا منهم أن التتار يحترمون أهل الدين والعلم ، ولكن خاب ظنهم عندما حاصر الجنود السدار وأمطروها بالقذائف والسهام ، ثم اقتحموها وقتلوا جميع من فيها غير مفرقين بين شيخ كبير وطفل صغير وامرأة ثكلى جريح ، وهكذا كان يهدنهم فسو كل بلد يفتحونه وكان مقصودهم افناء العالم وابادة النوع الانساني لا طلسب الملك والمال . وهذا ما يظهر من رسالة هولاء كوعظيهم الى ملك الشمام (٢) حيث قال : "نحن جيوش الهلكة لا جيوش الطكة ، مقصودنا الانتقام ، وملكنا لا يرام " وهكذا سقطت الدولة الخوارزمية ومدن الشرق الاسلامي العظيمه ودمرت . والملاحظ أن صدى هذا الخزو الصاعق قليل جدا في الشعر العربي أوريا ضاع ذلك الشعر مع ما فقد من التراث في تلك الأيام العصيبة .

وبعد ذلك توجهت أنظار التتر بقيادة زعيمهم الجديد هولاء الذي تولي بعد موت جنكيزخان . الى احتلال بغداد والقضا على الخلافة العباسية وكان الخليفة آنذاك المستعصم بالله وكان رجلا دينيا لين الجانب ولكنسه كان مستضعف الرأي قليل الخبرة بأمر المطكة يتكل فيها على غيره وقيل ان (٣)

(١) كلمة غير واضحة في المخطوط السابق لوجه ٤١ .
(٢) السيوطي ، تاريخ الخلفاء : ٤٧٤ .
(٣) ابن الطقطقي ، الفخرى في الآداب السلطانية : ٢٤٠ .

وزيره مؤيد الدين بن العلقم الشيعي هو الذي كاتب التتر ووصف لهم
حال الدولة وما بلغت من الضعف وأطمعهم في اجتياحها وطك بغداد . وذلك
على أثر نقمته على الخليفة لما فعله ولده بالشيعة حينما نشب قتال بين
الشيعة والسنة في أواخر عهد المستعصم بالله بسبب الخلافات المذهبية
فأرسل الخليفة ابنه أبا بكر لفض النزاع ، فأغار هذا على مقر الشيعة فسوى
الكرخ وارتكب كثيرا من الفظائع ، من قتل للرجال وسبي للنساء وهتك للأعراس
والحرمت ما كان له أسوأ الأثر في نفوس الشيعة فنقموا على الخلافة وتمسوا
زوالها . (١)

وفي سنة ست وخمسين وستمائة تحركت جحافل التتر نحو بغداد وتبدلت
رسائل التهديد والوعيد بين هولاكو والخليفة المستعصم ، وكان ما وجهه
به الخليفة لهولاكو قوله : " ان كنت تريد الحرب والقتال فلا تتوان لحظة
ولا تعتذر ، فان لى الوفا مؤلفه من الفرسان والرجال وهم على أهبة
الاستعداد للقتال " . ولعل الخليفة كان يقصد بهذا القول ارهاب
هولاكو ، وارجاعه عما من طيه من السير الى بغداد ، والا فهو يعلم قبل
غيره الحالة التي كان عليها العالم الاسلامي من الضعف والتفكك واليهلج
الذي ملأ قلوب الناس من فعل التتر . ولكن كلام الخليفة هذا أحق هولاكو
فسار على الفور حتى وصل الى ظاهر بغداد فلقبه جيش الخليفة فكان
نصيبه الهزيمة المنكرة ولم ينج منه إلا القليل . ثم تقدم الى بغداد وأحكم
الحصار حولها في الثاني والعشرين من المحرم وأخذوا يفتحون الأبراج ويهدمون
الأسوار ويطلقون يد التخريب في المدينة ، فلما رأى الخليفة أن لا طاقسة

(١) أبو الفداء ، المختصر في أخبار البشر : ٢٠٢ .

(٢) رشيد الدين المهداني ، جامع التواريخ (تاريخ المنول) : ٤٩٢/١ .

له بالمقاومة أراد الهرب ولكن ابن الملقى الذى كان قد استوثق لنفسه من التتار خدعه وثناه عن عزمه وحسن له الخروج لطلب الأمان من هولاء كسوف وفى الرابع من صفر خرج الخليفة وأولاده فاستقبلهم هولاء كوفلا طفيهم وطلب من الخليفة أن ينادى فى الناس بالقاء أسلحتهم والخروج من المدينة لاصطائهم ففعل ، وخرج الناس فقتلوا جميعا .

ثم أطن هولاء كوفلا الهجوم الحام على المدينة فدخلوها من الشرق وأقسام جسرا على دجلة وعبروا الى جهة المدينة الغربية فأتوا على كل ما فيها من الأحياء باستتار بالغ حتى قدر عدد القتل بثمانمئة ألف نسمة ولم يسلم من الناس الا من اختفى فى بئر أو قنطرة أو مقبره ، ثم هدموا المساجد والقصور ونهبوا ما فيها ثم أشعلوا النيران فى المدينة فأتت على الأخضر واليابس وغيرت معالمها الحضارية ، وغربت أكثر الأبنية والمشاهد . . واستمرت هذه الخاربه أربعين يوما ، ثم رحل هولاء كوفلا عن بغداد بعد أن تعفن هواؤها نتيجة الجثث الطقاة وفى أول مرحلة من سيره قتل الخليفة ثم قتل أولاده ومواليه (٢) وخواصه وذلك انقضت الخلافة العباسية التى دامت قرابة خمسة قرون وهرب القرون وقد أطال الناس الهكاه على بغداد والخلافة التى كانت تجمع شمل المسلمين رغم ضعفها ، وقال فى ذلك الشعراء قصائد رثائية باكية ، ومنهم تقى الدين أبو اليسر التنوخى يقول :- (٣)

-
- (١) البداية والنهاية : ٢٠٢/١٣ .
(٢) ابن الفوطى ، الحوادث الجامعة والتجارب النافعة : ٣٢٧ .
(٣) هو اسماعيل بن ابراهيم ابن أبى اليسر المعرى الأصل الدمشقى . ولد سنة ٥٨٦ هـ ، كان تميزا فى كتابة الانشاء جيد النظم حسن القول دينا مقصونا من بيت كتابة وجلاله ، كان جده كاتب الانشاء لنور الدين وكتب هولاء الناصر صلاح الدين داود الأيوبي . توفي سنة ٦٧٢ هـ / انظر : فوات الوفيات : ١٧٠/١ . تحقيق احسان عباس ، شذرات الذهب : ٣٣٨/٥ ، اليونينى ، ذيل مرآة الزمان : ٣٨/٣ .

- لسائل الدمع عن بغداد أخبار * فما وقوفك والأحباب قد ساروا :
- يازائرين الى الزهراء لا تفقدوا * فما بذاك الحمى والدار ديار
- تاج الخلافة والريح الذي شرفت * به المعالم قد عفاه اقفسار
- أضفى لعصف البلى في ربه أثر * ولدموع طي الآثار آثار
- يانار قلبى من نار لحرب وفى * شبت عليه ووافى الريح اعصار

يبدأ الشاعر في وصف حالة بغداد الكئيبة دون مقدمات فيذكر أنها أصبحت غامرة على عروشها من بعد أن كانت جنة الدنيا وقبلة الزائرين وطلاب الحاجات ، وقد هوى وزال عنها أجل ما كانت تفخر به وهى الخلافة العباسية التى دلتها ولم يبق منها إلا الآثار التى تستجلب الدمع والأسى لما حل بمركزها - بغداد - من التدمير والاحراق الذى أحرق القلوب حسرة وأسفا وأنهل النفوس مفعلة أوطعك التتر بأهل الاسلام من القتل والسبى وغيره فنجد الشاعر يفصل لنا هذه الوقائع فى نهول من وقع المصيبة الذى أصابته :-

- هلا الصليب على أعلى منابرها * وقام بالأمر من يحميه زمار
- وكم حريم سبته الترك فاصيبة * وكان من دون ذاك الستر أستار
- وكم بدور على البدرية انخسفت ^(١) * ولم يعد لهدور منه ابصار
- وكم ذخائر أضحت وهى شائمة * من النهاب وقد حازته كسار
- وكم حدود أقيمت من سيوفهم * على الرقاب وحطت فيه أوزار

(١) البدرية : نسبة الى بدر مولى المعتضد بالله ، والمواد بها قصور الخليفة المنصور ، جاء فى تاريخ بغداد : ١٠٥/١ " وزاد بدر مولى المعتضد من قصر المنصور المسقطات المعروفة بالبدرية فى ذلك الوقت " .

- ناديت والسبي مهتوك يجرهم * الى السفاح من الأعداء دعسار .
- وهم يساقون للموت الذي شهيدوا * الفار يارب نضلاها ولا العسار .
- والله يعلم أن القوم أغفلمهم * ماكان من نعم فيهمن اكنار .
- فأهملوا جانب الجهار ان غفلوا * فجاءهم من جنود الكهر جهار .
- بالرجال لأحداث تعدثنا * بما فدا فيه اعذار وانذار .

ان البيت الأول يشير الى ارتفاع الصليب وهو شعار النصارى ، والواقع أن التتر لم يكونوا نصارى ولكن كان للنصرانية انتشار بينهم ، هروى أن زوجة هولاء كانت نصرانية ، كما يبدو أنه كانت توجد صلات وتحالف بين الجانبين الأمر الذى دفع بعض المؤرخين الى القول ان حطة هولاء كوطن المسراق اتخذت سمات الحرب الصليبية المفروطة . (١)

وقد ظهر أثر هذا التحالف عندما دخل التتر بغداد وعاشوا فيها قتلا وسلبا فانهم لم يصروا النصارى من أهلها بسوا ، بل ان بعضهم بيوتهم كانت مأمنا لجأ اليه أناس من المسلمين فنجوا من الهلاك والأمر الأكبر من ذلك كله أن هولاء كوعندما دخل قصور الخليفة فى بغداد وهرب أحدها لطريق النساطرة ليتخذة مقرا وكنيسة ، وأغدق عليه المطايا (٢) والأحباس . ومثل هذا أيضا حصل عند فتح المنول للشام ، فقد كانت رسل هولاء كوالى أهل البلاد من القيسى والرهبان . يقول ابن تخربرى :

(١) هو فؤاد الصياد ، المنول فى التاريخ : ص ٢٨٢ .

(٢) ستيفن ونسيان ، تاريخ الحروب الصليبية : ٣ / ٥٢٢ - ٢٢٥ . الترجمة العربية .

(٣) النجوم الزاهرة : ٥ / ٨٠ .

" وكان النصراني بدمشق قد شمخوا وتجروا على المسلمين ، واستخذوا السوا
بتردد التتار الى كنائسهم ، وذهب بعضهم الى هولاء كوجاوا من عنده
بفرمان يتضمن الوصية بهم والاعتناء بأمرهم ودخلوا بالفرمان وصلبانهم مرتفعة
وهم ينادون بارتفاع دينهم واتضاع دين المسلمين ، وورشون الغمر على
الناس وفي أبواب المساجد " .

هذه الرعاية من قبل التتار للنصارى في مقابل فعل الأفاعيل الشنيعة
في المسلمين زادت غيظ قلوب المسلمين وحزنتهم وخاصة ذوو العاطفة
الشفافة والاحساس المرهف كشاعرنا أبو اليسر الذي يكاد يحترق بنيران
الأسى وهو يرى الحرم المصونات تنتهب وتنتهك علانية والسيوف تقتلع
أعناق الناس دون تمييز ، والقصور الشامخة المعروفة بالبدرية تحرق وتنتهب
ثرواتها وذخايرها وترجع خرابا كان لم تفن بالأمس . في وسط هذا الرعب
النازل ، يصرخ الشاعر مبينا أن سبب هذه النقم هو غفلة الناس من أوامر
الله ونسيانهم واجبات الاسلام حينما أبطرتهم النعم الوفيرة التي كانوا فيها ،
فسلط عليهم جبار السما* جبابرة الأرض الذين لا يرحمون فجعلوهم عبرة لمن
أراد الاعتبار .

ثم ينتقل الشاعر الى المقطع الأخير من القصيدة فيرثى آل بيت الخلافة

من بني العباس يقول :-

- من بعد أسر بني العباس كلهم * فلا أنار لوجهه الصبح أسفار .
- لم يحق للدين والدنيا وقد ذهبوا * شوق لمجد وقد بانوا وقد باروا .
- ان القيامة في بغداد قد وجدت * وحدها حين للأقبال ادبار .
- ال النبي وأهل العلم قد سبيوا * فمن ترى بعدهم تحويه أمصار؟ :
- ما كنت آمل أن أبقى وقد ذهبوا * لكن أتت دون ما اختار أقصار .

ان الشاعر يأخذه الحزن على فقد الخلافة التي كانت شعارا من شعارات الاسلام البارزه ونتج عن سقوطها أسر الخليفة العباس المستعصم بالله وجميع أبنائه ونسائه الذين بلغوا سبعمائة شخص ، فاضطربت الأمور وماجت وكأن القيامة قد قامت في بغداد ، فالناس غير الناس ، والبلاذ غير البلاذ ، فلا غرابة أن نجد الشاعر يتمنى الموت ، ويأسف لبقائه حيا بعد أن ذهبته عليه القوم من بني العباس . ولعله من الملاحظ على القصيدة غلوها من الاستصراخ وطلب الفوت وذلك لأن حالة العالم الاسلامي لا يمكن معها ذلك فالدولة الخوارزمية القوية سقطت من قبل - كما ذكرنا - وفي الشام الدولة الأيوبية التي أصابها الهموم وانقسمت الى سبعة أقسام صغيره متناحرة بعضها استقل عن مصر وبعضها ظل تابعا لها اسما ، وفي المغرب والأندلس صراعات وحروب داخلية بالاضافة الى مواجهة غزوات النصارى الصليبيين .

(٢)

ورث بغداد - أيضا - الشيخ شمس الدين الكوفي بقصيدتين احدهما

نونيه والأخرى ميمية يقول في قصيدته الأولى :- (٣)

- ان لم تقرح أدمعي أجفانسي * من بعد بعدكم فما أجفانسي
- انسان عيني مذ تناءت داركم * ماراقه نظر الى انسان
- ياليتني قدمت قبل فراقكم * ولساعة التوديع لا أحيانسي

(١) حافظ حمدي ، الشرق الاسلامي قبيل الفزوال المفلو : ١٣٠ .

(٢) هو محمود بن أحمد بن عبد الله الهاشمي الحنفى الكوفي ، كان أدبيا فاضلا وعالما شاعرا ، ظريفا كيدا اشتغل بالتدريس والخطابه ، وولد سنة ٦٢٣ هـ وتوفى ٦٧٥ . أنظر : قوات الوفيات : ١٠٢/٤ . تحقيق عباس .

(٣) القصيدة في المصدر نفسه : ٤٩٩/١ - ٥٠١ . تحقيق محمد الدين

عبد الحميد .

- مالي ولأيام شئت شطمها * حالي وغلاني بلا غلاني
- مال المنازل أصبحت لا أهلها * أهلي ولا جيرانها جيرانني
- وحياتكم ما حلها من بعدكم * غير البلى والمهدم والنسيان

ان أول ماتحسه عند قراءة هذه الأبيات هو صدق عاطفة الشاعر
واخلاصه للقوم المرثيين الذين فنوا وخلفوه من بعدهم رهين حزنه وانكساره
فهو لا يرى أنه يوفيهم حقهم من البكاء والندب حتى تتقرح أجفانه ، بل انه
يتمنى الموت ليستريح مما يلاقى من الأحزان . وكيف لا يتمناه من بعد أن
أودى الدهر بأحبائه ، وشئت شطمهم ، فتلك هي منازلهم خالية من الأنيس
ويد البلى تعيث فيها هدمًا واحراقًا . ولعله من الملاحظ تكرر فكرة تصني
الموت عند شعراء رثاء الدول وبخاصة من يرثون الدول والمدن العظيمة -
كبغداد - عندما يحل بها الدمار الشامل والسقوط الذي ينتهي به عهد
وتنهيار به حضاره . ثم ينتقل الشاعر الى الوقوف على ديار الراحلين وقد
تغيرت وخربت ويجرى معها حوارًا آسياً ينقلك الى ذلك الجو ويجعلك تشاطره
آلامه . يقول :-

- ولقد قصدت الدار بعد رحيلكم * ووقفت فيها وقفه الحيران
- وسألتها لكن بغير تكلّم * فتكلمت لكن بغير لسان
- ناديتها ياد ارماضع الأملنى * كانوا هم الأوطار في الأوطان
- أين الذين عهدتهم طعزهم * ذلّا تخسروا مفاقد التيجان
- كانوا نجوم من اقتدى فعليتهم * بيكى الهدى وشعائر الأيمان
- قالت : غدا لما تبدد شطمهم * وتبدلوا من عزهم بهوان
- كدم الفصاد يراق أرذل موضع * أبدا ويخرج من أعز مكان
- أفنتهم غير الحوادث مثل ما * أفنت قديما صاحب الايوان

- لما رأيت الدار بعد فراقهم * أضحت معطلة من السكان
- مازلت أبكيهم وألثم وحشة * لجمالهم مستهدم الأركان
- حتى رثى لى كل من ما وجدته * وجدى ولا أشجانه أشجانى

ان الشاعر حيران قد ملكت عليه الدهشة كيانه . وذلك عندما وقف على ربوع بغداد وهى دراسة بلاقع ، بعد ما كانت بالأمس القريب جنة غناء ، فراح يفضخ الآمه عن طريق حوار صامت مع تلك الديار التى أجابته بواقع الحال لد بالمنطق والمقال . ان الذين كان عهد بهم طوك الدنيا الأجزاء ، وقدوة أهل الخير والتقى قد تبدد شملهم شذر مذر وأصابهم الذل بعد الحسز فعليهم تبكى الدنيا والدين فما أشبههم بعد انحطاط قدرهم بدم الحجاقة الذى يخرج من رأس الانسان ويراق فى الأماكن القدره ، عندئذ يتيقن الشاعر أن القوم قد ساروا الى غير رجعه فيخر على بقايا آثارهم باكيا ومقبلا بحرارة شديدة استدرت عطف كل من لا يعرف الوجد والشوق ، وفى غمساار حالته هذه تسبح نفسه فى ما يشبه أحلام اليقظة فيقول :-

- أترى تعود الدار تجمعننا كما * كنا بكل مسرة وتمهان
- ان نحن نغتم الزمان ونجتنى * بيد الأمان قطوف كل أمانى
- والدهر تخذ منا جميع صروفه * والوقت يعدينا على الحدوان
- والعيش غصن والدنو ممسزق * بيد الوصال ملايس المهجران

ولكنه بعد ذلك يصحوليجد ما يتمناه شيئا صعب التحقق لأن يد الحدثان قد أودت بالأحباب والاخوان فينقلب يائسا من الحياة لا يرى فيها نديما غير الحسرات والأعزان يقول :

- هيهات قد عز اللقاء وسددت * طرق المزار طوارق الحدثان
- مالى أردد ناظرى ولا أرى الـ * أحباب بين جماعة الإخوان

- والمهفتى واوحدتو واحسیرتو * واوحشتی وآحر ظبی العانسو .
- سرتم فلاسرت النسیم ولا زهـا * زهد ولا ماست غصون البسان .
- مالی أنیس بعد کم غیر البکسو * والنوح والحسرات والأعزان .
- یالیت شعری آین سارت ~~همکم~~ * أم آین مواطنکم من البلدان ؟

وأسلوب الشاعر سهل بعيد عن التورق في المعاني والألفاظ تبرز من خلاله ثقافة الشاعر الأدبية ، وقد وشى قصيدته هذه بألوان من المحسنات كان أبرزها الجناس الذي استعمله تاما وناقصا - مشتقا - ويأتى بعد ذلك الطباق والمقابلة وغير ذلك ، ورغم إكثاره من هذه الأصناف فإنه لا تجد في القصيدة تكلفا ولا استكراها ، وقد بلغ الشاعر حدا كبيرا من التأشير ، واستطاع أن يطبع في نفوس السامعين أو القارئین ما يحس به هو في نفسه كما أنه لم يخرج عن أسلوب عصره الأدبي الذي كان مقياس الجودة فيه مقدار ما يأتى به الشاعر من الزخارف اللفظية والمحسنات البديعية وحسن الاقتباس والتضمين ، مع الإحاطة بالمعلومات والحوادث التاريخية . من الجدير بالذكر هنا أننا لا نلاحظ أثر ثقافة الشاعر الديني - رغم كونه واعظا - في هذه القصيدة فلم يأت فيها بأحاديث وقصص وعظمية ، في قالب شعري ولعل اهتمامه بالزخرفة شغله عن ذلك .

أما قصيدته الميمية فيقول فيها : - (١)

- عندي لأجل فراقكم الام * فالام أعذل فيكم والام .
- من كان مثلي للحبيب مفارقا * لا تعذلوه فالكلام كلام .
- نعم المساعد دمعى الجارى على * خدّى الا أنه نمام .
- وينيب روعى نوح كل حمامة * فكأنما نوح الحمام حمام .

(١) فوات الوفیات : ٤٩٧/١ . تحقيق محى الدين عبد الحميد .

في هذا المطلع ييوح الشاعر بما في نفسه من الألام لفقد الأعبة ، ويتبرم بلوم اللاعمين **والعذال** الذين لا يقدرّون حالته الحزينه ، التي يكشف عنها دمعه الجارى ، وروحته التي تكاد تزهد عند ما يهبّ وجدها نوح الحمّام وكما في قصيدته السابقة عندما انتقل من وصف حالته وحزنه الى الوقوف بالديار فانه يفعل هذا - أيضا - في قصيدته هذه فيقول :-

- ان كنت مثلي للأعبة فاقدا * أو في فؤادك لوعة وغرام .
- قف في ديار الظاعنين ونادها * (يادار ما صنعت بك الأيام) . (١)
- أعرضت عنك لأنهم مذ أعرضوا * (لم يبق في بشاشة تستام) . (٢)
- يادار أين الساكنون وأين زيد * ياك البها ، وذلك الاعظام .
- يادار أين زمان ربك مونقنا * وشعارك الاجلال والاكرام .
- يادار مذ أفلت نجومك عننا * والله من بعد الضياء ظلام .
- فلبعدهم قرب الردى ، ولفقدهم * فقد الهدى وتزلزل الاسلام .
- فمتى قبلت من الأعدى ساكنا * بعد الأعبة لاسقاك غمام .
- ياسادتي أما الفؤاد فشقيق * طلق وأما أدمع فسجام .
- والدار مذ عدمت جمال وجوهكم * لم يبق في ذاك المقام مقام .
- لاحظ فيها للعيون وليس لال * أقدام في عرضاتها اقدام .

ان الشاعر قد عظمت مصيبتة بفقد أعبائه في بغداد فهو لذلك لا يفتأ يكرر ذكرهم وكأنه يتسلى بذلك ، وقد شغله مصير هؤلاء الأعبة **المنوع عن** وصف الدمار والخراب والاحراق الذي لحق بالمدينة ذاتها ، فكان رثاء رثاء أشخاص فنوا لارثاء مدينة عظيمة هدمت ، وذوت حضارتها ، وحتى في وقوفه على أنقاض بغداد لم يصف تلك الانقاض وما حلّ بها ، وانما أعرض عنها

(١) ، (٢) المعجزان لأبي نواس . الديوان : ٥٤ . وعنده فعلت بدل صنعت ، فيك بدل في .

لذهاب بهائها وأقول نجمها برحيل أولئك الأحاب الذين كانوا هم نور
الظلماء ، وكانت بهم بغداد روضا يانعا ، وقلعة الاسلام العصينة ، ومد
هذا يعمود الشاعر ليؤكّد صدق مودته ووفائه بعهد الظالمين الذي تركوه
عليه فيقول :-

- وحياتكم انى على عهد الهوى * باق ، ولم يخفر لى نسام
- فدى حلال ان أردت سواكم * والحيثى بعدكم على حرام
- يا غائبين وفي الفؤاد لبعدهم * نار لها بين الضلوع ضرام
- لا كتبكم تانى ولا أغياركم * تروى ، ولا تدنيكم الأسلام
- أقتنم الدنيا على وكلمنا * جد النوى لعبت بي الأسقام
- ولقيت من صرف الزمان وجسوره * مالم تغيله لى الأوهام
- ياليت شعرى كيف حال أحببتي * وأى أرض خيموا وأقاموا ؟

ان القصيدتين تتشابهان من حيث الأسلوب والبناء والأفكار ، فالسجع
والجناس والطباق والتضمين وغيرها من المحسنات تزدهم فى أبياتهما ازدهاما
شديدا بحيث يؤدى ذلك الى خفوت صوت العاطفة بعض الشيء ، فيذهب
بعضهم الى وصف الشاعر بالتكلف ، وهو محق فى ذلك لأول وهلة ، ولكننا
لا بد أن نعامل الشاعر حسب العصر الذى عاش فيه ، والنظر الى أسلوب
ذلك العصر طى أنه قيد قل من الشعراء من يستطيع الافلات منه ، وهذا
تكون أحكامنا أقرب الى الصواب فنشير الى صدق عاطفة شاعرنا الكوفى وحسنة
انفعاله الذى يظهر رغم كثافة صنعه . أما من ناحية بناء القصيدتين فمطلعهما
يبدأ بوصف الآلام والأحزان التى يكابدها الشاعر وربما نلاحظ بعض الضمف
فى مطلع القصيدة الثانية الذى قد يكون السجع والجناس سببين فيه ، وهو
قوله : عندي لأجل فراقكم الام * فالام أعذل فيكم والام .

فهذه المباشرة التي تخلو من الايحاء (عندى لأجل فراقكم الآم) تشببه
أن تكون ادعاءً للآلام وليس احساساً حقيقياً بها ، وقد جاء بهذا الشطر
هكذا ليقع السجع بين الآم ، والآم ، والآم ، ثم ينتقل الى الوقوف
بديار الأحيوة ومخاطبتها ويكي ويتلف على رحيلهم .

ويختم القصيدتين بالاستفهام الذي يفيد التحنى المشرب باليأس من

اللقاء :

ياليث شعري أين سارت عيسكم * أم أين موطنكم من البلدان ؟ :

والثانية تختم بقوله :

ياليث شعري كيف حال أحيثي * وأى أرض خيموا وأقاموا ؟ :

أما أفكار القصيدتين فتتمثل في حزن الشاعر واصراره على اليكاه ، والاقامة
على عهد المحبة والوفاء لأولئك الراحلين ، ثم ذكره لغير الحوادث وصروف
الدهر التي قصمت ظهره ، ومددت آماله في العودة الى حياته الأولى
بين الأحاب .

رثاء الشام :

بعد أن فرغ هولاءكو من تدمير بغداد وقتل أهلها مع خليفتهم المستعصم
بالله المباسي صرف جهوده لاحتلال الشام . ففي رمضان سنة سبع وخمسين
(١) وستمئة تحرك الجيش المغولي الكبير من أنريجان قاصداً الشام ، وما أن بلغ
مشارفها حتى أرسل هولاءكو رسلة الى الطك الناصر محمد بن قلاوون سلطان
حلب يطلب منه الاستسلام . وما جاء في كتابه الى السلطان : " أجب
ملك البسيطة ولا تقولن قلاص المانعات ، ورجالى المقاتلات "

(١) ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول : ٢٧٧ .

فلما سمع السلطان هذا الكلام خاف وهرب الى دمشق ، فقتل الأرمي صده
الملك المعظم توران شاه ابن صلاح الدين ، حيث رفض تهديد المغول
وقال ليس لكم عندي الا السيف ، عندئذ تقدموا الى حلب وحاصروها ونصبوا
حولها عشرين منجنيقا وأخذوا يمحطونها بوابل من القذائف ، حتى
اضطرت الى التسليم ، فاستباحوها سبعة أيام قتلوا خلالها خلقا كثيرا -
امتألت بهم الطرق وسبوا النساء والذرية ونهبوا الأموال وفعلوا أفاعيل
(٢) (١)
تقشمر لها الأبدان وهزت هذه النكبة الشاعر الحلبي ابن العديم فقال :-

- هو الدهر ماتبنيه كفاك يهدم * وان رمت انصافا لدية فتظلم .
- أباد ملوك الفرس جمعا وقيصرا * وأصمت لذي فرسانها منه أسهم .
- وأفنى بني أيوب مع كثر جمعهم * وما منهم الا طيبك معظم .
- وطك بني العباس زال ولم يمدع * لهم أثرا من بعدهم ، وهم هم .
- وأعتابهم أضحت تداس وعهد ها * تباس بأفواه الملوك وتلثم .

-
- (١) هو كمال الدين عمر بن عبد العزيز الحلبي ، كان فقيها على مذهب
الامام أبي حنيفة وشاعرا مجيدا ، عاش في مدينته حلب ، ثم غادرها
الى مصر ثم عاد اليها وقد خربها التتار ، وتوفي فيها سنة ٦٦١ هـ ،
ومن مصنفاته : بغية الطلب في تاريخ حلب . انظر / تاريخ أبيس
الفدا^١ : ٢١٥ / ٣ ، السخاوي ، الضوء اللامع : ٩٣ / ٦ - ٩٤ .
- (٢) القصيدة في تاريخ أبي الفدا^١ : ٢١٥ / ٣ . وقد ذكر بأنها طويلة
ولكني لم أعرط على بقيتها فيما رجعت اليه من مصادر هذه الفترة مسن
الزمن .

يبدأ ابن العديم قصيدته بداية الحكيم المجرب المعتبر بفعل الدهر
في هدم أمجاد الأمم العظيمة ، ويأتى بأمثلة قديمة مثل دولة الفرس والسرور
وأمثلة معاصرة له كدولة بني أيوب ودولة بني العباس اللتين حكمتا العالم
الإسلامي على اتساعه حيناً من الدهر ثم فنيتا ولم يبق لهما أثر . ومنها : -
فيالك من يوم شديد لغامسه * وقد أصبحت فيه المساجد تهدم .
(١)
وقد درست تلك المدارس وارتمت مصاحفها فوق الثرى وهو ضخم .
وختمها بقوليه :

ولكنما لله في ذا مشيئة * فيفصل فينا مايشاء ويحكم
هذا هو مقدار ماوصلنا من القصيدة وليس فيها ما يخفى وقعة حلب سوى
البيتين اللذين يصف فيهما شدة أهوال ذلك اليوم الذي هدمت فيه المساجد
والمدارس وديست المصاحف الشريفة بكيات كبيرة الأمر الذي زاد المسلمين
ألماً فوق الألم الكثير . ويروي أن " هيتوم " ملك أرمينية الصليبي السذي
تحالف مع المغول هو الذي استغل هذه الفرصة وأحرق جامع حلب الكبير
الذي جُلَّ من الوصف في حسن الصنعة وبهائها .

وفي ختام قصيدته يرجع الأمر إلى قضاء الله ومشيئته المتحققه لا محاله
فهو - سبحانه - المتصرف في أمور عباده وخالده . ثم تقدمت جيوش المغول
نحو دمشق فأدرك أهلها أن لا طاقة لهم بالمقاومه . فتقدم وجهها المدينة
إلى هولاكو بالطاعة والانقياد وسلموه مفاتيح المدينة عندها دخل المغول
المدينة دون اوراقه دماً إلا ماكان من قلعة دمشق فانها استحصت طمس

(١) المدارس المذكوره كانت بحلب ملاصقة للجامع الكبير من الجهة الغربية ،
ومن فوقها غرف ومساكن ولا يقل بناؤها روعة عن بناه الجامع / أنظر :
الروض المعطار : مادة (حلب) .

(٢) فؤاد الصياد ، المغول في التاريخ : ٢٩٤ .

الفاحين فدكوها بالمجانيق حتى استسلمت فقتلوا حاميتها ونهبوا جميع ما فيها . ثم توجه هولاء كو بجنوده نحو مصر ليتم له بفتحها السيطرة على العالم الاسلامي كله ، **وارسل** - على عاداته - الى السلطان المملوكي قطر خطاب التهديد والوعيد اذا هونى المقاومة والتصدي ، ولكن ذلك السلطان الشجاع بعد استشارة قواده وبنوده صمم على الجهاد وصد المنول ، فقتل رسل المنول وخرج بجيشه بقيادة الظاهر بيبرس والتقى بالجنود المنوليين بقيادة كتيبا نائب هولاء كو الذي اضطرته ظروف ملكته في اطراف الصين السن العودة اليها ، وكانت الوقعة العظيمة المسماة بمعركة عين جالوت في سنة ثمان وخمسين وستائه فانهمز المنول هزيمة ساحقة لأول مرة في تاريخهم بعد ان كانت القلوب قد يثت من النصر عليهم . ووقع قائدهم في الأسر فزريت عنقه ، ثم تابع السلطان قطر سيره بالجيش حتى دخل دمشق ودخل البطل المنتصر وسط أروع مظاهر التقدير والاعزاز - وسار بيبرس الى حلب وطرد التتر منها وأذاقهم ماذاقوه للمسلمين من قبل ، وأدب النصاري عملاء المنول على ما اقترفت أيديهم من الآثام في حق المسلمين . (٢)

ومذ لك بقيت بلاد الشام ومصر في مأمن من شر المنول ولكن الى حين عندما جدد المنول الكره في سنة اثنتين وثمانائه في عهد تيمورلنك حقييد هولاء كو الذي هاجم حلب في جيش كثيف واستباحها وقتل ما يقرب من عشرين ألف انسان ، ونهبها وهتك حرمتها في المساجد ثم زحف الى حماة وفعسل بها مثل ذلك ثم أرسل تيمورلنك الى نائب دمشق رسولا فقتله النائب قبل

(١) هي بليدة بين بيسان ونابلس من أعمال فلسطين حدثت قربها المعركة

معجم البلدان مادة (عين) .

(٢) ابراهيم الحدوى : العرب والتتار : ١٢١ .

أن يسمع كلامه فهاجم المغول دمشق واستباحوها وهدموا مخانيها وخطيب

لهم على منابرها فقال في ذلك بها^١ الدين البهاشي : (١)

- لهفي على تلك البروج وحسنها * حفت بهن طوارق الحدشان
- لهفي على وادي دمشق وطفه * وتبدل الخزلان بالثيران
- وشكا الحريق فؤادها لما رأت * نور المنازل أبدلت بدخان
- كانت معاصم نهرها فضيصة * والآن صون كذائب العقيان (٢)

يتحسر الشاعر على الدمار الذي حل بدمشق تلك البلدة الجميلة المبانس
والمنازل والوديان والتي أشعل المغول فيها النيران فتفجرت صفحة وجهها
وتبدل النور الساطع بالدخان المظلم وأصبحت الأنهار تجري دما بعد أن كانت
لجينا وذلك بسبب :-

- وماذا لك إلا تركهم ولجت بها * فتخضبت منها بأحمر قبان
 - كرهت جد أولها حوافر خيلهم * فتسابت هربا كخييل رهان
- ومعد ذلك ينتقل الى وصف ما حل بدمشق ومعالها البارزة كالمساجد
والقصور وغيرها فيقول :-

-
- (١) هو علي بن عبد الله الخزولي الدمشقي ، أصله ملوك تركي اشتراه من
يسمى ببها^١ الدين فنسب اليه أديب وشاعر تردد بين القاهرة ودمشق
وفيها مات سنة ٨١٥ هـ ، من مصنفاته : مطالع البدر ومنازل السرور .
انظر السخاوي ، الضوء اللامع : ٢٥٤ / ٥ ، الياس الدبس ، تاريخ
سوريا : ١٥٧ / ٦ .
والقصيدة في : كرد علي ، خطط الشام : ١٧٢ / ٢ - ١٧٣ .
(٢) العقيان : الذهب .

- لو عاينت عينك جامع تنكز * والبركتين بحسبها الفتسان (١)
- وتعطش المرجين من أرواحها * وتهدم المحراب والايوان
- لأتت جفونك بالدموع **ملونا** * دما حكى اللوطى المرجان
- قطرات جفنى ترجمت عن حرقى فكانهن **قلائد المقيان**
- أبنى أمية أين يمن وليدكم * والمفل تفتل فى نرى الأركان
- شربوا الخمر بصحنه حتى انتشوا، ألقوا عرابدهم على النسوان
- لمفى على كتب العلوم ودرسهها، صارت معانيها بغير بيان

ان مازاد حرقه الشاعر وألمه تركيز أولئك التتر الوحوش على ازالة معالم الاسلام ممثلة بالمساجد فقد أهدروا قدسيتها وكرامتها فهدموا محاربيها ومنابرها وخاصة الجامع الأموى الذى بناه الوليد بن عبد الملك الخليفة الأموى ووصعه بالجواهر الثمينة **حلا** بالخاراف البديعه ، وقد اتخذته المفول مجالا للسكر والمرودة بعدا احراق مصاحفه والقضاء على عباده والمجاورين فى زواياه ولم يكتفوا بذلك بل أظفوا كل ما وصلت اليه أيديهم الخبيثة من كتب العلوم المختلفة التى كانت دمشق منارا يشع بها السى العالم . وفى غمرة هذا المصاب الجلل يتذكر الشاعر ماجرى للمدن الشامية الأخرى كحماة وحلب فيقرنهما بدمشق لتكون دموعه أغزر عليهن معا :-

- أعرو سنا لك أسوة بحماتنا * فى ذا المصاب فأنتما أختان
- غابت بدور الحسن عن هالاتها * فاستبدلت من عزها بهوان
- ناهت نواعير الرياض لفقدهم * فكانها الأفلاك فى الدوران (٢)
- حزنى على الشهباء قبل حماتنا * هو أول وهى المحلل الثانى

(١) جامع تنكز : ينسب الى بانيه (تنكز) الذى كان واليا على دمشق من

سنة ٧١٢ - ٧٣٨ هـ / خطط الشام : ٧٤ / ٦ .

(٢) الشهباء : هى حلب .

لا تدعى الأحران يا شقراء **ما** * السيف للشهباء في الأحران .
وقعت كلاب المفل في غزلا نهما * وتحكمت في الحور والسودان .
لهفي عليك منازلًا ومنازلها * ومقام فردوس ومان جنان (١) .
ان مدينة حلب الشهباء هي أول ماسقط في أيدي المفل واستبيحت
بفضاعة فهي أول مايكيه الشاعر ثم تبعتها حماة التي ناحت نوايرها
الشهيرة على فقد أهلها وتبدل عزهم ذلا وقهرا ثم عظمت المصيبة بسقوط
دمشق ، وقد رثاهن الشاعر كوحدة متسلسلة لا انفصال بينها وان كان
رثاؤه لمدينة دمشق أشد وأعمق . وعلى العموم فأسلوبه سهل فيه رقه مع
العناية بالصناعة والزخرفة .
(٢) (٣)
ويقول الأوتاري في رثاء دمشق أيضا :-

لك علم بما جرى ياسهبادي * من جفوني على افتقاد رقادي .
لم أجد عند شدتي مؤنسالي * غير سهدى ملازما السوادي .
وحبيب العين الرقاد جفاها * مذ رأها حليفة الأنكاد .
يبدأ الشاعر قصيدته بهذا المطلع التقليدي الذي يشكو فيه ما أصابه
من الهم والحزن حيث جفاه الرقاد ، ولا زمه الأرق والسهاد حتى ألفه وصار
يأنس به ، ومن حالته تلك يتوجه الى دمشق معزيا :-

-
- (١) مقام فردوس : من أبواب دمشق ، باب جنان : من أبواب حلب / انظر
الروى المعطار : ماده (دمشق) .
(٢) هو أبو الحسن علاء الدين الدمشقي ، قيل انه من قريش . كان يشتغل
بصناعة الطب ، وله في ذلك كتب ومؤلفات ، توفي في آخر القرن العاشر
انظر تاريخ سورية : ٣٢٨/٦ .
(٣) القصيدة في نهاية الأرب : ٢٢٧/٥ - ٢٢٤ ، عمر موسى باشا ،
أدب الدول المتابعة : ٥٢٤ .

- أحسن الله ياد مشق عـزك * فـي مغانيك ياعـماد البـلاد .
- ورستاق نيريـك مع المـز * ة مع رونق بـذاك السـوادى . (١)
- وأنس بقاسيون ونـاس * أصبحوا مـفنا لأهل الفـساد . (٢)
- طـرقتهم حوادـث الدهـر بالـقتـ * لـ ونهب الأـسـوال والأولاد .
- ونـات مـعـجبات عنـ الشمـ * سـ تنـات بهن أيـدى الأعـادى .
- وقصـور مشيدـات تقـضـت * فـي ذراها الأيـام كالأعيـان .
- وميوت فيها التـلاوة والذـكـ * ر وعالى الحـديث بالاسـنـان .
- حرقوها وخربوها وسـادت * بقضـاء الاله رب العـبـان .
- ولـكم سرها حوى من مـعنى * مقرح القلب والحـشـى والفؤاد .
- ان بكى لا يفيدـه أو تشكـى * وجد المشتكى حـليف سـهـان .
- يشـتكى فـوق ما اشتكاه بأضـعـا * ف فيفـدو وهمـه فـي ازديـان .
- فالـخـلا والـجـلا مع الجـوع والحـر * ي ونهب الأقبـلـوات والأزواد .
- والحصار الشـديد والحـبس والـخـو * ف مع السـادة العـراة المـكـادى . (٣)

(١) رستاق نيرب : قرية مشهورة على نصف فرسخ من دمشق ، تقع فى
أنزه موضع تحف بها البساتين ويقال أن فيها مصلى الخضر عليه السلام

معجم البلدان : ماده (نيرب) .

المزة : قرية كبيرة غناء من قرى دمشق / المصدر نفسه (المزة) .

(٢) قاسيون : جبل يشرف على مدينة دمشق ، فيه عدة مغاور فيها آثار

الأنبياء ، وفى سفحه مقبرة أهل الصلاح ، وأهل دمشق يعظمون هذا

الجبل ، ويسكن فى كهوفه كثير من العباد والزهاد . / معجم البلدان

مادة (قاسيون) .

(٣) المكادى : اللصوص والمحتالون ، والكدية فى اللغة تعنى الأرض الصلبة

وسمى هؤلاء بذلك لصلابة وجوههم . / اللسان (كدى) .

اننا نحس أن الشاعر يرسل بتمزيته من بعيد ، فأسلمه لم يكشف عن
عاطفة قوية ، وانفعال يشمرك بالتأثر الحقيقي ، والانصهار في تمثل التجربة
التي مربها ، فهو دمشق وشاهد للحوادث **المنجعة** ورغم ذلك يقول :
" أحسن الله ياد دمشق عزاك " فهو يعزى دمشق بقراها ومرافقها التي شطها
الخراب ، ودمشق في الواقع هي المدمرة المستباحة التي كان الواجب على
الشاعر أن يبكيها لا أن يعزبها . والشاعر في رثائه للناس الصالحين الأبرياء
وفي أسفه للنسوة المصونات اللواتي وقعن في أيدي الأعدى ، وذقن الهوان
والذل بعد العز في نرى القصور الشامخات ، في ذلك كله لا يرسم صوراً
وظلالاً من خلال شرحه لوحشية التتر واستهتارهم بالدماء والحرمات ، وإنما
يقول : " طرقتهم حوادث الدهر " وفي وصفه لحالة الناس
المحاصرين داخل الأسوار نجد يقف عند المظاهر العامة كالجوع والشكوى
والخوف والعزى . . . الخ ولم يحاول تحليل النفوس والدخول إلى
أغوارها ، وربما كان لاهتمامه بالمنمنمة البلاغية أثر في صرفه عن ذلك . ويرز
الجانب الديني عند الأوتار بوضوح عندما يتحدث بحزن عن الأماكن ذات
القدسية كجبل قاسيون أو عند ذكره لتلك البيوت التي كانت تعج بالآيات
والأحاديث ثم أقفرت وخربت وسرعان ما يرجع إلى الحقيقة الأزلية المتمثلة
بقضاء الله الذي يقدر ما يشاء على من يشاء .

ثم تلتهمب مشاعر الشاعر حينما لا يجد نصيراً إلا رسول الله - صلى الله عليه
وسلم - فيذهب يستشفح به في لون من الوجد الصوفي الملتهمب :-

ياترى هل لكرننا من مجير * أم لتشديد أسرنا من مفادى (١)

(١) تشديد الأسر : المد بأسباب القوة ، وهو مقتبس من قوله تعالى :
(نحن خلقناهم وشددنا أسرهم وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلاً)

- لست أرجو غير البشير شفيصا * عند ربي في المن والانجساد .
فهو الصادق الذي وعد الدي * ن ينصر جار على الآبساد .
غير أن الفساد يكسب ذلا * ويحى الفساد طرق السداد .
وارتكاب الفساد يورث فقرا * وخراب البيوت عقبى الفساد .
يا حبيب الاله قد سنا الضم * ر فجد بالاسعاف والاسعساد .
يا حبيب الاله تبنا الى الل * ه وأنت العماد عتي المهاد .
من الأسرى كسرى حيارى * ه همتهم جياذ أهل المنساد .
منهم الطفل والصبية والشا * ب ينادى فمن يجيب المنسادى .
وينادى عليهم برغيف * وبنزيرٍ يخس بسوق الكساد .
عوضوا عن سرورهم بغرور * وقصور البلاد سكنى البوادى .
وأهل الوداد شر أناس * ولين المهاد شوك القتاد .
أى عين عليهم ليس تبكى * أى قلب عليهم غير صنادى .
فلأنت الرحيم قلبا ولبا * ولأنت الهادى لسبل الرشاد .
ولأنت البديع خلقا وخلقنا * ولأنت السميع للانشاد . (١)

(١) كان الأولى أن يتوجه الشاعر بدعائه الى الله - سبحانه وتعالى - دون واسطه ، غير أن الصوفيين لغموس فلسفتهم يكثر من التوسل بالرسول - عليه الصلاة والسلام - بخلو شديد ، حتى يتصوروا أنهم فى حضرتيه وأنه سامع لما يقولون وقادر على النفع والنصر فى هذه الدنيا على الرغم من وفاته واعتقادهم هذا مخالف لنصوص الاسلام الصحيحه .

وهكذا يستمر في مدح الرسول - صلى الله عليه وسلم - الى نهاية القصيدة
والشاعر هنا يشير الى الفساد الذي انغمس فيه الناس ، وتنكبهم لطرق الخير
والسداد حتى جلبوا لأنفسهم الذل والعار والدمار ، ومع هذا فهو مطمئن
الى أن عاقبة الدين الى نصر ، لأن الرسول - صلى الله عليه وسلم - قد
عد بذلك اذا صلحت نفوس الناس وأعمالهم ، ولذلك نرى الأوتار ييسار
الى اعلان التهمة بين يدي الله سائلا اياه - بواسطة رسوله - أن يلطف
بقومه الذين وقعوا في أسر المخول وخاصة الأطفال والنساء والصبيان
الذين يباعون كالرقيق ، بئس بئس .

وأسلوب القصيدة سهل ، ومعانيها واضحة مطروقة ليس فيها ابتكار ،
وقائلها لم يكن من الشعراء المشتغلين بالشعر ، وانما هو رجل شهيد نكبة
وطأنه ، وتشرد قومه ، فهاله ذلك المشهد وجادت قريحته بهذه
القصيدة .

الباب الثاني

الشعر العربي ورثاء الأندلس والمغرب

توطئه : منذ أن دخل عبد الرحمن الداخل الى الأندلس وأصبح أميراً لها في سنة ثمان وثلاثين ومائة أخذ يخطط ويدبر لاقامة دولة أموية قومية منفصلة عن الخلافة العباسية في كل شيء . وقد كان هذا الرجل ذا هممة عالية وطموح وثاب مع عزم وحزم صارمين . فاستطاع أن يجند الجيوش الجرارة لحماية امارته من العدو وان الخارجى المتمثل بقوات الفرنج النصارى الذين أزعجهم أشد الازعاج قيام قوة فتيحة بجوارهم فأخذوا يتعينون الفرس لضعفها ، واتخاذ الوسائل لمهاجمتها ، كما قاموا بتحريض العناصر الثائرة في الداخل ومدّها بوسائل القوة الممكنة وقد تجلّى ذلك عند ما تمردت شردمه من أهل مدينة سرقسطه على حكم عبد الرحمن الداخل وطلبوا معونة النصارى فجرد ملكهم شارلمان جيشاً وفزاً سرقسطه ولكن جيش الداخل تصدى له ورده خائباً . (١)

ومعد أن توطئ أمر الحكم للداخل ، واستطاع أن يضبط أمور مجتمعه على اختلاف طبقاته وأجناسه انصرف الى الناعية العمرانية الحضارية فأنشأ في قرطبه - عاصمته - داراً لضرب النقود الاسلامية وبنى فيها مسجدها الجامع الذي يعد من أبرز المنشآت العمرانية في الأندلس عامة . (٢)

وانتشرت العلوم الاسلامية وازدهرت وخاصة الفقه على مذهب الامام الأوزاعي ثم مذهب الامام مالك وظهر في الأندلس جطة من الفقهاء كان لهم مكانة مرموقة في الدولة وبين الناس . (٣)

(١) عبد الرحمن الحجى ، التاريخ الأندلسى : ٢٢٥ .

(٢) عنان ، دولة الاسلام في الأندلس : ١ / ٨٥ ، ابن عذارى ، البيان

المغرب : ٢ / ٢٢٤ .

(٣) انظر ، ابن الفرضى ، تاريخ طلماء الأندلس : ٢٠٢ / ١ - ٢٠٤ .

وقد سار الأمراء الأمويون الذين خلفوا الداخل على نفس سياسته فسو
القوة والحزم والاهتمام بمرافق الدولة المختلفة فشجعوا العلم والأدب فكثرت
العلماء والشعراء والكتاب وانتشرت معاهد التعليم ومدارسه وأصبحت اللغة
العربية هي لغة العلم والثقافة حتى في معاهد النصارى واليهود الذين
أسلم منهم الكثير بعد دراستهم للإسلام بلغته الأصلية . ثم تحولت الامارة
في الأندلس الى خلافة على يد عبد الرحمن الناصر سنة ست عشرة وثلاثمائة
وقد امتد حكمه أكثر من نصف قرن بلغت الأندلس خلاله أقصى ازدهارها
السياسي والحضاري ، وفقدت مركزا تركزت اليه الأنظار سواها في ذلك حكام
الدول الأوروبية الذين سعوا الى كسب ود الأندلسيين ورضاهم أو طيئب
العلم الذين وجدوا أنفسهم مشدودين نحوها بحثا عن فنون العلم المختلفة .
(٢)

قال ابن خلدون عن الناصر : " ومدت اليه الأمم النصرانية
من وراء الدروب يد الانعان ، وأوفدوا عليه رسلهم وهداياهم من رومية
والقسطنطينية في سبيل المهادنة والسلم والاعتمال فيما يعين في مرضاته
ووصل الى سدته الطوك من أهل جزيرة الأندلس المتاخمين لبلاد المسلمين
بجبهات قتالية وينبلونة وما ينسب اليها من الثغور ، فقبلوا يده ، والتصوا
رضاه " .

(٣)

ويقول ابن الأبار - أيضا - " أذعن له طوك الروم ورضوا في مصاهرته " .

(١) اتخذ هذا الاجراء الأمير هشام الأول خليفة عبد الرحمن الداخل

سنة ١٨٠ هـ أنظر : عنان ، دولة الاسلام في الأندلس : ١ / ٢٢٤ .

(٢) المعبر : ٤ / ٢٩٩ .

(٣) الحلة السيرة : ١ / ٢٦٩ ، وفي النفح ١ / ٣٥٤ روايات مشابهة .

ثم توفي الناصر بعد أن ترك الأندلس مستقرة موحدة آمنة العسود و
رضخ لقوتها حكام الشمال الأسباني وغيرهم ، وخلفه ابنه الحكم المستنصر
فأكمل مشاريع البناء والازدهار ، وعرف بحبه الشديد للمعلم وأهله وقد كان
هو نفسه عالما كبيرا ، جلب الكتب من البلاد الإسلامية وهدل فيها الأسوال
الكثيرة وكان شجاعا يقود الجيوش بنفسه لرد المعتدين ، وبعد حكم
دام ست عشرة سنة توفي الحكم وتولى بعده وليده هشام الطقرب (المؤيد
بالله) البالغ من العمر احدى عشرة سنة وذلك سنة ست وستين وثلثمائة
ومخلافه هذا الصبى تتبدل أحوال الأندلس وتضطرب لمعجز المؤيد عن
النهوض بأعباء الحكم فى دولة كالأندلس . وكادت الفتن تعصف بالخلافة
لولا أن قيض الله لها رجلا قويا هو المنصور بن أبى عامر الذى استطاع أن -
يحجر على هشام المؤيد ويكون هو الحاكم الفعلى للبلاد باسم هشام وكان
رجلا حازما داهية يثنى عليه المؤرخون لشجاعته وكثرة غزواته . وبعد موته
حكم ابنه المظفر ثم ابنه عبد الرحمن الطقرب (شنجول) ومقتله تنتمى إلى
الخلافة فى الأندلس ويبدأ عهد الفوضى والتنازع ويبدأ الانهيار التدريجى
لصرح المجد العظيم الذى شاده أبطال الاسلام . فمنذ بداية القرن الخامس
الهجرى الذى يسمى فى الأندلس بعصر طوك الطوائف بدأت خيوط المساه
تتضح بسقوط المدن الإسلامية بيد النصارى واستمر هذا التساقط خلال
العصور التى تلت هذا العصر ليشمل معظم المدن والحصون وتأتى المرحلة
الأخيرة المروعة بسقوط غرناطة آخر المدن الإسلامية فى نهاية القرن التاسع

(١) انظر : ابن خيرة الاشبلى ، ربحان الألباب وريحان الشباب ، لوجه :
١٣٩ . قال (والروم تعظم قبره لشجاعته) ، ابن بسام ، الذخيرة :

ويمكن القول انه تخلل هذه المدة التاريخية الطويلة المظلمة فترات مضيئة
نعمت فيها الأندلس بالأمن والرخاء وخاصة في عهد المرابطين والموحدين
حيث استعميت بعض المدن الأندلسية المحتلة ولكن هذا الوضع لم يدم
طويلا لوجود العدو المتربص (النصارى) الذى تدفمه روح صليبية لارجاع
الأندلس الى النصرانية ، فكانت الغارات تتوالى بشدة على الأندلس من
جبهاتها المختلفة . الأمر الذى يتطلب وجود قوة كبيرة دائمة في الأندلس
وذلك من الصعوبة بمكان بالنسبة لحكام المغرب من المرابطين أو الموحدين
أما قوة الأندلس الذاتية فهي قد وهنت بعد زهاب الخلافة الأيوبية
بسبب النزاع والحروب الداخلية بين الأمراء الطامعين الذين نالوا من قسوة
البلاد وساهموا في سقوطها أكثر مما فعله العدو الخارجى .

والواقع أن مأساة الأندلس من أشد المآسى التى وقعت في التاريخ فهو
تحطم حضارة زاهرة ومعالم اسلامية ، وأمة فقدت سمات حياتها الدينية
والفكرية والحضارية ، فقد مست النكبة كل شئ ، مست الأرض التى درج عليها
قوم حورها من الظلم والقهر ونشروا فيها نور الاسلام وضياءه ، الأرض التى
تمكن حبها من أعماق الأندلسيين ، وامتزجت ظلالها وأنهارها ، وأشجارها
وكل شئ فيها بأرواحهم ودمائهم . كما مست النكبة الدين في معالمه
الكثيرة في مساجده ومآذنه ومحاربيته ومست مفاهد النور والعلم
ومراكز الاشماع ، وحولتها الى أطلال ورسوم يؤمها الجبل والظلام . ومست
الانسان الأندلسى من خلال تلك المذابح والمجازر الرهيبة التى كان يقوم
بها العدو الصليبي ضد العجزة والأطفال والنساء . ولقد تتبع الشعير
الأندلسى هذه المحن والنكبات مسجلا مراحلها ، مغلدا شعور الأندلسيين
فيها ، معبرا بالدمع والدم عن تلك الاحساسات الصادقة العميقة التى قلل
نظيرها في الأدب العربى ككل .

وتسهيلا للدراسة ، وحرصا على استقصاء المادة الشمرية قسمت أشمار
الرشاء التي جمعتها الى رشاء مدن ، ورشاء ممالك ، وشعر استخانة واستصراخ
وشعر في رشاء الأندلس عامه حينما غربت شمسها أو كادت ولم أراع في هذا
التقسيم التسلسل التاريخي لا اختلاط الأحداث وتقاربها فربما سقطت اشارة
أو مملكة قبل مدينة أو سقطت معا أو استرجعت مدينه بعد سقوطها ثم
أخذت مرة أخرى ولهذا لجأت الى التقسيم حسب الموضوع ، فلاحظ أن تجد
في هذا الباب قصيدة في رشاء مدينة سقطت في القرن السابع تقدمت على
رشاء امارة سقطت في القرن الخامس وهكذا .

الفصل الأول : رشاء المدن :-

الفتنة البربرية وتدمير قرطبة ، ذكرنا فيما تقدم كيف آل أمر الخلافة
(١)
الأمية الى هشام المؤيد الذي كان صبيا صغيرا وكيف استطاع المنصور بسن
أبي عامر أن يتولى الأمور في قرطبه وأن يحجر على هشام ويستبد به حتى
غدا هو الخليفة الفعلي وان لم يحمل هذا اللقب ، ولا بعد عن الصواب
ان قلنا ان حكمه يعتبر بداية لعهد جديد ودولة جديدة وخاصة عندما أصبح

(١) هو محمد بن عبد الله بن عامر بن عبد الملك المعافري ، وجد عبد الملك
هذا كان من أول الداخلين مع طارق الى الأندلس من المغرب ، تولى
قضاة كورة ربه أيام الحكم بن الناصر فأبدى همة وعزيمة فأضيفت اليه
ولاية الشرطة والسكة مقرونة بقضاة اشبيلية ، فعلت حالته وعمر بابيه
وكانت السيدة صبيح زوجة الحكم تشمه برعايتها لحسن خدمته لها .
فلما مات الحكم دعت له ليكون وزيرا لابنها الضعيف هشام المؤيد ، فاستبد
بالأمر بهائه وتلقب (بالحاجب المنصور) وجعل الحكم في أبنائه
من بعده ، حتى كان هناك ما يسمى بالدولة العامرية ضمن الخلافة
المروانية . / الذخيرة : ق ٤ ، ج ١ ، ص ٦٠ ، ٦١ .

أبناءؤه يتوارثون منصبه من بعده وبالرغم من قوة الرجل وشجاعته في الجهاد وعدله وحسن سياسته واطهاره هيبة الأندلس التي كادت تعصف بها الحوادث برغم ذلك فإنه وجد من يعارض حكمه ويعتبره مختصبا للخلافة والحكم ولا أدل -

على ذلك من قول الشاعر يستثير بني أمية ضده :- (١)

- فيما أرى عجباً لمن يتعجب * جلت مصيبتنا وضاق المذهب .
- انى لأكذب مقفى فيما أرى * حتى أقول غلطت فيما أحسب .
- أىكون حيا من أمية واحد * ويسوس ضمخ الملك هذا الأحدث .
- تمشى عساكرهم حوالى هودج * أعواده فيهن قرد أشهب .
- أبنى أمية أين أقمار الدجى * منكم والوجوهها تنفيـب . ؟ :

ان هذه الأبيات تظهر نوعاً من التبرم بحكم ابن أبى عامر لدى الناس وخاصة أنصار بني أمية أصحاب الخلافة الشرعية . ولكن حزم ابن أبى عامر وكرمه الفياض واصطناعه للرجال كان حائلاً دون النيل منه ومن خليفته عبد الملك المظفر ولده . ثم تولى بعدهما ولده الآخر عبد الرحمن الطلقب ب (شنجبول) وكان جاهلاً عابثاً اتخذ بطانة سوء أقرته ~~بالتضييق~~ على هشام المؤيد وطلب ولاية العهد منه وبالفعل تم له ما أراد وكتب الخليفة المستضعف كتاباً بذلك أشهد فيه طبقات أهل قرطبة على تولية عبد الرحمن ولاية العهد ، وقرأ الكتاب على العامة ، فأحدث استياءً بالغاً جعل طبقات الشعب تبحث عن يقودها لقلب الدولة العامية وازهاقها وتم ذلك على يد أحد رجال الدولة الأموية وهو محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر

(١) ابن عذارى ، البيان المغرب : ٢ / ٢٨١ .

(٢) انظر أخبار هذه الفتنة في المصدر السابق : ٢ / ٤٠ وما بعدها .

الملقب بالمهدى الذى استغل غيبة شنجول عن قرطبة فى غزوة الى نواحي
طليطالة ودخل قرطبة بجيشه فأيده الناس ، فمضى بمن معه الى الزاهره
مدينة ابن ابي عامر فنهبها ثم هدمها ودخل قصر الحكم بقرطبه وقبض على
الخليفة المؤيد الذى سرعان ما تنازل عن الخلافة وبايع المهدي بها ثم
تتابع الناس من بعده بالبيعة وانفضوا من حول شنجول ثم قبضوا عليه أخيرا
وجزوا رأسه وطافوا به سنة تسع وتسعين وثلاثمائة وهكذا ينتهى نفوذ بني
عامر فى قرطبه ولم تهدأ الأحوال بعد ذلك بل اشتعل الصراع داخل البيت
الأموي نفسه حيث ظهر أموي آخر هو سليمان بن حكم بن الناصر وجمع حوله
أشتاتا من البربر الذين رفض المهدي أن يقربهم ويجعلهم من جيشه لكرهية
أهل قرطبه لهم ، فبايع هؤلاء سليمان بالخلافة ولقبوه بـ " المستعين بالله "
ووصل الأمر بهم الى الاستنجاد بالنصارى المترجمين بزعامة ملكهم (شانجه
بن فردلند) الذى جهز جيشا كبيرا ودخل قرطبة مع البربر والمستعين وهزموا
المهدى وولى هاربا ، واستغل النصارى هذه الفرصة فاستباحوا قرطبة
ودمروها وقتلوا ما يقرب من ثلاثين ألف انسان فكانت هذه الواقعة أول شارات
النصارى من المسلمين ، كما كانت بداية سيئه لعصر جديد ساهم مساهمة
فعاله فى ضياع الأندلس كلها ذلك هو عصر طوك الطوائف الذى وصف مؤرخ
الأندلس ابن حيان سنيه بقوله : " سنيها شدا انكادات ، صعبا
مشثومات ، كريبها المبدأ والقاتعه ، قبيحات المنتهى والخاتمه ، لسم
يعدم فيها حيف ، ولا فسوق فيها خوف ، ولا تم سرور ، ولا فقد محذور "

(١) ابن عذارى ، المصدر السابق : ٥١ / ٣ .

(٢) الذخيرة : ق ١ ، ج ١ ص ٣٦ .

(١)

وفى رثاء قرطبة المنكوبة يقول ابن شهيد الأندلسي :-

- ما فى الطول من الأوبة مخبر * فمن الذى عن حالها نستخبر ؟ (٢)
لا تسألن سوى الفراق فأنسه * ينبئك عنهم أنجدوا أم أفسروا .
جار الزمان عليهم ففترقوا * فى كل ناحية هاد الأكرثر .
جرت الخطوب على محل ديارهم * و عليهم فتغيرت وتفسروا .

يقف الشاعر وقفة حزينة فى طول أحبته التى أصبحت خاوية لا يجد فيها من يسأله عما حلّ بها وأهلها ، وهو هنا إنما يسائل نفسه لأنه على علم بما حصل لبلده - قرطبة - وإنما فعل ذلك لبيان الذهول الذى أصابه عند مشاهدته لمدينته المدمّره . لذلك نراه يرجع الى نفسه ليستيقظ على الحقيقة الواقعة بأن ذلك من فعل الزمان الذى طرقت خطوبه المدينة فغيرت أحوالها من الازدهار الى الانهيار ، وفعل الفراق فعله فى تشتيت أهلها شذر مذر بعد أن فنى أكثرهم فلمثل هذه الحالة يحق للشاعر أن يستقل غزير البكاء ، وخاصة أنه ذاق فى هذه البلدة حلاوة

(١) هو أبو عامر أحمد بن أبى مروان عبد الملك بن شهيد ، من أشجع وهو بطن من قبيلة فطمان العربية ، كان جده عبد الملك وزيراً للخليفة عبد الرحمن الثالث ، وأول من تلقب بذى الوزارتين فى الأندلس . ولد أدينا فى خلافة هشام المؤيد والأمر يومئذ بيد ابن أبى عامر فعماش فى كنفه عيشة راضيه شطرا من حياته حيث كان أبوه نديما خاصا لابن أبى عامر . نشأ محبا للأدب والشعر ، وسرع فى ذلك حتى أصبح فى الذروة من شعراء الأندلس وكتابها . من آثاره ديوان شعر ، "رسالة التوايح والزوايح" ، كتاب "كشف الدك وإيضاح الشك" ، و"حانوت عطار" وغيرها . توفى بدا ٤٢٦ هـ / أنظر : الفتح بن خاقان مطمح الأنفس : ١٦ ، ابن دحية ، المطرب : ١٧٤ ، ابن سمييد المغرب : ٧٨/١ .

(٢) القصيدة فى ديوان ابن شهيد : ١٠٩ - ١١١ .

العيش وتنعم في ظل قصور الحكم أيام بني عامر يقول :-

- فلمثل قرطبة يقل بكاء من * بيكي بعين دمعها متفجر
- دار أقال الله عشرة أهلها * فتبرروا وتغربوا وتمصروا
- في كل ناحية فريق منهم * متفطر لفراقها متحير
- عهدى بها والشمل فيها جامع * من أهلها والعيش فيها أخضر
- ورياح زهورتها تلوح عليهم * بروائح يفتقر منها العنبر
- والدار قد ضرب الكمال رواقه * فيها وباع النقص فيها يقصر
- والقوم قد أمنوا تغير حسنهم * فتعمموا بجمالها وتأزروا
- يا طيبهم بقصورها وغدورها * ومدورها بقصورها تتخدر
- والقصر قصر بني أمية وافر * من كل أمر والخلافة أوفر
- والزاهرية بالمراكب تزهر * والعامرية بالكواكب تعمر (١)
- والجامع الأعلى يفتن بكمل من * يتلو ويسمع ما يشاء وينظر
- وسالك الأسواق تشهد أنها * لا يستقل بسالكها المحشر

يرجع الشاعر بذاكرته الى الماضي القريب حيث كان شمل الأحياب بقرطبة

مجتمعا وعيشهم بها رغيدا يفتخرون بها على سائر البلاد ، فهي درة جبين الحضارة تزهب بمرانها ومنشأتها العامة والخاصة وشوارعها الواسعة المضارة بالقناديل ، وحدائقها التي تتمايل مزهرة شديه ولا عجب أن تكون قرطبة كذلك فهي قهوة الطلح ودار الخلافة في وسطها يقع قصر الخلفاء الأمويين الضخم وقربها تقوم مدينة الزاهرة التي بناها المنصور بن أبي عامر وبالغ في تحسينها لتنافس قرطبة نفسها وفي هذه المدينة أطلق ابن شهيد

(١) الزاهرية : قصد بها الزاهره ، وهي العامرية من مدن الدولة العاصرية

وقد أحرقها البربر سنة ٤٠٣ هـ في فتنة قرطبة . / ابن عذارى ، البيان

المغرب : ١٠١ / ٣ .

(٢) انظر وصف قرطبة في النفج : ٤٥٦ / ١ ، عبد الرحمن الحجى ، أندلسيات

١٦١ / ٢ .

لسانه في المديح ، وجرّسسته في البطالة واللهو . ولا ينسى في هذا المجال
جامع قرطبة الكبير الذي تتابع طيه الخلفاء بالزيادة والتحسين حتى غدا
آية في الروعة ومنارا للعلم والعبادة .

يقول ابن عذاري ؛ " كانت قرطبة في زمان الفضل الداخل الى الأندلس
قد نسي بها بغداد في زمان الرشيد ، وعظم بها ملكهم فاشتد أمرهم
وضخم حالهم ، وأعظم ما كانت في زمان الناصر ثم في زمان الحكم واتصل
ذلك لها الى آخر المنصور بن أبي عامر فتناهى بها كل فضل وكل ، وذلك
للادبار الذي يكون بعقب الاقبال ، والنقص الذي يوافق بعد الكمال فما من
شيء كمل الا ودنا نقصه لا محاله . " ويقدر ما كان الحسن والا زدها أصبح
الخراب والتدمير وانقلب كل شيء فيها الى نقيضه :

- ياجنة عصفت بها بأهلها * ربح النوى فثمرت وتدمروا .
- آسى عليك من الممات وحقق لسى * ان لم نزل بك في حياتك نفخر ،
- كانت عراصك اللهم مكسة * ياوى اليها الخائفون فينصروا .
- يامنزلا نزلت به بأهلها * طير النوى فتفيروا وتتكروا .

ان الشاعر يصف المفارقة الحاصلة بين الحالتين اللتين عاشتهما المدينة
بالحياة والموت فبينما كانت موضع الفخر في حال حياتها ان هو اليوم ميتته
تستحق البكاء والأسى ، وهذه الصورة النابضة بالحياة جديدة في شعر رثاء
المدن أبدعها ابن شهيد وربما نجدها في شعر من جاء بعده . وما دامت
المدينة قد نوت وماتت فانه يدعولها بالسقيا لعلها تحيا من جديد وتزهـر
رياضها :-

- جاد الفرات بساحتك ودجلة * والنهـل جاد بها وجاد الكوثر .
- وسقيت من ماء الحياة غمامة * تحيا بها منك الرياض وتزهـر .

ثم يعود بعد ذلك الى تأسفه وحزنه على أيامه الخوالي بها حين كان
الأمر مجتمعاً على أمير واحد حازم يفضح له الجميع ، ثم يمتد أسفه ليشمل
أصنافاً من الناس كالجنود العلماء والأدباء والحكام يقول :

- أيام كان الأمر فيها واحداً * لأمرها وأمير من يتأمر
- أيام كانت كف كل سلامة * تسمو اليها بالسلام وتبدر
- حزني على سروعاتها ورواتها * وشقاتها وحماتها يتكسر
- نفسي على آلائها وصفائرها * ومهائرها وسنائها تتحسر
- كبدى على علمائها ، حكماؤها * أدبائها ، ظرفائها تنفطر

لقد كانت قرطبة كعبة العلماء بأصنافهم ، والشعراء والأدباء ، وكان
ابن شهيد من جملتهم ، كما كانت تزخر بالمدارس والجامعات والمكتبات ،
حتى انه كان يحتج بحمل أهلها في الأحكام يقول المقرئ : " واطمأنسه
لمعظم أمر قرطبة كان عظمها حجة بالمغرب ، حتى انهم يقولون في الأحكام
هذا ماجرى به عمل قرطبة . "

ان ابن شهيد بالرغم من مقامه السياسي والاجتماعي في العاصمة - قرطبة -
وشهوده للفتنة عن كثب ، فان قصيدته جاءت دون المستوى الذي ينبغي لها
من حيث حرارة العاطفة وصدق الاحساس وقوة التأثير ، ولعل شدة وقع
المصائب عليه أفقده القدرة على التفاعل مع الأحداث ، فهو لم يعرض نفسه
قصيدته الى رؤوس الفتنة ، ولم ينجح باللائمة على أحد وانما أرجع سبب الدمار
والهلاك الى فعل الدهر فأتى بضروب من العبارات الدالة على ذلك كقوله :
" جار الزمان " ، " جرت الخطوب " " ريح النوى " ، " طير النوى " وأمثال

هذه العبارات تبعث في النفس لونا من الحزن المشرب باليأس من أي مقاومة أو أمل في الانتعاش أضف الى ذلك أن الشاعر لم يتفنن في رسم الصورة التفصيلية لما أصاب المدينة وأهلها ، لجعل الموقف الشعري نفس ذروة التأثير وإنما أجمل اجمالا لا يخفى عن التفصيل في كثير من الأحيان ، فلم يتحدث عن الحقد الصليبي على المسلمين ولم يذكر التهافت على الحكم من قبل المتنازعين ولو على حساب مصلحة الأمة التي ذقت الهولاء قتلا وسلبا وأسرا من جراء ذلك . ان الشاعر كما يبدو استغل شعر الأطلال في رثائه لقرطبة فهو - كما يظهر من القصيدة - كمن يقف بأطلال دهره لها ماضي عريق فهو يستعمل قاموس الأطلال اللغوي كقوله "عهدي بها" "عهدت ربوعها" ، "يامنزلا" . . . الخ كما أنه يدعو لتلك الأطلال بالسقيا والخصب الذي يكثر وروده في المقدمات الطلبيه . وطى هذا يكون رثاؤه أقرب إلى السلبية والاستسلام . أما أسلوبه فلم يخرج عن أسلوب الشعر بعامة في القرن الخامس الهجري في الأندلس حيث كان مدار الحسن عندهم يبنى على مقدار ما يستعمله الشاعر من المحسنات اللفظية والمعنوية وغيرها فهو عصر السجع بحق حتى اننا نجد معظم المؤلفات غير الأدبية - كالتاريخية والتراجم وغيرها فيه كتبت بطريقة سجوة تجعل الحصول على المعلومات منها في غاية الصعوبة أحيانا . لذا نجد ابن شهيد رغم كونه شاعرا مطبوعا وذا قريحة وقاده مخترعه وسباقه فانه حشد في قصيدته معظم أنواع البيان والهدية ، كالاتعارات والتشبيهات ، والجناس والطباق وغير ذلك .

وهناك - أيضا - عدة مقطوعات في رثاء قرطبة يسلك بعضها سبيل الوعظ وارشاد الناس إلى الصراط القويم الذي أصابتهم المحن بسبب ابتعادهم عنه ، وزجرهم عن الغي الذي أعص بصائرهم فلم يضعوا الأمور في نصابها

يقول بعضهم : (١)

- أضمت الحزم في تدبير أمركم * ستملمون مما عقبى البوار غدا
- فلورأيتم بعين الفكر حالكم * بكيتم بدم أن دمتم بسدا
- لكن سبل العمى أعت بصائركم * فألبستكم ثيابا للبلس جدا
- ياأمة هتكت مستور سينبوتهمسا * ماكل من نزل أعطى بالصفار يدا (٢)
- في سورة الحشر آيات مفصلة * في شأنكم أنزلت لم تعدكم أحدا
- نعم وفي الكهف في العشرين خاتمة * تنقض عليكم بأن لا تفلحوا أبدا
- فاستشعروا سوء عقابكم فقد شطت * جميعكم محنة لا تنقض أبدا

ان هذه الأبيات - كما يبدو - صرخة تعنيف من عالم : قد عرف مكممن الداء وسبب الهلاك الذي أصاب الناس في هذه الفتنة الميرة وهو الابطعاد عن الجدية والحزم في تصريف الأمور حتى غدت حالتهم تستوجب البكاء دما بعد التفرق والتشتت الذي لا يرجو بعده اجتماع . وهو يشير كذلك السس أمر هام زاد الأمة نلا على نلها وكشف ضعفها وهوانها وهو الاستنجاد بأعداء الدين النصارى على المسلمين في سبيل تحقيق شهوات ومطامع خسيسه ، وذلك قوله " ماكل من نزل أعطى بالصفار يدا " . وفي الآيات التي ألمح اليهسا تفسير قوله هذا ، وخاصة قوله تعالى عن الكفار (انهم ان يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم في ملتهم ولن تفلحوا اذا أبدا .) (٣)

(١) البيان المفرب : ١١١ / ٣ .

(٢) يريد الآيات ٢٤ ، ٣ ، ٤ من سورة الحشر .

(٣) الآية ٢٠ من سورة الكهف .

ان هذه المقطوعة وان كنا نعدّها من شعر الوعظ والزجر لا من شعر الرثاء الخالص - لخلوها من وصف ما حلّ بقرطبة من الدمار تفصيلا - الا أنّها قد أدت غرضها بإيجابية في تنبيه الناس الغافلين ، وإيقافهم على الواقع المائل أمامهم ، فقد تميز صاحبها بصدق عاطفته والتهاب شعوره وحماسه .

ولبعضهم أيضا مقطوعة قصيرة في رثاء عاصمة الخلافة (قرطبة) وهو يرجع مآذها الى العمين والحسد وهذا النوع من القول يتردد كثيرا في شعر الرثاء ، كما لاحظناه في رثاء بغداد أيام فتنة الأمين والمأمون .
يقول : (١)

- أبك على قرطبة الزين * فقد دهتها نظرة العمين .
- انظرها الدهر بأسلافه * ثم تقاضى جملة الديين .
- كانت على النجاة من حسنها * وعيشها المستعذب اللين .
- فانهكس الأمر فما ان تبرى * بها سرورا بين اثنين .
- فاغدو ودعها سر سالما * ان كنت أزمعت على بين .

ان الشاعر - كما يبدو - ذو نزعة تشاؤمية انهزامية قادته الى البكاء والحزن على مدينته المدمرة دون أن يرفع صوته معذرا قومه أسباب الفتن والانقياد للحكام الخونة الذين هم رأس الداء وسبب البلاء . ولعل الخوف من البطش به هو الذي دفعه الى أن يجعل سبب خراب قرطبة ، وانعكاس حالها من الحسن والسرور الى اليأس والشقاء هو نظرة العمين الحاسدة ، وتصارييف الدهر المتلونه التي قطعت الوشائج بين الناس . فلا عليهم الا أن يفارقوها مودعين الى غير لقاء .

ويقول الفقيه ابن القبري :- (١)

- ياليت شمري والأيام تجمعننا * وتأخذ البين مفلوما فنصفمه .
- في جنة الأرض أعنى أرض قرطبه * فكل شئ بديع فهي تجمعه .
- استودع الله أهليها فانهم * كالمسك قد ملأ الدنيا تضوعه .

وهذه الأبيات أقرب الى الحنين منها الى الرثاء ، فهي تعبير عن أشواق قائلها الى أيامه الماضية بقرطبه حين كان الشمل ملتئما والفراق منهزما ، وكل مالذ وطاب موفورا فيها .

(٢٠)

وفي حوالى سنة أربعين وأربعمائة جاء الشاعر المعروف بلقب ~~السيدي~~

(١) هو عبد الواحد بن محمد بن موهب التجيبى يكنى بأبى شاكر ويعرف بابن القبري . كان فقيها محدثا ، وخطيبا شاعرا ولد بقرطبه سنة ٣٣٧ هـ ونشأ وتعلم بها ثم تحول بعد الفتنة الى شاطبه وولى بها الأحكام والمظالم وكان من أهل النبل والذكاء والتواضع ، توفي سنة ٤٥٦ هـ بشاطبه ودفن ببلنسية . انظر : بغية الملتصم ، ترجمه رقم ١١٠٧ ، القاضي عياض ، ترتيب المدارك : ٨١٨ / ٤ . والأبيات فى نفس المصدر والصفحة .

(٢) هو أبو القاسم خلف بن فرج الألبيري ، من أعلام شعراء البيرة ، وبيتته فى غرناطة . أدرك الدولة العاصرية وانقراضها ، اشتهر بالهجاء والاقذاع وألف فى ذلك كتابا سماه " شفاء الأبراهى فى أخذ الأعراس " قال فيه ابن بسام : " كان باقمة عصره ، وأعجوبة دهره ، له طبع حسن وتصرف مستحسن فى مقطوعات الأبيات وخاصة اذا هجا وقدح . توفي سنة ٤٨٠ هـ الذخيرة ق ١ ، ج ٢ ص ٣٧٢ ط القاهرة . وانظر ابن دحية ، المطرب : ٩٣ ، ابن سميذ ، المغرب : ١٠٠ / ٢ .

الى قرطبه وجمال في عراصها وشاهد ما حلّ بها ثم انتقل عنها الى مدينة
الزهراء المجاورة لها ، وكانت قد خربت وأصبحت أطلالا بعد أن كانت
عاصمة الخلافة الأموية أيام الخليفة عبد الرحمن الناصر الذي جعلها زينة
الدنيا لشدة مبالفته في زخرفتها وتحسينها ، وذلك لتناسب مقام الخلافة
الكبير ، فيروى أنه جلب اليها الرخام الأبيض من ألمرية ، والوردى والمجنز
من افريقية وقرطاجنه ، وهن في وسطها مجلسه المسمى بقصر الخلافة ،
وكانت فراقده من الذهب والفضة وفي وسطه صهريج عظيم مطوئ بالزئبق .
وقيل ان هذا المجلس كان يدور ويستقبل الشمس . وهذا المجلس لم يتقدم
لأحد بناؤه في الجاهلية ولا في الاسلام . فلما حدثت فتنة قورلوبة هجم
البربر على هذه المدينة ومعهم النصارى ونهبوا كل ما فيها ودمروها بشناعه
فلما وقف السمسربها أخذ يناجئها باكيا ومستخرجا للعبرة مآل اليه
حاليها . يقول :-

وقفت بالزهراء مستميرا * معتبرا أندب أشتاتا . (٢)

فقلت : يا زهرا ألا فارجمي * قالت وهل يرجع من ماتا ؟

فلم أزل أبكي وأبكي بها * هيهات يخفى الدمع هيهاتا .

كأنما آثار من قد مضى * نواب يندبن أمواتنا .

ان تبدل حال الزهراء وخرابها جدير أن تأخذ منه العبرة بأن مصير
كل شيء على الأرض - مهما كان عظيما - الى الفناء والزوال ، ولقد أحسن الشاعر
في وصفته بأطلالها وبهذا الحوار الذي يجربه معها ويضفي عليها فيه صفات

(١) انظر وصف الزهراء في : ابن خلدون ، العبر : ١٤٤ / ٤ ، عنان

الآثار الباقية في أسبانيا والبرتغال : ٣٥ ، عبد العزيز سالم ، قرطبه

حاضرة الخلافة الإسلامية : ٢٢٤ / ١ .

(٢) نفع الطيب : ٥٢٧ / ١ .

الأحياء الذين يؤلون الى الموت " قالت : وهل يرجع من ماتا " أويجسس
الأطلال نوادب يندبن من عمروهن فيما مضى . وربما قال قائل : لماذا أهجبتنا
وقففة السمسر بالأطلال رغم كونها سلبية فهو ييكي ويستبكي من حوله ولا غير ؟
والجواب على ذلك أن الشاعر جاء الى الزهراء بعد خرابها فيما يقارب عشرين
عاما فلم يجد غير آثار وأطلال دراسه ، كما أنه لم يكن في الأصل من أهلها
ليكون قد شهد دمار قرطبة والزهراء في الفتنة البربرية سنة أربع وأربعمائه .

عصر الطوائف ومدابضة السقوط :

رأينا - في ماتقدم - كيف اشتملت الفتنة البربرية وقوضت حكم العامريين ، ورجع الأمر إلى بني أمية بجهود أنصارهم من البربر والمرتزقة النصارى الذين لم يدخروا وسعا في تدمير البلاد وفسادها . وظل الأمر كذلك في الفترة القصيرة التالية بسبب تعدد الفئات والأحزاب المتنازعة ، وتوالى الخلفاء من الأمويين والبربر حتى بلغ عددهم في مدة لا تزيد عن خمس عشرة سنة أربعمائة (١) عشر خليفة وكان من جراء هذه الفوضى العارمة أن تمزقت وحدة الدولة وخيم عليها شبح الكوارث المحرقة التي أصابت كل شيء ، وختمت هذه المحن بانتهيار صرح الخلافة ، وأطيح بأخير الخلفاء الأمويين هشام المعتد بالله ونودي في آخر سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة بأن لا يبقى في قرطبة وسائر أحيائها وأرباضها أحد من بني أمية ولا يؤويهم أحد . وهكذا انقطع ذكر الأمويين من على منابر الأندلس إلى الأبد . وعلى أثر ذلك أصبحت الفرصة سانحة أمام كل ذي قوة من الزعماء المحليين ليصبح ملكا على دولة يقيمها في مناطقه ، فإنا بنا أمام عشرين دولة مستقلة استقلالاً تاماً في إدارتها وجيشها وحياتها الفكرية والأدبية ، وعرفت هذه الدويلات بدول الطوائف ورؤساؤها بطوك الطوائف . وهم ما بين وزير سابق ، وشيخ للقضاة ، وحاكم لمدينه ، وقائد له نفوذ وأتباع ومن أشهرهم موالى بني عامر مثل خيران العامري وزهير العامري في شرق الأندلس أي في (ألمرية ، ومرسية ، ولانسية ، ودانية)

-
- (١) ابن شهيد ، رسالة التوايح والزوايح : ١٢ .
(٢) عبد العزيز سالم ، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس : ٣٦٣ ، عبد الكريم خليفة ، ابن حزم الأندلسي حياته وأدبه : ٥٠ .
(٣) عنان ، دول الطوائف : ١٤ .

وموالى الأمويين الجهاورة فو قرطبة ، وفو غرناطة ومالقة وطليطلة
قام البربر بالحكم وهم : (بنو زيري ، وبنو الأفطس وبنو ذي النون) وفـسـ
اشبيلية وسرقسطة واليونت حكم العنصر العربى وهم : (بنو عباد اللخميون ،
(١)
ونو هود الجذاميون ، وبنو القاسم الفهريون ، وبنو حمود الحسنيون) .
وهذه الممالك كانت تسلك - فو الغالب - نهجا سياسيا واداريا واحدا .
فالملك وحده يستبد بأمر الدولة ويتخذ بطانة سوء على شاكلته لا تقبل شورى
ولا معارضة . أما الاداره فتتظرفو المقام الأول الى جمع الأموال من الرعيـة
المفلومة على أمرها لتنفق على الجند المستأجر لحماية العروش المتهاوية
وعلى الشعراء الذين حرص كل ملك منهم على استقطابهم ليدبجوا قصائد
الطق ، وملاحم البطولات المزعومة لأولئك الأقرام . أما أنواع اللذات فقد
أفتنوا فو اقتناصها وأنفقوا عليها بسخاء . ونستثنى منهم أبا العزم بسن
جمهور حاكم قرطبة فقد كان شهما عادلا حكم مملكته بالشورى وأعطى
جزءا كبيرا من السلطة لفضلاء الناس فو مملكته فساعده على نشر الأمن ،
وقاموا باصلاحات عظيمة انسدل بها الستر على أهل قرطبة وقد كانت
العلاقات بين هذه الممالك علاقات خصام وتناحر وتحين للفرض من قبل كل
ملك للانقضاض والتوسع على حساب مجاوره من الممالك وقد كان هؤلاء الملوك
يعتمدون فو حروبهم مع بعضهم اعتمادا كبيرا على قوات النصارى مقابل جزية
عظيمة يدفعونها لهم . حتى أصبح للأذنفنن ملك قشتاله النصارى عمـال

(١) عبد العزيز سالم : تاريخ مدينة الصرية الاسلامية : ٥٧ - ٥٨ .

(٢) انظر الذخيرة ق ١ ، ج ٢ ص ٦٠٣ - ٦٠٤ .

(٣) هو أذنفنن بن فرذلند بن فرسيه بن شانجه ، من أشجع ملوك النصارى ،

ويورد فو المصادر بلفظ الفونس . هلك بطليطله سنة ٥٠٢ هـ بمسند

أن ملك نيفا وخمسين سنه / انظر البيان المغرب : ٥٠ / ٤ - ٥١ ،

السلوى ، الاستقصاء : ١ / ١٢٤ .

(١)

يجبون له الجزية من ملوك الطوائف ومع هذا الذل الذي كانوا يرضون
تحت وطأته اتعدوا الألقاب الفخمة ، كالمقتدر والمعتضد والمعتصم
والمستكفي والمتوكل مادفع ابن رشيق القيرواني الى القول :-
(٢)

- مايزهدني في أرض أندلس * أسما معتضد فيها ومعتصم .
- القاب ملكة في غير موضعها * كالمهريكي انتفاخا صولة الأسد .

وقد أدى تفوق هؤلاء الملوك وانكارهم لكل صوت يدعو الى الوحدة
والتكاتف الى جعلهم غنيمة سهلة للنصارى والنورمان الذين بدأوا تحركهم
باحتلال مدينة بريشتر الأندلسية سنة ست وخمسين وأربعمائة .

رشا بريشتر : كانت بريشتر تحت حكم سليمان بن هورالطقب بالمستعصمين

بالله حاكم سرقسطة والشحر الأعلى ، وكان هذا قد قسم ملكته قبل موته
بين أولاده الخمسة حيث أصبح كل منهم حاكما مستقلا بما تحت يده من
البلاد . وسرعان ما بدأ التنافس ، وظهرت الرغبة في السيطرة والتوسع . وكان
أشدهم أطماعا الأخ الأكبر أحمد المقتدر الذي استطاع بالحيلة والوعيد
أن يتغلب على ثلاثة من اخوته ويستولى على أملاكهم ثم يودعهم السجن مع

(١) ابن أبي دينار ، المؤنس : ١٠٠ - ١٠١ ، عبد الكريم التواني ، مأساة

انهيار الوجود العربي في الأندلس : ٣٠٤ .

(٢) الحماد الأصفهاني ، الخريدة ، ق ٤ ، ج ٢ ، ص ٥١ .

(٣) مدينة تقع على فرع صغير من أفرع نهر ابره ، في الشمال الشرق لسرقسطة

وهي من أمهات مدن الشحر الفائقه في الحصانة والامتناع / انظر

العميري الروض المعطار : مادة (بريشتر) ، عنان ، دول الطوائف :

التعذيب بيد أن أخاه الرابع الطقّب بحسام الدولة كان له ندا وقف فسوى وجهه وحدّ من أطماعه ، فوقعته الحرب بين الأخوين ، وقد استغل النورمان الصليبيون هذه الظروف فزحفوا الى بريشتر سنة ست وخمسين وأربعمائة .
تقول الرواية الاسلامية (١) : " ان الفرنج خرجوا من الأرض الكبيرة (أي فرنسا) الى الأندلس في جموع كبيرة ليس لها حد ، ولا يحصى لها عدد الا الله " وقيل ان جموعهم بلغت أربعين ألف فارس ، فضربوا حولها عصارا شديدًا استمر أربعين يوما ، ودافع المسلمون عن مدينتهم دفاعا مجيدا ، فسير أن الأقوات فيها قد قلت ووقع التنازع بين أهلها فاستطاع النورمان أن يقتحموا مدينته الخارجية فتحصن الناس بالمدينة الداخلية وقتلوا من المهاجمين نحو خمسمائة شخص ، ولكن النورمان اهدتوا أخيرا الى مكسان سقيا المدينة الداخلية فهدموه ، فالتقى على المحاصرين العطش والجوع والخوف فطلبوا الأمان على أن يخرجوا من المدينة آمنين دون أموال ، فوافق النورمان . ولكن هؤلاء لاعهد لهم فدخلوا المدينة بوحشية وأخذوا يقتلون ويأسرون وينهبون كل ما يجدون وخاصة الأبقار المسلمات يروى يا قوت الحمسوى أنه قد أهدى من أبقار الجوارى المسلمات ، وأهل الحسن منهن الى صاحب قسطنطينية سبعة آلاف بكر منتخبه . ويقول ابن حيان : " زعموا أنه صار لأبكرهم في حصته نحو ألف وخمسمائة جارية أبقار ، ومن أوقار الأمتعه والحلى والكسوة خمسمائة جمل " أما عدد القتلى والأسرى فهو أعظم من أن يوصف

-
- (١) مجهول ، الحلل الموشيه : ٥٤ ، ابن الكردبوس : تاريخ الأندلس : ٧١ .
(٢) معجم البلدان ، مادة (بريشتر) .
(٣) البيان المغرب : ٢٥٥ / ٣ سج الحادشه بالتفصيل .

أو يتقصى . وربما كان في الأرقام المذكورة في هذه الروايات شيء من
المبالغة ، ولكنها تدل على فداحة الخطب والوحشية الصليبية التي ماتت
فيها كل الصفات الانسانية . وقد حصل كل هذا والمقتدر بن هود لسم
يحرك ساكنا جينا منه ونذاله ، ولأن هذه المدينة واقعة في ملك أخيه
الذي يناصره المداء . وفي هذه الحادثة قال الزاهد الفقيه ابن العسال
يرثى المدينة وأهلها :-

(٢)

- ولقد رمانا المشركون بأسهم * لم تخط لكن شأنها الا صما *
- هتكوا بخيلهم قصور عريمها * لم يبق لا جبل ولا بطحها *
- جاسوا خلال ديارهم فلمهم بها * في كل يوم غارة شعسوا *
- ماتت قلوب المسلمين برعبهم * فحماتنا في حربهم جبننا *
- كم موضع فتموه لم يرحم به * طفل ولا شيخ ولا عسذرا *
- ولكم رضيع فرقوه من أممة * فله اليها ضجة وفضا *
- ولرب مولود أبوه مجسدل * فوق التراب وفرشه البيدا *
- ومصونة في خدرها محجومة * قد أبرزوها مالها استخفا *
- وعزيز قوم صار في أيديهم * فعليه بعد المرة استغذا *

-
- (١) هو أبو محمد عبد الله بن فرج البحصي ، من أهل طليطلة . شيخ
فقيه ، وشاعر مؤلف ، وعالم بالتفسير واللغة والآداب توفي سنة ٤٨٧ هـ .
انظر ابن بشكوال ، الصلة : ٢٨٥ / ١ ، وفيات الأعيان : ٢٧ / ٥ - ٢٨ .
(٢) القصيدة ذكرها الحميري ، صفة جزيرة الأندلس : ٤٠ - ٤١ .

ان الشاعر في هذه القصيدة يصل الى غرضه الاصلى مباشرة بدون مقدمات تمهيدية وذلك لأن الموقف يتطلب هذا ، فهو يصف عادية مروّمة وقعت بالقرب منه ، وأثارت مشاعره وأحزانه فالنصارى قد احتلوا المدينة بقسوة شنيعة ، فدكوا البيوت وانتهكوا الحرمات وجاسوا خلال الديار . وبالرغم من أن تصويره للنكبة كان من النوع المألوف في شعر الرثاء فإنه أضاف إلى ذلك تلصصه لسبب البلاء وهم الحكام الجبنا فقال في صراحة " فحماننا فسى حربهم جبنا " وقد جرّ هذا الجبن والرعب الى اظهار قوة الأعداء بمظهر لا تجدى معه مقاومة مما أدى الى موت قلوب المسلمين وتخاذلهم عن نصرة اخوانهم . ويضيف ابن العسال سببا آخر للمصائب النازلة بالناس ، وهى الذنوب التى لحقتهم من جراء معاصيهم فيقول :-

- لولا ذنوب المسلمين وانهم * ركبوا الكبائر ما لهن خفنا .
- ما كان ينصر للنصارى فارس * أبدا عليهم فالذنوب السدا .
- فشرارها لا يفتخون بشرهم * وصلاح متحلّى الصلاح رها .

وهذا السبب الذى يرجع ابن العسال اليه النكبة وهو الاستهتار بالدين والمجاهرة بالكبائر يمثل الداء العتيق للنكبات الجماعية ، ويكثر وروده فى شعر رثاء الدول والمدن وخاصة فى الأندلس لكثرة لذاتها المعرّصه .

ولقد كان لهذه العادة أثر كبير فى الأندلس قاطبة حيث توجهت الناس من امتداد هذا الشر الى باقى الممالك فقد أصبحت برشتر شغرا للنورمان داخل الأندلس يسهل عليهم التحرك منه الى حيث شاءوا يقول ابن عيسان :
" بلغ خبر استيلاء النورمانيين عليها قرطبة فى رمضان من ذلك العام ، فصك الأسماع وأطار الأفئدة وزلزل أرض الأندلس قاطبة ، وصير لكل شغلا يشغل

الناس في التحدث به والتساؤل عنه ، والتصوير لجلول مثله ، ومن ثم بسدأت
الجهود تبذل لاستعادتها ، وراح المخلصون من العلماء وغيرهم يحسسون
الحكام لافتكاكها بالمديح تارة وبالتوبيخ أخرى ، وكان من أشهرهم أبو حفص
(١) الهوزني الذي ألقته النكبة فراح يستحث المعتضد بن عباد أكبر ملوك
الطوائف ، وكان صديقه الحميم فبحث إليه بهذه الأبيات :-

أعجاد جلّ الرزء والقوم هجج * على حالة من مثلها يتوقع . (٢) .
فلق كتابي من فراغك ساعة * وان طال فالموصوف للطاول موضع .
اذالم أبت الداء رب دوائه * أضعت ، وأهل للسلام المضيق .

وأردف الأبيات برسالة منها " وكتابي عن حالة يشيب لشهودها
مفرق الوليد ، كما يخبر لمرودها وجه الصعيد . بدؤها ينسف الطريف
والتالد ، ويستأصل الوليد والوالد . تذر النساء أيامي ، والأطفال يتامس
. طمت حتى خيف على عروة الايمان الانقاضي ، وطمت حتى خشس
على عمود الاسلام الانقاضي ان حاربوا موضعا أرسلناه أو انتسفوا
قطرا سوؤناه ، وان هذا الأمر له مابعده الا أن يسنى الله على يدك دفعة
وصده " .

وقد أصم ابن عباد أذنيه عن هذه الرسالة بل اعتبرها نوعا من التوريط
لاظهار عجزه وتقصيره في الدفاع عن حوزة الاسلام ، أول كسر هيئته لدى ملوك

(١) هو عمر بن الحسن بن عبد الرحمن الهوزني من أهل اشبيلية . عالم
محدث رحل الى المشرق سنة ٤٤٤ هـ . كان متفنا في العلوم قد أخذ
بإرف من كل منها مع ثقب فبهمة وصحة ضبطه ، قتل باشبيلية سنة
٤٦٠ هـ / انظر : ابن سعيد ، المغرب : ٢٣٤ / ١ ، النفج : ٤٣ / ٢
الصله : ٣٨١ / ١ .

(٢) الذخيرة ق ٢ ، ج ١ ص ٨٢ .

الطوائف اذا هو حارب وأخفق . لذلك أرسل لليهوزني يحثه على المجسوس
الى اشبيلية . فلما جاء قبض عليه المعتضد وقتله بيده . (١)

وعمن كان له دور في استنهاض الهمم الشاعر السمسر ، يقول موخسا
الطوك والمتقاسمين :- (٢)

- ناد الطوك وقتل لهمم * ماذا الذي أحدثتم ؟ :
- أسلمتم الاسلام فسي * أسر العدا وقعدتم .
- وجب القيام عليكم * ان بالنصاري قستم .
- لا تنكروا شق العصا * فعصا النبي شققتم .

انه يعنى على هؤلاء الطوك تخاذلهم عن نصره الاسلام وأهله الذين
ساقهم العدو وأسارى وفعل بهم الأعاجيب ، وهذا كرههم أن القيام بنصرتهم
واجبه . وفي الوقت نفسه ينكر على طوك الطوائف عطيم الشائن وهو
الاعتماد على قوة النصاري أعداء الله الأمر الذي فيه مخالفة صريحة لهدى
النبي - عليه الصلاة والسلام .

(٣)

وفي هذه المحنة - أيضا - كتب ابن عبد البر كتابا وزع على أنحاء الأندلس

(١) الذخيرة ، ق ٢ ، ج ١ : ص ٨٣ .

(٢) المصدر نفسه ، ق ١ ، ج ٢ ، ص ٨٨٥ .

(٣) هو يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النعمي يكنى أبا عمر ، ولد
بقرطبة سنة ٣٦٢ ، ونشأ بها وأخذ عن شيوخها ثم تحول عنها إلى
شرق الأندلس بلنسية وشاطبة ومها توفي سنة ٤٦٣ هـ ، كان يعرف بشيخ
علما الأندلس لسعة حفظه في الحديث . له كتب كثيرة منها الاستيعاب
وجامع بيان العلم وفضله / انظر : ابن فرحون ، الديباج المذهب :
٣٦٧/٢ ، عياض ، ترتيب المبارك : ٨٠٨/٤ ، بقية الملتص : ٤٧٤ .

تعميماً للشعور بالمشكلة ، جاء فيه " فما ظنكم معشر المسلمين وقد سيقت النساء والولدان مابين عارية وهران قودا بالنواصي الى كل مكان طوراً على المتون وطوراً على البطون ، وشيخة الرجال مقرنين بالحبـال مصفدين في السلاسل والأغلال ، مقتادين في الشعور والسبال ، ان استرحموا لم يرحموا ، وان استطعموا لم يطعموا ، وان استسقوا لم يسقوا ، وقد طاشت أحلامهم ونهلت أوهامهم فياويلاه وياقرآناه وياحمداه " . (١)

ويبدو أن هذه الأصداء قد وجدت من ملوك الطوائف أننا صاغيه وفسي مقدمتهم المقتدر ابن هود الذي شعر بتقصيره الشديد تجاه المدينة وكأنه أراد أن يحمي العار الذي لزمه من جراء ذلك ، فاستغفر الناس للجهاد فتجمع لديه عدد هائل من الفرسان والرماه من مختلف جهات الأندلس وسار بهم الى بربرش فحاصروها بشدة ودكوا أسوارها ثم اقتحموها وفتكوا بالنصارى النورمان فتكسة شديدة جبرت الصدع وأثلجت صدور المسلمين ، وكان استردادها في سنة سبع وخمسين وأربعمائة بعد أن احتلها النصارى تسعة أشهر . (٢)
رثاء طليطله :-
(٣)

أما النكبة الثانية التي حلت بالمدن الأندلسية في هذا العصر ، وكانت

-
- (١) الذخيرة : ق ٣ ، ج ١ ، ص ١٧٦ .
(٢) ابن الكردبوس ، تاريخ الأندلس : ٧٣ .
(٣) مدينة كبيرة حصينة تسمى مدينة الطوك ، كانت عاصمة مملكة القوط قبل فتح المسلمين لها عام ٩٢٣ هـ تقع على الضفة النهر الكبير على مسافة ٩١ كم جنوبي غرب مدريد ، تحدد بها البساتين ، وتغترقها الأنهار ومحيط بها سياج من القلاع المنيعة في مختلف جهاتها . / معجم البلدان ، والروض المعطار تحت كلمة (طليطله) .

نقطة تحول في التاريخ الأندلسي عامة فهي سقوط مدينة طليطلة الشهيرة بيد الألفونس ملك قشتاله ، وترجع أهمية هذه المدينة الى كونها من أكبر دول الطوائف بالإضافة الى موقعها الحربي الهام حيث تقع على مشارف الأندلس من الشمال متاخمة لحدود الممالك النصرانية ، فهي بذلك تشمل حاجزا مانعا في وجه أي عدوان من تلك الجهات فعرفت لذلك بالثغور الأوسط (١) . وقد كانت هذه المنطقة الشاسعة (طليطلة وما تنجمها) غنما للبربر من بني النون بعد سقوط الخلافة الأموية في الأندلس ،

وكان من أبرز حكامها يحيى بن اسماعيل بن ذي النون الطقوب بالمأمون الذي أقام فيها حضارة زاهرة وبني القصور الفخمة ومن أشهرها مجلسه المعروف (بالمكرم) ، غير أنه كان كباقي ملوك الطوائف يدفع الجزية للنصارى مقابل إمداده بالمرتزقة ليقاتل بهم جيرانه بني هود أصحاب سرقسطه وبني عباد أصحاب اشبيلية واستداع في النهاية أن يحتل قرطبة من يد ابن عباد الذي كان قد أخذها من يد بني جمهور بعد أن قضى على حكمهم بخطبة دنيته سنة اثنتين وستين وأربعمائة ووضع عليها ولده سراج الدولة ودخل المأمون قرطبة سنة سبع وستين وأربعمائة دخول الفاتحين ولكنه لم يلبث أن مرض مرضا شديدا ثم توفي في نفس العام . وفي عهد هذا الحاكم جاء الألفونس لاجئا الى طليطلة بعد أن تغلب عليه أخوه سانشو واغتصب ملكه ، فأكرمه المأمون إكراما زائدا ربما نعتبه نوعا من الخفلة ، لأن الألفونس كان في تلك المدة يدرس أحوال المدينة من جميع نواحيها تمهيدا لاحتلالها في المستقبل يقول

(١) عنان ، دول الطوائف : ٦٤ .

(٢) انظر وصف المجلس في : الطارطوش ، سراج الملوك : ٥٤ .

(١)

ابن الخطيب : " وسكانه بطليطلة واطالعه على عوراتها هو الذي أوجب
تلك النصارى بها " وقد كان المأمون يعتمد اعتمادا كبيرا على جهود شيخ
الجماعة ابن الحديدى ولا يقطع أمرا دون مشاورته وقد أوصى حفيده الطقب
بالقادر أن يشد يديه على ابن الحديدى ويستعين برأيه اذا هو على الملك
ولكن القادر هذا كان حدثا قليل الخبرة ضعيف الرأى ، فلم تمش فترة قصيرة
على حكمه حتى سعى اليه نفر من خاصته بابن الحديدى وأغفروا صدره عليه
وأقنعوه بالتخلي منه حتى يكون حاكما فعليا فاستدعاه الى القصر ، وجمع
له قوما من الحاقدين عليه ففتكوا به ، وانتهبوا دونه ومايطك . (٢)

ولم يلبث القادر أن أخذ يجنى ثمار جريمته وعقوبه عندما بدأ أولئك
الأعيان الحاقدون الذين شاركوه فى الجريمة يحوكون الدسائس ضده ويثيرون
الشعب عليه حتى ظهر شبح الثورة فى نواحي البلاد جليا . عندها لجأ
القادر الى الانفوس ملك قشتالة يلتمس حمايته ، فاشتط فى طلب المال ،
وطلب بعض الحصون القريبة من الحدود وأخذ بعضها فعلا ، ولكن الثورة
فى الداخل اضطرت قفر القادر بأهله الى حصن من حصونه الشرقية هو

(١) أعمال الأعلام : ٣٣٠ / ٢ .

(٢) هويحيى بن سعيد بن أحمد الحديدى ، يكنى أبا بكر من أهل
طليطلة ، كان نبيلاً متفنناً وفصيحا مقدما فى الشورى احتل مكانة
عظمى فى دولة بنى زوى النون ، قتله القادر بالله سنة ٤٦٨ هـ . /

انظر الصلح : ٦٦٩ / ٢ ، المنزب : ١٣ / ٢ .

(٣) انظر أخبار الحديدى فى الذخيرة ج ٤ ، ص ١٥١ .

(١)

حصن هذه هقيت طليطلة بلا أمير فاستدعى أهل الرأي منهم الصوكل بن الأفطس حاكم بطليوس فقدم إلى طليطلة كارها وتولى أمرها إلى حين ، وذلك أن القادر أخذ يرأسل الأذفونش من طبعه ويذكره بالأيدى البيضاء التى كانت لبني ذى النون عليه فاستجاب له الأذفونش وهو فى الحقيقة ~~يسمى~~ فى نفسه الاستيلاء على المدينة ، فقدم إليه فى سرية من فرسانه ففر أمامه ابن الأفطس ورجع القادر إلى عرش طليطلة تحت حماية الجيش النصرانى الذى نكل بأهل المدينة ، وأحرق ما حولها من الزروع والشمار واستمر على ذلك فترة طويلة ليضعف المدينة التى كانت من المنعة والحصانة بمكان . وفى هذه الآونة الخديرة كان موقف ملوك الطوائف مخزبا ومثيرا للألم والحسرة ، فقد أسرع أعظمهم شأنا المعتمد بن عباد إلى تقديم ولائه للأذفونش وأرسل إليه وزيره البارع ابن عمار حيث عقد معه معاهدة سرية تنص على أن يساعدا الأذفونش المعتمد ضد الأمرام المسلمين ، مقابل أن يسكت الأخير على أعمال الأول ضد طليطلة ويمده بجزية كبيرة يدفعها بصغار تأباه نفس المسلم ولما شعر الأذفونش أن السبيل تمهد أمامه للهجوم على المدينة ، أخذ استعداده واقترب من المدينة فى سنة سبع وسبعين وأربعمائة وذلك بعد أربع سنين كامله من الفخارات المتواصله التى أهلكت الحرث والنسل . ثم أحكم الحصار حولها مدة تسعة أشهر أصاب الناس خلالها من الجوع والجهد واختلاف الرأي ، وانعدام النصير بلا شديد اضطروهم إلى تشكيل وفد لمفاوضة العدو والمناصر

(١) حصن بالأندلس على نهر جار يقرب مدينة اقليش . / الروش المعطار :

تحت كلمة (هذه) .

(٢) عنان ، تراجم اسلاميه : ٢١٣ - ٢١٤ .

(١)

وعرضوا عليه شروطا لتسليم المدينة تظاهروا بقبولها ومنها أن تسلم المدينة وقصور الحكام وعدائهم الى الانقوش ويؤدون اليه ما كانوا يؤدون لملوكهم من الضرائب ويخرج حاكم طليطلة القادر بالله الى بلنسية ويتبعه من يشاء وأن يأمن الناس على دماءهم وأموالهم وأن يبقى المسجد الجامع بأيدي المسلمين يقيمون فيه شعائرهم بحرية تامة وغير ذلك . وبعد الاتفاق دخل الانقوش المدينة في صفر سنة ثمان وسبعين وأربعمائه ونزل بقصر الحكام وعهد بحكم المدينة الى وزيره الداھيه (سسنندو) الذي عامل الناس باللين حتى استمالها قلوب الكثيرين ولكن هذا لم يدم طويلا حيث ثقت الانقوش اليهود المبرمة وراح " يأسر ويقتل ويحرق ويمثل وسما السمير ، وتفاسم الأمر ، وأنكرت الموارد والمصادر ، وبلغت القلوب الحناجر (٢) وقضى قضاءه باستباحة الحرم ، واستئصال الراحل والمقيم " وطفق أهل طليطلة يستصرخون طوك الطوائف ، ولكن هيئات أن يستجيب الأموات ، الذين هم في الحقيقة عمال يحكمون باسم الانقوش وقد أدى هذا الخذلان الى تمادي النصارى في تعذيب المسلمين ومدأوا يحولون المسجد الجامع الى كنيسة ويمدون أعينهم الى الممالك المجاورة لطليطلة تنفيذ السياسة (٣) الاسترداد الصليبية التي شجعها الكنيسة . وهكذا سقطت طليطلة قلعة الأندلس الكبرى وخرجت من قبضة الاسلام الى الأبد حيث لم تفلح كل الجهود التي بذلت لاسترجاعها ، ومن ذلك الحين تفرد و طليطلة عاصمة لمملكة قشتاله .

(١) عنان ، دول الطوائف : ١١٣ .

(٢) انظر خبر استيلاء النصارى على طليطلة في الذخيرة ق ٤ ، ج ١ ص —

١٦١ - ١٦٢ .

(٣) على الجارم ، قصة العرب في أسبانيا : ١٦١ - ١٦٣ .

وكان سقوطها يمثل نذير السقوط النهائي لجزيرة الأندلس ، فبدأ الناس يفكرون في ايجاد حكم بديل . وبدأت أصوات الشعراء تنطلق محذرة

بطش العدو والطامع وراثية المدينة الغارية يقول ابن العسال : - (١)

- يا أهل أندلس حثوا مديكم * فما المقام بها الا من الغلظ .
- الثوب ينسل من أطرافه وأرى * سلك الجزيرة منسولا من الوسط .
- ونحن بين عدو لا يفارقنا * كيف الحياة مع الحيات في سفظ .

وقال آخر بيتين تنحوان هذا المنحى وهما :

- يا أهل أندلس زدوا الممارفما * في العرف عارية الا مردات .
- ألم ثروا بيدق الكفار فرزنته * وشاهنا آخر الأبيات شهيات . (٢)

ان صوت ابن العسال هنا يختلف عما ألفناه منه فيما سبق حين كان في نكبة بزشتروا دعايا الى الجهاد ومحذرا من الخفلة عن مكائد الأعداء . أما هنا فصوته ينطلق بهذه الأبيات التي تشيع جوا من الانهزام واليأس ، فهو يريد أن يشجع الناس على التمسك والثبات في أوطانهم يدعوهم الى هجرها بسبل والى الرحيل من جزيرة الأندلس كلها لأنها - كما يرى - أصبحت مهددة بالسقوط بعد أن حلّ الدمار في وسطها ، والوسط هو أمتع جزء فيها ، أضف الى ذلك أن العدو قد ملك المدينة واستوطنها بالأهل والوطن مما جعل الحياة مستحيلة في هذه الظروف . ولكن هل يكون علاج المشكلة بهذه السلبية (الرحيل) في الوقت الذي يجب فيه على الشاعر أن يتسامى فوق المصائب ليبعث في النفوس بصيصا من الأمل ؟ اننا اذا أنعمنا النظر

(١) شهيات : أصلها مات الشاه (أي الملك) يقولها الغالب للمفلوب

في لعبة الشطرنج ويعنى ذلك انتهاء الدور انظر النفخ : ٣٥٢/٤ ،

الحاشية .

(٢) المصدر نفسه : ٤٨٣/٤ .

في الأبيات وربطناها بظروف سقوط طليطله ثبينا مقدار الجرح الذي أصاب قلب الشاعر وهو يري مدينته الحصينة الضخمة تتهاوى تحت معاول الصليبيين وسط الغضم الزاير من ممالك الطوائف الذين لم يحركوا ساكنا ، فتمم هذا اللون من التعبير السلبي ليكون أبلغ في تذكيرهم ، وكأنه يقول تنبأوا بمصيركم مما ترون أمامكم من النكبات التي ساهتمتم في حدوثها .

أما صاحب البيتين فهو قد هذا حدوا ابن العسال ولكنه أفرط ففسس التشاؤم ودق ناقوس الخطر بتشبيهه بلاد الأندلس بالعمارة المستترة التي حان وقت إرجاعها ولعل الجو النفس الذي كان يعيشه الناس في ظلال تلك الحروب والنكبات والنتيجة التي كان يؤكدها منطوق الممارك لعسل ذلك هو السبب الذي أدى إلى خلود مثل هذه الأبيات .

وقد نقل الينا المقرئ قصيدة طويلة لشاعر مجهول في رثاء طليطله

(١)

يبدأها بقوله :

- لشكك كيف تبتم الثفور * سرورا بعد ما سبيت ثفور .
- أما وأبي مصاب هدمنه * ثبير الدين فاتصل الثفور .
- لقد قصمت ظهور حين قالوا * أمير الكافرين له ظهور .
- ترى في الدهر سرورا بعيش * مضى عنا لطيته السرور .
- أليس بها أبي النفس شهيم * يدير على الدوائر ان تدور .
- لقد خضعت رقاب كن غلبا * وزال عتوها ومضى النفور .
- وهان على عزيز القوم نل * وسامح في الحرير فتى غير .

يمهد الشاعر لقصيدته بهذه الأبيات التي يظهر فيها عظم المصاب الذي ألمّ بالمسلمين بعد سقوط طليطله ؛ وبدل سرورهم حزناً ملازماً خيم على أنفسهم حتى انهم يعجبون اذا رأوا سروراً في هذه الحياة ، وكيف لا ؟ وهم في ذل وقهر خضعت له أنفسهم الأبيات ؛ فهنا المميز ، وأغص على الضيم الخيور . والشاعر هنا يجل لييين بعد ذلك بتفجع التحول الخطير الذي وصلت اليه حالة المدينة الكبرى ؛

- طليطلة أباح الكفر منها * حماها ، ان ذاً نبأ كسير .
- فليس مثالها ايوان كسرى * ولا منها الخورثق والتديسر .
- محصنة محسنة بعيند * لتناولها ومطالبها عسير .
- ألم تك معقلاً للدين صعباً * فذله كما شاء القديسر .
- وأخرج أهلها منها جميعاً * فصاروا حيث شاء بهم مصير .
- وكانت دار ايمان وعلم * معالمها التي طست تنير .
- فعادت دار كفر مصطفاة * قد اضطرت بأهلها الأمور .
- مساجدها كئاس ، أي قلب * على هذا يقر ولا يطير ؟ .
- فيا أسفاه يا أسفاه حزناً * يكر ماتكررت الدهور .
- أدلت قاصرات الطرف كانت * مصونات مساكنها القصور .
- وكان بنا والقينات أولى * لو انضمت على الكمل القصور .
- لقد سخنت بحالتهم عين * وكيف يصح مغلوب قريسر .

انه لنبأ عظيم يفاجأ به الشاعر ويضطرب له قلبه . ذلك هو سقوط طليطله واستباحتها من قبل جيوش الكفر . ان هذه المدينة العظيمة لم تعد في نفس الشاعر مجرد مدينة عادية داخل اطار البلاد الاسلامية بل يعتبرها رمزاً كبيراً للحضارة الاسلامية . فهي معقل الدين ، ودار الايمان والعلم السني

يصفر بجانب عظمتها وحسنها ايوان كسرى المشهور وغيره . فكيف حال من
يراهها وقد تفرق أهلها شذر مذر وسكنها بعدهم الكفار الحاقدون الذين
لا يطيقون رؤية المعالم الاسلامية الشامخة فأسرعوا في تحويل المساجد الى
كنائس ولم يتورعوا عن هتك الحرم المصونه ، الأمر الذي يذهب العقل ويطيير
القلب حتى ان الشاعر لشدة ما تلجج في صدره من الأسف والحسرة السستى
لا انقضاء لها يتمنى لو حوت القبور جميع من شاهد هذه المأساة ، لأن الموت
أهون من مكابدة هذه الحياة النكداء . ثم يحاول الشاعر تلمس أسباب هذه
المصيبة فيدرك أنها عقاب من الله أرسله على الناس عندما طغوا وفسدوا
وأكلوا الحرام ثم يستغل هذه الفكرة لينبئ من حوله ويحذرهم عاقبة الاسراف
في المحاص فيقول :-

- فان ظنا العقوبة أدركتهم * وجاءهم من الله النكير .
- فانا مثلهم وأشد منهم * نجور وكيف يسلم من بجزور .
- أنا من أن يحل بنا انتقام * وفينا الفسق أجمع والفجور .
- وأكل للحرام ولا اضطرار * اليه فيسهل الأمر العسير .
- ولكن جرأة في عقور دار * كذلك يفعل الكلب المقور .
- يزول الستر عن قوم اذا ما * على العصيان أرخيت الستور .

ومعد أن يزجرهم الشاعر عن الذنوب التي تجرهم الى مصير بئيس ، يهيب
بهم - وحماس - أن يعلنوا حرب الانتقام لفق أسر الاسلام واتباعه الممتحنين
بل ويدعوهم الى الموت الكريم بدل أن يجوروا أو يجار عليهم .

- خذوا ثأر الديانة وانصروها * فقد حامت على القتل النسور .
- ولا تمهنوا وسلوا كل عصب * تهاب مضاربا منه النحور .
- وموتوا لكم فالموت أوطى * بكم من أن تجاروا أو تجوروا .

- أصبرا بعد سبي وامتحنان * يلام عليهما القلب الصبور .
- فأم الثكل مذكار ولود * وأم الصقر مقالات نـزـور .
- نخور إذا دهبنا بالرزايـا * وليس بمعجب بقصر يخـور .
- ونجبـن ليس نزار ، لو شجعنا * ولم نجبن لكان لنا زئـسـير .
- لقد ساءت بنا الأخبار حتى * أمات المخبرين بها الغبـسـير .
- أتتنا الكتب فيها كل شر * وشرنا بأنحسنا البشـسـير .

ان عاطفة الشاعر قد جاشت حتى بلغت حد الثورة العارمه فراح يحمس الناس على تجريد السلاح وخوض الحرب وينعى على المتخاذلين الذين تذروا بالصبر ، وماذا يجدى الصبر ، والمسلمون يقتلون وتسبى نساؤهم وذرايرهم ان هذا الصبر ما هو الا نوع من الجبن الذي يجلب النكبات . ثم يشبه الشاعر الأمة عندما يسيطر عليها الجبن بالبقر الذي يخور عند وقع الحوادث ان ثورة نفس الشاعر المستمدة من الواقع المرير الذي يعيشه هي التي جعلته يستعمل أمثال هذه المبارات الالذعه " بقر نجور " ، " الكلب العقور " وهو في حقيقة الأمر محق في هذا لأنه لا يكاد يسمع بنخوة الشجعان الذين لهم زئير الأسود ولا يكاد يسمع خبرا يبعث في النفس الأمل المنشود بل غاية ما هنا لك تناقل أخبار الهزائم النحسه والفرار وهجر الديار :-

- وقيل تجمعوا لفراق شمل * وليطلة تملكها الكفور .
- فنقل في خطة فيها صفار * يشيب لكريها الطفل الصفير .
- لقد صم السميج فلم يمول * على بناه كعاص البصير .

ثم ينتقل صاحب القصيدة الى تصوير مشهد آخر من حال الناس الذين بلغوا من الذل مبلغا عظيما ونحن نحس بالألم القاسي الذي يعانیه الشاعر ويدفعنا الى مشاركته اياه وذلك أن الناس قد استحالهم الأعداء ، ورضوا

بالخضوع طمعا في المال واستهانته بالدين :-

- تجاذبنا الأعدى باصطناع * فينجذب المخول والفقير
- فباق في الديانة تحت خزي * تثبطه الشوية والبصير
- وآخر مارق هانت عليه * مصائب دينه فله السعير

ان الشاعر بالرغم من الحزن والأسى الذي تطفح به نفسه وأبياته فأنه لا يستسلم لليأس كما فعل غيره بل نراه يثور مدفوعا بالخيرة الاسلامية ، ويصب جام غضبه وتمنيقه على أولئك الذين يزينون للناس الرضى بالواقع المهزوم ويدعونهم لفكرة الاستسلام على حساب الحرية والشرف طمعا في مكاسب دنيئة يقول :-

- كفى حزنا بأن الناس قالوا * الى أين التحول والمسير
- أنترك دونا ونفرت عنها * وليس لنا وراء البحور دور
- ولا ثم الضياع تروق حسنا * نباكرها فيمجبنا البكور
- وظل وارف وغريب مـا * فلا قر هناك ولا حرور
- ويؤكل من فواكهها طـرى * ويشرب من جد اولها نمير
- يؤدى مفرم في كل شهر * ويؤخذ كل صائفة عشور
- فهم أحسن لحوزتنا وأولى * بنا وهم المولى والعشير
- لقد ذهب اليقين فلا يقين * وغر القوم بالله الضرور
- فلا دين ولا دنيا ولكـن * غرور بالمعيشة ماغـرور
- رضوا بالرق يالله : ماذا * وآه وماأشار به مشـير ::

ان الشاعر في هذه الأبيات يشمر بالخيرة الروحية في أرضه وبين أولئك الناس من بنى قومه وذلك لأنه يحس بأن صوته قد ضاع وذهب بلاصدي أو أثر. فبينما هو يدعو جمهوره الى الجهاد والصمود والموت الكريم اذا بهم يركسون

الى حماية النصارى أعداء دينهم ويوالونهم ويدفعون لهم المزارم والعشور مقابل أن يبقوا في دهرهم ليطمئنا بالضياع الرائقة والماء النير والفواكسه الطرية ولو كانت مضمومة بالذل . ولعل الذي دفع الناس الى هذا العمل هو فقد انهم الثقة بقدره حكماهم الأرقام على فعل شيء من أجل طليطلة المنكوبة ويذكر المؤرخون أنه كان في طليطلة جماعة كبيرة من أهلها يميلون الى الأذفونش ويعطون لمصلحته ، وهم الذين دعوه لاحتلال المدينة منذ بدء غزواته لها ، وتسمى الرواية القشتالية هؤلاء القوم (بالحزب المدجن) أي الموالى لملك النصارى . ثم يقف الشاعر عند هذه الحالة المؤسفة مطرقا كيف يرضى هؤلاء بالرق وفرهم بالله الفرور ؟ ثم يتبع تعجبه بزفرة حاره حين يقول :

مضى الاسلام فابك دما عليه * فما ينفى الجوى الدمع العزيز .
ونح واندب رفاقا في فلاة * حيارى لا تعط ولا تسير .
ولكنه لا يظليل الندب والتحسر لأن ذلك لا يغير من الواقع شيئا وانما الجهاد هو الكفيل برد الحق الى نصابه :

ولا تجفح الى سلم وحارب * عسى أن يجبر العظم الكسير .
أنص عن مرشدنا جميعا * وما ان منهم الا بصير .
وتلق واحدا ويفر جمع * كما عن قاصي فست حمير .
ولو أنا ثبتنا كان خيرا * ولكن مالنا كرم وخير .
اذا مال يكن صبر جميل * فليس بناافع عدد كسير .
وهو هنا يتارن بين واقع المسلمين وواقع أعدائهم ويمجيب من انقلاب الوضع لصالح أعداء الله فهم مبصرون بينما الشاعر ورهطه قد عميت بصائرهم والأعداء

ثابتون صابرون على الشدائد والآخرين منهزمون (كأنهم حمر مستنفره فرت
من قسوه) لا صبر لهم ولا خير فيهم .

والشاعر هنا يستثير من حوله بهذا الأسلوب لعل النخوة والأريحية
تدركهم فيهبون لمقارعة الأعداء . ولذلك نراه يتلفت باحثا عن قائد شجاع
يحسن قياد هذه الأمة لأن ذلك يمثل جانبا كبيرا من المشكله . يقول :

- ألا رجل له رأى أصيـل * به مانحانر نستجير .
- يكرّ اذا السيوف تناولتـه * وأين بنا اذا ولت كـرور .
- ويطعن بالقنا الخطار حـتى * يقول الرمح ما هذا الخطير ؟ :
- يبادر خرقها قبل اتساع * لخطب منه تنخسف البـدور .
- يوسع للذى يلقاه صـدرا * فقد ضاقت بما تلقى صـدور .

وفى ختام القصيدة يرينا الشاعر أن حياته قد تكدرت وعيشه فيها قد
تنفس ولكنه مع ذلك لا يفقد الأمل فى النصر :

- تنفصت الحياة فلا حـياة * وودع جيرة ان لا مجير .
- قليل فيه هم مستـكن * ويوم فيه شر مستطـير .
- ونرجو أن يتيح الله نصرا * عليهم انه نعم النصير .

ومعد فلقد أدت القصيدة هدفها فى تنبيه الناس وحثهم على الجهاد
وبيان قيمة المدينة المرثيه والسقوطها من أثر على ما بعده من بلاد الأندلس
أما أسلوبها فهو سهل ساعغ ولا عورة فيه ولا تكلف وقد ابتعد الشاعر عن
المعسرات إلا ماندر ، كما أنه التزم الواقع وتجاوى عن الصور الخيالية لأنه
ملتزم بقضية هامة ، فشمره صادق الماطفه ينبع من قلبه وليس لزخرفة اللسان
فيه كبير عطل ، وهذا مايتضح من تلون مواقفه ، فهوتارة يبكى طليطله

وما حدث لأهلها وحرمتها المصونات ويتفجع على ذلك حتى انه ليرتجى الموت للخلاص من بصرات قلبه ، وتارة نراه يشور ثورة عنيفة مطالباً بالجهاد وينذل النفوس في سبيل انقاذ المدينة باعتبارها رمزا اسلاميا ولا ينسى من خلال ذلك أن ينهال على المتقاعسين والجبناة بسياط التوبيخ والتقبيح فيصفهم بالبقر الذي يخور والحر المستغزه وهي من الأوصاف البليغة للعجز والفرار التي تعاف من وصفها الى التخطي منها بفصل مادعا اليه الشاعر .

وفي بعض أجزاء القصيدة نجد الشاعر يسرد علينا الأخبار التاريخية وأخبار الناس وأحوالهم بأسلوب قصصي يقترب فيه من النثر . ولعل الشيء المستغرب في القصيدة أنها على - طولها - لم تتعرض للتفاصيل الدقيقة في احتلال المدينة وما فعله الصليبيون بأهلها . وربما كان هذا الاشتغال بأمر أهم من ذلك وأخطر .

والملاحظ أنه لا يوجد في رثاء طليطله - على عظمها - من الشعر الا هذه القصيدة ، ويمكن أن نعزو ذلك الى أن الحرب لم تنته بعد ، وأن الأمل لا يزال واردا في استردادها ، ولو أدى شعراؤها أنها ستذهب الى الأبد وتصبح معقلا للعرب المنتصين لرأينا سيولا من الدموع والمشاعر الانسانية الحزينة التي تظل ترثى كل بقعة من بقاعها ، وتحدث عن كل ما هو جميل من خصالها .

أما بالنسبة لقائل هذه القصيدة فلم يتعرض أحد من الباحثين لذكر
اسمه أو البحث عن شخصيته . ولعله الشاعر أبو الوليد الوقشي ، فهو
من أهل طليطلة وشهد نكبتها حيث يذكر أنه كان بها في منتصف القرن
(٢)
الخامس الهجري .

-
- (١) هو هشام بن أحمد بن هشام الكنانى يعرف بالوقشي ، من أهل طليطلة
يكنى أبا الوليد ولد سنة ٤٠٨ هـ . كان شاعرا مجيدا ، وأحد رجال
الكمال في وقته باحتوائه على فنون المعارف ، وجمعه لكليات العلوم
من أظم الناس بالنحو واللغة والعروض ومعاني الأشعار ، بصيرا بأصول
الاعتقادات والفقه ، واقفا على كثير من فتاوى فقهاء الأماص توفى سنة
٤٨٩ هـ / انظر الصلح : ٦٥٣/٢ ترجمة رقم ١٤٣٧ .
- (٢) ابن الأبار : التكملة : ٨٢٢/٢ .

(١)
رثاء بلنسية :-

كانت بلنسية ومايتبعها من المناطق تتبع مملكة طليطلة طيلة حكم المأمون ابن ذي النون ، وكان قد وضع عليها واليا من قبله يعرف بأبي بكر محمد بن عبد العزيز وكان عالما حازما ضبط المدينة بالعدل وأجزل العطاء للجند والعمال . ثم استغل فرصة موت المأمون وتولي القادر بالله حكم طليطلة وقيام الثورات الداخلية ضده فأعلن استقلاله بحكم بلنسية . ولما سقطت طليطلة بيد القشتاليين سنة ثمان وسبعين وأربعمائة وعد زعميهم الانفونش القادر بالله أن يوليه بلنسية التي كان ينازعه الأطماع فيها المستعنين بسن هود والفعل أرسل الانفونش مع القادر رسمية من الجند القشتالي تحت امره القائد البرهانس حتى اذا وصلوا بلنسية أرسل القادر رسالته الى أهلها وفيها الوعود المعسولة وانتهى الأمر بموافقة أهل المدينة على دخول القادر حاكما ، وخلع ابن عبد العزيز ومالبيث القادر أن أبدى صولة الجبان الضعيف اذا تحكم ففرض على المدينة حكم طفيان شامل واشتد فسى فرض الضرائب على الناس لارضاء مطالب الجنود القشتاليين الذين أخذوا يعيثون فسادا في المدينة ، ويرهقون الأغنياء والأعيان بالمفارم حتى اضطروا

-
- (١) مدينة مشهورة وقاعده من قواعد الأندلس ، تقع شرق قرطبه على نهر جاريسقى المزارع والبساتين التي تحف به ، وبينها وبين البحر ثلاثة أميال فهي برية بحريه جامعة لخيراتهما ، كانت تعرف بمدينة التراب وأهلها يسمون عرب الأندلس . / انظر معجم البلدان (بلنسية) والروض المعطار تحت نفس الكلمه .
- (٢) الحجى ، التاريخ الأندلسى : ٣٦٨ .

(١)

الى الفرار من بلنسية نجاة بأنفسهم . وفي هذه الأثناء كانت جيوش المرابطين قد وصلت الى الأندلس لاغاثة المسلمين ، وحطمت قوة النصارى القشتالين في معركة الزلاقة المشهورة . على ما سنذكره في فصل قادم - فتنفس أهل بلنسية الصعداء الى حين ذلك أن سياسة القادر الخرقاء أدت الى نشوب الاضطرابات في مختلف نواحي البلاد وأعلن كثير من حكام الحصون العصيان . عندها شعر القادر أنه عاجز عن السيطرة على الموقف فاستنجد بالمستعنين ابن هود صاحب سرقسطه المجاور لبلنسية ، وكان المستعنين يتوق الى افتتاح بلنسية وضمها الى مملكته فلبى النداء مسرعا ولكنه لم يكن وحده بل كان يرافقه جيش قشتالي بقيادة السيد القمبيطور صديق المستعنين وصديقه أبيه وجده من قبل وكان هذا الفارس المغامر يعد من أشهر الفرسان وأوسعهم ذكرا عند الأسيان ، حيث صاغوا في بطولاته الملاحم والقصص والأساطير الخيالية . وهو في حقيقة أمره زعيم عصاة للنهب والسلب يؤجر نفسه وممن معه لمن يدفع له أكثر سوا^(٢) كان من المسلمين أو النصارى ، ولعل شهرته ظهرت من مغامراته ببلنسية وربطه مصيره بها حتى هلك في سبيلها ، وعندما وصل السيد والمستعنين الى بلنسية أخذوا مابها من القلائد وأرادوا احتلال

(١) علسان ، دول الطوائف : ٢٢٨ .

(٢) اسمه الأصلي رود ريجو دياز داقيقار ، يلقب بالقمبيطور وتعني (المحارب)

ولد في مدينة برغش عاصمة مملكة قشتاله وكان أبوه قاضيا لها سنة ١٠٤٣ م . بدأ حياته في خدمة ملوك قشتاله ثم قدم الى بلنسية وتطكها حتى هلك سنة ١٤٩٣ هـ . ويرد في المصاحف العربية بلفظ رذريق الكمبيطور ، والسيد القمبيطور / انظر . دائرة المعارف الاسلاميه ، (السيد) .

المدينة ، ولكن القادر اتصل بالسيد سرا ووعده بمبلغ كبير من المال مقابل حمايته له من سائر أعدائه فقبل ذلك وخابت بذلك آمال صديقه المستعصين ورجع الى بلده سرقسطه ليبحث عن نصير آخر ، عندها بدأ السيد بالتفكير في امتلاك بلنسية فأرسل الى سيده الانفونسي ملك قشتاله يخبره أنه وممن معه رهن اشارته وأنهم يحاربون " الكفرة " لارجاع مجد الصليب ، وذهب السيد نفسه الى هناك تأكيداً للولاة ، فأقره الملك وأذن له أن يجتول بفرسانه كيفما شاء في أرض المسلمين بل جعل له ماينتزعهم منهم من الأراضى ميراثاً شرعياً لولا أنه من بعده ، فعاد السيد من قشتالة ومصحبته سبعمائة فارس وأخضع ما حولها من الامارات من الشمال والجنوب وفرض على أصحابها مبالغ ضخمة من المال كجزية سنوية ، ثم زحف الى بلنسية وعسكر في ضاحيتها الشمالية المعروفة " بالكدية " فبادره القادر بالأموال والهدايا ووضع نفسه تحت حمايته ، وتطورت الأمور باقتراب جيش المرابطين من سرقسطه وطالب صاحبها المستعصين بن هود النجده من السيد فتوجه هذا اليها ومكث فيها يرتب أمورها ويخطط لعلاقة المرابطين يقول ابن بسام : " ولما أحس أحمد بن يوسف بن هود المنتزى الى وقتنا هذا على ثغر سرقسطه ، بمساكن أمير المسلمين تقبل من كل حدب ، وتطلع على أطرافه من كل مرقب ، آسد كلبا من أكاب الجلالقة ، يسمى برندريق ويدعى بالكبيطور ، وكان عقالا ، وداً عضالا له في الجزيرة وقائع ، وعلى طوائفها بضروب المكساره اطلاعات ومطالع " .

(١) عنان ، دول الطوائف : ٢٣٦ .

(٢) الذخيرة ، ق ٣ ، ج ١ ص ٩٥ .

أدى اقتراب المرابطين من شرق الأندلس الى سريان روح الثورة عندهم
أهل بلنسية فقرروا تحطيم قيد الذل والاستعباد الذي فرضه السيد طلسي
(١)
المدينة وذلك بالتخلي من السيد والقادر معا وتزعم القاضى ابن جحاف
الثورة وقبض على القادر وقتله واستولى على نخائره وجلس مكانه سنة خمس
وشمانين وأربعمائه ، بانتخاب من أهل المدينة ، فأخذ فى حشد الجنود
(٢)
وتحصين المدينة واتصل بالمرابطين طالبا عونهم فأمدوه بسرية من جندهم
استعزبها وقويت شوكته . ولما علم السيد بالأمر الخطير جمع قواته وتوجهه
الى بلنسية وضرب الحصار حولها وأخذ يحرق ويدمر الضياع والنزوع السنكى
حولها ، وقاومته قوات ابن الجحاف المكونه من المرابطين والبلنسيين فلم
يستطع اقتحام المدينة ولكنه بقى محاصرا لها مدة عشرين شهرا حتى فتسك
الجوع بالناس وبلغ بهم الضيق منتهاه حتى أكلوا الجلود والجيف واستحكمت
الوباء فأفنى عددا كبيرا من الناس ، فاجتمع عندئذ من بقى الى القاضى
(٣)
ابن جحاف وأرغموه على اللجوء للصلح فوقع الاتفاق بين الطرفين طلسي أن
يبقى القاضى حاكما للمدينة ويؤم من جميع أهل بلنسية على الأنفس والأموال
والشرائع والأحكام مقابل أن يؤدى الجزية السابقه مع تسليم نخائر القادر

-
- (١) هو أبو أحمد جعفر بن عبد الله بن جعفر بن جحاف . رئيس بلنسيه
وأخر قضاتها من بنى جحاف أحرقه القنبيالور - لعنه الله - سنة
٤٨٨ هـ بعد احتلاله بلنسيه . انظر : بغية الطميس : ترجمة رقم
٦١٥ . الذخير : ق ٣ ج ١ ص ٢٦٦ . الحلة السيرا : ١٢٥ / ٢ - ١٢٦ .
(٢) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام : ٢٠٣ / ٢ .
(٣) عنان ، دول الطوائف : ٢٢٤ . وانظر تفاصيل الاستيلاء على بلنسيه
فى البيان المغرب : ٣٠٥ / ٣ وما بعدها .

التي كانت عند ابن الجحاف . وفي سنة ثمان وثمانين وأربعمائة فتحت بلنسية أبوابها للسيد وجنده وسرعان ما احتلوا أبراجها وجلس السيد في القصر وبدأ بنقض شروط المعاهدة وأخذ يعميث في نواحي البلاد ويشتط على القاضي يطلب الأموال ثم اتهمه باخفاء أموال القادر وذخائره وهدده ان وجدها بالقتل ، ومع البحث ، زعموا أنه عثر عليها فقبض على القاضي وعذبه عذابا شديدا ثم أضرم له نارا وأحرقه حيا " فأضرم هذا المصاب الجليل أقطار الجزيرة يومئذ نارا ، وجلل سائر طبقاتها خزيا وعارا " (١) . ثم مال بعد ذلك على المسلمين بصنوف التمذيب والمضارم حتى غادرها كثير من أهلها واحتل النصارى دورهم وأحياهم وقد ا السيد باستيلائه على بلنسية حاكم شمرقى الأندلس لگه الى أن مات سنة ثلاثة وتسعين وأربعمائة وتولت بعده زوجته (خمينا) التي لم تستطع الصمود أمام جيش المرابطين فأحرقت المدينة قبل تسليمها سنة خمس وتسعين وأربعمائة فدخلها المرابطون بقيادة الأمير (٢) مزدلى بعد أن أصبح معظمها أطلالا دارسه . وفي هذا الحادث يقـول (٣)

ابن خفاجة :

(١) الذخيرة ، ق ٣ ، ج ١ ص ٤٤ .

(٢) هو أبو محمد مزدلى بن تليكان اللمتوني البربري ، ابن عم أمير المسلمين يوسف بن تاشفين . كان من أبرز قادة المرابطين وولاتهم . ولو تلمسان سنة ٤٦٧ هـ ثم تولى قرطبة وفرنطيه والمريه الى أن توفى سنة ٥٠٨ هـ . انظر الذخيرة ق ٣ ج ١ ص ١٠١ ، البيان المغرب ، ٦٠/٤ .

(٣) هو أبو اسحاق ابراهيم بن أبي الفتح بن عبيد الله بن خفاجة ، ولد في جزيرة شقر من أعمال بلنسية سنة ٤٥١ هـ وكانت أسرته على جانب من اليسار مكث من طلب العلم ومجالسة الشيوخ في مختلف مدن الأندلس وخاصة شاطبه ومرسيه وبلنسية فلب عليه الأدب والشعر حتى أصبح من الفحول . وقد ولع بشعر الطبيعة والأزهار حتى لقب بالجنان . وكان لا يتكسب بالشعر مدح كثيرا من أمراء المرابطين اعجابا بهم وتقديرا لشجاعتهم / انظر : فلائد العقيان : ٢٦٦ ، بغية الطتمس : ٢٠٢ ، رضوان الدايه ، ابن خفاجة : ٢٦ - ٢٨ .

- عانت بساحتك الصدى ينادي * ومحا محاسنك البلى والنسار .
- فاذا تردد في جنابك ناظر * طال اعتبار فيك واستعبار .
- أرض تقاذفت الخطوب بأهلها * وتمخضت بخرابها الأقدار .
- كتبت يد الحدثنان في عرصاتها * لا أنت أنت ولا الديار ديوار (١)

يقف ابن خفاجة وقفه حزينة بساحة مدينته التي ذهبت محاسنها
بفعل ماسلطاته الأقدار عليها من التدمير والاحراق حتى خربت وأصبحت
عينه تنكرها لتغير شكلها ووطنها وهو في وقفته بهذه الأبيات القليلة -
ان لم تكن جزءاً من كثير لم يصلنا - لا يتفجع على المدينة ولا يصور ما حل بها
وهو شاعر الوصف ، وانما يردد ناظره في عرصاتها المدمره بخشوع وسكون
معتبرا بذلك وداعيا الى الاعتبار ، كما أنه لم يسجل موقف قاضيها في الدفاع
عنها وكيف كان مصرعه المروع بسبب " شدة صبره على تلك الأزمة ، واجتهاده
في طلب النصره رجاء استمساك البلدة وابقاء الكلمة . " ولمصل
شاعرنا قد هاله الأمر وأنزله فرجع الى العقل بدل العاطفه كما يمكن
القول ان حياة ابن خفاجة المترفه وعيشه الناعم كان لها تأثير كبير في شعوره
فراه لا يجارى عندما يصف الأشجار والأزهار والأنهار ، أو يتفنى بمفاني بلنسيه
وجمالها ، أما الرثاء الذي لم يعتده فجاء سلبيا متعشرا ، وكثير من الشعراء
يجيد في جانب ويخفق اذا انتقل الى آخر . ولذلك نرى ابن خفاجة نفسه
عندما يسمع بارجاع بلنسيه الى الاسلام على يد المرابطيين يقول قصيدة

(١) ديوان ابن خفاجة : ٣٥٤ . والمعجز الأخير لأبي تمام ومقيتسه

" خيف الهوى وتولت الأوطار " / ديوانه : ١٦٦ / ٢ .

(٢) البيان المغرب : ٣٧ / ٤ .

(١)

رائعته منها :-

- الآن سح غمام النصر فانهملا * وقام صنوعومود الدين فاعتدلا
- ولاح للسعد نجم قد خوى فهوى * وكرلنصر عصر قد مضى فخللا (٢)
- من عسكر رجفت أرض العدو به * حتى كان بها من وطئه وهلا
- مابين ربح طراد سميت فرسا * جورا وليث شرى يدعونه بطلا
- من أدهم أخضر الجلباب تحسبه * قد استعار ردا الليل فاشتملا
- واشقر قاني السريال مطهب * قد جال يوقد نار الحرب فاشتملا

الى أن يقول :

- وأشع الكفر قسرا عن بلنسية * فانجاب عنها عجاب كان منسدلا
- وطهر السيف منها بلدة جنبا * لم يجزها غير ما السيف مفتسلا
- في موقف يذهل الخل الصفى به عن الخليل وينسى العاشق الفزلا
- ترى بنى الأصفر البينى الوجوه به * قد راعها السيف فاصفرت له وجلا

(٣)

وفي احراق بلنسية قال الأستان ابن خلسة البلنسى :-

- وروضة زرتها للأنس مبتغيا * فأوحشتنى لذكرى سادة هلكوا
- تغيرت بعد هم حزنا وحق لها * مكان نوارها أن ينبت الحسك (٤)
- لو أنها نزلت قالت لفقد هم * "بان الخليط ولم يأروا لمن تركوا"

(١) ديوانه : ٢٠٨ - ٢٠٩ .

(٢) الوهل : الفزع . الصحاح مادة (وهل) .

(٣) هو أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن خلسة الشذونى ، من النحويين المتصدرين ، والشعراة المجدولين أخذ عن ابن سيده / انظر : جذوة

المقتبس : ٥٤ ، بغية الوعاة : ١٠٠ / ١ .

(٤) تضمين من زهير ، وعجز البيت : "وزودك اشتياقا أية سلگوا" ديوانه

والملاحظ على مقطوعة ابن خلدون ، وقبلها مقطوعة ابن خفاجة ورود -
التضمين في أحد أشطرها وهو ما ناسب المقام من شعر فحول المششرق
كزهير وأبو تمام وذلك اظهر لسمعة ثقافة الشاعر واطلاعه على شعر المششرق
الذي كان يعتبره الأندلسيون هو الأصل ، وينظرون اليه باعجاب كبير ، كما
أن أسلوب الشعر الأندلسي في القرن الخامس وما بعده كان شديد التركيب
على التضمين والاقتراس ، والأمثال ، والصنعة البلاغية بحيث تقاس جودة
القصيدة بما حوت من ذلك . والواقع أن ما وصلنا من الشعر في رثاء بلنسية
في هذه الحادثة قليل جدا بالرغم من كثرة شعرائها ، ولعله قد ضاع
في وسط ذلك المعترك المضطرب ، والقسوة البالغة التي كان يتبعها
القميظور في معاملة أهلها . ثم تأتي نكبة بلنسية الثانية التي أصبحت
بعدها مدينة نصرانية في منتصف القرن السابع الهجري . وذلك بعد
أن عاشت ودعاهن الزمن في كف المرابطين نعمت خلاله بالأمن والاستقرار
والرخاء . واستمرت على هذه الحال ما يقرب من قرن خلال حكم الموحديين
الذين قضوا على حكم المرابطين في المغرب سنة احدى وأربعين وخمسمائة
ودانت لهم الأندلس تبعاً لذلك وقد اعتنى الموحدون بالأندلس عناية فائقة
فحكموها بواسطة حكام من أهلها ينهون عنهم ، ووفروا لهم قوة دفاعية
كافية . كما كان الخلفاء الموحدون يجوزون بأنفسهم على رأس الجيوش الضخمة
من مراكن الى الأندلس لتأديب النصارى عندما يمتدون على الأراضى الأندلسية
ومن أبرز ذلك ما قام به الخليفة أبو يوسف يعقوب الطقبة بالمنصور - ثالث
الخلفاء الموحديين - في سنة احدى وتسعين وخمسمائة حيث توجه الى الأندلس
بجيش كبير ليدفع عنها عادية القشتاليين الذين أخذوا يشنون الغارات على

نواحي الأندلس وخاصة منطقة اشبيلية عاصمة الأندلس آنذاك ، والثقبس
(١)
الجمعان عند حصن (الأرك) وكان القشتاليون بقيادة طكهم الفونش الثامن
الذي جمع جموعا لم يجتمع له مثلها قط حتى ساءت ظنون الجيش الموحدى
(٢)
لما رأى من كثرة المدد . يقول الضبى عن هذا الجيش : " ينيف طلس
خسة وعشرين ألف فارس ومئتي ألف راجل ، وكان معه جماعات من تجار
اليهود قد وصلوا لاشتراه أسرى المسلمين وأسلابهم وأعدوا أموالا ، فهزمهم
الله تعالى " . واشتبك الطرفان فى معركة فاصله أظلم الموحدون فيها النيه
(٤)
وثبتوا ثبات الشم الرواسى فمنحهم الله النصر فقتلوا من الكفار ثلاثين ألفا
وفر الباقون مع قائدهم . وكانت هذه المعركة من أيام الاسلام المشهوده
التي أعادت أمجاد الجهاد القديمه ، ولبثت القوات القشتاليه بعد هـ
عدة سنوات صامته تتهيب لقاء الموحدين . ولم يلبث المنصور أن توفى سنة
خمس وتسعين وخمسائه وخلفه ولده الشاب محمد الناصر لدين الله الذى
شفل عن الأندلس مايقرب من اثنى عشرة سنة فى مقاومة الثورات التي قامت
(٥)
ضده فى المغرب فور ارتقائه عرش الخلافة مادفع النصارى الى التفكير فى

-
- (١) حصن منيع بالقرب من قلعة رباح ، وهو أول حصون الانفونش بالأندلس
يقع على أحد فروع نهر آنه وتقوم اليوم على انقاضه كنيسة تعرف بكنيسة
القديسه مريم صاحبة الأرك . / الروض المعطار : (الأرك) ، عنان
عصر المرابطين .
- (٢) المراكشى ، المعجب : ٢٥٨ - ٣٥٩ / والموحدين فى المغرب والأندلس :
٢٠٣ / ٢ .
- (٣) بغية الملتس : ٤٥ - ٤٦ .
- (٤) الروض المعطار : تحت كلمة (الأرك) ، ابن أبى زرع : الأنيس المطرب :
١٥٦ .
- (٥) عنان ، عصر المرابطين والموحدين : ٢٨٣ / ٢ .

في غزو الأندلس ليردوا اعتبارهم وكرامتهم التي دبت في معركة " الأرك " ،
(١)
والفعل سار الفونش الثامن بجيشه نحو جيان وبياسه فقتل وسبي وأهلك
الزرع والضرع ، وكرر هذا الفعل سنتين متواليتين غير مكترث بقوة الأندلسيين
الضعيفه ، فكان لا بد لهؤلاء من الاستغاثة بالخليفة الناصر الذي انزعج
لسماع هذه الأخبار وأعد على الفور جيشا عرمرما قاده بنفسه وعبر به البحر
الى الأندلس حيث استقر في اشبيلية في آخر سنة سبع وستمائة وأخذ فسي
استنفا الحشود الأندلسية وضمها الى جيشه حتى اجتمع لديه جيش لم
يجتمع لحاكم مسلم قبله قط . قيل ان تعداده بلغ خمسمائة الى ستمائة ألف
(٢)
مقاتل " واهتزت جميع بلاد الروم بجوازه ، ووقع خوفه في قلوب ملوكهم
وأخذوا في تحصين بلادهم ، واخلاء ما قرب من المسلمين من قراهم وحصونهم
(٣)
وكتب اليه أكثر أمراءهم يسألون سلامته ويطلبون منه عفو " . وفزع الفونش
الثامن ملك قشتالة الى البابا (انوسان الثالث) الذي كان يضطرم حقا
على المسلمين فبعث رسله من القسوس والرهبان الى مختلف ملوك أوروبا
من البرتغال الى القسطنطينية يدعوهم الى حرب صليبية فأجابوا دعوته وجمعوا
ما يقرب من سبعين ألف مقاتل مدد الجيوش الأسبان النصرانية التي كانت

(١) جيان : مدينة في وسط الأندلس موصوفة بالحصانة لوقوعها في سفح
جبل عالي ، كثيرة الجنات والمزارع ، ويتبعها آلاف من القرى تشتهر
بتربية دود الحرير وينتمى الى جيان جلة من العلماء / الروش المعطار :
(جيان) .

بياسه : بينها وبين جيان عشرون ميلا ، على النهر الكبير المنحدر الى
قرطبة ، وهي مدينة ذات أسوار وأسواق ومتاجر وزراعات / المصدر
نفسه (بياسه) .

(٢) السلاوي ، الاستقصا : ١ / ١٤١ .

(٣) الأنيس المطرب : ١٥٥ .

تتألف من جيوش مملكة قشتاله ، ومملكة أراجون ومملكة نافارا كما جاءت النجدات أيضا من الصليبيين الذين كانوا قد توجهوا الى الشرق الاسلامي فيما نسميه بالحملات الصليبية التي تزامنت مع هذه الأحداث . وفي سنة تسع وستمائيه التقى الجيشان في موضع يعرف بـ (العقاب) ودارت بينهما معركة حامية رجحت فيها كفة الموحدين في البداية ولكن تغير مجراها في النهاية لصالح النصارى ، وانجلى عن عشرات الآلاف من القتلى ، وتمزق الجيش الموحدي شرموز وفر الخليفة الناصر بمن بقى معه بعد أن كان واثقا كل الثقة بالنصر لكثرة جيشه وعتاده . وأخذ النصارى يطاردون الفارين ويوقعون فيهم أشنع ضروب السفك والتقتيل حتى فنى أكثرهم ولقد كانت هذه الهزيمة المروعة التي لم يقع مثلها في تاريخ الأندلس كه والاشؤ ما ينذر بسقوط دولة الموحدين وغروب شمس الأندلس ، وقد تحدث المؤرخون عن أسباب هذا الانهزام وأفاضوا في ذلك ، ومهما تكن تلك الأسباب والمبررات فقد اغتم الناصر غما شديدا أودى بحياته في العام التالي للهزيمة . وقد تردد صدى هذه الواقعة واستتجرت على الأندلس نتائجها في الشمر آنذاك فقال ابراهيم بن الدباغ الاشبيلي : (٥)

-
- (١) البيان المغرب : ٢٤٠ / ٣ - ٢٤١ .
(٢) منطقة جبلية بالأندلس بين جيان وقلعة رباح وفي قمها حصن يعرف بحصن العقاب . / الروض المعطار (جيان) الأنيس المطارب : ١٥٩ .
(٣) المراكشي ، المعجب : ١٨٣ - ١٨٥ .
(٤) الحلل الموشيه : ١٢٢ .
(٥) نفح الطيب : ٤ / ٤٦٤ . ولم أعثر له على ترجمته .

- وقائلة أراك تطيل فكرا * كأنك قد وقفت لدى الحساب .
- فقلت لها أفكر في عقاب * غدا سببا لمعركة العقاب .
- فما في أرض أندلس مقام * وقد دخل البلا من كل باب .

ولقد صدق حدس الشاعر بدخول أنواع البلاء الى الأندلس ، فلما توفي الخليفة الناصر بوبع ولده يوسف المستنصر وكان فتى لم يجاوز السادسة عشره من عمره فعكف على اللذات وأضاع الحزم في تدبير الملك وفوض الأمر الى غير أهلها فاضطربت الأندلس وماجت بالفتن والحرب الأهلية بين الموحدين المتنافسين على السلطه وبين أبناء الأندلس أنفسهم أيضا وعادت الى الصورة التي كانت عليها أيام حكم ملوك الطوائف فتهدى المجال للنصارى لكي يستثمروا نصرهم فبدأوا باحتلال الحصون والمناطق الإسلامية . في غرب الأندلس تمهيدا لاحتلال القواعد الكبرى وشجعهم على ذلك توالى الخلفاء الضعفاء على عرش الدولة الموحدية الذين لم يستطيعوا السيطرة على بلادهم أنفسهم ناهيك عن الأندلس التي فسدت ادارتها وأصبحت المناصب تباع وتشترى بالأموال والرشاوى ، وكان الذين يشترونها يمتصون دماء الناس بشراهة ، فليس عجيبا أن يصبح الصياد أو الحائل بين عيشة وضحاها وزيرا أو أميرا

- وفي تصوير هذه الحالة يقول الكاتب أبو عبد الله الفازري : - (٣) .
- الروم تضرب في البلاد وتغنم * والجور يأخذ مابقى والمعمر
- والمال يورد كله قشتالسة * والجنود تسقط والرعية تسلم
- وذوو التعيين ليس فيهم مسلم * الا معين في الفساد مسلم
- أسقى على تلك البلاد وأهلها * الله يلطف بالجميع ويرحم

(١) تاريخ ابن خلدون (العبر) : ١٦٤/٧ .
(٢) ابن سعيد المصري ، القدر المملوك : ١٤٣ .
(٣) نفح الطيب : ٤٦٧/٤ .

وقيل ان هذه الأبيات وجدت في جيب صاحبها يوم موته ، ولما وقف عليها سلطان بلده قال بعدما بكى : صدق رحمه الله ، ولو كان حيا لضربت عنقه وهذا يدل على أن الحكام أنفسهم كانوا يعلمون الحالة المتردية التي وصلت اليها أمور الأندلس ، ولكنهم من جهة أخرى لا يسمحون لأي صوت ناقصند أو معارض خوفًا من ثورة جمهور الناس ضدهم . ولقد رسم قائل هذه الأبيات صورة صادقة لحالة البلاد والحكام الظالمين مع العدو وفي ظلم الرعية التي أهلكتها المفارم وعصفت بها المجاعات ولاغرو أن تكون الأبيات على درجة كبيرة من التأثير لأن صاحبها قد مارس السياسة وعاش الحكام فقد كان أحد كتاب الخليفة الموحدى الناصر . (١)

وفي الوقت الذي كانت فيه أحوال الأندلس تتردى وتشطبها الفوضى المدمره كانت أحوال ملوك النصارى المنتصرين على خير مايرام من الانسجام والتفاهم ، فاتفقوا على أن يسيطر كل واحد منهما على منطقة من الأندلس ويتحكم في مصيرها فكان نصيب فرناندو الثالث ملك قشتالة وسط الأندلس وغرنها ، ونصيب خايمي الأول ملك أراجون شرق الأندلس . فقام الأول سنة ثلاث وثلاثين وستمائه بمحاصرة قرطبه التي لم يكن عليها أمير بعد أن ثار شعبها بواليهم السيد أبى الربيع الموحدى وقتلوه ، ودام الحصار بضعة أشهر انتهى بتسليمها بعد مقاومة شديدة من أهلها كفتهم الكثير من الدماء (٢) والضحايا . واضطروا بالتالى الى تركها وخناجر الحزن تنفص في قلوبهم كما نظروا الى الصليب الضخم الذى طق على مؤذنة جامعها الأعظم أو الاحتفالات الدينية الصليبية التي أقامها النصارى في رحابه بعد أن أصبح

(١) عنان ، عصر المرابطين والموحدين : ٣٢٦ / ٢ .

(٢) أشباخ ، تاريخ الأندلس : ٤٣٠ (الترجمة العربية) .

كنيسه ، ولا نجد تفاصيل في كتب التاريخ عن كيفية احتلال قرطبه ، كما لا نجد قصائد رنانه في رثائها ، ولعل ذلك راجع لقللة شعرائها وكتابتها في ذلك الوقت . أما غايص الأول فقد اتجه الى افتتاح جزائر الأندلس الشرقيسه ليصل الى مدينة بلنسية عاصمة تلك النواحي ، فتقدم في سنة خمس وثلاثين وستائه وحاصر حصن أنيشة المنيع الذي يعتبر خط الدفاع الأول عن بلنسيه ودافع عنه البلنسيون دفاعا بطوليا بقيادة أميرهم أبو جميل زيان بن مدافع بن مردنيش الجذاص ولكنهم أصيبوا بهزيمة شنيعه في النهايه ، وقتل منهم عدد كبير كان من جملتهم جماعة من علماء بلنسيه وصلحائها ، واستولى النصارى على الحصن وأصبح مركزا هاما لهم يغيرون منه على بلنسيه التي انتهزت قواها الدفاعيه وأصبحت وشيكة السقوط . وفي السنة التاليه لسقوط الحصن نظم ملك أراجون قواته ، وتلقى تشجيعا من البابا جريجورى التاسع يحضه على سرعة مهاجمة بلنسيه وأمدّه بالآف من المتأوجه الفرنسيين والبرشلونيين حتى بلغت قواته المشتركه في حصار بلنسيه عشرة آلاف فارس وستين ألف راجل ، فضيق الخناق على المدينة بشده وضربها بالآلات المدمره فرأى أميرها الاستنجاد بدولة بني حفص الفتيه التي قامت في المغرب أثناء احتضار الدولة الموحديه وأرسل الى أميرها كاتبه الشهير ابن الأبار الذي أتشد بين يديه قصيدة راعمه سنعرض لها في فصل الاستصراخ ، واستجاب الأمير الحفص للنداء وبعث أسطولا مشحونا بالأسلحة والأطعمه والأموال ولكنّه جاء متأخرا فلم يستطع الوصول الى المدينة لشدة الحصار البرى والبحرى فعماد

(١) أنيشه : موضع على مقربه من بلنسيه ، يبعد سبعة أميال عن شمالها

وحصن أنيشه على جبل معترض عال على البحر والصعود اليه صعب جدا

ومشرف على مرج بلنسيه وحدائقها / الروض المعطار : (أنيشه) .

(٢) عصر المرابطين والموحدين : ٤٤٤ / ٢ .

(٣) النفج : ٤٦٠ / ٤ .

(١)

الى افريقيه بعد أن أفرغ حملته في ثغر دانيه بميدا عن منطقة الحصار ،
وهكذا تركت بلنسيه تواجه مصيرها منفردا حتى اذا بلغ الجهد بأهلها
فايته اضطروا الى تسليم المدينة بعد خمسة أشهر من الحصار صلحا على
أن يخادرها البلنسيون حاملين ماشاءوا من أمتعتهم في خلال عشرين
يوما . فخرج منها ما يقرب من خمسين ألفا بقلوب مكومة وعيون دامعة
فغيرت معالمها الاسلاميه على الفور وقسمت دورها وأموالها بين الأعيان
والأشراف والفرسان النصارى وأصبحت هذه الأملاك وراثيه في ذريتهم . وهكذا
رجعت بلنسيه مدينة نصرانيه بعد أن استنارت بنور الاسلام ما يزيد على
خمسة قرون . وقد أذكت هذه المحنة فحيمه الشمر والنثر مما ، فسراج
أبناء بلنسيه يرثونها بطائفة من القصائد والرسائل المبكيه ، وسأقتصر
هنا على ذكر القصائد تشيا مع موضوع البحث الا اذا احتوت الرسالة على قصيدة
فان ذكر منها طرفا بسيطا كالرسالة الطويلة التي يعث بها ابن عميره الى ابن
الأباريصف حادث بلنسيه قائلا : " فيا لله لأتراب درجوا ، وأصحاب
عن الأوطان خرجوا قصت الأجنحة وقيل طيروا ، وانما هو القتل أو الأسر

(١) مدينة بشرق الأندلس على البحر كثيرة الشجر والخصب ، وهي دار انشاء
الأسطول الاسلامي ومنها كان يخرج للفرز . انظر : الروي المعطسار
" دانيه " .

(٢) هو أحمد بن عبد الله بن عميره المخزومي . يكنى أبا المطرف ، ولد
بجزيرة شقر سنة ٥٨٢ هـ وعنى بالأدب حتى برع وعد من مجيدي النظام
والنثر . كان كاتباً لزيان الجذامي والى بلنسيه ، ولما احتلت هاجر
الى مراکش وكتب للموحدين ثم استقر أخيراً في تونس ومات سنة ٦٥٦ هـ
انظر : ابن فرحون ، الديباج الذهب : ٥٠٦/١ ، الاحاطة : ١٧٣/١
بلنشيا ، تاريخ الفكر الأندلسي : ٣٠٥ .

أو تسيروا ، فافترقوا أيدي سبا ، وانتثروا على الوهاد والربا ، ففى كل
جانب عويل وزفره وكل صدر غليل وحسره ومالبت أن أخرس مسن
مسجدها لسان الاذان ، وأخرج من جسدها روح الايمان . فبحر الخفا
وقيل : على آثار من ذهب العفا ثم زحفت كعبه الكفر بزرقها
وشقرها حتى أحاطت بجزيرة شقرها ، فأما لمسقط الرأس هوى جسمه ،
ولفادح الخطب سرى كلمه ، وبالجنة أجرى الله تعالى الأنهار من تحتها ،
(١)
وروضة أجاد أبو اسحاق نعتها

ويشفح ابن عميره رسالته بالقصيدة التالية :-

- أقلوا ملاي أو فقلوا وأكثروا * طومكم عما به ليس يقصر .
- وهل غير صب ماتنى عبراته * اذا صعدت أنفاسه تتحدر .
- يعن وما يجدى عليه حنينه * الى أربع معروفها متنكر .
- ويندب عهدا بالمشقر فاللوى * وأين اللوى منه وأين المشقر .
- تخير ذاك العهد بعدى وأهله * ومن ذا على الأيام لا يتخير .
- وأقفر رسم الدار الا بقيسة * لسائلها عن مثل حالى تخبر .
- فلم تبق الا زفرة اثر زفرة * ضلوى لها تنقد أو تغامر .
- والا اشتياق لا يزال يهزنى * فلا غاية تدن ولا هو يفستر .

(١) تطلق على الجزيرة الكبيرة الواقعة فى نهر شقر قبل مصبه فى البحر المتوسط جنوبى بلنسيه ، وهى من أجمل البقاع فى تلك المنطقه وهى مسقط رأس ابن عميره وأبو اسحاق بن خفاجه . / الا حاطه الحاشيه)
: ١٢٩/١ .

(٢) الرسالة فى النفخ : ٤٩٣/٤ وانظر رسائل أخرى فى المصدر نفسه
: ٤٩٥ - ٤٩٦ ، الروض المعطار تحت كلمة (بلنسيه) .

وفي هذه الأبيات تبد ولنا حالة الشاعر النفسيه حيث سيطر عليه الحزن والبكاء وأخذ منه الحنين والشوق المتوهج كل مأخذ حتى غدا لا يلتفت السوي كلام اللائمين مهما أبد أو فيه وأعادوا وذلك لأنه أصبح طريدا شريدا ينسب عهده السابق الذي تمتع فيه مع الأصحاب والأتراب في ربوع وطنه قبل أن تطرقهم الحوادث وتفرق جمعهم ، وتترك رسوم الدار منهم مقفرة . وهو يرمز لبلنسيه بلفظ (المشقر ، واللوى) وفي قصيدة أخرى بلفظه (نجد) وهي مواضع معروفة في جزيرة العرب تفتى بها الشعراء وحنوا اليها بعد الفراق ، ولعله هنا أراد البعد المعنوي ، فالأعداء يحولون بينه وبين الدخول على بلاده رغم قربه منها ، لذلك نراه يهتز شوقا وتجري عبرته كما رأى وميض البرق فيخاطبه :-

- أقول لسارى البرق في جنح ليلة * كلاً نا بها قد بات ييكي ويسهر .
تعرض مجتازا فكان مذكرا * بعهد اللوى والشى بالشى يذكر .
أناوى لقلب مثل قلبك خافق * ودمع سفوح مثل قطرك يقطر .
وتحمل أنفاسا كوضك نارها * اذا رفعت تبدولمن يتنور .
يقربمين أن أعابن من نأى * لما أبصرته منك عيناي تبصر .
وأن يتراأك الخليط الذين هم * بقلبي وان غابوا عن العين حصر .
كفى حزنا أنا كاهل محصب * بكل طريق قد نفرنا وننفسر .
وأن كئينا من مشوق وشائق * بنار اغتراب في حشاه تفسر .

(١) المحصب : موضع بمكة معروف ، أو هو موضع رمى الجمار بمعنى . / الروض المعطار (المحصب) معجم البلدان ، المادة نفسها .

ومخاطبة البرق وسؤاله عن الديار والأهبة غرض شعري أفاض فيه شعرا^١
الحنين منذ القديم . وشاعرنا هنا يشارك البرق وجدانيا في ملامحه وهيئته
فكلاهما خافق القلب منهمر الدمع ، وإذا كان البرق يتميز بوميضه فـان
أنفاس الشاعر الطمتهبة لا تقل عن ذلك لو ظهرت للعيان . ولا يكتفى الشاعر
بذلك بل يحاول أن يمتزج بالبرق ليصير من خلاله أحبابه النازحين بعيدا ،
ويصرونه هم أيضا بالطريقة نفسها ان لا أمل في اللقاء بعد أن سار كـل
في طريق يكابد نار الشوق المضطرمه في أحشائه ، ومع هذه الصـورة
الجميلة ينتقل الى ذكر معاهد صباه متشوقا :-

- ألا ليت شعري والأمانى ضلـة * وقطى الأياليـت شعري تحير .
- هل النهر عقد للجزيرة مثلما * عهدنا وهل حصباؤ^٢ وهى جوهر .
- وهل للصبا ذيل عليه تجر^٣ * فيزور عنه موجه المتكسر .
- وتلك المنانى هل عليها طلاوة بما راق منها أوبمارق تسحر .
- ملاعب أفراس الصباة والصبا * تروح اليها تارة وتبكر .

ومضى الشاعر في وصف الأنهار والجبال والخصائل والورود التي طالما

تمتع بها وقضى أوقات لهوه بينها ومخاطبة رحلات الصيد :

- وكم قد هبطنا القاع ندع وحشه * ويا حسنه مستقبلا حين يذعر .
- نقود اليه طائعا كل جارح * له منخر رجب وخصر مضمر .
- اذا مارميناه به عبث بسـه * مؤللة الأطراف عنهن تكسر .

ويختم هذه القصيدة بهذين البيتين :-

- كذاك الى أن صاح بالقوم صائح * وأنذر بالبين المشتت منذر .
- وفرقهم أيدي سبا وأصابهم * على غرة منهم قضا مقدر .

والملاحظ على هذه القصيدة خلوها من معاني الرثاء إلا ماجاء فنسب
البيتين الأخيرين . فهي مفعمة بالحنين والشوق الى الوطن بكل أجزائه
ولم تتطرق الى سقوط المدينة بيد الكفار وذهاب صبغتها الاسلاميه ، ولحل
الشاعر الكاتب استنقذ هذه المعاني في الرسالة التي ختمها بهذه القصيدة
فجاء نثره أقوى تأثيراً وعاطفة من نظمه ، كما أننا نجد في القصيدة دعوة
للجهاد أو استصراخاً بأحد لانقاذ المدينة ، فقد سد اليأس على الشاعر
(١)
كل الأبواب . ويقول من قصيدة أخرى :-

- ألا أيها القلب المصح بالوجد * أمالك من بادي الصباية من بصد .
- وهل من سلو يرتجى لمتيسم * له لوعة الصادي وروعة ذي الصد .
- يحن الى نجد ، وهييات حرمت * صروف الليالي أن يعود الى نجد .
- فياجبل الريان لأرى بعد ما * عدت غير الأيام عن ذلك السود .
- وبأهل ودي والحوادث تقتضى * خلوى عن أهل يضاف الى السود .
- ألا متعة يوماً بعارية المنى * فانا نراها كل حين الى السود .
- أمن بعد رزء في بلنسية ثوى * بأحنأنا كالنار مضمرة الوقيد .
- يرجو أناس جنة من مصائب * تطاعن فيهم بالمشقفة الطيد ؟
- ألا ليت شمري هل لها من مطالع * فماد الى ماكان فيها من السعد ؟
- وهل أذنبا الأبناء ذنبا أبيهم * فصاروا الى الاخراج من جنة الخلد ؟

(١) النفح : ٣٠٥ / ١ - ٣٠٦ .

(٢) جبل في ديار طحى يسيل منه الماء . معجم البلدان تحت (ريان) .

(٣) الطد : اتلصه المصقوله . الصحاح (ملد) .

وقصيدته هذه تسير على نهج سابقتها ، فهي حنين وصبابة يطفح
بهما قلب الشاعر المتيم الذي يأبى السلوعن تذكر الوطن ومن فيه مهمسا
اقتضت الحوادث خلوه واقصاه عنه ثم نراه ينهزم في معركته مع الأيام العاديحة
فيتشأم من الحياة ويرى كل ما فيها من جمال ومثع : لا يعد وكونه عاريسنة
مالها الى الرث ، ولا أدل على ذلك من الواقع الذي يعيشه الشاعر بمعد
أن رماه الدهر بقاصمة الظهر ، وأشعل قلبه نارا بضياح وطنه بلنسيه ، تلك
الجنة التي نال فيها السعادة حقبة ، وفقدتها أظلم نهاره فأصبح ينظر
الى الدنيا بمنظار قاتم لا يشاهد فيه الا المصائب النازلة بالناس حيث
لا يستطيعون لها دفعا ولا منها هروبا .

وفي قصيدته الثالثة يقول :- (١)

- ما بال دمك لا يني مدراره * أم مقلبك لا يقر قراره .
- اللوعة بين الضلوع لطاعن * سارت ركائبه وشطت داره .
- أم للشباب تقاذفت أوطانه * بعد الدنو وأخفقت أوطاره .
- أم للرومان أتى بخطب فادح * من مثل حادثة خلت أعصاره .
- بحر من الأحزان عب عبابه * وارتج ما بين الحشا زخاره .
- فو كل قلب منه وجد عنده * أسف طويل ليس تخبوناره .

يقدم الشاعر لرتاء مدينته بحوار داخل يجره مع نفسه التي تسائله
عن سبب دمعه المنهمر وقلبه الخافق المضطرب . وهو يتخذ من ذلك تعليمة
لتعداد المأسى الكثيرة التي نجمت عن فقد الوطن الغالي فالأحباب سارت
ركائبهم ومعدت دارهم ، وتفرق شطيمهم ، ومعاهد الشباب قد أناخ عليها
الزمان بكللكه فمسخ صورتها ، فالشاعر يفرق فو بحر من الأحزان يفشس

(١) الحميري ، صفة جزيرة الأندلس : ٥١ - ٥٢ .

كل قلب مسته النكبة فيوقد فيه جمر الأسى . ثم ينتقل الى بلنسية ومالكه
اليه حالها :-

- أما بلنسية فمشوى كافر * هفت به فو عقرها كهاره .
- زرع من المكروه حل حصاده * عند الفدوغداة لج حصاره .
(١)
- وعزيمة للشرك جمعج بالهدى * أنصارها ان خانه أنصاره .
- قل كيف تثبت بعد تمزيق العدا آثاره أم كيف يدرك ثناره ٢٠

والشاعر هنا يذكر السبب الأهم الذى ضاعف حزنه وألمه ذلك أن بلنسية
عاصمة الاسلام فو شرق الأندلس قد أصبحت موطننا للكفار والمشركين الذين
لم يدخروا وسعا فو التضيق على المسلمين بعد أن تأكدوا من انعدام
ناصرهم أولئك الذين يصفهم الشاعر بالخيانة لخذلانهم دين الهدى ، وهنا
تشتد عاطفة الشاعر الاسلامية قليلا . لكنه سرعان مايمود الى الحزن اليائس
عندما يتذكر قوة الأعداء فو مقابل الضعف الشامل الذى يسيطر على المسلمين
بحيث يصعب معه ادراك الثأر . ويمود ابن عميره بعد ذلك - كما هو عادته
- الى التفتى بجمال بلنسية وكيف أظلم نهارها بالضلال بعد أن كان ليلها
يضوء بالهداية والنور فيقول فو صوت كئيب :-

- ماكان ذاك المصرا الاجنة * للحسن تجرى تحته أنهاره .
- طابت بطيب بهاره آصاله * وتعطرت بنسيمه أشجاره .
(٢)
- أما السرار فقد عداه وهل سوى * قمر السما يزول عنه سراره .

(١) جمعج : حبس وضيق ، اللسان ، ماده (جمعج) .

(٢) السرار : سرر الشهر ، آخر ليلة منه ، وفيها يختفى القمر . اللسان

• ماده (سرر) .

- قد كان يشرق بالهداية ليلة * والآن أظلم بالضلال نهارة .
- ودجا به ليل الخطوب فصبحه * أعيأ على أبصارنا أسفاره .

وأسلوب الشاعر تغلب عليه السهولة الطونه بالمحسنات اللفظية والبدعيه
ولعل كونه ناثرا بارعا في استخدام الزخرفة والتصنيع - كما يظهر من رسائله
المشار اليها - أثر بشكل ملحوظ في شعره . ورغم ذلك فإنه لم يأت بصور
مبتكرة ذات ظلال وإيحاء لا يعتمد على الخيال . أما عاطفته فجياشمة
يذكىها تذكيره وحنينه الى جنته التي أخرج منها ، وشعره مفعم بالشكوى
والتبرم والوجد . ففي قصائده التي مرت بنا كان يفتتحها بالدمع المردار ،
والقلب المصح بالوجد ، وملحة فيها كثير من الانكسار وتكاد تخلسو من
الحماسة والاثارة وطلب الغوث ، فنراه يكثر من ذكر الأطلال والربوع الدارسة
وهو بذلك يتكئ على شعر الأطلال في مختلف عصوره فيذهب مع أولئك الشعراء
ويذكر عهد (اللوى ، والمشقر) ويحن الى نجد ويخاطب جبل الريسان
كل ذلك تقليدا واتباعا . ولعله من الكثير أن تطالب ابن عميره بموقف
ايجابي كالذي سلكه زميله ابن الأبار - كما سيأتى - ذلك أن ابن عميره قال
قصائده بعد سقوط بلنسية ومعها جطة من المدن والحصون الأندلسية بسبب
أصبحت الأندلس كلها تحت رحمة النصارى والدولة الموحدية كانت تفظ أنفاسها
الأخيرة ، وزاد الأمر سوءا اخفاق النجدة الحفصية في الوصول الى المدينة
فغلف اليأس قلوب الناس فجاء تصوير ذلك على لسان أشدهم احساسا
بذلك شاعرنا ابن عميره أما ابن الأبار فقد كانت قصائده كلها استصراخا
واستفاشة لأن الأمل في النصر لا يزال موجودا والمدينة لم تسقط بعد .

(١)

رشاش اشبيلية :

بعد أن أنهى خايص الأول ملك أراجون سيطرة المسلمين على ثغور الأندلس الشرقية ، جاء دور فرناندو الثالث ملك قشتاله ليواصل فتوحه في وسط الأندلس وجنوبها . وكانت أهم المعقات التي تقف في طريقه هي قوة ابن الأحمر سلطان غرناطة الذي شكل دولة قوية في جنوب الأندلس استطاعت سنة ست وثلاثين وستمائه أن تهزم القشتاليين ، غرناطة مدينته جيان . لذا فقد صمم الملك القشتالي على إخضاع ابن الأحمر لسلطته فجهز جيشا كثيفا وسار به نحو جيان وأخذ يخرب ما حولها وينتسف زروعها ، وكانت هذه المدينة من أعصب مناطق الأندلس وأمنعها لما تحوى من القلاع والحصون والأسوار ، فحضر حولها طوقا من الحصار الشديد لمدة شهر وهي صامدة تنتظر المدد ، ولكن ابن الأحمر عجز عن ذلك ، وقرر التفاوض مع القشتاليين وذهب من توه إلى معسكرهم تحت أسوار جيان وقدم الطاعة والولاء لفرناندو (٢) ثم عقد معه معاهدة سلام لمدة عشرين عاما تحوى شروطا قاسية من أهمها

-
- (١) من أمصار الأندلس الجليلية ، تقع على نهر الوادي الكبير وبينها وبين قرطبة ثمانين ميلا ، وهي قديمة البناء ، عظيمة الأسوار ، خصبة التربة تكثر حولها أشجار الزيتون وغيرها . / الروض المعطار (اشبيلية) .
- (٢) هو أبو عبد الله محمد بن يوسف بن خميس بن نصر الخزرجي الأنصاري ، يلقب بالفالب بالله ولد سنة احدى وتسعين وخمسمائه وملك غرناطة سنة ٦٣٥ هـ ، دعا في بداية أمره للعباسيين ثم للموحدين والحفصيين ثم نزع واستقل بذاته توفي في ٦٧١ هـ . / انظر ابن الخطيب : اللمع البدرية : ٤٢ - ٤٨ . عنان : تراجم اسلاميه : ٢٥٨ .
- (٣) عنان ، عصر المرابطين والموحدين : ٤٦٨ / ٢ .

تسليم المدينة المحاصره في الحال ، و دفع جزية سنويه مقدارها خمسة عشر
ألف قطعة ذهبية ، وأن يحكم ابن الأحمر غرناطه باسم ملك قشتاله ويحضر
اجتماع مجلس قشتاله (الكورتيس) باعتباره أحد الأمراء التابعين للعرش .
والأهم من ذلك أن يشارك ابن الأحمر بقواته الجيش القشتالي في حروبه
ضد المسلمين . وهكذا سلم العرش الغرناطي المهزوز لابن الأحمر على
حساب شرفه ودينه . ثم دخل النصارى جيان وطردوا أهلها ووزن ملكهم
بورها على الأشراف والفرسان وحول مسجد ها الى كنيسة وذلك سنة ثلاث
وأربعين وستمائه . ولما رأى الطك القشتالي حصول جيان في يده أخذ يتطلع
الى اخضاع اشبيلية عاصمة قواعد جنوب الأندلس حيث لم يبق غيرها ممن
الحواضر الكبرى بيد المسلمين ، وكانت هذه المدينة تتمتع باستقلال مجلس
رغم انضوائها تحت لواء هذا الأمير أو ذاك ، فقد خلعوا طاعة الدولة
الموحديه ويايموا ابن الأحمر ثم ثاروا عليه بعد مدة بسيطة ورجعوا الى طاعة
الموحدين شكليا ، حيث كان الحكم الفعلي بيد الزعيم المحلي أبو عمرو ابن
الجد الذي كان صديقا لملك قشتاله وتربطه به معاهدة على نمط معاهدة -
(١)
الملك وابن الأحمر وأخيرا قرر ابن الجد خلع طاعة الموحدين وببايعة الأمير
أبي زكريا الحفص صاحب الدولة الناشئة في تونس والتي تستطيع الانجاد في
أي وقت ، فبعث الحفص من قبله من يشرف على شئون اشبيلية الى جانب
ابن الجد ووعد أهل اشبيلية بالمعونة ولكن أولئك النفر الذين قدموا الى
اشبيلية أساءوا سيره وأحدثوا كثيرا من المفاصد فطردهم أهل اشبيلية وقتلوا
ابن الجد الذي كان السبب في مجيئهم ، فغضب فرناندو القشتالي لمقتل

(١) عنان ، المرجع السابق : ٤٧٣ / ٢ .

(٢) ابن خلدون ، تاريخ العبر : ١٧١ / ٤ .

صديقه واتخذ ذلك ذريعة لاحتلال اشبيلية التي لم يعد لها من ينجدها بعد أن خلعت طاعة الموحدين ، والحفصيين ، ولكن مع هذا فان احتلالها لم يكن بالأمر السهل فهي محاطة بالقلع والحصون المشحونة بالمقاتلين من مختلف جهاتها بالإضافة الى خصبها وكثرة خيراتها ، ووقوعها على نهر الوادى الكبير الذى يمكن بواسطته الاتصال بالمغرب . لذا فقد فزع فرناندو الى البابا يطلب المساعدة ، فأصدر البابا قرارا يقضى بتخصيص ثلث ايرادات الكنيسة القتالية والليونية للمساهمة فى الحرب . وفى سنة أربع وأربعين وستمائه جمع فرناندو وحشودا ضخمة وسار بهم نحو اشبيلية فاصطدم بحصون قرمونه المنيع فحاصره وأهلك ما حوله من الزروع ثم استولى عليه بعد ستة أشهر بمساعدة حليفه ابن الأحمر الذى وافاه بخمسة مائة فارس وكان له دور كبير فى اقناع أهل الحصون بالتسليم كعمله مع أهل قلعة جابر حصن اشبيلية من الجنوب الشرقى ثم استمرت الجيوش المشتركة فى السير واحتلال القلاع حتى وصلت الى اشبيلية وحاصرتها برا وبحرا ، وضرب أهل اشبيلية أروع الأمثلة فى الصمود والدفاع المستميت عن بلدهم ، ولكن ضخامة النجدات النصرانية التى كانت تأتى لتميز الحصار بقيادة الأساقفة والرهبان أفقدت المحاصرين كل أمل ، وبدأ شبح الجوع والضيق والارهاق يدب حثيثا الى المدينة

(١) عنان ، المرجع نفسه : ٤٧٤ / ٢ .

(٢) مدينة حصينه فى الشرق من اشبيلية ، تقع فى سفح جبل عال وتحيط بها الأسوار المنيعه التى تصعب على المحاربين وهما أسواق عامسره ودار لصناعة السلاح ، فتحها الأيوبيون سنة ٣٠٥ هـ . / السروى المعطار : (قرمونه) .

(٣) انظر : ابن أبى زرع ، الذخيره السنيه : ٧٢ - ٧٣ .

فاضطروا أهلها إلى تسليمها بعد خمسة عشر شهرا من الحصار الخانق ،
وخرج منها ما يزيد على أربعمائه ألف نسمة بما لهم وسلاحهم وانتشروا في مختلف
الأقطار . ودخل فرناندو المدينة العظمى وجعل فيها مركزا مطرائية ورفعت
الصلبان والأجراس الضخمة على منارة جامع اشبيلية ، واستقر فيها واتخذها
عاصمة له بدلا من طليطلة ، وذلك سنة ست وأربعين وستمائه . وقصد
صور الشعر محنة هذه المدينة الصامدة بمواطن صادقة ملتصبة تسترأج
بين الحزن والبكاء وطرب الفوخ والنجدة عندما اشتد الحصار وقربت النهاية .

ومن ذلك قول أبي موسى هارون بن هارون :- (١)

يا حصي أقصدك المقدور حين رمي * لم يبرح فيك الردى إلا ولا نمتا .
جرت عليك يد للدهر ظالمة * لا يعدل الدهر في شيء إذا حكما .
ما كنت أحسب أن الحادثات إذا * همت بك السوء لا تطلق لك السلما .
قد كان حسنك فتان الشباب فمذ * أصبت عوضت منه القبح والهرمسا .
ياجنة زجرتنا عن زخارفها * ننهنا فلزنا البت والندمسا .
يقف الشاعر متأملا ومتعجبا من انقلاب حالة مدينته حيث أصابته
الحادثات التي لا ترضى إلا ولا نمتا ، فحولت حسناتها قبحا وشبابها هرمسا ،
وصار أهلها إلى الإخراج منها والابعاد . يتجرعون لذلك قصص الحزن والندم
الذى لا يجدى من أوضاع وفرط شيئا ، والشاعر يرجع سبب هذه المحنة إلى
صروف الدهر الجائرة في حكمها . ومعركة الشعرا مع الدهر قديمه قدم الشعر
نفسه فالشاعر دائما يحمل الدهر تبعه ما يلاقى الخفاق والآلام ويرى في

(١) عنان ، عصر المرابطين والموحدين : ٤٨٢ / ٢ ، وذكر أنه نقلها عن البيان

المغرب : ٣٨٢ / ٣ - ٣٨٤ ، ولكنى لم أجدها في الموجود منه بين أيدينا

في الموضع المشار إليه .

عدوا يقف له بالمرصاد ، وقيدا يخنق حياته . ثم يصف الشاعر زحف جيش الأعداء وما أحدثه بأشبيلية من البلاء :

- ويمسوا حمص في جمع يضيق به * نزع الفضا بالمرهفات الماع فاكتما .
- واستوطنوا القبر في الوادي وقام لهم جسر من الفلك لا تشكوبه السأمسا .
- فكم أسارى غدت في القيد موثقة * تشكو من الذل أقدا ما لها عظمسا .
- وكم صريح رضيع ظل مختطفسا * عن أمه فهو بالأموج قد فطمسا .
- وكم بطريانة أبقى الأسى نديسا * في القلب يبعث وجدا كلما كتمسا .
- ياعين فابك على حمص وقل لها * منك البكاء اذا ماترسلية دمسسا .
- وقد أصيبت بها الدنيا وساكنها * حقا وأصبح ركن الدين قد ثلمسا .
- سطا بها الكفر ان قل النصير بها * فمن معزبها الاسلام ماسلمسا .

ان معاني الشاعر ليس فيها جديد فهو يصف ضخامة الجيش الغازي وحصاره البري والبحري للمدينة ثم يرسل دمه حزنا وأسفا على أولئك الأطفال الذين ابتلمتهم الأمواج بعد أن خطفهم الأعداء من غير ذنب ، وعلى أولئك الأسرى الموثقين بقيود الذل . والأكبر من ذلك أن هذه المدينة من قواعد الاسلام العظمى الباقية بيد المسلمين ، فبستقوطها وتحولها إلى دار كفر حدثت في الاسلام ثمة تدمى لها القلوب ، لذلك نرى الشاعر يتلفت حوله مذعورا باحثا عن منجد ونصير يعيد للاسلام عزه ومجده ، ولا تطول حيرة الشاعر ان سرعان ما يوجه نداءه الى اخوان العقيدة فس

(١) حصن اشبيلية من الجنوب الغربي يفصلها عنها نهر الوادي الكبير وتصل بينهما قنطرة ضخمة مقامه على ذلك النهر . الروض المحلار (بطريانه) .

عدوة المغرب قائلاً :-

- بأهل وادى الحما بالعدوة انتمشوا * هذا الذما فقد أشقى به سقما .
- ماذا يبيطكم عنا وحولكم * أن تبصروا دار قوم أصبحت رمما .
- وحقنا واجب فالدين يجمعنا * مع الجوار الذى مازال منتظما .
- وقد دعونا فأسمعنا على كسب * بما قد استنفد القرطاس والقلمما .

ولغة الشاعر فيها قوة لأنه يطالب بحق الاسلام الذى يجمع كل المسلمين ويجعلهم اخوة ووحدة متماسكة ، فهو يخشى أهل العدوة على النجده ويمجيب من تأخرهم فى ذلك رغم سماعهم صراخ جيرانهم أهل اشبيلية الذين أشرفوا على الهلاك ، وعلى الرغم من ذهاب صوت الشاعر أدرج الرياح ، ولم يستجب له أحد فانه يكون قد أدى واجبه بايجابية تراوحت بين الرثاء والحزن العميق على فقدان المدينة الاسلامية ، وبين السمو فى طلب المدد بأسلوب مؤثر .

(١)

رثاء سهيل :-

لا تمدنا المصادر التاريخية بمعلومات دقيقة عن السنة التى سقطت فيها هذه القرية بيد النصارى ، وانما المؤكد أن ذلك حدث فى عصر الموحديين

(٢) حيث يقول ابن سعيد فى ترجمة الامام السهيلي الذى عاش من (٥٠٨ - ٥٨٤)

(١) هى قرية بالقرب من مدينة مالقه ، سميت باسم الكوكب (سهيل) لأنه لا يرى فى جميع الأندلس الا من جبل مظل عليها ، ووادى سهيل معروف بالأندلس وفيه قرى كثيرة . / معجم البلدان : (سهيل) ، ابن خلكان ، الوفيات : ١٤٤ / ٣ .

(٢) المغرب فى حلى المغرب : ٤٤٨ / ١ .

(٣) هو عبد الرحمن بن عبد الله الخثعمى السهيلي . كان عالما بالعربية واللغة والقراءات ، والتفسير والحديث ، حدث بما لقه فاشتهر به صدقته ، من تصانيفه ، الروض الأثف فى شرح السيرة النبوية ، التصريف والاعلام بما فى القرآن من الأسماء والأعلام وغيرها . انظر : نكت الهميان : ١٨٧ ، أبو البحر صفوان ، زاد المسافر : ٩٦ ، انباه الرواه : ١٦٢ / ٢ ، الروض الأثف : ٢٥ / ١ .

.... انه لما وقعت قريته (سهيل) بيد الفرنج وخرّبوها ، وقتلوا أهلها
كان أهله وأقاربه ضمن من قتل ، وكان هو غائبا عنهم خارج القوية فاستأجر
من أركبه دابة وأتى به الى سهيل فوقف بازائه وقال :-

- يصادر أين البيضي والآرام * أم أين جيران على كسرام ؟
راب المحب من المنازل أنه * حبي فلم يرجع اليه سلام .
لما أجابني الصدى عنهم ولم * يلج السامع للحبيب كلام .
طارحت ورق حمامها متروكنا * بمقال صب والدموع سجام .
" ياد ار مافعلت بك الأيام * ضامتك والأيام ليس تضام " .

والأبيات - رغم قلتها - مفعمة بعاطفة الحزن الجياشه التي تنبعث من
قلب مكلوم بفقد الوطن والأهل ولعل المدقق في الأبيات وفي وقفه
الشاعر بالمنازل يحس أن قائلها لا يبصر فهو يعتمد على السماع فقط ولا يأتي
بوصف مشاهد للقرية المدمّره التي فعلت بها الأيام فعلها . فالصمت
الموحش الذي لف المنازل وقضى على كل حركة فيها هو الذي فجر دمع
الشاعر وجعله ينوح نوح الحمام .
رثاء صقلية ومدن المغرب :-

(١)

صقلية :- كانت جزيرة صقلية تتبع للدولة البيزنطية المتمركزه في

(١) جزيره مثلثة الشكل من جزائر البحر الأبيض المتوسط ، قصبته مدينة
(بلرم) وفيها ما يقرب من ١٣٠ بلدا بين مدينة وقلعه ، وتشتهر
بخصوتها ، وزراعاتها الكثيرة بالإضافة الى أنواع المعادن المتعدده /
معجم البلدان : (صقلية) .

القسطنطينيه والتي اتخذت هذه الجزيرة مركزا للسيطرة على البحر ، فمنها
(١)
كانت تغزو أفريقيا وتخرب الثغور وتنهب الأرزاق وتأسر المسلمين . وقد
بدأ التفكير في فتحها مبكرا عند المسلمين ، فقد غزاها موسى بن نصير
فاتح الأندلس ودحر قوى الروم بها وغنم غنائم كثيرة ، ولكنه رجع ولم يتم
فتحها وربما كان ذلك لطول المسافة البحرية بينها وبين تونس ، وصعوبة
ارسال المدد اذا ما عبرت جيوش الفتح الاسلامي الى أوروبا ، وتتابع
المحاولات بعد ذلك من ولاية الأمويين على أفريقيا ولكنها انتهت بوقوع
الصلح والرضا بالجزيرة ، وفقى الحال على هذا الى أن جاءت الدولة العباسية
ووضعت ابراهيم بن الأغب واليا على افريقيه فاتخذ القيروان عاصمة له وأخذ
يفاوض الخلافة العباسية في الانفصال ، فجاءه الموافقة على ذلك مقابل
أن يعترف للعباسيين بالسيادة ، ويدفع خراجا سنويا لخزينة الدولة يقدر
(٢)
بأربعين ألف دينار ، عندئذ أخذ ابن الأغب يعمل بجد ونشاط عظيم
لتكوين مملكة قويه ، وبالفعل تم له ما أراد حتى كانت القيروان من أزهى عواصم
المسلمين . وأقواها . ثم توفي ابراهيم وخلفه ولده زيادة الله سنة ١٤٨ هـ
وفي عهده كانت جزيرة صقلية تمر بمرحلة صراع وانقسام نتيجة الظلم والفساد
الذي كان يمارسه ولاية الروم البيزنطيين ضد شعب صقلية ، اضافة الى
الخلاف المستحكم بين الأمراء والقواد أنفسهم ، حيث اضطر بعضهم الى
الاستنجاد بزيادة الله وحثه على احتلال الجزيرة مبينا له ضعفها وسهولة
فتحها فاستحسن زيادة الله بن الأغب ذلك وجهز أسطولا ضخما شحنه بالرجال

(١) الكامل في التاريخ : ٣٣٤/٦ .

(٢) أحمد المدني ، المسلمون في جزيرة صقلية : ٥١ .

(١)

والعتاد ووجهه الى صقلية تحت قيادة القاضي أسد بن الفرات ، فوصل اليها سنة اثنتى عشرة ومائتين ، والتقى بجيش كثيف من الروم بلغ مائة ألف جندي فهزمه هزيمة شديدة وفر قائد الروم المسمى " بلاطه " وتحصن (بسرقسوسه) حيث قتل هناك طي يد أحد خصومه ، وزحف الجيش الى الاسلام بقيادة ابن الفرات وهاصر سرقسوسه برا وحرا ، ووصلته النجسيدات والممونات من القيروان فاشتد عزمه وبعث فرقه من جيشه لمحاصرة عاصمة الجزيرة (بلرم) ، وفي الوقت نفسه وصل أسطول الروم بقوة ضخمة ، ودارت بين الجانبين معارك ضارية امتدت من سرقسوسه شمال الجزيرة الى بلرم في شمالها الغربي وكانت سجلا غير أن ونا شديدا وقع في معسكر

(١) هو أسد بن الفرات بن سنان ، يكنى أبا عبد الله . ولد بخراسان سنة ١٤٢ هـ ، رحل أبوه الى القيروان مع جيش ابن الأشعث وأخذ معه وهو طفل صغير ، فنشأ بتونس وتعلم بها ثم رحل الى المشرق وأخذ الحديث عن مالك بن أنس سنة ٧٢ هـ ثم رجع الى القيروان وولى قضاءها سنة ٢٠٤ هـ ومن مصنفاته (الأسديه) في فقه المالكية وتوفي مجاهدا سنة ٢١٣ هـ أثناء غزوه على صقلية / معالم الايمان : ٢ / ٢ - ٣ هـ تراجم اسلاميه : ١٣٠ .

(٢) مدينة كبيرة بينها وبين صقلية مجاز لطيف ، والبحر محدد بها مسن جميع جهاتها ، وطلعتها ثلاثة أسوار بمدخل واحد في شمالها ، وتشتهر بأسواقها التجارية ومبانيها الرائعة . / انظر : الروض المعطار : (سرقسوسه) .

(٣) هي دار الملك بصقلية في عهد الروم والمسلمين ، وهي على ساحل البحر وتحقق بها الجبال ، ومنها كانت تخرج الأساطيل للغزو ، وبها جامعها المشهور الذي بلغ في القديم درجة عالية من الهندسة والزخرفة / المصدر نفسه : (بلرم) .

(٤) عنان : تراجم اسلاميه : ١٢٤ .

المسلمين توفي على أثره عدد كبير ومنهم القائد البطل أسد بن الفسرات سنة ثلاث عشرة ومائتين ، وتولى القيادة بعده محمد بن أبي الجوارى الذى قرر الرجوع بالمسلمين الى افريقيا لما رأى ضعفهم وقوة الروم ، ولكن لهم فتح له ذلك ان أجبرهم الأسطول الرومى على خوئ الحرب ، فما كان منهم الا أن احرقوا سفنهم وانطلقوا الى الجزيرة أسرابا يحاصرون قلاعها وقد عقدوا العزم على النصر أو الموت ، وساعدهم فى ذلك وصول (١) الاسطول الأندلسى يحمل سرايا المجاهدين ، وأصبح الجميع قوة واحدة فتحت على يدها معظم قواعد الجزيرة ، ثم لم يلبث القائد ابن أبي الجوارى أن توفي ، ورجع الأسطول الأندلسى الى بلاده فرارا من الهوا الذى كان ينتشر بسبب عفونة الهوا ، وفساد المناخ ، فبعث زيادة الله زهير بن عوف مع ثلاثين ألف مقاتل لاكمال فتح الجزيرة ، فاندفعوا نحو العاصمة (بلرم) وحاصروها بشده ، وواجهوا مقاومه عنيفه من الروم ولكنهم استسلموا فى النهاية وخرجوا منها ودخلها المسلمون واتخذوها مقرا لحكمهم فى الجزيرة وانطلقوا فى مجال البناء والاصلاح ، فانتشرت فى أرجاء صقلية المساجد ، والقصور والحدائق ، وفاضت عليها أنوار الاسلام العلمية والحضارية من المشرق والمغرب ، وسقط سرقوسة آخر معاقل الروم بالجزيرة سنة أربع وستين ومائتين تكونت فيها دولة اسلاميه تتبع للأغالبه فى افريقيا ثم استقلت بعد زوالهم ، وكانت البعث والحملات البحريه تخرج منها ، وتجوس خلال المياه الايطاليه ، وقيت الجزيرة ترفل فى حلق الازدهار الى أن بسط

(١) المدنى : المسلمون فى جزيرة صقلية : ٦٤ .

(٢) انظر : معجم البلدان تحت كلمة (صقلية) .

الفاطميون نفوذهم على المغرب وافريقيا سنة سبع وتسعين ومائتين وأخذوا يرسلون الولاة من قبلهم الى صقلية ، فبدأ عهدهم بمذابح شنيعة يرسلون مؤيدي حكم الأغاليبة من العرب ومؤيدي الفاطميين من البربر وانحاز الولاة الى البربر وأوجدوا النعرات المنصرية التي مزقت الصف الاسلامي وحاولوا اجبار الناس على اعتناق المذهب الشيعي ، فقام أهل صقلية بثورة عارمة وقتلوا حاكمهم الفاطمي وخلصوا طاعة الفاطميين سنة احدى وثلاثمائة ، فبعث اليهم عبيد الله المهدي الحاكم الفاطمي حملة قوية أهلكتهم وسبب حريمهم ، وارتكبت الفظائع أعظمها مما جعل الناس يفرون الى النصارى طلبا للحماية والنجاة وفي هذا الوقت الذي يقتل فيه المسلمون بعضهم ، وتسبح فيه الجزيرة ببحر من الدم ، بدأ التحرك من قبل النصارى والنورمان نحو صقلية ، وأخذوا يغيرون وينهبون ويسلبون ، واستوطنت جماعة من النورمان ناحية من صقلية سنة سبع وعشرين وثلاثمائة واتخذتها مركزا لقرصنتها البحرية ، وهذا بدأ شبح القلق المرعب يسيطر على الجزيرة فاجتمع رأى أهلها على الاستنجاد بالمعز بن باديس الصنهاجي حاكم المغرب من قبل الفاطميين بعد انتقال عاصمتهم الى القاهرة ، فأمدهم بأسطول مسن أربعمائة سفينة مجهزة بالرجال والخيل والسلاح ، ولكن عاصفة هوجاء أودت بالأسطول كله ، ولم ينج من أهله الا القليل ، عندها اشتد خطر النصارى الزاحفين فرأى أهل الرأى بالجزيرة تقسيمها الى عدة نواحي على كل ناحية أمير ، وكان هذا من سوء تدبيرهم ان سرعان ما دب الخلاف بينهم وفر أحد هم ويدعى ابن الثمنة الى ملك النورمان رجار الأول واستغاث به على قومه

(١) المسلمون في جزيرة صقلية : ١١٩ .

(٢) الكامل في التاريخ : ٣٢٣/٧ .

فأقبل هذا بجيوش ضخمة وأخذ يلتهم الجزيرة شيئا فشيئا والمسلمون يقاومونه
(١)
بكل عنف وشجاعته سنينا طويلا الى أن استسلم آخر معاقلها قلعة (قصر يانته)
سنة أربع وثمانين وأربعمائة . وهذا ينتهي الحكم الاسلامي لصقلية بمسند
(٢)
أن نعمت في ظلاله زهاء سبعين ومائتي عام . ومن بكى الجزيرة الفارسية
(٣)
ابنها ابن حمديس الصقلي الذي كان دائم التذكار والشوق اليها يقول :
(٤)
لأمر طويل الهم نزحى العرامسا * وتطوى بنا أخفافهن البسابسا .
وتذعر بالبيدا عينا شسواردا * تذكر بالأحداق عينا أوانسسا .
عذارى ترى الحسن البديع مطابقا * لأنواعها في خلقه ومجانسا .
بذكر البيدا والجمال المزجاة فيها يبدأ الشاعر قصيدته ، ثم يذكر بمسند
ذلك الآرام النافره التي أهاجت ذكرياته ، وهذه البداية التي يسير بها على
هدى مطالع القصائد القديمة لها دلالة واضحة على الشعور بالخربة والقلق
والاستعداد للرحيل والنزوح الذي يورث الهم والحزن الطويل . ونرى الشاعر

-
- (١) من أكبر مدن الروم بصقلية ، وأعظمها خصبا ، افتتحها المسلمون أيام
بنى الأغالبة سنة ٢٤٤ هـ وأخذوا منها غنائم كثيرة ، واستوطنوها لمناعتها
/ الروي المعطار : (قصر يانته) .
(٢) اسماعيل شلبى : ابن حمديس الصقلي : ١٨ .
(٣) هو أبو محمد عبد الجبار بن أبي بكر بن محمد بن حمديس الأزدي ، ولد
في سرقوسة سنة ٤٤٧ هـ ، شاعر مبدع مشهور رحل الى الأندلس سنة
٤٧١ هـ ومدح المعتمد بن عباد وناداه ، ثم انتقل الى المغرب ومدح
حكامها الصنهاجيين ، وتوفي سنة ٥٢٧ هـ في جزيرة ميورقه / انظر :
الوفيات : ٢١٢/٣ ، الذخيرة : ق ٤ ، ج ١ ، ص ٣٢٠ ، المطرب : ٥٤ .
(٤) ديوانه : ٢٧٤ - ٢٧٦ .
(٥) العرمس : الناقة الشديده ، البسيس : القصر . الصحاح (عوسى) ،
(بسس) .

بعد ذلك يضيق بحزنه المكثوم فيطلق عبرته دون تحرج :-

- أعادل دعوى أطلق العبرة الستى * عدت لها من أجل الصبر حابسا (١)
 - فاني امرؤ آوى الى الشجن السدى * وجدت له في حبة القلب ناعسا
 - لقدرت أرض أن تعود لقومها * فسأتظنونى ثم أصبحت ياعسا
 - وعزيت فيها النفس لما رأيتها * تكابد داء قاتل السم ناعسا
 - وكيف وقد سميت هوانا وصيرت * مساجدها أيدي النصارى كناعسا
 - اذا شامت الرهبان بالضرب أنطقت * مع الصبح والامسا فيها النواقسا
- ان الشاعر يطلق عبراته وزفراته قوية يفنديها قلبه الذي أصبح ديدنه
النبض بالشجن والألم ، عندما رأى موطنه يهوى تحت ضربات الأعساد
ويذهب الى غير رجعه ، وينقطع كل أمل في عودته اليه بعد أن سامه
النصارى المسخ وحولوا مساجده الشامخة الى كنائس ينبعث منه ساريسا
الجراس ، الذي ينزل على نفس الشاعر سما ناقعا . ثم يأخذ في وصف مآلات
اليه صقلية بعد السقوط . مقارنة ذلك بما كانت عليه أيام المسلمين الأقباط
ومن خلال ذلك تبدو المفارقة المرعبة المبكية :
- صقلية كاد الزمان بلادها * وكانت على أهل الزمان محارسا
 - فكم أعين بالخوف أمست سواهرا * وكانت بطيب الأمن منهم نواعسا
 - أرى بلدى قد سامه الروم ذلعة * وكان بقوم عزة متعاسا
 - وكانت بلاد الكفر تلبس خوفه * فأضحى لذاك الخوف منهن لابسا

(١) النخس : الوخر ، ومنه نخس الدابة اذا غرز جنبها بعود أو نحوه . /

اللسان (نخس) .

- عدت أسودا منهم عريضة * ترى بين أيديها الحلوج فرائسا
- فلم ترعيني مثلهم في كتيبة * مضارب أبطال الحروب مداعسا
- ويارب برف النصال تغالسه * من النقع ليلا مشرق الشهب داسا
- وماخلت أن النار يبرد حرها * على سعف لاقته في القيط يابسا
- أما ملكت غزوا قلورية بهم * وأردوا بطاريقا بها وأشاورسا
- هم فتحوا أغلاقها بسيوفهم * وهم تركوا الأنوار فيهما حنادسا
- وساقوا بأيدي السبى بيضا عواسرا * تخال عليهم الشمسور برانسسا
- يخوضون بحرا كل حين اليهم * ببحر يكون الموج فيه فوارسا
- وحرية ترون بحرق نفظها * فيغش سعموط الموت فيها المعاطسا
- تراهن في عمر اللبود وصفرها * كمثل بنات الزنج زفت عراغسا
- اذا عثت فيها التناير خلتها * تفتح للبركان عنها منافسا

لقد كانت صقلية أيام عزها الفاجر تحرس بأيدي المسلمين الأبطال
الذين طالما داسوا بلاد الكفار وخضبوا سيوفهم من دماء كراتهم في السبر
والبحر ، فنرى الشاعر يطيل تذكر تلك الأيام ويكرر - بلذاه - كلمة (كسان)
الداله على الماضي ، أما حال الجزيرة بعد أولئك الحماة فقد انقلب إلى
ضيعة وهوان يقول :

- أنى قصرينى رقعة يعمرونها * ورسم من الاسلام أصبح دارسا
- ومن عجب أن الشياطين صيرت * بروج النجوم المحرقات مجالسا

(١) مدينة بجزيرة صقلية ، كان يتحصن بها الروم لصناعتها ، وقد احتلها
المسلمون بعد حملة قومه بقيادة ابراهيم بن الأغلب حاكم القيروان /
الروض المعطار : (قلورية) .
(٢) هو قصر يانه التي تقدم ذكرها .

- وأضحت لهم سرقوسة دار منعة * يزورون بالديرين فيها النواوسا
- مشوا في بلاد أهلها تحت أرضها * وما مارسوا منهم أبيبا مارسنا
- ولو شققت تلك القبور لأنهضت * اليهم من الأجدات أسد عوابسا
- ولكن رأيت الغيل ان غاب ليثه * تبختر في أرجائه الذئب مائسا

وهنا يتمجّب الشاعر من فعل الزمان ، وتلونه بعد أن أقصى ظل
الاسلام من الجزيره ، وسكّت شياطين الكفرة بالبرج التي كانت تقذفهم
بالنار المحرقه فيما مضى ، وقد استباحوا - أيضا - مدينة سرقوسة مسقط
رأس الشاعر ، واستأسدت تبها الكلاب بعد غياب ليوثها .
(١)
وله في بكائها من قصيدة أخرى :-

- ذكرت صقلية والأسس * يهيج للنفس تذكّارها
- ومنزلة للتصابي خلّت * وكان بنو الظرف عمارها
- فان كنت أعرجت من جنة * فاني أحدث أخبارها
- ولولا طوحة ماء البكّا * حسبت رموى أنهارها
- ضحكت ابن عشرين من صبوة * بكيت ابن ستين أوزارها

وهو في هذه الأبيات يتذكر أيام شبابه التي قضاه مع أترابه في موطنه
الذي يمثل جنته التي أخرج منها ، لذا نراه يذرف الدمع بمراره كلما حاجته
الذكري ، وهزه الشوق . وأسلوب الشاعر في رثائه قوي رصين مع ميل إلى
الصعّمه والمحسنات ، وتبدو عنده قوة العبارة عندما يصف أفعال أسلافه
الأبطال مجدا ومخلدا ، ولعل نشأته الأولى في صقلية حيث الحروب التي
ربما اشترك في بعضها صقلت موهبته واكسبتها شيئا من اللحن الحماسي ،
أما معانيه فليس فيها جديد ، إلا أن عاطفته الجياشه ، هي محور جسود
رثائه .

(١) ديوانه : ١٨٣ ، أعمال الأعلام : ٧٣ / ٣ .

(١)
رثاء القيروان :-

بنى عقبة بن نافع - رضى الله عنه - مدينة القيروان عند فتحه لأفريقيا
فى عهد معاوية بن أبى سفيان ، وذلك لمتخذها مركزا للرباط والجهاد فى
سبيل الله . وتوالى عليها الأمراء من قبل الدولة الأموية أمثال حسان بن
النعمان ، وموسى بن نصير ، وعبيد الله بن الحباب الذين عرسوا
داوينها ، وأنشأوا فيها دارا لبناء السفن . وعندما انتقلت الخلافة
الى العباسيين تبعتهم أفريقيا اسميا ، حيث استطاع بنو الأغلج أن يؤسسوا
فيها دولة قوية جعلوا القيروان عاصمة لها الى أن بسط الفاطميون سلطانهم
على المغرب - كما أوضحناه سابقا - وعندما استولى الفاطميون على مصر
وانتقلوا اليها ، وضعوا على المغرب ولاية من البربر الصنهاجيين وأولهم
يوسف بن بلكين الذى صرف همه الى توسيع رقعة دولته وتقويتها الى
أن توفى ، وخلفه ولده باديس الذى سار على دبره ولكن عهده كان مشحونا
بثورات البربر المتكررة بقيادة عمه حماد الذى كان ينازعه السلطان ، وظل
الأمر كذلك الى أن توفى باديس سنة ست وأربعمائة وجاء بعده ولده المميز

(١) قاعدة بلاد أفريقيا ، وأم مدائنها ، عظيمة القدر ، كثيرة السكان
والأموال يثلب على أهلها الصلاح والتفنن فى العلوم ، وفيها جامع
عقبة المشهور بروعة بناءه ، واجتماع العلماء والطلاب فى فوائده ، وقد
تم بناء القيروان سنة ٥٥ هـ / انظر : الروض المعطار (القيروان) ، -

معجم ما استمع : فصل القاف والياء .

(٢) أبو القاسم كرو ، عصر القيروان : ٢١ .

(٣) عهد الرحمن يانغى ، حياة القيروان : ٤٨ .

الذى استطاع أن يخمد الثورات ويزيل الخلافات ، وكانت ولايته في عهد
الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله الذي سير للمعز الهدايا والخلع وطبقه
بشرف الدولة ، ولكن المعز كان يكره مذهب الشيعة فأخذ يفكر في الاستقلال
عنهم وقطع دعوتهم في أفريقيا ، فتخلى عن نصرته الشيعة في الثورة التي
قامت ضد هم سنة خمس وثلاثين وأربعمائة وذبح منهم فيها أعداد كبيرة ، الأمر
الذي أثار حفيظة الخلافة الفاطمية فأرسل الخليفة الفاطمي المستنصر بالله
للمعز تهديدا وتوبيخا ، فما كان من المعز إلا أن جاهر بخلع ولائه لهم
وصرح بعدائهم ، ودعا للخليفة العباسي الذي وافاه بالتقليد والاعتراف باستقلاله
في أفريقيا سنة أربعين وأربعمائة . وكانت الدولة الفاطمية في ذلك الوقت قد
بلغت من الضعف حدا جعلها تقف عاجزة عن بعث قوة عسكرية لمحاربة المعز
فلجأ وزيرهم (اليازوري) إلى الانتقام بواسطة الأعراب الذين كانوا يقطنون
صعيد مصر ، فساعدتهم بالأموال ، وجعل لهم جميع ما يستولون عليه من الغنائم
فانتشرت جمعهم في البلاد كالجراد تسلب وتنهب كل ما تقدر عليه . ولم يحبب
بهم المعز في بداية الأمر وقرب زعيمهم (مؤنس الرياحي) الذي أخلص الطاعة
والنصح ، فعندما طلب منه المعز أن يدعو قومه ليتخذ منهم بطانة رفض ذلك
موضعا عدم صلاحيتهم ، وقلة وفائهم ، فاعتبر المعز ذلك منه احتكارا للسيادة
والقربى منهم ، فرضخ لطلب المعز ودعاهم فعاثوا في الأرض فسادا ، فطلب
إليه اخراجهم فاعتذر بعدم قدرته ، فعاقبه المعز بحبس أرزاقه وأهله ، فكان
ذلك سببا للزحف الماحقة سنة أربع وأربعين وأربعمائة حيث انكسر جيش المعز
كسرة شنيعة ، وحاول أن يصالحهم ويزوج بناته من بعض أمراءهم ، ولكن ذلك لم

(١) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ : ٢٥٦ / ٩ .

(٢) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام : ٧٣ / ٣ - ٧٤ .

(٣) محمد المرزوق ، أبو الحسن المصري القيرواني : ١٢ .

يجد معهم نفعا فزعفت جمعهم الهائله على القيروان وخربوها تخريبيا هائلا ، ودكوا حصونها وطمسوا معالمها ، فتشتت أهلها شرقا وغربا وتركوا مدينتهم نهبا للفوضى والخراب ، فلم يبق فيها دار الا دخلت عندئذ (١) نادى المعز بالرحيل الى المهديّة ومكث فيها الى أن توفي سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة . ولقد كانت القيروان أيام المعز في أوج عزها العلمي والأدبي حيث كان هوشاعرا كبيرا ، وكان بلاطه عامرا بأهل الشعر والأدب بالإضافة الى العلوم الشرعية وغيرها ولقد صور شعرا القيروان نكبة بلادهم أروع تصوير (٢) وخلدوها بقصائد لا تليها الأيام ومن ذلك قول ابن رشيق القيرواني بيكسي (٣) ذوى الفضل من أهلها :-

- كم كان فيها من كرام سادة * بيض الوجوه شوامخ الايمان
- متعاونين على الديانة والتقوى * لله في الاسرار والاعمالان
- ومهذب جم الفضائل بساذل * لنواله ولعرضه ضنوان

(١) مدينة بساحل افريقيه بناها عبيد الله الشيعي الطقّب بالمهدي سنة ٣٠٠هـ فسميت المهديه نسبة اليه . وبينها وبين القيروان ٦٠ ميلا ويحيط بها البحر من جهاتها الثلاث ومدخلها من جهة الغرب ، وهي محط سفن المشرق والأندلس . / الروض المعطار (المهديه) .

(٢) هو أبو علي ، الحسن بن رشيق القيرواني ، كان أبوه من موالى الأزد ، وولد الحسن في المسيله سنة ٣٤٠هـ ، فلما نبغ في الشعر والأدب رحل الى القيروان قبلة الطلاب والتقى فيها بالعلماء والفصحاء . ثم غادرها الى المهديّة ثم الى صقلية حيث توفي هناك سنة ٤٦٣هـ . ومن آثاره الهامه ، كتاب العمدة ، قراضة الذهب ، الشذوذ في اللغة وغير ذلك . انظر / الوفيات : ٨٥ / ٢ ، العمدة : ١٠ / ١ .

(٣) القصيدة في ديوانه : ٢٠٤ - ٢١٢ ، مختارات من الشعر الأندلسي : ٢١١ - ٢١٣ .

- وأئمة جمعوا العلوم وهذبوا * سنن الحديث ومشكل القرآن .
- علماء ان سألتم كشفوا العمى * بفقاهة وفصاحة وميــان .
- واذا الأمر استبهمت واستغلقت أبوابها وتنازع الخصمان .
- حلوا غوامض كل أمر مشكـل * بدليل حق واضح البرهان .
- واذا دجا الليل البهيم رأيتم * متبتلين تبتل الرهبان .
- في جنة الفردوس أكرم منزل * بين الحسان الحور والغلمان .
- تجروا بها الفردوس من أرباحهم * نعم التجارة طاعة الرحمان .
- وترى جبابرة الملوك لديهم * خضع الرقاب نواكس الأذقان .
- لا يستطيعون الكلام مهابة * الا إشارة أعين وننان .
- خافوا الاله فخافهم كل السورى * حتى ضراء الأسد فى الفيضان .
- تنسيك هيبتهم شماخة كل ندى * ملك وهيبة كل ندى سلطان .
- أحلامهم تزن الجبال وفضلهم * كالشمس لا تخفى بكل مكان .
- كانت تعد القيروان بهم ذبا * عد المناير زهرة البلدان .
- وزهت على مصر وحق لها كما * تزهبهم وغدت على بغدادان .

يتأسف ابن رشيق على القمم الشامخة من العلماء الكرام الذين كانت تزخر بهم القيروان ثم بادوا بعد أن دمرت ، وهو لا يصرف همه بطول التأسف والتحسر بل يقوم برسم صورة واضحة مشرقه لأولئك الأبرار تشكل فى مجموعها المثالية المطلقة التى يمكن أن يصل اليها البشر . فهم قد جموا جل الفضائل بعلمهم القرآن والحديث مع الفوس فى مسائل الفقه والبيان . بحيث كانوا النور الذى يستضى به الناس فيما أشكل عليهم ، وبالإضافة الى هذا العلم كانوا على جانب عظيم من التقوى والورع والعبادة فأسبغ الله عليهم الهيبة والوقار التى لا تذكر معها هيبة ملك أو سلطان ، فحق للقيروان أن تفخر بهذا الذخر العظيم وأن تتيه به على أشهر مراكز العلم آنذاك بغداد ومصر .

والملاحظ على شعر ابن رشيق في وصف هؤلاء العلماء ، الاحتوا على
المعاني القرآنية السامية التي تحت على العلم وتمتدح أهله وتحت أيضا على
العبادة والتقوى وازخاض النفس في سبيل الله .

ثم ينتقل الى وصف الخراب والفتك الذي أصاب المدينة على يد الأعراب

فيقول :-

- حسنت فلما أن تكامل حسنهما * وسما اليها كل طرف ران
- وتجمعت فيها الفضائل كلها * وفدت محل الأمن والايمان (١)
- نظرت لها الأيام نظرة كاشح * ترنوبنظرة كاشح معيان
- حتى اذا الأقدار حم وقوعها * ودنا القضاء لمدة وأوان (٢)
- أهدت لها فتنا كليل مظلم * وارادها كالناطح العيدان (٣)
- بمصائب من فادع وأشائب * ممن تجمع من بني دهمان
- فتكوا بأمة أحمد أتراهم * أمنوا عقاب الله في بعضان
- نقضوا العهد المبرمات وأخفروا * ذم الاله ولم يفوا بضمنان
- فاستحسنوا غدر الجوار وآثروا * سبى الحرهم وكشفة النسوان
- ساموهم سوء العذاب وأظهروا * متعسفين كوا من الأضفان

ان هذه المدينة لما بلغت أوجها وفدت محط الأنظار والامال رفعتها الأيام
بقوارعها وفتنها المظلمة فما بعد الارتفاع الا الهبوط ، وكان ذلك على يد
أولئك الفاتكين المتوحشين الذين لا يعرفون عهدا ولا ميثاقا ، ولا يعترمون
جوارا ، ولا يرحمون ضعاف المسلمين ، ونساءهم اللواتي أخذن أسيرات .

-
- (١) الكاشح : الذي يضر العداوه . الصحاح (كشح) ، معيان : يصيب
بمعينه وهنا للمبالغة في الضرر .
- (٢) الناطح : الخطب الشديد ، العيدان : طوال النخل . / الصحاح :
(نطح) ، (عود) .
- (٣) بنو دهمان : قصد بهم الأعراب وهم قبائل هلال ، ورياح وزغبه وغيرهم .

وتشتد عاطفة الحزن عند الشاعر عندما يتحدث عما نال أهل القبروان ممن الأذى قائلا :-

- والمسلمون مقسمون تنالهم * أيدى العصاة بذلة وهوان
- مابين مضطربين معذب * ومقتل ظلما وأخسر عان
- يستصرخون فلا يفتأ صريخهم * حتى اذا سئموا من الارنان (١)
- خرجوا حفاة عائدين برهم * من خوفهم ومصائب الألسوان
- هربوا بكل وليدة وفاطيمة * ويكل أرطاة وكل حصان

ومعد هذه الصورة الحيه النابضة بالحزن والأسى ، والتي نرى ممن خلالها مسلى القبروان وقد سيموا الذل فهم بين معذب حائر أسير يصرخ مستغيثا فلا يجاب وبين قتيل ذهب ضحية الظلم والبغى .

كما نشاهد فى الصورة تلك الفئة التى خرجت هائمه تحمل معها الأطفال الصغار والنساء خوفنا من العار والبلاء . وهذه الصورة المجسمة هى أجود ما فى قصيدة ابن رشيق على طولها ، ومعد ها ينتقل الى رثاء المسجد الجامع وهو من أبرز معالم القبروان :-

- والمسجد المعمور جامع عقبة * غرب المعاطن مظلم الأركان
- قفسر فما تغشاه بعد جماعة * لصلاة خمسلا ، ولا لأذان
- بيت به عبد الاله ومطلبت * بعد الغلو عبادة الأوثان
- بيت بوحي الله كان بناؤه * نعم البنا والمبتنى والبانى

(١) الارنان : الصراخ ، ورفع الصوت . الصحاغ (رن) .

ثم يبين قيمة مدينة القيروان بالنسبة للعالم الاسلامي كله من خلال
ذكر ما أصاب الأقطار من الأسف والنكد والتزعزع لأجلها :

- أعظم بظك مصيبة ماتجلى * حسراتها أو ينقض الملوان . (١)
- لو أن شهلانا أصيب بعشرها * لتدكدت منها ذرا شهلان . (٢)
- حزنت لها كور العراق بأسرها * وقرى الشام ومصر والخرسان .
- وتزعزعت لمصائبها وتكسدت * أسفا بلاد الهند والسندان .
- وعفا من الأقطار بعد خلائها * ما بين أندلس الى حلوان . (٣)
- وأرى النجوم طلعت غير زواهر * فو أفقهن وأظلم القمران .
- والأرض من وطه بها قد أصبحت * بعد القرار شديدة الميلان .

وفي ختام القصيدة للشاعر رجاء مشوب بكثير من التوجس بأن يرجع عهد
القيروان الزاهر ، وترجع اليها بشاقتها التي سلبتها الأيام الكاشحة .

- أترى الليالي بعد ما صنعت بنا * تقضى لنا بتواصل وتسدان ؟
- وتعيد أرض القيروان كعهدنا * فيما مضى من سالف الأزمان .
- من بعد ما سلمت نضائر حسننا الـ أيام واختلفت بها فثتان .
- وفدت كان لم تفن قط ولم تكن * حرما عزيز النصر غير مهان .
- أست وقد لعب الزمان بأهلها * وتقطعت بهم عرا الأقران .
- فتفرقوا أيدي سبا وتشتتوا * بعد اجتماعهم على الأوطان .

(١) الملوان : الليل والنهار / أساس البلاغه (طو) .

(٢) شهلان : جبل في اليمن ، يضرب به المثل في الثقل . / المصدر
نفسه (شهلان) .

(٣) حلوان : مدينة سهلية جبلية على سفح الجبل المطل على العراق .
/ الروض المعطار (حلوان) .

أما أسلوب القصيدة فتغلب عليه السهولة في الألفاظ والمعاني إلى درجة تقربه من النثر في كثير من المواضع ، والقصيدة تظهر ما يتمتع به صاعها من نفس طويلة ، وشاعرية فذة ، وقد ركز رثاءه ، وكأه على أهلها مطنبا فسو مدحهم ، ثم مهينا حالهم بعد أن فتك بهم الأعراب . أما المدينة ذاتها وما نالها من دمار فلم يفصله إلا ما كان من أمر المسجد الجامع الذي لُقِّبَ به سكون الموت بعد زهاب عماره . غير أنه أجاد في وصف وقع خرابها لا على بقاع العالم الإسلامي في المشرق والمغرب فحسب بل على النجوم التي لم تعد تزهر وتلمع ، وعلى القمرين اللذين انكسف ضياؤهما حزنا وغما ، أما الأرض - فهي مضطربة مائده . وهذا العطف الرومنسي من جانب الكواكب ، والطبيعية على تلك المدينة البائسة يدل على مدى الحزن العميق الذي شغف نفس الشاعر فجعله يتخيل مشاركة كل شيء له في آلامه التي لا نهاية لها .

(١)

ومن رثى القيروان - وأطال في ذلك - شاعرها ابن شرف القيرواني

(٢)

ان يقول في انزال أهل سوسه جالية القيروان :-

(٣)

-
- (١) هو أبو عبد الله محمد بن أبي سعيد بن شرف الجذافي القيرواني . شاعر رقيق ، وكاتب مترسل ، وناقد بارع . ولد بالقيروان سنة ٣٩٠ وتعلم فيها علوم المعقول والمنقول حتى برع . ألحقه الممزين باديس حاكم القيروان بديوانه وخاصة ثم رحل إلى الأندلس عند خراب القيروان حيث توفي بأشبيلية سنة ٤٦١ هـ وكانت بينه وبين ابن رشيق منافسة ومهاجاة . انظر : الخريدة : ق ٤ ، ج ٢ ص ١١٠ - ١١١ ، كرد على ، رسائل البلخا : ٣٠٢ ، المطرب : ٦٦ ، فوات الوفيات : ٢٠٤ / ٢ .
- (٢) مدينة قديمة على ساحل البحر ، كثيرة السكان والمساجد ، عامرة الأسواق وتشتهر بصناعة الثياب الرقيقة التي تنسب إليها . ويحيط بها سور حصين ، ومنها تحرك أسد بن الفرات لفزوصقيته / الروي المعطار (سوسه) .
- (٣) الذخيرة : ق ٤ ، ج ١ ، ص ٢٢٧ - ٢٢٩ .

- آه للقيروان أنة شجسو * عن فؤاد بجاحم الحزن يوصلو
- عين عادت به الديار قبورا * بل أقول الديار منهن أخلصو
- ثم لا شمعة سوى أنجم تغ * طوطلو أفقها نواص كسلسو
- بعد زهر الشماع توقد وقداء * ومقان الذبال تفتل فتسلا
- والوجوه الحسان أشرق منهن * وفضلنهن معلى وشكسلا
- لو رأيت الذين كان لهم سم * لك وعرا قد صيروا الوعر سهلا

يطلق ابن شرف زفراته الحزينه الممبزه عما في قلبه الممذب من الألم
المبرح نتيجة ما حل بأحابيه من البأس فهلك من هلك ، وتشرد الباكون فى
الأرض حتى عادت منازلهم منهم خلا ، هى أشبه بالمقابر التى يخيم عليها شبح
الموت المظلم . ثم ينتقل الى مشهد آخر يرسم صورة رحيل أهل البلاد عنها
فيقول :-

- بعد يوم كأنما حشر الخلس * ق حفاة به عوارى رجلسو
- ولهم زحمة هنا لك تحكسو * زحمة الحشر والصحائف تلسو
- وعجيب وضجة كعجيب الس * خلق بيكون والسراير تلسو
- من أيام وراهن يتامسو * ملثوا حسرة وشجوا وشكسلا
- وشكالى أراملا حامسات * طفلة تحمل الرضاع وطفلا
- وحصان كأنها الشمس حسنا * كفتتها الأطار نجلا كحلا
- بات كرسيتها الجلا فأضحت * فى ثياب الجلا للناس تجلسو
- جار فيهم زمانهم وأولسو الأ * رقفروا يرجون فى الأرض عدلا
- تركوا الريح والأثاك ومايشو * قل لا حامل من الناس ثقلا
- لبسوا الباليات من خشن الصو * ف وعاد النبيه فى الناس غفلا
- ناديات ، عفرا تسعد سعدي * وسعاد تجيب بالنوح جملا
- ليس منهن من يودع جارارا * لا ، ولا حرمة تشيع أهلا

انها صورة رهيبة قوامها الحس والحركة والتجسيم الملون لتفاصيل المشهد
الذى يشبهه الشاعر بمشهد الحشر يوم القيامة مستعينا بمعانى الآيات
القرآنية ، والأحاديث النبوية الواردة فى أهوال ذلك اليوم . فالقوم حفاة
عراة ، خرجوا من بلادهم هائمين على وجوههم ، قد غصت بهم الطرق
والمسالك ، وكانهم فى زحمة الحشر عند انتشار صف الأعمال ، وقد اختلط
ضجيجهم بالبكاء والنوح الضعيف من الثكالى واليتامى الذين مزقهم الحزن
وملأت قلوبهم الحسرة فلم يعودوا يهتدون سبيلا ، ومن المحصنات اللواتى
كشفن للعيان بعد الحجاب والستر .

ويلقى الشاعر تبعة ما حصل لهؤلاء الناس من الذل والهوان على الزمان
وعلى الحكام الظلمة الذين من جورهم هرب الناس من بلادهم رجاء أن يصيبوا
عدلا فى أرض أخرى . وفى سبيل ذلك تركوا العيش الرفيد لاختلاطه بالمرارة
والقهر ، ولبسوا البالى ، وسيطر عليهم الذهول ، فلا جاريودع جواره ،
ولا امرأة تعرف أهلها ، ولكن هل وصل هؤلاء المهاجرون الى بر الأمان الذى
ينشدونه ؟ كلا فلقد عرض لهم الأعراب ونهبوهم ، ومزقوهم كل ممزق ، والسوق
ذلك يشير قائلا :-

(١)

- فاذا القفر ضمهم فوق الدهـ * رلهم غير ذلك النيل نبالا .
- من شعابين حاطين نيموا * عصلا : نابل ونبالا ونصلا .
- وشياطين رامحين يلاقوا * ن بجون الفلا ساكين عزلا .
- فترى للظهور تعتل عتلا * وتشق البطون تفسل غسلا .
- فاذا مطامع أصابوه فى أحـ * شاء قوم عموا بذلك كـلا .

(١) الفوق : موضع الوتر من السهم ، وأفقت السهم ، أى وضعت فوقه

فى الوتر لأرمى به انظر الصحاح (فوق) .

ان ابن شرف قد تفاعل مع هذه الصور - التي يرسمها بمهارة - تفاعلا حيويا نتج عن تجربة صادقة مرّبها وهاشها فلقد كان بين المشردين الذين هجروا وطنهم (القيروان) واتجه الى الأندلس ، لذلك نراه يصدر عن عواطفه جياشه تلون شعره بالحزن والشحوب . فبعد أن عدت تلك الشعابيين والشياطين على المساكين العزّل ، وضروستهم بأنيابها وشقت بطونهم بحشا عن المغنم المخبأة فيها . بعد هذا يعود لبيّن حال من بقى حيا يتجرع غصص المذلة أينما اتجه فيقول :

- فإنا نجت المقادير منهم * راحلا بالخلاص يحمل رجلا .
- لقي الهون في المذلة أنسى * كان من سائر البلاد وحلا .
- ليس يلقى الا امرا مستطيلا * طالبا عنده حقوقا ورجلا .
- فترى أشرف البرية نفسا * ناكسا رأسه يلاطف نسلا .
- فهم كلما نبت بهم أرم * في مطايا الفراق خيلا ورجلا .
- مزقوا في البلاد شرقا وغربا * يسكبون الدموع هطلا وويلا .
- لا يلاق النسيب منهم نسيبا * يتعزى به ولا الخيل خيلا .
- لبيت شعري هل عودة لى في الضيق ب الى ما أطلال شجوى أم لا ؟

والشاعر هنا يتحدث عن مرارة الاغتراب التي ذاقها مع غيره من الناس ، فهو يشعر بالقلق الدائم والتوجس من الناس الذين لا يرى فيهم الا أعداء حاقدين يطلبون ثأرهم ، عند أوطئك الغربا ، ومن ثم اضطر الغربا ، أوطو الشرف والكرامة الى تطلق الأندال والتلطف اليهم في سبيل العيش معهم ، بحسد

(١) الذحل : الثأر . اللسان (نحل) .

أن تعزق شملهم شرقا وغربا . أما تبنى الشاعر في البيت الأخير فلم يتحقق
فقد ظل يتقاسم الأم الغربة حتى مات بعيدا عن وطنه .
(١)
وفي قصيدته الثانية يصف خلايا القيروان وأيحاشها فيقول :-

- كأن الديار الخاليات عرائس * كواسد قد أزرت بهن الضرائر .
- إذا أقبل الليل البهيم تكسنت * بها وحشة منها القلوب نوافر .
- ولا سرج إلا النجوم وربما * تغطت فسدت جانبيها الدياجر .
- ويحمد عمر الصوت فيها وربما * تجود مرارا بالكلام المقابسر .
- فلو نطقت ما كان أكثر نطقها * سوى قولها أين الخليل المعاشر .
- ألا منزل فيه أنيس مخالط * ألا منزل فيه أنيس مجاور .

لقد كانت نكبة القيروان عامة طامة ، فانطفت بخرابها وهدمها
مصابيح حضارتها الزاهرة وتغيرت صورتها المشرقة ففدت ألالا موحشة
تنفر منها القلوب لظلمتها ، وتتجاوب في نواحيها الأصداء وتصوي بها
الرياح حيث لا ساكن ولا أنيس . ولكن ياترى ما سبب هذا البلاء الذي حل
بهذه المدينة ؟ هذا ما يتساءل عنه الشاعر :

ترى سيئات القيروان تماظمت * فجلت عن الغفران والله فافر ؟

تراها أصيبت بالكبائر وحدها * ألم تك قدما في البلاد الكبائر ؟

هل كان سبب معنتها نهيبها الكثيرة التي لم يتجاوز عنها الله - سبحانه - ؟
ثم لماذا أصيبت وحدها بالمحن بالرغم من وقوع الكبائر والأوزار في غيرها من
البلدان الكثيرة ، ولعل هذا الاستفهام الذي خرج إلى التعجب من قدر
الله قادت إليه عاطفة الحزن الشديده التي لم يستطع الشاعر ضبطها ، والا ليس

(١) القصيده في الذخيره : ق ٤ ، ج ١ ، ص ٢٢٥ .

لأحد أن يعترض على حكم الله فالله الخلق والأمر يعذب من يشاء ، ويرحم من يشاء . ثم يعود الشاعر لوصف حال أهل القيروان وملا قوه من المشاق فوسرحيلهم على نحو ما فعل في القصيدة السابقة :-

• ترحل عنها قاطنوها فلا ترى * سوى سائر أو قاطن وهو سائر .
• تكشفت الأستار عنهم ورمما * أقيمت ستور د ونهم وستائر .
• اذا جاذبت أستارها تبتغى بها * لا قد امها سترا تبدت غدائر .
• تبيت على فرش الحصى وغلاؤها * د وارس أسمال زوار حقائير .
ثم يتمنى أن يعود الى مدينته التي قضى فيها ليالى السرور أيام اجتماع الشمل :

(١)

• فياليت شعر القيروان مواطنتى * أعائدة فيها الليالى القصائر ؟
• وباروحتى بالقيروان وكترتسى * أراجعة روحاتنا والهواكسر ؟
• كأن لم تكن أيامنا منك طلقة * وأوجه أيام السرور سوافسر .
• كأن لم يكن كل ولا كان بعضه * سينضى به عصر ويمضى المحاصر .
ويزداد الشوق عند ابن شرف لرؤية موطنه القيروان ، وتهيجه الذكريات

فيطلق آهاته من بعيد من وراء البحر ، ويود لو كان طائرا لكي يطيل التحليق في سماءها متأملا يقول :- (٢)

• ياقيروان وددت أنى طائر * فأراك رؤية باحث متأمل .
• آها وأية آهة تشفى حوى * طب بنيران الصباية مصطلى .
• أبدت مفاتيح الخطوب عجائبا * كانت كوامن تحت غيب مقفل .
• زعموا ابن آوى فيك يموى والصدى بذراك يصرخ كالحزين المشكل .

(١) هكذا جاء البيت في المصدر السابق ص ٢٣٥ ولعل الصواب : فيالبيت

شعري

(٢) المصدر السابق : ١٨١ - ١٨٢ ، ص ٢٣٣ .

ان الشاعر مهما بعد وطالت غربته ، ومهما لقي من الاحسان والتقدير فانه لن ينسى وطنه الأول يقول :

- يالوشهدت ، ان رأيتك في الكرى * كيف ارتجاع صباى بعد تكهمل .
- لاكرة الاحسان تنسى حسرة * هيها تذهب طة بتمسك .
- واذا تجدد لي أخ ومنسادم * جددت ذكر اخاء خل أول .

انه دائم الذكر لها والتشوق اليها ، فلما أسعده الحظ مرة برؤيتها في المنام شعر بانتعاش وقوه وكأنه رجع الى طور الشباب بعد أن اكتمل ، وهى صورة جميلة لمدى التعلق بالوطن الذى انغرس حبه في نفس الشاعر فمهما وجد من الخير والتكريم خارج هذا الوطن الغابر فان ذلك لا يعسده وكونه تعلقه وتسلية . أماكوا من الأحزان والحسرات فلم تبرح قلبه ، واذا ما اتخذ خلا جديدا في غربته فان ذلك يذكره باخوانه السابقين فهو بذلك يعيش في الحاضر مستلهما ذكريات الماضي التي لا تنمحى .

وفي قصيدة أخرى يكرر الشاعر نفس الصورة وهى رؤية القيروان في الكرى ومدى سعادته في تلك اللحظة القصيره التي أورثته حزنا طويلا ان حرم من رؤيتها حقيقة بسبب أولئك الأعراب الذين تملكوها يقول :- (١)

- اذا كان للأحباب رسل فرسلنا * بروق الى أحبنا ورياح .
- ومن دون تلك الرسل أخضر زاخر * أحاج ومهجور الفجاج فياح .
- وللسهم دون القيروان تسهم * وماشوكه الا ظبي ورماح .
- وقرة قد قرت هناك ميونهم * وزغبة ريشت زغبها ورياح .

(١) الذخيره : ق ٤ ، ج ١ ، ص ١٨٤ ، ص ٢٢٦ .

(٢) قوه وزغبه ورياح هي قبائل الأعراب التي تولت خراب القيروان .

- كان لم يكن لى أمس فى عرضاتها * من العيش جد طيب ومسزاح
- يخيلها زور الكرى لى فى الدجى * فأرغب فى ألا يلو صبح
- كسيت قناع الشيب قبل أوائله * وجسوى طيه للشباب وشاح

ان الشاعر هنا يستشعر الفرية والبعد المكانى بينه وبين أحبائه من أهل القىروان حيث بينهما البحار والقفار ، لذا فهو يزوج تحياته لهم فى طيات الرياح ولمعان البروق . كما أنه لا ينسى البعد النفسى الذى يمنحه مسن الرجوع الى بلده ، وهو أولئك الأعراب الذين زرعوا أرض القىروان شووكا وخناجر ودماء .

وبعد فمن جطة هذه القصائد الرثائية يتضح لنا أسلوب الشاعر الذى تميز بالوضوح ودقة التصوير مع البعد عن التكلف ، فقد جاء رثاؤه نابها من قرارة نفسه ووجدانه ، ولعب احساسه الواقعى بالمأساة دورا بارزا فى جيشان عاطفته والهبابها فترجم ذلك الحزن والألم الى صور شعرية نابضة بالحركة تتحلل بالخيال أحيانا . ولعله فى هذا الجانب فاق زميله ومعاصره ابن رشيق القىروانى فى رثائه المتقدم . ومن ناحية أخرى فان شعر ابن شرف فى رثاء القىروان قد خلا تماما من الألفاظ والمعانى الحماسية ومسنة الاستصراخ وطلب النجدة لانقاذ البلاد . فقد كان تغاطفه مع النكبة ذاتيا فى حدود نفسه فتفنن فى استعمال معجم ألفاظ الحزن ، فنجد التساؤله والزفرات الحاره ، والعسرات المؤلمه ، والقلب الذى اصطلق بنار الشوق والبعد الخ . ولعل الشاعر سلك هذا السبيل لأنه لم يجد مسنة يستنصره ، فقد كان يعيش فى الأندلس فى عصر طوك الطوائف حيث الفوضى والصراع العوانلى بينهم ، والخارجى مع النصارى طى أشده وكانوا جميعا أضعف من أن تمد اليهم الأيدى ، أو يرجو منهم خير . والخلافة العباسية قد

دب فيها الضعف بلاضافة الى بعد الشقة ، ووقوف الدولة الفاطمية فسوى
مصر حائلا بينها وبين القيروان .

(٢)

(١)

- ولأبى الحسن الحصرى قصيدة فى رثاء القيروان وأهلها يقول فيها :-
- موت الكرام حياة فى مواطنهم * فان هم اغتربوا ماتوا وماتوا
 - يا أهل ودى لا والله ما انتكثت * عندى عهد ولا ضاقت مودات
 - لئن بعدتم وحال البحر ونكم * لبين أرواحنا فى النوم زورات
 - ما نمت الا لى أنقى خيالكم * وأين من نازح الأوطان نومات ؟
 - اذا اعتلنا تعللنا بذكركم * لو أحسنت برءلات تعملات
 - ماذا على الريح لو أهدت تحيتها اليكم مثل ما تهدى التحيات ؟

يفتتح الحصرى قصيدته بهذا المطلع الذى يحوى حكمة من مارس تجربة
الاغتراب المريرة وناله فيها ما ناله من الضيم والأذى ، فقد كان أحد الذين
هاجروا عند خراب القيروان الى المنرب ثم الى الأندلس حيث جال فى عدد
كبير من نواحيها يمتدح ويتكسب . لذا نراه يعتبر الموت الكرم فى الوطن
خيلا من الضربة التى تضيع فيها الهوية وينسى ذوى الفضل . ونراه - أيضا -
يؤكد على صدق مودته لأهل بلده مهما طال الزمان وبعدت الشقة ، فهو
لا ينام الا لى يلقى خيال الأحياء فى المنام وتمتج الأرواح فيشفى ذلك ما به
من العلل . والملاحظ على هذه الأبيات أنها تحمل نفس الأفكار والمعانى التى

-
- (١) هو على بن عبد الغنى الفهرى الضرير المعروف بالحصرى . شاعر
أديب ، وخيم الشعر ، حديد الهجو ، كان عالما بالقراءات . رحل الى
الأندلس عند خراب القيروان فطلق حظوة عند ملوك الطوائف ولما زالوا
استقر بطنجة ومات فيها سنة ٤٨٨ هـ وهو ابن خاله أبى اسحاق الحصرى
صاحب " زهر الآداب " / انظر ترجمته : الوفيات : ٣ / ٣٣١ ، الحلقة
السيرا : ٥٤ / ٢ ، جذوة المقتبس : ٣١٤ .
- (٢) الذخيرة : ق ٤ ، ج ١ ص ٢٧٧ .

جاءت في شعر ابن شرف السابق ذكره بل ان الأمر قد يصل الى الألفاظ .
لم يقل ابن شرف " هيبات تذهب علة بتعلل " وقال العصري " لو أحسنت
بسر* علات تعلات " ومثل هذا كثير عند تأمله . فكلاهما بيعت تحياته مع الرياح
وكلاهما يرى أطياف الأهبه في الكرى وما الى ذلك . ولعل كونها متعاصرين
والشعر قيل في موضوع واحد هو الذي جعل الحافر يقح طي الحافر ، أو ربما
هو التأثير والتأثير في موقف معين .

ثم يبكي الشاعر أسفا عندما تهيج أشجانه ذكرياته الماضيه في القيروان :-

- أصبحت في غربتي لولا مكاتمتي * بكنى الأرض فيها والسموات .
- كأنني لم أذق بالقيروان جسنى * ولم أقل لها لأحباني ولا هاتوا .
- أبعد أيامنا البيض التي سلفت * تروقني غدوات أو عشيات . ؟
- أمر بالبحر مرتاحا الى بلاد * تموت نفس وفيها منه حاجات .
- وأسأل السفن عن أخباره طمعا * وأنثى وقلبي منه لومعات .
- هل من رسالة حب أستعين بها * على سقامي فقد تشفى الرسائل ؟

ان الشاعر يعيش في قلق دائم ، ومؤس مستمر فلم تعد تروقه لذائد العيش
بعد أن ولت أيامه الجميله في بلده الأول ، وانما همه الآن أن يسمع شيئا
من أخبار القيروان ، فهو يناشد السفن القادمه من تلك الديار لعلها تحمل
اليه ما يشفى فؤاده السقيم الممذب . ثم ينتقل بعد ذلك الى وصف مدينته
الخربه - أيام عزها ، فيجعلها جنة ترابها المسك ، وحصاها الجوهر ، ويشبهها
بالشمس التي لا يخفى نورها على أحد ومع ذلك يصيبها الكسوف في بعض الأوقات :-
ألا سقى الله أرض القيروان حيا * كأنه عبراتى المستهلالات . (١)

(١) الحيا : المطر الذي يحيى الأرض ويخصبها . الصحاح : (حيا) .

- فانها لدة الجنات تربتها * مسكيه وحصاها جوهريات
- الا تكن في رباها روضة أنف ^(١) * فانما أوجه الأ حباب روضات
- أولا يكن نهر عذب يسيل بها * فان أنهارها أيد كريمات
- أرض أريضة أقطار ماركنة * لله فيها براهين وآيات ^(٢)
- لا يشمتن بها الأعداء ان رزئت * ان الكسوف له في الشمس أوقات
- ولم يزل قابض الدنيا واسطها * فيما يشاء له محو وآيات

وفي ختام القصيدة نرى الحصري الغريب وقد تجسمت مأساته فأصبح ليله

زفريات وأنات ونهاره حسرات يقول :-

- ما ان سجا الليل الا زادني شجنا * فأتبعت زفريات فيه أنسات
- ولا تنفست أنفا في الرياض ضحى * الا بدت حسراتي المستنكات
- هذا ولم تخرج قلبى للرباب ريس * ولا تقفثته من لبنى لبانسات
- وكم دعيت لهستان فجدد لسي * وجدا وان كان في معناه سلوات
- ولو تراني اذا غنت بلابلسه * أشكو البابل لو تخفى الشكيات ^(٣)
- اني لأظما والأ نهار جاريفة * حولي وأضحى ودون الشمس دوحات
- ما أرى الموت الا باسطا يسده * من قبل أن يمكن المأسور افلات

(١) الروض الأنف : الذي لم يره أحد . المصدر نفسه (أنف) .
(٢) أرض أريضة : زكيه . اللسان (أرض) .
(٣) أضحى : أبرز للشمس . الصحاح (ضحى) .

ان حب القيروان قد سكن قلب الشاعر ، فهو لا يتكلم الا عنه ، وكلمها
رأى منظرا جميلا فان وجدته يثور أو يضطرم صبابة اذا ماسمع فناً بلاهبل المسدح
فيذهب لبيثها ما يجد ، فلا تسمع شكايته حتى ضاقت به السبل واضطرب حاله

وتأكد لديه أن الموت سيدركه قبل أن يعود الى وطنه ويروى ظمأه .
(١) (٢)

وهناك نفس مرثية القيروان لعبد الكريم بن فضال القيرواني منها :-

- ليت شمري وليت حرف تمسن * ربما علل الفؤاد السقيما .
- كيف يا قيروان حالك لـمـا * نثر البين سلكك المنظوما .
- كنت أم البلاد شرقاً وغرباً * فمحا الدهر وشيك المرقوما .
- نحن أبناءؤها ولكن عققنا * بعد ان لم نطق بها أن نقيما .
- دمن كانت البروج وكنا * أقمرنا في فنائها ونجوما .

وله أيضا :- (٣)

- لله منزلنا بالقيروان محـمـا * آياتها البين لا الأيام والقدم .
- شققت ثوب شبابي بعد فرقها * حزنا عليها ولا شيب ولا همم .

(١) هو أبو الحسن عبد الكريم بن فضال القيرواني . كان يعرف بالحلواني .

قال فيه ابن بسام : له كلام في النسب رائق ، ومتأخر سابق ، ومدحيه

أيضا عليه طلاوة ، والجملة ففي ألفاظ الحلواني حلاوه .

انظر / الذخيرة : ق ٤ ، ج ١ ، ص ٢٨٤ ، المطرب : ٥٩ .

(٢) الدباغ : معالم الايمان في معرفة أهل القيروان : ١٤ / ١ .

(٣) المصدر نفسه : ١٣ .

ان الحزن والانكسار هو أبرز ما يخلف هذه الأبيات فالشاعر يستفتح سؤاله عن القيروان بالتمنى المشرب باليأس ، لأنه على علم بحالها المتردى بمسند أن كانت أم البلاد شرقا وغربا . ثم نراه يضيف أبناها بالمعقوق لأنهم تمتصوا بخيراتها أيام الرخاء فلما جاءت الشدائد ودهمتها الخطوب فرّوا منها وتركوها تواجه مصيرها بممزل عنهم ، والأبيات تنم عن عاطفة شفافة صادقة تجلت عند الشاعر بشكل حزن عميق أخلق منه شبابه وهو لا يزال بعيدا عن سن الشيخوخة والمهرم .

وبعد فهذا الوفاء من شعراء القيروان لمدينتهم جعلها تحظى بهذا العدد الوافر من قصائد الرثاء التي ربما لم تحظ به غيرها من المدن والمدن والحدود على مر عصور الأدب العربي . وربما كان لهذا الأمر دلالة أخرى وهي قوة الحركة الأدبية والازدهار الثقافي في القيروان قبيل نكبتها .
(١)
رثاء مراكن :-

عندما تولى يوسف بن تاشفين زمام الأمور في الدولة المرابطية صرف همه إلى الجهاد في سبيل الله وفتح نواحي المغرب ونشر الإسلام بين قبائل البربر فأعد لذلك جيوشا ضخمة ، قاد بعضها بنفسه ، ولم تضي بضعة أشهر حتى سيطر على معظم نواحي المغرب الجنوبية والوسطى وعاد إلى عاصمته أغمات وقد عظم أمره وذاع صيته ، وفكر عندئذ في إقامة مدينة تكون قاعدتها

-
- (١) أكبر مدن المغرب الأقصى ، تقع في سهل من الأرض ليس حولها إلا جبل صغير يسمى ايجليز ، وعلى ثلاثة أميال منها نهر صغير يسمى تانسيفت ، وهي كثيرة البساتين والجنات ، وذات أسواق تجاربه ضخمة / السروحي المظار (مراكن) .
- (٢) مدينة بأرض المغرب بينها وبين مراكن ثلاثون ميلا ، سكانها من البربر ، وأغمات مدينتان أحدهما تسمى أغمات وريكة والأخرى أغمات هيلانه ، فسى الأوى تسكن الأعيان وتنزل التجار ، وتخترقها المياه يمينا وشمالا مما ساعد في خصوبتها وكثرة زراعتها . وأغمات هيلانه يسكن اليهود لمنع المرابطين إياهم من دخول مراكن / المصدر نفسه (أغمات) .

(١)

لجبهوشه ومركزا لادارة حكمه فاختر سنة أربع وخمسين وأربعمائة مدينة مراکش
وأقيمت فيها المساجد والقصور والأبنية وأصبحت هي عاصمة الدولة المرابطية
وقد سُمِّيها علي بن يوسف الذي تولى الحكم بعد أبيه ، ونى سورها
العظيم سنة ست وعشرين وخمسمائة ورحل اليها العلماء والفقهاء حتى
ازد ان بلاط علي بن يوسف بعدد وافر منهم وتقيت كذلك الى أن سقط حكم
المرابطين ودخلها الموحدون سنة احدى وأربعين وخمسمائة واتخذوها
عاصمة لهم - أيضا - واهتموا بشأنها واصلاحها اهتماما كبيرا جعلها تفسد و
درة مدن المغرب ، وأعظم قاعدة لدولة مترامية الأطراف . ثم أقام بنو مرين
دولة في فاس ، واستغلوا مرحلة الضعف التي تمر بها الدولة الموحدية
فجهز أبو يوسف المريني جيشا قويا وسار به الى مراکش والتقى بجيش الموحدين
فهمزه هزيمة مؤلمة ، وقبض على آخر الخلفاء الموحدين وهو المعروف بأبوس
ديوس واحتز رأسه وعلقه على سور مدينة فاس ، ودخل مراکش سنة ثمان
وستين وستمائه واستقبله أهلها وابعوه بالطاعة فأمنهم ، وطمانهم ومكث
فيها بضعة أشهر رجع بعدها الى حاضرتة فاس ، وطى أثر ذلك بدأت أهمية
مراكش تقل شيئا فشيئا وأهمل المرينيون أمرها ، فسرى اليها الخراب ،

(١) ابن أبي زرع : روض القرطاس : ٨٩ .

(٢) الكامل في التاريخ : ٢٩٩/٨ .

(٣) عنان : عصر المرابطين والموحدين : ٥٧٠/٢ .

(١)

وغزاها الدمار ، فقد دخل اليها ابن الخطيب في هذا العهد واعتبر بما

(٢)

صارت اليه من الاهمال فقال يرثيها :-

- بلد قد غزاها صرف الليالى * وأباح الحريم منه صبيح
- فالذي خرّ من بناءه قتييل * والذي خرّ منه بعض جريح
- وكان الذي يزور طبييب * قد تأتي له به التشريح
- أعجمت منه أربع وطليل * صال قدما بها اللسان الفصيح
- كم معان غبت بتلك المعانى * وجمال أخفاه ذاك الضريح
- وطوك تعبدوا الدهر حستي * أصبح الدهر وهو عهد صريح
- ودخوا نازح البسيطة حستي * نال ماشاء ذابيل وصفيح
- حين شبت لهم من اليأس نار * ثم هبت لهم من النصر ريح
- أثر يندب المؤثر لسا * طال يمد الدنوضه النزوح
- فقلوب النجوم تحفق وجسدا * وحيون السحاب حزنا تفوح
- ساكن الدار روحها كيف يبقى * جسد بعدما تولى الروح

(١) هو ذو الوزارتين ، محمد بن عبد الله بن سعيد السلماني ، الغرناطي الأندلسي ، والمشهور بلسان الدين بن الخطيب . ولد بقرناطيه سنة ٧١٣ هـ ونشأ بها ، وهو وزير وشاعر وأديب لاجاري . تولى الوزارة لأبي الحجاج سلطان غرناطه ثم لابنه الفنى بالله حتى ثار عليه أخوه سنة ٧٦٠ هـ وفر ابن الخطيب الى المغرب وحدثت بعد ذلك أمور بطول ذكرها أرجع بعدها ابن الخطيب الى غرناطه ، واتهم بالزندقة ، وأفتى بعض حساده من العلماء بقتله فسد عليه في السجن من خنقه سنة ٧٧٦ هـ ودفن بفاس . وقد خلف لنا من الآثار ما يقرب من ستين كتابا .

انظر : الاحاطه في اخبار غرناطه : ١٨/١ - ٢٥ ، عنان ، لسان الدين ابن الخطيب : ص ١٠ وما بعدها ، جذوة الاقياس : ١٨٤/٢ ، الدرر الكامنه : ٤٦٤/٣ .

(٢) لسان الدين بن الخطيب ، ديوان الصيب والجهام : ٣٧٦ . وانظر

نفاضة الجراب في علالة الاغتراب : ٣٨٠/٢ .

ان حال مراكن جدير بالتأمل وأخذ العبرة ، فقد كانت هذه المدينة
قصة منيعة لأكثر دلتين عرفهما المضرب الاسلام عبر تاريخه ، وكانت قلعة
أنظار المهاجرين ومأوى اللاجئين تزهو برونق الملك ، وتختال في أشواق
العز المنشورة فوق بلاط المرابطين ومن بعدهم الموحدين . ولكن هذه
الدنيا لا يبقى فيها شيء على حاله ، وصروف الليالي كهيئة بتحطيم أمنع الأشياء
فالشاعر يقف بمراكن وسط أكوام من البناء المتهدم والمتصدع وكأنه بين قتييل
وجريح . وقد لف تلك الأطلال صمت رهيب بعد أن كانت مرتعا خصبا
يجول به العلماء والأدباء ، ثم يرجع الشاعر بذكراته الى الوراء قليلا ليتذكر
الطوك العظام الذين كانوا بهذه البلاد ، والذين خضعت لصلواتهم الممالك
والدول ، وان التاريخ ليسطر بحروف من نور جهاد المرابطين والموحدين
ودفاعهم المجيد عن الأندلس الاسلاميه ضد ممالك الأسبان الصليبيه وسن
ورائها أوروبا قاطبه . ثم ذهب هؤلاء الطوك ، وطواهم الردى وثقلتهم مراكن
فهي تندبهم بخفقان نجومها وتبكيهم بما سحابها ، فهم روحها وحياتها
حيث أصبحت بعد زهاب هذه الروح جسدا مهمل متداعيا .

ومن الجدير بالذكر أننا لا نجد شعرا في رثاء دولة المرابطين أو الموحدين
على سمة بلاطهم وكثرة شعرائهم وانما هناك شعرا في رثاء بعض الحكام والخلفاء
وتخليد مآثرهم . ولعل ذلك راجع لأمر سياسي تكمن في العدا بين الدولة
الجديده والدولة الفاربه ، وحرص الأوطى على طمس أي فضيلة أو ذكر للثانيه .

الفصل الثاني : شعر الاستغاثه والحث على الجهاد .

يمكننا القول ان هذا اللون من الشعر أندلسي الطابع والصفه ،
اننا لانجد منه في شعر المشرق الا خيوطا ضئيله من أهميتها تلك
الآبيات التي أنشدها رسول صلاح الدين الأيوبي شمس الدين بن منقذ
بين يدي الخليفة الموحدى يعقوب المنصور يستجذب بها الصليبيين سنة
(١)
سبع وثمانين وخمسائة ، وفيها يقول :-

- سأشكر بحرا اذا عباب قطعته * الى بحر جود مالأخراه ساحل .
- الى معدن التقوى الى كعبة الندى الى من سمت بالذکر منه الأواهل .
- اليك أمير المؤمنين ولم تنزل * الى بابك المأمول تزجى الرواحل .
- قطعت اليك البر والبحر موقفا * بأن نذاك الفخر بالنجح كاقبل .
- وحزت بقصدك العلا فبلغتها * وأدنى عطايك العلا والفواضل .
- فلا زلت للعليا والجود بانيسا * تبلغك الآمال ما أنت آمل .

والآبيات - كما يلاحظ - تخلو من ذكر الغرض الرئيس الذي تهدف اليه
وهو طلب النجدة والغوث ، فقائلها جعلها قصيدة مدح خالصة للخليفة
الموحدى الذى ينعمه بأمر المؤمنين ومحط الأنظار وكعبة الآمال المتصوف
بالتقوى مع طيب نسبه وأرومته . وانما سلك الشاعر سبيل المدح ليشعر المدوح
بقيمته وقدرته على الاغاثه مبهداً بذلك لتسليمه رسالة السلطان صلاح الدين
المتضمنه شرح الحالة ، وموضوع الطلب وما جاء فيها " ولما كانت
حضرة سلطان الاسلام ، وقائد المجاهدين الى دار السلام أولى من توجهه

(١) نفتح الطيب : ٤٤٥ / ١ .

(٢) الرسالة فى الرضتين : ١٧١ / ٢ - ١٧٢ .

اليه الاسلام بشكواه وشبهه ، واستعان به على حماية نسله وحرثه وكانت مساعيه
ومساعى سلفه في الجهاد الفخر المحجلة ، الكاشفة لكل معضلة ، وكسبل
بجهاده قد سكن الا السيوف في أعقادها ، وقد أمن الا كلمة الكفر فسوى
بلا دها صرخنا اليه بهذا الاستدعاء فقد تحفل السمحاب ولا تطمر
الى أن تحركها أيدي الرياح . وقد لقيت الرسالة قبولا من الخليفة المنصور
ولكنه كان في شغل شاغل عن تلبية النداء ان كان يعد حطة قهوة لدهر
الصليبيين في الغرب الاسلامي ، الذين اشتدت وطأتهم على الأندلس ،
واجتمعوا عليها من مختلف جهات أوروبا حتى كان يصفها ذلك الخليفة
بالبيضة وأهلها بالأيتام . ^(١) وعندما أنط المنصور استعداداته جاز الى الأندلس
والتحم مع النصارى في معركة " الأرك " المشهورة التي ذكرناها في الفصل
السابق ، والتي أمدت في عمر الأندلس وعمر دولة الموحدين ما يقرب من قرنين
من الزمان .

أما في الأندلس فقد ترعرع هذا الفن ، وأصبح من الأغراض الشعرية
الثابتة التي فجرت ينابيعه النكبات المتلاحقة بدءا بسقوط الخلافة الأموية
والى آخر عهد الأندلس الاسلامي ، فالمعارك الخارجية والفتن الداخلية
ظلت مستمرة الأوار طيلة هذه الفترة الطويلة ، وقد كانت صهفة حرب النصارى
للاسلام تتخذ السمة الدينية الكنسية للقضاء عليه ، ومحو آثاره الساطعة من
جزيرة الأندلس ، فكان يجتمع على حرب المسلمين كل من اعتر بالصليب ، وآمن
بالنصرانية . وتجاه هذا الخطر الداهم كان لابد لمسلمي الأندلس أن تمتد
أيديهم لطلب العون والاستغاثة من اخوان العقيدة في المغرب وافريقيا
وفيرهما . وكان الشعر هو الرسول الفصيح الذي ينطلق بسرعة عبر الأسوار

(١) أشباح ، تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين : ١٦٢/٢ .

والحصار ، وفوق البحار لهشحن نفوس المستنكفات بهم حماسة واقدامها ،
وحشهم على انقاذ قواعد الاسلام التي وهت بسبب تكالب الكفار طيها .
بالاضافة الى المدح واثارة النخوة التي هي من خصائص هذا الشعر . ففى
عهد الطوائف بالاندلس شعر النصارى بخطورة موقع جزيرة ميورقه ، حيث
كانت الاساطيل الاسلاميه تخرج منها وتغير على الشواطىء الايطاليه ،
فعقد الطليان حلفا مع أمير برشلونة (رامون برنجير الثالث) سنة ثمان
وخصمائه على غزو ميورقه ، شارك البابا هذا الحلف ، فخرج فى تلك السنة
من المياه الايطاليه أسطول كبير يحوى ثلاثمائة سفينه بالاضافة الى وحدات
بحريه أخرى من برشلونة وفرنسا ، ولما علم بذلك أمير الجزيرة (مهشرين سليمان)
سعى فى طلب الصلح فلم تفلح مساعيه ، عندئذ أخذ فى تحصين ميورقه
واستعد للقتال حتى النهايه ، وأقبل الأسطول النصارى وحاصر المنطقه
بالات الحصار الضخمه ، وقاسى المسلمون الجوع والألم ، ومات منهم الكثير
وعلى رأسهم الأمير مهشر ، فاقحم النصارى الأسوار ودخلوا المدينة فعاشوا
فيها وخربوها ، وأضرموا فيها النيران وفى هذه الأثناء انطلقت أصوات
الاستغاثة نحو أمير المسلمين على . بن يوسف بن تاشفين أمير المرابطيين
فى مراكن . الذى اهتز للمصاب وأدرك الخطورة المترقبه على سقوط الجزيرة

-
- (١) جزيرة فى البحر الأبيض المتوسط ، وهى عاصمة جزر الأندلس الشرقيه
المعروفة بجزائر البليار ، وتقع بين بجاية من الجنوب وبرشلونه من
الشمال ، وقد فتحها المسلمون سنة ٢٦٠ هـ وقيمت الى سنة ٦٢٧ هـ
حيث طكها النصارى / انظر الروض المعطار (ميورقه) .
(٢) صان ، صر الطوائف والمرابطيين : ٢١١ .
(٣) ابن أبى زرع ، روض القرطاس : ١٠٥ .

فجهز على الفرس أسطولا ضخما ، وهاجم الجزيرة ففرّ النصارى بماغنمته
وتركوا الجزيرة أطلالا فدخلها المرابطون سنة تسع وخمسمائة وشرعوا فى
تعميرها ، ووضعوا عليها حاكما مرابطيا يتبع دولتهم . ومن أشهر الأصوات
المستغيثة صوت الفقيه الحافظ ابن عطية^(١) الذى أرسل بقصيدة يتكلم
(٢)
فيها :-

- ونحو أمير المسلمين تطامحت * نواظر آمال وأيدى رضائب .
- من الناس تستدعى حفيظة عدله * لصدمة جور فى ميروق ناصب .
- مقيم فان لم يرغم السعد أنفه * ألم فوافى جانباً بعد جانب .
- لقتل وسبى واصطلام شريفة * لقد عظمت فى القوم سوء المصائب .

(٣)

ان صاحب الأبيات يحاول أن يستثير همة أمير المسلمين ويحثه على
الحماس والجهاد عن طريق وصف الحادثة المرعبة التى ألمت بالجزيرة ،
والتي سيعم غطرها ، ويمتد شرها اذا لم يبادر أمير المسلمين الى كبح
جماعها فهو القادر على ذلك ، واليه توجهت الأنظار .
ثم يأخذ فى مدحه بصفات الشجاعة والكرم والنجدة فيقول :-

(١) هو أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية المحاربى . من أهل فرناطة .
ولد سنة ٤٨١ هـ ، وهو أحد القضاة والفقهاء المشهورين بالأندلس ،
وكانت له اليد الطولى فى اللغة والأدب والشعر ، وكان مجاهدا
يكثر الغزوفى جيوش المرابطين حتى توفى سنة ٥٤٦ هـ . / انظر
فهرس ابن عطية : ٧ ، فهرس الفهارس : ٨٦٢ ، ابن الأثير ،
معجم الصرفي : ٢٦٩ .

(٢) الفتح بن خاقان ، قلائد العقيان : ٢٤٥ .

(٣) كان المرابطون يتسمون بأمر المسلمين تواضعا عن مقام أمير المؤمنين
الخليفة العباسى القرشي .

لنا الله والملك الذي ترتجى به * من الزمن المذنب رجعة تائب .
هو الفؤث فاعطفه طينا بنظارة * من الحزم تحثوفى وجوه النوائيب .
أليس الذى لم ينجب الدهر مثله * أغرّ صباح الدين صدق المضارب .
عهدناه يقوى الضيف قبل نزولـه * وهلبس وقت السلم درع الحسارب .
وهفزو فلا شئ يقوم لعزمـه * ولو أنه يرضى به فو الكـواكب .
فلا زال جيش النصر يقدم جيشـه * وتلقاه بالبشرى وجوه العواقب .
والقصيدة تمتاز بحرارة العاطفه ، وصدق الشاعر التى انهضت من
حادث مفرع وقع أمام عين الشاعر لذا نراه يلجّ فى طلب الفؤث ، وهبالـغ
فى المدح لهزّ أريحية الأمير الذى كان فعلا من المجاهدين وأولـى
الحزم ، فكان منه ماسبق الحديث عنه .

والملاحظ أن الشعر الذى استصخ به المرابطون قليل جدا بالنظر
الى كثرة غزواتهم وجهادهم الطويل فى الأندلس . فلا نكاد نجد الا هذه
القصيدة ، وبعض الأبيات المتفرقة ولعل سبب ذلك هو عدم تذوقهم للشعر
بلغته العربية الأصلية لكونهم من البربر .

بالإضافة الى ميلهم للعلماء والفقهاء - خاصة - أكثر من الشعراء ، فكان
طلاب نجدتهم - فى الغالب - من أهل الفقه والقضاء . وفى القصيدة
التى بين أيدينا دليل على ذلك .

وفى نهاية القرن الخامس الهجرى اشتدت وطأة النورمان على جزيرة صقلية
- كما تقدم - وأخذوا يتوفلون فى أطرافها ويتطمون نواحيها الواحدة تلو
الأخرى . ففر الشاعر الصقلى ابن حمديس الى الأندلس وهناك اتصل
بالمحمّد بن عباد كبير ملوك الطوائف فيها حوالى سنة احدى وسبعمـين
(١)

وأرخصائه طالبا نجدته ، وصحرا همته لانقاذ الوطن الصقلى المهتدد
ويهدو أنه لم يجد عنده بنفسته فتركه الى غيره من حكام الأندلس فلم يكن
منهم شئ يذكر فأخذ عندئذ يرسل الصرخات الحماسيه الى بنى وطنه فسق
صقلية ، ويدفعهم الى الصمود والمقاومه حتى النهايه فيقول :-
(١)

- بنى الثغر لستم فى الوفى من بنى أوى * اذا لم أصل بالعرب منكم طوى العجم
- دعوا النومانى خائف أن تدوسكم * دواه وأنتم فى الأمانى مع الحليم
- وكأس بأم الموت يسمو مدبرها * الى أهل كأس حنبا باهنة الكرم
- فردوا وجوه الخيل نحو كرهية * مصرحة فى الروم بالثكل واليستم
- تهيل من النقع المخلق بالضحى * على الشمس ماهالته ليلا طوى النجم
(٢)
- وصلوا ببهنى فى العجاج كأنها * بروق بضرب الهام محمرة السجم
(٣)
- ولا عدمت فى سلها من غمودها * ظهورا فقد تخفى الجداول بالرجم
(٤)
- وقرع الحسام الرأس من كل كافر * أحب الى سمى من النقر فى السجم
- وطله منكم كل ماغى كفضيه * يسيل الى التهجا متقد الصمزم
- يحدث بالاقدام نفسا كأنها * يطير الى الحرب امتياقا عن السلم
- وسطلو بمحجوب الطيات اذا بدا * جلا ماجلا الا صباح من ظلمة الظلم
- له دخلة فى الجسم تخرج نفسه * قبيل خروج الحد منه عن الجسم
- وما يفتدى منه بلحيم ولا دم * ولكن بما فى العظم بالنورى للمظلم
- له عين ضرقام هصور ، فقلبيه * بتصريف فعل الجهل منه طوى طلم

(١) ديوان ابن حمديس : ٤١٦ .

(٢) السجم : سيلان الدماء أو الدمع . اللسان (سجم) ، والمقصود هنا
اصطباغ السيوف بالدم .

(٣) الرجم : الحجارة الضخام المجتمعه . اللسان (رجم) .

(٤) الجم : الوتر الفليظ من أوتار المزهر . / الصباح (جم) .

ان الشاعر يصرخ في صدق محذرا من الخطر الزاحف من أورها طمس
صقلية والشاطي* الاسلام وهو ينتهج الأسلوب الخطابى العباسى المتعصب
وكانه واقف في أتون المعركة ، فيحذر من الغفلة واللهو ، ويدعو الى
الجهاد والاقدام بطريقة فنيمة تصويرية تستفز الهمم الفاتره وتبعث
العزيمة في قلوب الجبنا* وذلك عندما يصور سطوة بنى قومه في الحرب وقسده
فطن عجاج خيولهم قرن الشمس الساطعه وأيديهم سيوف كالشهب اللامعه
وسط ذلك الظلام اذا صبت طي الأعداء* ازهقت نفوسهم طي عجل فلا يقسى
منها شئ* لضائها وشدّة بأس حاطيها .

والأبيات تشف عن قوة شكيمة الشاعر ، وصدق عاطفته التي تظهر مسن
خلال مشاركته الوجدانية لقومه عندما يتلذذ بذكر الحرب المستعصمه ،
والسيوف المرففه التي تطيح برؤوس الكفار ويعتبر ذلك نشوة تفوق سماع
الأوتار والمعازف .

ثم ينتقل الشاعر الى فكرة التمسك بالوطن والتحذير من الهجرة والاعتراب

القائل :-

- ولله أرض ان عدتم هواه* فاهواؤكم في الأرض منشورة النظم .
- وعزكم يفضى الى الذل والنسوى* من البين ترص الشمل منكم بما ترمى .
- فان بلاد الناس ليست بلادكم* ولا جارها والحلم كالجار والحلم
(١)
- أعن أرضكم تغنيكم أرض غيركم* وكم خالة جدا* لم تغن سن أم
(٢)
- أخلص الذي ودي هو* وصلتته* لدى كمانيط الوطن الى الوسمى .

(١) جدا* : صغيرة الثدى ، قليلة اللبن . الصحاح (جدد) .
(٢) الوسمى : مطر الربيع الأول ، سمى بذلك لأنه يسم الأرض بالنبات ، والوطن
المطر الذي يلي الوسمى . اللسان ، (وسم) .

- تقيّد من القطر العزيز بموطن * ومث عند ربح من ربوعك أو رسم
- وإياك يوما أن تجرب غريسة * فلن يستجيز المقل تجربة السم

انه يحذر من ترك الوطن وهجر ذلك الأمل يزيد من رباطة جأش
المدافعين ولينزع من النفوس أي تفكير في الاستسلام طلبا للسلامة لما ينتج
من ذلك من العواقب الوخيمة ، وأهمها تمزق الشمل وانفراط العقد فيشتغل
كل فرد بأمره الخاص بعيدا عن الآخر ، قابعا يتقلب في ذله وسط خصم
ينكره ولا يأبه له ، ثم تراه يتساءل منكرا ومتعجبا من ظن أرض الناس مهصا
كان عطفهم تغنيه عن أرضه التي نبت فيها لأنها بمثابة الأم التي لا يخفى عن
حنانها عطف الخالة وحبها . وفي ختام القصيدة يوجه الشاعر نصيحة
مخلصة لبني قومه بأن يتمسكوا بتراب الوطن وأن يلبثوا فيه مهما كانت
الظروف حتى يموتوا في ربوعه . وهي نصيحة رجل قد عاش الخبرة وجربها ،
فهو في رأيه أقدم على شرب السم المهلك لما فيها من ذل ونكد ، واضطرار
إلى التملق .

وله أيضا مشيدا بشجاعة قومه وجهادهم :- (١)

- زانية خلقوا للحروب * يشبون نيرانها بالوقود
- مساعدهم مرفقات بنين * لهد الجماجم من عهد هود
- هم المخرجون خبايا الجسوم * اذا ضربوا بخبايا الغمود
- هم المائلون على الحاقدين * صدور رماحهم بالحقود
- نجوم مطالعها في القنبا * ولكن مغاربهها في الكبود
- تخط الحوافر من جردهم * محاريب ميثوثة في الصعيد
- تخروؤوس العدى في الوضي * لها سجدا ، ياله من سجود

انه يضيف على قومه أبلغ الصفات الحماسية ، والخصائص الحربية ، فهم
بنو الحرب قد عرفوها واعتادوا خوض غمارها منذ زمن بعيد بسيوفهم الصوارم
وملاحهم الصم التي يشهد لفعالها الأعداء الحاقدون . أما خيولهم المجرسة
فهى تطحن رؤوس العدى تحت حوافرها القوية ، والشاعر فى هذا الوصف
يرسم الصورة المثالية للفارس العربى المحنك بجميع مستلزماتها .

ثم ينتقل الى الدعا بالسقى لتلك الديار التى أنبت الأبطال المجاهدين
فيقول :-

- | | |
|-------------------------------|----------------------------|
| * كخفق جناح فؤاد عميد
(١) | * هرق تألق ايماضه |
| * انا ماخذين بنزع شد يسد | * بريك التواء قسى الرمسة |
| * يقمقه ضاحكه بالرمسود | * سقى الله منه الحص عارضا |
| * ومجرى الجياد ، ومأوى الطريد | * مكر الطراد ، وشخر الجهاد |
| * وغرا بفرّ وسيدا بصيسد (٢) | * بحيث تقابل شوسا بشوس |
| * وأرواح أمواتهم فى الخلود | * وأجسام أحيائهم فى النعيم |

ولعل هذه الأبيات تظهر براعة الشاعر ، وقدرته على الانتقال من موضوع
الى آخر دون التحول عن غرض القصيدة الأسمى ، فالبرق المتألق يشبه فسى
خفقاته انعطاف القسى عندما ينزع الرماة الأوتار بشده ، وتمنى السقى لأرضه
لكونها ميدان الجهاد الذى يتقابل به الأقران فى حومة الوفى بين كرفس
فالمعاني الجهادية والحربية هى الخيط الذى يربط جزئيات القصيدة كلها .

-
- (١) أخذى : أعطى . أخذيته من الغنيمة : أعطيتها منها / الصحاح (حذا) .
(٢) الأشوس : الجرى على القتال الشديد ، اللسان (شوس) ، الفرس :
غير المجرب . المصدر نفسه (غرر) .
الصيد : جمع الأصيد ، وهو الذى يرفع رأسه كبرا والمقصود بالبيست
الشجعان . / اللسان (صيد) .

وأسلوب الشاعر جزل رصين ، تغلب عليه الألفاظ الفخمة الرنانة السستى
تناسب موسيقى الحرب الحادة ، وقد أبدع الشاعر في وصف الحرب والآتية
وخاص في نفسيات المجاهدين وسير أفوارها فأتى بما يناسبها من القول مع
الجنوح إلى الخيال والمبالغة في وصف الشجاعة والبأس . الأمر الذي
يتطلبه موقف الشاعر الثائر المحمص . وفي شعر ابن حمدويه ميل واضح إلى
الصنعة فقصيدته الثانية - على وجه الخصوص - مشققة بأنواع الزخرفة اللفظية
والمحسنات البديعية كالجناس والطباق والمقابل كما تحوى شيئاً من
الاستعارات والتشابه الجميله وعلى كل حال فقد أدى ابن حمدويه دوره
بإيجابية ، فقد شارك قومه المجاهدين بالسنان الجهاد باللسان ،
وكم من قصيدة فصلت في النفوس ما لم يفعله كبير الجهد .

وفي عهد الموحدين تدخل الأندلس في مرحلة جديدة من الجهاد
اذ كان على أمير المؤمنين الموحدى أن يتصدى لهجمات النصارى المستمرة
على نواحي الأندلس ، وأن يقوم بنفس الدور الذى قام به المرابطون .

والفعل فقد كانت الجيوش الموحدية تعبر إلى الأندلس باستمرار بقيادة

(١)

الخلافة أنفسهم ، وتوقع بالنصارى ضربات قاسية ، وكان هذا الجهاد

المتواصل بحاجة إلى مدد لا ينقطع من الفرسان والرجال فرأى عهد المؤمن بن

(٢)

على الخليفة الموحدى الأول أن يستقطب قبائل العرب التى قدمت من الصعيد

المصرى أيام الفاطميين ، وخربت القيروان وماجاورها من البلاد ، وظلت

تموج في البلاد يسترضيها الحكام بنصف فلات البلاد . فاستجاب أولئك

(١) انظر ابن صاحب الصلاة ، تاريخ المن بالامامه : ٤٦٧ وما بعدها .

(٢) المراكشى ، المعجب : ٣٩٤ .

العرب لنداء الخليفة بعد أن أقطع رؤسائهم بعض النواحي ، ودخل بعضهم
في جيش الموحدين . ولما توفي عبد المؤمن سنة ثمان وخمسين وخمسائة
وخلفه ولده أبو يعقوب يوسف سار على نفس سياسة والده في تقريب تلك
القبائل من هلال ابن عامر وغيرهم من ينتمون إلى قبيل هلال . فعند ما
أراد العيبر إلى الأندلس في سنة خمس وستين وخمسائة استغفر تلك القبائل ،
واستثار حماسها بقصيدة من انشا كاتبه وطبيبه الخاص ابن طفيل جاسا
فيها :-

- أقيموا صدور الخيل نحو المنيارب * لفرزوا الأعدى واقتنا الرضائب .
(٤)
- وأذكوا المذاكي العاديات على العدى بفقده عرضت للحرب جرد السلاح .
- فلا تفتنى الآمال إلا من القنا * ولا تكذب الحليا بغير الكنايب .
- ولا يبلغ الغايات إلا مصمم * على الهول ركاب ظهرو المصائب .
- يرى غمرة الهجاء أذنب مشرب * وان أعرضت زرقا جمام المشارب .
- ويألف إلا مكسبا من حسابه * ويعرض عزا عن جميع المكاسب .
- ألا فابحثوها همة حريية * تحف بأطراف القنا والقواضيب .

(١) عنان ، عصر المرابطين والموحدين : ١١٧/٢ .

(٢) هو أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد بن طفيل القيسي . ولد قبل
سنة ٥٠٦ هـ وأصله من وادي أشي ، كان طبيبا في غرناطة وكاتبا
لصاحبها ، ثم تلا أمره حتى أصبح طبيبا للخليفة أبي يعقوب يوسف
وعظى عنده بمكانة عظيمة ، وهو فيلسوف وشاعر . توفي بمراكش سنة
٥٨١ هـ ، ومن مؤلفاته رسالة (حو بن يقطان) / انظر : روش القرطاس

: ٢٦ ، العين بالامامة : ٤٣٥ . تاريخ الفكر الأندلسي : ٣٤٨ .

(٣) القصيدة في المن بالامامة : ٤٣٦ - ٤٤٣ ، عنان ، تراجم اسلامية :

٣١٦ - ٣١٧ .

(٤) السلاحيب : واحدها سلهب وهو الطويل من الخيل . اللسان (سلهب) .

يدخل الشاعر في الموضوع مباشرة إذ الأمر لا يحتاج إلى مقدمات ، فيبدأ على الفور بحث القوم على الخزو ، والاستعداد للحرب مثيراً في أنفسهم المهمة العربية العالية التي ترى العز والمجد يكتب بأسنة الرماح ، كما أن المكسب الشريف الذي يرتضيه العربي هو هو ما يجلبه بحد سيفه من أعدائه ولعله هنا يحرض بصدك هؤلاء الأعراب في الاكتساب عن طريق السلب والنهب وهم معهم في المكاسب التي سينالونها إذا خاضوا الحرب بصدق وعزم . ثم يحضهم على نصره الاسلام واصفا اياهم بحمالة الدين ، وأهل النبي وآلته الذين أظهروا دينه منذ بداية أمره :-

- أفرسان قيس من هلال بن عامر * وما جمعت من طاعن وضارب .
- لكم قبة للمجد ، شدوا عمادها * بطاعة أمر الله من كل جانب .
- دعوناكم نفوس خلاص جميعكم * دعا بريئا من جميع الشوائب .
- تريد لكم ما نهت عن أنفسنا * ونؤثركم زلفى بأطى المراتب .
- فلاتزهدوا في نيل حظكم الذي * لكم فيه فوز من جميع المعاطب .
- بكم نصر الاسلام بسدا فنصره * طيكم وهذا عوده جد واجب .
- فقوموا بما قامت أوائلكم به * ولا تغفلوا أحياء تلك المناقب .
- وقد جعل الله النبي وآله * ومهديه منكم بلا عيب عائب .
- وفزتم بتخصيص الخليفة بعنده * ونسبته الدنيا بزلفى الأقباب .
- وطائفة المهدي منكم ، وانهبها * لتحنو طيكم باتصال المناسب .
- ومن ذا الذي يسمو ليبلغ شأوكم * إذا كنتم فوق النجوم الثواقب .
- نصحناكم والنصح في الدين واجب * بما لكم فيه صلاح العواقب .

وفي هذه الأبيات يدخل الشاعر إلى نفوس تلك القبائل عن طريق تذكيرهم بأصولهم الراسخ في الاسلام ، وما قام به أجدادهم في سبيل الاسلام ، ذلك الواجب الذي يجب عليهم الآن اكماله والشاعر يسلك سبيل النصيحة الواجبه

بين المسلمين فهو لا يريد من استنفارهم للجهاد الا فوزهم بطاعة الله
وحصولهم على أعلى المراتب عنده . ولعل هذا التودد والتصح من اهل
طفيل تابع من كونه من نفس قبيلة قيس التي ينتمى اليها المخاطبون ، ولهذا
كان هو المختار في مخاطبتهم دون غيره من الشعراء . كما أننا نلاحظ
أن الموحديين وعلى رأسهم مؤسس دولتهم الأول المهدي بن تومرت يحاولون
الانتساب الى القبيلة المذكورة لكسب التأييد السياسي وقد نجح هذا الأمر
الى حد كبير . فقد استجاب عدد ضخم من الأعراب - في نهاية الأمر -
للخليفة الموحدى وأصبحوا من جيشه فرتبهم في نواحي قرطبة واشبيلية ،
وزاد فيهم من جاء بعده حتى أصبح بالأندلس من زغبة ورياح وجشم ما يزيد
على خمسة آلاف فارس غير الرجالسة . (٢)

وفي نهاية القصيدة يحذروهم من الاعراض عن نداء الجهاد فانه تضييع
للحزم واعراض عن طاعة الله فيقول :-

- حذار فاعراض الفتى عن نجاته * وتضييعه للحزم احدى الممايب .
- وما الحزم الا طاعة الله انهما * هي الحرم المناع من كل طالب .

(١) هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن ، من قبيلة هرقسة
البربرية القاطنة بجبال دوزن (أطلس العليا) من اقليم السوس . وهو
ينتسب الى آل بيت النبي صلى الله عليه وسلم وفي هذا النسب خلاف
كبير . ولد حوالي سنة ٤٨٥ هـ ورحل الى الشرق سنة ٥٠١ هـ والتقى
بعلماء بغداد ، وحصل طرفا صالحا من علم الشريعة ورجع الى المغرب
وادعى المهديية ، ودعا الى التوحيد والرجوع الى الكتاب والسنة حتى
كثر أتباعه وكانوا نواة دولة الموحديين في المغرب / انظر : الوفيات :
٤٥ / ٥ ، سعد زطول عبد الحميد ، محمد بن تومرت وحركة التجديس

- نعدكم السيف الذي ليس ينثنى * اذا ما بجا سيف براحة ضارب .
- ونجعلكم صدر القاة اذا غدت * تاطر ما بين الحشى والسترائب .
- وقد كان من أقوالكم ما علمتم * فان كان فعل فالرجا غير خائب .
- وليس خطيب الصدق من قال فانبرى * ولكن فعل الحرّ أصدق مخاطب .
- وما خلق الأعراب اغلاف موهب * ولكن صدق الوعد خلق الأعراب .
- سنعلم من أوفى ومن خاس عهد * ومن كان من آت الهنا وذاهب .
- وتظهر أحوال يروق سماعها * فيرغب في أمثالها كل راغب .

وهو هنا يشيد بشجاعتهم واعتماد المسلمين عليهم في دحر العسك و
فهم السيف الضارب الفتاك الذي لا ينبو ، ثم يذكرهم بأقوالهم ووعودهم
السابقة للخليفة بالحن والنجده اذا ما شبت نار الحرب وحبسهم على الوفا
بذلك لأن الوفا من أخلاق العرب وطباعهم الحميده التي تنفر من الخدر
والخيانة ، ويستبشرون في ختام القصيده باستجابتهم التي تدعو فيهم
لسلوك طريقهم .

والقصيدة سهلة الأسلوب ، واضحة المراسى والأهداف بعيدة عن الخيال
كما هي سمات الشعر السياسي ، وقد أحسن ابن طفيل في تركيب القصيدة
المنطقى ، وإبراز العوامل التي تؤثر في نفوس المخاطبين .

ويبدو أن العرب أبطأوا قليلا عن النصره فخطبهم الخليفة بقصيده أخرى
(١)
من نظم ابن عياش يستجلبهم بها .

(١) هو عبد الملك بن عياش بن فوج بن هارون الأودي القرطبي ، أصله من
مدينة يابره بالأندلس . كان شاعرا وكاتبا ، اشتغل بالكتابة للموحديين
حتى توفي سنة ٥٦٨ هـ / انظر : المن بالامامه : ١٦٠ ، ٢٢٤ ،
المراكس ، الذيل والتكلمه : ٢٦/١ .

(١)

يقول :-

- أقيموا الى العليا عوج الرواحل * وقودوا الى الهيجا جرد الصواهل .
- وقوموا لنصر الدين قومة ثائر * وشدوا على الأعداء شدة صائل .
- وأسروا بنى قيس الى نيل غايبة * من المجد تجنى عند برد الأصائل .
- فما العز إلا ظهر أجرد سابح * تموت الصبا في شدة المتواصل .
- وأبني مأثور كان فرنسده * على الماء صهوك ولهب بسائل .

وهذه القصيدة تسمي على نهج القصيدة التي سبقتها فالمطلع واحد يبدأ بفعل الطلب " أقيموا " تليه أفعال أخرى على نمطه تحيى على نصرة الاسلام وجهاد الأعداء بالسيف لاكتساب المجد والشرف الخالد . ثم نسرى الخليفة يستدق تلك القبائل ، ويناديهم بعصبة النسب والقربى وأبنساء العمومه ، فيقول شاعره :

- بنى العم من عليا هلال بن عامر * وما جمعت من باسل وأبن باسل .
- تعالوا فقد شدت الى الخزونية * عواقبها مقصورة بالأوائسل .
- هي الخزوة الفراء والموعد الندى * تتجزؤ أفق المدى المتطاول .
- بها تفتح الدنيا بها تلتح المنى * بها ينصف التحقيق من كل باطل (٢)
- عزمنا وأمر الله لا بد واقسع * على وقعة تودي بدين القياصل (٣)
- بجيش يظل الطير في عجراته * وتحجب عنه الشمس سحب القساطل .

(١) المعجب : ٢٩٤ - ٢٩٥ . وقد نسبها الى الخليفة هبة المؤمنين بن علي الموحدي ، ولكن ابن صاحب الصلاة المعاصر لابن عياش يثبتها لابن عياش . انظر المن بالامامه : ٤٤١ .

(٢) القياصل : جمع قصله وهي الطائفة من السفلة / اللسان (قصل) .

(٣) القسطل : الخبار . الصحاح (قسطل) .

(١)

- وتحسر فيه الطرف من كل جانب * بحور دلائل عادات السواحل ،
- ويطلع ليل النقع فيه كواكبها * من البيض أو من مرهفات المناصل ،
- ونضى به بحر الدماء فجبسها * بأسر عتال وأبي ناصل
- بأيدي رجال قد وفوا بعهودهم * ولا حيرتهم مفضلات النسوازل .

والشاعر يبين سبب هذا الاستعجال في نداءهم بأن الخليفة قد عقد العزم على الجهاد في سبيل الله ولا نصاب المسلمين في الأندلس من أعدائهم المتسلطين في الأندلس من أعدائهم المتسلطين عليهم استغلالاً لضعفهم لذا فهو يعد العدة لوقعة عظيمة تسمع بها الدنيا ، وتحطم راية الكفر ، فما أجدد أولئك الأعراب أن يكولوا من جندها . ثم يأخذ الشاعر في وصف جيش الجهاد بأوصاف جليته تؤكد ظفروه - بأمر الله - كوسيلة اغراء تحت الأعراب على الإسراع في اللحاق به . فهو خميس عزم يحجب ضماره نور الشمس ، فلا ترى وسط ذلك العجاج المدلهم إلا بروقاً لامعه هسب السيف والنصال . ولعله هنا يحتذى قول بشار :- (٢)

كان مثار النقع فوق رؤوسنا * وأسيفنا ليل تهاوى كواكبها .

وتلك السيوف والرماح تفجر بحورا من دماء الأعداء لكونها بأيدي رجال صادقين في الحرب أوفوا بما عاهدوا عليه الله وأولى الأمر ، ولم ينتحلوا الحجج والأعذار وكأنه هنا يعرض بتأخر الأعراب فترة من الزمن بعد دعوتهم الأولى بقصيدة ابن طفيل السابقة . وفي ختام القصيدة يضرب الشاعر طنبا وتر حساس في نفوس الأعراب وهو حبههم للمفتم والخيرات العاجلة في الدنيا

(١) الدلائل : اللين البراق ، والمقصود هنا الدروع اللامعة . المصدر

نفسه (دلي) .

(٢) ديوانه : ١ / ٣٣٥ .

فيهميب بهم لا جتنا الكثير منها قائلا :-

- فطبروا اليها يا هلال بن عامر * ثقلا خفاقا بين حاف وناعيل
- ولا تخذعوا من حذلكم من ابيابسة * تبهوؤكم في المجد أسنى المنازل
- ومقطعكم صدر الندى اذا نبت * بمن لم يكن منكم صدر المحافظ
- أهينا بكم للخير ، والله حسبنا * وحسبكم والله أعدل عادل
- فهاهنا الا صلاح جميعكم * وتسريحكم في ظل أخضر هاطل
- وتسريحكم نعو يرف نضيرها * عليكم بخير عاجل غير آجيل
- فلا تتوانوا فاليدار غنيمسة * وللمدح السارى صفا المناهل

ولا ريب أن القصيدة قد أدت دورها في استنهاض الهمم والعزائم
وذلك بطونها ، واستخدام عدة وسائل مؤثرة في نفوس القوم . فهم عسرب
تهزهم عصبية النسب والقرايه ، وهم مسلمون يثيرهم الدفاع عن الدين
والعقيدة ، وهم أعراب من طبعهم حب المغانم والميل الى الغزو والسلب
وأسلوب القصيدة سهل رصين كأسلوب القصيدة السابقه ، وكأنهما من نظم
شاعر واحد ، فالتشابه كبير حتى في الألفاظ فابن طفيل يقول : " دعوناكم
نفى خلاص جميعكم " وابن عياش يقول : " فهاهنا الا صلاح جميعكم " .
وكذلك قول الأول " فلا تزهدوا في نيل حظكم " وقول الآخر :
" ولا تخذعوا عن حظكم " وغير هذا كثير وواضح ولعل سبب ذلك وحدة
الظروف والهدف والمصدر . وقد كانت نتيجة هاتين القصيدتين ايجابية
(١)
وذلك باستجابة الأعراب للنداء . يقول ابن صاحب الصلاة : " ولما وصلت

(١) المن بالامامه : ٤٤٣ - ٤٤٤ .

(١)

القصيدتان الى العرب بافريقيه والزاب والقيروان ، وأوضحوا قراة تهمسا ،
وتبينت لهم معانيهما ، ومافيهما من التحريض على جهاد الكفار ، ودفع
المنافقين أجابوا الى الطاعة بأكل البدار فكان عدد الخيل الواصلة من
افريقيه أربعة آلاف فرس ، ومائة وخمسين حملا من المال الصامت ، ووصل
من تلمسان ألف فرس وخمسون حملا من المال الصامت ، فاشتمت ساعد
الموحدين بهذا الدعم الكبير ، فجهروا الى الأندلس ، وافتتحوها شرقا
وغربا في الفترة ما بين سنة خمس وخمسين وخمسائة الى سنة سبع وستين
وخمسائة ، واتخذوا مدينة اشبيلية مركزا لهم ، ومنطلقا لتحركاتهم العسكرية .
وظلت الأندلس تنعم بالأمن في ظل الموحدين الذين لم يدخروا وسما فس
رد غائلة النصارى ، الى أن حدثت معركة العقاب المشهورة سنة تسع
وستمائه ، وتضعف بعدها كيان الموحدين عامة في المغرب والأندلس ، وبدأ
النصارى ينتعشون ، ويتحدون للاستيلاء على الأندلس نهائيا ، ففي حوالى
سنة أربعين وستمائه شمر والى اشبيلية الموحدي أبو عبد الله بن أبي عمران
باقتراب الخطر الصليبي من مناطقه فأمر من قبل الخليفة أن يستغيث ببسنى

(١) مقاطعه على طرف الصحراء الجزائرية ، وتنقسم الى ثلاث مقاطع
الزاب الشرقى ، والصحراوي ، والقبلي ، وتكثر فيها الأنهار والعيون
وأهم مدنها طبنه ، والصيله وسكره وغيرها / انظر الروي المعطار
(الزاب) .

(٢) المال الصامت : الذهب والفضه . الصحاح (صمت) .

(٣) انظر . شوق أبو خليل ، معركة العقاب : ٤٥ .

(١)

المعقل وهم من القبائل العربية التي نزلت الى شمال افريقيه في القسرون
(٢)
الخامس الهجري . فأمر والي اشبيلية شاعره ابن سهل بتوجيه الصرخ اليهم
(٣)
فبادر الي ذلك وقال :

- وردا فمضمون نجاح المصدر * عزة الدنيا وفوز المحشر .
- نادى الجهاد بكم لنصر مضمير * بيد ولكم بين العتاق الضمير .
- خلوا الديار لدار خلد واركبوا * غمر العجاج الي النعيم الأخضر .
- وتسوقوا كدر المناهل في السرى * ترووا بما الحوش غير مكسدر .
- وتجشوا البحر الأجاج فانسسه * سبب به تردون نهر الكوشر .
- وتحطوا حرّ الهجير فانسسه * ظل لكم يوم المقام الأكبر .

(١) بنو المعقل من القبائل العربية التي كانت تجاور بني هلال بن عامر
بتلمسان ، وهم يعدون من بطونهم ، وينسبون الي معقل بن ربيعة
بن كعب من قضاة أو الي الحارث بن كعب ، استعان بهم الموحدون
في حروبهم ، وكان لهم جهدٌ مذكور في تاريخ المغرب . / انظر
تاريخ ابن خلدون : ٥٨/٦ .

(٢) هو ابراهيم بن سهل الاشبيلي . كان من الأدباء الأذكياء المشهوراً
اشتهر بالفضل وخاصة بالذكر . وكان يهودياً وأسلم ومدح النبي صلى
الله عليه وسلم ، وله قصائد اسلامية في الحث على الجهاد . توفي سنة
٦٤٩ هـ على أرجح الأقوال . وله ديوان شعر ، انظر : فصول
الوفيات : ٢٠/١ ، المنهل الصافي : ٥١/١ ، الأعلام : ٤٣/١ .
(٣) ديوان ابن سهل : ١٤١ - ١٤٢ .

ينادى الشاعر العرب باسم الجهاد المقدس الذى يكسب المجاهدين
عزا فى الدنيا وثوابا فى الآخرة ولذا فهو يسلك سبيل المقابلة بين ما يبدؤونه
من المشقات التى يتألمها الجهاد وبين النعيم المقيم والراحة الأبدية
فى الجنة مقابل ذلك ، والشاعر بهذا يحقر كل الصعاب فى نظرهم
ليدفعهم الى الأقدام ، فهاهم فيها من دار فانية تقابلها دار خالصة
وما يخلق فوقهم من غبار مصحوب بضجيج وقصعقة يقابله نعيم الجنّة
الدائم وسط البساتين الخضراء والظلال الوارفة . وما يصيبهم من المشقة
لبعد المسافة واضطرارهم الى ركوب البحر المرعب سيكون تصريحاً لهم
بمرور نهر الكوثر ، وحوض الرسول - صلى الله عليه وسلم - فى الجنة .

ثم يصفهم بالشجاعة والحمية فى نصر الاسلام منذ العهد القديم

فيقول :-

- يامعشر العرب الذين توارثوا * شيم الحمية أكبرا عن أكبر .
- ان الاله قد اشترى أرواحكم * بيموا ، وهبكم ثواب العشرة .
- أنتم أحقّ بنصر دين نبيكم * وكم تمهد فى قديم الأعر .
- أنتم بنيتم ركبه فلتدعوا * ذاك البناء بكل العس أسمر .
- لكم صرائم لو ركبتن بعضهن * أغنتكم عن كل طرف مضمر . (١)
- لو أنكم جهزتم عزماتكم * لهزمتن منها العمد وبمسكر .
- ولو أنكم سدّدتم هماتكم * طعنتم قبل القنا المتأطر . (٢)
- أضحى الهدى يشكو الظما ولا نتم * ظلّ وريّ كالرييح المطر .
- وعلا الجزيرة غيب غمودكم * مطوية فوق الصباح المسفر .

(١) صرائم : جمع صرمه وهى القطعة من الابل نحو الثلاثين . الصباح

(صرم) ، الطرف : الكرم من الخيل . نفسه (طرف) .

(٢) تأطر الريح : تثنى . اللسان (أطر) .

الدين ناد اكم وفوق سروجكم * غوث الصرخ وخيمة المستنصر .
لم يبق للاسلام فير بقيصة * قد وطنت للحادث المتكسر .
وهو هنا يحضهم على ارخاض ارواحهم في سبيل الله طعنا في ثوابه
مخاصة انهم اولو فضل سابق في تدعيم بنيان الاسلام بمعارف عنهم ممن
الشدّة والبأس والعزيمة المتقدّدة التي لا تقاوم وهو يكرر كلمه " لو أنكسّم "
لهمرهم بقدرتهم على الاغاثه اذا ارادوا ، ويتبع ذلك بشرح عسسال
الاسلام الذي هو في أمس الحاجة الى الغوث ، فيصفه بأنه ظمان وهم
بمثابة الماء الذي يرويه ، وجزيرة الأندلس قد خيم عليها ظلام الكفر اذا لم
يدركها أولئك الحرب فيكشفوه عنها بسيفهم ، ويعيدوا اليها ضياء الاسلام
الذي قرب من الاحتضار :-

- والكفر متدّ المطالع ، واليهدي * متمسك بذناب عيش أغسبر .
- البيهق تطلق في الغمود مضاضة * للحق أن يلقي يد المستنصر .
- والخيل تضجر في المرباط حسرة * ألا تجوس خلال رهط الأصفر .
- كم نكروا من معلم ، كم دسروا * من معشر ، كم فيروا من مشمر .
- كم أبطلوا سنن النبي وعطلوا * من حلية التوحيد ذروة منسبر .
- أين الحفاظ مالها لم تنبعت ؟ * أين العزائم مالها لا تنسبري ؟
- أيهمز منكم فارس في كهـ * سيفا ودين محمد لم ينصرو ؟ :
(١)
- أم كيف تفتخر الجهاد بأعوج * فيكم وتنتسب الرماح لسهمري ؟ :
- هزوا مما طفكم لسعي تكتسي * فيه ثياب مشومة أو مفخسر .
- جدوا ، ونموا بالجهاد أجوركم * ماخاب قصد مشمر وشمسبر .
- عند الخطوب النكري بيد وفضلكم * والنار تخبر عن ذكاء المنسبر .

(١) أعوج : اسم فحل لهني هلال بن عامر تنسب اليه الخيول الأعوجيات .

- لو صور الاسلام شخصا جاكم * عدا بنفس الواسق المتعير^(١) .
- لو أنه نادى لنصر خصكم * ودعاكم بأسرتي يامعشري .

ثم يصور الشاعر ما يلقاه الدين من أهوال طوى يد الكفر المعربد عسقت
ظهر ذلك طوى صورة ألم يقلق السيف المغموده بدون عراق ، وفجسر
الخيول المقيدة فى المرباط والتي تريد فرسانا ينطلقون عليها لدحسر
الصليبيين الذين دمروا بلاد المسلمين وغفروا معالمها وشتتوا أهلها ،
واعتدوا طوى الحرمات المقدسة ودنسوها برجسهم .

واذا هذا الوضع المؤلم يصرخ الشاعر بصوت سموع متعجبا من فتسور
الهمم والمزائم التي لم تتحرك " أين الحفاظ مالها لم تنبعت ؟ : أين
المزائم مالها لا تنبرى ؟ : " وهو بهذا التساؤل يعطيههم دفعة مسن
الحماس المزوج بشئ من التوبيخ فكأنه يريد أن يقول : عيار طيكم أن تتخذوا
السيف وتفخروا بها وبالرماح والجياد المشهوره ، وأنتم لم تتحركوا لفك أسر
دينكم المتحن ، ويتبع توبيخه لهم بالتشجيع والحقى على اكتساب المفاخر
والثواب حيث أن أوان ذلك . وفى ختام القصيدة يركز طوى المعنى الاسلامى
الذى يشه فى أبيات القصيده ، فيجمل هؤلاء العرب هم أهل الاسلام
وحماته ، فلو صور شخصا لقد هم دون غيرهم لأنهم أحبابه ومعشره الذين
يعزونه .

والقصيدة تعبق بحاطفتها الصادقه الحاره فى طلب الفوت لنجدة
الدين وأهله بالأندلس وقد أكثر من ذكر الثواب الأخرى لأن فيه دافعا قويا
على الاقدام ، وحمل المسافات الشاسعة التي تكتنفها الأخطار الرهيبة
والبحرية والتي قد لا يجدى معها الترغيب فى المطمح الدنيوى .

(١) الواسق : المحب . اللسان (وسق) .

ولقد كان الشعراء الذين هم من أصل أندلسي ، وأتيح لهم الاتصال
بالموحدين لا يتركون فرصة تمرّدون أن يحضوا الخلفاء على الغزو والجهاد
لقطع أمل النصارى في الأندلس ، وافتكك ما استولوا عليه منها . وهذا
(١)
أحد هم وهو أبو جعفر الوقشي يمدح الخليفة أبا يعقوب يوسف بن عبد المؤمن
ويحميه على الجهاد قائلا :- (٢)

- ألا ليت شعري هل يمد لي المدي * فأبصر شمل المشركين طويدا .
- وهل يمد يقضي في النصارى بنصرة * تغادرهم للمرهفات حصيدا .
(٣)
- ويغزو أبو يعقوب في شنت يا قسب * يعيد عميد الكافرين عميدا .
- ويلقى على أفرنجهم عبء كل كسل * فيتركهم فوق الصعيد هجودا .
- يغادرهم جرحى وقتلى مبرحسا * ركوعا على وجه الثيلا وسجودا .
- ويفتك من أيدي الطغاة نواعسا * تبدلن من نظم الحبول قيودا .

(١) هو الوزير أحمد بن عبد الرحمن الوقشي ، نسبة إلى بلده وقضى مسن
نواحي طليطلة . كان كاتبا وشاعرا متصرفا في أفانين البيان وقد كان
وزيرا لابراهيم بن هشك الشاعر بشرق الأندلس (انظر أخباره في الاحاطة
٣٠٥ / ١ - ٣١١) حتى اذا انهزم ابن هشك ودخل في طاعة
الموحدين سنة ٥٦٠ هـ وجه وزيره الوقشي إلى مراكن نائبا عنه فسقى
تقديم الطاعة ، وقد توفي ٥٧٤ هـ / انظر الحلة السيرا : ٢٥٧ / ٢ -
٢٦٧ .

(٢) نفع الطيب : ٤٧٨ / ٤ .

(٣) قلعة حصينة بالأندلس فيها كنيسة عظيمة عند النصارى ويؤمنون أنها
مبنية على جسد يعقوب الحواري الذي قتل في القدس وأن غله بمضى
تلاميذه في مركب بحري فجرى به حتى حط في هذا الموضع فبنيت الكنيسة
عليه . ولها عيد مشهور يقصها فيه النصارى من رومه والقسطنطينية .
انظر الروض الممطار (شنت يا قسوب) .

- وأقبلن في خشن المسوح والقسا * سجن من الوشى الرقيق بسرودا .
- وغبر منهن التراب ترائيبا * وخدم منهن المهجير خسدودا .
- وبالهدف نفسى من معاصم طفلة * تجاور بالقد الأليم نهسودا .
- وبأسفا ما ان يزال مسرودا * على شمل أعياد أعيد بدسودا .
- وآها تمد الصوت منتعها طسوى * خلود يار لو يكون مفيد ا .

فالشاعر يتمنى أن يطول عمره لكن يرى النصارى طعاما لسيف الاسلام المنتصره بقيادة أبى يعقوب والوقشى يرى ان ذلك لا يتم الا اذا فزا المسلمون وكر النصارى (شئت يا قبا) الذى يحوى كبرهم الدينى وأعظم كائنهم ومقدساتهم التى فيها تعاك الخطط ضد المسلمين ، كما أن على الخليفة العوحدى أن يحطم قوتهم ليفتك من أيديهم النساء المسلمات اللواتى أخذن أسيرات ، فهن فى حالة تستدعى البكاء والأسف ، أبرزها الشاعر من خلال المفارقة الناتجة من مقارنة حالتين الراهنة بحالتين الماضيه أيام العسز واجتماع الشمل ، فالعجول أصبحت قيودا ، والمسوح الخشنة البالية طلت محل البرود الرقيقه ولحل الشاعر قد صب تركيزه على ما أصاب النساء مسن الذل والهوان ليستثير حفيظة الخليفة من هذه الناعية الحساسة ، وهزئده غيظا وحنقا على النصارى فيسارع فى غزوهم .

قدمنا في الفصل السابق الحديث عن سقوط بلنسية بيد النصارى والأسبان سنة ست وثلاثين وستمائة بعد دفاع مجيد من أهلها الذين أرقهم

الحصار الحنيف دون أن يتلقوا مددا ، وفي أثناء الحصار وقيل سقوط المدينة انطلق أبو عبد الله بن الأبار مبعوثا من قبل أمير بلنسية إلى أبي زكريا الحفص أمير الدولة الحفصية التي كانت آنذاك في أوج قوتها - مستغيبا به ، وحاملا إليه بيعة أهل بلنسية . فقام بين يديه وأنشد -
(٢)
(٣)
سينيته الرائعة التي يقول فيها :-

- أدرك بخيلك خيل الله أندلسا * ان السبيل إلى منجاتها درسا .
- وهب لها من عزيز النصر ما التمتت * فلم يزل منك عز النصر ملتصبا .
- وحاش ماتحانيه حشاشتها * فطالما ذقت البلوى صحاح مسا .

(١) هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القاضي الهلنسي . ولد سنة ٥٧٥ هـ ببلنسية وتعلم فيها . كان فقيها محدثا نحويا ، ومسننا أكبر شعرا الأندلس وكتابها ، رحل إلى تونس عند احتلال بلنسية وعمل كاتباً لأمرائها حتى قتل فيها سنة ٦٥٨ هـ وله آثار كثيرة مسنن أهمها : الحلة السيرا ، التكله لكتاب الصلح ، اعتاب الكتاب انظر الفبريني ، عنوان الدرايه : ٣٠٩ ، فوات الوفيات : ٤٠٤ / ٣ ، أزهار الرياض : ٢٠٤ / ٣ .

(٢) كان أبو زكريا يحيى بن عبد الواحد بن أبي حفص المهنتاتي (نسبة إلى هنتاتيه إحدى فروع قبيلة مصمودة البربرية في المغرب) واليا من قبل الموحديين على تونس منذ سنة ٥٦٢ هـ ، وعندما رأى ضعف الدولة الموحدية أعلن استقلاله بتونس دون أن يجد معارضة وذلك سنة ٦٢٤ هـ ، وقد شطت هذه الدولة بالإضافة إلى تونس ، طرابلس ، ومقاطعة قسنطينة من الجزائر انظر : أحمد بن عامر ، الدولة الحفصية :

- بالجزيرة أضفى أهلها جزرا * للحادثات وأسى جدّها تمسسا .
- في كلّ شارقة المام باثقة * يعود مآتمها عند العدا عرسا .
- وكلّ غاربة اجحاف نائبة * تثنى الأمان حذارا والسرور أسى .
- تقاسم الروم لانات مقاسمهم * الأّعاقلها المعجوبة الأنسا .
- وفي بلنسية منها وقوطبية * ماينسف النفس أو ماينزف النفسا .
- مدائن حلها الأشراك مبتسما * جذلان ، وارتحل الايمان مبتسما .
- وصيرتها العوادي العائثات بها * يستوحش الطرف منها ضعف ماأنسا .

يبدأ الشاعر قصيدته بالدخول المباشر الى فرضه الأصلي منها وهو الاستغاثة ، وذلك لأن واقع الحال أهم من أن يبدأ بالخزل أو وصف مشقات رحلته ، فهو ينطق طي الفسر بقوله " أدرك " وهو فعل مشعر بالخطر القريب المهدق فالقارئ يحسّ أن الشاعر يرتجف رعبا وهو يؤكد ضياع الأندلس ان لم تنصر بقوله : " ان السبيل الى منجاتها درسا " ولذا فهو يطلب النجدة السريعة من خيل الله لانقاذ مابقى من البلاد التي ابتليت بأصناف المعسّن والبلاء ، فالعدو محيط بها لا يفارقها وفي كل يوم له في نواحيها وقائع تجلب على أهلها القتل والأسر والسبي فهم في ضنك واضطراب دائم . ثم يخصصى مدينته بلنسية التي لا تزال محاصرة ، ومدينة قرطبة التي سقطت منذ ثلاث سنوات لأن هاتين المدينتين من أعظم قواعد الأندلس الكبرى التي تعرضت للانتهاك والاستباحة ، وصيرت مدنا صليبية يستوحش منها الناشر الذي كانت محلّ أنسه قبل ذلك . ثم يأخذ في تفصيل ماجرى للأندلس طي يد الصليبيين استناره لهم :-

- بالمساجد عادت للعدا بيصا * وللنداء فدا أثنائها جرسا .
- لهفو طيها الى استرجاع فائقها * مدارس اللثاني أصبحت درسا .

(١)

- سرعان ما فاك جيش الكفر وأحربنا * عيث الدبّا في مخانمها التي كهمنا .
- وابتز بزمها مما تحيّفمنا * تحيف الأسد الضاري لما افترسنا .
- فأين عيش جنيناه بها خضرا * وأين عصر جليناه بها سلسنا .
- ما محاسنها طاع أتيح لها * مانام عن هضمها حيننا ولا نحسنا .
- ووجّ أرجاءها لما أحاط بهمنا * ففادى الشّم من أعلامها خنسنا .
- خلاله الجوف امتدت يداه السي * ادراك مالم تطأ رجلاه مختلسنا .
- وأكثر الزعم بالتثليث منفردا * وطورأى راية التوحيد ملتبسنا .

ان الأمر الذي كان يحرض عليه النصارى عند الاستيلاء على مدينتنا
اسلاميه هو طمس المعالم الاسلاميه انبارزة فيها ، فكانوا قتل كل شئ
يحيطون المساجد الى كائس ، وتعلق الأجراس والنواقيس على المنارات الشامخه
موضع الصليب على محاريب التوحيد مساينيد المسلمين قهرا على قهرهم .
والشاعر يحاول ابراز هذه الناحيه ليستثير عاطفة السلطان ، فيصور
الكفار ومدد خلالهم الجو وأسكتوا جميع الأصوات الا صوت نواقيس التثليث
المزسومه .

ثم يأخذ في مدح الأمير الحفص ، واصفا اياه بالأمل المرجو ، ومحسب -
شعائر الهدى فيقول :-

- صل جبلها أيها المولى الرحيم فما * أبقى المراسل لها عبلا ولا مرسنا
- وأحق ما طمست منها المدادة كما * أحييت من دعوة المهدي ما طمسا .
- أيام صرت لنصر الحق مستبقنا * وبنت من نور ذاك الهدى مقتبسا .

(١) الدبّا : تجرد . أساس : لافه : (دبا) .

- وقت فيها بأمر الله منتصرا * كالصارم اهتز أو كالعارض انجسسا .
- تمحو الذي كتب التجسيم من ظلم * والصبح ماحية أنواره الخلسسا .
- وتقتضى الملك الجبار مهجته * يوم الوفى جبهة لا ترقب الخلسسا .

وهو يخطابه بتودد بلفظ (المولى) ليضفى عليه هالة من الاحترام
والعظمة التي تقوم على أساس ديني . ذلك أن الأمير الحفص من أتباع محمد
بن تومرت الذي ظهر أيام المرابطين وأخذ يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر
ويطعن في عقيدة المرابطين ويرميهم بالتجسيم والتشبيه وسعى أتباعه بالموحدين
لأنهم يميلون إلى التأويل ، وينزهون الله عن كل تشبيه له بالخلق ، ثم
ادعى أنه المهدي المنتظر بعد أن كثر أتباعه ، وكفر من لم يؤمن بسببه ،
وتمخضت حركته عن أطماع سياسية تمثلت في تشكيل نواة الدولة الموحدية التي
(١)
قامت بعد ذلك على يد تلاميذه .

ثم يتحدث الشاعر عن فضل هذا الأمير وان بلنسية قد ألقت إليه مقاليدها ،
وخصته بصريخها دون غيره .

- هذى رسائلها تدعوك من كئيب * وأنت أفضل مرجو لمن يئسسا .
(٢)
- وافتك جارية بالنجح راجية * منك الأمير الرضى والسيد الندسا .
(٣)
- خاضت خضارة يعليها ويخضفها * عبابه فتعاني اللين والشرسا .
- وربما سبحت والريح عاتية * كما طلبت بأقصى شدة الفرسسا .
- تؤم يحيى بن عبد الواحد بن أبى * حفص مقبلة من تربة القدسسا .

(١) انظر : ابن دينار ، المؤنس : ١١١ - ١١٢ ، المراكشسى ،

المعجب : ٢٥٤ ، عبد الله علام ، الدعوة الموحدية بالمغرب في عهد

عبد المؤمن بن علي : ٦٥ - ٦٦ .

(٢) رجل ندس : فهم فطن . اللسان (ندس) .

(٣) يقصد البحر المتلاطم .

- ملك تقلدت الأملاك طاعنته * دينا ودنيا فغشاها الرض ليهسا .
- من كلّ غاد على يمناه مستلما * وكلّ صاد الى نعماه ملتسما .
- مؤيد لورس نجما لأبتسه * ولودعا أفقا لبيّ وماحتبسما .
- ماضى العزيمة والأيام قد نكسنت * طلق المحيّا ووجه الدهر قد عبسنا .
- كأنه البدر والعليا هالتسه * تحفّ من حوله شهب القا عرسنا .
- قد نورّ الله بالتقوى بصيرتسه * فما بيالى طروق الخطب ملتبسما .
- الى الملايك ينى والطوك معما * فى نبعة أثمرت للمجد ماغرسنا .
- من ساطع النور صاغ الله جوهره * وصان صيقله أن يقرب الدنسنا .
- له الثرى ، والثريا خطّتان فلا * أعز من خطّتيه ماسما ورسنا .

والشاعر ينفى على الأير صفات تجعله فوق مستوى البشر ، وذلك عن طريق المبالغة التى يتطلبها الموقف ، فهو قد صيغ من نور الله الساطع الذى لا يقربه الدنس وكأنه من الملايكة الكرام ، وقد نورّ الله بصيرته بالتقوى ومنحه العزيمة الوقادة التى لا تنكّل ، فهذه الصورة المثالية التى جمعت الى عراقية الأصل والمنبت طيب الأخلاق ، تجعل السعيد من طروق ياب صاحب هذه المكانة واستعان به لأنه سيدرك حاجته مهما كانت ، ومن هنا كان قدوم الشاعر :-

- ان السعيد أمرؤ ألقى بحضرتيه * عصاه محتزما بالمدل محترسنا .
- فظلّ يوطن من أرجائها حرما * وبات يوقد من أضوائها قهسا .
- بشرى لعبد الى الباب الكريم حدا * آماله ومن العذب المعين حسنا .
- يا أيها الملك المنصور أنت لها * عليا توسع أعدا الهدى تمسنا .
- وقد تواترت الأنبا أنك ممن * يحيى يقتل طوك الصغر أندلسنا .
- طهر بلادك منهم انهم نجس * ولا طهارة مالم تغسل النجسنا .

- وأوطى الفيلق الجرار أرضهم * حتى يطاطى رأسا كل من رأسا (١)
- وانصر عبدا بأقص شرقها شرقا * عيونهم أدمع تمس زكا وخسبا (٢)
- هم شيعه الأ مروهي الدار قد نهكت * دأ متى لم تباشر حسمه انتكسا (٣)
- فاملا هنيئا لك التأييد ساحتها * جردا سلاهب أو خطية دعسا
- واضرب لها موعدا بالفتح ترقبه * لعل يوم الأعادي قد أتى وحسبى

وقد حالف النجاح هذه القصيدة ، وأدت دورها في تحويل همة الأمير
(٤)
لاغثة المحاصرين يقول المقرئ : " فهزت هذه القصيدة من الملك عطف
ارتياح ، وحركت من جنبه أخفض جناح ولشففه بها ، وحسن موقعها
منه أمر شعرا " حضرته بمجاوتها ، فجاءها غير واحد . "

وقد شحن الأمير الحفص الأساطيل بالمدد لانقاذ بلنسية ، ولكنها
لم تستطع الوصول اليها لشدة الحصار فرجعت ، ورجع معها الشاعر ابن
البار ليحيى في تونس في كنفامد وجه ، واستسلمت بلنسية سنة ست وثلاثين
(٥)
وستمائه . وقد أعجب المقرئ نفسه بالقصيدة ، ووصفها بقوله : "
السينية الفريده التي فضحت من بارها ، وكبا دونها من جارها . " ولعل سبب
اعجابه هو ارتياح الأمير لها وأمره بمعارضتها فالقصيدة من ناحية المعاني

-
- (١) زكا : زوج ، خسا : فرد . اللسان (خسا) .
 - (٢) انتكس : انقلب رأسا على عقب ، اللسان (نكس) والمقصود الاستمرار والرجوع .
 - (٣) السلهب : الفرس الطويل . اللسان (سلهب) الخطية الدعسا :
 - الرماح ، الصلاح (دعس) .
 - (٤) نفح الطيب : ٤ / ٤٥٩ .
 - (٥) النفح : ٤ / ٤٥٧ .

الراثية لا تضيف جديدا ، ولكن روعة القصيدة تكمن في عاطفة الشاعر المطمئنه
وأحاسيسه المرهقه التي وشحت القصيدة بلون من الأسى العميق أثناء حديثه
عما أصاب الأندلس عامة من البلاء ، وتغير الأحوال بسبب العدو والملازم لها
كما يحس القارئ المراره التي كان الشاعر يتجرعها وهو يستجدي العون لملاذه
عن طريق المدح المبالغ فيه الى حد كبير أما الأسلوب فسهل مزخرف بالمحسنات
اللفظية والبدعيه التي جاءت من غير تكلف وطلب ، وقد أحسن في اختصار
القافيه مع ألف الاطلاق الداله على الفزع ومد الصوت بالصراخ ، كما أن موسيقى
القصيدة تتراوح بين الشدة والخفوت ، فتشتد عند ذكر الحرب ، والفيالق
الجرارة ، والخيال الجرد وتخفت عند ذكر المأسى الجماعية والالام .

ولا ين الأبار قصيدة أخرى طويلة في نفس الغرض وموجهة الى الأسمير

الحفص نفسه يقول فيها :- (١)

- نادتك أندلس قلباً نداها * واجعل طواغيت الصليب فداها (٢)
صرخت بدعوتك العلية فأحبها * من عاطفاتك مايقى حهاها
وأشدد بجلبك جرد خيلك أزرها * تردد على أعقابها أرزاها
هي دارك القصى أوت لا ياللة * ضمنت لها مع نصرها ايواها
ومها عبيدك لا بقاء لهم سوى * سبل الضراعة يسلكون سواها
خلعت قلوبهم هناك عزاها * لما رأت أبصارهم ماساها (٣)
دفعوا لأبكار الخطوب وعونها * فهم الخداة يصابرون عناها

(١) نسب المقوى في النسخ : ٤ / ٤٧٩ هذه القصيدة لمجهول ، ولكنها

توجد بتمامها في ديوان ابن الأبار المخطوط بالخزانة الطكية بالرباط

من ورقه ١ - ٤ . والنقل عن النسخ حيث النص محققا . ٤ / ٤٨٠ -

٤٨٣ .

(٢) الحها : النفس . الصحاح (حوب) .

(٣) الخطوب العون : التي تأتي مرة بعد مره . اللسان (عون) .

- وتكررت لهم الليالى فاقضت * سواها وقضتهم ضواها .
- تلك الجزيرة لا بقا لها اذا * لم يضمن الفتح القريب بقاها .
- رش أيها المولى الرحيم جناحها * واعقد بأرشية النجاة رشاها .

والقصيدة شمل نفس الأفكار والمعاني التي وردت في القصيدة السابقة فهو تبدأ بنداء الأندلس الحار للأمر راجية نصره لها على الصليبيين ، وطقية مقاليدها اليها فهو بلاده ، وأهلها عبده الذين يأتونه ضارعين كمناداهم الخطوب ، وتكررت لهم الليالى ، فهو وحده المسؤول عن الدفاع عنها ، واتخاذ الوسائل التي تكفل سلامتها ، ولهذا يخاطبه الشاعر

قائلا :-

- حاشاك أن تفتنى حشاشتها وقد * قصرت عليك نداها ورجاها .
- طافت بطائفة الهدى آمالها * ترجو بيحى المرتضى أحياءها .
- واستشرقت أمصارها لا مـسـارة * عقدت لنصر المستضام لواها .

ثم ينتقل الى وصف حال بلنسية وما فعله الأعداء بها من الفساد والخراب فيقول متحسرا :

- ايه بلنسية وفي ذكراك مـا * يمرى العيون دماها لا ماها .
- كيف السبيل الى احتلال معاهد * شب الأجاجم ونها هيجاهها .
- بأبى مدارس كالتطلول د وارس * نسخت نواقص الصليب نداها .
- راحت بها الورقا تسمع شدوها * وفدت ترجع نوحها وكهاها .
- عجا لأهل النار حلوا جننة * منها تمد عليهم أفياءها .
- أمطت لهم فتمجلوا ما أمطوا * أيامهم لا سوغوا املاها .
- أما العلوج فقد أحوالوا حالها * فمن المطبق علاجها وشفاها .
- أهدى اليها بالمكماره جناح * للكفر كره ماها وهواها .

(١)

- وكفى أسى أن الفواجع جمّة * فمتى يقاوم أسوها أسواها
- مولاى هاك معادة أنباها * لتتيل منك سعادة أنباها

والذى يبدو أن هذه القصيدة قد قيلت فى وقت متأخر عن القصيدة السابقة ، ومعد أن فشل الأسطول الحفصى فى اغاثة أهل بلنسية المحاصرين وأصبحت المدينة وشيكة السقوط فى يد النصارى لأن الشاعر فى هذه الأبيات يعبر عما فى نفسه من الحسرات التى تهيج العبرات كلما تذكر بلنسية التى حال المد وبينه وبينها ، وكلمة فى (ذكراك) الواردة فى البيت ، لها دلالة على البعد الزمنى الذى عمل فيه أهل الصليبان والنواقيس عظمهم فى طمس معالم الهدى .

كما أن الشاعر فى البيت الأخير يشير بوضوح الى تكراره لأخبار بلنسية على مسامح الأمير لعله يهيب لنجدتها ، فهو يقول " هاك معادة أنباها " وهذه الاعادة لا بد أن يكون لها بداية ، وهى كما يتضح قصيدته السينيه . ويلاحظ على لغة الشاعر هنا شئ من الانكسار الذى ليس من طبيعته ، وذلك عندما يصف حال الحمام التى غدت تنوح فى أوج بلنسية بعد أن كانت تمشدو وتمرح ، وفى عجب من أولئك الكفار كيف حطّوا جنة الدنيا وتنعموا بأقيائهم وخيراتهم حتى ضاق بهم هواؤها وماؤها ، ثم نراه يختصر تعداد المصائب والفواجع ، وكأنه لا يطيق ذلك فيقول : " كفى أسى أن الفواجع جمّة " ولكن التفجع وذكر ما فعله علوج النصارى بالمدينة ليس هو هدف الشاعر الذى يستصخ ويبحث عن النصير ، المتمثل عنده بشخص الأمير يحيى الحفصى .

(١) الأس : أصل البناء . الصماح (أسس) والمقصود هنا سيد المدينة أو حاكمها الذى يقدر على علاج الموقف .

لذا نراه يعود الى طريقته الحماسيه فينادى الأمير قائلاً :-

- جرد ظباك لمحو آثار الصدا * تقتل ضرافها وتسب ظباها
- واستدع طائفة الامام لغزوها * تسبق الى أمثالها استدعاهها
- أرسل جوارحها تجئك بصيدها * صيدا وناد لطحنها أرحاهها
- هبوا لها يامعشر التوحيد قد * آن المهبوب وأحرزوا: علياهنا
- أطلوا الجزيرة نصره ان الصدا * تبغى على أقطارها استيلاءها
- نقصت بأهل الشرك من أطرافها * فاستحفظوا بالمؤمنين نماها
- حاشاكم أن تضمروا الغاءها * في أزمة أو تضمروا اقصاهها
- خوضوا اليها بحرها يصبغ لغم * رهوا وجهوا نحوها بيدها
- دار الجهاد فلا تفتكم ساحه * ساوت بها أحيائها شهداءها

فهو يلج على الأمير أن يشرع سيفه لقتل الأعداء وأسره مستعينا بجيش التوحيد المتعظم للجهاد في سبيل الله ، ويهول من التقاعس عن نصره المسلمين في الأندلس ويعتبر ذلك نقيصة يبرأ منها الحفص ، وهي طريقة جيدة في الحش على الاسراع للاستعداد الذي يحاول الشاعر أن يجمعه حقيقة واقعه ، وكيف يجول في خاطر الأمير المسلم النكوص عن مواجهة أهل الشرك الذين أخذوا يزحفون على أقطار جزيرة الأندلس وينقصون منها من أطرافها ..

وكما فعل في القصيدة السابقه من الاستبشار بالفتح واتباعه بالمدح المبالغ فيه يفعل هذا في قصيدته هذه ويطيل في ذلك الى ما يزيد على ثلاثين بيتا تجتري منها مايقى بالفرض :

- بشرى لأندلس تحب لقاها * وحب في ذات الاله لقاها
- صدق الرواة المخبرون بأنه * يشفى ضناها أو يعيد رواها

- ملك أمد النيرين بنسوره * وأفاده لألاؤه لألاهما .
خضعت جبابرة الطوك لعمزه * ونضت بكف صغارها خيلاها .
سل دعوة المهدي عن آثاره * تنبئك أن ظباه قمن ازاها .
فغزا عداها واسترق رقابها * وحوى حماها واسترد بهاها .
قبضت يداه على البسيطة قبضة * قادت له في قدوة أمراها .
فعلى المشارق والمغرب ميسم * لهداه شرف وسمه أسماها .
دانت له الدنيا وشم طوكها * فاحتل من رتب العلا شماها .
سامى الذوايب في أعزذ وؤابسة * أطلت على قم النجوم بناها .
فئة كرام لا تكف عن الوغى * حتى تصرع حولها أكفها .

ومعد هذا المدح المسهب الذي جعل الأمير الحفص طكا تخرلسه
جبابرة البسيطة ساجدين يقف الشاعر في آخر القصيدة معذرا ، وطالبا
الصفح من الأمير لأنه وقف عاجزا عن احصاء مناقبه ومكارمه :-

- صفحا جميلا أيها الطك الرضى * عن محكمات لم نطق احصاءها .
تقف القوافي ونهن حسيرة * لاعيبها تخفى ولا اعياءها .
والقصيدة غنية بمفرداتها وتراكيبها ، وهي بلاشك تظهر مدى اعماطة
الشاعر باللغة العربية وأساليبيها كما أن طولها مع سابقها يكشف عن
شاعرية ابن الأبار الفذة ، وعبقريته ، وطول نفسه وحسن تصرفه في المواقف
الشعرية المختلفة ، الا انه أسرف في استخدام الصنعة البيانية ،
فشاب معانيه بعض التعقيد ، وألفاظه شئ من الخرابسة ، وانك لتمسح
التكلف واضحا في كثير من الأبيات التي يحاول جهده في تركيبها وجمع

(١) القدوة : سير يقعد من جلد غير مدبوغ . الصحاح (قد د) .

شأت مفرداتها . وربما كان هذا التعلل راجعا الى نفسية الشاعر
الضطربة التي لم تنطلق على سجيتها ، فهو في مجال حشد فيه كسل
طاقاته النفسية والأدبية والبلاغية ليحصل على النتيجة الكبيرة التي وفسد
من أجلها ولا يكون ذلك الا بالتأثير على نفس الأمير وانعاشها ، ولذلك
ذهب الشاعر يبحث عن التأثير المنشود باظهار براعته باستخدام السجع
والجناس والطباق وغيرها حيناً ، وبالاطناب في المدح مع المبالغة الشديدة
حيناً آخر .

ومهما يكن من أمر فان الشاعر قد قام بواجبه نحو دينه ، ولادته قياما
ايجابيا فعلا سجّله التاريخ بحروف ناصعة تختلف عن شهد هـسـهـه
الأحداث من الشعراء وقصر جهده على البكاء والعويل .
(١)
استصراخ الأندلسيين لبني مريسن :-

عندما كانت شمس الموحدين تميل تدريجيا نحو الغروب ، ظهرت فسق

(١) هم بطن من بطون قبيلة زناتة البربرية الشهيرة . وهم يرجعون
نسبهم الى العرب المضربيه بالانتساب الى قيس عيلان . وكانت القبائل
المربنيه في بداية أمرها تنتقل في صحارى المغرب الأوسط وهضابسه ،
ثم توغلوا في المغرب ابان ضعف الموحدين ، واشتبكوا معهم وهزمهم
عدة مرات حتى أزالوهم بالتالي . وملكوا المغرب مكانهم ، وكانت عاصمتهم
مدينة فاس . / انظر : الذخيرة السنيه : ١٦ ، الاستقصاء : ١٣ / ٢ ،
عنان ، نهاية الأندلس : ٩٥ .

المغرب وبلتان قويتان هما : الدولة الحفصية في تونس (افريقيه) والدولة المرينية في فاس ، وقد ألمحنا الى ذكر الدولة الحفصية فيما سبق . أما المرينية فهي من أعظم الدول التي خلفت الموحدين اتساعا وقوه ، فقد كانت تحكم المغرب الأقصى كله بعد أن قضت على آخر الموحدين ودخلت عاصمتهم مراكش سنة ثمان وستين وستمائه ، وقد قامت هذه الدولة الفتيية برسالتها في الدفاع عما بقى من الأندلس ، وخاصة مملكة غرناطة ، ومثلت الدور الذي أداه قبلها المرابطون والموحدون في جهاد النصاري . ففي سنة سبعين وستمائه وصل صريخ ابن الأحمر حاكم غرناطة الى السلطان المريني أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق الطقب بالمنصور ، وكان هذا السلطان مولعا بجهاد الكفار كفا به ، فعلى الرغم من اشتغاله بحرب أعدائه من القبائل الثائرة في تلمسان وغيرها ، فإنه أرسل الى ابن الأحمر رسالة يعده فيها بالنصرة ويقول : " . . . وانا لندرجو أن نصلكم بنفسوس صلح جهرها وسرها ، ونقدم عليكم بما يبسط نفوسكم وسرها ، ويطلع لها الفوج من المكارة ، ويذهب عسرها ، فلتطيب نفوسكم برحمة الله وعونه " ثم جهز طرده في خمسة الاف مقاتل وأرسله الى الأندلس ، فعبر البحر ونفذ الى أرض النصاري وانتصر عليهم وعاد مثقلا بالغانم والسبي وفي هذا الوقت كان السلطان نفسه قد استكمل أهبطه فجاز الى الأندلس

(١) نهاية الأندلس : ٩٧ .

(٢) تاريخ ابن خلدون : ٩٢ / ٧ .

(٣) الذخيرة السنية : ١٦٢ .

..

في جيش كتيّف من البربر والعرب ، وظلّ يكتسح مافى طريقه الى أن وصل
قريباً من قرطبة ، وهناك خرج اليه جيش نصراني كبير بقيادة قائد هــم
(١)
الأشهر (ذننه) ، والتقى الجيشان في موقعة عظيمة بالقرب من (استجه)
(٢)
سنة أربع وسبعين وستمائه وصد المسلمون بقيادة السلطان الذي لم يسزل
بعض جنده على الاستشهاد حتى انجلت المعركة عن نصر ساحق للمسلمين
أعاد الى الأذهان ذكريات موقعة الزلاقة والأرك المجيدتين . وتقدير
الرواية الاسلاميه عدد قتل النصارى بثمانية عشر ألفاً جمعت رؤوسهم
(٣)
وأذن عليها لصلاة العصر .

(٤)
وكان ما استصخ به السلطان المريني قصيدة من نظم الشاعر ابن المرابط
(٥)
شاعر ابن الأحمر يقول فيها :-

هل من معيني في الهوى أو منجدي * من متهم في الأرض أو من منجس
هذا الهوى داع فهل من مسخف * باجابة وانابة أو مسعد

(١) مدينة قديمه تقع جنوبي غربي قرطبة ، محكمة البناء عظيمه الأسوار
والآثار والرسوم ، فتحها المسلمون سنة ٣٠٠ هـ وهي خصبة التربة
كثيرة الزرع والشجر ، واشتهر أهلها بمخالفة أوطى الأمر والخروج عن
الطاعة . / الروض المعطار " أستجه " .

(٢) عنان ، نهاية الأندلس : ١٠٠ .

(٣) الذخيرة السنية : ١٧٣ .

(٤) هو محمد بن علي بن عبد الرحمن المرادي ، شاعر مطبوع رقيق الشعر
سلك سلك المرققين ، وترك سبيل المتشدين

وأخباره قليلة جداً لانكاد نقف منها على شيء

من حياته الا أنه مات صغيراً ولم يتكسب بالشعر ، فلم يشتهر / الخريدة : قسم

شعراً الأندلس والمغرب : ٥٣٣/٣ .

(٥) تاريخ ابن خلدون : ١٩٨/٧ - ٢٠٠ .

- هذى سبيل الرشء قء وضحت فهىل * بالءءءءءن من امرئء مسءرءسءء .
- ىرءو النءءة بعءة الفرء وس أو * ىءشء المصىر الى العءىم الموءء .
- ىآءل النصر العزىء على العسءءء * أءب الءهىء سءء به ءوءىسء .
- سر النءءة الى النءءة سءسءءء * ان الءهىء لىو النءءة لمن هءى .
- لاءفرر بنسبءة الأءل السءى * ان لم ىءن لك نءءه فكأن قسء .
- سفر علىك طءءة آىامسءءء * ولم ءسءءء لءلوه فاسءءسءءء .
- أو ما علمءء بآنه لا ىءء مسءن * زاء لكل مسافءر فسءءزوء .
- هءا العءء رءىس أءمال ءءقسى * ءءء منه زاءك لاءءءك سءسءء .
- هءا الرىاء بأرض أنءلس فسءرء * منه لما ىرضى الءىك واغءسءء .

ىبءأ الشاعء قصىءءه بمقءءة وعظامىة ىبىن من ءءالءها قصر آءل الانسان فى الءىاة ، وأنه مءءء بالموء بىن اللءظة والأءرى ، ومءء هءا المسوء والرءىل عن الءنىا ءبءأ الرءلة الأءرىمىة الشاقه ءبءء الءساب والمقءاب فالسءىء الفاءز هو من آءبع الءهىء ان هو سر النءءة الءى من ءزوء به رشء وسءء ، وهءا الءهىء الءى ىرءز الشاعء على ذكروه ىءبلور فى العءسءء الءى ءقت ساءءه ، فهو ىشىر الىه بءءا لىءلل على قءبه وروقوه ، فمءلى السلءان المءاطب الا أن ىبءءر الى كسب ءظءه منه ثم ىءوءه الشاعء السى السلءان المرىنى لىشءء هءءه عن طرىق شرح ءال الاسلام والمسلمىن فسى الأءلس فىقءل :-

- من ذاء ىظمءء نفسه بعزىمىة * مشءوءة فى نصر ءىن مءسءء .
- آءمز من أرض العءء وءءاءسءن * والله فى آقءارها لم ىمءسءء ؟
- وءءل أرض المسلمىن وءبءلسى * بمءلءىن سءءوا بكمل موءسءء .
- كم ءامع فىها أءىء كىسءة * فأهلك علىه أسى ولا ءءءلسءء .

- القس والناقوس فوق منساره * والخمر والخزير وسط المسجد .
- أسفا عليها أقفرت صلواتها * من قانتين مراگعين وسجسد .
- وتعرضت منهم بكل معانسد * مستكبر قد كان لم يتشمسد .
- كم من أسير عندهم وأسيرة * فكلاهما بيضى الفدا فمافدى .
- كم من عقيلة معشر معقولة * فيهم تود لوانها فى ملحسد .
- كم من تقى فى السلاس موثوق * بيكى لاخر فى الكبول مقيسد .

ومادام مسلمو الأندلس بهذه الحالة المحزنة من الذل والقهر فسان
أولى من يستخاف به هو الجار المسلم . فنجد الشاعر يناديه باسم الأخسوه
الإسلاميه واسم الجوار وحقوقه فيقول :-

- أفلا تذوب قلوبكم اخواننا * ماد هانا من ردى أو من ردى ؟ :
- أفلا تراعون الأذمة بيننا * من حرمة وصحبة وتود ؟ :
- أكذا يحىث الروم فى اخوانكم * وسيوفكم للثأر لم تتقلسد ؟ :
- ياحسرتى لحمة الاسلام قد * خدمت وكانت قبل ذات توقد .
- أين العزائم مالها لا تقضى * هل يقطع الهندى غير مجرد .
- أبنى مرين أنتم جيراننا * وأحق من فى صرخة بهم ابتد .
- فالجار كان به يوصى المصطفى * جبريل حقا فى الصحيح المسند .

وهو هنا يكثر من الاستفهام المفيد للتقريح ليكون أبلغ فى اشعارهم
بالتقصير وتضميم حقوق الجار التى لها منزلة عظيمة فى الاسلام . وهذا
الأسلوب ربما كان أفضل ما ينتج مع قوم كالمرينيين الذين عرفوا بحبهم
للجهاد ، وتفضيلهم له على سائر الأعمال فهو يلهب حماسهم عندما يقبول
" أكذا يحىث الروم فى اخوانكم " أو عندما يصف حمة الاسلام بأنها

خمدت في عهدهم وكانت من قلوبهم مشتعلة . ثم يأخذ في بيان فريضة
الجهاد على المسلمين ككل ويخص أهل المغرب لقرينهم من ميدان القتال :-
أبني مريسن والقبائل كلها * في المغرب الأدنى لنا والأبصار .
كتب الجهاد عليكم فتبسطوا دروا * منه إلى الفرض الأحق الأوكسد .
وارضوا بأحدى الحسينين وأقرضوا * حسنا تفوزوا بالحسان الخسر .
هذي الجنان تفتحت أبوابها * والحرور قاعدة لكم بالمرصد .
لله في نصر الخليفة موعده * صدق فتوروا لا نتجاز الموعده .
أنتم جيوش الله ملء فضائسه * تأسون للدين الغريب الخسر .
ماذا اعتذاركم فدا للنبيكم * وطريق هذا الخدر غير مهسر .
ان قال لم فرطتم فسي أمتي * وتركتموهم للعدو الممتد .
تالله لو أن العقوبة لم تخفف * لكفى الحيا من وجهه ذاك السيد .
اخواننا صلوا عليه وسلموا * وسلوا الشفاعة منه يوم المشهد .
واسعوا لنصرة دينه يسقيكم * من حوضه في الحشر أعذب مسود .

والملاحظ على القصيدة غلوها من المدح الذي يلزم هذا النوع من
الشعر ، فهي تقتصر على المعاني الإسلامية فحسب كبيان سبيل المجاهد
الذي يقضى إلى إحدى الحسينين : الشهادة أو النصر كما تشير إلى عتاب
النبي - صلى الله عليه وسلم - الشديد للذين خذلوا اخوانهم المسلمين
وتركوهم فريسة للعدو والكافر ، ولعل سبب غلوها من المدح يرجع إلى نفس
المستنجد به الذي لا يريد أن يكون المديح هو دافعه للجهاد ، بل يريد
أن يجعل نيته خالصة لله ، ومنه يرجع الثواب الجزيل . وسبب آخر ربما
قصد إليه الشاعر عند كلامه عن الأخوة الإسلامية والحوار ، وهو اشعار السلطان
المريني بأن الأندلس بلاده ، والدفاع عنها واجب عليه ، فقيامه بهيئته

الواجب المفروض لا يحتاج الى مدح .

أما أسلوب القصيدة فهو سهل بعيد عن التوعر ، يعتمد على الواقعيه
فيما جرى ويجرى لأهل الأندلس من الفتن ، ويبعد عن الخيال ، والصور
والظلال لأنه ينطق من واقع مشاهد يعيشه بمواقفه وأحاسيسه ، وهذه
النفحات الانسانيه من الألم والحزن والرجاء هي معدن الجمال في هذا
الشعر .

وقد عارض هذه القصيدة ، وأجاب عما فيها من استفهام السلطان
(١)
المريني مالك بن المرحل وذلك بعد أن انتهت الممارك الحماسه التي دحر
فيها السلطان النصاري ، وخضد شوكتهم وعقد العزم على الرجوع الى عاصمتها
فاس بعد أن مكث في الأندلس ستة أشهر ، يقول ابن المرحل : (٢)

- شهد الاله وأنت يا أرض اشهدني * أنا أجينا صرخة المستنجد .
- لما دعا الداعي وردّ معلنا * قمنا لنصرتيه ولم نتردد .
- نسرى له بأسنّة قد جردت * من غضبها والصبح لم يتجرّد .
- لولا الأسنّة والسنايك مـادري * أحد بسير خيولنا في الفرقد .
- والخيل تشكونا ولا نذب سـوسوي * أنا نروح بها وأنا نغتدي .

(١) هو أبو الحكم مالك بن عبد الرحمن المرحل المصمودي نسبا ، والسبب
بلدا . ولد بمالقه سنة ٦٠٤ هـ . برع في الشعر والأدب وعلوم اللغه
والفقه . تولى القضاء بجهات غرناطه ، ثم رحل الى فاس وكتب للسلطان
المريني المنصور ثم لولده يوسف . وتوفي ابن المرحل سنة ٦٩٩ هـ بفاس
أنظر : عبد الله كتون ، زكريات مشاهير رجال المغرب : ٦ / ٨ .
(٢) رضوان الدايه ، مختارات من الشعر الأندلسي : ١٨٢ - ١٨٤ .

لو أنها علمت بنا في قصودنا * كانت تطير بنا ولم تسترد .
الله يعلم أننا لم نعتقد * إلا الجهاد ونصر دين محمد .
وهو هنا يبين استجابتهم لصرخ الأندلس ، وسرعة استعدادهم
للجهاد في سبيل الله ولا عزاز دين محمد - عليه الصلاة والسلام - وهو بهذا
يجيب نداء ابن المرابط فيما سبق حينما قال :
من ذا يظهر نفسه بعزيمة * مشحونة في نصر دين محمد .
ثم يسترسل الشاعر في وصف رحلة الجهاد ، وخوض البحر لا نقاذ اخوان
العقيدة :-

ثم اعترضنا البحر وهو كأنه * ملك تقدم في الجيش لمرصد .
فترامت الخيل العطاش لـورد * هيهات ما الماء إلا جاج بمسود .
يا خيل ان ورائنا منبا روى * وشاربا ، ومزارعا لم تحصد .
وأحبة بين الفواقد أصبحوا * يتوقعون الموت ان لم ننجد .
من مطلق العبرات الا أنه * تجرى دموع جفونه لمقيّد .
ومفجع لا يستند بمطعم * وروع لا يستقر بمرقّد .
إخواننا في ديننا وودادنا * ولهم مزيد تحبب وتودد .
نسرى بأجنحة البزاة الى العدا * مثل الحمام الحمامات السود .
واستقبلت بحر الزقاق بعصبة * نفذت عزائمها ولم تتعدد .
فاستبشروا في أفقهم بطلوعنا * كالشمس يوم طلوعها للأسعد .
حتى بختنا القوم في أوطانهم * إن الحوادث لا تجيء بموعّد .
ثم التقينا بالذين استصرخوا * منا بكل مؤيد ومسعد .

(١) بحر الزقاق : هو البحر الأبيض المتوسط ، أو مضيق جبل طارق .

(٢) الأسعد : هي الكواكب المشرفة التي يقال لكل واحد منها سعد .

ولاشك أن المجاهدين قد تجشموا عنا^١ كثيرا في سبيل الوصول إلى الأندلس ، فالبحر الهائج هو أول ما يعترض الطريق وهو عقبة تحتاج إلى عزيمة لا تقامها . ثم يصور منظر الخيل المجهدة العداشي وشوقها إلى الماء ولكن هيئات أن يكون هذا موردها وغاية منتهاها ، فهاذا البحر الأجاج إلا بداية الطريق للوصول إلى الماء العذب ، والزرع اليانع في ديار الأحيحة البائسين الذين لم يعودوا يستلذون المطاعم والمشارب ، ولا يذوقون طعم النوم لما دهاهم على يد العدو من القتل والأسر واضطراب الأحوال الأمر الذي لا يحتمل التأخير عن نصرتهم ومعونتهم . فكانت البشرية في نهاية الأمر حيث عبرت جنود الجهاد وهاغت العدو ، وأوقعت به مالم يكن يتوقع ، وفج الله بهم كرب اخوانهم . والشاعر يصف مجرى الحوادث وصفا واقعيا ومدون تفصيل كثير لأجزاء المشاهد الحربية ، ومدون مدح أو فخر لأنه كان يهدف من قصيدته اجابة ابن المرابط ومعارضته ، أما ماجرى من صدق الجهاد فقد شاهده الأندلسيون بأعينهم مما لا يحتاج معه إلى بيان أو تفصيل .

ولقد كان مالك بن المرهل يقوم في المغرب بحركة واسعة تدعو لانقاز (١) الأندلس المحتضرة ، فقد نظم في سنة اثنتين وستين وستائه قصيدة طويلة يستنفر فيها المجاهدين من بني مرين وغيرهم وكان آنذاك كاتباً للسلطان المريني أبو مالك بن يعقوب ، وقد قرئت القصيدة بصحن جامع القرويين في فاس بعد صلاة الجمعة ، فبكى الناس ، وانتدب كثير منهم للجهاد . وما جاء في القصيدة : (٢)

(١) شارك في هذه الحركة أناس آخرون بأساليب متنوعه . انظر / عنان ، عصر المرابطيين والموحدين : ٤٣٥ / ٢ .

(٢) كون ، زكريات مشاهير رجال المغرب : ٢٧ / ٨ - ٢٤ .

- استنصر الدين بكم فاستقدموا * فانكم ان تسلموه يسلم *
- لا تسلموا الا سلام يا اخواننا * واسرجوا لنصره والجموا *
- لا ذن بكم اندلس ناشدة * برحم الدين ونعم الرحيم *
- فاسترحمتكم فارحموها اننه * لا يرحم الرحمن من لا يرحم *
- ما هي الا قطعة من ارضكم * واهلها منكم وانتم منهم *
- لكنها عدت بكل كافر * فالبحر من حدودها والعجم *
- لها على اندلس من جننة * دارت بها من العدا جهنم *
- استخلص الكفار منها مدنا * لكل ذي دين عليها نسدم *
- قرطبة هي التي تبكى لها * مكة حزنا والصفاء وزم *
- وحمص وهي اخت بغداد وما * ايامها الا صبا والحلم *
- استخلصوها موضعا فوضعا * واقتدروا واحتكسوا وانتقموا *
- وقتلوا ومثلوا واسمروا * واحتلوا وايتسوا وايمسوا *

يستنصر الشاعر أهل المغرب باسم الاسلام لأنه الرحم القوي التي تجمع المسلمين على اختلاف أجناسهم وألوانهم ، ويدفعهم الى التضحية وبذل النفوس متميزة بذلك عن الروابط الأخرى التي سرعان ماتزل عند وقوع الخطر ومن هذا المنطلق فقد جاءت الأندلس تطلب صلة هذه الرحم ، راجية نصرة المجاهدين على الكفار الذين حولوا جناتها الى جحيم ، واقتطعوا منها أجزاءً غالية كقرطبة واشبيلية عاصمتي الاسلام في الأندلس ، وسامسوا المسلمين فيهما أنواع العذاب . وهم لم يفعلوا ذلك الا لأنهم ظنوا أن - لا ناصر لها :-

- ظنوا وكان الظن منهم كاذبا * أن ليس لله جنود تقدر *
- ما صدقوا أن وراء البحر من * يفضب للاسلام حين يظلم *

- ولا دروا أن لديكم عزيمة * يحفظها شبابكم والمهرم
- لو عرفوا قبائل العدو وقربا * عدوا على جيرانهم واجترسوا
- اليوم يدري كل شيطان بها * أن قد رمتهم بالشعاع الأنجس

ووهو هنا يستشير عزائمهم بوصفهم بجنود الله الذين يفضبون لحرماته
عند ما تنتهك ، كما يرفع من شأنهم بحمايتهم للجار وصيانتهم ، فمابالك
وقد اعتدى الكفار على جيرانهم ، وعاشوا في ديارهم ، ان الدفاع قد وجب
عليهم ولا شك . ثم يحاول دفعهم الى ساحات الجهاد من جانب آخر
وذلك أن فيهم قد سبقهم في هذا المجال ، وأدى دوره ، وفاز بالأجر
والمغنم :-

- يا أهل هذي الأرض ما أخرجكم * عنهم وأنتم في الأمور أحزم
- تسابق الناس الى مواطن * الأجر فيها وافر والمغنم
- وقامت الحرب على ساق فما * زلت لأهل الصدق منهم قدم
- باعوا من الله الكريم أنفسا * كريمة ففاض منها الحكيم
- دعاهم الله الى رحمته * وحيهم بين يديه يخدعهم
- أخرجهم من بيته ايمانه * وحبه في فعل مايقدم
- ملهه الا قتال أمية * يكفر عيسى قولهم ومريم
- لم يثنه عن عزمه أهل ولا * مال ولا خوف نعيم يعمد

ومادامت عاقبة الجهاد عظيمة ، والقوم أولى ايمان وحزم فقيم القمصود

اذن ؟ :

- إخواننا ماذا القمصود بعدهم * أفي ضمان الله مايتهم
- هل هي إلا جنة مضمونة * أو عودة صاحبها مكسوم
- حدوا السلاح انفروا وسارعوا * الى الذي من ركنهم وعدتهم

- ان أمام البحر من اخوانكم * خلقا لهم تظفت اليكم
- ونحوكم عيونهم ناظرة * لا تطعم النوم وكيف تطعمهم ؟
- والروم قد همت بهم ومالهم * سواكم رد فأيمن الهمم
- كهم ينظر في أطفاله * ودعه من الحذار يسجهم
- أين المفر لا مفر انما * هو الغياث أو اسار أو دم

والقصيدة سهلة في أسلوبها ، واضحة في أفكارها ومعانيها ليس فيها
تعمل ولا صنعه ، وذلك لأنها كانت موجبة الى عامة المسلمين في دولة
بنو زرين ، وقد انطلق فيها صوت الشاعر الناصر معبرا عن عاطفته الاسلامية
التي يحث على الذب عن الاسلام الذي جاء مسترحما مائلا في من الشدة
وداعيا الى استخلاص ما أخذ من اراضى الأندلس طقيا تبعة ذلك على من
يخطبهم لأن أرض المسلمين واحدة وان حالت الحواجز دون اتصالها .

فما أصاب قرطبة أبكى مكة وحرمةا وفي ذكر الأماكن المقدسة على هذه
الصورة من الحزن دفعة قوية لهم القوم وعزائمهم نحو الجهاد .

لسان الدين بن الخطيب و دوره في استصراخ بني مرون :-

في منتصف القرن السابع الهجري عاد شبح الفناء يخيم على الأندلس
من جديد ، فقد أخذت قواعدها الكبرى كقرطبة ولنسية واشبيلية تسقط
تباعا في يد النصارى ، واجتاحت الفتن والثورات المحلية أجزاء أخرى حتى
كاد يرجع عصر الطوائف من جديد . وتمخضت هذه الفوضى بالتالى بسقوط
عن ولاية ملكة اسلامية جديدة في جنوب الأندلس هي ملكة

(١)

فرنطة التي عاشت حوالي قرنين ونصف في صراع مرير مع النصارى المترهصين
ما اضطر حكامها في كثير من الأحيان الى عقد صلح جائر الشروط مع النصارى
وذلك بدفع المبالغ الماليه الضخمة كجزية سنويه ، مع التنازل عن كثير من
(٢)
المدن والحصون . ولعل موقعها الجغرافي كان له أكبر الأثر في صعودها
هذه المدة الأولى فهي تقع وراء القواعد والثغور الجنوبية المنيعه ،
وبفصلها عن أسبانيا النصرانيه نهر الوادي الكبير ، وفي الوقت نفسه
كانت قريبه من عدوة المغرب حيث الدولة المرينييه التي كانت الساعد الأيمن
لهذه المملكة .

وقد كان لسان الدين بن الخطيب يشغل منصب الكتابة والوزارة في هذه
العطلة أيام سلطانها يوسف بن اسماعيل بن فرج بن نصر الخزرجي المكسني
(٣)
بأبي الحجاج الذي تولى سنة أربع وثلاثين وسبعمائه ثم لولده أبي عبد الله
محمد الطقب بالفني بالله الذي تحرك النصارى صوب فرنطة في أيامه ،
فبعث وزيره ابن الخطيب مستجداً بالسلطان المريني أبي عنان فارس فقال
بين يديه : (٤)

-
- (١) أسسها محمد بن يوسف بن محمد بن خميس بن نصر بن قيس الخزرجي
من سلالة سعد بن عباده رضي الله عنه - ولد سنة ٤٥٤هـ بأرجونته
(بلدة صغيرة تقع شمال غرب مدينة جيان) وعرفت ولقبهم باسم
الدولة النصريه وهي آخر معاقل المسلمين في الأندلس / انظر :
الإحاطة : ١٥٨/١ ، عنان : نهاية الأندلس : ٣٨ .
(٢) تاريخ ابن خلدون : ١١٠/٧ .
(٣) ابن الخطيب ، اللبنة البدرية : ١٠٣ - ١٠٤ .
(٤) المقرئ : ازهار الرياض : ٢٠٦/١ .

- خليفة الله ساعد القدر * علك ملاح في الدجى قمر .
- ود افعت عنك كفاً قدرته * ماليس يسطيع دفعه البشر .
- ليس لنا طجاً نؤمّله * سواك أنت الشمال والوزر (١)
- وجهك في النائبات بدر دجى * لنا وفي المحل كفاً المطر .
- والناس طورا بأرض أندلس * لولاك ما أوطنوا ولا عمروا .
- وجملة الأمر أنه وطن * في غير طيباك ماله وطن .
- ومن به منذ وصلت هبلهم * ماجحدوا نعمة ولا كسروا .
- وقد أهتمهم نفوسهم * فوجهوني اليك وانتظروا .

والأبيات كلها مدح للسلطان بصفات الرجاء والكرم ، مع التأكيد على ولاه أهل الأندلس له واعترافهم بفضله السابق وطلبهم المزيد منه . وقد أجاد الشاعر الوزير في اختيار الألفاظ التي تصلح لهذا المقام ماجمل السلطان يهتز لهذه الأبيات ، ويقول لابن الخطيب قبل أن يجلس ، ما ترجع اليهم الا بجميع طلباتهم * . ثم أثقل كاهلهم بالاحسان ودهم بجميع ما طلبوه .

وقد شغل شعر الاستغاثة ، والحث على الجهاد ومدح المجاهدين من السلاطين المسلمين حيزا كبيرا من حياة ابن الخطيب وشعره ، وذلك بحكم منصبه الخطير ، وحرصه على سلامة بلاده . فله من قصيدة وجهها لكافسة المسلمين بالمغرب من أهل الأندلس عند كلب العدو الكفور ، وظهوره على بعض الثغور :

(١) الشمال : الطجاً ، والفيث . الصحاح (ثل) ، الوزر : الجبل الذي

يمتصم به ، وهو السلاح أيضا . اللسان (وزر) .

(٢) الاحاطة : ٢٣/١ .

(٣) ابن الخطيب ، ديوان الصيب والجهام : ٦٢٨ - ٦٣٠ .

- اخواننا لا تنسوا الفضل والمطافا * فقد كاد نور الله بالكفر أن يذابا .
- واذ بلغ الماء الزبا فتدراكوا * فقد بسط الدين الحنيف لكم كفا .
- تحكم في سكان أندلس المسدا * فلهفا على الاسلام ما بينهم لهفا .
- وجاشت جيوش الكفر بين خلالهما * فلا حافرا أبقث عليها ولا ظلفا .
- أنوما واغفا على سنة الكسرى * وما نام طرف في حماها ولا أغفا .
- أحاط بنا الأعداء من كل جانب * فلا وزرا عنهم وجدنا ولا كهفا .

يوجه الشاعر خطابه الى اخوانه في العقيدة ملتصبا فضلهم وعودتهم لنصرة الاسلام الذي يمد يديه مستغيثا بعد أن تحكم الأعداء في بلاده ، وأحاطوا بأتباعه من كل جانب وفعلوا بهم الأفاعيل :-

- فمن معقل حل العدو وعقاله * ومن مسجد صار الضلال به وقفنا .
- ومن صبيه حمر الحواصل أصبحت * تقلب ذعرا بين أعدائها الطرفنا .
- ومن نسوة أضحت أيام حواسرا * يعاين في أعيانها الوهن والضمنا .
- وسيلتنا الاسلام ، وهو أخوة * من الملاء الأعلى تقرينا زلفنا .
- فهل ناصر مستبصر في يقينه * يجير من استعدى ويكفى من استكفا .
- ومنتجز فينا من الله وعده * فلا نكث في وعد الاله ولا خلفنا .
- وهل بائع فينا من الله نفسه * فلا مشترأولى من الله أو أوفنا .

ثم يتوجه الى أهل المغرب من المرينيين وغيرهم مستثيرا عواطفهم الاسلاميه بشئ من المدح المشوب بالعتاب لتأخرهم عن الجهاد بعض الشئ قائلا :

- أفى الله شك بعدما وضح الهدى ؟ * وكيف لضوء الصبح في الأفق أن يخفا .
- وكيف يعيث الكفر فينا ود وننا * قبائل منكم تعجز الحصر والوصفا .
- غيوث نوال كلما سئلوا الندى * ليهوث نزال كلما حضروا الزحفا .
- اذا كاتب يوما فأفلامها القسا * وان أرسلت كانت صفائحها الصفا .

(١)
فقوموا برسوم الحقّ فينا فقد عفا * وهبوا لنصر الدين فينا فقد أشفنا ،
(٢)
وهانحن قد لذنا بمرزحماكم * ونرجو من الله الإداية واللطفنا .
انه يخاطب قوما مسلمين أدركوا قيمة الجهاد ، وخاضوا غماره في الأندلس
مرات عديدة ، وظفروا بالعدو ، وأفاثوا اخوانهم . فذلك نرى نبرته الحماسية
القوية التي تستنكر أن يعرهد الكفر ويصول بالأندلس المسلمه ، ومن ورائها
آلاف من ليوث أهل المغرب المرهوبة الجانب .

أما أسلوب ابن الخطيب فتغلب عليه الصنعة البلاغية بمختلف ألوانها ،
(٣)
ويستوى في ذلك شعره ونثره ، وذلك لأن السجع والزخرفة كان هو طابع
الأساليب الأدبية في الأندلس منذ القرن الخامس الهجري الى القرن التاسع
وقد كان شاعرنا علما من أعلام الأدب في هذا المجال ، أما عاطفته فهي
ثائرة دفاقة تشف عن همة عالية تتسامى فوق الجراح والمصائب . فقد كان
ابن الخطيب يرى بثاقب بصره ، ومن مجريات الأحداث النتيجة الحتمية
التي سيؤول اليها أمر الأندلس المضطرب ، ولكنه ظل يحث على الجهاد فسي
حماس ويمدح المجاهدين ، حتى انه عندما انهزم سلطانه ابن الأحمر ومساعدته
السلطان أبو الحسن المريني في معركة طريف لم يعدها هزيمه - مع ضخامتها -
(٤)

-
- (١) أشفى : شارب ، وقرب . الصحاح (شفى) .
(٢) الادالة : النصر والغلبة . المصدر نفسه (دول) .
(٣) انظر رسالته النثرية في استتجاد بني مرين في النفح : ٤ / ٤٠٤ ومابعدها .
(٤) طريف : جزيرة على البحر المتوسط ، يتصل غربيا بالمحيط الأطلسي
وتقع في أول المجاز من المغرب الى الأندلس وهي تنصب الى طريف بين
مالك مولى موسى بن نصير أول من وطئت قدماه الجزيرة حينما بعثه
موسى بحملة استطلاعية قبل الشروع في فتح الأندلس . / الروض المعطار
(طريف) . ومعركة طريف حدثت سنة ٧٤١هـ في هذا الموضع عندما =

(١)

وراح يشببها بمعركة أحد ، متوعدا النصرى بالثأر القريب قائلا :-

- ان الحروب سجال طالما وهبت * فو اليوم فرصتها واسترجمت لفسد .
- لا يفرر الروم مانالوا ومافعلوا * فان ذلك املا* الى أمـــــــد .
- فللقلوب من الغصا* منصــــرف * بما تقدم فو بدر فو أحمــــد .
- وان دون طلاب الثأر أسد وغى * من قومك الغرأوأبائك النجــــد .
(٢) (٣)
- قد أظعوا كل مشحون الفرار الى * شن الخوار وسلوا كل ذى هــــد .
- والعزم باد وصنع الله مرتقب * والفتح منتظر ان لم يحن ففسد .
- وعادة النصر لا تستبط مقدمها * ان لم توافك فو سبت ففو أحمــــد .

استمر لسان الدين بن الخطيب فو وزارة أبى الحجاج الى أن توفى قتيلا فو سنة خمس وخمسين وسبعمائه ، وخلفه ولده محمد الغنى بالله فثبت ابن الخطيب فو وزارته ووفع من منزلته وفوى اليه كثيرا من أمــــور الدولة ، حتى أصبح الرجل المشار اليه فو حمرا* فرناطه . ولكن هذا المجد لم يدوم طويلا اذ سرعان ماتطورت الأمور وحدثت فو غرناطة ثورة أطاحت بالغنى

= حشد النصرى جموعا كبيرة للاستيلاء* على مابقى للمسلمين بالأندلس . فاستتفرو أهل الأندلس السلطان المرينى فجا* بنفسه فو أساطيل عظيمه وجاء* ابن الأحمر بقوات الأندلس . ولكن الله قضى عليها بالهزيمة وحطمت معظم مراكبها البحرية ، وأسر ابن السلطان وحرمه واستشهد فيها والسد ابن الخطيب وأخوه الأكبر . / انظر تاريخ ابن خلدون : ٢٦١ / ٧ ، النفح : ٣٨٦ / ٤ .

(١) القصيدة فو ديوان ابن الخطيب السابق : ٤١٠ - ٤١١ .

(٢) الفرار : حد السيف ، اللسان (غور) .

(٣) الميد : الميل والاضطراب . أساس البلاغه (ميد) والمقصود هنا الرماح .

(٤) انظر : أزهار الرياض : ٦٢ / ١ .

بالله ووزيره ، ونج بهما في المعتقل سنة ستين وسبعمائه . وكانت ترسب
السلطان المخلوع علاقة موده وصداقه بطرك المغرب أبو سالم المريثي ، وكان
أبو سالم قد لجأ اليه حينما تغلب عليه أخوه ونفاه الى الأندلس فأكرم الفتي
بالله مشواه . فرعى السلطان المريثي هذه اليد ، وأرسل الى غرناطة
سفيرا يسمى لدى الحاكم الجديد في السماح للفتي بالله ووزيره ابن الخطيب
بالجواز الى المغرب فنجحت المهمته ، وعاد السفير ومصحبته من كان يبغي ،
فاستقبلهما أبو سالم أجمل استقبال في فاس ، واحتفل بقدمها في يوم مشهود ،
وفي هذا الحفل أنشد ابن الخطيب قصيدة طويلة يدعو فيها لنصرة سلطانها
(٢)
يقول :-

- سلا هل لديها من مخبرة ذكسر * وهل أعشب الوادي ونمّ به الزهر .
- وهل باكر الوسمي دارا على اللوى * عفت آيها ، الا التوهم والذكور .
- بلادى التي عاطيت شموله الهوى * بأكافها والعيش فينمان مخضّر .
- وجوى الذي رهى جناحى وكسره * فيها أنذا مالى جناح ولا وكسره .

(١) قام بهذه الثورة أخو الفتي بالله ، اسماعيل الذي كان معتقلا في بعض
أبراج الحمراء ، واستطاع أن يجمع حوله بعض الأتباع وطى رأسهم
صهره المكنى بأبي عبد الله ، وفي الثامن والعشرين من رمضان من السنة
المذكورة استغل هؤلاء القوم تحول السلطان الفتي بالله الى سكنى
قصر جنة العريف الواقع شمال شرق الحمراء ، وابتعاده عن دار الطك
وهاجموا حصن الحمراء ونفذوا الى قصر الحاجب المسمى رضوان وقتلوه ،
ودقوا الطبول ونادوا باسماعيل أميرا على غرناطة . / انظر : ابن
الخطيب ، اللحة البدرية : ١٢٠ .

- (٢) القصيدة في المصدر السابق : ١٢٢ - ١٢٥ ، تاريخ ابن خلدون : ٣٠٧/٧ .
النفح : ٨٦/٥ .

- نبت بنى لآعن جفوة وملا لسة * ولا نسخ الوصل الهنى بها هجر .
- ولكنها الدنيا قليل متاعها * ولذاتها دأبا تزور وتزور .
- فمن لى بقرب العهد منها ودونها * مدى طال حتى يومه عندنا شهر .
- ولله عينا من وآنسا ولأسسى * ضرام له فى كل جانحة جمر .
- وقد بددت درّ الدموع يد النوى * وللشوق أشجان يضيق لها الصدر .
- أقول لأظعاني وقد خالها السرى * وآنسا الحادى وأوحشها الزجر .
- رويدك بعد العسر يسران أبشرى * بانجاز وعد الله قد ذهب العسر .

يسير الشاعر فى قصيدته هذه على نهج عمود الشعر العربى القديم

أو قريبا منه . فهو قد استفتح بذكر الديار التى عفت ودرست ولم ييسق
الا ذكرها ، ويستعين بذكر مستلزمات هذا الاستفتاح كذكر اللوى الذى أصبح
رمزا للحنين الى الديار استعمله الشعراء عبر عصور الشعر منذ أن بدأ بذلك
امرؤ القيس فى الجاهليه . كما يذكر العفاء ، والتوهم ، والذكر وما الى ذلك
من الأمور الدالة على شوقه لبلاده التى أخرج منها كرها من غير طل منسه
أو جفاء ، ثم يعلل ذلك بأن هذه هى سنة الدنيا التى يتذبذب فيها الخير
والشر ، ومع أن وقف بالديار نراه يحث الأظعان التى أنهكها السرى
كما يقتضيه ترتيب قصيدة المدح الجاهليه والا أية أظعان يحد وبها الحادى
فى الأندلس : ثم يختم تخلصه من وصف الرحلة المفضيه بالاستبشار بالفجر
بعد الشده حيث الحلول فى ديار السلطان الكريم :

- زجرنا بابراهيم بره همومنا * فلما رأينا وجهه صدق الزجر .
- بمنخب من آل يعقوب كمننا * دجا الخطب لم يكذب لعزمته فجر .
- تناظت الركبان طيب حديشه * فلما رأته صدق الخبر الخسبر .
- ندى لوجوها البحر لذ مذاقه * ولم يتمقب مدّه أبدا جسر .

- وأس غدا يرتاع من خوفه الردى * وترفل فى أثوابه الفتكة البكر (١)
- أطاعته حتى العصم فى قنن الربا * وهشت الى تأمله الأ نجم الزهر .
- قصدناك ياخير الطوك على النوى * لتتصفنا مماجنى عبدك الدهر .
- كففنا بك الأيام عن غوائها * وقد رابنا منها التعسف والكسر .
- ولما أتينا البحر يهرب موجهه * ذكرنا نذاك الفمرفا حقر البحر .
- خلافتك العظمى ومن لم يدن بها * فايما نه لغو وعرفانسه نكسر .
- ووصفك يهدى المدح قصد ثوابه * اذا ضل فى أوصاف من دنك الشعر .

وهكذا يأخذ الشاعر فى مدح السلطان بأسلوب جزل فخم ، فهو فرع من دوحه بنى مرين العريقه وقد سمع بذكره ، وجوده الخمر القاصى والدانسى وعم ذلك الآفاق . وهو أيضا مثال الشجاعة والبأس الذى يرهبه الجميع حتى الموت نفسه ، ودان له الدهر وأصبح من عبده ، وهذا من عظيم المبالغه لأن الدهر فى نظر الشعراء دائما يرمز الى البلاء المتسلط ، والعدو الذى لا يهزم أبدا . وقد وضعه ابن الخطيب بهذه المنزله ، ليهون أمر استرداد سلطان سيده الخنى بالله من تلك الشرذمه الضعيفه اذا ماشد الممسدوح عزيمته . ثم يسترسل الشاعر فى المدح واصفا خلافة المرينى بأنها عزلا لاسلام وأهله الذين كانوا يتمنون . منذ القديم تولى أبو سالم لها :

• ومدت الى الله الأكف ضراعه * فقال لهن الله : قد قضى الأمر .

ومعد ذلك يصل الشاعر الى غايته وهو طلب مساعدة سيده فى ارجاع طوكه

المفتصب :

(١) العصم : الرعول ، قنن الربا : قم الجبال . / انظر الصحاح

(عصم) ، (قنن) .

- وهذا ابن نصر قد أتى وجنابعه * مهيبى ومن عليك يلتبس الجسبر .
غريب يرجى منك ما أنت أهله * فان كنت تبغى الفخر قد جاءك الفخر .
ففز يا أمير المؤمنين بببيمة * موثقة قد علّ عروتها الفسدر .
ومثلك من يرضى الدخيل ، ومن دعا * بيا لمريم جاءه العزّ والنصر .
وخذ يا امام الحقّ بالحقّ ثأره * ففى ضمن ماتأتى به العزّ والأجر .
وأنت لها يناصر الحقّ فلتقم * بحق ، فما زيد يرجى ولا عمرو .
يكف بك العادى ويحيا بك الهدى * ويبغى بك الاسلام ما هدم الكفر .
أنه الى أوطانه عنك راضيا * وطوّقه نهماك التى مالها حصر .
وعاجل قلوب الناس فيه بجبرها * فقد صدهم عنه التغلب والقهر .
وهم يرقبون الفعل منك وصفقة * تحارطها يملك ما بعدها خسر .

ثم يعود بعد هذه الأبيات الى مدح بنى مريم رهط السلطان ، واصفا

اياهم بالشجاعة وحب الجهاد واكتساب الثناء العاطر ببذل النفوس ، والصدق
فى المعارك ، كما يصفهم بالأخلاق الحميدة وتدوقهم للشعر :

وان مدحوا اهتزوا ارتياحا كأنهم * نشاوى تشتت فى معاطفهم خمير .

أما عن مدى تأثير هذه القصيدة فى نفوس سامعيها ، فيقول ابن خلدون

الذى كان من شهود ذلك الحفل حيث كان من أكابر رجال الدولة المرينية

وكتابتها - يقول : ان ابن الخطيب قد أبكى سامعيه تأثرا وأسى ، ويقول ابن

الخطيب نفسه : ان الناس كانوا يرتجفون تأثرا لأقواله وتسيل منهم العسبرات .

(١) تاريخ ابن خلدون : ٣٠٦/٧ .

(٢) الاحاطة : ٢٦/١ ، وانظر نفاضة الجراب : ١٠٣ وما بعدها .

ولعل سبب هذا التأثير راجع الى صدق عاطفة الشاعر الذي مسته النكسة
شخصيا فجرد من منصبه واستتصلت أمواله وضياعه ، وأصبح هو وسلطانسه
الغنى بالله بعد العزّ غريبين لا يملكان شيئا من الدنيا .
آخر أصوات الاستغاثة :-

في النصف الثاني من القرن التاسع الهجري كانت مملكة غرناطة تعيش
ظروفا قاسية جدا من الاضطراب والانقسام . فنذ أن تولى الحكم فيها
السلطان أبو الحسن علي بن الأحمر سنة ثمان وستين وثمانمائه نازعه أخوه
الأمير محمد بن سعد المعروف (بالزغل) أي الشجاع الذي كان واليا على
منطقة مالقه وأيده في ذلك مجموعة من القواد والأجناد ، فأطن الحرب على
أخيه ، وكانت النتيجة انقسام المملكة الى شطرين متخاصمين وفي هذه الأونة
التي اشتغل المسلمون فيها ببعضهم ، كانت أسبانيا النصرانية في آخر مراحل
الاتحاد النهائي ، وتم ذلك بزواج فرناندو ابن ملك أراجون من ايسابيلا
أخت ملك قشتاله ثم اعلانهما ملكين لقشتاله وأرجون سنة اثنتين وثمانين وثمانمائه ،
(١)

(١) مدينة بالأندلس على شاطئ البحر غربي غرناطة ، وهي قديمة البناء تحيط
بها الأسوار الصخرية المنيعه وتشتهر بكثرة أشجار التين الذي كان يحصل
منها الى الشام والعراق لجودته . وكان يتبعها في آخر عهد ها الاسلام
عدد من المدن والحصون / انظر الروي المعطار (مالقه) .

(٢) العربي الفاس ، مرآة المحاسن : ١٤٢ .

(٣) عنان ، نهاية الأندلس : ١٩٤ .

وهذا أصبحت الأندلس - مع ماتعانيه من ضعف - تواجه أعظم قوة واجهتها فسو
تاريخها الطويل ، وهذا من تحركات الملوك الكاثوليكين فرناند و ايسابيللا
عزمهما على تسديد ضربة قاضية لاخر معقل اسلامي في الأندلس أعنى غرناطة
وهنا كان لابد لمسلمي الأندلس من طلب النجدة من اخوانهم المسلمين فسو
المغرب كما هي عادتهم منذ زمن طويل ، ولكن هذا غير ممكن الآن ، حيث
خبت قوة الدولة المرينية ودخلت في طور الانحلال ، وكان ذلك في عهد آخر
حكامهم السلطان عبد الحق الذي تولى سنة ثلاث وعشرين وثمانمائه ولم يكن
في حزم أسلافه العظام فأهمل أمور الدولة مما جعل وزيره يحيى بن يحيى الوطاسي
يستبد بالامر ، ويحاول نقل السلطنة الى قومه بني وطاس (وهم بطن من بطون
مورين) ولما اشتد أمره قبض عليه السلطان وقتله مع رهط من أنصاره ، وأسلم
عبد الحق زمام الدولة للرعايا وخاصة اليهود الذين عاشوا في البلاد ونسوا ،
فثار الشعب وعزل عبد الحق وقتله سنة تسع وستين وثمانمائه وبه انقرضت
دولة بني مورين ، وقام على أثرهم بنو وطاس في حكم المغرب ، حيث استطاع
زهيمهم محمد الشيخ بن زكريا ان يستولى على فاس سنة ست وسبعين وثمانمائه
ثم يضم اليها سائر الجهات والقبائل ويكون الدولة الوطاسية ، ولكنها لم تكن
من القوة بحيث تعبر البحر لانقاذ الأندلس كالمورينية . فاستقر رأي أهل
الأندلس على الاستنجاد بالمماليك حكام مصر ، فلما وصل الأندلس الي
القاهرة قدموا كتاب الاستغاثة الى سلطانها الظاهر جقمق سنة أربع وأربعين
وثمانمائه ، فرد عليهم بأنه سيبحث الى ابن عثمان سلطان القسطنطينية
أن ينجذ الأندلس ولكمهم طلبوا منه عون مصر نفسها ، فاعتذر ببعد الشقة
والاحتياج لكثرة المراكب والعدة . (٢)

(١) السلاوي ، الاستقصا : ١١٨/٤ - ١١٩ .

(٢) انظر السلوك : ق ٣ ، ج ٤ ، ص ١٢١٩ ، الضو اللامع : ٦٧/٥ .

ولم تسفر هذه الرحلة عن نتيجة ، ماشجع النصارى على المضى فى تحقيق
أهدافهم بالقضاء على مملكة غرناطة قبل أن تكون نواة لخطر اسلامى داهم
ينساب من وراء البحر ممثلا فى المثمانيين ، وساعدهم على ذلك قيام أبى عبد الله
محمد بن أبى الحسن بثورة على أبيه وعزله وتولى الحكم مكانه فى غرناطة
وكان هذا السلطان ضعيفا ، حيث حاول أن يغزو النصارى ، فوقع فى أسرهم
فاشتروا لاطلاقه أن يخضع لهم ، ويحبب الصلح معهم عند المسلمين ، ويدفع
جزية كبيرة مع اطلاق الأسرى النصارى ، وأن يقدم ولده رهينة حتى يتم وفاءه
بشروطه فلما أطلق رجع الى غرناطة حيث كان عمه الزغل قد جلس مكانه
فى الحكم ، فأخذ أبوعبد الله يحرض الناس على الثورة بعمه بعدهم بالسلامة
والأمن الذى سيعم من جراء عقد الصلح مع ملكى اسبانيا والفعل انصاع الناس
لأقواله وثاروا فى وجه الزغل الذى ارتد الى (وادى آش) ليستعد للحرب
الذى شنها عليه ابن أخيه ، وفى غمرة هذه الأحداث تحرك الجيش القشتالى
الى مالقه ليمنع باحتلالها أى مدد يأتى من البحر ، وضرب عليها الحصار فى
سنة اثنتين وتسعين وثمانمائة ، وصد أهلها صمودا رائعا ، وأوقعوا
بالمحاصرين خسائر كبيرة ، ولكنهم اضطروا الى التسليم عندما فتك بهم الجوع
والمرض بعد ثلاثة أشهر وفرض النصارى على أهل المدينة شروطا قاسية من
أهمها : اعتبار جميع أهل مالقه رقيقا يجب عليهم اقتداء أنفسهم ، مع دفع
الغرامات الباهظة ، ولا يسمح لمن خرج منها أن يقيم فى غرناطة بل فى قشتاله .

(١) مجهول ، أخبار العصور فى انقضاء دولة بنى نصر : ١٥٠ .

(٢) مدينة كبيرة بالقرب من غرناطة ، تكثر فيها المياه والأنهار التى تنحط
اليها من جبل شليد الواقع فى شرقها ، وعلى ضفافه تكثر الأشجار المتنوعة ،
وينسب الى وادى آش كثير من العلماء . انظر الروض المعطار : (وادى آش) .

(٣) عنان ، نهاية الأندلس : ٢١٧ .

واذاً هذا الحادث أرسل الرنظ سفارة أخرى الى مصر لشرح أحوال المسلمين
(١)
بالأندلس وطالب النجدة من السلطان الأشرف قايتباي ، وتشير بعض الروايات
الى اتفاق سلطان مصر مع بايزيد الثاني العثماني على أن يفزو الأسطول
العثماني صقلية ليشغل الأسيان عن الأندلس مقابل أن يرسل قايتباي
أسطولا آخر عن طريق افريقيا يشترك في الدفاع ومقاومة النصارى . وربما كان
مثل هذا الاتفاق مستبعدا بعض الشيء لأن العلاقات بين البلدين في هذه
الآونة علاقات جفا وقطيعة ، وتوجس شديد لدى المماليك في مصر من
تحركات العثمانيين نحوهم . وعلى فرض صحة هذه الرواية فاننا لا نجد أي أثر
فعلي لأي من الطرفين المذكورين في اغاشة الأندلسيين المحاصرين .

(٢)

والذي تذكره المصادر التاريخية أن جواب قايتباي كان بإرسال سفارة
مصرية الى البابا والى الملكين الكاثوليكين ، واختار لأدائها راهبين من رعاياه -
النصارى أحدهما القسيس أنطونيوميان رئيس دير القديس فرنسيس في بيست
المقدس ، وزودهما بكتب تحمل استنكاره لفعل النصارى وعدوانهم على المسلمين
واحتلال أرضهم ، في حين أن رعاياه من النصارى في مصر والقدس يعيشون في
أمن وحريه كامله ، ولهذا فانه يطلب من الملكين الكف عن البطش بالمسلمين
والرحيل عن ديارهم ، ورد ما أخذ منها والا فانه سيضطر الى اتباع سياسة
العنف والتكيل مع نصارى بلاده ويهدم كنائسهم ومعابدهم . وما كانت هذه
السفارة لتثنى عزم ملك اسبانيا عن متابعة احتلال الأراضى الاسلاميه وخاصة
أنهما أصبحا على وشك الظفر النهائي ولكنهما مجاملة للسلطان ووسله ردا بأنهما

(١) على محمد حموده ، تاريخ الأندلس السياسي والعمراني والاجتماعي : ص :

(٢) ابن اياس ، بدائع الزهور ووقائع الدهور : ٢٤٦/٣ .

لا يفرقان في المعاملة بين رعاياهما المسلمين والنصارى ، ولكنهما لا يطيقان الصبر على ترك أرض الأباة والأجداد بيد غيرهما . (١) وذهبت هذه السفاره صيعة في واد . ولم ينفذ السلطان وعيده ، ربما لا نشغاله بتحركات العثمانيين ، وترك الأندلس تواجه مصيرها منفردة . ففي سنة خمس وثمانين وثمانمائه أرسل الملكان الى أبى عبد الله حاكم غرناطة يطلبان منه تسليم المدينة التي كانت تروج بما يزيد على أربعمئة ألف نفس من الذين هاجروا اليها عند سقوط مدنهم وحاول أبو عبد الله اقناعهم بالعدول عن ذلك ، ومذكرا اياهم بمخالفته لهم ضد بنى دينه ووطنه ، ولكن هيئات أن تستمع القوة الى كلام الضعفاء والجبناة فقرر عندئذ المقاومه واشتباك مع النصارى في حرب غير متكافئه ، اضطر على أثرها الى التحصن داخل المدينة . فضربوا حولها حصارا شديدا مدة سبعة أشهر أنهمكوا خلالها قوة المدافعين فلجأوا الى التسليم سنة سبع وثمانين وثمانمائه (٢) على ستة وخمسين شرطا من أهمها أن تسلّم قلاع الحمراء وابراجها وجميع أبواب غرناطة الى الطليكين أو مندوبهما في ظرف ستين يوما ، ويتعهد الملكان بتأمين السلطان وشعبه بكافة طبقاته على الأرواح والأموال والدين فلا يمنعوا مسن تأدية شعائرهم ، ولا تهدم مساجدهم ، ولا يجبر من أسلم من النصارى على الرده ، كما يحكم بين المسلمين في المنازعات قضاة منهم ، من أراد الهجرة الى المغرب فله ذلك بكامل عدته وأمواله وسفن النصارى . ومن أراد العودة مسن المغرب فلكذلك . أما الضرائب فلا يدفع أهل غرناطة أكثر مما كانوا يدفعون مسن لحكامهم في السابق . والى آخر هذه الشروط التي لم يكن يحلم بها أهل غرناطة

(١) نهاية الأندلس : ٢٢٢ .

(٢) نفتح الطيب : ٥٢٥/٤ .

ولكن هل نفذ منها شيء ؟ ان فرناند ورجل الفرصة السانحة لا يحفل بوعد ولا عهد متى وانتته الظروف ، كما ان ايسابيللا كانت تضطرم حماسا لعقيدتها الكاثوليكية وتستجيب لطلبات القسس الحاقدين الذين كانوا يلحون في طلب القضاء على المسلمين وتشريدهم . وماهى الا سنوات قلائل حتى بدأ الطاغية الكاثوليكي بنقض الشروط واحدا واحدا ، وأخذ يعد العدة لتذويب الشخصية الاسلاميه الأندلسية نهائيا وذلك بطرد المسلمين وارغامهم على الهجره وتنصير من بقى منهم بالأندلس قسرا، وكانت بداية هذا الأمر سنة أربع وتسعمائة ، وقد قام المسلمون في ضواحي غرناطه بالثورة ردا على هذا القرار ، ولكنهم كانوا عزلا فقمعوا بوحشية وقسوة ، وأسس بعد ذلك في غرناطه مايسمى بديوان التحقيق أو " محاكم التفتيش " وكان يقوم على هذا الديوان اثنان من الرهبان المجرمين المتعصبين وهما الكردينال " خنيس " رأس الكنيسه الاسبانيه ، والدون " ديجوديسا " المحقق العام ، وقد قام هذا الديوان باكراه المسلمين على الدخول في النصرانيه ، ونبذ الاسلام بكافة شعائره وعبادته وارغموا على الحضور الى الكنيسه لحضور أعياد النصرى ، وترك الصلاة والصيام ، وذكور الرسول طيه الصلاة والسلام والتوجه الى القبله والتسوى بالأسماء العربيه والاسلاميه الخ وكل من يخالف هذه الأوامر يعذب بالألوان العذاب الأليم ، ثم يحرق حيا . وقد تنصرت أعداد هائلة من المسلمين ظاهريا خوفا من البطش ، ويبالغ المقرئ في ذلك عندما يقول : عن أهل غرناطه : " وبالجملة فانهم تنصروا عن آخرهم بادية وحاضره ، وامتنع قوم من التنصر ، واعتزلوا الناس فجمع لهم العدو الجموع ، واستأصلهم عن آخرهم قتلا وسبيا "

(١) المقرئ ، أزهار الرياض : ٦٨ / ١ .

(٢) عنان ، مواقف حاسمه في تاريخ الاسلام : ٢٣٢ .

(٣) النفح : ٥٢٧ / ٤ .

وقد عرف هؤلاء الذين تنصروا - في التاريخ الأندلسي - بالموريسكيين وهو
تسمى (العرب الأصغر)^(١) . وفي هذه الآونة التي يصادف فيها المسلمون
بجحيم العذاب ، أوفد فرناند ورسولا الى سلطان مصر سنة سبع وتسعمائة
ليؤكد له مايلقاه المسلمون في الأندلس من الرعاية والاحترام في ظل حكم
الطليين الكاثوليكين ، وكان هذا الرسول هو (بوترو مارتيري) مستشار
فرناندو ، وكاتبه ومؤرخه الكبير ، ولما وصل الى مصر وحاول سلطانها جان
بلاط استقباله ضج الشعب وثار ، فاضطر الى استقباله سرا ، فقام مارتيري
بشرح بطلان المزاعم التي تنسب الى ملكيه من الاستيلاء^(٢) ظلما على أرض
المسلمين ، وقهرهم على التنصير ، واستطاع ببراعته وذلما له لسانه أن يقنع
السلطان المملوكي بأن المسلمين يتمتعون بكامل حرياتهم الدينية وغيره
وقدم شهادات من بعض حكام الثغور المغربية تفيد بأن المسلمين المهاجرين
الى المغرب يصلون مع نساءهم وأولادهم في أمن وسلام ، ويلقبون من مندوبي
الطليين كل رعاية . وتمكن الرسول الداهية تحقيق مطالبه في اعفاء نصارى
بيت المقدس من جطة من المغارم والفروض . ومع هذا الخذلان الذي لقيه
أهل الأندلس من اخوانهم المسلمين ، فانهم كانوا يرون في العثمانيين خير
من يستطيع المساعدة والضغط على ملك اسبانيا لاحتزام شروط تسليم غرناطة
على الأقل . ولذلك فقد وجه الموريسكيون آخر استغاثاتهم الى السلطان
العثماني بايزيد الثاني الذي حكم حتى سنة ثمان عشرة وتسعمائة ، وكانت
استغاثتهم تحوى قصيدة طهيلة تبدأ بقول الشاعر :- (٣)

(١) عنان ، نهاية الأندلس : ٢٣٢ .

(٢) المرجع السابق : ٢٧٢ ، محمد هتامله ، التنصير القسري لسلبي الأندلس :

١٠٠ .

(٣) القصيدة كاملة في أزهار الرياض : ١٠٤ - ١١٥ .

- سلام كريم د ائسم متجدد * أخص به مولاى خير خليفه
- سلام على مولاى ندى المجد والحمد * ومن ألبس الكفار ثوب المذلّة (١)
- سلام على مولاى من دار ملكه * قسطنطينة اكرم بها من مدينه
- سلام على من زين الله طگه * يجند وأترک من أهل الرعايه
- سلام على القاضى ومن كان مثله * من العلماء الأكرميين الأجلّة
- سلام على أهل الديانة والتقى * ومن كان ذا راى من أهل المشورة
- سلام عليكم من عبید تخلفوا * بأندلس بالخرب فى أرض غرسة
- أحاط بهم بحر من الروم زاخر * وحر عميق ذو ظلام وجبّة
- سلام عليكم من شيوخ تمزقت * شيومهم بالنتف من بعد عزة
- سلام عليكم من وجوه تكشفست * على جطة الأ علاج من بعد ستره
- سلام عليكم من عجائز أكرهت * على أكل خنزير ولحم لجيفه
- نقبل نحن الكلّ أرض بساطكم * وتدعولكم بالخير فى كل ساعة

ولعله مما لا يحتاج الى بيان الذلة الشديدة ، والانهبام النفسى اللذان يغلفان مناطق الشاعر وسلامه المكرر على السلطان ، والقضاة والعلماء ، وأهل الديانة الذين يمكن أن يجد عندهم بعض ما يصبوا اليه .

ولا عجب أن نجد هذا الانكسار فى لغة الشاعر فهو قد ذاق ألوانا من الذل والحذاب النفسى والحسى أمد ليس بالقصير ، وهو يرى أمام عينيه كل يوم ما يفعله النصارى باخوانه المسلمين صفارا وكبارا من التعذيب والقتل والاكراه على فعل المحرمات زيادة فى النكابة والالام ، وهو يفصل حرمهم مع النصارى ومآلت اليه النتيجة ، لعدم اغاثة المسلمين لهم بقوله :-

(١) هى القسطنطينيه التى أصبحت عاصمة العثمانيين بعد فتحها على

- شكونا لكم مولاى ماقد أصابنا * من الضرّ والبلوى وعظم الرزية .
- غدرنا ونصرتنا ومدّل ديننا * ظلمنا ووطننا بكلّ قبيحة .
- وكنا على دين النبي معصدا * نقاتل عمال الصليب بنيسة .
- ونلقى أمورا فى الجهاد عزيمة * بقتل وأسر ثم جوع وقسيلة .
- فجاءت علينا الروم من كلّ جانب * بسيل عظيم جطة بعد جطة .
- ومالوا علينا كالجراد بجمعهم * بجذ وعزم من خيول ومعدة .
- فكنا بطول الدهر نلقى جموعهم * فنقتل فيها فرقة بعد فرقة .
- وفرسانهم تزداد فى كلّ ساعة * وفرساننا فى حال نقص وقلية .
- فلما ضعفنا خيموا فى بلادنا * ومالوا علينا بلدة بعد بلدة .
- وجاءوا بأنفاط عظام كغصيرة * تهدم أسوار البلاد المنيمية .
- وشدوا عليها فى الحصار بقوة * شهروا وأياما بجد وعزيمة .
- فلما تفانت خيلنا ورجالنا * ولم نر من اخواننا من افاثية .
- وقتلت لنا الأوقات واشتد حالنا * أطعناهم بالكره خوف الفضيحة .
- وخوفنا على أبنائنا مناتنا * من ان يؤسروا أو يقتلوا شر قتلة .

والشاعر هنا يبرهن سقوط الأندلس بيد النصارى ، بأنه أمر خارج عن قدرة أهلها المسلمين الذين لم يدخروا وسعا فى الجهاد والدفاع عن الحوزة مسددة طويلا ، حتى اذا ضعف عزمهم ، وقل زادهم وعتادهم ، واستنصروا فلم ينصروا ، انهال عليهم الأعداء بأعداد ضخمة ، وقوة كبيرة ، وامداد متواصل فاضطروا الى التسليم خوفا من الأسر أو الموت المحتوم ، والشاعر يحسب ان يشعر السلطان بايزيد بمسئوليته وتقصيره لعله يفعل شيئا من أجل أولئك

(١) آلات ضخمة تقذف الصخور المطهبة على الأسوار والمواضع فتحسرق

المضطهدين في دينهم . والقصيدة تعتبر وثيقة دقيقة لمجريات الأحداث السياسية فهي بعد أن ذكرت وقوع الاستسلام تتحدث عن شروط الأمان الذي منحته فرناند ووايسابيلا للمسلمي غرناطة :

- على أن نكون مثل من كان قبلنا * من الدّجن من أهل البلاد القديمة .
- ونبقى على آذاننا ، وصلاتنا * ولا نتركن شيئاً من أمر الشريعة .
- ومن شاء منا البحر جاز مؤمننا * بما شاء من مال إلى أرض صعدة .
- إلى غير ذلك من شروط كثيرة * تزيد على الخمسين شرطاً بخمسة .
- فقال لنا سلطانهم وكبيرهم * لكم ما شرطتم كاملاً بالزينة .
- وأبدى لنا كتباً بعهد وموثق * وقال لنا هذا أمانى ودمىتى .
- فكونوا على أموالكم ودياركم * كما كنتم من قبل دون أذى .

ولكن هذه الشروط التي رضيها المسلمون لم تكن أكثر من خدعة هدفنا

الاسراع في تسليم المدينة ليرفع فوقها الصليب :

- فلما دخلنا تحت عقد نامهم * بدأ غدرهم فينا بنقش العزيمة .
- وخان عهدنا كان قد فرّطنا بها * ونصرنا كرها بعنف وسطوة .
- وأحرق ما كانت لنا من مصاحف * وغلطها بالزئير أو بالنجاسة .
- وكل كتاب كان في أمر ديننا * ففي النار القوه بهزء وحقرة .
- ولم يتركوا فيها كتاباً لسلام * ولا مصحفاً يخلو به للقسراة .
- ومن صام أو صلى ويعلم حاله * ففي النار يلقوه على كل حاله .

(١) الدّجن : مأخوذ من الألفة والاقامه ، والمقصود هنا هم المسلمون - الذين ظلوا على دينهم بين النصراني منذ منتصف القرن السابع الهجرى أيام زهاب بلنسية واشبيلية ، وكانوا آمنين حتى اذا سقطت غرناطة ألوا إلى مال اليه الموريسكيون .

(١)

- ومن لم يجزئنا لموضع كفرهم * يعاقبه اللباط شر العقوبة
- وفي رمضان يفسدون صيامنا * بأكل وشرب مرة بعد مرة
- وقد أمرنا أن نسب نبينا * ولا نذكرنه في رخاء وشدة
- وقد بدلت أسماءنا وتحولت * بأسماء أعلاج من أهل الخبث
- الى غير هذا من أمور كثيرة * قباح وأفعال غزار رديئة

لقد كانت النزعة الصليبية الحاقدة هي المحرك الأول للرهبان والقسس الذين كانوا يسيرون سياسة اسبانيا النصرانية ، وكان كل ما يدور في خلد هم هو جعل غرناطة عوضا عن القسطنطينية التي احتلها المسلمون ، ولذا فقد سموا الى محو كل أثر للاسلام في تلك الديار وخاصة المصحف الشريف والكتب الاسلاميه ، وتروى الروايات أن الكردينال خميس عندما بدأ تنصيره لأهل غرناطة أمر بجمع كل ما استطاع جمعه من الكتب الاسلاميه من المدينة وما حولها فجمع منها أعداد كبيرة ومن بينها كثير من المصاحف المزخرفة ، فوضعت في أكبر ساحات غرناطة وأشعلت فيها النيران بهمجية بالغة أهدمت خلاصة تراث الفكر الاسلامي في الأندلس ، وقد استثنى منها مئات من كتب الطب والعلوم ليقيم عليها الكردينال جامعته في مدينة ألكالا ، وبالإضافة الى احراق الكتب فرض على أبناء المسلمين تعلم الدين النصراني في الكنائس ، وذلك لقطع كل صلة لهم بالاسلام منذ صغرهم وهذا ما يشير اليه الشاعر متأوها باكيا :-

- وآها على أبنائنا وناتنا * يروحون للباط في كل فسادة
- يعلمهم كقرا وزورا وفريئة * ولا يقدروا أن ينضموه بحيلة

(١) هو الكردينال خميس زعيم محاكم التفتيش

(٢) عنان ، نهاية الأندلس : ٣١٦ .

ثم يذكر حالة المسخ الشامل الذي أصاب البلاد عامة ، ونفى المساجد
بالنصيب الأوفر :

- وآها على تلك المساجد سورت * مزابل للكفار بعد الطهارة .
- وآها على تلك الصوامع طقت * نواقيسهم فيها نظير الشهادة .
- وآها على تلك البلاد وحسنهما * لقد أظلمت بالكفر أعظم ظلمة .
- وصارت لعباد الصليب معاقلا * وقد أمنوا فيها وقوع الاغارة .
- وصرنا عبدا لا أسارى فنفتدي * ولا مسلمين نطقهم بالشهادة .
- فلو أبصرت عينك ما صار حالنا * اليه لجادت بالدموع الخزيرة .
- فياويلنا ، يابوس ماقد أصابنا * من الضر والبلى وثوب المذلة .

ومعد أن يوضح الشاعر الحالة المزرية التي صار اليها المومنين

يتوجه الى السلطان بضرعة وتوسل يستجدي عنده :-

- سألتك يا مولاي بالله ربنا * والمصطفى المختار خير البرية .
- والسادة الأ خيار آل محمد * وأصحابه أكرم بهم من صحابة .
- والسيد العباس عمّ نبينا * وشيبتته البيضاء أفضل شبيبة .
- والمصالحين العارفين برهم * وكلّ ولي فاضل ذي كرامة .
- عسى تنظروا فينا وفيما أصابنا * لعل اله العرش يأتي برحمة .
- فقولك مسموع وأمرك نافذ * وما ظلت من شئ يكون بسرفة .
- ودين النصارى أصله تحت حكمكم * ومن ثمّ يأتيهم الى كل كسورة .
- فبالله يا مولاي منّوا بفضلكم * علينا برأى أو كلام بحجّة .
- فأنتم أطو الافضال والمجد والعلو * وغوث عباد الله في كل آفة .
- فسل بابهم أعنى المقيم برومسة * بماذا أجازوا الخدر بعد الأمانة .

(١) هو البابا انوصان الثامن آنذاك .

- ومالهم مالوا علينا بغدرهم * بغير أذى منا وغير جريسة .
- وجنسهم المغلوب في حفظ ديننا * وأمن ملوك ذي وفاق أجهلته .
- ولم يخرجوا من دينهم وديارهم * ولا نالهم غدر ولا هتك حرمة .

وهو يلج في سؤال السلطان لأنه يعلم قدرته على الإفائه ، فهو يملك الأسباب التي يستطيع بها الضغط على النصارى ، أليس هو حاكم القسطنطينية مركزهم الأول ، وتحت حكمه منهم كثير فيمكنه أن يتخذ من تهديدهم وسيلة لكبح جماح البابا وزيانته وارجاعهم الى ما ارتضوه من الشروط التي من أهمها حفظ الدين والحرمة .

ثم تكشف القصيدة عن ورود كتاب من بايزيد الثاني الى الطيكن الكاثوليكين مضمنا الشفاعة للموريسكيين وكان نصيبه الإهمال ، وربما كان هذا الكتاب نتيجة استغاثة أخرى قبل هذه القصيدة .

كما تذكر القصيدة أيضا وصول رسل سلطان مصر الى ملكي أسبانيا وكيف

استطاعا خداعهم :-

- وقد بلغ المكتوب منكم اليهم * فلم يعلموا منه جميعا بكلمة .
- وما زادهم الا اعتدا * وجسرة * علينا واقدا بما بكل مسامة .
- وقد بلغت أرسال مصر اليهم * وما نالهم غدر ولا هتك حرمة .
- وقالوا لتلك الرسل عنا بأننا * رضينا بدين الكفر من غير قهرة .
- وساقوا عقود الزور من أطاعهم * ووالله ما نرضى بتلك الشهادة .
- لقد كذبوا في قولهم وكلامهم * علينا بهذا القول أكبر فريسة .
- ولكن خوف القتل والحرق ردنا * نقول كما قالوه من غير نية .
- ودين رسول الله ما زال عندنا * وتوحيدنا لله في كل لحظة .

(١)

- ووالله ما نرضى بتبديل ديننا * ولا بالذى قالوا من أمر الثلاثة .
ثم يقول فى آخر القصيدة مؤملاً النجدة :-
فها نحن يامولاي نشكو اليكم * فهذا الذى نلناه من شرفركة .
عسى ديننا يبقى لنا وصلاتنا * كما عهدنا قبل نقض العزيمة .
والا فيجلونا جميعا من أرضهم * بأموالنا للغرب دار الأهية .
فاجلاؤنا خير لنا من مقامنا * على الكفر فى عزلى غير مطية .
فهذا الذى نرجوه من عز جاهكم * ومن عندكم تقضى لنا كل حاجة .
ومن عندكم نرجو زوال كرونا * وما نلنا من سوء حال ونذلة .
فأنتم بحمد الله خير طوكننا * وعزتكم تعلو على كل عسرة .
وتم سلام الله تتلوه رحمة * عليكم مدى الأيام فى كل ساعة .

والقصيدة فى جملتها ركيكة الألفاظ والتراكيب ، الا أنها معبرة ، وصادقة
التأثير ، وشاملة للحوادث التاريخية التى عاصرتها ، ولعل سبب ركاكتها هو
العسف والبطش الاسبانى الذى شمل كل ما يمت الى الاسلام والعربية بصلصة
فخدمت جذوة الشعر والأدب بسرعة عجيبة ان هذه القصيدة قيلت بعد
مرور عشر سنين على حطة التنصير ان لم يكن أقل ، فهى موجهة الى بايزيد
الذى دام حكمه حتى سنة ثمانى عشرة وتسعمائة ، ولا بد أن تكون قد وجهت
اليه قبل هذا التاريخ . وقد أشرنا فيما سبق الى أن التنصير بدأ سنة أربع
وتسعمائة .

أما الشاعر الذى قال هذه القصيدة فهو شاهد عيان جرى عليه ما جاء فى
قصيدته من المأسى ، ومن غير المتوقع أن نجد اسمه فى أى مصدر من مصادر

(١) هى الأقانيم الثلاثة التى يقوم عليها دين النصارى المحرف وهى (الأب ،
والابن والروح القدس) . تعالى الله عن ذلك .

تلك الفترة الرهيبة ، وذلك لأن مثل هذه القصيدة تعنى أن صاحبها يأتصر
مع الدول الإسلامية عدوة أسبابها النصرانية ، فحكمه الموت المؤكد على يده
محاكم التفتيش لمجرد أن تنسب إليه .

أما بالنسبة لصدى هذه القصيدة فهو صدى الاستغاثات السابقه ، فلم
يرد ما يشير الى أن السلطان بايزيد الثانى قد فعل شيئا ، وله فى ذلك بعض
الأعداء التى لا تعفيه من تحمل جزء من تبعه ضياع الأندلس من يد المسلمين
ومن هذه الأعداء الظروف الصعبه التى واجهها بايزيد منذ بداية توليته ،
فمنذ أن توفى والده محمد الفاتح سنة ست وثمانين وثمانمائه ، وتحمل هو
أعباء الحكم أطن أخوه (جم) العصيان ، وطالبه بتقسيم الدولة العثمانية
الى شطرين أوروبا وآسيوى ، فحاربه بايزيد واضطره الى الفرار حيث لجأ
الى المماليك فى مصر ، ثم الى أوروبا طالبا العون ضد شقيقه ولكنه مات
هناك سنة تسع وتسعين وثمانمائه ، وبعد ذلك كانت الجيوش العثمانية
مشتغلة بصد غارات البولنديين على بعض أقاليمها ، وكانت فى الوقت نفسه
تشن هجوما على البندقية ، وتخوض حربا فى المجر الى أن انتهى الأمر
بالاتفاق على الصلح لمدة سبع سنوات وذلك سنة تسع وتسعمائه ، وبعد هذا
التاريخ بقليل توقفت فتوحات العثمانيين فى أوروبا ، واتجهت نحو الشرق
حيث المماليك فى مصر والشام ، والدولة الصفوية فى ايران . ولاندرى سبب هذا
الاتجاه وترك الأندلس لمصيرها؟

(١) محمد كمال الدسوق ، الدولة العثمانية والمسألة الشرقية : ٤١ .

(٢) المرجع السابق : ٥٠ - ٥١ .

ولقد كان بايزيد نفسه ضعيفا محبا للسلم والاشتغال بالعلوم في وقت كانت الدولة المترامية الأطراف بحاجة الى رجل شديد الحزم والقوة ، وفي سنة حكمه الأخيرة أظهر أولاده التمرد عليه ، واضطربت نار الحرب الداخلية بينهم ، وكادت تمزق الدولة لولا قوتها الكبيره ، وأخيرا سار ولده سليمان الأول الى بعض نواحي الدولة وأعلن نفسه سلطانا عليها ، واستطاع أن يكسب تأييد الانكشارية الذين لم يلبثوا أن طلبوا من بايزيد التنازل عن الحكم لولده سليم ، فقبل ذلك وتنازل سنة ثمانى عشرة وثمانمائه حيث توفي بعد ذلك بزمن يسير . (١)

الخصائص العامة لشعر الاستفاضة :-

- من خلال مطالعتنا لشعر الاستفاضة يمكن أن نلاحظ الخصائص التالية :-
- أولا : الدخول المباشر في الغرض الأصلي للقصيده ، وتجنب المقدمات التي لا تحتلها نفس الشاعر الثائره ، وخاصة عندما تكون القصيدة خلال الحصار ، والأمل في الانقاذ لا يزال موجودا .
 - ثانيا : حرارة العاطفة ، وصدق المشاعر عند شعراء هذا الفن لأنهم فسوا الغالب يرون بأعينهم ووطنهم يهدد وأهليهم يستباحون .
 - ثالثا : التركيز على المعاني الاسلاميه كالأخوة ، وحق الجوار ، وفرضية الجهاد للدفاع عن أرض الاسلام ، بحيث يشعر المستفتات به أنه مسؤول ، ومحاسب أمام الله ، وكثيرا ما صور الشعراء ببراعه وقوف النبي - صلى الله عليه وسلم - خصما لمن تخاذل في الدفاع عن أمته .

(١) محمد فريد المحامى ، تاريخ الدولة العلية العثمانية : ٣٨ .

رابعاً : المبالغة في مدح المستفاد به مع التركيز على الأمور الحساسة
في نفسه كذكر أصله الحريق إذا كان يفخر بذلك أو تمجيد
شجاعته وأعماله في الدفاع عن الإسلام والاختصاص في جهاد الأعداء
ابتغاء ثواب الله وجنته .

خامساً : عدم التعرض لدور الحكام الخونة الذين يمالئون الأعداء ضد
شعوبهم وسلاطهم ويرهقون رعاياهم بدفع الضرائب لتصرف على
شهواتهم ومرتزقتهم ، وسبب هذا الاعراض هو الخوف من عقاب
أولئك الحكام الذين لا يسمحون لأي صوت أن يرتفع منتقداً ، وسبب
آخر هو الخوف من تقليل حماس المرجو نصره إذا سمع أن بسلاً
الناس من حكاهم وأنفسهم .

سادساً : إبراز الدمار والخراب الذي ألحقه العدو بالمدن الإسلامية
وخاصة المساجد ومدارس التعليم إذ سرعان ما يحولها إلى كنائس
تفص بالصلبان والنواقيس ، لتبعث الشرك والجهل مكان نور الهداية
والعلم ، فيقرنون إلى عربهم العسكريه حرباً فكريه .

سابعاً : استخدام الأسلوب الخطابي والألفاظ الجرئة مع البعد عن الخيال
المجنح والتراكيب المعقدة . كما يلاحظ كثرة ركهم للبحر الشعريه
ذات التفاعيل الكثيره كالطويل مثلاً لا تساعها لهومهم وزفرائهم
التي يطلقونها ممتده عبر القافية المطلقة التي دأبوا على
استعمالها .

الفصل الثالث : رثاء الامارات الأندلسية :-

سنتناول في هذا الفصل الأشعار التي قيلت في رثاء امارات ملوك الطوائف عندما استولى عليها المرابطون في نهاية القرن الخامس الهجري ، وأصبحت الأندلس كلها بعد ذلك تتبع دولة المرابطين في المغرب . والواقع أنني لا أعتبر زوال ملوك الطوائف ، وانقضاء عهدهم النكد نكبة أمت بالأندلس ، بقدر ما هو نصر من الله فوج به كرم الشعب الأندلسي على يد أمير المسلمين يوسف بن تاشفين زعيم المرابطين ، وأشهر هذه الامارات الفارسية امارة بنى عباد فسي اشبيلية ، وامارة بنى الأفطس في بطليوس ، وامارة آل صمادح في المرية وهناك بعض الامارات الأخرى استولى عليها بعض ملوك الطوائف من جيرانهم بالخدعة حيناً والحرب حيناً آخر ، وكان ذلك قبل الفتح المرابطي . ومن أمثلة هذا النوع الأخير الذي استعمل فيه المكر واستغلال الضعف امارة "مريبطر" (٢) وكان أبو عيسى بن لبون الذي كان يشغل منصب القضاء في بلنسية أيام حاكمها

(١) بلدة جبلية حصينة بالقرب من طرطوشة ، وعلى بعد عشرين كيلاً

الى الشمال من بلنسية ، وهي تطل على البحر ، وتكثف فيها الأشجار وأصناف الثمار . / الروض المعطار (مريبطر) .

(٢) هو ذو الوزارتين لبون بن عبد العزيز بن لبون . كان من جملته

أصحاب القادر يحيى بن ذي النون صاحب طليطله وكان قائداً عسكرياً وشاعراً مجوداً زهد في الدنيا بعد فقد امارته وعاش خاملاً السى أن مات بسرقسطه .

انظر : الحلة السيرا : ١٦٧/٢ ، المغرب : ٢٧٥/٢ - ٢٧٦ .

أبو بكر بن عبد العزيز ولما توفى سنة ثمان وسبعين وأربعمائة اضطرب حبلها وانقسم أهلها الى قسمين قسم مال الى تصيرها لبني هود أصحاب سرقسطه وقسم مال الى اسلامها لبني ذي النون حكام طليطله واستغل القمبيطور هذا الوضع فمسكر عليها وأرهقها بالضرائب . عندئذ تركها ابن لبون ولجأ الى مريطر العصينة وحكمها الا أنه لم يسلم من وطأة القمبيطور ، وعند ما رأى أنه لا يستطيع الصمود لهذا الارهاق ، وأنف من مفاوضة القائد النصراني آثر اللجوء الى جاره أبو مروان عبد الملك بن رزين حاكم شنتمريه وسلمه امارته وحصنه مقابل حمايته واجراء الرزق عليه فوافق ابن رزين وتسلم الحصن واستقدم ابن لبون وذويه الى بلاده وأنزلهم في كنفه ، ولكنه سرعان مافاوض القمبيطور بالابقاء على مريطر مقابل امداد جنوده بما يحتاجون من المؤن فوافق ، عندها أخذ ابن رزين يضيّق على أبي عيسى ويقترب عليه حتى اضطره الى الخروج من شنتمريه بعد أن سلب ملكه يندب حفظه ويرثى امارته قائلا : (٢)

- خليلي عوجاين على مسقط اللوى * لعل رسوم الدار لم تتفيرا .
- فأسال عن ليل تولى بأنسنا * وأندب أياما تقضت وأعصرا .
- ليالى إذ كان الزمان مسالما * وان كان غصن العيش فينان أخضرا .
- وقد ضربت أيدي الأنان قبابها * علينا وكفّ الدهر عنا وأقصرا .

(١) مدينة بالاندلس على المحيط الأطلس ، تشتهر بالتجارة البحرية ،
ومها دار صناعة الأساطيل ، وهي حصينة عظيمة الأسوار ، وكثيرة
الخصب ، واليها ينسب الأعم الشنتمري العالم المشهور . / السروي
المعطار (شنتمريه) .

(٢) الفتح بن خاقان ، قائد العقيان : ١١٤ .

(١)

فماشئت من ليهو وماشئت مسن د د * ومن مهيم يجنيك عذبا مؤلسرا .

(٢)

وماشئت من عود يخنيك مفصحا * (سمالك شوق بعد ماكان أقصرا) .

وهعد أن يموج الشاعر الحزين على رسوم داره ويتألمها برفق ، يسبح
من خلالها في بحر من الذكريات السارة التي عاشها أيام الأمان بين النساء
والعود ، ولكن دوام هذه الحال السعيدة محال إذ سرعان ما تنقلب السعادة
إلى شقاء مؤس ، لأن هذا هو دين الحياة :-

ولكنها الدنيا تخادع أهلها * تغربصفو وهي تطوى تكذرا .

لقد أوردتني بعد ذلك كلسه * موارد ماألفيت عنهن مصدرا .

وكم كابدت نفسي لها من طمسة * وكم بات طرفي من أساها مسهدا .

خليلو ما بالي على صدق عزمستي * أرى من زمانى ونية وتحسدرا .

لئن ساء تمزيق الزمان لدولستي * لقد ردت عن جهل كثير ومصدرا .

وأيقظ من نوم الفرارة نائمها * وكسب ظما بالزمان والسورى .

والشاعر رغم ما جرعه الدهر من الفصص بتمزيق دولته وتشريدته فإنه لسم
يهن ولم تضعف همته وعزيمته بل ازداد تبصرا وعلمنا بالحياة والناس ، ولعلسه
في البيت الأخير يلمح إلى غدر صديقه به الذي لم يكن يتوقعه . والأبيات
في جملتها تسلك سبيل الحكمة والمظة ، ويبدى فيها الشاعر تجلده للخطوب
(٣)

أكثر من حزنه على وطنه فالبلاد كلها عنده سوا فهو القائل :-

وكت اذا ما بلدة لي تنكسرت * شدت الى أخرى مطو ابائسى .

وسرت ولا أقوى على متعسذر * وصمت لا أضفى الى النصعاه .

كسمن تبدت للعيون بمشسرق * صباحا وفي غرب أصيل مساه .

(١) الدد : اللهم واللعب : الصحاح (د د) .

(٢) الشطر لأمري القيس ، وعجزه " وحلت سليمان بطن قوفرعرا . انظر :

ديوانه : ٣٠ .

(٣) القلائد : ١١٥ .

وهذا التجوال في البلاد من قبل الحكام الذين يفقدون ملكهم نجسنة كثيرا في هذا العصر المضطرب فإذا ما استولى أحدهم على ملك الآخر ، فسرّ المطلوب طالبا النجدة من النصارى أو من غيرهم من المرتزقة مقابل أموال وعود فيخبر هؤلاء على مدينة أو حصن وينصبون صاحبهم حاكما عليه ، ومن هنا كانت الجذور التي تربط هؤلاء الأماة بالبلاد ليست عميقة ، وصلاتهم مع الشعوب غير وثيقة بسبب التسلط والقهر .

رثاء امارة بنى عباد :-

بنو عباد من البيوت العربية في الأندلس ، فهم ينتسبون الى قبيلة لخم العربية اليمانية ، وكان أجدادهم من الداخلين الى الأندلس مع جيوش الفتح ، ولكن نجمهم لم يلمع الا في آواخر الدولة الأموية عندما كان الحكم بيد الحاجب المنصور بن أبى عامر الذي عين رأس هذه الأسرة آنذاك أبى الوليد اسماعيل بن عباد قاضيا لمدينة اشبيلية ، وكان هذا القاضى على درجة كبيرة من الورع وحسن الخلق إضافة الى الدهاء والسخاء ، وذلك استطاع أن يستميل قلوب الناس اليه حتى اذا انقضى حكم بنى عامر ، وبدأت الاضطرابات والانقلابات تجتاح الأندلس أخذ يعطى فى صمت وهدوء على جمع خيوط الرئاسة فى يده فتم له تكوين النواة الأولى لدولة عبادية فى اشبيلية ، ثم توفى وخلفه ولده أبو القاسم محمد بن اسماعيل بن عباد سنة أربع عشرة وأربعمائة واستبد بالأمر وحشد الرجال والسلاح ، وحاول أن يوسع امارته فاشتبك مع جيرانه أصحاب بطليوس الجبر وغيرهم وكانت الحروب سجلا يتخللها أحياناً

(١) ابن حزم ، جمهرة انساب العرب : ٣٤٨ .

(٢) ابن الأبار ، الحلة السيرا : ٣٦/٢ .

(٣) عنان ، عصر الطوائف والمرابطين : ٣٤ .

استيلاء* أحدهم على بعض ما في يد الآخر . وهكذا ظل ابن عباد في حروب مستمره حتى توفي سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة بعد أن هزم هزيمة شنيعة قتل فيها ولده الذي كان يقود جيوشه ثم ولي الأمر بعد ذلك ولده الآخر أبو عمرو عباد بن محمد الطقب بالمعتضد بالله وكان هذا داهية سفاهة عظاما (١) عظيم الفتك حتى بأقرب الناس اليه ، وكان أيضا يضطرم حماسة للحرب والتوسع فمنذ أن اعطى العرش الاشبيلي وضع خطته للقضاء على امارات غرب الأندلس وضمها الى بلاده ، فجهز لذلك الجيوش وبدأ بغزواتك الامارات الصغيره وارهاقها ، وحاول أمراؤها دفع خطرهم بدفع الجزية له ، ولكنه رفض حتى تم تسليمها الواحدة تلو الأخرى في حوادث يطول شرحها ، وما هي الا سنوات قليلة حتى أصبحت دولته تشمل سائر الأراضى الممتدة من شاطئ نهر الوادى الكبير غربا حتى المحيط الأطلس ، ولم يقنع المعتضد بهذا الفتح بل دعت شهوة الحكم السيطرة الى ضم الامارات البربريه الصغيره القائميه في جنوب الأندلس شرق الوادى الكبير ، وسلك المعتضد مع زعماء هذه الامارات في البدايه سبيل الصداقة والود ، وتبادل الهدايا ليستفيد منهم في حرب أعدائه ، أوليكسب حياتهم على الأقل ، وهو في أعماق نفسه يضمحلهم الكيد ، ويتحين الفرص لاستئصال جذورهم ، وفي سنة خمس وأربعين وأربعمائة دبر المعتضد لأمر البربر مكره قبيح بها عليهم وأهلكهم ، وذلك عندما دعاهم لزيارته باشبيليه فلبوا معهم وفد من رؤساء قبائلهم ، فاستقبلهم المعتضد بحفاوه ، ولكنه في اليوم التالي انفرد بالأمراء وأخذ يوبخهم على

(١) الذخيره : ق ٢ ، ج ١ ، ص ٢٤ .

(٢) البيان المغرب : ٢٩٥ / ٣ - ٢٩٨ .

(٣) عنان ، المرجع السابق : ٤٥ .

على تقصيرهم في مساعدته أثناء حربه لأعدائه ، ثم أمر بالقبض عليهم وادخالهم
العمام واضرام النار فيه حتى احترقوا ، ثم سار بعد ذلك بجيشه ونازل تلك
الامارات فاستولى عليها تباعا وأهمها أركن وقرمونه ورنده ، وهذا أصبحت
اشبيلية عاصمة لامارة شاسعة المساحة ، غنية الموارد ، عظيمة القوة العربية
وهدا المعتضد - برغم قسوته وخساسة وسائله - أمير أمراء الأندلس ، ودولته
أعظم ممالك الطوائف ، وأفسح فناءه للشعراء والأدباء ونظم بعضهم في سلك
وزارته ، كابن زيدون الشاعر المشهور ، وكان المعتضد نفسه شاعرا أدبيا .

(٢)

يقول الحميري : " كان أبو عمرو بن عباد صاحب اشبيلية ، من أهل
الأدب البارع ، والشعر الرائع ، والمحبة لذوى المعارف ، وقد رأيت لسه
سفرا صغيرا في نحوستين ورقة من شعر نفسه " .

ورغم هذا المجد الذى بناه المعتضد على حساب جيرانه من ملوك الطوائف
والبلاط الفخم الذى اتخذه ، وشدة البطش التى عرف بها رغم ذلك كله
كانت هناك نقطة سوداء خضت من مكانته ، وهى دفعه الجزية لطك قشتاله
النصراني فرناندو الأول ، مقابل سكوته عن غزوه والتعرض لامارته ، وظل

(١) أركن : مدينة حصينه بالأندلس ، على نهر وادى لكه ، قديمة

البناء ، غربت مرارا وعمرت ، وتشتهر بانتاج الزيتون . / الروى
المحطار (أركن) .

قرمونة : تقدمت ترجمتها في الفصل الأول من هذا الباب ، عن
رثاء اشبيلية .

رنده : مدينة قديمة في جنوب الأندلس ، عظيمة الحصانة والامتناع ، تقع
على نهر ينسب اليها ، ويصب في نهر لكه ، وتكثر حول رنده العيون
والقرى . / الروى المحطار (رنده) .

(٢) جذوة المقبى : رقم ٧٦٢ .

المعتمد يؤديها صاغرا لفرناندو ثم لولده سانشو من بعده حتى توفي سنة
(١)
احدى وستين وأربعمائة . وتولى الحكم بعده ولده أبو القاسم محمد المطقوب
بالمعتمد على الله .

وكان أسمح من أبيه وألين جانبها الا أنه كان مولعاً بالخمر منخماً فسق
(٢)
اللذات ، عاكفا على البطالة وقد خاض المعتمد مثل أبيه سلسلة من الحروب
والأحداث كان من نتائجها المهمة الاستيلاء على قرطبة وضمها لاسبيليه سنة
(٣)
اثنين وستين وأربعمائة ، ثم اشتغل المعتمد بحرب البربر أصحاب امارة غرناطة
وطى رأسهم عبد الله بلقين وأخوه تميم حاكم مالقة ، ولما أرهقهم المعتمد
بن عباد بغاراته المتكرره فكر الأ مير عبد الله بالاستعانة بالنصارى ، وتم ذلك
على أن يدفع جزية سنوية محددة ، مقابل أن يمدد النصارى بسرية من الجنود
لمحاربة المعتمد ، فقبولت بذلك شوكته وعاتق في أرض اشبيليه واسترد بعض
الحصون التي كان المعتمد قد استولى عليها من قبل . عندئذ رأى المعتمد
أن يسلك طريق خصمه فأرسل وزيره الشهير أبا بكر بن عمار الى الانفونش
ملك النصارى بقتاله وعقد معه معاهدة تقضى بأن يدفع ابن عباد الجزية
ويلزم الصمت اذا ما فعله الانفونش بالامارات الاسلاميه وخاصة طليطله السق
قرب سقوطها بيده ، ويتعهد الانفونش مقابل ذلك بمساعدة المعتمد فسق
حروبه ضد ملوك الطوائف عامة ، وقد تحدثنا عن هذه المعاهدة وآثارها فسق
الفصل الأول من هذا الباب عند ذكر سقوط طليطله . وقد كانت هذه المعاهدة
الدينية والا ليس على المعتمد وعده بل على الأندلس عامة ودلت على استهتار

(١) البيان المغرب : ٢٨٤/٣ .

(٢) الحلة السيرا : ٥٤/٢ .

(٣) عنان ، عصر الطوائف والمرابطين : ٦١ .

المعتمد بالدين وتضحيتهم بالمسلمين وأوطانهم مقابل جلوسه على عرش
مزعزع مهزوز . فقد أصم أذنيه عن صرخ اخوانه المسلمين في طليطلة ،
وقعد عن نصرتهم أو امدادهم بشئ من المون حتى اضطروا الى التسليم ،
وذهبت كبرى حواضر الأندلس من قبضة الاسلام الى الأبد ، ولم يدرك المعتمد
فداحة جرمه وخطئه الا بعد أن تمكن النصارى من المدينة وبعث اليه الانفونش
سفارته المعتاده لتحصيل الجزية وكان على رأس هذه السفارة وزير الانفونش
(١)
(ابن شاليب اليهودى) وكان شديد الفطوسة والحقد على المسلمين ،
فرفض الذهب الذى قدم اليه زاعما أنه من عيار زائف وطلب تغييره ، وتسليم
بعض الحصون زيادة على ذلك ، كما نقل الى ابن عباد رغبة سيده الانفونش
بالسماح لزوجته أن تقيم بمدينة الزهراء قرب قرطبة لتتمتع بطيب هوائها ،
ومن هناك تخطف الى جامع قرطبة لتضع حملها فى الجانب الغربى منسسه
لأن ذلك الموضع كانت تقوم عليه كنيسة معظمة عندهم ألحقها المسلمون بالجامع .
وزاد اليهودى فى طلباته بجفاً وظلظة ، فغضب المعتمد من ذلك وأمر
بقتله وصلبه والقضى على من معه وزجهم فى السجن . ولما علم الانفونش
بذلك استشاط غيظاً ، وأقسم على غزو اشبيلية والانتقام من المعتمد وسداً
على الفسور باعداد جيوش جرارة لالتهم امارات الطوائف جميعاً ، وسكسر
(٢)
بجيشه على ضفة نهر الوادى الكبير قبالة قصر المعتمد وكتب اليه يقول :
" وقد أبصرت منازل بطليطلة وأقطارها وماحاق بأهلها حين حصارها .
فأسلمتم اخوانكم ، وحالتم بالدعة زمانكم ، والحذر من أيقظ باله ، قبل

(١) البروس الميطار (الزلاقه)

(٢) وفيات الأعيان : ٢٨/٥ .

(٣) الحلل الموشيه : ٢٤ .

الوقوف في الحباله ، ولولا عهد سلف بيننا نحفظ ذمامه ، ونسعى بنسور
الوفاء أمامه ، لنهض بنا نحوكم ناهض العزم ورائده ، ووصل رسول الخسوز
ووارده ، لكن الأقدار تقطع الأعداء ، ولا يعجل الا من يخاف الفوت فيما يرومه ،
وخشى الغلبة على مايسومه " وقد رد المعتمد على هذه الرسالته
(١)
بكتاب فيه كثير من الجرأة والحزم ومنه : " انما كانت سنة سعد أيقظ
منها مناديك ، وأغفل عن النظر السديد جميل مهاديك ، فركبنا مركب
عجز نسخة الكيس ، وعاطيناك كؤوس دعة ، قلت في أثنائها ليس ، ولم
تستح أن تأمر بتسليم البلاد لرجالك ، وانا لنعجب من استعجالك بسرأى
لم تحكم أنحاؤه ، ولا حسن انتحاؤه ، واعجابك بصنع وافقتك فيه الأقدار
واغتررت بنفسك أسوأ الاغترار ، وتعلم أنا في العدد والعريد ، والنظر
السديد ، ولدينا من كفاة الفرسان ، وحيل الانسان ، وحماة الشجمان ، يوم
التقى الجمعان رجال تدرعوا بالصبر ، وكرهوا القبر ، تسيل نفوسهم على
حد الشفار ، وينماهم المنام في القفار والذي جراك على طلب
ملا تدركه قوم كالحمر ، ذننوا المماقل لاتعقل ، والدول لاتنتقل ، وكان
بيننا وبينك من المسالمة ، ماأوجب القعود عن نصرتهم ، وتدبير أمرهم
ونسأل الله المغفرة فيما أتيناه في أنفسنا ، وفيهم من ترك الحزم واسلامهم
لأعاديتهم " ويلاحظ في هذه الرسالة اظهار المعتمد لندمه على
مافرط من قبل في اخوانه المسلمين أهل طليطله ، ثم أخذ المعتمد يفكر
في طلب النجدة من المرابطين فيما وراء البحر لعلمه بحماسهم للجهاد ومقارعة
الكفار ، ولكنه وجد من ابنه الرشيد بعض المعارضة لتخوفه من عهده المرابطين

(١) المصدر نفسه : ٤٠ .

الى الأندلس واستيلائهم عليها ، فشرح له المعتمد خطورة الموقف ، وقسوة
النصارى ، وضعف ملوك الطوائف وتخاذلهم بحيث لا عون يرجى منهم ، فلامناس
من استدعاء المرابطين ثم قال : " أى بنى والله لا يسمع عنى أبداً أنى أعسدت
الأندلس دار كفر ، ولا تركتها للنصارى ، فتقوم على اللعنة فى منابر الاسلام
مثل ما قامت على غيرى . أرى أن أكون راعى الجمال من أن أكون راعى الخنازير " وانضم
الى المعتمد فى رآيه ذلك عدد من ملوك الطوائف الذين أحسوا بالخطر ومنهم أميراً غرناطة
وطليوس ، واتفقوا جميعاً على ارسال سفارة مكونة من قضاة قرطبة وغرناطة
وطليوس الى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين عاهل المرابطين ، ولما وصلوا
اليه استقبلهم بحفاوة بالغة ان عرف بحبه وتعظيمه للعلماء والفقهاء وسلموه
كتاب الاستغاثة من ابن عباد الذى جاء فيه : " ونحن أهل هذه
الأندلس ليس لأحد منا طاقة على نصرته جاره ، ولا أغيه ، وطوشاؤوا لفضلوا
الا أن الهوان منعهم من ذلك ، وقد ساءت الأحوال ، وانقطعت الآمال
وأنت - أيدك الله - ملك المغرب أبيضه وأسوده ، وسيد حمير ، وملكها
الأكبر ، نزعنا بهمتى اليك ، واستنصرت بالله ثم بك ، واستفشت
بحرمكم لتجوزوا لجهاد هذا العدو والكافر ، وتحيا شريعة الاسلام ، وتديبوا
عن دين محمد طيه الصلاة والسلام " .

(١) الإشبيلي ، ربحان الألباب وريحان الشباب فى مراتب الآداب : لوجه

• ١٤٠ •

(٢) الحلل الموشيه : ٨٢ •

(٣) المصدر نفسه : ٤٦ •

(٤) يخاطبه المعتمد بالنسب الحميرى ليقرب النسب بينه وبين يوسف إذ كل

منهما من القبائل اليمانية القحطانية .

وكتاب آخر من ابن الأفلح صاحب بطليوس يقول فيه ^(١) : "لما كان نسور
الهدى - أيدك الله - دليلك وسبيل الخير سبيلك وضح العلم بأنفسك
لدولة الاسلام أعز ناصر ، وعلو غزو الشرك أقدر قادر ، وجب أن تستدعسى
لما أعضل الداء ، وتستغاث فيما أحاط بالجزيرة من البلاء ، فقد كانت طوائف
العدو وتطيف بها عند افراط تسلطها واعتدائها ، تُلطف بالاحتيايل وتُستنزَل
بالأموال ولم يزل دأبها الشطط والعناد ، ودأبنا الانعان والانقياد . . .
وقويت أطماعهم في افتتاح المدن ، وأضرمت في كل جهة نارهم ، ورويت من
دماة المسلمين أسنتهم وشفارهم وما أحضكم على الجهاد بما فسى
كتاب الله فانكم له أتى ، ولا بما في حديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم -
فانكم الى معرفته أهدى " وعلو الفور جهز يوسف جيوشه وجبر بهم
الى الأندلس ، ولقيه ملوك الطوائف وفي مقدمتهم المعتمد أجمل لقا ، وقد صوا
ما يستطيعونه ، من المؤونة والأموال والهدايا ، وساروا مع جيوش المرابطين
تتبعهم جيوش الأندلس الى بسط من الأرض شرق بطليوس يعرف بالزلاقه
وهناك دارت معركة عنيفة حاسمة بين المسلمين والنصارى ، انهزم فيها النصارى
هزيمة شديده قلعمت تشوفهم الى الأندلس مدة طويلة ، وغنم المسلمون
غنائم كثيرة عفت عنها أمير المسلمين وآثر بها ملوك الأندلس ان أن مقصوده
كان الخزولا النهب ، فعظم قدره في أعين الملوك والناس ، وكثر الدعاء له
على المنابر ، ثم انه أقام في الأندلس مدة من الزمن بعد الزلاقه اطلع من
خلالها على حال المعتمد اللاهيه ، ووردت عليه الرعايا تشكو الظلم الذي تجده
من حكامها وتدعوه لأخذ حقوقها ، فكان يقول لم تأت لهذا ، والسلاطين
^(٢)
^(٣)

(١) الحلل الموشيه : ٣٤ - ٣٥ .

(٢) وفيات الأعيان : ١١٢/٧ .

(٣) مذكرات الأمير عبد الله بن بلقين المسماة بكتاب التبيان : ١٠٧ .

أعلم بما يصنعون في بلادهم " ولم تقتصر الشكوى على الرعيه فحسب بسبل
ان الأمر أنفسهم أخذوا يشكون اليه ما يجدونه من بعضهم ، ولكنه أوصاهم
بالاتفاق والاتلاف ووحدة الكلمة ورجع الى عاصمته مراكش في آواخر سنة تسع
وسبعين وأربعمائة وبقى الى سنة احدى وثمانين وأربعمائة حيث ورد عليه
صريح الأندلس مرة ثانية ، وكان الصريح هذه المرة من منطقة شرق الأندلس
بلنسية ومرسية ، وطورقه وغيرها حيث كان القمبيطور يحاصر بلنسية ويهلك كل
ما اتصل اليه يده ، والنصارى القشتاليون اجتاحت المنطقة الواقعة بين مرسية
(٢)
وطورقة ، وعمدوا الى انشاء حصن ضخم على جبل شاهق بين المدينتين وشحنوه
بالرجال والسلاح ، واتخذوه قاعدة للاغارة على ما حوله من المناطق حتى
ضجت مساكنها من الضر وعجزت قوات الأندلس المحليه عن رد المسد وان
وكان الأمل الوحيد هو أمير المسلمين ، وكان الرسول اليه هذه المرة هو المعتمد
نفسه ان كان هو الحاكم الشرعي لتلك المناطق المهترده ، وان كانت حالها
قد استبد بها بعض القواد والوزراء ، وقد يكون جوازه للتضييق على هؤلاء
(٤)
كابن رشيق المستبد بمرسية بعد أن فتحها باسم المعتمد . وعلى أي حال

-
- (١) مدينة أندلسية شهيره على نهر شقوره ، بناها الأمير عبد الرحمن بن
الحكم ، وهي في مستو من الأرض ، وحولها قرى عامره تشقها الميساه .
وتشتهر مرسية بخصبها ، وصناعة البسط الرفيعه . / الروض المعطار
(مرسية) .
- (٢) من معاقل الأندلس الحصينة ، على ظهر جبل وينها بين مرسية
أربحون ميلا ، وهي ذات أسواق عامره وتوجد فيها أصناف من المعادن
الثمينة وتتبعها قرى كثيرة عظيمة الخصب / المصدر السابق (لورقه) .
- (٣) الحلل الموشيه : ٦٨ .
- (٤) مصداق عوض الكريم ، الأدب الأندلسي في عهد المرابطين : ٨ .

فقد أعد ابن تاشفين جنوده للجهاد ، وعبر بهم البحر الى الأندلس ، وطالب من ملوك الطوائف أن يوافوه عند الحصن المذكور ففعلوا ، وكان الحصن في غاية النعمة فحاصروه مدة أربعة أشهر ولم يستطيعوا اقتحامه ، وعلما أيضا أن الأندلس قد تحركت في جيش لا تقاوم الحصن فانصرفوا عنه ، فقدم عليه فوجد قومه قد أنهبهم الحصار فأخرجهم منه وأحرقه . وقد أطلع أمير المسلمين في هذه الغزوة على فساد دخيلة أمراء الطوائف ، فقد أخرجوا أضغانهم الدفينة على بعضهم ، فهذا ابن عباد يشكو ابن رشيق الذي اغتصب منه مرسية ويتهمه بالتعاون مع النصارى المحاصرين ، فيستفتى أمير المسلمين الفقهاء بشأنه فيرون سجنه ، ثم يأتي عبد الله بن بلقين أمير غرناطة ليشكو أخاه تميمًا حاكم مالقة متهما إياه بسلبه ميراث أبيه ، وتنشأ بعد ذلك المشاجرات بين الأئمة المتنافسين المعتمد بن عباد والمعتصم بن صمدح حاكم المرية وكان كل منهما يحاول أن يوفّر صدر أمير المسلمين على الآخر بكشف مفسده وخيانتة ، وكان المعتصم يذكر ليوسف كبر ابن عباد وأعجابه بنفسه وزعم أنه قال - وقد قال له المعتصم : طالت إقامة هذا الرجل بالجزيرة - لو صوجت له اصبعي ما أقام بها ليلة واحدة هو ولا أصحابه وكانك تخاف غاظته ، وأي شيء هذا المسكين وأصحابه ؟ انما هم قوم كانوا في بلادهم في جهنم من العيش ، وغلاء من السعر ، جئنا بهم الى هذه البلاد نطعمهم حسبة وائتجارا ، فانا شعبوا أخرجناهم عنها الى بلادهم الى مثل هذه الأقوال من تحقيرهم . وجاءت الرعية - أيضا - يقدمها العلماء والقضاة الى أمير المسلمين تشكو اليه ثقل الضرائب والمغارم ، فأمرهم بعدم دفعها

(١) التبيان : ١١١ .

(٢) المراكشي ، المعجب : ٢٨ .

(١)

حتى أقضرت خزائن الأُمراء ولم يستطيعوا فعل شيء مع الممتحنين . كل هذه الأمور جعلت أمير المسلمين يفادر الأندلس مفضيا وقد تغيرت نفسه على أُمراء الطوائف ، ورأى منهم وسمع مالم يرمعه مجالا لبقائهم حكاما للمسلمين ، ولما رأى أُمراء الطوائف ذلك من أمير المسلمين سارعوا الى دفع الجزية للنصارى مقابل حمايتهم من المرابطين ، وكان أول من فعل ذلك منهم صاحب فرناطيه . فلما وقف أمير المسلمين على ذلك اشتد حنقه وبخاصة عندما ظفر بكتائب ابن عباد الى الأندلس طالبها حمايته أيضا . . . عندئذ استفتى أمير المسلمين الفقهاء والقضاة في الأندلس والمغرب بشأن أُمراء الطوائف فأفتوا بعدم صلاحيتهم للحكم ووجوب انتزاع الأمر من أيديهم ، كما صارت اليه فتاوى أهل المشرق مسن الأعلام كالغزالي والطرطوشي مؤيدة للحكم السابق ، فعزم حينئذ على تخليص الأندلس منهم فجهز لذلك عدة جيوش تحت امره ابن عمه سير بن أبى بكر وعبرت الى الأندلس في سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة ، حيث بدأت بفرناطيه فاحتلها وسبق أميرها عبد الله بن بلقين أسيرا هو وأخوه تميم حاكم مالقه الى المغرب حيث استقروا أخيرا في مدينة أغصات ولا نجد شيئا من الشعر في رثاء هذه الامارة ربما لكون الحكام من البربر فلم يهتموا بالأدب والشعر لقلّة معرفتهم فيه ، وطرده الرعية لهم وتمنيها زوال حكمهم .

ثم سارت جيوش المرابطين نحو اشبيلية وحاصرتها بشده ، وأهدى المعتمد رسالة شديدة في الدفاع عنها لو أبداها في محاربة النصارى لحفظ ما وجهه ، واقتحمت المدينة في النهاية ، وقبض على المعتمد وذويه وأخذ أسيرا الى أغصات ودخل المرابطون اشبيلية سنة أربع وثمانين وأربعمائة . (٤)

(١) التبيان : ١٠٤ .

(٢) روض القوطاس : ٦٤ .

(٣) تاريخ ابن خلدون : ١٨٨/٦ .

(٤) الحلل الموشيه : ٧٣ .

ولقد كانت شهرة المعتمد كشاعر أكبر من شهرته كملك ، فشعوره في الأسر
ومافيه من الآلام والحسرات هو الذي أثار عطف الناس على قضيته وأعمالهم عن
كل أخطائه السياسي واستمثاره بالقيم الاسلاميه ، ولو أنه ظل فتد دغبول
المرابطين مدينته لما سمعنا له ذكرا ، ومن جهة أخرى كان المعتمد راعى
شعراء الأندلس كلها يتهافتون على فنائه تهافت الطير على الحب ، لما كانوا
يجدون منه من البذل السخي والهبات الوفيره والمجالس الخاصة التي تفضى
بأنواع اللهو واللطذات ، ولذلك فاننا نجد شعرا كثيرا في رثاء بني عباد من
شعرائهم الرسمين وغيرهم . فهذا ابن اللبانة شاعر البلاط يقول :-
(١) (٢)

- تهكى السماء بدمع رائج غادي * على البهليل من أبناء عباد ،
- على الجبال التي هدّت قواعدها * وكانت الأرض منهم ذات أوتاد .
- والرابيات طيها اليناعات ذوت * أنوارها ففدت في خفي أوهاد .
(٣)
- عريسة دخلتها النائبات على * أساود لهم فيها وآساد .

-
- (١) هو أبو بكر محمد بن عيسى من أهل دانيه (على ساحل البحر) كان
متكسبا بالشعر قصد الطوك ونال جوائزهم وانقطع للمعتمد بن عباد
واللبانة والدته كانت تشتغل ببيع اللبن وشعره لطيف نبيل المأخذ
رشيق الألفاظ رحل الى جزيرة ميورقه بعد موت المعتمد ومدح حاكمها
وتوفي سنة ٥٠٧ / انظر الذخيره ق ٣ ج ٢ ص ٦٦٦ ، البغويه : رقم
٢١٣ ، الواقي بالوفيات : ٢٤٧/٤ . المغرب : ٤٠٤/٢ - ٤١٦ . ،
الخريسته : ١٠٧/٢ . قسم شعراء المغرب والأندلس .
- (٢) القصيده في القلائد ص ٢٥ ، مجيد السعيد ، شعر ابن اللبانة
الداني : ٣٠٤ .
- (٣) العريسة : مأوى الأسد . الصحاح (عرس) ، الأساود : الحيات -
العظيمه ، المصدر نفسه (سود) .

- وكعبة كانت الامال تعمرها * فاليوم لا عاكف فيها ولا بساد
- لما دنا الوقت لم تغلف له عدة * وكلّ شئ لميقات وميمسار
- كم من درارى سعد قد هوت ووهت * هناك من درر للمجد أفسراد (١)
- نور ونور ، فهذا بعد نعمته * ذوى ، وذاك خبا من بعد ايقاد

ان الشاعر هنا قد هزّه المصاب الجلل بفقد أطيا تحمته الكرام ، فجعل كلّ شئ يشاركه عزه فالسما تسكب الدمع غزيرا ، والنجوم خبا نورها ، والزهر قد ذوى وذبل ، فالكون فى ماتم بعد أن كان فى عرس أيام عزهم ، وكيف لا يكون كذلك ، وقد كانوا كعبة الامال مفقد هم تعطّل كل شئ :-

- يا ضيف أقفربيت المكرمات فخذ * فى ضمّ رحلك واجمع فضلة الزاد
- وهامؤمّل واديهم ليسكنه * خفّ القطين وجفّ الزرع بالوادى
- ضلت سبيل الندى بابن السبيل فسر * لغير قصد ، فما يهديك من هادى
- وأنت يا فارس الخيل التى جعلت * تختال فى عدد منهم وأعداد
- ألق السلاح وغلّ المشرفى فقد * أصبحت فى لهوات الضيغم العادى (٢)
- "لا عطر بعد عروس" فى عديتهم * قد أقفر الحى من هند ومن عاد
- غابت عن الفلك الأرضى أنجمهم * فليس للسعد فيهم نور اسعد

فالمكرمات الواسعة قد اضمحلت ، والشجاعة والفروسية لم بعد يعرفها أحد بعد رحيلهم وذلك حكم المقادير التى لا تبقى على أحد مهما بلغ شأنه :-

- هو المقادير لا تبقى على أحد * وكلّ ذى نفس فيها لاماد
- وأسوة لهم فى غيرهم حسنت * فما شماتة أعداء وحساد

(١) النور ، والنوار : الزهر . اللسان (نور) .

(٢) مثل يضرب لمن لا يدّخر بعده نفيس . أنظر الميدانى ، مجمع الأمثال :

(١)

- أن يخلعوا فبنو العباس قد خلعوا * وقد خلت قبل حمص أرض بغداد .
نقول فيهم وهم أعلى برامكة * فالحال ذا الحال افساد كافساد .
كانت أسرتها من فضلها بهم * مثل الضابر أعواد بأعواد .
آتا الى الله في أيامهم فلقوا * كانت لنا مثل أعراس وأعياد .
تبالدنيا إذاقتهم عواد ثما * برح العذاب وما انوا بالحساد .
ذلو وكانت لهم في العز مرتبة * تحط مرتبتى عاد وشداد .
كانوا ملوكا ملوك الأرض فانصرفوا * ومالهم حومة فيهما ولا نساد .
حموا حريمهم حتى اذا غلبوا * سيقوا على نسق في جبل مقساد .
تبدلو السجن بعد القصر منزلة * وأحدقوا بلصوص عوض أجناد .
وأنزلوا عن متون الشهب واحتطوا * فهورى لهم لتلك الخيل أنداد .
وعيث في كل طوق من دروعهم * فصيح منهمن أغلال لأجناد .
ترى نرى بعد أن قامت قيامتهم * من يوم بعث لهم فينا ومياد ؟

وهو هنا يريد أن يقطع الطريق على الشامتين والحساد بضرب أمثلة لقوم
بلغوا ذروة المجد ثم أتاهم القدر المحتوم فأصبحوا أثرا بعد عين ذلك هم
البرامكة وزراء الخليفة العباسي هارون الرشيد ووجه المقارنة هنا بينهم وبين
آل عباد أن المصير الذي لقيه كل منهما كان بسبب السعيات والدسائس
المفسدة للمودة ، ثم نرى الشاعر يتأسف على أيامهم الماضية ويتأفف من فعل
الدنيا بهم عيث صاروا فيها الى الذل والهوان بعد العز والشمخ ، وضدت
السجون المظلمة تحويهم بعد أن كانوا يرفلون في القصور الفخمة بين الحراس

(١) يشير البيت الى خلق بني العباس واققرار بغداد قبل بنى عباد وهو

خطأ إذ أن بنى العباس لم يخلعوا الا على يد التتار سنة ٦٥٦ هـ عندما

اجتاح بغداد . فرما كان البيت مدسوسا على القصيدة .

والأجناد والخدم ، كما أن دروهمم التي كانوا يعترضون بلبسها نزعتم عنهم
وصنعت منها القيود للخيول ، وهذا ايمان في الازلال وتعظيم للنفوس ، ومن
خلال هذه المفارقات التي يمشيها الشاعر والتي تمثل تحولا في حياته ، يطلق
زفرة بأمنية بعيدة المنال وهي أن يرجع الأحياء الى ما كانوا عليه ، وكأنهم
ولدوا من جديد : ثم ينتقل الى وصف المشهد المؤثر الذي كان يوم رحيلهم
فيقول :-

- نسيت الاغداة النهر كونهم * في المنشآت كأصوات بالأحساد .
- والناس قد ملأوا العبرين واعتبروا * من لؤلؤ طافيات فوق أنساد .
- حط القناع فلم تستر مفسدرة * ومزقت أوجه تمزيق أبراد .
- حان الوداع فضجت كل صارخة * وصارخ من مفداة ومن فسداد .
- سارت سفائنهم والنوح يصحبها * كأنها ابلّ يحد وبها الحسادى .
- كم سال في الماء من دم وكم حطت * تلك القطائع من قطعات أكباد .

انها صورة حية متحركة رسمها الشاعر المدع لركوب أسياده البحر مصفدين
كأنهم أموات في اللحود ، فالسفن التي تعطمهم تسير وسط عواصف من الصراخ
والعويل والبكاء يطلقه أوطئك الناس الذين ارتدح بهم شاطئا نهر اشبيليه
(الوادى الكبير) وهو مشهد يثير آلام النفس وأشجانها ولا شك ، ويظهر نقدار
الحب الذي يضره الشعب لقائده المعتد ، وهو موقف عمل فيه خيال الشاعر
عنه ، إذ أن الحقيقة التاريخية تخالف ذلك وتشير الى أن الناس قد طسوا
(١)
الدولة العبادية وتمنوا الراحة منها . ثم يختم القصيدة بذكر كرمهم وانعامهم
عليه :-

(١) نفع الطيب : ٢٤٧/٤ .

- من لى بكم يابنى ماء السماء اذا * ماء السماء أبى سقيا حشا الصادى .
 - وأين معتمد ، نعصى يقسمها * مرعى وما لى زوار مرواد .
 - وأين يوضح لى هدى الرشيد ضوى * أجلوبه فى ظلام الفى ارشادى .
 - وأين لى كنف المعتمد منزلة * على احتفال من النعوى واعسداد .
 - مكارم ومعال كت بينهمها * كأننى بين روضات وأطواد .
 - ان كان بعدكم فى العيش من أرب * فان فى غصص عيشى وأنكساد .
- (٢)
- ويقول ابن اللبابة من قصيدة أخرى عندما زار المعتمد فى سجنه ورأى قيوده :-

- لكل شئ من الأشياء ميقات * وللمنى من منائهن غايات .
- والدهر فى صفة الحرى منغمس * ألوان حالاته فيها استعالات .
- ونحن من لعب الشطرنج فى يده * وطالما قمرت بالبيدق الشاة .
- انفض يدك من الدنيا وساكنها * فالأرض لله أقمفرت والناس قد ماتوا .
- وظل لعالمها السفلو قد كتمت * سريرة المعالم العلوى أغمات .
- طوت مظلتها لابل مذلتها * من لم تزل فوقه للعزرايات .
- من كان بين الندى والبأس أنصه * هندية وعطاياه هنيئات .
- رماه من حيث لم تستره سابغة * دهر مصيياته نهل مصييات .

يبدأ الشاعر بمقدمة رزينة عن الغاية التى ينتهى اليها كل شئ فى هذا الوجود وهى الفناء ، ولكن لكل أجله . وقد جاءت هذه المقدمة مناسبة لنفس الشاعر التى أحست بالألم لما صار اليه أحببها " ولكنها أعجز من أن تفعل

-
- (١) الرشيد والمعتمد هما من أبناء المعتمد بن عباد .
 - (٢) نوح الطيب : ٢٢٢ / ٤ - ٢٢٣ . ، القلائد : ٢٢ .
 - (٣) الهنيذة : المائة من الابل / اللسان (هند) .

شيئا ، لأن الناس جميعا لعب في يد الدهر يقلبها من سرور الى بؤس وكذا الحال مع المعتمد ، الرمز المشع لهذه الحياة في منظور الشاعر ، أما وقد انطفأ هذا الشماع واكتم نسوره ، فالحياة كلها ظلام ووحشة تستدعي اليأس منها ونفسي اليد . فقد انقلب كل شيء فيها الى كدر يجلب الهم والحزن فالشجاعة الفائقة والكرم الفامر كبلتھما القيود الثقيلة ومثما السهم المصميه .

- أنكرت الا التواءات القيود به * وكيف تنكرفي الروضات حيات .
- (١)
- غلظت بين همايين عقدن ليه * وبينها فانا الأنواع أشقتات .
- وقلت هنّ ذو ابات فلم عكست * من رأسه نحو رجليه الذؤ ابات .
- حسبته من قناه أو أعنته * انا بها لثقاف المجد آلات .
- دروه ليثا فخافوا منه عادية * عذرتهم ، فلعدو الليث عادات .
- لو كان يفرج عنه بعض آونة * قامت بدعوته حتى الجمادات .

وفي هذه الأبيات نرى الشاعر وقد أدهشته المفاجأة حينما رأى القيود تعض بساق سيده وكأنها الحيات ، فهو لا يريد أن يصدق ما يرى ولذلك يفرع الى الشك والتخمين وتغليب نفسه فيما تعتقد فبحسب القيود همايين شدت على وسطه ، أو ذو ابات ومائم لرأسه ولكنه - رغما عنه - يخرج من صراعه النفس ليقف على واقع الأمر وحقيقة ما يشاهد فيلتمس للثقاف عذرا يزيده صاحبه فخرا وعزه ، ذلك أنه ليث عاد تخشى فتكاته فيمن حوله لو كان طليقا وخوفا من رجوع دولته وصولته مرة أخرى ان أن أتباعه ذوو عدد ووفاء .

(١) الهيمان : كيس النقود ، أو نطاق يشد على الوسط . قال ابن

دريد : أحسبه فارسى معرب . / اللسان (هـ) .

- ثم يتطهف على أيامهم الخاليه ومانال من حظوة لديهم :-
- لهفو على آل عباد فانهم — * أهلة مالها في الأفق هالات .
 - تمسكت بعمرى اللذات ذاتهم * يابئس ماجنت اللذات والذات .
 - راح الحيا وفدا منهم بمنزلة * كانت لنا بكر فيها روحيات .
 - أرض كأن على أقطارها سرجا * قد أوقدتهم بالأدهان أنبات .
 - وفوق شاطئ واديهها رياض ريس * قد ظللتها من الأنشام روحات .
 - كأن واديهها سلك بلبتتها * وغاية الحسن أسلاك ولبسات .
 - نهر شربت بعبريه على صور * كانت لها في قبل الراح سموات .
 - معاهد ليت أنى قبل فرقتها * قدمت والتاركوها لبيتهم ماتوا .
 - فجمت منها باخوان ذوى ثقة * فاتوا ، ولدهرفى الاخوان آفات .

والملاحظ هنا تركيزه على اللذات التي كان يقتنصها ابن عباد وصحبه ، ومن جملتهم شاعره ابن اللبانة فهو يقول بصراحه ان نفوسهم قد جعلت على حب اللهو وتمسكت به الى أن تسبب في هلاكها .

والشاعر لا ينص عليهم هذا ، لأنه يعتبره من سعة الملك وعزة السلطان فالبكر والروحيات في ظلال الأشجار وحول خريف الأنهار ، وما يتبع ذلك من الراح والريحان هي الحياة التي عاشها شاعرنا في ظل سيده ، فهو عنها يتحدث ويصدر ، ولا يستطيع أن يخرج عن هذا الاطار في وصفه لذكرياته ، ألا ترى أنه يتمنى الموت له ولبنى عباد لكونهم فارقوا هذا اللون من الميضي .

وفي قصيدته الثالثة يقول ابن اللبانة :- (٢)

(١) الأنشام : شجرتتخذ منه القسي . اللسان (نشم) .

(٢) نفع الطيب : ٢٥٧/٤ - ٢٥٨ .

- أفكر في عصر مضى بك شرقاً * فيرجع ضوء الصبح عندي مظلماً
- وأعجب من أفق المجرة إذ رأيت * كسوفك شعناً كيف أطلع أنجماً
- لئن عظمت فيك الرزية اننسا * وجدناك منها في الرزية أعظماً
- قناة سعت للطعن حتى تقسّمت * وسيف أطال الضرب حتى تثلمنا (١)
- بكى آل عباد ولا كعمد * وأولاه صوب الفمامة إذ همسو
- حبيب إلى قلبى حبيب لقلوبه * عسى طلل يدنو بهم ولعلمنا
- صباحهم كتابه نحمد السرى * فلما عدناهم سربنا على عسى
- وكنا رهينا الحزّ حول حماهم * فقد أجذب المرعى وقد أظفر الحصى (٢)
- قصور خلّت من ساكنيها فما بها * سوى الأدم تمشي حول واقفة الدمى (٣)
- تجيب بها الهام الصدى ولطالما * أجاب القيان الطائر المترنسا (٤)
- كان لم يكن فيها أنيس ولا التقى * بها الوفد جمعا والخميس مرمسا

وهذه القصيدة لا تخرج في أفكارها عما تقدمها من قصائد فهي استشعار

لما يحس به الشاعر من عمق النكبة التي بدلت ضوء حياته ظلاماً بعد أن أجذب-

الحصى الذي كان يرتج فيه آمناً ، وغلت القصور التي كانت رائمة الازدحام

بالوفود والحشود . ولهذا فالشاعر سيظل دائم الحزن والبهكا :-

-
- (١) هو المتمد .
 - (٢) الأدم : الظبا ، البيض تعلوهنّ غيرة . الصحاح (أدم) .
 - (٣) الهام : جمع هامة وهي من طير الليل كانوا يزعمون أنها روح القتيل الذي لا يدرك نأره تصير هامة وتزقوا عند قبره تقول اسقوني اسقوني ، فإذا أدرك نأره طارت . وهي من خرافات العرب / الصحاح (هيم) .
 - (٤) الخميس : الجيش لأنه خمس فرق : المقدمة ، والقلب ، والميمنة ، والميسرة والساق / الصحاح (خمس) .

- (١)
- حكيت وقد فارقت طوك مالكا * ومن وهى أحكى عليك متمسا
 - مصاب هوى بالنيرات من المسلا * ولم يبق فى أرض المكارم معلما
 - تضيق طوى الأرض حتى كأنمسا * خلقت واياها سوارا ومحمصا
 - نديتك حتى لم يخل لى الأسى * دموعا بها أبكى عليك ولا دمسما
 - وانى طوى رسى مقيم فان أمست * سأجعل للباكين رسى موسمسا

وهذا الهكاه الدائم الذى ألزم الشاعر به نفسه انما هو من قبيل الوفا لسيدته الذى هوى مجده بعد المنعمة وليس الشاعر وحده هو الذى يملكه الأسس ، وتضيق عليه الأرض وانما يشاركه الكون كله ذلك :-

- بكاك الحيا والريح شقت جيوصها * طيك وناح الرعد باسمك معلما
- ومزق ثوب البرق واكتست الضحى * حداد ا وقامت أنجم الجو أفعمسا
- وحرار ابنك الا صباح وجدا فما اهتدى * وغار أخوك البحر فضا فماطمى
- وما حل بدر التم بمسلك دارة * ولا أظهرت شمس الظهيرة بمسما
- قضى الله أن عطوك من ظهر أشقر * أشم وأن أمطوك أشام أد همسا
- سينجيك من نجوى من السجن يوسفنا * ويؤمك من آوى المسيح ابن مريما

وتظهر هنا براعة الشاعر فى استخدام أجزاء الطبيعة فى صورة نابضة بالحزن مشعرة بالحنوطى موقفه الرثاى ، فالريح تثق الجيوب ، والرعد يطلق صوته بالنواح مرددا اسم المعتمد ، أما البرق فقد خلق شبه الامسح واكتسى مع الضحى والنجوم ثوبا حالكا ، وهذه الصورة الرائعة ترفع من قدر

(١) هو مضم بن نيرة اليربوعى ، ومالك أخوه وقد أسلما أيام النبو - صلى الله عليه وسلم - ولكن مالكا ارتد بعد ذلك فقتله خالد بن الوليد . وكان مضم دائم الهكاه عليه والرثاه له . / انظر الاصابة : ٣ / ٣٢٦ - ٣٣٧ . ، جمهرة أشعار العرب : ٢ / ٢٤٧ .

الأمر الموشى حتى تقربه من منزلة الأنبياء الكرام الذين امتحنوا بالسجسنة والمطاردة من أعدائهم فأنجاهم الله ، ولهذا جاء ذكرهم في البيت الأخير .

ولعل أهم ما يميز به شعر ابن اللبانة في رثاء بني عباد الصدوق الفسنى والعاطفة الدفاقة فقد رثى المعتمد كما يراه هو ويتصور بنفسه النظر عين الواقع الذي كان عليه ، وقد أتاح له هذا التصور مجالا واسعا لمد أطناب الرثاء وذكر الصفات الجليله التي اعتوت طيها شخصية ابن عباد ، ولا ننسى في هذا المقام الحب والوفاء الذي كان الشاعر يكته لأبيه مع شوق من الأمل في رجوع عهده السابق ، هذه الأمور جعلت لغته في الرثاء قوية ، تذكر بمواقف المدح التي كان يقفها في ديوان سيده فيما مضى . وقد ألسف ابن اللبانة ديوانا شعريا خاصا في رثاء دويلة بني عباد سماه " السلوك فسى وعظ الطوك " ولكنه لم يصل إلينا ، وأسلوبه يمتاز بالسهولة في الألفاظ واللفظة في المعاني التي يغلب عليها الابتكار ، مع ميل واضح إلى الصنعة والزخرفة البديعية واللفظية .

أما بالنسبة لشعر المعتمد في رثاء نفسه ودولته ، وأولاده فهو كـ

يفيض بالعاطفة والبكاء والحنين ، وسنورد منه هنا ما يحتمله البحث ، قال (٢)

من قصيدة بحث بها إلى شاعره ابن حمديس الصقلي :-

- غريب بأرض المغربين أسير * سييكي طيه منبر وسريير .
- وتندبه البيض الصوارم والقنسا * وينهل دمع بينهن غزيير .
- مضى زمن والطك ستانس به * وأصبح منه اليوم وهو نفسور .

(١) نفع الطيب : ٢٥٨/٤ .

(٢) انظر الذخيره ، ق ٢ ، ج ١ ص ٦٢ - ٧٥ .

(٣) قلادع العقيان : ٢٧ .

- برأى من الدهر المضلل فاسد * متى صلحت للصالحين دهر ؟
أذل بنى ماء السماء زمانهم * ونذل بنى ماء السماء كبير .
فياليت شمري هل ابهتن ليلسة * أماص وخلقى روضة وفديسور .
بضبتة الزيتون مورثة العسلا * يهغى حمام أوتدن طيسور .
(١)
بزاهرها السامى الذرى جاده الحيا * تشير الثريا نحونا ونشسير .
ويلحظنا الزاهى وسعد سموده * غيويرين والصب الحب غيسور .
تراه صيرا أو يسيرا مالفه * ألا كل ماشاء الاله يسيسير .

وهذه الأبيات زفرة حارة من الأمير الأسير أطلقها عندما شعر بذلقة
الأسرى فى المغرب ، وأيقن بفقدان الأمل فى صفو الدهر الفرور ، فسراج
بيكى طمكه المفقود الذى طالما دافع عنه بالصوارم والقنا ، وتمتع فى ظلاله
بالعيش الرغيد ، وامتحج بطبيعته الساحره وسط روضات اشبيلية وحدائقها
حيث كانت تقوم قصور المعتمد الشوامخ التى حوت من اللهب والطرب ، مالم
يكن بحلب لبنى حمدان وطسيف بن ندى يزن فى رأس حمدان . ولما وصلت
القصيدة الى ابن حمدى شد رحله الى أغمات حيث المعتمد قد أشققت
القيود فقال معارضا للقصيدة السابقه : (٣)

- جرى بك جد بالكرام عشور * وجار زمان كنت فيه تجير .
لقد أصبحت بهي الظبا فى غمودها * اناثا لترك الضرب وهى ذكور .
تجى خلافا للأمر أمورنا * ويعدل دهر فى الموى ويجور .

(١) الزاهر والزاهى من قصور المعتمد باشبيلية . المصدر السابق : ٢٤ .
(٢) النفج : ٢٧٥ / ٤ . وانظر مادة (غمدان) فى الروض المعطار .
(٣) ديوان ابن حمدى : ٢٦٨ .

- أتياس في يوم يناقض أسسه * وزهر الدراري في المروج تسدور
 - وقد تنتخو السادات بعد خمولها * وتخرج من بعد الكسوف بسدور
 - لئن كنت مقصورا بدار عمرتها * فقد يقصر الضرغام وهو هصور
 - أغر الأسارى أن يقال محمد * غريب بأرض المغربين أسير
- الى أن يقول :

- ولما رحلت بالندی في أهكم * وقلقل رضوى منكم وشير
- رفعت لسانی بالقيامة قد أتت * الا فانظروا هذي الجبال تسير

والشاعر يحاول أن يوأس سيده ويهون عليه ما هو فيه بنسبة ما أصابه الى الحظ الماثر ، والزمان الجائر الذي ربما يبتسم مرة أخرى فتحسود الهدور العباديه الى لمعانها بعد الكسوف ، ولا عبرة بهذا الأسير والبعد عن الوطن إذ أنه لا يفضل عزيمة رجل كابن عباد . والشاعر في واقع الأمر غير مقتنع بهذا الأمل والتفاؤل ، وخاصة بعد أن قتل المرابطون ولدي ابن عباد بقرطبة ورنده عندما حاولا المقاومة والامتناع ، فنراه يصرخ يائسا قد فقد كل شيء حوله وكان القيامة قد أرقت .

(١)

وفي رثاء قصوره ومنازله يقول المعتمد أيضا :-

(٢)

- بكى المهارك في اثر ابن عباد * بكى طي اثر غزلان وآساد
- بكت شرباه لاغمت كواكبها * بمثل نوء الثريا الراجح الخادي
- بكى الوحيد ، بكى الزاهي وقتته * والنهر والتاج ، كل ذلك بادي
- ما السما طي أفئائه درر * يالجة البحر دوى ذات انساد

(١) القلائد : ٢٦ .

(٢) هو قصر الحكم والامارة وكان يقع في شرق نهر الوادي الكبير . / عنان

عصر الطوائف والمرابطين : ٥٥ .

والملاحظ هنا تكراره للفظ البكاء وأسقاطه على القصور ، والنهر ،
والتاج ليشرح السامع بروعة الطك وفخامة السلطان ، والتصاق
بيانيه وشديد أركانه . ومن ناحية أخرى يمكن أن نتبين معجم ابن عباس
الشعري الذي مداره على الغزل والاستمتاع بالحياة والطهيمة ، فهو لا ينفك
- حتى في رثائه - يذكر الروض والغدير ، والسمر ، والثريا ، والقصور
والطيور المفردة الخ أما ما نزل بقصوره من خراب واهمال وشبه
أحوال فيكتفى بذكر كلمة " بكي " لتمبر من ذلك كله :

ومر على المعتمد وهو في معتقله سرب من القضا يرح في الفضا فهجاج

وجده الى حريته المفقوده فقال :- (١)

- بكيت الى سرب القضا ان صررت بي * سواح لاسجن يموق ولا كهل
- ولم تك - والله المعيد - حسادة * ولكن حيننا ان شكوا لها شك
- فأسرح لاشطى صديق ، ولا الحشا * وجميع ولا عيناى بيكيهما شك
- هنيئا لها ان لم يفرق جميعهما * ولا ذاق منها البعد من أهلها أهل
- وان لم تبت مثلن تطير قلوبهما * ان ا اهترباب السجن أو صلصل القفل
- وماذاك مما يعتربه ، وانسبا * وصفت التي في جبلة الخلق من قهل
- لنفسى الى لقيا الحمام تشوف * سوى يحب العيش في ساقه كهل
- ألا هم الله القضا في فراخهما * فان فراخى خانها الماء والظلل

وهو يتحنى الموت ليتخلص من حياة القيود التي تأنف نفسه منها ، وليخيب

(٢)

عن مشاهدة أولاده وهم يعيشون في بؤس وشقا بعد النعيم وفي ذلك يقول :

(١) نفع الطيب : ٢٢١ / ٤ - ٢٢٢ .

(٢) المصدر نفسه : ٢٧٣ / ٤ - ٢٧٤ .

- ترى بناتك في الأعمار جائمة * يفرزن للناس ما يطغى قطمورا
- برزن نحوك للتسليم خاشعة * أبصارهم حسيرات مكاسيرا (١)
- يطأن في الطين والأقدام حافية * كأنها لم تطأ سكا وكافسورا
- لاخذ الأتشي الجذب ظاهره * وليس الأت مع الأنفاس مطسورا
- أفطرت في العيد لاعادت صا * فكان فطرك للأكباد تفلسيرا
- قد كان دهره ان تأمره ممثلا * فودك الدهر منهبها ومأسورا
- من بات بعدك في ملك يسرته * فانما بات بالأحلام مفسورا

ان الحزن والألم قد دخل الى نفس ابن عباد من جوانب كثيرة ، فهو يبكي فقد الطلح ، ويبكي ذل الاسار الذي قيد حريته ومجده ونواله ، وهنا نراه يصف بحاطفة الأبوة منظرا حزينا لبناته عندما أقبلن لتهنئته بالعيد فرأى منهن ما فطر قلبه وأدماه فالملابس بالية ، والأقدام حافية ، وأشر الجوع ياد على الوجوه المنكسرة الخاشعة من الذل ، وهذه الصورة الحزينة الموحية وأمثالها من شعر المعتمد . وان كانت لا تخلو من المبالغة . هي التي جعلت نكبة المعتمد تأخذ الطابع الأسطوري على مر العصور ، وقصد أحسن المعتمد بذلك فقال متجاهها مع الاحساس بالعظمة الكامنة في نفسه :- (٢)

- أنبا أسرك قد طبقن آفاقا * بل قد عنن جهات الأرض اقلقا
- سرت من الغرب لا تطوى لها قدم * حتى أتت شرفها تنعك اشراقا
- فأحرق الفجع أكبادا وأفسدة * وأغرق الدمع آفاقا وأصد اقسا

(١) يشير المعتمد هنا الى حادثة " يوم الطين " وذلك أن زوجته اعتمد الزميكيه " رأت الناس يمشون في الطين فاشتبهت أن تفعل مثلهم ، فأمر المعتمد بسحق كميات من الطيب وجعلها بما ورد حتى أصبحت كالطين فخاضته مع جواربها ، أنظر : المصدر السابق : ٢٧٢/٤ .

(٢) نفيح الطيب : ٢١٩/٤ .

- قد ضاق صدر المعالي اذ نعتت لها * وقيل : ان عليك القيد قد ضاقا .
- أنى ظبت وكنت الدهر ذا غلب * للغالبين وللسباق سباقا .
- قلت الخطوب أذلتنى طوارقها * وكان غرس الى الأعداء طواقا .
- متى رأيت صرف الدهر تاركه * اذا انبرت لذوى الأخطار أرقا .

فنبأ أسره الفاجع قد أطلق مشارق الأرض وصفارها ، وتقرحت قلوب
الناس هنا وهناك حزنا وألما من فعل الدهر المولع بتحطيم العظام ، فبينما
كان ابن عباد ملء سمع الدنيا ومصرها اذا به يحويه سجن ضيق ، ويطوقه
قيد ثقيل يطوى أخباره وآثاره .

وهكذا ظل المعتمد فى سجنه الى أن مات سنة ثمان وثمانين وأربعمائة
ودفن بأفمات وعندما وافى العيد من تلك السنة زار الشاعر أبو بكر بن
عبد الصمد قبر سيده المعتمد وطاف به وخر على تربه ولثمه وأنشد :
• طك الطوك أسامع فأنادى * أم قد عدتكَ عن السماع عدوان ؟
• لما غلت منك القصور ولم تكسب * فيها كما قد كنت فى الأعيان .
• أقبلت فى هذا الثرى لك خاضعا * وتخذت قبرك موضع الانشاد .

-
- (١) هو أبو بحر يوسف بن أبى القاسم خلف بن أحمد بن عبد الصمد . أصله
من كهوة جيان ، وجدده الأول السمع بن مالك أحد أمراء الأندلس
قبل دخول عبد الرحمن الداخل اليها . وبيتهم مشهور با علم والأدب
والنباهة . وأبو بحر هذا شاعر ونثر مدح ، وذو روية يديها ،
كان من جملة شعراء المعتمد بن عباد . / أنظر الذخيرة ، ق ٣ ، ج ٢
ص ٨٠٩ ، المغرب فى حلل المغرب : ٢٠٣ / ٢ .
(٢) أورد جزاء منها صاحب القلائد : ٣٤ ، وأوردها بطولها مصطفى
عوض الكريم فى كتابه الأدب الأندلسى فى عهد المرابطين : ٣١ - ٣٤ .

- قد كنت أحسب أن تبدر أدمى * نيران حزن أضرمت بفضؤ ادى .
- فاذا بدمى كما أجرىته * زادت على حرارة الأكماد .
- فالعين فى التسكاب والتهتان والـ * أحشاء فى الاحراق والايقاد .
- يأيها القصر الضير أهكـذا * يمحى ضيا النير الوقاد .
- ماكان ظنى قبل موتك أن أزر * قبرا يضم شوامخ الأ طواد .
- المهضبة الشما تحت ضريحه * والبحر ذو التيار والازباد .

ويستمر الشاعر فى ذكر صفات الأمير الراحل التى هى فى نظره مشمال

للكمال الانسانى فهو قائد الفرسان والكتائب يرى الهجاء روضا يانعا ،
وفبارها فى أنفه أطيب من دخان الند العابق . وهو محل الجود والنسدى
متهلل الوجه لقصاده فى كل الظروف ، أما العلوم والآداب فهو حاصل
لوائها والعلم بأخبارها :

- من يفهم المعنى الخفى ومن له * صدق الحديث وصحة الايراد .

ثم يدور الزمان دورته ويلعب بابن عباد ، وهذا ليس عجيبا لأن الأيام

دول بين الناس وفى التاريخ أكبر دليل :

- حتى اذا ما الدهر أظهر حقه * والدهر للأ حرار ذو أحقاد .
- ألفت بأيديها معانك السنى * ملك من العقبان والامداد .
- وتهدمت أركان كل سياسة * وانهد حول الطك كل عماد .
- حازت بنو الحباس ملك أمية * وهم ذوو الأعداد والأعداد .
- والدهر أنهب تبعا وجنوده * وأزال ملك الأرض عن شداد .

ثم يستلرد الشاعر فى ذكر النعم التى أولاه اياها المعتمد أيام حكمه

باشبيلية ، والتى مهما رثى وبكى فلن يوفيهما حقهما :-

- كم نعمة خفرا* قد ألبستني * ومواهب والبتها وأيساري .
- أغرقتني فو بحرك الطامى الذى * منع الظما* ورد كل ثصاد . (١)
- وسللت فو نصرى سيوف مكسارم * تركت سيوف الهند فير حدان .
- عادت بحارا ان سقيت ضحا ضحى * وفدت هضابا ان رفعت وهادى .
- وأتعتنى لما رأيت حوادث الـ * أيام قد أسرفن فو اقصيادى .
- فالجفن بعدك ليس يدري ما الكرى * فو دمة منهلة وسهمياد .
- وكان ظبى فوق مغلب طائر * وكان جنبى فوق شوك قتصاد .
- ان لم تطب فيك المرائى والثنا * متى فلتت بطيب الميـلاد .
- ولقد تراج حيكم بجوانحس * كتماج الأرواح بالأجساد .
- ولقد رثيت وما قضيت حقوقكم * والله يعلم ما يـكن فسؤادى .

والشاعر فيما يبدو صادق العاطفة ، يتحدث عن أمير أحبّه وعن واقع

عاشه فو كلفه ، وقد مرّ فو رثائه بين العبرات المنسكة حزنا

وألمأ وبين المدح لشخصية المعتمد . التى أمدته بكثير من مادة شعره .

وأما عن تأثير هذه القصيدة فو سامعها فيقول الفتح بن خاقان : "

وهى قصيدة أطال انشادها ، ونى بها اللوايح وشادها ، فانحشر الناس

اليه وأحفلوا ، هكوا لبكائه وأعولوا وأقاموا أكثر نهارهم مدبفين به طواف

الحجيج ، مديمين البكا* والحجيج ، ثم انصرفوا وقد نزلوا ما* هونهم

وأقرحوا ما* هونهم بغيض شجونهم " .

(١) الثمار : الما* القليل . الصحاح (ثمد) .

(٢) قلائد العقيان : ٣٥ .

قضية ابن صاهد في اطوارها الحقيقي :-

لقد شغلت هذه القضية جانبا كبيرا من جوانب الأدب والتاريخ فليس الأندلس والمغرب على وجه الخصوص ، فائنا لا نكاد نجد كتابا في هذين الفنين يخلو من ذكرها ومن الخوض فيها ، ومن هنا فقد كبرت الآراء والأحكام التي تصمم يوسف بن تاشفين بالقسوة والغلظة والخشونة ، ودولة المرابطين عامة بالجهل والتخلف وصحابة الآداب والمعلوم غير الشرعية ، ولعل هذه الأحكام ترجع الى عاملين اثنين هما ، الشعر ، ووجود المؤرخين المعادين له لهذه الدولة . فالشعر الذي نظمه المعتمد نفسه أو شعراؤه الذين فقدوا مصدر رزقهم بأسره عمل عمل السحر في نفوس الناس لما كان يحوى من مهالغات كبيرة في وصف الآلام والأحزان الرهيبة التي كان يعانيها المعتمد ونسائه الصغار من جراح السجن وقلة الزاد ، والمعاناة السيئة القاسية ، وقد قدمنا فيما سبق طرفا من هذا الشعر . أما المؤرخون فأشهرهم عبد الواحد المراكشي صاحب كتاب " المعجب في تلخيص أخبار المغرب " الذي صور إعجاب ابن تاشفين بهلاك الأندلس ، وطمعه في الاستيلاء عليها لأجل ذلك ، فقد قال عن هودته بعد الزلاقة : " ورجع أمير المسلمين الى مراكش ونسى نفسه من أمر الجزيرة المقيم المقعد ، فبلغني أنه قال لبعض ثقافته من وجوه أصحابه : كنت أظن أني قد ملكت شيئا ، فلما رأيت تلك البلاد صغرت فسي عيني ملكتي فكيف الحيلة في تحصيلها " ؟ ويرى أيضا أن أمير المسلمين كان يقول للمعتمد هلم ماجئنا له من الجهاد ، وجعل يتأفف من الإقامة بالأندلس ويتشوق الى مراكش ويقول : " كان أمر هذه الجزيرة عندنا عظيما قبل أن نراها فلما رأيناها وقعت دون الوصف . وهو في ذلك كله يسر حسوا في ارتضا " .

(١) المعجب : ١٩٩ .

(٢) المصدر نفسه : ٩٣ ، ومعنى المثل أنه يعتقد خلاف مايقول ، كالذي يتظاهر بأخذ الرغبة يحسن اللبن من تحتها .

الى غير ذلك من أشباه هذه الروايات التي لا يوشق بصحتها فقائلها مسؤو
موحدي مؤمن بالحقيفة الموحديه لدرجة أنه يذكر المعجزات التي لا تصدق
عن المهري ، والتي أعلن عدد من المؤرخين شكهم فيها . فهل ينتظر
من مثل المراكشي أن يذكر جهاد المرابطين واخلاصهم وهم أعداء قومه ويهادونه ؟
وطحل الذي جعل أمير المسلمين يتأنف من الإقامة في الأندلس على فسر
صحة ذلك - هو ما رأى من اللهو والعبث والتبذير الذي كان عليه المعتمد بسن
جهاد كبير أمرائها ما دفعه الى القول : " الذي يلوح لي من أمر هـنـنـدا
الرجل (أي المعتمد) أنه مضيع لما في يديه من الطك ، لأن هـنـنـده
الأموال التي تعينه على هذه الأحوال لا بد أن يكون لها أرباب لا يمكن أخذ
هذا المقدار منهم على وجه العدل أبدا ، فأخذها بالظلم ، وأخرجها فسو
هذه النزعات . وهذا من أفحش الاستهتار . " وإذا كان يوسف هـر السـو
الأندلس بدافع الطمع وحب السيطرة فلماذا لم يحتلها مباشرة بعد معركة
الزلاقة التي جعلت أهل الأندلس يلهجون بحبه والدعاء له ولو أراد ذلك لما
وجد مقاومه ، ولكنه أعطى أمراء الطوائف فترة خمس سنوات فلما بان هـزهم
واختلافهم ، استفتى أمير المسلمين بشأنهم الفقهاء وعمل برأيهم وهو ازالة
هؤلاء الحكام انقانا للمسلمين وأرضهم ، ذلك أن الأندلس لو لم تنضو تحت
لواء المرابطين لسقطت لا محالة في يد النصارى الملازمين لها كالسطل ، والذين
استشروا طمعهم بعد احتلالهم طليطلة . ثم اننا لو نظرنا الى الدهـسـا
الذي استفتح به يوسف بن تاشفين جوازه الى الأندلس لقدرنا قيمة أفسوال
المراكشي السابقه حيث قال عندما ركب سفينته : " اللهم ان كنت تعلمم

(١) أحمد بدر ، من كتاب المعجب في تلخيص أخبار المغرب : ٢٩ .

(٢) وفيات الأعيان : ٤٨٥ / ٢ .

(٣) روض القرطاس : ٩٣ .

أن في جوازي هذا خيرا وصلاحا للمسلمين ، فسهل على جواز هذا البحر ، وان كان غير ذلك فصعبه طوي حتى لا أجسوزه . ”

ولو أننا الآن نظرننا الى أحداث هذه القضية نظرة شاملة بعيدة عن تأثير

العوامل المختلفة لا يمكننا التعرف على واقع الحالة التي كان يعيش فيها

المعتمد بالمغرب ولا نصفنا أمير المسلمين يوسف ابن تاشفين مايتهم به من

الغلظة والقسوة والأنايه . ولا بد أن نذكر بادئ ذي بدء أن المعتمد

كان يعيش في الأندلس منفصلا في الطنجات والشبهوات يهزم طفيفه خيلا

وسط ذلك المعشد من الشجرا^(١) الذين خلدوا فيه من الأمداح ” مالو مسدح

به الليل لصار أضوا من الصباح . فلم تكن حياة المرابطيين لتعجبه ولو وضعوه

في قصر أمير المسلمين نفسه ، وهل يرضى المعتمد المتعمم بخبز الشعير ولحم

الابل اللذين كانا غذا^(٢) أمير المسلمين الدائم كما يشهد بذلك المستشرق أشباح

بالرغم من عداوته الشديد للمرابطيين . ان يقول : ” قد بلغ من اعتدال سببه ،

وتقشفه أنه لم يكن يأكل سوى خبز الشعير ولحم الابل ولا يشرب سوى لبنها^(٣) . ”

وقد كان أمير المسلمين يكن للمعتمد شيئا من الاحترام لمشاركته في الحروب

التي خاضها المرابطون في الأندلس ، ولذا فقد أمر ابن تاشفين قائده بترك

اشبيلية حتى يفرغ من جميع امارات الطوائف ثم يعرض على المعتمد التحول الى

المغرب بأهله وماله ، فان فعل والا نازله . فلما أبى المعتمد التحول كان هن

أسره ماسبق ايضاحه . وعن معاملة هذا الأسير يحدثنا زميله في الأسر

عبد الله بن بلقين أمير غرناطة الذي أسره المرابطون قبل المعتمد واستقر

في مدينة مكاسة حيث وافاه المعتمد هناك ، وانتقلا معا الى أغسات .

(١) نفع الطيب : ٢٢٥ / ٣ .

(٢) تاريخ الأندلس : ٧١ / ١ .

(٣) الوفيات : ٤٨٧ / ٢ .

(٤) التبيان : ١٧١ .

وفى ذلك يقول : ^(١) وأمرنا أن نستوطن أغمات ، فأتيناها ، ولقينا من أمسير المسلمين كل جميل ، وأنزلنا بداره الصفري فى الحرير ، ولم يزل يحتقدنا من انعامه كيف ما هياً الله على يديه ، ووجدناه بعمد الله أرفق بنا وأحسن مذهبا فينا من الناس أجمعين ، ومن كل من سبق إليه منا احسان ،

ولم تكن أغمات آنذاك مدينة مهيلة أو صغيرة فقد كانت عاصمة المرابطين قبل مراكني تشتهر ببساتينها الفسيحة وأسواقها التجارية الفرحه ، وقد كانت للمعتمد حرية الاتصال بالناس ، وكان الشعراء - وهم الطبقة المفضلة لديه - على اتصال دائم به ، فمنذ أن وصل مدينة طنجة فى طريقه إلى أغمات تلقاه الشعراء الملحفون والمكروين وأسمعوه بعض أشعارهم فيه فأعطاهم ^(٢) ما كان معه من المال وقال :-

شعراء طنجة كلهم والمغرب * ذهبوا من الاغراب أبعد مذهب .
سألوا الحسير من الأسير وانسه * بسرؤ الهم لاحق فأعجب وأعجب .

وأما عندما استقر فى أغمات فقد زاره شعراؤه الثلاثة ابن اللبانة وابسن حمد بن الصقلي وعبد الصمد وأنشده من أشعارهم الشئ الكثير ، ومكثوا عنده فى حرية تامة بل ان بعضهم كابن اللبانة أنشده شعرا لا يمكن أن يسمح بمثله

(١) المصدر نفسه والمرفحة نفسها .

(٢) عباس الجرارى ، الأدب المغربى : ١/١٢٣ نقلا عن البكرى فى المسالك والممالك ص ١٥٢ .

(٣) مدينة قديمة بالمغرب على ساحل البحر المتوسط ، افتتحها عقبة بن نافع ، وكانت قسبة بلاد البربر ، ومنها يجوز أهل المغرب إلى شواطئ الأندلس . / الروض المظمار (طنجه) .

(٤) عوض الكريم ، الأدب والأندلس فى عهد المرابطين : ٢٦ .

في تلك الظروف في أي زمان أو مكان ، وذلك أنه مدح المعتمد فأراد أن يجيزه

بما معه من المال فرفض الشاعر وقال من قصيدة طويلة :- (١)

- رهدك سوف توسعني سرورا * اذا عاد ارتقاؤك للسرير
 - وسوف تحلني رتب المعالي * غداة تهلّ من تلك القصور
 - تأهب أن تعود الى طلوع * فليس الخسف ملتمز الهسود
- وله أيضا :

ليت لي قوة أو اوى لركسن * فترى للوفاء مني ســـــــرا

وشاعره أبو بحر عبد الصمد الذي أنشد على قبره وهي واعتشد الناس من حوله في مشهد كبير صان . فهل نجد أكثر من هذا القول والفعل دليلا على الحرية التي كانت متاحة للمعتمد وشعرائه ، وإذا أضفنا الى هذه الحرية بعض جوانب اهتمام ابن تاشفين بأسيره كأمره لطبيبه الخاص أبو العلا بن زهر بعلاج اعتماد الرميكيه زوجة المعتمد استطعنا أن ندرك مدى المبالغات التي أحاطت بهذه القضية ، واستطعنا أيضا أن نرد أقوال المؤرخين المبالغين في الماضي والحاضر ، كقول ابن الأثير : عن بني عباد : " وفعل أمير المسلمين بهم أفعالا لم يسلكها أحد من قبله ولا يفعلها أحد ممن بعده الا من رضى لنفسه بهذه الرذيلة وأبان أمير المسلمين بهذا الفعل عن صغر نفسه ولؤم قسده " .

وعذر ابن الأثير في هذا الكلام أنه ينقل عن كتاب السلوك في وعظ الطوك لابن اللبانة شاعر المعتمد وصنيعته الاتف الذكر ، وكلامه لا يلتفت اليه لأنه

(١) المحجب : ٢٢١ .

(٢) الذخيرة : ٢٥ ، ج ١ ، ص ٢٢٧ .

(٣) الكامل في التاريخ : ١٠ / ١٤٠ .

خصم همه تشويهه سمعة أمير المسلمين . ولم يخلق ابن الأثير طوى مانقلسه
شيئا فتحمل بذلك وزير ماصنع .

(١)

ومن المحدثين المستشرقين هنريارت دوزي الذي يقول : " ان معاطة ابن
تاشفين للمعتد كانت قاسية ومقينة " . وقد تبعه في هذا الرأي المؤرخ محمد
عبد الله عنان الذي يقول : " ولم يكن مقامه (أي المعتد) بأغصان
معتقلا عاديا بل كان سجنا شنيعا بكل معاني الكلمة ، ضيق فيه طوى المعتد
وآله أشد التضيق فلم يكن يطلق لهم ما يفتخرون من النفقة ، وكان المعتد
وزوجه الرميكية ، وأبناؤه الأمرأ ، وبناته الأقسام يرتدون الثياب الخشنه ."
وقال أيضا : " وأى ضرورة اقتضت أن يحاط سيد المرابطين المعتد
بن عباد وآله بهذه القسوة المروعة ، بعد أن غداوا في يده أسرى لا حول لهم
ولا قوة ؟ وكيف سمح أمير المسلمين القوي القادر لنفسه أن تمتد هذه القسوة
الى الرطب الضعاف والنساء والبنات . "

ولا أدري من أين أتى عنان بهذه المعلومات إلا أن يكون ذلك من تأشير
مبالغات الشعر الذي قيل في هذه القضية ، أو من مقابلة هذا الرجل لجبطة
المستشرقين الدارسين لتراث الأندلس ، والذين كان لديهم الحامن في الجوانب
المختلفة لدولة المرابطين . لا لشئ إلا أنها دولة اسلامية مجاهدة حاصلة
شوكة النصرى ردها من الزمن ، وقتت على مظاهر الفسق والفجور التي كانت
تجرح بها الأندلس يقول دوزي : " كان مجيء المرابطين الى بلاد الأندلس
(٤)

(١) تاريخ مسلمو اسبانيا : ١٦٨/٣ .

(٢) عصر الطوائف والمرابطين : ٣٥٧ .

(٣) المرجع نفسه : ٣٦٥ .

(٤) حسن محمود ، قيام دولة المرابطين : ٤٤٠ .

نذيرا بانقلاب بعيد المدى ، فقد دالت دولة الحضارة وقامت الهنجيسه على أنقاضها ، أما حسن الادراك فقد حلت محله الخرافات ، ذهب التسامح وسيطر التعصب فبدلا من أن نسمع مساجلات العلماء في دور العلم ومناقشاتهم في الفلسفه ، ونشيد الشعراء ، وخطب أهمل الموسيقى بدأنا لا نسمع الا أصوات الفقهاء وطليل السيوف . *

(١)

ويقول أشباخ : " كان المرابطون يعملون على سحق جميع العلوم والفنون التي بلغت ذروتها في ظل السيادة العربية ، فكانوا يطاردون العلماء الذين ينحرفون عن معتقداتهم ، ويحرقون كتبهم ، ويعذبون بالأحرى على تحطيم الروح الشعرية الأندلسية التي كانت تجد متعتها في قريبي الفروسية ، والقصة العادي ، وكانت قراءة هذه الكتب تحظر ويعاقب عليها بأشد العقوبات . " ويعلق الدكتور مجيد السعيد على هذا النص (٢) بقوله : " اتنا لا ندري ماذا يقصد المؤلف بقصص الفروسية والقصة العادي ؟ ومن أين أتى بهذا النص ؟ وهل كان لدى الأندلسيين قبل المرابطين مثل هذا الفن ؟ الذي نراه أن الرجوع الى كتب التراجم والسير ، وكتب الأدب المؤلفه خلال هذا العصر وما بعده مما تنضم أسماء أعلام برزوا في علوم مختلفه يعتمهر خير رد على أشباخ ويبين خطايل ما ذهب اليه . "

والواقع أن عصر المرابطين كان عصرا زاهرا بالعلم والأدب ويكفي أنسه عصر ابن بسام والفتح بن خاقان ، وعصر ابن خفاجة شاعر الأندلس ، وعصر الموشحات والأزجال ، التي يعتبرها المستشرق فارسيه غومشت انحطاطا

(١) تاريخ الأندلس : ٤٩٣ / ١ .

(٢) الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس : ٦٣ .

في الذوق نتيجة لتعصبه ضد المصر الذي ازدهرت فيه . يقول كورد طلي
(١)
عن المرابطين واهتمامهم بالناحية الفكرية : " فاجتمع لهم فسوس
بلاطهم بمراكمتي من الكتاب ، وفرسان البلافة ، وأقناب العلوم ، مالم يتفوق
اجتماعه في عصر من الأعصار ، حتى أشبهت حضرتهم حضرة بني العباس
في صدر دولتهم . " ولو أردنا أن نستقصى ذلك تفصيلا لا احتجنا إلى كثير
من الصفحات التي لا يتسع لها المجال .

ومعد فهذا قليل من كثير من الآثار التي انتجتها قضية المصتمد بن عباد
ولا تزال إلى اليوم حية تخوض غمارها الأتلام واني لأرجوه أن أكون
قد وضعتها في أطرافها الحقيقي أوفى قريب منه .

رثاء امارة بني الأفطس :-

إلى الشمال من امارة اشبيلية كانت تقوم امارة بني الأفطس على رقعة
كبيرة من الأرض تمتد من غرب طليطلة حتى المحيط الأطلس وكانت مدينته
بطليوس عاصمة هذه الامارة تقع في وسط تلك الرقعة ، أما أمراؤها بنسب
الأفطس فهم من قبائل المغرب البهريه ، ولكنهم ينتسبون إلى قبيلة تميم
المريية واشتهروا بهذا النسب ومدحتهم به الشعراء ، ومنكر ذلك طيهم
المؤرخ ابن حيان وأولهم عبد الله بن مسلمة المعروف بابن الأفطس السدي
(٢)
(٣)

(١) كورد طلي ، غابر الأندلس وحاضرها : ٢٠ .

(٢) مدينة جلييلة في بسط من الأرض ، بنيت في عهد الأمويين ، وتعيست

بها الأسوار المنيعة ويجري في شرقها نهر تقوم عليه قرى كثيرة

نفسه . / الروض المحطار (بطليوس) .

(٣) الحلة السيرا : ٩٧/٢ .

كان وافر الحزم والسياسة استطاع أن يصد عدة سنوات في الحروب التي دارت بينه وبين جاره ابن عباد بسبب أطماع الأخير إلى أن توفي سنة سبع وثلاثين وأربعمائة وخلفه ولده محمد الملقب بالمظفر وكان عالما وفارسا اشتبه مع ابن عباد في معارك كانت الدائرة عليه وتوفي ابن عباد في أراضيه ، ولم ينقذه إلا صاهي ابن جمهور حاكم قرطبة ونجاعة في توقيع الصلح بين الطرفين سنة ثلاث وأربعين وأربعمائة ، وقد اشتهر المظفر بالعلم والأدب ، وله التأليف الكبير المسمى بالمظفري في خمسين مجلدة احتوى على الأخبار والسير والآداب ، والطرف المستملحة ، والنكست البديعة .

وقد استغل النصارى القشتاليون الخلافات القائمة بين الأمراء الأندلسيين وأغاروا على أطراف إمارة بني الأفطس من الشمال والغرب واحتلوا بعض الأجزاء واستوطنوها وأخذوا يهددون ابن الأفطس الذي لم يجد بدا من دفع الجزية لهم لعجزه عن دفعهم بسبب انشغاله بحرب ابن عباد ، وظل الأمر كذلك إلى أن توفي المظفر وخلفه ولده يحيى المنصور الذي نشب النزاع بينه وبين أخيه المتوكل حيث كان يرى أنسه أعق بالحكم من المنصور واستمر النزاع عدة أعوام اضطربت خلالها الإمارة اضطرابا كان يهودى بها لولا أن انتهى الخصام بموت يحيى فجأة سنة أربع وستين وأربعمائة ، فتولى عمر المتوكل الحكم مكانه بهدوء وسلام . وكان المتوكل أدبيا وشاعرا كبيرا ، وكان يضايق المعتمد بن عباد في فحامة البلاط .

(١) فنان ، عصر الطوائف والمرابطين : ٨٤ .

(٢) البيان المغرب : ٣ / ٢٣٦ .

(١)

وجلب الشعراء والعلماء والمخنيين وغيرهم ويصفه الفتح بن خاقان بقوله :
” ملك جند الكتاب والجنود ، وهقد الألوية والبنود وأمر الأيام فأتمسرت
وطافت بكعبته الآمال واعتمرت ، الى لسن وفصاحه ، ورحب جناب للوافد
وساحه ، ونأتم يزى بالدر النظيم ، ونثر تدرى رفته سرى النسيم ، وأبسام
كأنها لحسنها جمع ، وطيال كان فيها على الأئس حضور مجتمع ، راقت اشراقا
وتبلجنا ، وسالت مكارمه أنهارا وخلصا ” .
(٢)

ويقول لسان الدين بن الخطيب : ” وكان المتوكل ملكا عالميا
القدر ، مشهور الفضل ، مثالا في الجلالة والسرور ، من أهل الرأي والحزم
والبلاغه ، وكانت مدينة بلميوس في مدته دار أدب وشعر ونحوه وطبسم .
وقد شمرت الأماره في عهده شيئا من الاستقرار والأمن الى أن استولى
القيساليون على طليطله وبعث ملكهم الى المتوكل يطلب منه تسليم بعض
الحصون والقلاع مع أداء الجزية ، فرفض المتوكل ذلك ورد على ملك قيساليه
برسالة حازمة منها : ” وأما نحن ان قللت أعدادنا ، ومدد مسن
المخلوقين استمدادنا ، فما بيننا وبينك بحر نخوضه ، ولا صعب نروضه
الا السيوف تشهد بحدها رقاب قومك ، وجلاذ تبصره في ليلك ويومك ، والله
تعالى وملائكته المومنين ، فنقوى عليك ونستعين ” ثم بعث المتوكل
قاضييه أبا الوليد الباجي ليكلف بعوانس الأندلس ويحضرهم على الوسادة
لمدافعة العدو ، فقام بالمهمة وماوسعته ذلك ، ولكن هيئات أن يستجيب
الأموال عندئذ استقر رأي المتوكل بن الأفسس والمعتمد على استدعاء

(١) قلائد الحقيان : ٤١ .

(٢) أعمال الأعلام : ١٨١ .

(٣) الحلل الموشيه : ٣٧ .

(٤) الحلة السيرا : ٤٨/٢ .

المرابطين ، فكان قد وسهم وحدوث معركة الزلاقة . كما سبق بزمانه . ولما أراد أمير المسلمين يوسف بن تاشفين انقاذ الأندلس وازالة هؤلاء الأعداء وبدأ باشبيلية ، شعر ابن الأفلح بالخطر فسلطه ملك ابن عباد من قبل (١) وهو الاستفائة بالاندلس ملك قشتالة وبذل له ثلاث مدن هامة من أملاكه ، وكان لهذا التصرف الأثر في نفوس الناس ، فانهرفوا عن المتوكل ، وكتب أعيانهم الى المرابطين يستدعونهم ، فتحرك في أوائل سنة ثمان وثمانين وأرجمائه جيش مرابطي من اشبيلية واخترق أراضي بطليوس بسرعه الى أن وصلوا الى مأوى المتوكل فاقتحموه وقبضوا على المتوكل وولديهم الفضل والعباس وضربوا أعناقهم ، وهكذا انتهت امارة بني الأفلح بطليوس بعد أن دامت قرابة خمس وسبعين سنة . (٢)

وقد رثى هذه الامارة وأصحابها وزهرهم الشاعر الأديب عبد المجيد (٣) ابن عبدون ، بقصيدة طويلة اشتهرت باسم البسامه حشد فيها جملة كبيرة فمن أصابتهم حوادث الأيام في مختلف العصور . يقول :-

-
- (١) عصر الطوائف والمرابطين : ٣٦٨ .
 - (٢) أعمال الأعلام : ١٨٦ .
 - (٣) هو نذو الوزارتين أبو محمد عبد المجيد بن عبد الله بن عبدون الفهري . من أهل مدينة يابره ، كان أديب الأندلس في عصره شعرا وكتابه وترسلا مع العلم بالخبر والأثر ومعاني الحديث . تولى الوزارة لبني الأفلح حتى انقضاء دولتهم ثم انتقل الى خدمة المرابطين ، له كتاب في نصرة أبي عبيد علي ابن قتيبه ، وروي عن الأظم الشافعي انظر الصلح : ٣٨٨/٢ - ٣٨٩ ، فوات الوفيات : ٣٨٨/٢ ، دائرة المعارف الاسلاميه ١/ ٢٢٥ .
 - (٤) القصيده في المعجب : ١٢٩ - ١٤٠ .

- الدهر يفجع بعد العين بالأثر * فما البكاء على الأشباح والصور ؟
أنهاك أنهاك لا ألوك موعظة * عن نومة بين ناب الليث والظفر .
(١)
فالدهر حرب وان أبدى سائمة * والبيض والسود مثل البيض والسم .
ولا هوادة بين الرأس تأخذه * يد الشراب وبين الصارم الذكور .
فلا يفرك من دنياك نومتها * فمصانعة عينيها سوى السهر .
مالليالي أقال الله عثرتنا * من الليالي وخانتها يد الخير .
فوق كل عين لها فو كل جارحة * منا جراح وان زافت عن البصر .
(٢)
تسرّ بالشئ لكن كي تغربسه * كالأيم ثار الى الجاني من الزهر .
كم دولة وليت بالنصر خدمتها * لم تبق منها ، وصل ذكرك من خبر .

يبدأ الشاعر قصيدته بهذه المقدمة الرزينة التي تنم عن حكمة ومعرفنة بأحوال الدهر وتقلبات الأيام التي لا تفتأ في حركة مستمرة تأتي بكل عجيب لا يخطر على بال من غفل واغتر بمصالحه فلأيام في نظر الشاعر عد وشاكس السلاح ، واقف بالمرصاد لمحو العين والأثر لئلا يحس مهما تنعم ولكل دولة وان ازدهرت وشمخت والأمثلة على ذلك تفوق كل حصر :-

- هوت بدارا وفلّت قرب قاتله * وكان ضبا على الأملاك ذبا أشر .
(٣)
واسترجعت من بنى ساسان ما وهبت * ولم تدع لبنى يونان من أشر .
(٤)

(١) البيض والسود : هي الأيام والليالي ، والبيض والسمر : هي السيوف والرماح .

(٢) الأيم : الحيّة . الصحاح (أيم) .

(٣) قام بشرح هذه القصيدة ابن بدرون الشلبي الأندلسي ، وعلى شرحه المخطوط بمرکز البحث العلمي اعتمدت في تفسير النواحي التاريخية .
دارا : هو آخر ملوك الفرس الأوائل ، وقاتله هو الاسكندر ذو القرنين الذي تغلب على سائر الملوك ومات من بضع وثلاثين سنة . / انظر

لوحة ٣-٤ ، الأثر : فرند السيف . / اللسان (أثر) .
(٤) بنو ساسان : هم الأكره من ملوك الفرس ، وساسان جد هم ، وحكموا أربعة قرون . لوحة : ٦ .

(١)

- وألحقت أختها طاسما ، وعاد طلى * عاد وجرحهم منها ناقض المسرر .
- وما أقالت ذوى الهيئات من يمين * ولا أجات ذوى الخيات من مضر .
- ومزقت سبأ فى كل قاصية * فما التقى رائج منهم بمبتكر .

يسير الشاعر بتسلسل هرمى إذاً الأ قوام الذين أناخ عليهم الدهر
وأبادهم ، ويبدأ بالأ م القديمة الغابرة ، كالفرس الأ وائل والأ كاسسره
واليونانيين ، ثم ينتقل الى قبائل العرب البائدة كعاسم وجديس ، وعساد
وجرحهم وغيرهم من القبائل اليمانية والضرية التى عاشت حيناً من الدهر
فى حفى وترف ورياسه ، ثم عفت وأصبحت أحاديث وأخبارا . وينتقل بعد
ذلك الى العصر الجاهلى قائلًا :

- وأنفذت فى كليب حكما ، ورمت * مهلهلا بين سمع الأرض والبصر .
(٢)
- ولم ترد طلى الضليل صحتسه * ولا تثت أسدا عن ربها حجير .
(٣)
- ودوّخت آل ذبيان واخوتهم * عيسا ، وضعت بنى بدر طلى النهر .

(١) طاسم وجديس من قبائل العرب البائدة . كان موطنهما باليمامة ، ويحكهما

ملك من طاسم اسمه عطوق شديد الظلم والحسف ، وكان مصرمه
بتدبير امرأة من جديس ، فكان فى ذلك ابادة القبيلتين . / المخطوط
السابق ، لوجه ٨ .

جرحهم : قبيلة يمانية هاجرت الى الحجاز ، وأصهر اليهم اسماعيل
عليه السلام ثم بنوا وضلوا فأهلكهم الله . المرر : القوه .

(٢) الضليل : هو أمرؤ القيس ، ذهب يستمدى قيصر الروم طلى بنى أسد
قتلة أبيه فهلك هناك .

(٣) بنو بدر : هما حطل بن بدر وحذيفة بن بدر من سادة ذبيان ، وهما

خيل عيس وهما طلى ما اسم جفر الهبائه وذلك أثناء حرب داعس
والخبراء ، المصدر السابق ، لوجه : ٥٥ .

(١)

- وألحقت بعدى بالعراق على * يد ابنه أحمر العينين والشَّعر (٢)
- وأهلكت ابر ونرا بابنسه درمت * بيزد جرد الى مرد فلم يحمر

والشاعر قد جعل القصيدة ميدانا لذكر ثقافته التاريخية الواسعة التي كانت من الروافد الأساسية التي يجب أن يلمَّ بها من يتولى السوزارة والكتابة كابن هرون ، فنراه يفيض في ذكر أيام العرب وحوادث الأشهراف منهم ومن عاصرهم من الفرس وغيرهم ، ثم يتدرج الى العصر الاسلامي منذ بداية محاركة الأولى :-

- يوم القليب بنو بدر فنوا وسحقى * قليب بدر يمن فيه الى سقر
- ومزقت جعفرا بالبئس واغتلست * من غيله حمزة الظلام للجسر
- وأشرفت نجيب فوق قارعة * وألصقت طلحة الفياض بالمفسر
- وخضبت شيب عثمان دما وخطت * الى الزبير ولم تستحي من عسر (٢)
- ولا رعت لأبي اليقظان صحبتسه * ولم تزوده الا الضيغ في الخمر
- وأجزت سيف أشقاها أبا حسن * وأمكت من حسين راحتي شمر

(١) عدى بن زيد الشاعر قتله النعمان بن المنذر ملك الحيرة ، وكان لعدى

ولد اسمه زيد سمى بالنعمان لدى كسرى حتى قتله . لوجه : ٦٠ .

(٢) أبرهيز بن هرمز من طوك الفرس عذر أباه واستولى على الحرش ثم كانت

نهایتة على يد ولده شيرويه ، يزد جرد هو الطك الذي فر أسام

المسلمين في القادسية وعقد حلفا مع الترك والصغد ولنگهم أسلموه

فقتل بمرو . لوجه ٦٥ . ، محور : يرجع .

(٣) هو عمار بن ياسر ، الضيغ : اللبن حيث طلب ما "فجى" بلبن فشربسه

وقتل بعد ذلك سنة ٣٦ هـ يوم صفين . لوجه : ٦٨ .

محمد عصر الراشدين يأتي لذكر حوادث العصر الأموي :-

(١)

- وفي ابن هند وفي ابن المصطفى حسن * أتت بمحضلة الألباب والفكر .
- فبعضنا قائل ما قتاله أحد * ومعضنا ساكت لم يؤت من حصر .
- وأردت ابن زياد بالحسين فلم * ييؤ بشمع له قد طاح أو ظفر .
- وعمت بالناجي فودي أبو أنسس * ولم ترد الردى منه قنا زفر .
- ولم تراقب مكان ابن الزبير ولا * راعت عيادته بالبيت والحجر .
- واطفرت بالوليد بن يزيد ولم * تبق الخلافة بين الكأس والوتر .

ثم يخرج بعد ذلك على العصر العباسي إذا كرا لكثير من عظمائهم الذين

عصفت بهم يد الحدثان :

- ولم تعد قصب السفاح ناعية * عن رأس مروان أو أشياعه الفجر .
- وأسليت دمة الروح الأمين على * دم بفتح لال المصطفى هدر .
- وأشرفت جعفرا والفضل ينظره * والشيوخ يحيى بزريق الصارم الذكر .

(١) ابن هند : معاوية بن أبي سفيان ، وفي البيتين إشارة إلى ارتياب

بعض المسلمين في ميعة الحسن بن علي ، واتهامهم معاوية بتدبيرها

ليكون العرش من بعده لولده يزيد . / المصدر السابق ، لوجه : ٧٣ .

(٢) أبو أنس هو الضحاك بن قيس الفهري ، وزفر بن الحارث الكلابي من

أصحابه . كان يدعو لابن الزبير . التقى بجيوش الأمويين بمنج راهط

سنة ٦٤ هـ ودارت الدائرة عليه فقتل وفر عنه زفر . / لوجه : ٨٠ .

(٣) فخ : موضع قريب من مكة ، قتل فيه ثلاثة من أبناء وأحفاد الحسن

بن علي في زمن الخليفة المهدي العباسي / لوجه : ١١٤ .

(٤) يشير في هذا البيت إلى مصرع البرامكة على يد الرشيد ، وجعفر

والفضل هما ابنا يحيى البرمكي . وقصتهم مشهورة .

- (١)
- وأخفرت في الأمين الحميد وانتدبت * لجعفر بابنه والأعدب الضدر .
 - ورويت كل مأمون ومؤتمنين * وأسلمت كل منصور ومنتصر .
 - وأوشقت في عراها كل محتصد * وأشرقت بقذاها كل مقتدر .

ومعد هذه المقدمات التاريخية الطويلة يصل ابن عبدون إلى غايته

من القصيدة وهي رثاء بني الأفتس فيقول :-

- بني المظفر والأيام ما برحت * مراحل والورى منها على سفر .
- سحقا ليومكم يوما ولا حطت * بحمله ليلة في مقبل المسر .
- من للأسرة أو من للأعنة أو * من للأسنة يهديها إلى الثغر .
- من للبراعة أو من للبراعة أو * من للسماحة أو للنفج والضرر .
- أو دفع كارثة أروع آفة * أو قمع حادثة تعيا على القدر .
(٢)
- ووج السحاح ووج البأس لو سلما * وحسرة الدين والدنيا على عصر .
(٣)
- سقت ثرى الفضل والعباس هامية * تعزى اليهم سماحا لا إلى المطر .
- ثلاثة ما ارتقى النسران حيث رموا * وكل ما طار من نسر ولم يلبس .
(٤)
- ثلاثة كذوات الدهر منذ نأوا * عنى ، مضى الدهر لم يربح ولم يجر .

(١) جعفر المذكور هو جعفر بن المعتصم الطقب بالمتوكل الخليفة العباسي

قام عليه ولده المنتصر مع بعض العبيد وقتلوه . لوجهه / ١٢٨ .

(٢) هو عمر المتوكل بن المظفر آخر أمراء بني الأفتس .

(٣) الفضل والعباس هما ولدا المتوكل اللذان قتلهما المراهطون عند فتح

باليوس .

(٤) يربح : يقف / الصحاح (ربح) .

وهنا نلاحظ اختلاف نغمة الشاعر من السرد التاريخي السابق ، ففى
رثائه لقومه بنى الأطلس نجد مسحة خفيفة من الوزن تبدو من خلال
حديثه عن صفاتهم المجيدة ، وعزهم الباذخ الذى انهار بعد أن كانوا
طوكا على الأسرة ، فرسان السيف والقلم ، تفيض أيديهم وأنفسهم كرمسا
وسماحه .

فعلى هؤلاء تبنى الدنيا ، ويندب الشاعر المآثر التى خبرها عن قسرب
مرددا مستفهما بتفجج :-

- أين الجلال الذى عصت مهابتته * قلوبنا وحيون الأنجم الزهر
- أين الاباء الذى أرسوا قواعدهم * طى دعائم من عز ومن ظفر
- أين الوفاء الذى أصفوا شرايعهم * فلم يرد أحد منهم طى كدر
- كانوا رواسى أرض الله منذ نأوا * عنها استطارت بمن فيها ولم تقر (١)
- كانوا مصابيحها فذخبوا عثرت * هذى الخليفة بالله فى صدر
- من لى ولا من بهم ان أظلمت نوب * ولم يكن ليلها يفضى الى سحر
- من لى ولا من بهم ان أطبقت محن * ولم يكن وردها يفضى الى صدر
- من لى ولا من بهم ان عطلت سنن * وأخفيت ألسن الآثار والسنن

وتظهر من خلال هذه الأبيات براعة الشاعر فى استعمال التكرار المفضى
الى معان رثائية متعددة ومبتكرة تضع المرثيين فى ذروة الكمال الانسانى ،
وخاصة تلك الأوصاف المعنوية التى يخرجها الى حيز المادى فهم الذين
أرسوا قواعد الاباء ، وصفوا شرايع الوفاء وماهله .

وقد لعب خيال الشاعر دوره فى إبراز صور العظمة التى تفرد بها بنو
الأطلس فهم : أوتاد الأرض ورواسيها ، ومفقد هم تزلزلت أركانها ، وهم

(١) الصدر : تحير البصر / المصدر نفسه (صدر) .

مصايح هداها ، فلما انطفأت ترددت الخليقة في دياجير العيرة والاضطراب
وتكالبت عليها المحن التي لا تنتهي ، وازاء زهاب فضائل هؤلاء الأُمراء
لا يجد شاعرهم أوسع من الصبر :-

على الفضائل الا الصبر بعد هم * سلام مرتقب للأجر منتظر .
ومعد ، فلمل ابن عديون وقومه بني الأفاطس مدينون بشهرتهم السي
هذه القصيدة التي طار ذكرها في آفاق الأدب العربي ، وكثر الثناء عليها
وسلخ في تقديرها ، فالمراسي يصفها بأنها القصيدة الخراء ، والمقيلة
العدراء التي " أوزت على الشعر ، وزادت على السحر ، وفعلت في الألباب
فعل الخمر ، فجلت عن أن تسام ، وأنفت من أن تضاهي ، فقل لها
النظير ، وكثر اليها المشير ، وتساوى في تفضيلها وتقديرها باقل وجري . . .
سلك فيها أبو محمد - رحمه الله - طريقة لم يسبق اليها ، وورد شرعة لم
(١)
يزاحم عليها ، فلذلك قل مثلها لا بل دم ، وعز نظيرها فيما توهم ولا علم " .
ومما لا جدال فيه أن القصيدة ذات أسلوب رصين مشرق رشيقة الألفاظ جيدة
المعاني والأفكار ، موشحة بالبديع والترصيع ، ولكن - فيما يبدو - أن تفضيلها
لم يأت من هذا الجانب ، وإنما من جانب الطريقة التي اتبعها الشاعر في نظم
الحوادث التاريخية التي تدل على علم واسع ، وثقافة راسخة . أضف السي
ذلك أن الأدباء والنقاد في عصر ابن عديون كانوا يحتفون بالآثار الأدبية
المنشورة والمنظومة لا لقيمتها الفنية ، وإنما لما تحوى من اشارات تاريخية
تفسح المجال للشرح والمفسرين ليبدؤا فيها ويميدوا . وغير مثال على هذا
القول رسالتا ابن زيدون - المعاصر لابن عديون - الجديّة والمهزلية فقد

(١)

شرحت كل منهما بسفر مستقل كما برزت في الأندلس في هذا العصر الأراجيز
التاريخية ، حيث ينظم الشاعر حوادث التاريخ شعرا في قوافٍ وهو متعدد
وأشهر من يذكر في هذا المجال الشاعر الراجز أبو طالب عبد الجبار السدي
نظم أرجوزة طويلة بدأها بالتحميد ثم التفكير في ملكوت الله ثم بدأ الخليفة
من لدن آدم - عليه السلام - مرورا بالرسول الكرام مفضلا أخبارهم ثم الخلفاء
الأربعة وسيرتهم ، فبنى أمية - فالعباسيين ، ثم يخرج طي الأندلس فيذكر
حكم الأمويين ثم طوك الطوائف فالمرابطين حتى حكم طي بن يوسف بن تاشفين
الذي تولى الحكم سنة خمس مائة من الهجرة ، وقد ذكر صاحب الأرجوزة
كلامه فيها بأنه " في معنى ما تضمنته كتب التاريخ ، قطعت ميون زهرها ،
والتقطت مكون درها ، واقتصرت على أقلها دون أكثرها مالا يسع جملته ،
وحذفت كل حديث يتخلف ، وخبر بتسلسل ، إلا ما زدت حلا رونقا ،
ومجتلاه تألقا " .

(١) شرح الرسالة الجديّة خليل بن أبيك الصفدي بكتاب سماه " تمام المتون "
وشرح الرسالة الهزلية جمال الدين بن نباته المصري بكتاب سماه
" شرح العميون " وهما محققان مطبوعان .

(٢) من أهل جزيرة شقر بنواحي بلنسية ، كان يعرف بالمتنبي ، من أبسرع
أهل وقته أدبا ، وأعجبهم مذهبيا وأكثرهم تفننا في العلوم ، وأجاده
في المنثور والمنظوم . ولم تمدنا المصادر بتفاصيل عن حياته / انظر
الذخيرة : ق ١ ، ج ٢ ، ص ٩١٦ ، الخريدة - قسم شعرا المفسر
والأندلس : ١١٠ / ٢ .

(٣) انظر الذخيرة : ق ١ ج ٢ ص ٩٢٠ - ٩٤٤ .

(٤) المصدر السابق ص ٩١٤ .

ولعل أصول هذا الاتجاه الجديد في الشعر ترجع الى المشرق ، حيث
كان أبو تمام يضمن قصائده شذرات من التاريخ ثم توسع في ذلك الطك الشاعر
عبد الله بن المعتز فنظم أرجوزته التاريخية الشهيرة التي ذكر فيها أحوال
الخلافة العباسيين ، والمتلاعبين بالخلافة في منتصف القرن الثالث الهجري
ووصف فتنهم ومنكراتهم بشئ من التفصيل .

وفي تقديري ان الذين أعجبوا بقصيدة ابن عبدون كان اعجابهم بالشاعر
لا بالشعر ، فالقصيدة تخلو من العاطفة الصادقة الفياضة بالألم والحزن
الذي يمثل الروح في قصائد الرثاء .

فجاء تأثيرها ضعيفا في النفوس اذا ما قيس بتأثير قصائد شعراء المعتمد
السابقة ، التي تفيض بالأشجان والحسرات والصدق لأنها صادرة عن أنفسهم
واحساسهم بعكس ابن عبدون الذي كان يصدر عن ثقافته ولسانه ولذا فلعجب
أن نراه بعد هلاك قومه بني الأفسس يحمل في بلاط أهدائهم المرابطيين .

ولعل أبيات القصيدة الأخيرة تدل على أن هدف شاعرنا كان اظهار البراعة
والتفوق الأدبي وذلك عندما يقول :

- قرطت آذان من فيها بفاضحة * على الحسان حصى الياقوت والدرر .
- سيارة في أقاصى الأرض قاطعة * شقا شقا هدرت في البدو والحضر .
- مطاعة الأمر في الأبواب قاضية * من المصامع ما لم يقضى من وطـر .

رشاة امارة بنى صمادح فى المريسة :- (١)

لمّا سقطت الدولة الأموية فى الأندلس استبد موالى المنصور بن أبى عامر بحكم مدينة المريسة وماجاورها ، ولمع فى عصر الطوائف اسم الفتى (خيران العامرى) قائدا وسياسيا وأديبا ، استطاع أن يحافظ على ما فى يده حتى توفى ثم خلفه أخوه الفتى (زهير العامرى) وكان خطيرا داهية شديدا البأس ، وسّع امارته حتى بلغت حدود طليطلة شمالا . ثم قرر غزو غرناطة على أثر موت أميرها ، فسار اليها بجمع كبير ولكنه هزم وقتل فى هذه الوقعة . فخذت المريسة بلا حاكم ، فاجتمع وجوه أهلها على استدعاء حاكم بلنسية آنذاك - عبد العزيز ابن أبى عامر لكونه صاحب الحق فى ميراث موالى أسرته ، فجسأ وضبط أمرها ، ولكنه اضطر الى العودة الى بلنسية ، ووكل أمر تدبير المريسة الى وزيره أبى الأحوص معن بن صمادح التجيبى كائب له فيها . ولكن هذا الوزير سرعان ما أخذ يمهّد ويخطط للاستئثار بالسلطة ، والاستبداد بالمريسة ، فتم له ما أراد وجاهر بخلق الطاعة لعبد العزيز ، وأيده الناس فى ذلك . وتم هذا الأمر فى سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة .

قال ابن حيان عن ابن صمادح " فكان شر خليفة استخلف ، لم يكد يوارى وجهه عبد العزيز عنه حتى خان الأمانة ، وطرده من الامارة ، ونصب

(١) مدينة حصينة بالأندلس ، بناها عبد الرحمن الناصر سنة ٣٤٤ هـ تقع

على شاطئ البحر المتوسط ، وتكثر فيها الأودية الجارية التى تسقى بساتينها ، وتشتهر بصناعات الحرير والمعادن . وكانت مواكب التجار تقصدها من الشام ومصر . / الروض المعطار (المريسة) .

(٢) البيان المغرب : ١٦٨ / ٣ .

له الحرب ، فغرب في اللؤم ماشاء ، وتنگب ابن أبي عامر التوفيق لاستدعائه
الذئب الأزل على ثلثه ، ومستدعى الذئب أظلم . وكان من العجيب أن تملأها
ابن صمادح ، وخلفها ميراثا في عقبه " . (١)

واستمر معن في الحكم زهاء عشرة أعوام ثم توفي وخلفه ولده محمد الذي
اتخذ على عادة أمراء الدوائف - الألقاب الفخمة فلقب بالمعتصم بالله
الواثق بفضل الله ، ولم يكن المعتصم من رجال الحرب الا انه استطاع أن يحافظ
على امارته ضد الثورات الداخلية التي كان يحركها عبد العزيز بن أبي عامر
والحروب الخارجية مع المعتمد بن عباد الذي استطاع أن ينتزع بعض أراضى
الامارة فيما بعد . وثابت للمعتصم أطماع في الاستيلاء على أراضى جارتها
غرناطة وذلك بتدبير اليهودي يوسف بن النخراles وزير غرناطة . فاستولى
على بعض حصونها الشرقية ، ولكن المؤامرة كشفت وقتل الوزير اليهودي
(٢)
وفشلت الخطه . على أن أهم ما عني به هو تشييد القصور الفخمة وحماية دولة
الشعر والأدب فقد شيد قصره الشهير المعروف " بالصمادحيه " حيث يشرف
على البحر وتحيط به الجنات والبساتين ومنه يستطيع مشاهدة مدينة المريسة
كلها . وفي بلاط هذا القصر كانت تقوم جامعة أدبيه وطميه تنافس بلاط اشبيلية
(٣)
وطلموس . يقول ابن بسام : " ولم يكن أبو يحيى (المعتصم) هذا مسن
فخولة طوك الفتنة ، أغلذ الى الدعة واكتفى بالضيق من السعة ،
واقصر على قصر بينيه ، وطلق يفتنيه ، وميدان من اللذة يستولى عليه

(١) الذخيره : ق ١ ، ج ٢ ، ص ٧٣١ .

(٢) التبيان : ٥٣ .

(٣) الذخيره : ق ١ ، ج ٢ ، ص ٧٣٢ .

ويبرز فيه غير أنه كان رحب الفناء ، جزل المطا ، حليما عن الدما ، والدهما ، طافت به الآمال ، واتسع في مدحه المقال ، وأعطت الى حضرة الرحال ولزمه جملة من فحول شعرا الوقت

(١)

وقال ابن خاقان : " ملك أقام سوق المعارف على ساقها ، وأبدع فسق انتظام مجالسها واتسافها لم تخل أيامه من مناظرة ولا عصرت الا بمذاكره ومحاضره ، الا ساعات أوقفها على العدم وكانت د ولتسه مشرعا للكرم نفقت فيها أقدار الأعلام ، وتدفقت بحار الكلام "

وقد كان المعتصم ونوه جميعا ، معز الدولة ، ورفيع الدولة ورشيد

(٢)

الدولة من أهل الأدب والشعر ، كما كانت ابنته أم الكرام من أشهر شاعرات

(٣)

العصر ، وبالإضافة الى الشعر ورعاية الشعراء فقد كان للمعتصم يوم من أسبوع يخصصه للعلماء والفقهاء يتناظرون فيه بمسائل الفقه والتفسير

والحديث ونتيجة لهذه الحياة الوادعة لم يكن المعتصم من المتحمسين لاستدعاء

المرابطين ، ولكنهم لما عبروا الى الأندلس شارك في استقبالهم ونال حظوة

عند ابن تاشفين استفلها في الطمن على المعتمد وغيره ، وفي سنة أربع

وثمانين وأربعمائه توجهت القوات المرابطية الى المرية لآكمال مشروعها

في ازالة الامارات المفككة المنطه فحاصرتها ، وكان المعتصم آنذاك يعانق

(٤)

من مرض كان غاتمة حياته ، فقال عبارته المشهورة " نفسنا كل شيء حتى

الموت " وهكذا هلك المعتصم بعد حكم دام أربعين سنة ، ودخلت المرية

تحت راية المرابطين .

(١) قلائد العقيان : ٥٣ .

(٢) انظر أخبارهم وأشعارهم في الحلة السيرا : ٧٨ - ٩٦ .

(٣) نصح الطيب : ١٧٠ / ٤ .

(٤) الخريدة : ٨٨ / ٢ .

(١)

وقد رثى هذه الامارة وأميرها الشاعر أبو الحسن بن الحاج فو مخلصنة
(٢)

منها قوله بعد الفزل :-

- يارب أرض قد خلت قصورها * وأصبحت أهلة قبورها
- يشغل عن زائرها مزورها * لا يأمل العودة من يزورها
- هيهات : ذاك الورد ممنوع الصدر .
- تنتحب الدنيا على ابن معمن * كأنها تكلو أصيبت بابن
- أكرم مأمول ولا أسـتثنى * أثنى بنعماءه ولا أثنى
- والروض لا ينكر معروف المطر .
- عهدى به والطارق في ذمـاره * والنصر فيمـاشاء من أنصاره
- يطلع بدر التـمـمـن أزواره * وتكمن العفّة في أزاره
- ويحضر السؤدد أيمان حـضـر .
- قل للنسوي جدّ بنا انطـلاق * ما بعدت مصر ولا الحـسـراق
- اذا حدا نحوهما اشتياق * ومن دواء الطل الفسراق
- ومن نأى عن وطن نال وطـر .

(١) هو ذو الوزارتين جعفر بن ابراهيم بن أحمد بن سعيد بن الحاج . أصله

من لمركه (مدينة على البحر تجاور المريه) ، وهو من بيت جلالته
ووزاره . كان مقدما في النظم والنثر ، ومن رؤساء الأديباء ، وكانت له
صلة بالمعتمد بن عباد وقد عمّر طويلا وتوفي بعد سنة خمسائه . / انظر :

المطرب : ١٣٧ ، بغية الشمس : ٢٤١ ، الخريدة : ١٤١ / ٢ .

(٢) نفح الطيب : ١٠٤ / ٤ - ١٠٥ .

والمخسة فيما أحسب تقصد الى اظهار شاعرية كاتبها في المقام الأول ،
فعاطفة العزن والتأثر النفس بالحدث لا تكاد تظهر ، والصور الرثائية باهتته
لا روح فيها ، ومن العجب أن الشاعر بدأ هذه المخسة بالخلل ووصف المحبوب
وليلى الألسن به ثم مكابدة الشوق :-

- من لى بمجبول على ظلم البشر * صحف في أحكامه حاء الحور .
- مرثنا يسحب أنيال الغفر * ما أحسد الظبي له اذا نفر .
- وأشبه الفصن به اذا خطر .

- كافورة قد طرزت بمسلك * جوهرة لم تتمين بسلك .
- نهدت فيها وري ونسكى * بعد لجاجي في التقى ومحكى .
- فاليوم قد صح رجوعى واشتمى .

- سقى الحيا عهدا لنا بالطباق * معترك الألباب والأحداق .
- وملتقى الأنفس والأشواق * أياس فيه الدهر عن تلاقى .
- وربما ساك دهر ثم سر .

وهكذا يستمر على هذا الضمير في خمسة المقاطع الأول من القصيدة ثم
يمرح على رثاء ابن صمادح كنوع من الواجب يراه الشاعر لمن أحسن اليه
" والروض لا ينكر معروف المطر " .

ومعد الرثاء يذكر رحلته وركوبه البحر ميمما شطربخداد في أرمسة

مقاطع :

- يؤم عدل الطك الرضى * الهاشمى الطاهر النقى .
- والمجتبى من ضئضى النبى * من ولد السقاج والمهدى .
- فخر معدّ ونزار ومضر .

ولا نلاحظ في مفارقتة للديار التي ذاق حلاوة العيش فيها أي أسف
أوحين بل نجده قد ملّها إلى مفارقتها : " ومن نأى عن وطن نال وطبر " .
أما أسلوب القصيدة فهو سهل فيه رقة وهدوء . وتبدو الصنعنة
البلاغية فيه واضحة ولكنها لا تشوبه بتعقيد ولا توسر .

الفصل الرابع
رثاء الأندلس عامة
متمم

سنتناول في هذا الفصل القوائد التي قيلت في رثاء الأندلس الإسلامية عامة، وتسير هذه القصائد في مسارين : المسار الأول يمثل القوائد التي قيلت بعد سقوط عدد كبير من قواعد الأندلس الهامة بيد النصارى، وذلك في الفترة الممتدة من بداية القرن السابع الهجري إلى ما بعد منتصفه، وهي فترة الغروب الأخير لدولة الموحدين في المغرب والأندلس، وقد سقطت خلالها : قرطبة واشبيلية وجيان وبلنسية وبطليوس وغيرها كثير^(١)، وانحصر الوطن الأندلسي الذي كان يشمل نصف الجزيرة الإسبانية في رقعة صغيرة هي مملكة غرناطة التي لم تكن بعيدة عن الخطر الداهم أيضا . هذه الحالة الخطيرة اكدت في النفوس وقوع الانهيار النهائي للصرخ الشامخ، فتفجرت ينابيع البكاء ونظمت قصائد الرثاء .

أما المسار الثاني فيمثل القوائد التي قيلت بعد سقوط غرناطة آخر معقل المسلمين في الأندلس في نهاية القرن التاسع الهجري حيث عادت الأندلس كلها دار كفر، واكره المسلمون على اعتناق النصرانية . ومن أشهر قصائد المسار الأول نونية أبي البقاء الرندي^(٢) التي قالها عندما تنازل ابن الأحمر محمد بن يوسف ملك غرناطة عن عدد كبير من

(١) غنان، نهاية الأندلس : (٢٠٠) .

(٢) هو أبو البقاء أو أبو الطيب صالح بن يزيد بن صالح بن موسى بن شريف الرندي (نسبة إلى مدينة رنده)، وأصله من قبيلة نفزة البربرية كان فقيها حافظا وفرضيا متفننا في معارف شتى، بلغ الذروة في التصرف بمنشور الكلام ومنظومه . كان يتردد على غرناطة ويمدح بني الأحمر ويلتقي بوزيرهم لسان الدين بن الخطيب، ومن آثاره كتاب " الوافي في نظم القوافي " وكتاب " روضة الانس ونزهة النفس " وتوفي سنة ٦٨٤ هـ . انظر الاحاطة : ٣ / ٣٦٤ ، رضوان الياية، تاريخ النقد الأدبي في الأندلس : ٤٥ . عبد الله كنون، صحيفة معجم الدراسات الإسلامية : ٦ / ٢٠٥ - ٢٢٠ .

الحصون والمدن المسورة بلغ اكثر من مائة وخمسين موضعاً للنصارى مقابل ان يحتفظ بعرش غرناطة ولو تحت سيادة فرناند و ملك النصارى القشتاليين وكان ذلك في سنة خمس وستين وست مائة، وكانت هذه الخطوة من قبل ابن الاحمر ليست الاولى من نوعها بل سبقتها اخرى في سنة ثلاث واربعين وستمائة حيث قدم الجزية وسلم عددا من المدن واشترك مع النصارى في حصار المدن الاسلامية واهمها اشبيلية، وقد اشرنا الى ذلك في فصل سابق ولعل ابن الاحمر كان يقصد من معاهداته هذه ان تتاح له فرصة الاستعداد وانشاء القوة التي تمكنه من مواجهة النصارى، وذلك بجمع الحشود التي تلجأ اليه فارة من المدن الساقطة، وعن طريق طلب النجدة من المرينيين في المغرب الذين عبرت كتابهم فعلا وجاهدت في سبيل الله . ولكن النصارى كانوا يرون في ابن الاحمر الخصم الذي يجب تحطيمه واذلاله بسرعة قبل ان يكون له شأن، ولذلك شددوا الضغط عليه فتقهقر امامهم وشرب الكأس المرة حتى الثمالة .

يقول الرندي (٢) :

لكل شيء اذا ماتم نقصان	فلا يفر بطيب العيش انسان
هي الامور كما شاهدتها دول	من سره زمن ساءت ازمـان
وهذه الدار لا تبقى على احد	ولا يدوم على حال لها شان
يمزق الدهر حتما كل سابغة	اذا نبت مشرفيات وخرصان ^(٣)
وينتضي كل سيف للفناء ولو	كان ابن ذى يزن والغمد غمد ان ^(٤)
ابن الملوك ذوو التيجان من يمن	واين منهم اكاليل وتيجان
واين ماشاده شداد في ارم	واين ماساسه في الفرس ساسان

(١) الذخيرة السنوية: ص ١٢٧ .

(٢) النسخ: ٤٨٧ - ٤٨٨ .

(٣) المشرفيات: السيوف، الخرصان: جمع خرص وهو الرمح . اللسان (شرف، خرص) .

(٤) غمدان: قصة صنعاء، وفيها قصر ابن ذى يزن . البكرى، معجم ما استعجم (غمدان) .

واين ما حازه قارون من ذهب
 اتى على الكل امر لامر له
 وصار ما كان من ملك، ومن ملكه
 دار الزمان على دارا وقتله
 كأنما الصعب لم يسهل له سبب
 فجاء الدهر انواع منوعة
 واين عاد وشداد وقحطان
 حتى قضا فكان القوم ما كانوا
 كما حكى عن خيال الطيف وسان
 وام كسرى فما آواه ايوان
 يوما ولا ملك الدنيا سليمان
 وللزمان مسرات واحزان

يفتح الشاعر قصيدته بمقدمة تنبئ بالحكمة ، والمعرفة اليقينية
 بالحقيقة الخالدة وهي ان لا بد لكل شىء من نهاية تودى به مهما بلغ من
 العظمة والشموخ ، فحال الدنيا مجبول على الكدر ، وصفوها قليل مهمما
 طال امده ، والدهر موكل بتحطيم ذوى الشأن على مر العصور والايام
 ويسرد لنا الشاعر نماذج من الذين سل عليهم الدهر سيفه ، فاصبحوا
 احاديث وذكريات في زوايا التاريخ بعد ان ملأوا الدنيا حيننا من الوقت
 باخبارهم واكاليهم وتيجانهم ، فاين ملوك اليمن ؟ واين ملوك الفرس اهل
 العمران والسلطان واين قارون ؟ وهكذا يستمر في تعداد فواجع
 الدهر المنوعة حتى يصل الى مادهى جزيرة الاندلس . ولعل هذا التسلسل
 التاريخى الذى يورده الشاعر يذكركنا بصنيع ابن عبدون فى قصيدته البسامة
 التى مرت بنا فى الفصل السابق ، ولعل مانالته تلك القصيدة من شهرة
 جعلت ابا البقاء يستضيء بنورها فى ابيات قصيدته الاولى وبخاصة عند حديثه
 عن فعل الدهر وتقلب الايام ، وذكر الاقوام انفسهم ، كقوله : " دار الزمان
 على دارا وقتله " .

وقول ابن عبدون : هوت بدارا وفلت عرب قاتله .

ويقول ابو البقاء :

اذا نبت مشرفيات وخرصان

يمزق الدهر حتما كل سابغة

ويقول ابن عبدون :

والبيض والسود مثل البيض والسمر

فالدهر حرب وان ابدا مسالمة

فالتشابه واضح في المعاني والالفاظ، وربما كان لوحدة الموضوع وهو رثاء دولة كبرى او دول - اثر في هذا التشابه . فالرندى يرثى الاندلس كلها وابن عبدون يرثى عصر الطوائف كله ممثلا في بني الافطس . وعندما يصل ابو البقاء الى غايته من القصيدة وهي رثاء الاندلس يبكي بحرارة مصير الاسلام ومعاقله الغارية قائلا :

وللحوادث سلوان يهونها	وما لما حل بالاسلام سلوان
دهى الجزيرة امر لاعزاء له	هوى له احد وانهد شهلان
اصابها العين في الاسلام فامتحننت	حتى خلت منه اقطار وبلدان
فاسأل بلنسية ماش أن مرسية	واين شاطبة ام اين جيان
واين قرطبة دار العلوم، فكم	من عالم قد سما فيها له شان
واين حمص وماتحويه من نزه	ونهرها العذب فياض ومسبلان
قواعد كن اركان البلاد فما	عسى البقاء اذا لم تبق اركان
تبكى الحنيفية البيضاء من اسف	كما بكى لفرق الالف هيمان
علي ديار من الاسلام خالية	قد اقفرت ولها بالكفر عمران
حيث المساجد قد صارت كنائس ما	فيهن الانواقيس وصلبان
حتى المحارب تبكى وهي جامدة	حتى المنابر ترثى وهي عيذان
ياغافلا وله في الدهر موعظة	ان كنت في سنة فالدهر يقظان
وماشيا مرحا يلهيه موطنه	أبعد حمص تفر المرء أوطان
تلك المصيبة انست ماتقد مها	ومالها مع طول الدهر نسيان

ان مصيبة الاندلس لا تشبهها مصيبة من حيث الضخامة والشمول ، فهي تمزق لشعب عريق ثابت الجذور في ارض افتتحها وغرس فيها حضارة الاسلام العظيم ، التي اثمرت واينعت في شتى المجالات العلمية والادبية والعمرانية ومن هنا كان الكيد الشديد لهذا الاسلام حتى اصيب في النهاية بما لاعزاء له ، والشاعر يتلمس اسباب هذه المحن فيرجعها الى العين الحاسدة التي اصابت قواعد الاندلس واركانها فابتليت باهل الصليب الذين جاسوا خلالها وعمروها بالكفر، فالمساجد قد عادت كنائس تقرع فيها النواقيس

والمحاريب والمنابر تنوح وتئن من جور الصليبان المنصوبة فوقها . هذه الصورة القاتمة لما آلت اليه مدن الاندلس العظمى - قرطبة ، بلنسية ، مرسية ، اشبيلية عملت عملها في قلب الشاعر ونفسه ، ولكنه لم يستسلم لاحزانه بل فزع السبي طلب النجدة ، ورفع صوته مناديا اخوانه المسلمين من اهل المغرب :

ياراكبين عتاق الخيل ضامرة	كأنها في مجال السبق عقبان
وحاملين سيوف الهند مرهفة	كأنها في ظلام النقع نيران
وراتعين وراء البحر في دعة	لهم باوطانهم عز وسلطان
اعندكم نبأ من اهل اندلس	فقد سرى بحديث القوم ركبان
كم يستغيث بنا المستضعفون وهم	قتلى واسرى فما يهتزانسان
ماذا التقاطع في الاسلام بينكم	وأنتم يا عباد الله إخوان
الانفوس ابيات لها همم	أما على الخير أنصار وأعوان

ولهجة الشاعر في استصراخه فيها حدة وصرامة ، لانه يخاطب قوما يقع عليهم عبء الدفاع عن جيرانهم واخوانهم في الاندلس ، وهو ينكر عليهم تقاعسهم عن الجهاد ، وتفضيلهم لعيش الدعة والامان مع سماعهم اصوات الاستغاثة من المستضعفين . وبخاصة انهم فرسان وشجعان يقدرون على تلبية النداء .

ثم يشرح بعد ذلك ما حل باولئك المستضعفين من الذل والعذاب بحيث لا يبقى بعد ذلك عذر لمتقاس :

يامن لذلة قوم بعد عزهم	احال حالهم كفر وطغيان
بالامس كانوا ملوكا في منازلهم	واليوم هم في بلاد الكفر عبدان
فلو تراهم حيارى لا دليل لهم	عليهم من ثياب الذل السوان
ولو رأيت بكاهم عند بيعهم	لهالك الامر واستهوتك احزان
يارب ام وطفل حيل بينهما	كما تفرق ارواح وابعدان

وظفلة امثل حسن الشمس اذ طلعت
يقودها العالج للمكروه مكرهة
لمثل هذا يذوب القلب من كمد
كأنما هي باقوت ومرجان
والعين باكية والقلب حيران
ان كان في القلب اسلام وايمان

ان روعة هذه القصيدة تكمن في صدق عواطف الشاعر واحاسيسه
الانسانية، فجاءت قصيدته قطعة من نفسه، يحيى القارىء عند قراءتها انه
انتقل الى ذلك الجو، ووقف امام تلك المآسى الدامية يتأملها بغصصة
ومرارة، فالناقوس يجلجل على انقاض الاذان الصامت والمساجد الشامخة
تتقد حسرة وهي تحول الى كئاس، وقد زاد من تأثير هذه القصيدة فسى
النفوس ما اشتملت عليه من شعور اسلامى فياض يحرك النفوس ويدفعها الى
نجدة البلاد واهلها، وبخاصة عندما يذكر بكاء الاسلام لقراعه قواعده التي
الفها والفته، او عندما يصف المشهد الحى لحالة اهل الاندلس حين
اصبحوا في قبضة الاعداء، فقد غدا وعبدا يباعون بعد السيادة ناهيك عن
القتل والاسر، وهتك الاعراض المصونة. والمعانى الرثائية والصور فسى
هذه القصيدة مطروقة من قبل فى شعر رثاء الدول فى الاندلس ولكن
اسلوب الشاعر العذب الذى يميل الى الحماس والغزعة الخطابية
وطريقة عرضه للافكار موشحة بظلال كئيبة من الحزن، كل هذه الاسباب هي
التي خلدت هذه القصيدة واكسبتها الشهرة على مر الاجيال. ولشهرة
هذه القصيدة وذيوها فقد زيدت فيها ابيات كثيرة فيما بعد. وقد نبه
المقرئ^(١) الى ذلك بقوله - بعد ان سرد القصيدة - :

" انتهت القصيدة الفريدة، ويوجد بايدى الناس زيادات فيها
ذكر غرناطة وبسطة وغيرهما مما اخذ من البلاد بعد موت صالح بن شريف
وما اعتمده منها نقلته من خط من يوثق به على ما كتبه، ومن له ادنى
ذوق علم ان ما يزيد من فيها من الابيات ليست تقاربها فى البلاغة، وبالسبب
ظنى ان تلك الزيادة لما اخذت غرناطة وجميع بلاد الاندلس، اذ كان
اهلها يستنهضون هم الملوك بالشرق والمغرب، فكان بعضهم لما اعجبته
قصيدة صالح بن شريف زاد فيها تلك الزيادات " .

وقد عرض لهذا النص ونص آخر من كلام المقرئ في وصف الرندي
 الاستاذ محمد عبدالله عنان ، واستشف منهما ان المقرئ قد وهم في تعيين
 العصر الذي قيلت فيه هذه القصيدة ، يقول ^(١) : " وقد التبس الامر على المقرئ
 في تعيين العصر الذي قيلت فيه هذه القصيدة والذي عاش فيه ناظمها
 صالح بن شريف ، فوصفه بانه خاتمة ادباء الاندلس ، وذكر في نوح الطيب ان
 ابياتا اخرى اضيفت اليها تشتمل على ذكر بسطة وقرناطة وغيرهما ليست من
 نظم صاحبها لانه توفي قبل سقوطها (اي قرناطة) مما يدل على اعتقاد
 المقرئ بان ابا الطيب عاش في اواخر ايام مملكة قرناطة (واخر القرون
 التاسع الهجرى) . بيد انه واضح من سياق القصيدة وذكر القواعد الاندلسية
 التي تبكيها وهي بلنسية ومرسية وشاطبة وجيان واشبيلية ، وهي التي
 سقطت كلها في يد النصارى بين سنة ٦٣٥ هـ و ٦٥٠ هـ ، ان الشاعر
 قد عاش في هذا العصر . ومن جهة اخرى فقد ذكر صاحب الذخيرة السنوية
 صراحة انها نظمت حين نمازل ابن الاحمر للنصارى سنة ٦٦٥ هـ عن عدد كبير
 من القواعد الاندلسية . وقد توفي الرندي بعد هذه الاحداث بعشرين عاما
 في سنة ٦٨٤ هـ ."

والمدقق فيما قاله الاستاذ عنان يرى ان المقرئ يرى مما اتهمه به
 فوصف المقرئ للرندي بانه ^(٢) "خاتمة ادباء الاندلس" لا يلزم على الاطلاق
 ان يكون الموصوف بذلك خاتمة او آخر ، فهذا الوصف يطلقونه في كل عصر على
 الفضلاء والمبرزين من الادباء والعلماء فيقولون خاتمة العلماء وبقية اولي
 الفضل ، وآخر قضاة العدل وغير ذلك ، ثم ان المقرئ نقل هذا الوصف عن
^(٣) ابن عبد الملك المراكشي ولم يبتدعه ابتداء ، ومن ناحية اخرى فان عنان
 يرجع الضمير في كلمة (سقوطها) الواردة في نصه الى قرناطة ، وهذا

-
- (١) نهاية الاندلس : ٥٠ .
 (٢) ازهار الرياض : ١ / ٤٧ .
 (٣) الذيل والتكملة : بقية السفر الرابع : ١٣٧ .

اعتساف منه لتأييد رأيه بما لم يقله المقرئ اولا ، والضمير يرجع على كل ما ذكر في النص وليس على فرناطة وحدها ثانيا .

اما عن امر الزيادات في هذه القصيدة فاننا نجد الشهاب الخفاجي الذي عاش من (٩٧٧ - ١٠٦٩ هـ) يترجم لمن يسميه بالسيد يحيى القرطبي (١) وما كان من وقعة الاعداء بالمسلمين واسريحي وارساله هذه القصيدة الى السلطان سليمان العثماني (٢) مستنجدا وناعيا حال الاندلس، وقد اورد الشهاب القصيدة مزيدا عليها واحدا وعشرين بيتا عما في نفع الطيب ولم يشر لنسبتها الى ابي البقاء الرندي ، والذي يبدو ان يحيى القرطبي هذا شهد السقوط النهائي للاندلس، وذهب اعاصميتها الاخيرة (غرناطة) وفتك النصارى بالمسلمين واجبارهم على التنصير، فاضاف هذه الزيادة التي ذكر فيها غرناطة وبسطه ومالقه وغيرها من مدن مملكة بني الاحمر، ثم وجه القصيدة الى السلطان سليمان راجيا مساعدته . ولعل يحيى القرطبي لم يقصد نسبة القصيدة الى نفسه ، لانه لا مجال للفخر بذلك في تلك الظروف العصيبة ، وانما رأى بلاغة القصيدة وعمق تأثيرها في النفوس، بالاضافة الى ذكرها لعدد من القواعد الاندلسية الداهية ، فاكمل سلسلة هذه القواعد متحسرا عليها وعلى ما فيها من العلماء والمعالم الاسلامية التي ازيلت ، ثم اضاف في آخرها عدة ابيات في الحث على الجهاد والترغيب فيه فرسم بذلك صورة متكاملة لما اصبحت عليه الاندلس ووضعها بين يدي الخليفة العثماني ليوقفه على الواقع المر .

وممن تعرض لرتاء الاندلس في هذه - اى القرن السابع الهجرى - حازم

القرطاجني (٣)

- (١) ريحانة الالباء : ٣٧٠ .
 (٢) هو سليمان بن سليم خان العثماني ، ولي سنة ٩٢٦ هـ ، وتوفي ٩٧٤ هـ وهو السلطان الحادي عشر من آل عثمان . الشذرات : ٣٧٥ / ٨ .
 (٣) هو حازم بن محمد بن حسن بن خلف بن حازم الانصارى القرطاجني يكنى ابا الحسن ، وهو من قرطاجنة الاندلس لامن قرطاجنة تونس . ولد سنة ٦٠٨ هـ ، تعلم على والده ثم على شيوخ مرسيه حتى غدا فقيها =

في مقصودته^(١) التي مدح بها المستنصر بالله السلطان الحفصي في تونس
ويستهلها بذكر ما كانت عليه الاندلس من القوة والمنعة بفضل الموحديين
اسلاف الحفصيين رهط الممدوح . يقول^(٢) :

(٣)	امامها النصر العزيز قد قدى	قادوا الى اندلس كتائبها
(٤)	آذيه اذ فنش لما ان فطنا	وصبحوا الارك بجيش غط في
(٥)	دار ولم يتراء لهم من مدرى	فلم يدع جهادهم للشرك من
	الى محل القرب منه والرضى	ثم دعاهم ربهم فابتدروا

وبرحيل هؤلاء المجاهدين عن الدنيا تبدل الحال ، وقل النصير
واصبحت الاندلس فريسة سهلة للاعداء .

(٦)	لمن بغى ، وفرصة لمن بعا	واصبحت من بعدهم فريسة
(٧)	غيماكثيفا غير شفاف الفمى	فانشأت ايدي الجياد فوقها

- = مالكي ، نحويا بصريا واديبا شاعرا ، ومن شيوخه ابو علي الشلويسين
وروى عنه جماعة يقاترون الفا . رحل الى مراكش بعد سقوط قرطبة
سنة ٦٧٣ هـ ، ثم تركها الى تونس حيث المستنصر الحفصي قبله الادباء
والعلماء وظل في كنفه الى ان توفي سنة ٦٨٤ هـ . ومن آثاره
كتاب منهاج البلغاء وسراج الادباء ، ديوان شعر ، ورسائل في النحو
وغيرها . انظر السيوطي ، بغية الوعاة (١ : ٤٩١) ، المكناسي
درة الحجال (١ : ٢٥٤) ، منهاج البلغاء (ص ٥٣ - ٥٤) .
- (١) المقصودات : من المطولات في الشعر العربي ، تكون على الروي المقصود
وتكون في الغالب من بحر الرجز ، وتحتوي على عدة اغراض شعرية
الى جانب فرضها الرئيسي . انظر مهدي علام ، حوليات كليسة
الاداب (عين شمس) مجلد ١ (ص ١٩) سنة ١٩٥١ م .
- (٢) حازم القرطاجني : قصائد ومقطعات (ص ٦٥) .
- (٣) قدي : اسرع . تاج العروس (قدي) .
- (٤) الاذي : الموج . المصدر نفسه (اذي) ، غطا : استطال وتمادى .
المصدر السابق (غطا) .
- (٥) مدرى : ما يدرا به عن النفس . الصحاح (درأ) .
- (٦) بعا : اصاب مغنما . اللسان (بعا) .
- (٧) الفمى : فمي كل شيء اعلاه ، والمراد انه لا يرى من خلاله لكثافته .

قد طبق الافاق من اندلس
فاشرق الشرق بما اشجى الملا
ودمرت تد مير سحب فتنة
ومحقت قرطبة كمثيل ما
وصار للوحشة كل منزل
واختزلت وسطى الثغور وثبة
طوفان هيجاء اطا ف هيجاه
وفتنة عمياء سال سيلها
فمن رد طاح جفاه فوقها
فكم صدى فيها وهام مجتلى

ودار في ارجائها دور الرحي
وما اغص كل جـ و مـ لا
وبارق من مطلع البغي بغي (١)
محق البندر السرار ومحـ (٢)
قد كان للانس بجمص يعتري (٣)
من كل ضار طالما رب الضرا (٤)
بها فلم يدع عرى الاعرا (٥)
ففض شمل المسلمين وعمي (٦)
وفعلت به المهاد قد جفا (٦)
يشكو الصدى مابين هام في جنى (٧)

ان طوفان العدو والمد مرقد انهال على مدن الاندلس الزاهرة امثال قرطبة
واشبيلية وتد مير وغيرها ، وحولها الى انقاض وخرائب لا يشاهد فيها الا الدماء
والاشلاء الممزقة ، هذا المنظر الكئيب الباكي اثار حزن كل من رآه حتى
الانهار والادوية .

-
- (١) تد مير : من كور الاندلس ، سميت باسم ملكها تد مير بن غندرس . السروض
المعطار (تد مير) .
- (٢) السرار : آخر ليلة او ليلتين في الشهر وتكون شديدة الظلمة . الصحاح (سرر) .
- (٣) يعتري : يفشى . الصحاح (عرا) .
- (٤) دب الضرا : اى مشى طريق المكر والخداع . المصدر السابق (ضرا) .
- (٥) العرى : الساحات ، عرا : اعترى . الصحاح (عرا) .
- (٦) رد : قتيل ، جفاه : جفاه رماه وصرعه . التاج (جفا) .
- الفوق : خروج النفس عند الاحتضار . الصحاح (فوق) .
- (٧) صدى : موضع السمع من الرأس . اللسان (صدى) ، الصدى : العطش .
الحيثى : الحجارة المجموعة . الصحاح (جثا) .

فقد بكت انهارها بمد مع
فالنهر الابيض بيكي شجوه
وقد بكى النهر الكبير صنوه
وكاد شقر ان يفيض عند ما
وكم بها من سلك لهر قد حوى
قد نذبت امصاره انصاره
فيالها من درر تخروست
اضحت على ايدى العدى مفشورة
واحتويت ذخائر الدين التي

هام من الوجد لهام ما ارتوى
بكل دمع مستفيض مارقا (١)
اذ لم يطق يروى صدى هام زقا (٢)
غيظ بعيث الشقر في كل عرى (٣)
كرس فلك سمطه فيما حوى
اذ لا اذاة من عدو تشككي
بالغر من در السلوك تفتدى
وارخص الاشراك ملها ماغلا
قد طالما اعي العدى ان تحتوى

الذ تصور جميل من الشاعر لعظم الثكبة وشمولها ، حيث سرى التأثر الى الانهار فعبزت عن حزنها بفيض من الدمع المتدفق في مجاريها ، وكاد بعضها يفيض ماءه وينضب ، لما اصابه من جراه زوال حواضر الملك التي يجرى من تحتها ، والتي كانت منارا للاسلام قبل ان يلغها ظلام الكفر ، وهذا اللون من بعث الحياة في الجمادات ، وازفاء صفات الاحياء عليها ، وجعلها تشعر وتحس بما حولها ، يعطى شعر الرثاء وبخاصة في الاندلس - ابعادا جمالية تشارك طبيعة الاندلس الجميلة في صنعها مع خيال الشاعر .

ثم ينتقل القرطاجني ليقف متأملا حال الظاعنين عن بلادهم نجاة بانفسهم قائلا :

قسمت الحاظي ودمعي عند ما
ما بين ظعن سطرت جمالها
تقسمت نفسي النواحي والنوى
ود من جمالها قد امحى (٤)

- (١) النهر الابيض : يجرى في الجنوب الشرقي من الاندلس .
(٢) النهر الكبير : هو نهر الوادي الكبير الواقع في شمال غرب الاندلس وتقع عليه قرطبة واشبيلية وغيرها . الهامة : طائر خرافي كان العرب يعتقدون انه روح القتيل الذي يذهب دمه هذرا ينزل يصيح حتى يدرك ثأره . اللسان (صدى) .
(٣) شقر : نهر بالاندلس منه اخذت مدينة شقر اسمها . الروض المعطار (شقر) ، الشقر : الخيل .
(٤) ظعن : جمع ظعينة وهو اليهودج . الصحاح (ظعن) .

مر الاعاصير بها مفاقد سفنى	دار سفى قمر الاعاصير على
قد لويت اضلعه على لوى (١)	الووا بكل مفوم كأنما
فواده من كثرة الوجد غمى	من كل ساهى الفكر مغمى على
كأنما باتوا على حد المدى (٢)	تململوا فوق ذرى اكوارهم
بشمطة من المشيب وجلا	قد وسم الحب جسوما منهم
تدكدن لا يبصرن من فرط الضوى	اعدت جسوم العيس اجسام لهم
منهم فرقت من غرام وهوى	واعدت الانفس منها انفس

ان الشاعر يحاول الغوص فى نفوس اولئك المشردين ليحلل الاحاسيس والشاعر الدقيقة التى تحويها تلك النفوس الحزينة، ومن ثم يعرضها علينا فى صورة ادبية رائعة وان كان الاسراف فى استخدام الصنعة البلاغية قد ذهب بكثير من حسناتها فالألم والقلق النفسى الذى تخفق به قلوب الظاعنين الحيارى قد وسم جسومهم بالضعف والانهك الذى انتقل بدوره الى العيس التى تحملهم فاضناها واشعل نيران الشوق والوجد فى نفوسها فرقت بعد غلظتها، وهذه الومضات الشعرية الموحية التى تغنى عن كثرة تفاصيل ماتعانيه النفوس تدل على مقدرة الشاعر وجوده ملكته وافتنانه فى المعانى .

وبعد ذلك يتلمس الشاعر اسباب هذه النكبات فيستنتج ان ذلك بسبب الظلم والظفیان الذى يمارسه الناس، فيعاقبهم الله جزاء ذلك، ويضرب الامثال على ذلك من الامم البائدة والاثار الشاهدة . يقول :

اعظمها بالعين من رب العالا	فاصغر الاشياء قد أثر فى
جيوشهم بمكة بما رمى	قد اهلك الاحبوش طير قدرمى
ماكان هدهاد لبلقيس ابنتى (٣)	وهو قد ما هدهد بنبأ

- (١) اللوى : العلم او الراية . الصحاح (لوى) .
 (٢) المدى : جمع مديه وهى السكين او الشفرة . المصدر السابق (مدى) .
 (٣) هو الهد هاد بن شرحبيل بن غالب . احد ملوك اليمن . وبلقيس ابنته .
 انظر قصائد ومقطعات : ٦٤ .

وقد اعاد الفأرسد مأرب
والقت النمرود عن كوسيه
وقلما مد المدى لمن غدا
وكيف لا يخاف عقبي البغي من
دكا كان لم يبينه من قد بني
بعوضة عدت عليه اذ عدا^(١)
في الظلم والعدوان ومد ود المدى
رأى عقاب الله فيمن قد بغى؟

ثم يتوجه القرطاجني الي خليفته المست نصر بالله الحفصي داعيا اياه
الي انقاذ الاندلس مهونا عليه ذلك الامر بعد ان اطنب في مدحه يقول :

ولو سما خليفة الله لها
ففي ضمان سعده من فتحها
فقد اشادت السن الحال به
أتاي العدي ما كان مرويا بها
يزجي اليها كل ريح زعزع
تبكي الاعادي بعد طول ضحكا
لافتكها بالسيف منهم وافتدى
دين علي طرف العوالي يقتضي
حي علي استفتاحها حي علي
وهوالذي يرجي به رأب الثأري^(٢)
عائية عاصفة بمن عتا
وتضحك الاضبع من بعد الضهي^(٣)

وبعد ، فلاريب ان القرطاجني شاعر كبير ، وصاحب نفس طويل فسي
الشعر مكنه من تأليف مقصوده التي بلغت الف بيت ، ولعله كان يأمل
ان تحرر الدولة الحفصية الاندلس وتعيد ما ذهب منها الي حيز الاسلام
وقد سعى لتقوية هذا الامل عن طريق مدح الحكام الحفصيين ، وعرض حال
الاندلس من خلال ذلك . وهذا مانراه في مقصوده التي مرت بنا ، وفي
قصائده الاخرى ، وهو بهذا متأثر بالمتنبي الذي يعتبره رأس شعراء العربية^(٤)
لما في طريقته من ابداع في الجمع بين الاسلوب الشعري القائم على التخيل
والاسلوب الخطابي القائم على الاقتناع .^(٥)

-
- (١) النمرود بن كنعان اول من لبس التاج من الملوك ، وهو الذي حجاج
ابراهيم - عليه السلام - في ربه كما في سورة البقرة ، الاية : ٢٥٨ .
(٢) الثأري : الخرم والفتق ، الصحاح (ثأري) .
(٣) الضهي : الضهيا : المرأة التي لاتلد ، والارض التي لاماء فيها ولانبات .
اللسان (ضها) ولعله اراد هنا الجوع .
(٤) انظر القصيدة الصادية الطويلة في الديوان : ص ٦٦ .
(٥) منهاج البلغاء وسراج الادباء ، ٢٩٨ - ٣٠٠ .

اما ما يلاحظ على رثائه للاندرلس الوارد في المقصورة من هدوء العاطفة وضعف صوتها ، فهذا راجع الى طبيعة المقصورة القائمة على الصنعة البلاغية التي هي قوام نظرة حازم للشعر . فالشعر عند حازم ملكة وصناعة مكتسبة ، ولكن هذه الملكة (الطبع) بحاجة الى عناية تحقق نموها وتصلقها ، وذلك بالعلم بأسرار الصناعة الشعرية ، ولا يمكن ذلك الا بالمعرفة التامة بعلم البلاغة الذي تندرج تحت تفاصيل كلياته ضروب التناسب والوضع ، وهذا العلم يحتاج الى طول دربة ومران ، فالمتنبى - وهو امام الشعر - لم يستقم شعره الا عن مزاولة الصداقة عشرين عاما ، ثم زاول بعد ذلك زمنا طويلا وقد توفى وهو يصيب فيها ويخطئ^(١) . وقد جعل القرطاجني من المقصورة معرضا لثقافته البلاغية والنحوية ، فنراه يحشد فيها الوانا متعددة من المحسنات اللفظية والبديعية حتى بدت لوحة زخرفية لامعة ، كما نلاحظ وفرة المفردات وغرابتها في كثير من الاحيان ، والغوص وراءها وتتبعها .

اما قول الحبيب ابن الخوجة^(٢) ان القرطاجني لم يعان من الشعر الا المدح والفضل والوصف والزهد ، ولا نجد له هجاء ولا رثاء ، فهذا لا يعني انه لم يقل في رثاء الاندرلس ، ووطنه الذاهب قصائد مستقلة كاملة ، فربما كان ذلك ، لان شعر حازم - في الغالب - لم يجمعه ديوان . اما ما يسمى بديوان حازم الذي حققه عثمان الكماك فلا يمثّل الاجزاء بسيطا جمعه من المصادر المختلفة بالاضافة الى مخطوط صغير اكتشفت بعده مخطوطات اخرى^(٣) .

وللقرطاجني شعر في رثاء الاندرلس وانتشار سلكها ، وهو جزء من قصيدة مدح ، يقول بعد ان وصف ايام انسه الماضية حين كانت الاندرلس آمنة مطمئنة^(٤) :

-
- (١) المصدر السابق : ص ٦٨ .
 (٢) انظر قصائد ومقطعات : ص ٥٥ .
 (٣) مقدمة منهاج البلغاء : ص ٧٣ .
 (٤) ديوان حازم القرطاجني : ص ٤٦ - ٤٧ .

صرف الحوادث طلابا بأوتار
ادني جنائتها تهيب افكار
قد عض او قرع اسنان باظفار
من كان فيها، شريدا حلف اشفار
زمانهم فوق طير ذات اكوار
فكدت انسي اصطباري بعد تذكري
انكوت من خطب دهر طارق طار
جمامها الزرق من شوب واكدار
في ازم من مثلها غر واعصار
حالا بحال واطوارا باطوار
والفت شمل اعداء واشرار
لي في دجي الليل اشفار باشفار
ما وصل اليأس ايقاظي واسهاري

فاوحشت بعد ايناس وصار بها
كانت نوائب ادني ماجنته نوي
وعض ظفر باسنان علي زمين
ابقي المنازل اصفارا وفادرها
كانوا كطير باوگار فصيرهم
عرفت من بعد انكار معاهد هم
ابكي لمعرفة العهد القديم وما
شيبت موارد انسي بعد ما خلصت
كم اوجه للمني غر تغمت بها
ثم انتحت ازم بهم مبدلة
ففرقت شمل احباب وشمل مني
وهذ تفرقت الامال ما اجتمعت
ولو تيقظ من اغفائه املي

وبعد ذلك يأخذ الشاعر في مدح صاحبه الذي عقد عليه الامال في

ايقاظ آماله قائلا :

(١)
ينمي لمجد ابي اليقظان عمار
(٢)
به المنى بين ايراد واصدار
من العلاج ددا ليست باطمار
د هن الحوادث من حجب واستار
وصارم في يد الاسلام بتار
وروضة من رياض العلم معطار

وليس يوقظ آمالي سوى يقظ
محمد بن سعيد خير ما سعدت
السيد المذحجي المكتسى حلا
حاطت حجابته الدنيا بما ضربت
ناهيك من جنة للدين واقية
وهضبة من هضاب الحلم راجحة

(١) يقصد الصحابي عمار بن ياسر رضي الله عنه .

(٢) هو احد القادة في الدولة الحفصية بتونس .

سنت الى ابعد الغايات همته فادركتها وليست ذات اقصار
فليس يرجو سوى اجر وليل عالا وليس يحذر غير الاثم والعار

الذي بيد وان هذه القصيدة قد قيلت بعد امد ليس بالقصير من رحيل
الشاعر عن الاندلس لانه يتحدث بصيغة الماضي " كانت نواب" ، " كانوا كطير "
" عرفت من بعد انكار معاهد هم " وغير ذلك مما هو واضح في القصيدة
فقصيدته هذه بمثابة ذكرى مؤلمة هزت من الشاعر جانب الندم والاسف على
الايام السعيدة التي قضاها في ربوع تلك الديار حين كان الشمل مجتمعاً
والمورد عذبا . ونراه يطلق لذاكرته العنان فتسرح بعيدا شارحة - بالكلمات
الشعرية - حالته من خلال المفارقة بين ماضيه المشرق وحاضره الذي تشتت فيه
الامال والاصحاب، مما اورثه سهرا دائما وهما ملازما كاد يفضي به السى
اليأس لولا استجارته بذلك الممدوح محمد بن سعيد .

والابيات لا تخلو من عاطفة ومشاعر وجدانية ، ولكنها مشوبة بغلبة
الطابع الفردي ، والمصلحة الشخصية عليها .

ومن قصائد المسار الاول - ايضا - قصيدة للشاعر ابن فرقد القرشى^(١)
يرثى فيها جزيرة الاندلس حينما شاهد ضياع اجزاء كبيرة منها . يقول :^(٢)

الامسعد منجز ذوفطن	يبكي بدمع معين هـتن ^(٣)
جزيرة اندلس حسرة	لا غالب من حقوق الزمن
ويندب اطلالها آسفا	ويرثى من الشعر ماقد وهن

(١) هو ابراهيم بن خلف بن محمد بن عمر بن فرقد القرشى العامري ، من
اهل موره وهي بلدة تتبع طليطلة ، وتقع في جنوبها الشرقي ولد ومات في
عهد الموحدين ، كان متفنا في معارفه : محدثا راويه ، فقيها حافظا ،
وشاعرا كاتبا . دون برنامجا في ذكر شيوخه ، وله رجز مشهور في

الفرائض ، وترسل منوع . الاحاطة : ٣٦٤ - ٣٦٥ .

(٢) المصدر السابق : ص ٣٦٦ .

(٣) المسعد : المعين . اللسان (سعد) .

ويحكي الحمام ذوات الشجن
ويدعوه في السرثم العفن

ويبكي الايامي ويبكي اليتامي
ويشكو الى الله شكوى شج

الى ان يقول :

فعدت مناطا لاهل الوثن
فصارت ملاذا لمن لم يبدن
فاضحي لهم مالها محتجن

وكانت رباطا لاهل التقى
وكانت معاذا لاهل التقى
وكانت شجى في حلق العدا

هذا ما ذكره ابن الخطيب من القصيدة ، و اشار الى انها طويلة غير انى
لم اعثر على بقيتها فيما توفر لى من المصادر الاندلسية ، وقد علق على
القصيدة بقوله : " ولدى خلاف فيمن افرد في استحسانها ، وهى عندى ^(١)
ليست بذات عاطفة متوهجة ، فهو يسلك مسلك المقابلة بين حالين : حال حكمها
ايام المسلمين ، والان ايام اهل الوثن النصارى . واللحن العام المسيطر عليها
الحسرة والندبة" . والامر - كما بيد ومن الابيات - على نحو ما ذهب اليه ابن
الخطيب فالشاعر يمعن في البكاء والتحسر ، ولا يكتفى ببكائه هو بل يبحث عن
معين يذرف دمه سخاء لانه يعتقد ان دمه لا يفي بعظم المصاب ، ابيكى
لليتامى ام للايامى ، ام لدولة الشعر والادب التى ذوت وتبدد شمل اهلها
بعد ان اصبحت الاندلس - مصدر الهامهم - ملاذا لاهل الوثن ، والابيات
لا تخلو من عاطفة صادقة غير انها ساكنة يائسة لا يصدر عنها انفعال فاضب
يبحث عن مسببى النكبة منبها الناس لما هم عليه من الفساد وموجها سهام
اللوم والتقريع اليهم .

اما قصائد المسار الثانى التى ترثى الاندلس بعد سقوط غرناطة - آخر
المعادل الاسلامية هناك فاول ما تطالعنا قصيدة الفقيه الصنهاجى المشهور
بالدقن ، وقد م للقصيدة بقوله : " انه لما غابت شمس الجزيرة الخضراء باخذ ^(٢)

(١) الاحاطة : ١ / ٣٦٧ .

(٢) هو ابو العباس احمد بن محمد بن يوسف الصنهاجى . خطيب جامع
القرويين ، اخذ عن اعلام من المشرق والمغرب ، وكان ادبيا نحويا وعالما
بعلوم الفقه والرواية والحديث . وقد توفي بفاس سنة ٩٢١ هـ . انظر
ابن القاضى : درة الحجال : ١ / ٩٢ ، جذوة الاقتباس : ٨ / ١٣٢ ،
محمد مخلوف ، شجرة النور الزكية : ١ / ٢٧٦ .

الحمراء، قرعت باب الندبة، لما تقدم من الصحبة، فقلت ابياتا صدرت من قلب كئيب مبكية لكل لبیب اريب، وسميتها بالموعظة الغراء باخذ الحمراء... يقول: (١)

امنّت من عكس آمال واحوال	وعشت ما بين اعمام واحوال
ولا ابتليت بما في القلب من نكد	فالجسم مشتغل من غير اشغال
وكيف لا ويقاع الدين خالية	من ارض اندلس من اجل اهوال
عمت فغمت قلوب المسلمين فيا	للمسلمين من اعداء وانكـال
جاشت بهام من جيش الكفر ماد رست	بهم معالم اخيار واقبال (٢)

يبدأ الشاعر قصيدته بالدخول المباشر الى الموضوع، فيطلق زفرة جارة من قلب يشتغل بالوان من النكد والاحزان على ما ابتليت به ارض الاندلس من الاهوال والنكبات التي لم يعرف لها التاريخ مثيلا، فالامر ليس ذهاب ارض وتشتت امة فحسب وانما هو زوال دين ساد قرونا، وتحطيم حضارة وسلطان ذو جذور راسخة.

اما اهلها الذين دارت عليهم الدائرة ومزقهم جيش الكفر فهم :

اهل الشجاعة اهل العلم اهل تقي	اهل النفاسة في قول وافعال
عنهم وفيهم احاديث النبي بدت	وهم معاقل قول الله للتالي
رهبان ليل وفرسان النهار فمن	يلم بساحتهم يظفر بآمال
لا عيب فيهم سوى ان المضاف لهم	يسلوعن اهل واوطان واموال
فهبل ترى بعد هذا النفس سائلة	وكيف تسأل عن وصف وعن حال
تالله لا زال ما في القلب من اسف	ولو اكون حديق المنزل الخالي
او يفتح الله في نصر يمين به	فالله باق يقي من كل محتال

(١) القصيدة في ازهار الرياض: ١٠٤ - ١٠٨ .
 (٢) الاقيال : الملوك دون الملك الاعظم، والقيال من ملوك حمير.
 الصحاح (قول).

ويواصل الشاعر هنا حسرته وهو يتذكر أولئك القوم وما هم عليه من الصفات الحميدة والاخلاق الفاضلة، ونلاحظ تركيزه على الجانب الديني فيهم فهم أهل التقى والعلم، وفيهم احاديث النبي بدت وهم رهبان بالليل فرسان في النهار مع الكرم والشجاعة وسداد الرأي والفعل. وهذا بلا شك من تأثير ثقافة الشاعر الدينية فهو فقيه قبل كونه شاعرا.

ثم ينتقل بعد ذلك لوصف مشهد الاعداء الصليبيين بزعامة ملكهم فرناندو وما كان معهم من العدد وادوات الدمار وما الى ذلك :

قد رام اطفاء نور الله مجتهدا	وياذلا كل ما قد حاز من مال
سطا به جيش كموج البحر في عدد	نعمه وفي عدد من رهط ابطال
مويدا باجتماع المصر يتبعه	شر الخلائق مسرورا باقبال
يسبى المسامع بالانفاط ^(١) مشبهة	وقع الصواعق في هذا وزلزال
يبني ليهدم ما الاسلام شينده	والوصف يعجز من يدعي بقلقال ^(٢)
فهو المقاتل في الابراج منتقل	الف النحوس وتغيير وترحال
فاستوطن المرح ^(٣) لاينوى الرحيل ولا	يخشى المغيث بسهل او باجبال

وامام هذا العدد والجبار الذي يسعى جاهدا لاطفاء نور الله بما لديه من عدد وعديد، ونار وحديد لم يكن للمسلمين جيش يقف امامه، ولم تكن كلمتهم واحدة، وانما تفرقت بهم السبل حسب المطامع والاهواء وامتلات قلوبهم بالاضغان لبعضهم مما سهل استسلامهم :

(١) الانفاط : آلات تقذف اللهب والحجارة ويصحبها دوى كالرعد، تهدم الاسوار وتحرق ما وقعت عليه . انظر حنان ، مواقف حاسمة في تاريخ الاسلام : ص ١٢٨ .

(٢) القلقال : الفصح اللسن ، او كثير الاسفار . اللسان (قلل) .

(٣) هو مرج فرناطة ، الواقع في جنوبها الغربي ويجري فيه بعض الانهار وهو من اخصب بقاع الارض تربة واكثرها اشجارا . الروض المعطار (اغرناطه) ، عنان ، نهاية الاندلس : ص ٢٣٦ .

والمسلمون من الاضغان قد ملئت
والحق مختلف والحمق مؤتلف
وهم لديه كطير وهو يبتئسه
اذا تجرد من ريش يطير به
سد و مسالك ارزاق ومنفعة
ثم استفاثوا: الافرسان عادية
والصيف ضيقت ما اقلت من لبن
وارحل بنحلك نحو الغرب في كرم
فاستمكن الرعب في الاكباد واتفتت

(١)
قلوبهم وابوا تسديد اغلال
والكل منصرف عن نصر ابطال
والطير يرجو البقا مع كيد قتال
اضحى يدافع عن روح باوصال
كدودة القز في نسج لسربال
قال الصدي: لست ذا رمح ونبال
ففارق الجبج من تدخين نحال^(٢)
من قبل وضعك في قيد واغلال
بعد اختلاف علي تأمين ارذال

وهذه الابيات تعبر بصدق عن الواقع المؤلم الذي كانت تمر به مملكة
غرناطة في جميع نواحيها فهي وثيقة تاريخية هامة تلخص تاريخ حقبة من الزمن
ساد فيها النزاع والخلاف بين حكام بني الاحمر اصحاب غرناطة بسبب
الاطماع والمصالح الشخصية التي طغت علي الاهتمام بالصالح العام واتسعت
شققة الخلاف في سنة ثمان وستين وثمانمائة وما بعدها ، وذلك حين توفي
السلطان سعد بن محمد بن يوسف النصري وآل الامر الي ولده ابي الحسن
الذي اساء السياسة ومال الي الترف فنارعه اخوه محمد بن سعد المعروف
بالزغل (اي الشجاع) وايده جزء كبير من المملكة التي كانت تنتحر ببطء من
جراه المعارك الطاحنة بين الفريقين ، وقد كان كل من المتنازعين لا يجد
غضاة في التحالف مع النصارى اعداء دينه باذلا لهم شروطا سخية فسي
سبيل الحصول علي المساعدة للوقوف في وجه اخيه ، وتجسد الصراع فسي
انقسام مملكة غرناطة الي قسمين متناحرين سنة اثنتين وتسعين وثمانمائة^(٣)
حينئذ ادرك النصارى ان فرصتهم الذهبية قد لاحت ، فقابلوا فرقة المسلمين

(١) اغلال : جمع خلل وهي الثغرة ، او الفرجه بين الشيئين . الصحاح
(خلل) .

(٢) الجبج : خلية النحل . اللسان (جبج) والنحال : القائم علي امر النحل .

(٣) عنان ، نهاية الاندلس : ص ٢١٤ .

باتحاد كبير وهو اتحاد مملكتي قشتاله وارجون تحت زعامة الملكية الكاثوليكيين (فرناندو وايسبيلا) . واخذا على الفور في التخطيط لاحتلال غرناطة آخر عاصمة اسلامية في الاندلس، فاتجها الي تقويض اطراف المملكة من الغرب كمدينة مالقه وماحولها من الحصون المنيعة التي كانت عقبة في طريق تقدمهم واستطاعوا بعد جهد جهيد وصمود شديد من اهلها ان يحتلوها وان يقطعوا بذلك كل اتصال بين الاندلس والمغرب . ثم توفي السلطان ابو الحسن وخلفه ولده ابو عبد الله الذي حاول مدافعة النصارى ، ولكنه وقع في اسرهم في احدى غزواته ولم يطلقوا سراحه الا بشروط قاسية منها تقديم الطاعة ودفع جزية كبيرة وغير ذلك (١) .

وظل الامر يضطرب والنصارى يتطلعون المناطق شيئا فشيئا ، وصرخات الاستغاثة تتعالى ، وتنادى المسلمون في المشرق والمغرب ، ولكنها لم تلتق صدى ولا جوابا ، وقد شرحنا ذلك في الفصل السابق ، وبعد ذلك تقدمت جيوش النصارى نحو مدينة غرناطة وضربت حولها حصارا شديدا ، الا انها كانت من الحصانة بمكان اضافة الي وجود اعداد هائلة من المدافعين وجلهم من الذين فروا الي غرناطة حين احتلت مدنهم ، واستمر الحصار زهاء سبعة اشهر حتى نضبت الموارد ، واخذ الخور والضيق يدب الي نفوس الناس وفي مقدمتهم سلطانهم ابو الحسن ، ومن جانب آخر اخذ النصارى يرسلون الوعود والشروط المغرية للقوم على التسليم وهي تتضمن حرية الدين والمال وحرية الانتقال وعدم دفع المغانم وغيرها كثير (٢) .

ولم يلبث اهل غرناطة ان قبلوا ذلك واستسلموا ، فدخلها النصارى وظهروا حقدهم الدفين على الاسلام واهله فسرعان ما رفعوا الصليبان وحولوا الجوامع الي كنائس وبدأوا باجبار المسلمين على التنصر او الرحيل ولم ينفذوا شيئا من الشروط التي قطعوها على انفسهم . والى هذا يشير الشاعر بقوله :

(١) المرجع السابق ، ص ٢٠٣ .

(٢) انظر نوح الطيب: ٤٠٤ / ٥١ - ٥٢٥ .

واحتل غرناطة الفسراء قد عدت
 كأنها الشمس في افق العلي كسفت
 وهل تعود ليال قد سلفن بها
 وهل يعود لها الدين الذي انست
 فاصبحوا لا ترى الامساكنهم
 فلا المساجد بالتوحيد عامرة
 ولا المنابر للوعاظ بارزة
 ولا الكاتب بالصبيان آنسة
 آه علي الدين والدنيا وما نفعت

حب الحصيد ونصر الله والآل
 فهبل علي طبلل ترمي بابطال
 ونحن لانشتكي تنكيد ضلال؟
 به وقد ايست من فتح ابدال^(١)
 كمثل عاد وماعاد باشكـال
 اذ عمروها بناقوس وتمثال
 للامر والنهي او تذكير آجال
 تتلو القرآن باسحار وآصال
 آه اذا صدرت من قلب بطال

وهنا نرى الشاعر يعود الي تذكر ما كانت عليه غرناطة قبل ذهابها
 فيطلق الالهات والزفرات التي لم تعد تغني شيئا بعد التحول الخطر فسي
 حياة المدينة، فاهلها الصا لحن تفرقوا ايدي سبأ، ومساجدها غدت عامرة
 بالتثليث بعد التوحيد، والمنابر غدت محطا للنواقيس والتماثيل ومكاتب الصبيان
 التي كانت مراكز اشعاع اسلامي قد هجرت واسدل عليها ثوب بال من النسيان
 والطمس، ومادام الحال هكذا، وكان ما كان فان علي المسلمين من اهل
 المغرب اذ لم ينجده واخوانهم ايام الحصار، عليهم ان يكرمهم الان عند ما
 يفرون اليهم فنرى الشاعر يتوجه الي اهل بلده (فاس) حاضا اياهم علي مواسة
 اولئك المشردين وحسن معاملتهم يقول :

فلنكرم الان من ينزل بمنزلنا
 واذ ولا قدرة تدني المنى فلهم
 نلقاهم ولنا بشر ومعدرة
 ولا نذد عن ورود الحوض وارد ه
 اخوانكم رفعوا ايدي الضراعة مع
 وقل لوال تلتف في مغارمهم

فالدهر ذودول فاسمع لامثال
 حق الجوار ولات وصف باهمال
 ورحمة يا حمة العم والخال
 ولا ندع قول ذي نصح واجمال
 كسر القلوب فلا نقلوا باخمال
 يلطف بك الله اذ تدعي لاحمال

(١) الاولياء الصالحين الذين يستنصر بهم، وفي البيت دلالة علي التواكل
 وترك العمل مما ادى الي ضياع الاندلس .

ثم يتخذ الشاعر من الحالة التي آل اليها اولئك الناس بعد الامن والغنى ، يتخذ من ذلك سبيلا ليوجه الى قومه زواجر الوعظ ، ويأمرهم بتقوى الله - عز وجل - واخذ الحذر من العدو وبذل الجهد في جمع شمل المسلمين :

هذا النذير جهارا جاء يندرنا
ونحن في غفلة عما يراد بنا
يا اهل فاسق اما في الخير موعظة
فقل تعالوا الي نصح وتذكرة
كيف الحياة مع الحيات قد نفحت
ولا سبيل الي الترياق غير تقى
والاخذ بالجد في جمع القلوب علي
والزهد في هذه الدنيا وزخرفها
ولا نرم في امان الروم منزلة
فمن بيت في امان الكلب منتصبا
واربا بنفسك من ارض تهان بها
فالموت عندي خير من حياة فتى
والهجرة الان قد عادت كما سبقت

والاذن في صمم عن قيل او قال
نمشي علي مهلة من طول امهال
ان السعيد لموعوظ بامثال
فالامر جد فلا تصحب لمكسال
علي السواحل او همت بارسال
والحزم في سعة من قبل اعجال
بذل النصيحة او ابراء ادخال
والامر بالعرف مع تحسين مقال
خوفا علي الدين او بعد امن انزال
لسخط مولي ، ولا عذر باثقال
فحيثما كنت لا تخشى من اقلال
قد اكتسى بعد عز ثوب اذلال
فافهم تفاصيل اقوال واجمال (١)

(١) بعد سقوط غرناطة بسنوات قليلة بدأ النصارى سياسة تنصير المسلمين قهرا ومن ابي ذلك قتل او احرق ففرت الوف من المسلمين بدورها الي فاس وتلمسان ووهران ، فتسلط عليهم الاعراب في الطريق فقتلوا كثيرا منهم ونهبوا اموالهم ، فرجع بعضهم الي الاندلس ، وتقاعس الجميع عن الهجرة . انظر ازهار الرياض : ١ / ٦٨ .
وهنا اصدر فقيه المغرب في القرن التاسع الهجري ابو العباس احمد بن يحيى بن محمد التلمساني الونشريشي فتواه المسماه : " اسنى المتاجر في بيان من غلب علي وطنه النصارى ولم يهاجر وما يترتب عليه من العقوبات والزواجر " . وفيه يوجب الهجرة علي الاندلسيين ، يقول فيه " . . . ولا يسقط هذه الهجرة الواجبة علي هؤلاء الذين استولي الطاغية - لعنه الله - علي معاقلمهم وبلادهم الا تصور العجز عنها بكل وجه =

واحتل بذهتك ولتسمع ن صائح من قد طب من حب لم ي وصف بمحتال^(١)

ثم يختم قصيدته بتأريخ ذهاب غرناطة بقضاء الله وقدره الذي لا اراد له ، يقول :

شمس الجزيرة غابت بعد اكمال	في صدر سبع على التسعين زائدة
اذ لم يجد ذائدا عن ديننا الغالي	ويلغ الكلب ما قد شاء من ارب
والامر لله في قول وافعال	ليقضي الله امرا كان قدره
سحاب الدمع لم تقلع عن انزال	وقد عظمت ولو اسمعت لانتشرت
والله يحفظنا من كل مهووال	فليشتغل كل مسكين بمهجته

ان اهم ما تميزت به قصيدة هذا الفقيه الشاعر هو العاطفة الدينية الدافقة ، حيث كانت هي الخيط الرئيسي الذي ربط جميع اجزاء القصيدة فحزنه العميق ، واصراره على هذا الحزن والبكاء حتى الموت لم يكن من اجل تراب الاندلس ، وانما بسبب جلاء الاسلام - بنظامه وشريعته - عن تلك البقاع ، وعند ما يوصى بالعطف على المهاجرين والاحسان اليهم يعتبر ذلك واجبا اسلاميا توجبه الاخوة في العقيدة اضافة الى حق الجوار المأمور به شرعا . كما اننا نحس في القصيدة قوة النفس وعلو الهمة عند شاعرها ، فهو رغم حزنه الشديد لم يملكه الخور والجزع فيشتغل بالعويل والندب ، وانما اتخذ من المحنة سبيلا ، وشاهدا حيا يقرع بها آذان مستمعيه من اهل فاس بزواج الوعظ

= وحال ، لا الوطن والمال فان ذلك كله ملغى في نظر الشرع . قال تعالى
 (ان الذين توفاهم الملائكة ظالمي انفسهم قالوا لئن لم تكن ارض الله واسعة فتهاجروا فيها
 فاولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا . الا المستضعفين من الرجال والنساء
 والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا .) النساء : ٩٦ - ٩٧ .
 والظالمون انفسهم في الاية هم التاركون للهجرة مع القدرة عليها . فلا تجد في تحريم هذه الاقامة وهذه الموالاة الكفرانية مخالفا من اهل القبلة
 المتمسكين بالكتاب العزيز . فهو تحريم مقطوع به كتحريم الميتة ولحم
 الخنزير وقتل النفس ، فمن جوز هذه الاقامة واستسهل حكمها فهو مارق من
 الدين ومفارق لجماعة المسلمين . انظر اسنى المتاجر : ص ٢٦ - ٢٨ .
 (١) معناه : صنعة حاذق لانسان يحبه ، ويضرب في التنوق في الحاجة واحتمال
 التعب فيها . الميداني ، مجمع الامثال : ١ / ٣٩٧ .

وداعيا اياهم الى التقوى وجمع الشمل في مواجهة العدو وباصلاح النفوس
 والبعد والحذر من تطلعات العدو والمتربص الذي يرمى الى اذلال المسلمين
 في دينهم وانفسهم غير اننا مع ذلك لانجد في القصيدة استصراخا او طلب
 نجدة بل اكتفى الشاعر بالحض على حسن معاملة المهاجرين ، والتلطف فسي
 اخذ المغارم منهم وما الى ذلك . ولعل جواب ذلك يكون بالنظر الى الحالة
 التي كانت عليها دولة بني مرين صاحبة اليد الطولى في انجاد الاندلس فيما
 سبق . فهي اليوم - في ظروف سقوط غرناطة - تمر بمرحلة ضعف وتفكك ، وظهر
 زعامات جديدة متمثلة ببني وطاس الذين تمكنوا فعلا من الاستيلاء على الحكم
 في فاس سنة ست وسبعين وثمانمائة (١) . ثم ان الشاعر قد نظم قصيدته فسي
 وقت متأخر عن هذا التاريخ ، فلم يكن حوله من يستصرخه .

واسلوب القصيدة سهل سلس ، والفاظها مألوفة ، ومعانيها خالية من
 التعقيد ، كما خلت من الصنعة البلاغية الا ما يورد عفوا ، لاشتغال الشاعر
 بالحدث التاريخي الهائل ، لذا نجد القصيدة سجلا حافلا للحسنات
 التاريخية التي كانت تجرى على ارض الاندلس . ولم ينس الشاعر استعمال
 الحكمة والمثل وبخاصة عند ما يعجز ، لان ذلك من خصائص اسلوب الوعظ
 والارشاد وذلك كقوله " الصيف ضيعت اللين " ، " صنعة من طب لمن حب " وغير
 ذلك . وقد استفاد الشاعر - ايضا - من اقوال من سبقه من الشعراء ، فقولته :

كيف الحياة اذا الحيات قد نفحت على السواحل او همت بارسال

ماخوذ من قول الزاهد ابن العسال .

من جاور الشر لا يامن عواقبه كيف الحياة مع الحيات في سفظ

(١) انظر السلاوي ، الاستقصاء ، ٢ : ١٤٨ .

وبالجملة فالقصيدة من جيد ما رثيت به الاندلس بعد غروب شمسها
فهي على طولها لم تسعم القارىء لبداعة الشاعر فى الانتقال من مجال الى
مجال آخر، داخل اطار الرثاء، ولئن خلت بعض الشئ من الصور المتخيلة
فانها كانت غنية بعواطفها واحاسيسها الانسانية.

ومن روائع ما رثيت به دولة الاندلس الزائفة قصيدة بليغة طويلة لشاعر
مجهول تتبع فيها سقوط قواعد مملكة بنى الاحمر مدينة بعد اخرى، وقد بدأ
بمدينة رندة قائلاً: ^(١) ^(٢)

وقد كسفت بعد الشمس بدورها	احقا خبا من جورندة نورها
منازلها ذات العلا وقصورها	وقد انظمت ارجاؤها وتزلزلت
وازعج عنها اهلها وعشيرها	احقا خليلي ان رندة اقفست
ودارت على قطب التفرق دورها	وهدت مبانيها وثلت عروشها
ومعقل عزه زاعم النسر صورها ^(٣)	وكانت عقابا لا ينال مطارها
وانذارها شنعاء، عز نظيرها	هوت رندة الغراء، ثم حصونها

(١) مدينة اندلسية قديمة البناء، بها آثار كثيرة، وهي تقع على نهر ينسب
اليها، ويأتيها الماء من قرية بشرقيها ومن جبل بغربيها، فيوافيها
الماء الى داخلها فيكسبها خصوبة وجمالا. الروض المعطار (رندة)
وقد كان سقوطها بيد النصارى فى سنة ٨٩٠ هـ حينما كان الاضطراب
الشامل يسود جميع مابقى من الاندلس، وقد وجه النصارى القشتاليون
حملة قوية الى المنطقة الغربية من مملكة غرناطة (ولاية مالقة) واستولوا
على عدة حصون فى منتصف الطريق بين مالقة ورندة، وبذلك تمكنوا
من عزل رندة التي كانت حصن الاندلس من الغرب، فحاصروها وضربوها
بالانفاط حتى هدموا اسوارها، فاضطرا اهلها الى التسليم لصعوبة
وصول المدد اليهم وبعدهم عن العاصمة (غرناطة)، وكان سقوط هذه
المدينة ضربة شديدة للمسلمين حيث استولى القشتاليون على سائر
القواعد والحصون الموجودة فى تلك المنطقة بعد ذلك بسهولة.

انظر، عنان، نهاية الاندلس: ص ٢٠٦.

(٢) الطاهر احمد مكي، دراسات اندلسية فى الادب والتاريخ والفلسفة:
ص ٣٧٦. وما بعدها.

(٣) الصور: العصفور الاليف، يقال عصفور صوار الذى يجيب اذا دعي.
الصالح (صور).

وقد كن عقدا زين القطر نظمها	وقد فتح الان البلاد نثيرها
وفرق شمل المؤمنين لهيبها	وقطع من ارحامهم زمهويرها
تسلمها حزب الصليب وقادها	وكانت شرودا لايقاد نفورها
وقد ذهبت اديانها ونفوسها	وقد دفرت تحت السباء دثورها ^(١)
فباديها الاسلام حتى تقطعت	مناسيبها . واستأصل الحق زورها
فاصبحت الصلبان قد عبدت بها	تماثيلها دون الاله وصورها
لقرع النواقيس اعلى بمنارها	كرائه اصوات يروع صريرها

الذى يبدو من هذه الابيات ان الشاعر كان ممن شهد الاحداث المؤلمة التي اودت بقواعد الاندلس، وعاشها عن قرب واطلاع، فهو يصدر عن عاطفة هدها المصاب الفاجع، فيصرخ في دهشة افقدته صوابه متسائلا عما يحدث وهل حقا حدث ما حدث، وكأنه يجهل ذلك . ولعل سبب ذهولته كان عدم توقعه لحدث مثل هذه الكارثة لمدينة حصية منيعة كرنده، لذا نراه يكرر استغرابه " احقا خبا من جورندة نورها"، " احقا خليلي ان رندة اذفرت" . ويستعمل الالفاظ الفخمة ذات الصدى المجلجل: " وهدت مبانيتها وثلت عروشها"، " همت رندة الغراء... "، " وكانت عقابا لاينال مطارها... " الخ . ولا يلبث الشاعر ان يفيق من شروده ليرى الاسلام وقد هد ركنه وزحج من مكانه ليقوم مكانه دين الصليب بتماثيله الشركية ونواقيسه ذات الاصوات الكريهة . ثم يسبح الشاعر في بحر من الالام والعذاب النفسي وهو يتذكر احبته اهل تلك المدينة وما حل بهم فيقول :

فيا ساكني تلك الديار كريمة	سقى عهدكم من يصبو نميرها
احقا اخلائي القضاء ابادكم	ودارت عليكم بالصروف دهورها
فقتل واسر لايفادي وفرقة	لدى عرصات الحشرياتى سفيرها
ولوعة ثكل ليس يذهب روعها	ولا تنقضى اشجانها وزفيرها

(١) السباء: الاحراق بالنار . الصحاح (سبأ) .

ونفس على هذا المصاب حزينة
 وقلب صريع ماج فيه بلاؤه
 سأبكي وما يجدى على الفات البكا
 شآبيب دمع بالد ماء مشوبية
 عويلا يوافى المشرقين بريحه
 فواحسرتا كم من مساجد حولت
 وواأسفا كم من صوامع اوحشت
 فمحرابها يشكو لمنبرها الجوى
 وكم من لسان كان فيها مرتل

يذوب كما ذاب الرصاص صبورها
 سويدا اءه سوداء جسم ثبورها
 يعبرة حزن ليس يرقا عبورها
 يساجل قطر الغاديات درورها
 وثكلا باقمار قد اطفى نورها
 وكانت الى البيت الحرام شطورها
 وقد كان معتاد الاذان يزورها
 وآياتها تشكو الفراق وسورها
 وحفل بختم الذكرو تمضى شهرها

ان الشاعر لابد ان يكون قد عاش في مدينة رندة شطرا من حياته
 لذا فان ذكرى تلك المدينة واهلها تثير اشجانه وا حزانه ، فتنتطق شآبيب
 الدمع من عينيه ممزوجة بالرفرات الحارة المنبعثة من قلبه الصريع . اننا
 نحس فعلا لوعة الشكل التي يعانيها الشاعر وبخاصة عند ما يأخذ في تفصيل
 ما حدث لاحبابه اهل رندة جميعا رجالا ونساء ، واطفالا . . . يقول :

وكم طفلة حسناء فيها مصونة
 تميل كغصن البان مالت به الصبا
 فاضحت بايدي الكافرين رهينة
 وقد لطمت - واحرق قلبي خدودها
 وان تستغث بالله والدين لاتغث
 وقد حيل ما بين الشقيق وبينها
 وكم من عجوز يحرم الماء ظمؤها
 وشيخ على الاسلام شابت شيبه
 وكم فيهم من مهجة ذات ضجة

اذا سفرت يسبى العقول سفورها
 وقد زانها ديباجها وحريرها
 وقد هتكت بالرغم منها ستورها
 وقد اسبلت - وادمع عيني - شعورها
 وان تستجر ذارحمة لا يجيرها
 واسلمها آباؤها وعشيرها
 على الذل يطوى لبثها ومسيرها
 يمزق من بعد الوقار قتيورها^(١)
 تود لو انضمت عليها قبورها

(١) القتير : الشيب . الصحاح (قتر) .

لها روعة من وقعة البين ، دائم
 وكم من صغر حيز من حجر امه
 وكم من صغر بدل الدهر دينه
 كروب واحزان يلين لها الصفا
 اساهاه وعين لا يكف هديرها
 فاكبادها حزاء لفح هجرها
 وهل يتبع الشيطان الا صفرها
 عواقبها محذرة وشروها

وهو هنا يرسم لنا صورة ذات ظلال سوداء متشعبة عمادها الحركة
 وصدق الوصف الذي يلفح الوجوه بحرارته رغم مورثات السنن عليه ، وهذه
 الحرارة والانفعال الصادق هي التي اكسبت المعاني والصور الرثائية روحا
 وطرافة ، وان كانت معاده قد قالها شعراء رثاء المدن من ذي قبل ونتيجة
 لهذه المآسي المؤلمة نرى الشاعر يتمنى ان لم يكن ولد فضلا عن تمنيه
 الموت ولكن رغم ذلك لا يزال عنده بصيص من امل شاحب لم يقو على الوقوف بعد :

فيا ليت امي لم تلدنني وليتني
 وما خير عيش يعذب الموت دونه
 فيا ليت شعري بعد ما صح موتها
 وباملئ الاسلام هل لك عودة
 وهل نسمع الاذان صوت الاذان في
 وبالعزاء المؤمنين لفاقصة
 لا ندلس ارتجت لها وتضعفت
 منازلها مصدرة وبطاحنها
 تهائمها مفعومة ونجودها
 وقد لبست ثوب الحداد ومزقت
 فاحياؤها تبدي الاسى وجمادها
 فلوان ذا الف من البين هالك
 على فرقه الدين الذي جاءها به
 بليت ولم يلفح فؤادي حرورها
 ويخبط قل الاهل فيه كبرها
 ايرجى على رغم العداة نشورها؟
 لارجائها يشفى الصدور صدورها؟
 معالمها تعلو بذاك عقبرها
 على الرغم ، اغنى من لديها فقيرها
 وحق لديها محوها ودشورها
 مدائنها موتورة وشغورها
 واحجارها مصدرة وشغورها
 ملابس حسن كان يزهو حبرها
 يكاد لفرط الحزن بيد وضميرها
 لذابت رواسيها وفاضت بحرورها
 بشير الانام المصطفى ونذيرها

ان الاندلس كلها في ماتم كبير لفقد هذه المدينة العظيمة ، وانطفاء نور الاسلام الذي ماكان يسطع من جنباتها ، فالمدن والشفور والاندلسية قد لبست ثوب الحداد ، والتهائم والنجود تتفجع ، والحجارة تتصدع والرواسي الشامخات تكاد تذوب وتندك ، والانهار يفيض ماؤها .
هذه اللوحة الحية للجماد ابداعها الشاعر منسجمة مع نفسه المنفعلة بالحنن والتي لا ترى حولها الا باكيا موتورا ، وهذا يزيد من اهمية المدينة المرثية وشدة تأثير سقوطها .

ثم ينتقل الشاعر الى رثاء قاعدة اخرى من قواعد الاسلام في غرب الاندلس هي مدينة مالقة^(١) وما تبعها :

فمالقة الحسناء ثكلى اسيفة	قد استفرغت ذبعا وقتلا حجورها ^(٢)
وحزت نواصيها وشلت يمينها	وبدل بالويل المين سرورها
وقد كانت الغريبة الجنى التي	تقيها فاضحى جنة الحرب سورها
وبلش قطت رجليها بيمينها	ومن سريان الداء بان فطورها ^(٣)

(١) تقدم التعريف بهذه المدينة في الفصل السابق . وكان سقوطها بيد النصارى سنة ٨٩٢ هـ وذلك انه بعد سقوط رندة اصبح القشتاليون يهددونها من الغرب ، واستغلوا فرصة الحرب المحتدمة بين ابى عبد الله وعمه المعروف بالزغل ووجهوا حملة قوية الى بلش مالقة (وهي منطقة حصينة تقع شرقي مالقة) وحاول الزغل انجادها ولكنه فشل فسقطت بلش في السنة المذكورة ، واستمر النصارى في زحفهم فاحتلوا حصن تمارش، وحصن مونتمبور حتى اشرفوا على ثغر مالقة من كل صوب، فضربوا حولها حصارا شديدا من البر والبحر، ودافع اهليها دفاعا مريرا لمدة ثلاثة اشهر، ولم ينجدها الزغل خوفا ممن غدر ابن اخيه ، وتركها مصيرها وهو يذوب حسرة والما فاستسلمت في النهاية ودخلها النصارى دخول الفاتحين فهبوا واحرقوا وسبوا النساء والاطفال وفرضوا على اهل المدينة شروطا قاسية . انظر نهاية الاندلس (ص ٢١٧) وتصف الرواية ذلك بقولها " وكان مصابهم مصابا عظيما تحزن له القلوب، وتذهل له النفوس، وتبكي لمصابهم العيون" .
مجهول ، اخبار العصر (ص ٢٧ - ٢٨) .

(٢) الحجور: النواحي والارجاء . اللسان (حجر) .

(٣) الفطور: مفردها الفطر وهو الشق . اللسان (فطر) .

وبالله ان جئت المنكب ^(١) فاعتبر
وسكرها قد بدل اليوم علقما
وعن على الاقليم فابك ربوعها
وودع بها وفد النعيم فانها

فقد خف ناديتها وجف نضيرها
لها رجة ، نار الهيام تثيرها
بسحب يضاهاى المعصرات غريها
لها ادمع فيض الدموع يميزها ^(٢)

ولعلنا نلاحظ هنا مقدرة الشاعر على التفنن فى جلب الاوصاف الحية
لما اصيبت به المدينة الثلجية ، فكأنه يرثى لحال امرأة حسناء فقدت بنيتها
فجزت شعرها اسفا ، ولازمها حزن فظيع افقدها الحركة . اما المنكب فامرها
يدعو الى الاعتبار مما اصابها من التدمير والهلاك على الرغم من منعقتها
وقوة حصونها وتلك ارادة الله النافذة لا محالة . ثم يأتى دور مدينة المرية ^(٣)
مسقط رأس الشاعر فيرثيها بقوله :

وما انس لانس المرية انها
فلقد احرق الشكل المصابين اصبحت
فيا اصدقائي ودعوها كريمة
منازل آبائي الكرام ومنشىء
واقروا عليها من سلامي تحية

قتيلة اوجال ازيل عذارها ^(٤)
تأجج من حر الوجيف بحورها
او استودعوها من اليه امورها
واول اوطان غذاني خيرها
تجددها آصالها وبكورها

(١) المنكب : مدينة حسنة متوسطة الحجم ، وهي مرسى الاندلس ، وتشتهر
بحصنها المنيع الذى لا يرام ومنها الى غرناطة اربعون ميلا ، وبها
خرج عبدالرحمن الداخل عند دخوله الاندلس سنة ١٣٨ هـ . الروي
المعطار - المنكب . وقد سقط هذا الثغر الحصين فى يد النصارى سنة
٨٩٥ هـ وذلك بعد ان سقطت مالقة وجميع ما حولها من الحصون
وانقطع بذلك المدد البحرى عن الاندلس ، قرر فرناند ونزع ما بقى فى
ايدى المسلمين من المناطق وهي تنحصر فى (ثغر المرية والمنكب) حيث
فرت اليهما جموع كثيرة من اهل مالقة وغيرها ، فسار فرناند الى المنكب
بعد سنة من الاعداد وحاصرها ثلاثة اشهر حتى اضعفها فاستسلمت على
شروط كثيرة ، وعود مغرية للقادة والامراء فيها . انظر نهاية
الاندلس : ص ٢٢٤ .

(٢) يميزها : يغذيها . اللسان (مير) .

(٣) اما المرية فهي ثغر حصين يقوم على جبلين بينهما خندق . وقد تقدم
التعريف بها فى الفصل الثانى ، وقد سقطت فى نفس السنة التى سقطت
فيها المنكب حيث لم يبق الا هي امام العدو وحاصرها ، ودكها حتى
استسلمت على شروط كثيرة خادعة .

(٤) فى كلمة (عذارها) جاءت الالف قبل الروي ، وهي المرة الوحيدتين تعاقب
الياء والواو .

وهنا نرى الشاعر وقد ودع مدينته الوداع الاخير بعد ان فقد كل امل
 في رجوعها الي حيز الاسلام ، ثم ذهب - في اسف شديد - يبحث عن الاسباب
 التي ادت الي هذه الطامة فيجدها في اضاعه حقوق الله ، والاسراف في
 المعاصي . يقول :

اضعنا حقوق الرب حتى اضعنا	وفضت عرى الاسلام الايسيرها
وملتنا لم نعرف الدهر عرفها	من النكر فانظر كيف كان نكيرها
بما قد كسبنا نالنا ما انالنا	كذا السيرة السوأى لدى من يسيرها
بشقوتنا الخذلان صاحب جمعنا	وبؤنا باحوال ذميم حضورها
بعصياننا استولى علينا عدونا	وعاثت بنا اسد العدا ونمورها

ومن جراء هذا العصيان ، والتفريط في جنب الله فقد عوقبوا بالخذلان
 فلم يقيض الله لهم ناصرا وسلط عليهم عدوا كاسرا يصفه الشاعر بقوله :

نعم سلبوا اوطاننا ونفوسنا	واموالنا فيئا اباحت وفورها
علوها بلا مهر وما غمزت لهم	قناة ولا غارت عليهم ذكورها
وقد عوت الافرنج من كل شاهق	علينا فوفت للصليب نذورها
وقد كشرت ذؤبانها وكلابها	وقد كسرت عقبانها ونسورها
وجاءت الي استئصال شأفة ديننا	جيوش كموج البحر هبت دبورها
علامات اخذ مالنا قبل بها	جنايات اخذ قد جناها مشيرها

ثم يختم الشاعر سلسلة الاسى برثاء واسطة عقد الاندلس ، وعاصمة
 آخر مملكة اسلامية فيها وهي غرناطة . يقول :

ألا ولتقف ركب الاسى بمعالم	قد ارتج باديبها وضح حضورها
بدار العلى حيث الصفات كأنها	من الخلد والمأوى غدت تستطيرها ^(١)

(١) المأوى : يقصد جنة المأوى اخذا من الاية (عندها جنة المأوى) سورة
 النجم : ١٥ ، تستطيرها : اي تطيرها اليها . الصحاح (طير) .

محل قرار الملك فرناطة التي
 فما في العراقيين العتيقين مثلها
 ترى للاسي اعلاهما وهي خشع
 ومأمومها ساهي الحجبي وامامها
 لها حال نفس قد اصيبت فودها
 فانفسها في الصعق دون افاقة
 وقد ذعرت تلك البنيات حولها

هي الحضرة العليا زهتها زهورها
 ولا في بلاد الله طرا نظيرها^(١)
 ومنبرها مستعبر وسريرها
 وزائرها في ماتم ومزورها
 وبنت لها اليمنى وحم ثورها
 كنفس كليم الله اذ ذلك طورها^(٢)
 فهن بواكي الاعين الرمد مورها^(٣)

لقد كان لفرناطة - في نفوس المسلمين عامة - مكانة عظيمة ، ولكونها
 هي الجانب الوحيد الذي بقي صوت الاسلام مسموعا فيه ، ولكن من المحال
 ان تصمد تلك المدينة وحدها وسط خضم زاخر من وحوش الصليبيين
 الحاقدين ، وبخاصة بعد ان جردوها من جميع الحصون والارياض التي من
 الممكن ان تشكل خط دفاع اول عنها ، ولذا فقد جاءت النتيجة الحتمية
 لهذا المسلسل الدامي وسقطت فرناطة سنة سبع وتسعين وثمانمائة . فكان
 لذلك رنة حزن دوت في ارجاء العالم الاسلامي الذي لم يفعل شيئا اكثر من
 ذلك . ولعلنا نلاحظ خفوت صوت الموسيقى الشعرية ، لمناسبة موقف السذل
 والبؤس الذي جلل اعلام فرناطة الشوامخ ، كما استعمل الشاعر الالفاظ الدالة
 على الضعف والانكسار كقوله : " ترى للاسي اعلامها وهي خشع . . .
 ومنبرها مستعبر وسريرها " . وقوله : " ومأمومها ساهي الحجبي وامامها . . .
 " وقد ذعرت تلك البنيات حولها . . . الخ .

- (١) المقصود عراق العرب وعراق العجم .
 (٢) يشير الي قوله تعالي (ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب انري
 انظر اليك . قال لن تراني ولكن انظر الي الجبل فان استقر مكانه
 فسوف تراني فلما تجلي ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا . . الاية
 سورة الاعراف : ١٤٣ .
 (٣) مارالدمع : سال وجري . اللسان (مور) .

وفى معرض حديثه عن حال غرناطة يعرج الشاعر على ذكر بعض المناطق التي سقطت قبل غرناطة بزمن يسير فيقول :

وقد رجفت وادى الاش^(١) قباعها
وسطة ذات البسط ما شعرت لما
على عظم بلواها وطول وبالها
سكاري وما استاكت بخمر ثغورها
دهاها ، وانى يستقيم شعورها
وما كابدت من ذا المصاب نحوها

ثم يختم الشاعر قصيدته بصرخة استنفار يوجهها الي المسلمين لـحل وعسى : :

معاشر اهل الدين هبوا لصعقة
اصابت منار الدين فانهد ركنه
ودبت افاعيها الي كل مؤمن
انادى لها عجم الرجال وعربها
واستنفر الادنى فالادنى فريضة
الا واستعد والجهاد عزائمها
باسد على جرد من الخيل سبق
بانفس صدق موقنات بانها
وصاعقة وارى الجسم ظهورها
وززعزع من اكنافه مستطيرها
وعض باكباد الثقة عقورها
نداء سراة القفر اذ ضل غيرها
على زمر الاسلام جلت اجورها
يلوح على ليل الوغى مستنيرها
يدع الاعادى سبقها وزئيرها
الى الله من تحت السيوف مصيرها

(١) الملاحظ هنا ان الشاعر لم يراع الترتيب الزمني ، فان بسطه سقطت قبل وادى اش بعدة اشهر واد هنا ان اسير حسب نسب نسب الحوادث فاتحدثت عن بسطة وسقوطها ثم عن وادى اش . فبسطة مدينة حصينة ذات اسوار تتبع لمنطقة جيان ، وهي متوسطة المقدار وكثيرة السكان ، وذات خصوبة عالية . انظر الروى المعطار (بسطة) . ولما كانت هذه المدينة من امنع ولايات غرناطة الشرقية ، فقد سار اليها فرناندو سنة ٨٩٥ هـ وحاصرها بشدة ، ولكنها صمدت وقاوم اهلها مقاومة الابطال بقيادة القائد (يحيى النيار) ولما طال الحصار وفتك بالناس الجوع والمرض ، جنحوا الي المفاوضة وبذل لهم فرناندو كعادته من الشروط والوعود ما حملهم على التسليم ومفادرة المدينة نحو وادى اش . وبهذا يكون فرناندو قد بسط سلطانه على قواعده =

وضرب كأن الهام تحت ظلالها
وطعن يرى الخطي في مهج العدا
يمين هدى ان تتقوا الله تنصروا
فلا يخذل الرب المهيمين اممة
وان انتم لم تفعلوا فترقبوا
وايام ذل واهتضام وفرقة

حتالة نور الورد ذر ذرورها
كاقلام ذات الخط خطت سطورها
وتحظوا بآمال يشوق غريرها
تدين بدين الحق وهو نصيرها
بواد رسخط ليس يرجي فتورها
يطاول آناء الزمان قصيرها

ولعل الشاعر يشير في اول هذه الابيات الى بداية المحاولة الآثمة التي قام بها الاسبان لتنصير المسلمين وذلك نحو سنة خمس وتسعمائة حينما استعملت الكنيسة الكاثوليكية كل وسائل الضغط على فرناندو وايسبيللا ليشرعافسي نقض شروط تسليم غرناطة التي منها حرية العقيدة وممارسة الشعائر - ولينفذ سياسة التنصير التي اعدتها الكنيسة بحجة ان بقاء المسلمين على اسلامهم وسط المجتمع النصراني يشكل خطرا على امنه وبالفعل استجاب الملكان لذلك واصدرا قرارا بتنصير المسلمين قسرا واستدعى الكردينال خمينس رأس الكنيسة الاسبانية الى غرناطة لينفذ المهمة (١).

ولهذا نرى الشاعر يستنجد باهل الدين من المسلمين ليقفوا في مواجهة الصاعقة التي هدت ركن الدين ، وسعت لاستئصال جذوره بكل الطرق .

اما قوله : الا واستعدوا للجهاد عزائما . . . الى آخر الابيات فلعله يشير بذلك الى الثورة التي حاولت بعض الاحياء الاسلامية القيام بها كحي البيازين (حي غرناطة الشعبي الواقع في شمالها الشرقي) وذلك ردا

= الاندلس الشرقية كلها ولم يبق خارج طاعته سوى وادي آش مدينة الزفل الذي رأى عبث المقاومة ، فسار الي معسكر فرناندو وقدم الطاعة والخضوع وعقد معه معاهدة سرية فيها المنح والامتيازات الخاصة به بعد تسليم المدينة ، وتم التسليم في اواخر سنة ٨٩٥ هـ ودخلها النصاري وغادرها الزفل الى المغرب . انظرنهاية الاندلس : ص ٢٢٧ .

(١) انظرنهاية الاندلس : ص ٣١٥ .

على قرار التنصير الذي اتخذ من هذا الحي مركزا للمنصرين ، وحول المسجد الجامع فيه الي كنيسة ، كما قامت ثورة اخرى في منطقة جبلية وعرة بجوار منطقة رندا فالحقوا بالحملة النصرانية التي جاءت لقمعهم هزيمة شديدة ، اضطرت ملكي اسبانيا الي استعمال اللين مع الثائرين حتى هاجروا الي المغرب (١) والشاعر ما ان رأى قيسا بسيطا من الجهاد يحاول الاشتعال حتى اخذه الحماس وراح يحرش على اخلاص النية لله وتجريد السيوف والرماح في وجه العدو والكافر ويحذر من التقاعس الذي يجلب سخط الله ، ويدعو الي تحكّم العدو في مصير المسلمين واغراقهم في ذل لانهاية له ، وهذا ما حصل فعلا في الاندلس بعد ان اخمد فيها صوت الجهاد الي الابد . ولعلنا نلاحظ ان القصيدة وقفت عند هذه الواقعة في الاشارة الي الحوادث - التاريخية ولم تتجاوزها ، مما له دلالة على انها آخر ما ادركه الشاعر عند نظمه قصيدته ، وهنا يمكننا ان نستنتج ان القصيدة قيلت في سنة اربع وتسعمائة او خمس وتسعمائة .

ويبدو ان الشاعر قد يعث من نصره البشر ، فتوجه الي الله بهذا

الدعاء الخاشع :

اله الورى ، ندعوك يا خير مرتجى	لكالحة هز الصليب سرورها
وشقت جيب المؤمنين واسخنت	عيونهم والكفر ظل قيرها
وليس لها ياكاشف الكرب ملجأ	اذا لم يكن منك التلاقي ظيورها
افت دعوات المستغيثين انهم	بيابك موقوفو الحشاشات بورها
وارسل على هذا العدو رزية	يروح ويغدو بالبوار ميرها

وبعد ، فالقصيدة من اروع ما قيل في رثاء الاندلس ، فقد اضفى عليها صاحبها من ذوب نفسه التي يمتزج فيها انفعال الحزن والالم بانفعال

(١) المرجع السابق ص ٣٢٥ .

الغضب والحماسة ، فراه قد خلق في عالم شعري هو في جانب من كنهه كهف مظلم تتمزق فيه نفس الشاعر وهو يشاهد مسقط رأسه ، ومرتع شبابه وقواعد الاسلام العظيمة تهوى في جحيم الصليبية الحاقدة ، فيبكي بكاء التلكلى ويندب كالنائحة . فيسرى منه هذا الشعور ليشمل المدن والحجارة والانهار والجبال . . . فتتخرط كلها في موكب حزين مضطرب . وهذه الطبيعة الحية ذات الوجدان والشعور التي تبرز في هذه القصيدة وغيرها من الادب الاندلسي كانت المرتكز التي قامت عليه النظرية الرومانتيكية في الشعر عند الغربيين فيما بعد .

اما الجانب الاخر من العالم الشعري الذي عاش فيه الشاعر فتخلله ومضات مضيئة تنعش نفس الشاعر بعض الشيء ، فيمد بصره بعيدا ، وتدور في نفسه آمال كبيرة ، فيندفع ليفذ ذبيها بحض الناس على التقوى وطاعة الله واصلاح النفوس بحملها على الجهاد في سبيل الله الذي هو الطريق الوحيد للعزة الابدية .

اما اسلوب الشاعر فهو رصين محكم ، مشرق العبارة قويها ، ولعلنا نستشف من هذا ان القصيدة قد قيلت بعد سقوط غرناطة بزمن يسير قبل ان تفعل السياسة النصرانية فعلها في محاربة اللغة العربية ومسختها ، كما حدث بذلك فيما بعد ايام الموريسيكيير : المضطهدين والشاعر - كما يتضح من القصيدة - ذو نفس طويل وشاعرية فذة ، وطبع ابتعد به عن الجري وراء الصنعة البلاغية ، كما نلاحظ التأثر بقصيدة ابي البقاء الرندي في رثاء الاندلس ، فقول شاعرنا المجهول :

فوا حسرتا كم من مساجد حولت	وكانت الى البيت الحرام شطورها
ووا أسفا كم من صوامع اوحشت	وقد كان معتاد الاذان يزورها
فمحرابها يشكو لمنبرها الجوى	وأياتها تشكو الفراق وسورها

مستوحى من قول ابي البقاء :

حيث المساجد قد صارت كنائس ما
حتى الحاريب تبكي وهي جامدة
فيهن الانواقيس وصلبان
حتى المنابر ترثي وهي عميان

وقول الشاعر :

وكم من طفلة حسناء فيها مصونة
تميل كفصن البان مالت به الصبا
فاضحت بايدي الكافرين رهينة
اذا اسفرت يسبي العقول سفورها
وقد زانها ديباجها وحريرها
وقد هتكت بالرغم منها ستورها

مستوحى من قول الرندي :

وطفلة مثل حسن الشمس اذ طلعت
يقودها العلج للمكروه مكرهة
كأنما هي يا قوت ومرجان
والعين باكية والقلب حيران

اما بالنسبة للشاعر فلم يتحقق احد من الباحثين من شخصيته على وجه اليقين ، يقول الاستاذ عبدالرحمن الحجى الذى نشر القصيدة (١) : "قصيدة بليغة من الادب الاندلسي الرائع ، تصف احسن وصف المأساة الاندلسية لم نعثر على قائلها ، وقد طبعها لأول مرة الدكتور صوالح محمد بالجزائر سنة ١٩١٤م مع ترجمة فرنسية وبعض التعليقات ، وذكر فيها انها من جملة قصائد بعثت الى السلطان بايزيد العثماني بقصد الاستغاثة . وقد عرضتها على المؤرخ المغربي الكبير محمد بن علي الدكالى السلوى فذكر لى ان صاحبها كما يفهم من القصيدة من مدينة المرية ولعله ابو جعفر بن خاتمة (٢)

(١) مجلة الرسالة ، العدد : ١٣١ ، السنة الرابعة مج ١ ، ١٣٥٤ هـ /

١٩٣٦ م .

(٢) هو ابو جعفر احمد بن علي بن خاتمة الانصارى الاندلسي . من اهل المرية . شاعر كاتب مترسل ، وفقهه مصنف ، جلس الى الشيوخ حتى اتيح له التدريس في جامع المرية فدرس علم العربية وغيره . قال فيه صديقه ابن الخليل " هو حسنة من حسنات الاندلس ، وطبقة فى النظم والنثر " وقد كان يعد من وجوه العصر الثامن وادبائه المعدودين . توفي سنة ٧٧٠ هـ وله كتاب مزية المرية وهو مفقود ، وكتاب " ايراد اللال من انشاد الطوال " . انظر الاحاتة : ١١٤ ، ١١٤ ، الكتيبة الكامنة : ص ٢٣٩

٢٤٥ - ، نشير الجمال : ص ١٧٥ .

ولعل شكيب ارسلان^(١) اطلع على هذا الكلام فاورد جزءا من القصيدة ونسبها ايضا لابن خاتمة ، وذكر انه نظمها سنة اربع وتسعمائة او بعد هـا بقليل . ولكن الواقع التاريخي يثبت بطلان هذه النسبة لان ابن خاتمة المذكور توفي سنة سبعمائة وسبعين وسبعمائة اي قبل سقوط المدن المذكورة في القصيدة بنحو قرن وربع القرن ، كما ان ابن خاتمة لم يكن شاعرا مغمورا فقد طبقت شهرته الاندلس في زمانه ، فهو يقارن بلسان الدين بن الخطيب واضرا به اصف الى ذلك ان ديوان شعره قد وصلنا بخط يده وهي النسخة التي صنعها سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة وهي تخلو من ذكر القصيدة تماما^(٢) .

اما ما قيل من انها وجهت الى السلطان العثماني . فليس في القصيدة اي اشارات تدل على ذلك ، وقد عرضنا في فصل سابق للقصيدة الطويلة التي ارسلها الموريسكيون للسلطان بايزيد العثماني . واخيرامن غير المتوقع ان نعثري على شخصية قائل هذه القصيدة التي قيلت في تلك السنوات العجاف ، وبخاصة انها تتعرض للعدو المسيطر .

(١) انظر الحلل السندسية : ٣ / ٥٤٧ - ٥٤٩ .
 (٢) حقق الديوان الدكتور رضوان الداية ، وطبع في دمشق سنة ١٣٩٢ هـ /
 ٠ ١٩٧٢ م

الباب الثالث

دراسة تفصيلية لشعر رثاء الدول والأصهار

الفصل الأول
رثاء الدول والأمصار بين التأثير والتأثير

قبل ان اتحدث عن تفاصيل رثاء الدول والامصار في الشعر العربي اود في هذا الفصل ان اتناول بالبحث نشأة هذا الشعر، فقد دارت تساؤلات كثيرة بين الباحثين في الشعر العربي، مشرقية واندلسية حول المهـد الاوـل الذي ولد فيه شعر رثاء الدول والامصار الذي اشتهر في الاندلس خاصة بصورة كبيرة، فهل هو غرض شعري ابتدعه الاندلسيون؟ او انه كان معروفا في المشرق، وتناوله شعراء الاندلس على سبيل المحاكاة والتقليد عند ما حلت ببلادهم النكبات؟ وقد تضاربت الردود والاجوبة حول هذا الموضوع فذهب بعضها الى أن الأدب الأندلسي بجملته لم يأت بجديد، ولم تكن له الشخصية المميزة، بل هو تقليد لادباء المشرق ودوران في فلكهم وضمن آفاقهم، ومن اصحاب هذا الرأي الدكتور شوقي ضيف الذي يقول: (١)

" ونحن لا نبالغ اذا قلنا بان شخصية الاندلس في الادب العربي ليست من القوة كما ينبغي فقد كانت الكتلة الاندلسية تنساق نحو التقليد المشرقي بكل ما فيه، وحتى شعر الطبيعة عندهم لم يأتوا فيه بجديد سوى الكثرة. اما بعد ذلك فصورته كله بما فيها من افكار واخيلة واساليب هي الصورة المشرقية. . . . وما أراني أبعد، اذا قلت أن الأندلس كانت تستمد نهضتها وحياتها من بغداد شأنها في ذلك شأن الأقاليم الاخرى".

ولا يخلو هذا القول - في نظري - من المبالغة والمغالاة، فبالرغم من أن الادب المشرقي ظل انموذجا يحتذى عبر عصور الأندلس الأدبية - على تفاوت في الاحتذاء بين الفترات الزمنية - برغم ذلك فان للأدب الأندلسي شخصية متميزة وطابعا خاصا،

(١) الفن ومذاهبه في الشعر العربي: ص ٤١٢ .

ماذا نسمى ابتكارهم لفن الموشحات، واقتنائهم في اختراع الصور النابضة من شعر الطبيعة حتى كاد هذا اللون يكون وثقا عليهم لجودته وكثرة شعرائه وما هو بالصورة الساذجة التي يشير اليها الدكتور شوقي ضيف، فالشاعر الاندلسي امتزج بطبيعة بلاده الساحرة حتى نراه لا ينفك عن ذكرها واستعمال صفات اجزائها في اغراض لا تمت الى الطبيعة بسبب كالممدح والرثاء كقول ابن خفاجة في الممدح :^(١)

لذكرك ما عب الخليج يصفق^(٢) وباسمك ما غنى الحمام المطوق
ومن اجلك اهتز القضيبي على النقا واشرق نوار الربى يتفتق

وكهوله ايضا في الرثاء البعيد كل البعد عن وصف الطبيعة وموحياتها :

في كل ناد منك روض ثناءً وبكل خد فيك جدول ماء
ولكل شخص هزة الفصن الندى غيب البكاء، هوننة المكاء^(٣)
يامطلع الانوار . . ان بمقلتي اسفا عليك، كمنشأ الانواء

كما لاننسى ايضا بروز الاندلسيين الى حد كبير في مجال رثاء الدول والمدن وتفردهم في ابتداء شعر الاستصراخ والاستغاثة حتى غدا فنا قائما بذاته انطبع بطابعهم، ولعل الدكتور شوقي ضيف يريد من الادب الاندلسي ان يتميز باغراضه واساليبه تميزا كاملا عن ادب المشقوق بحيث يبدا اذبا آخر له مقوماته ومجالاته الخاصة . وهذا امر عسير، ومن غير المتوقع حدوثة، وذلك لان الاندلس كانت جزءا من الدولة الاسلامية فسي كثير من الفترات، واهل تلك الجزيرة ما هم في غالبيتهم وبخاصة اهل الشعر والادب - الاجزاء من القبائل العربية التي دخلت ايام الفتح اوفسى

-
- (١) ديوان ابن خفاجة : ص ١٨٥ .
(٢) العب : شرب الماء وتتابع جرعه . القاموس المحيط (عب) .
(٣) غيب البكاء : البكاء الشديد الذي يكون بعد شوق وانقطاع، المكاء : طائر له صوت رنان . الصحاح (مكاء) .

زمن الامم وبينهم باهل المشرق وحدة الاصل ، ووحدة العقيدة واللغة . اذ الى ذلك ان هؤلاء الشعراء والادباء الذين ذاع صيتهم في الاندلس قد تتلمذوا على مؤلفات المشاركة وشقفوا بها ، فلاعجب ان يسيطر الطابع المشرقي على آثارهم ومؤلفاتهم الادبية وغيرها ، فهم في الواقع كانوا يستقون من منبعين احدهما مشرقى والاخر ينبع من داخل جزيرة الاندلس . ولعل ادباء الاندلس وجدوا انفسهم مدفوعين الى ورود مآهل الادب المشرقي لان ماحولهم من بلاد اوروبا آنذاك لم يكن فيها من العلم والادب ما يدفع الاندلسيين الى اخذه والاستغناء به عن ادب المشرق .

وذهب فريق آخر من الباحثين الى القول بان رثاء الدول والامصار فن اندلس المنشأ لم يظهر في المشرق الا في فترات متأخرة ، وما وجد منه يوصف بالضعف والتكلف . يقول احمد امين : ^(١) " لقد رأينا مدنا في المشرق تتساقط تساقط اوراق الشجر ، تستوجب الرثاء والبكاء ، كما سقطت بغداد في يد التتار ، وازالوا كل ما فيها من مظاهر مدنية وحضارة ، وفعل التتار فيها ما لا يقل عما فعله الاسبانيون في الاندلس ، وغزا هولاء كوتيمور لنك ونحوهما الشام ، واسقطوها بلدا بلدا ، فما رأينا عاطفة قوية ، ولا رثاء صارخا ، ولا ادبا رقيقا ، ولا تاريخا مسجلا ، كالذي رأيناه في الاندلس ، فان قلنا ان هذه الناحية في التاريخ الاندلسي اقوى واشد لم نبعد عن الصواب " .

ويعلق الدكتور محمد رجب البيومي على هذا الكلام بقوله : ^(٢) " وبمارة استاذنا الكبير - رحمه الله - على شيء من التناقض اولا واخيرا ، اذ ان قوله فان قلنا ان هذه الناحية في التاريخ الاندلسي اقوى واشد لم نبعد عن الصواب ، قد يبد وتعارض مع قوله فما رأينا رثاء صارخا ، ولا ادبا رقيقا ولا تاريخا مسجلا . . لان القول الاخير يعترف بوجود هذا اللون على نحو اقل

(١) ظهر الاسلام : ٣ / ٢٨٧ .

(٢) الادب الاندلسي بين التأثر والتأثير ، ص ٢١١ .

من لون الاندلس، والقول الاول يكاد يحكم بعده . . مع ان القصف لكاتب
الادب والتاريخ يرى رثاء المدن ذائعا في كل محنة تجد . ولم يتعرض امثال
الطبرى وابن الاثير والمسعودى لمحنة ما الا روي عنها في كتب التاريخ - فضلا
عن كتب الادب الخالص - نماذج رائعة فيها الرثاء الصارخ والادب الرقيق
والتاريخ المسجل .

ويذهب بطرس البستاني الى ان العاطفة الوطنية ضعيفة في شعر بكاء
المدن في المشرق حتى لانكاد نلمح لها خيالا الا في النادر، و اشار الى
ان الفرق واسع بين شعراء الاندلس وشعراء العباسيين من حيث ~~حسب~~
الوطن والتعلق به .^(١)

ويشارك الدكتور محمد مجيد السعيد هذا الفريق ، فيشير الى ان بكاء
الدول والمدن الزائلة ولد بالاندلس بفعل الكوارث التي عاشتها ، والمحن
التي قاستها ، فقيلت القصائد لتخليد مآثرها ، وبرزت المشاعر الوطنية
التي تدعو الى الجهاد ، والوقوف في وجه الاطماع والتوسع في حين تأخر
ظهور مثل هذا الفن في المشرق حتى سقوط بغداد ، اما قبل ذلك فالشعر
المشركي يكاد يخلو تماما من امثال هذا اللون سوى ما قيل في الاستعمار
والاستذكار ، وايوان كسرى .^(٢)

والناظر في هذه الآراء يجد انها تكاد تجمع على سبق الاندلس في
هذا المضمار ، وتكاد تنكر ظهور مثل هذا الشعر قبل سقوط بغداد سنة
ست وخمسين وستمائة على يد المنول . والواقع ان الزعم بتأخر شعر الرثاء
كل هذه الفترة قد يكون مجانباً للصواب ، وفيه اجحاف شديد بحق شعراء
المشرق . اذ اننا نجد قصائد رائعة في رثاء بغداد ايام فتنة الامين والمأمون
في اواخر القرن الثاني الهجري ، كقصيدة ابي يعقوب الخريمي الطويل

(١) ادباء العرب في الاندلس وعصر الانبعاث: ص ٢٩ .

(٢) الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالاندلس: ص ٣٠٨ .

التي صورت المأساة اصدق تصوير بعيدا عن الصخب والتكلف، فصاحبها شاعر مطبوع شعر بهزة عظيمة عندما رأى مدينته العظمى تصبح اطلالا وخرائب، فاطلق هذه الزفرات الحارة . ولكن لا ادري لماذا ادارت كتب الادب ظهرها لهذه القصيدة، حتى كادت تنسى بالرغم من جودتها، فلم يوردها كاملة الا الطبرى في تاريخه^(١) . ولعل ذلك راجع لخمول ذكر صاحبها بسبب بعده عن دواوين الخلفاء والرؤساء وعدم مدحه لهم تعففا عن التكسب بالشعر .

او ربما كانت الدولة تدفع الناس لنسيانها ربا للصدع ولأما للجرح بين بني العباس، وقصيدة هذه حالها في المشرق من الصعب ان نفترض انها وصلت الى الاندلس، ولكن لا يجوز لنا اغفالها فهي - ولا ريب - رائدة في مجالها . وكذلك قصيدة ابن الرومي في رثاء مدينة البصرة حينما دمرها الزنج في منتصف القرن الثالث الهجري فقد بكأها بحرارة وصدق، ووشب خياله فيها وثبات جميلة معبرة لم يسبق اليها، وذلك حين صور مشهد المحشر الرهيب يوم القيامة وقد وقف معاصرو نكبة البصرة خاشعين من الذل، والجبار - عز وجل - يقرعهم ويبيغتهم :

يا عبادي اما غضبتم لوجهي	ذي الجلال العظيم والاكرام؟
اخذلتهم اخوانكم، وقعدتم	عنهم - ويحكم - تعود اللثام؟
كيف لم تعطفوا على اخوات	في حبال العبيد من آل حام؟
لم تغاروا لغيرتي، فتركتم	حرماتي لمن احل حرامي
ان من لم يغر علي حرماتي	غير كف لقاصرات الخيام

او حينما يصور عتاب الرسول - صلى الله عليه وسلم - لهم في ذلك الموقف العصيب :

(١) اورد ابن قتيبة ابياتا منها في الشعر والشعراء ٢/ ٨٥٥ . وجاء الجاحظ بابيات منها اقل في كتابه الحيوان : ١/ ٢٢٥ ، ٥/ ٢٠٠

امتى . اين كنتم اذ دعتنى
صرخت "يامحمداه" فهـلا
حررة من كرائم الاقوام
قام فيها رعاة حق مقامى
كان حى اجابها عن عظامى
لم اجبها اذ كنت ميتا فلولا

انها صور بدیعة مؤثرة تدفع سامعها الى العمل الايجابى ، فهيب
للجهاد فى سبيل الله والدفاع عن حرمانه ، لينجو بذلك من الخـزى
والعذاب ، وهذا مايسعى اليه الشاعر .

واكد اذهب الى ابعد من هذا كله ، الى العصر الجاهلى حيث
البكاء على الأطلال والرمن الذى يدل على العاطفة الصادقة لدى العربى
نحو منازلهم وصحرائهم ، فكيف يكون حال هذا الشاعر البدوى لو كان يعيش فى
مدينة ، والمت بها نكبات الدهر ، لاشك انه سيتدفق كالسيل باكيا وراثيا
فى قصائد رنانة ، وقد قدمنا فى الفصل الخاص برثاء الممالك فى الجاهلية
نماذج لهذا الشعر .

اما قول القائلين بان العاطفة الوطنية فى شعر المشاركة ضعيفة
ولا تكاد تلمح فهو ليس على اطلاقه ، لان لدينا من القصائد ذات العاطفة
الصادقة والمشوية ما يضاهاى رثاء الاندلسيين ان لم يفق الكثير من قصائده
فبالاضافة الى قصيدتى الخريمى وابن الرومى نجد الشعر الذى قيل فى
رثاء بيت المقدس عندما سقط بيد الصليبيين فى اواخر القرن الخامس الهجرى
وبخاصة قصيدة ابى المظفر الببيردى التى يصف فيها ملاقته المدينة
المقدسة من الاهوال العظام باسلوبه المثير الذى ابكى عين سامعيه دما
وصور الحدث تصويرا اصاب الناس بالذ هول والد هشة تمهيدا لحشيم على
نصرة اخوانهم . ونراه قد الم ب طرف من صور ابن الرومى ومعانيه حينما
يتخيل النبى - صلى الله عليه وسلم - وقد رأى تقاعس الامة عن الجهاد
والدفاع عن حرمان الله التى انتهكها الصليبيين وعملوا بالمدينة المقدسة
واهلها اعمالا :

يكاد لهن المستجن بطيبة
ارى امتي لا يشرعون الى العدى
ويجتنبون النار خوفا من الردى
فليتهم اذ لم يذودوا حمية
ينادى باعلى الصوت يا آل هاشم
رماحهم والدين واهى الدعائم
ولا يحسبون العار ضربة لازم
عن الدين ضنوا غيرة بالمحارم

فعاطفته الاسلامية متأججة ثائرة، تنادى المسلمين عربا وعجماء
للدفاع عن الوطن الاسلامي مهما بعدت اصقاعه .

وهناك - ايضا - الشاعر الفقيه عمارة اليمنى الذى ظل يرثى الخلافة
الفاطمية بمصر بشعر يفيض بالصدق وحرارة المشاعر، فقد كان هذا
الشاعر محبا لا ولئك القوم بالرغم من كونه سنيا وهم شيعة، وقد ملك عليه
هذا الحب وجدانه، حتى كانت قصور الفاطميين هي مبعث وجدده واشجانده
بعد ان اقفرت من اهلها، حتى اوردته ذلك موارد المهلاك، بعد ان لم
يطبق رؤية الايوبيين في تلك الربوع فذهب يدبر الخطط ضد هم حتى ظفروا
به فقتلوه .

وبعد فلعل في هذه الامثلة والمناقشات ما يثبت وجود شعر رثاء
الدول والامصار في المشرق قبل سقوط بغداد بقرون عدة، كما ان فيها
ما يرد القول بضعف العاطفة الوطنية عند الشعراء المشاركة.

اما ما قيل في رثاء بغداد والشام عندما دمرت على يد التتار، فلا
يخلو ايضا من صدق العاطفة فقد هز النبا الهائل - سقوط الخلافة
الاسلامية وتدمير عاصمتها بغداد - نفوس جميع المسلمين وادمت قلوبهم
تلك الصور البشعة من القتل والحرق والسحق الهمجى لكل شىء، فانبرى
الشعراء يبكون البلاد والعباد، ولكن شاب قصائد هم الاسراف في الصنعة
البلاغية كالجناس والطباق والمقابلة، والتضمن الى غير ذلك . فهذا
الشيخ شمس الدين الكوفي يفتتح احدي مراثيه بقوله :

ان لم تقرح ادمعي اجفانسي من بعد بعدكم فما اجفانسي
انسان عيني مفا تناءت داركم ماراقه نظر السى انسان
مالي وللایام شتت شملها حالي وغلاني بلا خلان

فهذه الابيات وغيرها يشم منها رائحة التكلف فتبدد و العاطفة ضعيفة شاحبة وسط هذا الجنس المتلاحم . ولعل السبب في ذلك اسلوب العصر الذي انحدر فيه الفهم العام لمدلول الشعر عند النقاد والشعراء ، فحكمم بالجودة للقواعد التي تحوى قدرا كبيرا من المحسنات اللفظية والبدعية وتظهر مقدرة قائلها على الزخرفة واستعمال الوان ثقافته في شعره ، ومن الجدير بالذكر ان الذين برزوا في رثاء بغداد والشام لم يكونوا شعراء منقطعين للشعر وانما هم بين واعظ ، ومهزج ، كاهن العديم ، وطبيب كهلاء الدين الغزولي .

ولعل الذي حمل النقاد على وصف مرثي المشاركة لمدنهم بضعف العاطفة هو نظرهم باعجاب الى عواطف الشعراء الاندلسيين نحو بلادهم فالاندلسيون - بحق - من شعرهم يتعلم حب الوطن ، فهو ممتزج بدماهم وارواحهم ، والاندلس تظل قبلة شاعرها انى ذهب ومهما اغترب ، وحنينه اليها يبقى مشتتلا مرتلا في قصائد شجية تبقى انموذجا شامخا على مر الايام ولا عجب في ذلك ، فطبيعة وطنهم الساحرة ذات فضل كبير عليهم ففى شخذ قرائحهم واكسابها الخيال الجميل ، والامر الثاني يكمن فى وقوع ^{فى وسط نصراني يعمل جا هدى السحق الامة الاسلاميه} الاندلسيين المسلمة وطرد لها من تلك البقعة ، الامر الذى ولد عند الاندلسيين شعورا قويا بانهم يملكون علقا نفيسا تتطلع اليه عيون الطامعين فازدادت العاطفة الوطنية فى نفوسهم تأججا ، فما تسقط مدينة الا رأيت الشعراء يسارعون فى بكائها وتسجيل مآثرها مع الدعوة لرأب الصدع والحث على الوحدة ، والتوجه الى اخوانهم المسلمين يناشدونهم النصر لاحتسابهم بان طمع العدو لن يتوقف عند مدينة او سلسلة من المدن .

وفي نظري ان البحث عن سابق ولاحق ، ومؤثر ومتأثر بين المشرق والاندلس في فن رثاء الدول والامصار امر يحتاج الى اعادة نظر ، وربما حدث شيء من ذلك بين شعراء القطر الواحد ، كما هو الحال عند الاندلسيين في احتذاء قصيدة ابي البقاء الرندي لشهرتها الكبيرة .

والذي يدفني الى انكار التأثر والتأثير على نطاق واسع هو ان هذا الفن يختلف عن باقي الفنون والاعراض الشعرية التي يمكن ان تطبق عليها حكم التأثر والتأثير . اذ ان الصادق منه يقوم على جيشان العاطفة والانفعالات الداخلية عند الشاعر ، وهذه العاطفة تكمن بسكون في نفس كل شاعر - على تفاوت في رهاقة الاحساس وعمقه - فاذا ما حدثت النكبة ، واصيب الوطن اشتعلت نيران هذه العاطفة ، فتفجرت بناابيعها الثرة . فمثل هذا الشعر اذن لابد ان يكون مبثوثا في كل ادب ، ما وجد الشعراء ، ووجدت النكبات التي تحرك وجدانهم ، وهذان الامران لا يخلو منهما زمان من الازمنة على مدى الدهر كله . اما تكرر معاني الرثاء وتشابيحها في كثير من القصائد ، والذي قد يحمل الباحث على القول بالاتباع فان سببه هو تكرر المأساة نفسها ، فماذا عسى ان يقول الشاعر الذي يشاهد مدينته او دولته التي عاش في ظلها ، تستباح وتدمر من قبل الاعداء ، لاشك انه سيكسب للدمار والخراب الذي صيغ المدينة ، ويرثي لحال القتلى والاسرى ، ويصور مصارع الضعفاء من الاطفال والنساء والشيوخ بحيث يؤثر في السامع ويستدر عطفه وعبرته ، وتشابه هذا الواقع المؤلم في كل مدينة تسقط لا يكتفون ببراهمه الاهماله او تجنبه من قبل الشاعر اللاحق بحجة انه قيل من قبل . على ان الجدة والطرافة لدى الشاعر الملمهم تبرز في صوره واخيلته والوانه .

وحاصل القول في هذه القضية ان رثاء الدول والمدن مبثوث في الشعر العربي ككل في المشرق والاندلس ، ولكنه اشتهر بالاندلس حتى اقترن ذكره بادبها لما يلي :

اولا : تتابع الاحداث المساوية . فقد ظلت الحروب مشتعلة بالاندلس على مدى خمسة قرون تقريبا ، يتخللها فترات سلام مؤقتة مادام المسلمون هم المسيطرين ولا تلبث الحرب ان تعود جذعة عند ما يجسد النصارى من انفسهم قوة تمكنهم من الهجوم على المسلمين .

وقد كانت الحروب تصطبغ بالصبغة الدينية الخالصة ، فهي تطاحن من اجل البقاء بين عقيدتين اسلامية ، ونصرانية . لذلك نجد المعانى الاسلامية هي اهم ما يتفجع عليها الشاعر ويتأسف ، كالمساجد التي سرعان ما تحولت الى كنائس تنصب على محاربيها الصلبان المعدة لهذه الغاية فور السقوط ، وكالمدارس ومعاهد العلم التي تهدمت ومالى ذلك .

وهذا الامر لم يوجد في شعر المشرق بهذه الصورة الا حينما سقط بيت المقدس وفعل الصليبيون به تلك الافاعيل المعهودة عنهم ، اما التتار فهم جيش هلكته وتد مير ، وليس لديهم عقيدة ينشرونها ، فشعراء المشرق تعرضوا لذكر التدمير فقط من غير ذكر للتغيير . وذكروا مصر الاسلام والتفجع عليه ، مع كثرة المدن العظمى الساقطة اكسبت شعر الشاعر الاندلسي لونا خاصا من التأثير في نفوس قارئيه وسامعيه على مر الازمان .

ثانيا : ان معظم المؤرخين الاندلسيين الذين اوردوا لنا الاشعار التي قيلت في رثاء الاندلس هم ادباء وشعراء في الوقت نفسه ، فكان ان مزجوا الحوادث التاريخية بالادب مزجا يشعر القارىء بتفاعلهم مع الاحداث التي اوفوها حقها من التحليل الدقيق كفعل ابن بسام صاحب " الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة " ، وابن سعيد صاحب " المغرب في حل المغرب " ، ولسان الدين ابن الخطيب صاحب " الاحاطة في اخبار غرناطة " . . . وغيرهم كثير وكثير .

ونحن هنا لانكر دور مؤرخي المشرق في ايراد الاشعار اثناء سرد الحوادث ، فكثير من شعر رثاء المدن والدول في المشرق جاء في كتب التاريخ كتاريخ الطبرى ، وتاريخ المسعودى مروج الذهب ، والكامل في التاريخ لابن الاثير وغير ذلك . ولكن طريقة المؤرخين الاندلسيين كانت اشهر في ابراز الشعر والاهتمام به .

الفصل الثاني

دراسة شكل قصيدة الرثاء
متممة

من الصعوبة بمكان ان يضع الباحث خصائص ومميزات لاي غرض من اغراض الشعر العربي ينفرد بها ولا يشاركه غيره فيها ، وذلك لطبيعة هذا الشعر الذي تغلب عليه الغنائية ، وتتداخل اغراضه وتتفرع عن بعضها ، فالرثاء مثلا يرجع الى المديح لانه مدح الاموات ، وكذلك الغزل والوصف . . . الخ^(١)

وفي شعر رثاء الدول والامصار تزداد المشكلة تعقيدا لان هذا الشعر لا يمثل وحدة متكاملة يمكن دراستها من خلال تسلسل القصائد والاساليب والظروف المتشابهة . فنحن بازاء حشد من القصائد التي قيلت في رثاء المدن والدول الساقطة والدمرة على مدى قرون طويلة ومتباعدة ، اضع الى ذلك انه لا يوجد شعراء مكثرون في هذا الفن ، نستطيع بتتبع شعرهم وتحليله تكوين فكرة متبلورة عن سمات هذا اللون الشعري ، فاگر الذين وردت اشعارهم في هذا البحث لم يزيدوا على ثلاث قصائد او نحوها ففي المناسبة الواحدة . فلا بد - والحالة هذه - من تناول كل قصيدة على حدة وقد فعلت هذا في جميع القصائد التي مرت بنا . ولكن اريد هنا ان اشير بشيء من التفصيل الى الظواهر البارزة التي تشترك فيها معظم القصائد التي بين ايدينا من ناحية الشكل والمضمون .

اما من حيث الشكل فيشمل الحديث المباحث التالية :

(١) يقول ابن رشيق القيرواني : " الشعر كله نوعان : مدح وهجاء ، فالمدح يمدح ويرجع الرثاء والافتخار والتشبيب ، وماتعلق بذلك من محمود الوصف ، كصفات الطول والاثار ، والتشبيبات الحسان ، وكذلك تحسين الاخلاق كالامثال والحكم والمواعظ . . . والهجاء ضد ذلك كله . . . " . العمدة ١/ ١٢١ .

وفي قصيدته الأخرى يضمن مقدمته اشطرا كاملة عن شعر الاطلال
حين يقول :

قف في ديار الطاعنين ونادها (يادار ما صنعت بك الايام)
اعرضت عنك لانهم قد اعرضوا (لم يبق في ساشاة تستام)

وهذا ابن شهيد الأندلسي ، شاعر الأندلس المطبوع ، عاش في بيئة
لا تمت الى الصحراء واطلالها بصلة ، وعندما اراد رثاء قرطبة ، حاضرة اوروبا
كلها في ذلك الوقت ، لم يجد مناصا من البدء بذكر الطلول مراعاة لتقاليد
الشعر التي حرم ابن قتيبة ^(١) على الشعراء المتأخرين الخروج عنها .
يقول ابن شهيد :

ما في الطلول من الاحبة مخبر فمن الذي عن حالها نستخبر؟
لا تسألن سوى الفراق فانه ينبئك عنهم انجدوا ام اغوروا

ويقول ابن لبّون في رثاء امارته الغاربة :

خليلى عوجابى على مسقط اللوى لعل رسوم الدار لم تتفيرا
فاسأل عن ليل تولى بانسنا وانذب اياما تقضت واعسرا

اما السهيلي فيسائل قريبته المحتلة قائلا :

(١) يقول ابن قتيبة بعد ذكر بنية القصيدة على ذكر الديار والد من شم
النسيب فوصف الرحلة والتعب حتى الوصول الى الفرض وهو المدح ..
يقول : " وليس لتأخر الشعراء ان يخرج عن مذهب المتقدمين في
هذه الاقسام ، فيقف على منزل عامر ، او يبكي عند مشيد البنيان
لان المتقدمين وقفوا على المنزل الدائر والرسم العافي . . . " .
انظر الشعر والشعراء : ١ / ٧٤ - ٧٦ .

يادار ابن البيضا والأرام
راب المحب من المنازل انه
ام ابن جيران على كرام؟
حيي فلم يرجع اليه سلام

ولعل هؤلاء الشعراء وغيرهم كانوا يرون في المقدمة الطللية مظهرا
من مظاهر الاصاله التي يجب المحافظه عليها، ولذلك نجد في مابين ايدينا
من اشعار الرثاء - وبخاصة في الاندلس - اسماء بعض الاماكن والمناطق في
جزيرة العرب تتكرر كثيرا لالذاتها وانما لانها اصبحت رموزا يقترن ذكرها
بالشوق والوجد والحنين الباكي، وهذا الامر ابتداء الشعراء القدماء في
حنينهم الى مغانبيهم ثم شاع في الشعر العربي كله واصبح رمزا، ومن
تلك الرموز كلمة نجد واللوى، والمشقر، وشبر، وجبل الريان وغيرها.
يقول ابن عميرة الاندلسي في رثاء بلنسية :

ويندب عهدا بالمشقر فاللوى
واين اللوى منه واين المشقر ؟

ويقول ايضا :

يحن الى نجد، وهيهاات حرمت
فياجبل الريان لارى بعد ما
صروف الليالي ان يعود الى نجد
عدت غير الايام عن ذلك السود

ونحن هنا لانعيب على الشعراء وقوفهم التقليدي بالاطلال، بقدر
مانبين ان الشاعر المغلق اذا تصدى لموضوع الرثاء، لا ينبغي له ان يكبت نفسه
ويفقد ها قيمتها بالجري وراء غيره في الشكل او الموضوع، لان ذلك لايسمح
للعواطف - التي هي عماد هذا الشعر - ان تنطلق معبرة عن نفسها في
انسياب طبيعي يريح نفس الشاعر المشحونة بالالام، ويبلغ من السامعين، او
القارئين درجة عالية من التأثر .

(٢) مقدمة الحزن والشكوى :

وفي هذه المقدمات يمهد الشعراء لقصائد هم الرثائية بشدة وقمع
الحدث على انفسهم حيث ارثتهم الالم والنكد والسهر . . . الخ . وهذا
النوع كثير جدا في شعر رثاء الدول والامصار، ومنه قول العبلي في رثاء
الدولة الاموية :

نشوزي عن المضجع الانفس	تقول امامة لمارأت
لدى هجعة الاعين المعس	وقلة نومي على مضجعي
عرون اباك فلا تبلسي	ابي ما عراك؟ فقلت الهوم
من الذل في شر ما محبسي	عرون اباك فحبسنه

وقول ابن الرومي في رثاء البصرة :

شغلها عنه بالدموع السجام	زاد عن مقلتي لذيد المنام
حرة ما حل من هنات عظام	اي نوم من بعد ما حل بالبصم
ج جهارا محارم الاسلام	اي نوم من بعد ما انتهك الخدم

اما الابیوردی فنجدہ یمزج الدمع بالدم حزنا على خراب بيت المقدس
ووقوعه بيد الصليبيين :

فلم يبق منا عرضة للمراحمم	مزجنا دماء بالدموع السواجم
اذا الحرب شبت نارها بالصوارم	وشر سلاح المرء دمع يفيضه

ويشاركه - ايضا - في الموضوع نفسه شهاب الدين بن الجار بقوله :

صلي في البكاء الاصال بالبكرات	اعيني لا ترقى من العبرات
توقد ما في القلب من جمرات	لعل سيول الدمع يطفى فيضها
خبث باد كار يبعث الحسرات	ويا قلب اسمر نار وجدك كلما
بروح ما القى من الكربات	ويا فم يح بالشجو منك لعله

ويتخذ علاء الدين الاوتارى من السهام مؤسسا له يلازمه في شدته
بعد ان جفاه الرقاد على اثر نكبة دمشق ، يقول :

لك علم بما جرى ياسهادى	من جفوني على افتقاد رقادى
لم اجد عند شدتي مؤسسا لى	غير سهدى ملازما لسوادى
وحبيب العين الرقاد جفاها	مذ رأها حليفة الانكساد

ويذرف ابو المطرف بن عميرة الاندلسى الدمع مدرارا ، ويغرق فى
بحر زخار من الاحزان ويغرق معه غيره وذلك فى مقدمة رثائه لبلنسية :

ما بال دمك لا ينى مدراره	ام ما لقلبك لا يقر قراره
اللوعة بين الضلوع لطاعن	سارت ركائبه وشطت ادوا
ام للزمان اتى بخطب فادح	من مثل حادثة خلت اعصاره
بحر من الاحزان عب هبابه	وارتح ما بين الحشا زخاره
فى كل قلب منه وجد عنده	اسف طويل ليس تخبوا ناره

ويقول الدقون فى مطلع رثائه للاندىس :

امنت من عكس آمال واحوال	وعشت ما بين اعمام واحوال
ولا ابتليت بما فى القلب من نكد	فالجسم مشتغل من غير اشغال
وكيف لا ويقاع الدين خالية	من ارض اندلس من اجل اهل

وهذه المقدمات اكثر مناسبة لاشعار الرثاء من المقدمات الطليية
لانها ذات اتصال مباشر بنفس الشاعر واكثر ملائمة للارتباط بالموضوع الاصلى
حيث لا يظهر اثر الانتقال واضحا فى القصيدة .

(٣) مقدمة شكوى الدهر، وذكر الحكمة والعبارة؛

وفي هذه المقدمات يذكر الشعراء تقلب الدهر وتلونته، وفتكه بالامم العظيمة، الامر الذي يوجب التيقظ واخذ العبرة.
يقول عثمان القرشي في رثاء دولة بني امية :

من يأمن الدهر مصاه ومصبحه	في كل يوم له من معشر جنز
بعد ابن مروان اودى بعد مقدرة	فانت لهيبتها الامصار الكور
ثم الوليد فسل عنه منازلــــه	بالشام والشام معسول له خضر
وفي سليمان آيات وموعظة	وفي هشام لاهل العقل معتبر

ويقول الخريمي في رثاء بغداد :

قالوا : ولم يلعب الزمان ببفس	داد وتعثر بها عواثرها
اذ هي مثل العروس باطنها	مشوق للفتى وظاهرها
فلم يزل والزمان ذو غـــــير	يقدمح في ملكها اصاغرها

اما عبارة اليميني فيشكو الدهر شكوى العاجز لانه يرى ضرباته القاصمة التي لا ينجو منها من وجهت اليه . يقول في رثاء دولة الفاطمية :

رميت ياد هر كف المجد بالشليل	وجيده بعد حسن الحلى بالعطل
سعيت في منهج الدهر العثرفان	قدرت من عثرات الدهر فاستقل
هدمت قاعدة المعروف من عجل	سقيت، مهلاما تمشى على مهل

وفي رثاء حلب يقول ابن العديم :

هو الدهر ماتبنيه كفاك يهدم	وان رمت انصافا لديه فتظلم
اباد ملوك الفرس جمعا وقبصرا	واصمت لدي فرسانها منه اسهم
وافنى بني ايوب مع كثر جمعهم	وما منهم الا ملك معظــــم
وملك بني العباس زال ولم يدع	لهم اثرا من بعد هم وهم هم

وعلى هذا النظم من تعداد الاقوام الذين اناخ عليهم الدهر منذ
غابر الزمان ، قصيدة ابن عبدون الشهيرة في رثاء امارة بنى الافطس والستى
مطلعها :

الدهر يفجع بعد العين بالاشر	فما البكاء على الاشباح والصور
انهك انهك لا الوك موعظة	عن نومة بين ناب الليث والظفر
فالدهر حرب وان ابدى مسالمة	والبييض والسود مثل البييض والسمر

ثم يأخذ في ذكر الاشخاص المشهورين الذين مضوا في التاريخ من
لدى الفرس واليونان الى ان يصل الى بنى الافطس وانقضاء دولتهم
بالاندلس في القرن الخامس الهجرى .

اما البحترى فيكشف عن علاقة العداة المستحكمة بين الدهر وذوى
الشان ، فهو مولع بتحطيمهم وانعاسهم ، يقول :

صنت نفسى عما يدنس نفسى	وترفعت عن جدا كل جيس
وتماسكت حين زعزعتى الدهر	ر التماسا منه لتعسى ونكسى
وكان الزمان اصبح محموم	لا هواه مع الاخس الاخس

وممن سلك سبيل الحكمة في مقدمة رثائه الحصرى القيروانى في رثاء
القيروان حيث يقول :

موت الكرام حياة فى مواطنهم	فان هم اغتربوا ماتوا وماتوا
----------------------------	-----------------------------

وهو يعبر عن تجربة صادقة ، فقد اضطر الى التشرذم بعد خراب بلده
وجاز الى الاندلس مادحا متكسبا . وتكثر مقدمات شكوى الدهر وفعلها
بالاقوام فى الشعر الجاهلى ، كقول عدى بن زيد العبادى :

ايها الشامت المعير بالدهر	ر أنت المبرأ الموفر
ام لديك العهد الوثيق من ال	ايام ام انت جا هل مفرور

ابن كسرى كسرى الملوك ابوسا
وهو الاصغر الكرام ملوك السر
سان ام ابن قبله سابور
وم لم يبق منهم مذكور

وهذا النوع من المقدمات يكسب القصيدة شيئا من الرزانة والوقار اذ ان الشاعر فيها يبدي تجلدا ويكظم المهه وحزنه عند ما يتأسى بذكر حوادث الدهر الرهيبة في مختلف العصور .

(٤) مقدمة تقوم على التذكير بحتمية الموت :

يسلك الشاعر هذا السبيل في مقدمته عند ما يكون الحادث هائلا
فياخذ الشاعر الاسى والاسف حتى يذهل لفترة، ثم يتذكر نهاية كل حـى
فيبدأ بذكره . يقول ابن الذئبة في رثاء دولة حمير :

لعمرك ماللفتى من مـهـر
لعمرك ماللفتى صحـرة
ابعد قبائل من حمـير
بالف الوف وحرابـة
مع الموت يلحقه والكـبر
لعمرك ما ان له مـن وزر
اتوا ذا صباح بذات العـبر
كمثل السماء قبيل المـطر

ويقول ابن اللبانة في رثاء امارة بني عباد في الاندلس :

لكن شىء من الاشياء ميقات
والدهر في صفة الحرباء منغمس
وللمنى من منائهن غايات
ألوان حالاته فيها استحالات

ويقول ابو البقاء لرندي مفتتحا نونيته الشهيرة في رثاء الاندلس :

لكل شىء اذا ماتم نقصان
هى الامور كما شاهدتها دول
ولا يدوم على حال لها شان
فلا يفر بطيب العيش انسان
من سره زمن ساءته ازمان

ولتأكيد حتمية الموت نرى بعض الشعراء يطلق لفظ الموت على المدينة المدمرة حين لا ترجى عودتها ثانية . يقول السمسير في رثاء الزهراء :

وقفت بالزهراء مستعسرا	معتبرا اندب اشتاتا
فقلت يا زهرا الا فارجمي	قالت وهل يرجع من ماتا؟
فلم ازل ابكي وابكي بها	هيهات يفنى الدمع هياتا
كأنما آثار من قد مضى	نوادب يندبن امواتا

ويقول ابن المعتز في رثاء سامراء :

قد افقرت سر من را	ومالشيء د وام
فالنقص يحمل منها	كأنه آجام
ماتت كما مات فيل	تسل منه العظام

والمجهول في رنده :

فياليت شعري بعد ما صح موتها	ايرجى علي رغم العداة نشرها
وياملة الاسلام هل لك عودة	لارجائها يشفي الصدوردها

هذه هي انواع المقدمات التي برزت فيما جمعت من شعر رثاء الدول والامصار، وهناك قصائد كثيرة اعتمد قائلوها الدخول المباشر في الموضوع، وهي من اصدق القصائد عاطفة تحس فيها حرارة الانفعال كلما قرأتها، ومن امثلتها قول بعضهم في رثاء القدس :

احل الكفر بالاسلام ضيما	يطول عليه للدين النحيب
فحق ضائع، وحمى مباح	وسيف قاطع، ودم هيب

وقول ابن العسال في رثاء بربرشتر :

ولقد رمانا المشركون بأسهم
هتكوا بخيلهم قصور حريمها
لم تخط لكن شأنها الاصماء
لم يبق لاجبل ولا بطحاء
طقل ولا شيخ ولا عذراء
كم موضع غنموه لم يرحم به

او قول الشاعر المجهول في رثاء الاندلس عند ما غربت شمسها :

احقا خبا من جورندة نورها
وقد انظمت ارجاؤها وتزلزلت
وقد كسفت بعد الشمس بدورها
منازلها ذات العلا وقصورها
وكانت شرودا لا يقاد نفورها
تسلمها حزب الصليب وقادها

وغير هذا كثير . . . كقصائد ابن البار في بلنسية ، وثناء اشبيلية
وغير ذلك .

المبحث الثاني : الالفاظ

الكلمة عنصر رئيسي من عناصر البناء الشعري ، بل هي ركن ركن لكل عمل ادبي . ومن هنا جاء الاحتفاء بها عند الادباء والنقاد . فالشاعر يحرس دائما على توفير الالفاظ التي تنسجم تمام الانسجام مع معانيه ، ولكنه لا يوفق في جميع الحالات . ذلك لانه ملتزم بلغة لا بد له من الوقوف عنده قواعد ما وحدودها ، وهذا الامر لا يبيح له ان يخترع اللفظ الذي يريد اويشتقه في كل حال . كما انه مرتبط باوزان وقواف تتطلب نوعا خاصا من المعالجة . عندئذ لا بد ان يعول الشاعر على معجمه اللغوي لانتخاب الالفاظ التي تناسب غرضه ، ثم يجتهد في توفير جو من الالفة والالتئام بين هذه الالفاظ بحيث يسمح لها ان تشع اكبر قدر من المعاني الكلية المتداخلة بالاضافة الى شحنه من الصور والظلال والايقاعات الموحية التي تتناسق مع الجو الشعوري الذي يريد ان يرسمه . وبهذا يستطيع الشاعر المبدع ان ينتج من الكلمات العادية قطعاً سحرية يعطيها من روحه قوة وحيوية حتى يجعلها تتسع لمشاعره وعواطفه واحاسيسه التي يريد نقلها الى السامعين . فالكلمات لها في ذاتها دلالات معينة ، فقد يكون للكلمة الواحدة من الفضل والمزية في موقع من مواقع الكلام ما ليس للكلمة نفسها في موقع آخر ، والكلمة هي الكلمة ، والجرس هو الجرس ، والحروف هي الحروف^(١) . فالكلمات اذن ليست مجرد رموز للافكار والمعاني وانما هي كائنات حية يجري فيها الشاعر عمله فهي اشبه ماتكهن بالالوان عند الرسامين ، على طبيعة اختيارها وتناسقها يتوقف النجاح او الاخفاق .

وفي شعر رثاء الدول والامصار - الذي بين ايدينا - نلاحظ تركيز الشعراء على الالفاظ الموحية ذات الدلالة الشعورية ، والمعاني المكثفة

(١) انظر: عبد القاهر الجرجاني ، دلائل الاعجاز : ٣٢ - ٣٥ .

المتشابكة ليستطيعوا تفريغ همومهم واحزانهم ونقلها الى السامعين ولتأكيد
معنى من المعانى الرثائية وبلورته بصورة بعيدة عن الجفاف .
يقول الخريمى فى رثاء بغداد :

قفراء خلاه تعوى الكلاب بها ينكر منها الرسوم زائرها
واصبح البؤس مايفارقتها الفا لها والسرور هاجرها

فاختياره الموفق للادفاظ المتقاربة اشاع جوا من الشعور بالوحشة
يجعل السامع يقف واجما مفكرا فى العظمة المحطمة ، فهو ازاءه طلل حزين مقفر
اضحى مأوى للكلاب بعد ان كان قبل مدة قصيرة سريرا للملك . فالقفور
والخلاء يكملان بعضهما فى اعطاء معنى الخلو من كل انس بحيث يتصور
السامع انه واقف بببداه موعبة ، وليزيد الرعب قوة جعل الكلاب تعوى بها
والعواء غير النباح الطبيعى ، ولا يفعله الكلب الا عند خوفه او الهه ، ثم جاء
بالطباق بين البؤس الملازم والسرور المفارق ليعمق معنى الوحشة بمزيد من
السكون والصمت الرهيب .

اننا نلاحظ سبلا من المعانى يقفز الى الاذهان من جراء تناسق
الاصوات ، ونلاحظ هذا - ايضا - جليا فى رثاء البحترى للقصر الجعفرى حيث
يقول :

ولم ار مثل القصر اذ ربح سربه واذ ذعرت اطلاؤه وجرآذره
واذ صيح فيه بالرحيل فهتكت على عجل استاره وستائره
كان لم تبت فيه الخلافة طلقة بشاشتها والملك يشرف زاهره
ولم تجمع الدنيا اليه بهاها وبهجتها والعيش غض مكاسره

وفى وقوفه على ايوان كسرى كذلك :

فكان الجرماز من عدم الانه س واخلاله بنيسة رمس
لو تراه علمت ان الليالى جعلت فيه ماتما بعد عرس

وهو ينبك عن عجائب قوم لا يشاب البيان فيهم بلبس
يتضنى من الكآبة اذ يبس د ولعيني مصبح او ممسى
مزعجا بالفراق عن انس الف عز او مرهقا بتطبيق عرس

ففي الابيات الاولى نجد ان الصورة التي برزت من خلال تشابك العلاقات بين الالفاظ وانسجامها قد انطبعت في ذهن السامع او القارىء بشكل حركة مضطربة مرتجفة تزيد من سرعة دقات القلب .

وقد تمكن البحترى من رسم هذه الصورة باستخدامه لمعجم الالفاظ البدوى الصحراوى ، فالسرب والاطلاء والجآذر ريعت وذعرت ، والقصر هنا بيت من الشعر يصاح فيه بالرحيل على سمت اهل البادية . وكلمة الروع والذعر تحمل معانى نفسية كبيرة للخوف والحيرة والتحفز ، فهذا الموقف يشبه العقدة فى القصة ثم تنحل هذه العقدة فى البيت الثانى بالعبارة النابضة (صبح بالرحيل) اذ ان الرحيل هو الذى يعقب الحيرة والتحفز وبخاصة بالنسبة للاطلاء والجآذر التى لاحول لها ولا قوة .

ولفظ (صبح) بجرسه الرنان اعطى صورة نشطة للسرعة المصحوبة بالضجيج والاضطراب وهتك الاستار والستائر ، ولو استعمل جملة (نودى) مثلا بدل صبح لما ناسبت عبارة (على عجل) التى فى الشطر الثانى لما فيها من البطء اضافة الى عدم الانسجام الصوتى .

وبعد ان يفد والقصر خاويا غربا تهبط الحركة ، فيأتى مجال الالفاظ العذبة الرقيقة لبيان ما كان يحويه ذلك القصر ايام سؤده من العظائم كبشاشة الخلافة ، وزهرة الملك ، وبهاء الدنيا كلها . . .

والملاحظ ان هذه الالفاظ توحى - ايضا - بالهدوء والدعة ، فالطلاقة والبشاشة ، البهاء ، والعيش الفضى وذلك لتظهر المفارقة المحزنة من خلال حالة الرعب والاضطراب الراهنة وحالة الامن والرفاه السابقة .

ومثل هذا التناسق الصوتى الجميل نجده - ايضا - فى الابيات السينية حيث صنع البحترى من الالفاظ العادية المألوفة صورة ناطقة للايوان ، وهذه

هي مهمة الشاعر العبقرى ان يفجر ما هو مألوف لينتج منه جديداً ، وبذلك تجتمع له الاصاله والطراقة . فالايوان ضخم عظيم الصنعة يبنى بعظمه الباني ، غير انه موحش ناطق بصمت المقابر . والشاعر هنا يحاول تجسيم هذا الصمت الكئيب من طريق الالفاظ الموحية بمعاني البؤس ، فيأتى بالطباق بين العرس والماتم ، حيث تفتح هاتان اللفظتان للسامع آفاقاً يتطلع من خلالها الى الانقلاب المريع الذى حصل للايوان فصبغه بكآبة المفارق للاحباب او النادم على تطلق عرسه ، ولما كانت هذه الكآبة مستمرة استمرار الايام ومتجددة على الدوام جاء بالطباق الاخر " مصبح او ممسّى " كما نلاحظ ان الشاعر استعمل كلمات : الفراق ، الازعاج ، الارهاق التى هي من خواص الاحياء ليلين الصورة بما يزيد لها تأثيراً فى النفوس .

واحياناً تأتي الفاظ الشاعر مشبعة بالدلالة النفسية ، وذلك عند ما يكن هو نفسه قد غرق فى لجة الحدث الفاجع ، حيث يتسرب شعوره الداخلى الى الفاظ قصيدته ، كقول ابن الرومى فى وصف ماحل باهل البصرة على يد الزنج :

ووجوه قد رملتها دماء	بابي تلثم الوجوه الدوامى
وطئت بالهوان والذل قسرا	بعد طول التبجيل والاعظام
فتراما تسفى الرياح عليها	جاريات بهبوة وقتام
خاشعات كأنها باكيات	باديات الثغور لا لابتسام

ان اختياره للوجوه - تلك الاجزاء العزيزة لبني الانسان - له دلالة نفسية لان الوجوه هي المواضع التى تظهر عليها مختلف الانفعالات ، التى جاء الشاعر بطرف منها هاهنا . ومن ثم ينفذ ابن الرومى من خلال وصف الوجوه الى تكوين صورة عامة للاذلال والقهر .

فتلك الوجوه التى كانت موضعاً للتبجيل والاعظام لطختها الدماء وامتزجت بها الرمال ، ووطئت بالهوان ، وكلمة وطئت جاءت متمكنة فى موضعها فاشعت بكل ما يخطر على البال من معاني الذل والارغام ، كما انها

ذات دلالة نفسية لدى الشاعر والمستمع، فهي قطعة من نفس الشاعر ومهما حاولت ان تستبدل بها كلمة اخرى فلن تجد ، واذا وجدت فلن يكون الوقع متماثلا . والمستمع او القارئ يدرك بذوقه وحسه مرامي هذه الكلمة ومدى تأثيرها ولكنه لا يمكن ان يفرغ كل ما احاط به من معانيها اذا اراد التعبير عن احساسه بواسطة الكلمات . وكذلك بالنسبة لكلمة خاشعات وانسجامها مع باكيات وباديات فانها نبضة الم من قلب الشاعر الذي احس بالذلة والخسف نتيجة لتمثله تلك التجربة المريرة .

ويقول المجهول في رثاء طليطلة :

وزال عتوها ومضى النفر	لقد خضعت رقاب كن غلبا
وسامح في الحريم فتى غير	وهان على عزيز القوم ذل
مصونات مساكنها القصور	اديلت قاصرات الطرف كانت
لو انضمت على الكل القبور	وكان بناعوا بالقينات اولسى
وكيف يصح مغلوب قريـر	لقد سخنت بحالتهن عـين

وهنا - ايضا - يريد الشاعر ان يبرز مقدار الذي الذي لحق بالناس من جراء سقوط مد ينتهم بيد الكفار ، فجاء بلفظ الخضوع الذي يحمل معنى الانحناء ، والطاعة واسنده الى الرقاب التي كانت مشرئبة بالعزنافرة ممن الضيم فتقبلته وسلمت له امرها على الرغم من مقتها له ، وهنا تكمن دلالة كلمة الخضوع اذ ان اكراه الانسان على ما لا يحب او ما لا يطيق هو اوسع انواع الذل والقهر والتحقير النفسى . . . وهكذا تستمر الابيات مصورة تهدم القمم الشامخة . فعزير القوم يستمرى الذل ، والفتى الكريم الضيم يفضى على انتهاك المحارم . ولا تخفى الدلالة النفسية لهذه الالفاظ، فهي تشف عن الالام والمهموم العظيمة لتي تتلجلج في نفس الشاعر والتي لا يتردد معها في تمنى الموت ليهرب من جحيم شقائها .

وفي رثاء الاندلس بعد استكمال سقوطها يقول المجهول الاخر :

مدائنها موتورة وشغورها
 واحجارها مصدوعة وشغورها
 ملابس حسن كان يزهو حبه وورها
 يكاد لفرط الحزن يبد وضميرها
 لذابت رواسيها وفاضت بحورها

منازلها مصدورة وبطاحها
 تهاشمها مفجوعة ونجودها
 وقد لبست ثوب الحداد ومزقت
 فاحياؤها تبدى الاسى وجمادها
 فلو ان ذا الف من البين هالك

وفي القصيدة نفسها يقول :

ومنبرها مستعبد وسريرها
 وزائرها في ماتم ومزورها
 وبنت لها اليمنى وحم ثبرها
 كنفس كليم الله اذ دك طورها
 سكارى وما استاكت بخمرثورها

ترى للاسى اعلامها وهي خشع
 ومأمومها ساهى الحجى وامامها
 لها حال نفس قد اصيب فؤادها
 فانفسها في الصعق دن افاقة
 وقد رجفت وادى الاشى فبقاعها

ان المتأمل لهذه الابيات يدرك ان قائلها قد التصق ببلاده التصاقا
 شديدا ، فقلبه متصدع لهوانها ، ونفسه منكسرة لذليها وضياعها ، وتلمس اثر
 ذلك جليا في تعاطفه مع الكلمات التي استعملها ، فقد جاءت رقيقة مفعممة
 برنين الاسى ، ومتشابكة الوشائج يجرى من خلالها سيل من المشاعر والمعاني
 فهذا الجرس الحزين للسجع الذي ينساب سليقة في البيتين الاولين يسمعنا
 زفرات المنازل والبطاح المصدورة ، وعويل المدن والشجر الموتورة والحجارة
 المصدوعة . والطباق الحاصل من لبس ثوب الحداد وخلع الملابس الزاهية
 وتمزيقها يجعل السامع يتيه في آفاق بعيدة من التفكير ليتصور المعانى
 التي رافقت هذا التحول الخطير الذي كادت - لروعته - تفيض البحار وتخر
 الجبال هذا . ثم نرى لسات الشاعر الحانية تمر على الصوامت فتبعث فيها
 الحياة ، ولكن بد من صخب ولا ضجيج :

ترى للاسى اعلامها وهي خشع
ومأمومها ساهى الحجي وامامها
ومنبرها مستعبد وسريرها
وزائرها في ماتم ومزورها

انه الخشوع والخضوع الذي يلف الاعلام الشامخة والمنبر المنيف ثم
الماتم الحزين الذي يلف الجميع في شroud مستعبر، فكلمة خشع اثارت في
الذهن معنى الوجوم والاستفراق في التفكير لاخذ العبرة والعظة.
ويقول اسامة بسن منقذ في رثاء قومه حينما اهلكتهم الزلازل :

ذهبوا ذهاب الاس ما من مخبر
وبقيت بعد هم حليف كآبسة
عنيهم ، وزالوا كالظلال الزائل
مستورة بتجمل وتحامل
سعدوا براحتهم وما انا بعد هم
في شقوة تضني وهم داخل

فاستعمله لعبارة (ذهاب الاس) ومناسبتها لزوال الظلال
اعطت المعنى الذي يريده قوة وزخما حيويًا . يقف السامع معه على صورة
الاضمحلال التام الذي لا ترجي بعده عودة، ولذا حق لنفس الشاعر ان
تحالف الكآبة والهم المستمر الذي يحاول اخفائه بالصبر والتحمل . وجاءت
كلمة (مستورة) حسنة الموقع لمناسبتها للذهاب والياس حيث لا فائدة من
الاعلان والبوح .

ومن الالفاظ ذات الدلالة النفسية - ايضاً - قول الغزولي في رثاء

دمشق :

لهفي على وادي دمشق ولطفه
وشكا الحريق فوادها لما رأت
وتبدل الغزلان بالثيران
نور المنازل ابدلت بدخان
والان صرن كذائب العقيان
فتخضبت منها باحمر قان
كوهت جد اولها حوافر خيلهم
ما ذاك الا تركهم ولجت بها

انه يريد ان يبين فظاعة الاعمال التي ارتكبها جنود التتار بحق
 المدينة واهلها بما ظهر ذلك عن طريق تأثر الوادى والنهر والمنازل
 فقواد المدينة يشكو من حرارة اللهب ومرارة الدخان وما هذه الشكوى
 الا صدى لشكوى فواد الشاعر المشتعل الما وحزنا ، وهذه الجداول التي
 اشمازت من حوافر خيل المغول ثم ولت هاربة بسرعة ، ماهى الا صورة للكراهية
 والخوف الكامنين فى نفس الشاعر ونفوس الناس .

ويعبر ابن شرف القيروانى عن شعوره بالوحشة من ديار القـيروان

المقفرة بقوله :

كواسد قد ازت بهن الضائر	كان الديار الخاليات عرائس
بها وحشة منها القلوب نوافر	اذا اقبل الليل البهيم تمكنت
تجود مرارا بالكلام المقابر	ويمتد عمر الصوت فيها وربما

فقد شبه الديار الزاهرة بعد تجردها من كل مظاهر الزينة والجمال
 بالعرائس اللواتي تهدم جمالهن لتبذلهن ولا همالهن الزينة بسبب كيد
 الضائر لهن ، وكلمة العرائس هنا شفت عما كانت عليه ديار القيروان من
 الجمال والحضارة قبل خرابها . اما الان فالصورة صورة الصمت الموحش
 الذى يزداد وحشة عند ما يوافى الليل بظلامه ، وفي وسط هذه الوحشة
 التي تروع اللب والقلب ليس هناك ما يمكن ان يؤنس الا الكلام ، فاقفل
 الشاعر هذا الباب بعبارة (يمتد عمر الصوت) حيث لاصدى ولا جواب وبذلك
 تستكمل الوحشة حتى تفوق وحشة المقابر .

اما الحصرى القيروانى فيأتى بصورة جديدة لشعوره بالوحشة بعد

خراب القيروان ايضا ، يقول :

فاتبع زفراى فيه انات	ما ان سجا الليل الا زادنى شجنا
الابدت حسراتى المستكنات	ولا تنفست انفا فى الرياض ضحى

وكم دعيت لبستان فجدد لسي وجدا وان كان في معناه سلوات
ولو تراه اذا غنت بلابله اشكو البلابل لو تغنى الشكايات
انى لا نظماً والانهار جارية حولي واضحى ودون الشمس دوحات

انه هنا لا يقف وسط ديار خالية، ولا اطلال صامته، وانما يتجول وسط
الرياض والحدائق الخضرة بين خريف الانهار وشدو البلابل، فهل استمتع
بشيء من ذلك؟ كلا لقد اثارت تلك المناظر اشجانه، فراح يمزج آلامه
ويطلق زفراته، وقد ادى تجانس الالفاظ وتلاؤمها دوره في تجميل الصورة
وتناسقها، فالليل هو كهف الاحزان والهموم - كما هو معروف عند الشعراء -
فقد اطلق فيه الحصرى زفراته واناته، ولكن هذا الشجن هل ينقضى
مع انقضاء الليل؟ لا انه مستمر متجدد، ولذلك جاء بوقت الضحى - الذى
هو وقت النشاط والسرور - وفي الرياض ايضا، ومع ذلك زاد الزفرات حسرات
وشكايات .

ومن الصور الجديدة في الرثاء استخدام عناصر الطبيعة واستغلال
صفاتهما وخصائصهما، كقول ابن اللبانة في رثاء المعتمد بن عباد عند
سقوط امارته :

بكاك الحيا والريح شقت جيوبها عليك وناح الرعد باسمك معلما
ومزق ثوب البرق واكتست الضحى حداد اوقامت انجم الجوافحما
وحارابنك الا صباح وجد افما اتدى وفار اخوك البحر غيضا فما طمي

لقد صنع الشاعر من الاشياء المحسوسة المألوفة لكل الناس - كالرياح
البرق، المطر، النجوم صورة بديعة جعلت الكون كله في مأتم لانقضاء
ملك ابن عباد، فكيف تم له ذلك؟

والجواب انه احسن اختيار الكلمات التي تثير اصواتا متناسقة متجانسة
ووفر لها مجالا ملائما بمقدرته الشعرية وذكاؤه . فالريح تشق الجيوب، وشق
الجيب لا بد ان يرافقه نواح فجعل الرعد ينجح معلما باسم المرثى . واستعمال

صوت الرعد في النواح امر ابتدعه الشاعر ليوافق الشق ، والا فقعة الرعد تقترن عند الشعراء بالصواعق ، وتستخدم في مجال الحرب والقوة وما السى ذلك . ثم يستمر في اكمال صورة المأتم عن طريق سلب الخواص الايجابية للاشياء المستخدمة ، فالبرق يتمزق ثوبه الزاهي فيظلم ، والضحي المشرق والنجوم المشعة تفقد كل قدرة على الاشعاع والاصباح لا يهـدى السارين لما به من الوجد وهكذا .

ومثل هذه الصور المتعددة بالقصيدة الواحدة ، والالفاظ الشعرية الموحية بالمعاني المكثفة تكثر في شعر الاندلسيين بصفة خاصة وتستأثر بكبير عنايتهم مما جعل المستشرق غارسية غوس يقول عنهم :^(١) " وعاشوا اعمارهم مكبلين بقيود القوالب الشكلية الجامدة ، ومن ثم لم يستطيعوا ان يدخلوا على الشعر من التفسير الاشياء تمس المعاني مثلهم في ذلك مثل اترابهم من المشاركة ، فحاولوا ان يعطوا هذه المعاني صورا جديدة عن طريق تقطيرها في انابيب بلاغية ، واغلقوا في ذلك حتى استخرجوا منها تلك الزخارف الشعرية التي تشبه ان تكون قصورا حمراء لفظية ولم يكن هذا الشعر الاندلسي مترعا بالاخيلة فحسب ، بل كان مثقلا بها حمل منها فوق ما يطيق ، بل بلغ من حشد المعاني فيه ان استعصى معظمه على الحفظ والبقاء وكاد يعسر على الفهم الكامل" .

ونحن لاننكر اهتمام شعراء الاندلس باللفظة الشعرية ، وكثرة الصور عندهم الى حد ما ، ولكن ذلك لم يكن الى الدرجة التي يصعب معها فهم القصائد وحفظها ، فالسهولة والوضوح يسمان الشعر الاندلسي ويفلبان عليه ، ونادرا ما تجد فيه مضامين فلسفية تحتاج الى كد ذهن . على ان هذا لايعنى السطحية بحال . ولعل الذي دفع غومس الى رأيه ذاك هو طبيعة الشعر العربي - ومنه الاندلسي - الذي يهتم باستقلال البيت ووحدته ومن هنا كثر الصور والمعاني وتجاورت في غير اندماج كامل .

(١) الشعر الاندلسي : ص ٢٥ .

ويقول ابن اللبانة - ايضا - في بني عباد :

تبكي السماء بدمع رائج غادى	على البهاليل من ابناء عباد
على الجبال التي هدت قواعدها	وكانت الارض منهم ذات اوتجاد
وكعبنة كانت الامال تعمرها	فاليوم لاعاكف فيها ولا بباد
ياضيف اقفر بيت المكومات فخذ	في ضم رحلك واجمع فضلة الزاد
ويامؤمل وادبهم ليسكنه	خف القطبين وجف الزرع الوادى
ضلت سبيل الندى بابن السبيل فسر	لغير قصد فما يهديك من هادى

وفي صورته هنا شبه كبير من سابقتها ، فهي صورة المجد الزائل
والماثر العظيمة التي افتقدت بزوال بني عباد من دنيا الناس . وقد جاء
المطلع مناسباً للمقام لما فيه من الفخامة وقوة الجرس . فالسما تبكى
بدمع مدار لا ينقطع . وقد تعمد الشاعر جعل السماء تبكى وتذرف الدمع
ولم يجعلها تسح السوايل وتسقى الاثار ، وذلك لمناسبة لفظة البهاليل
المججلة بالهالة العظيمة ، ثم يضيف الى البهاليل لفظة اخرى تزيد لها
قوة وهي لفظة الجبال .

ومن الجدير بالذكر ان وصف الميت بانه جبل قديم في الشعر العربي
وبخاصة في شعر النساء لشعورهن بالضعف والحاجة الى الحماية^(١) . ولكن
ابن اللبانة لم يكتف بالسير على طريق السابقين ، وانما جاء بصورة جديدة
اوسع واشمل في المعنى ، وذلك لحسن الموقع الذي اختاره لكلمة الجبال
ومناسبتها لما بعده . فاذا كان الشاعر القديم يصف مرثيه بالجبل لعلاقته
الشخصية به فان شاعرنا جعل بني عباد جبالا حقيقية تثبت الارض وتمنعها
ان تصيد ، ولهذا جاء بعبارة (هدت قواعدها) لتوحى بعظم الخطب وشموله

(١) كقول فاطمة بنت الاحجم في رثاء زوجها :
قد كنت لي جبلا الود بظله فتركتني اضحى باجره ضاح
انظر عبد البديع صقر ، شاعرات العرب : ص ٢٩٦ .

لجميع الناس فذوو الآمال لم يعد لهم أمل يرجون تحقيقه ، والضيوف وابنائه
السبيل تفرقت بهم السبل ، وأوحشتهم المنازل .

ولعلنا نلاحظ الفرق بين هذه الصورة والصورة التي رسمها ابن
حمد يس الصقلي باستخدام لفظ الجبال في رثاء ابن عباد أيضا ، يقول :

ولما رحلت بالندى في الكفكم وقلقل رضوى منكم وشبير
رفعت لساني بالقيامة قد اتت الا فانظروا هذي الجبال تسير

فالالفاظ هنا اقل اشعاعا وايحاءا بمعاني النكبة ، وابن قول ابن
حمد يس (قلقل) ، و (هذي الجبال تسير) من قول ابن اللبانة (على الجبال
التي هدت قواعدها) ان كلمة (قلقل) لاتعطي معنى العنصف
والسحق الذي يستحقه وقف مثل هذا قامت فيه القيامة ، وعبارة (هذي
الجبال تسير) لم تكن متمكنة في موقعها لان الشاعر جاء بها مضطرا ليكمل
معنى الشطر الاول ، اذ لا بد للقيامة من شاهد هو مسير الجبال .
واما قول ابي بكر بن عبد الصمد في الموضوع نفسه :

يا ايها القمر المنير امكـذا يمحي ضياء النير الوقاد
ما كان ظني قبل موتك ان ازـر قبرا يضم شوامخ الاطواد

فقد استعمل لفظ الاطواد بدل الجبال لما فيه من معنى العلو
والفخامة ليناسب الشموخ الذي ازدرده قبر ضيق ، الامر الذي لم يخطر على
بال الشاعر لغرابته . ولعل المنعم للنظر في البيتين يجد تناسبا دقيقا
وخفيا في معنى الرفعة والعلو جاء من قوله " القمر المنير " الذي فيه معنى
العلو والضياء ، وذهب نور القمر ناسب ضم القبر للاطواد الشوامخ .
وهو هنا يذكر القبر لان البيتين من قصيدة قيلت بعد موت ابن عباد
اما قصائد ابن اللبانة وابن حمد يس فقيلت عند ما استولى المرابطون على
الاندلس كلها ، وساقوا بني عباد وغيرهم اسارى الى المغرب .

وإذا ما انتقلنا الى شعر الاستغاثة والاستصراخ نجد الشعراء يستعملون نوعين من الالفاظ : نوع تغلب عليه الفخامة وقوة الجرس عند ما يكن الموقف يتطلب بث الحماس والنخوة في نفس المستغاث به ، واشعاره بقدرته على النجدة ، ونوع آخر طابعه الرقة والسلاسة ، عند ما يقف الشاعر موقف الملهوف المستجدي للفتوح عن طريق تعداد الفواجع والمصائب النازلة ببلاده وقومه .

ومن النوع الاول قول ابن عياش :

وقود وا الى الهيجاء جرد الصواهل	اقيموا الى العليا عوج الرواحل
وشد وا على الاعداء شدة صائل	وقوموا لنصر الدين قومة ثائر
تموت الصبا في شدة المتواصل	فما العز الا ظهر اجرد سابع
علي الماء محبوك وليس بسائل	وابيض ماثر كأن فرند ه
وتحجب عنه الشمس سحب القساطل	بجيش يظل الطير في حجراته
من البيض او من مرهفات المناصل	ويطلع ليل النقع فيه كواكبها
باسمر عسال وابيض ناصل	ويضحى به بحر الدماء مفجرا

فالسجع والتصريح في مطلع القصيدة مع افعال الامر : اقيموا ، قود وا قوموا ، شد وا . . . ذات الاحرف الشديدة اشاعت حالة من الشعور بالقوة تجذب المخاطب جذبا وتدفعه الى الشد على الاعداء . وتستمر الموسيقى قوية والالفاظ فخمة ، للمحافظة على الحالة نفسها فيأتي الشاعر بلفظ (العز) الذي يشتمل على معان كثيرة ، ويجعله ممثلا في الحرب والجهاد . ويرسم من الالفاظ الحربية صورة متحركة نشطة لذلك العز ، فالاجرد السابع يطير صابقا الريح ، والفرد المحبوك ، والابيض الناصل والاسمر العسال تلمع في ليل من القتام وتهوى مفجرة بحر الدماء .

ويقول ابن حمد يس في حث قومه على حرب الاعداء :

يشبهون نيرانها بالوقود	زبانية خلقوا للحروب
لهد الجماجم من عهد هود	مساعدهم مرهقات بنين
اذا ضربوا بخبايا الفمود	هم المخرجون خبايا الجسموم
محاريب مبشوة في الصعيد	تخط حوافر من جرد هم
لها مسجدا ياله من سجود	تخر رؤوس العدى في الوفى

والشاعر هنا لا يستعمل اسلوب الحث المباشر كسابقه ، وانما يلجأ الى اذكاء شاعرهه والهباها عن طريق الوصف الموحى بالقوة والخبرة والشجاعة ، فهم زبانية حروب . وهذه اللفظة تحمل معنى الامتزاز ولهذا جاء بعدها بعبارة " خلقوا للحروب " التي يتبادر الى الذهن عند سماعها طائفة من معانى الاعتياد والممارسة وعدم الرهبة . . . الخ ولمناسبة كونهم زبانية جاء بلفظ مساعده وجعلهن مرهقات تهد الجماجم لترتبط بلفظ الحروب ، ولتكتمل صورة الممارسة والخبرة الحربية جاء بمظهر من مظاهر قوة الفرسان تلك هي الخيل الجرد التي تحفر الصعيد بحوافرها على شكل محاريب تسجد فيها رؤوس الاعداء . ولفظة محاريب اعطت لحوافر خيلهم صفة الصلابة والقوة التي تناسب الجو العام للابيات .

ومن النوع الثانى سينية ابن البار فى الاستنجاد بالامير الحفصى ومنها:

ان السبيل الى منجاتها درسا	ادرك بخيلك خيل الله اندلسا
قلم يزل منك عز النصر ملتصبا	وهب لها من عزيز النصر ما التصت
فطالما ذقت البلوى صباح مسا	وحاش ماتعانيه حشاشته
للحادثات وامسى جدها تعسا	يالجزيرة اضحى اهلها جزرا
ابقى المراس لها حبلا ولا مرسا	صل حبلها ايها المولى الرحيم فما
احييت من دعوة المهدي ما طمسا	واحبي ما طمست منها العداة كما
وانت افضل مرجو لمن يثسا	هذى رسائلها تدعوك من كسب

فالشاعر هنا يقف فزعا مرعوبا امام الامير الحفصي ، ويحاول ان يثير عاطفته بالمثير المناسب، فلم يجد افضل من البداية بشرح الحالة الراهنة التي تستدعي علاجاً فورياً ، فقال : (ادرك بخيلك) ، ثم جعل هـذ ه الخيل هي خيل الله ليعطيها صفة الاستعداد للدفاع عن ارض المسلمين اينما كانت ، ويتبع ذلك بقوله : (هب لها من عزيز النصر) ولفظ هب يوحي بقدره الامير علي منح النصر بسهولة . ثم تخفت الموسيقى بعد ذلك وتشرق الالفاظ لتناسب المجال الذي يحلق فيه الشاعر فنجد الكلمات : حاش حشاشتها ، البلوى ، جزرا للحادثات حيث نقف من خلال اشعاراتها على المعاني الجزئية الكثيرة التي تتدافع لتكون صورة البلاء الشامل المستمر الذي لاينجلي الابنجدة الامير ، فيقول الشاعر في استعطاف وخضوع (صل قلبها ايها المولى الرحيم) والوصل فيه معنى المودة والعطف ، ولا يكون الا من قادر علي ضعيف فناسب ان يخاطبه بلفظ المولى الرحيم .
واما لسان الدين بن الخطيب فيسلك مع المستغاث به سبيل المدح حين يقول :

قصد ناك ياخير الملوك علي النوى	لتنصفنا فما جنى عبدك الدهر
كفنا بك الايام عن غلوائهم	وقد رابنا منها التعسف والكبر
ولما اتينا البحر يهرب موجاه	ذكرنا نذاك الفجر فاحتقر البحر
ووصفك يهدى المدح قصد ثوابه	اذ اضل في اوصاف من د وطك الشعر

فالابيات كلها مدح ، ولعل ابن الخطيب وجد ان المدح هو الطريق الامثل لهز اريحية ذلك الملك ، فجعله صورة متكاملة للعظمة ، فلعزته القى الدهر بالقياد ، وهذه صورة جديدة للدهر ، ففيما مر بنا من شعر رأينا الدهر هو المتسلط الذي يسدك عروش جبابرة الملوك ، اما هنا فهو عبء يقتص منه سيده انصافا لعن ظلمهم ، وقد مهد الشاعر لهذه الصورة بانتقاء الفاظ الشطر الاول ، فقوله (قصد ناك ، علي النوى) يدل علي اصطفاؤه

لذلك الملك من بين ملوك الدنيا على الرغم من بعده، ثم يستمر في بسط
الاصاف التي ليست في مقدور البشر كقوله : (كففنا بك الايام) ،
(ذكرنا نداك الغمر فاحتقر البحر . . .) (ووصفك يهدى المدح . . .) وهو
يريد من ذلك افراد هذا الملك بصفات لا يستطيع احد بلوغها، ومن ثم فلا قوة
تقف في طريقه، فهو اذن خير منجد للمستفيين وذلك هو مطلب الشاعر .

المبحث الثالث: الاوزان والقوافي

الموسيقى الشعرية عصب حيوي في بناء اسلوب القصيدة العربية، وتلاحم اجزائه، فهي تمتزج بالالفاظ امتزاجا يصعب معه الفصل بينهما، وممن حقهما ان يدرسا معا، ولكننا فصلنا بينهما هنا لامر تقتضيه الدراسة التفصيلية فحسب. والدارس للشعر العربي يدرك قيمة الجرس الناتج عن وقع اللفظة في الاذن وكيف يزيد موسيقى القصيدة جمالا وقوة. ومن هنا جاءت عناية الشعراء ببعض المحسنات البدعية كالجناس والمقابلة ورد العجز على الصدر اكثر من غيرها، وذلك لما فيها من رنة موسيقية ذات تأثير حسن وبخاصة اذا جاءت عفوية. فما الجناس الا تفنن في طرق ترديد الاصوات في الكلام حتى يكون له نغم موسيقى تستلذه الاسماع، اما المقابلة فلها دورها في شد اواصر التناسق الموسيقي حينما تعمل على توازن كل لفظ مع اللفظ المقابل له في العبارة التالية. وكذلك في رد العجز على الصدر الذي يقوم على ترديد كلمة او كلمات بعينها في صدر البيت وعجزه. فانه بالاضافة الى اظهار العناية بالكلمة المكررة لفظيا ومعنى يزيد من رنة الاوزان. كقوله ابن البار:

صل حبلها ايها المولى الرحيم فما اُبقى المراس لها حبلًا ولا مرسا

فترديد كلمة (حبل) في الشطرين زاد نغمة البيت، ومهد للقافية (مرسا) التي هي بمعنى الحبل ايضا.
وقول ابن شهيد:

ما في الطلول من الاحبة مخبر فمن الذي عن حالها نستخبر

وغير ذلك كثير. . . واحيانا يستعين الشاعر بتكرار بعض الحروف، او الكلمات التي تكسب البيت لونا من الموسيقى تستريح له النفس وتقبل عليه

كثرت حرف السين في شطر بيت البحترى - مثلا . " صنت نفسي عما يدنس
نفسى " فانه رغم كثرة وروده قد حسن موسيقى الشطر لكونه وقع فى
مواضع موفقة منه من غير تعمد من الشاعر اوان النظم .

وفى الغالب يتحقق نجاح الشاعر عندما يوفق لبحر يلائم معانيه
والفاظه ، لانه قد حصل بذلك تكامل بين اجزاء القصيدة الرئيسية . فالسى
اى مدى تحقق هذا التكامل فى شعر رثاء الدول والامصار ؟ انه من
الاستعراض الشامل لاوزان القصائد والمقطوعات الرثائية التى وردت فى هذا
البحث ، تبين ان اكثر البحور التى ركبها شعراء المراثى كانت من ذات الازان
الطويلة ، والتفاعيل الكثيرة كالبهر الطويل ^(١) والبسيط ^(٢) وغيرهما ، فقد جاءت على
البحر الطويل اربع وعشرون قصيدة ، وعلى البسيط ثلاث وعشرون ، وهذان
البحران من دائرة عروضية واحدة ^(٣) .

ويليهما فى نسبة الشيوخ البحر الكامل ^(٤) ، والواقر ^(٥) فعلى الكامل
جاءت ثمانى عشرة قصيدة وعلى الواقر سبع قصائد ، وهما ايضا من دائرة
عروضية واحدة . ثم بعد ذلك تتفرق القصائد على عدد من البحور كالحفيف ^(٦)
والمقارب ^(٧) والرجز ^(٨) والسريع ^(٩) . . . بنسب متفاوتة ولكنها اقل عددا مما تقدم

-
- (١) وزن البحر الطويل :
فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن
فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن
- (٢) وزن البحر البسيط :
مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن
مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن
- (٣) ابن عبد ربه ، العقد الفريد : ١٦٣ / ٣ ، عبد العزيز عتيق ، علم
العروض والقافية : ٢٦
- (٤) وزنه : متفاعلن متفاعلن متفاعلن
متفاعلن متفاعلن متفاعلن
- (٥) وزنه : مفاعلتن مفاعلتن فعولن
مفاعلتن مفاعلتن فعولن
- (٦) وزنه : فاعلاتن مستفعلن فاعلاتن
فاعلاتن مستفعلن فاعلاتن
وجاءت عليه تسع قصائد .
- (٧) وزنه : فعولن فعولن فعولن فعولن
فعولن فعولن فعولن فعولن
وجاءت عليه اربع قصائد .
- (٨) وزنه : مستفعلن مستفعلن مستفعلن
مستفعلن مستفعلن مستفعلن
وعليه خمس قصائد .
- (٩) وزنه : مستفعلن مستفعلن فاعلن
مستفعلن مستفعلن فاعلن
وعليه ثلاث قصائد .

ولم تستخدم مجزوات البحور الا على نطاق ضيق جدا حيث جاءت عليها مقطوعتان فقط الاولى من مجزوة^(١) الرمل ، والثانية من مجزوة^(٢) البسيط .

وامام هذه الظاهرة لا بد ان نتساءل ، هل يمكن ان توجد علاقة بين انفعالات الشاعر النفسية ووزن قصيدته ؟

ان نظرة فاحصة للحالة التي يكون فيها الشاعر تكشف عن وجود مثل هذه العلاقة ، فالشاعر الذي يشهد مدينته وهي تتحطم وتنهار على ايدي الاعداء ، تتحطم في نفسه كل الامل ، وتسود الحياة في عينيه ، ويصبح عيشه في دوامة مضطربة من الهم والحزن والالم . ولهذا فهو بحاجة الى وزن طويل يتسع لما في صدره من انات وزفريات يود اطلاقها ليشفي نفسه من احراقها فيأتي شعره من البحر الطويل او البسيط الذي يمكنه مع انشادها التأوه واعادة النفس بعد كل بيت او في وسطه . كقول المعتمد بن عباد من الطويل :

غريب بارض المغربين اسير سيبكي عليه منبر وسريـر

اننا نتصوره هنا وقد جلس مكتئبا ينظر في حاله ، فاذا هو غريب اسير وتمتد به الذكرى فمرى منبره وسريره يبكيانه في صفار يائس . وهنا لا بد ان تكون حالته هذه ، وذكراه تلك قد ولدتا في نفسه سلسلة طويلة من الهموم والاحزان لا يحتملها البحر الطويل ، ومن هنا جاء نجاح القصيدة وقوة تأثيرها .

وقوله ايضا من البحر نفسه :

بكيت الى سرب القطا اذ مورن بي سوارح لاسجن يععوق ولا كبل

(١) وزنه : فاعلاتن فاعلاتن
(٢) وزنه : مستفعلن فاعلن مستفعلن

فهو يبكي من هول سجنه وقيده عندما اثار شجنه سرب من القطا تطبيق
يمرح في الفضاء الرحب . فالمفارقة الكبيرة الحاصلة من الموقفين شحنت نفسه
بالآلم محرقة قذفها في البحر الطويل ايضا .
واما الهراق عندما يقول :

من ذا اصابك يا بغداد بالعين الم تكوني زمانا قرة العين

فهو في حالة ذهول وتعجب مصحوبين بالاحزان السوداء لما اصاب
بغداد من الخراب بعد ان كانت "قرة العين" زمنا طويلا ، وعبارة قرة العين
تحمل معاني كثيرة عند تدقيق النظر فيها . ولهذا جاء البحر البسيط لتحمل
عليه هذه المعاني بكل ما تشيره من انفعالات هادئة .

ويزيد الدكتور ابراهيم انيس الامر تفصيلا بقوله :^(١) " اننا
نستطيع ونحن مطمئنون ان نقرر ان الشاعر في حالة اليأس والجزع يتخير عادة
وزنا طويلا كغير المقاطع يصب فيه من اشجانه ما ينفس عنه حزنه وجزعه ، فاذا
قيل الشعر وقت المصيبة والهلع تأثر بالانفعال النفسي ، وتطلب بحرا قصيرا
يتلأم وسرعة التنفس وازدياد النبضات القلبية ، ومثل هذا الرثاء الذي ينظم
ساعة الهلع والجزع لا يكون عادة الا في صورة مقطوعة قصيرة لا تكاد تزيد
ابياتها عن عشرة . اما تلك المراثي الطويلة فاغلب الظن انها نظمت بعد
ان هدأت ثورة الجزع واستكانت النفوس باليأس والهم المستمر" .

ثم يشير الى ان الانفعال النفسي الحاد الذي يصاحب الشعر
الداعي الى شن حرب لا يمكن الشاعر من الاسترسال واطالة القصيدة^(٢) .

و اول مايلفت النظر في كلام الدكتور انيس انه يقرر ان الشاعر في حالة
اليأس والجزع يتخير عادة وزنا طويلا كغير المقاطع . . . الخ فهل الشاعر هو
الذي يختار البحر قبل ان ينظم ؟ ثم يختار المعاني والالفاظ المناسبة

(١) موسيقى الشعر : ١٧٨ .

(٢) المرجع نفسه : ١٧٩ .

اختياراً ؟ في نظري ان هذا الاختيار هو عمل المتكلمين من الشعراء ، اما الشعراء المطبووعون ذوو التجربة الصادقة فان الانفعال يقذف ما يجيش في صدورهم على السنتهم بشكل كلام موزون على احد بحور الشعر . وللشاعر بعد ذلك ان ينقح ويصحح ويستبدل بالالفاظ غيرها كما يشاء اما البحر فيبقى وزنه كما ولد .

وقوله بان الاوزان الطويلة تناسب النفس الهادئة الياسة ينطبق على كثير من قصائد الرثاء التي نحن بصدد ها واما ما يقرره بان الشعر السذى يتأثر بالانفعال النفسى يتطلب بحراً قصيراً ، وان الفظ حينئذ لا يكون الاعلى شكل مقطوعة قصيرة فهذا لم ينطبق تماما على المواقف الشعرية الانفعالية في القصائد التي وقفنا عليها . فهذا ابن اللبانة شاعر المعتمد بن عباد المنقطع اليه ، يشهد عن كعب سقوط دولة سيده الذى احبه حبا جما ويبلغ الانفعال عنده ذروته وهو يقف مع الواقفين على شاطئ النهر ينظر بعين منكسرة الى ملكه الذى القى في السفينة اسيراً مكبلاً ، وفي ذلك قال قصيدته التى مطلعها :

تلكى السماء بدمع رائج غادى على البهاليل من ابنا عباد

وهى من البحر البسيط ذى التفعيلات الثمان ، وقد نيفت على الخمسين بيتاً ، وكذلك قصيدة ابن الابار السينية التى قالها امام الامير الحفصى والرعب ملء جوانحه وفرائصه ترعد من هول ماتعانيه مدينته بلنسية على يد الصليبيين ومع ذلك جاءت القصيدة من بحر البسيط وقد بلغت اكر من سبعين بيتاً ومطلعها :

ادرك بخيلك خيل الله اندلسا ان السبيل الى منجاتها درسا

وقصيدة لسان الدين بن الخطيب التى انشدها مستنجدا باهل المغرب عندما اشتد الحصار النصراني لما تبقى من الاندلس فى اواخر ايامها والتي بدأها بقوله :

اخواننا لاتنسوا الفضل والعطفا فقد كاد نور الله بالكفر ان يطفا

وهى من بحر الطويل وواياتها تزيد على الثلاثين ، وكان ابن الخطيب فى ذلك الوقت وزير الاندلس المشار اليه ، ومن تسمه الذكبة مسا مباشرا وقصيدة ابن الابار وابن الخطيب - كما هو ملاحظ - فيها دعوة ملحة لشحن الحرب على الاعداء ، ومع ذلك اصطبغت بطول النفس والامتداد . ولعل سبب ذلك ان النفس حينما تنفعل تهيجش بمعان وصور كثيرة تتدافع متدفقة لتمد الشاعر بقوة الاستمرار والاندفاع ، ولربما نظم الشاعر قصيدة طويلة قبل ان يهدأ ذلك الجيشان وينضب فيضه .

وكانى بالدكتور انيس قد احس بعدم شمول قواعده المتقدمة فعقب على عباراته السابقة بقوله :^(١)

" ويحسن بعد كل هذا الانفرض قواعد معينة يلتزمها الشاعر فى تخير وزن من الازان تحت تأثير عاطفة خاصة ، وعلى ناقد الادب ان يبحث هذا بحثا مستقلا فى كل قصيدة "

على انه من الانصاف ان نشر هنا الى المقطوعتين اللتين سبق ذكرهما فقد انطبقت عليهما تقريبا قاعدة الدكتور انيس من حيث الوزن وعدد الابينات . فالاولى للوراق الشاعر البغدادي الذي شهد بغداد وهى تحترق فى فتنة الامين والمأمون ، ورأى الناس يقتلن بعشوائية همجية فيقف صارخا فى رماة المنجنيق بانفعال عنيف :

لكم غير شفيق
كان اوفير صديق
مون مرار الطريق

يارماة المنجنيق
ماتبالهن صديقا
ويلكم تدرن ماتر

(١) المرجع نفسه : ٢٨٠ .

والمقطوعة لم تتجاوز ثلاثة أبيات وهي من مجزوء الرمل ، ونحس فيها
فعلا حدة التعنيف الذي تزداد معه ضربات القلب .

والمقطوعة الثانية لفتى من فتیان بغداد - ايضا - هاله ان يرى سقلية
الناس واوباشهم يملكون زمام الامور ، فيفرضون الضرائب ويهجمون على
البيوت الآمنة لسلب كل ما يقع تحت ايديهم من مال ومتاع، وكان احد زعماء
تلك الفئة يعرف بالهرش وجامع الضرائب يعرف بزريح وفيهما وفي اعمالهما
التي ارغمت الناس على الهرب من اوطانهم متعللين بشتى الاعذار يقول
شاعرنا :

اظهروا الحج وماينوونه	بل من الهرش يريد من الهرب
كم اناس اصبحوا في غبطة	وكل الهرش عليهم بالعطب
كل من راد زريح بيتيه	لقى الذل ، ووافاه الحرب

وهي ايضا ثلاثة ابيات ، ومن مجزوء البسط . ولاشك ان الشاعر يصدر
عن انفعال قوى وحقيقي ، اذ انه واحد من اولئك الناس الذين حل بهم البلاء
واجبروا على دفع المغارم دهن ذنب او جريرة .

اما بالنسبة للقوافي فليس ثمة نظام معين في استخدامها ، فقد
استعملت معظم حروف الهجاء غير انه من الملاحظ اكثر الشعراء من استخدام
القافية المكسورة ، مع تعدد احرف الروي ، كالقاف والراء والسين والنون . . . الخ
وقد بلغ عدد القصائد ذات الروي المكسور سبعا واربعين قصيدة ويلسى
ذلك الروي المصحوب بالف الاطلاق حيث استعمل خمس عشرة مرة اما الروي
المضموم فاستخدم مايقرب من اربع وعشرين مرة ، وابتعد الشعراء عن القوافي
الساكنة الا قليلا ، لانها توحى بالجفاف والصمت الذي لا يوافق حال الشاعر
المتفجع .

ولعل تفضيل الشعراء للكسر راجع الى الانكسار الذي اصاب انفسهم
من جراء الحوادث التي عاشوها وتمثلوها ، لان الكسرة عندما تأخذ امتداد
حرف الروى تطفه وتجعله مستساغا ، ولو كان في طبيعته شيء من الثقل
كحرف القاف^(١) مثلا . اذ الى ذلك ان الصوت الناتج من اشباع الكسرة فيه
معنى الانين والتفجع الذي يلائم موضوع الرثاء .
اما الف الاطلاق فانها تعين الشاعر على مد صوته صارخا مستغيثا
او باكيا منفعلا يحاول تعميم ما يشعر به من حزن والم على جميع من يسمعه .

(١) كقول الشاعر :
بكيت دما على بغداد لما
فقدت غضارة العيش الانيق

المبحث الرابع : الاقتباس والتضمين

يكثر شعراء رثاء الدول والامصار من الاقتباس من القرآن الكريم والحديث الشريف، كما يهتمون بتضمين الابيات الشعرية والحوادث التاريخية وتبرز هذه الالوان في شعر الاندلسيين بروزا يفوق شعر المشرق بـكثير وذلك راجع لسببين فيما اعتقد :

اولهما : ان قرب الاندلس من العدو، واستمرار الجهاد فيها ساعد على بروز الناحية الدينية في شعرهم، فطفق الشعراء يحضون على الجهاد ويولفون القلوب، ويحذرون من التفريط في بلاد الاسلام، مستمدين ذلك من آيات القرآن واحاديث الرسول - صلى الله عليه وسلم - .

وثانيهما : ان اسلوب الشعر الاندلسي او الادب الاندلسي بعامة كان يقم على فكرة الاقتباس والتضمين، والخصوص في التراث التاريخي الاسلامي وغير الاسلامي للاستفادة من احداثه الحقيقية والخيالية حينما يناسب مجال القول . كما كان الاحتفاء بالابيات الشعرية المشرقية والقصائد الذائعة احد مقومات ذلك الاسلوب، ومن هنا كبرت المعارضات الشعرية، واشتهر تخميس القصائد المشهورة وشرحها وما الى ذلك . وقد كان النقاد الاندلسيين يحكمون بالجودة والسبق للاعمال الادبية التي تحفل بالشيء الكثير من تلك الالوان لانها تكشف عن ابعاد ثقافة الاديبي في مجالات متعددة، وكان النظرة هنالك كانت للاديب لا للادب نفسه . وخير ما يمثل ذلك قصيدتا ابن عبدون وابي البقاء الرندي ورسالتا ابن زيدون الجديدة والهزيلة . فاذا كان هذا هو حال الادب بصفة عامة، فما بالك بالشاعر الذي يرثى ببلاده المقهورة الغاربة، ويبكي امته المتشردة الهالكة او يقف امام الملوك والسلاطين طالبا عونهم ونجدتهم . لاشك انه سينثر كل مافي كنانته من ثقافة اسلامية وتاريخية وشعرية ليظفر بالتأثير المنشود ، واي تأثير هو اشد من تأثير القرآن الكريم على النفوس المسلمة، ولهذا نجد الشاعر الاندلسي يستعمل التعبير القرآني، ويستوحى معانيه على وجوه مختلفة :

ففي حالة الاعتبار من تقلب الدهر يقول الشاعر الدقون :

فلنكرم الان من ينزل بمنزلنا
والزهد في هذه الدنيا وزخرفها
فالدهر ذو دول فاسمع لامثال
والامر بالعرف مع تحسين مقال

فهو هنا يخاطب اهل مدينة فاس، بعد ان وصل اليها الاندلسيون
لاجئين ، حين تم سقوط الاندلس، داعيا اياهم الي الاحسان لهؤلاء
المشردين ، فلا يجد افضل من التذكير بمصائب الايام التي لا يؤمن جانبها
وهو بذلك يستوحى قوله تعالى :^(١)

(ان يعسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله ، وتلك الايام نداولها بين
الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين) .
وقوله تعالى :^(٢)

(وتلك الامثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون) .

واما البيت الثاني الذي يدعو فيه لالانة الجانب والسماحة ، وطيب
الكلام فمأخذ و من قوله تعالى :^(٣)

(خذ العفو وامر بالعرف واعرض عن الجاهلين) .

وعند ما يعتبر الشاعر ايضا بفناء الاشياء العظيمة يلجأ الي القرآن الذي
فيه خير من قبله ، فيجد بغيته .
يقول حازم القرطاجني :

قد اهلك الاحبوش طير قد رمى
وهو قد ما هدد بنبأ
جيوشهم بمكة بما رمى
ما كان هداد لبلقيس ابنتي

وهو هنا يشير الي قدرة الله المطلقة على فعل ما يشاء ، فهو سبحانه-

(١) سورة آل عمران ، الاية : ١٤٠

(٢) سورة العنكبوت ، الاية : ٤٣

(٣) سورة الاعراف ، الاية : ١٩٩

يسلط على الجبابرة المتفطرسين عذابا مهلكا بواسطة اضعف جنده كقصّة
ابرهة الحبشى الذى اراد غزو الكعبة معتزا بجيشه وقوته فرماه الله بطير تقذفه
بحجارة صغيرة حتى تمزق ذلك الجيش وياء بالخسران .

يقول تعالى : (١) الم تر كيف فعل ربك باصحاب الفيل . الم يجعل
كيدهم فى تضليل . وارسل عليهم طيرا ابابيل ترميهم بحجارة من سجيل .
فجعلهم كعصف مأكول .

وفى البيت الثانى يشير الى قصة سليمان عليه السلام مع بلقيس ، وكيف
استطاع الهدد - بامر الله - ان يكون سببا فى تدمير مملكة بلقيس على
ضخامتها وعظم بنائها . (٢)

واحيا انا يحاول الشاعر طرد اليأس من نفسه ونفوس السامعين ، ويأخذ
فى بث شىء من الامل فى النصر والرجوع الى الوطن الذى اخرج منه
فيجد فى الايات الطريق الذى يجب اتباعه لمن اراد تحقيق ذلك . يقول
الشاعر الجاهل :

يمين هدى ان تتقوا الله تنصروا وتحظوا بامل يشوق غيرها
فلا يخذل الرب المهيمن امة تدين بدين الحق وهونصرها

فقله مستوحى من قوله تعالى : (٣) يا ايها الذين آمنوا ان تنصروا الله
ينصركم ويثبت اقدامكم) . ومن قوله تعالى : (٤) ان الله مع الذين اتقوا والذين
هم محسنون .

ويقول لسان الدين ابن الخطيب :

رويدك بعد العسر يسرا ابشرى بانجاز وعد الله قد ذهب العسر

(١) سورة الفيل .

(٢) انظر سورة النمل : الايات : ٢٠ - ٤٤

(٣) سورة محمد ، الاية : ٧

(٤) سورة النحل ، الاية : ١٢٨

وهو مستمد من قوله تعالى: (١) فان مع العسر يسرا ان مع العسر يسرا)
واحتذاء لقول عمر - رضي الله عنه - : " . . . انه لن يغلب عسر يسرين " .
ويحاول الحصري القيرواني من خلال رثائه للقيروان ان يدافع بأسه
ببيان تغير احوال الدنيا ، فليس بمحال اذن ان ترجع بلده القيروان الي
عهد ها السابق من العز والحضارة ؛ يقول :

ولم يزل قابض الدنيا وباسطها فيما يشاء له محو واثبات

وهو يستضيء بقول الله تعالى: (٣) (يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنه
ام الكتاب) .

ويستمد الشعراء - ايضاً - من القرآن الكريم معاني مؤثرة عند ما
يصفون ما حل بالناس من حولهم من بلاء او حينما يصفون خراب المدن
وافعال الاعداء بها ، يقول الخريمي عن اهل بغداد :

كأنما اصبحت بساحتهم عاد ومستهم صراصرها

فأى صورة للاهلاك الشامل ابلغ من تصوير القرآن لمصرع عاد الذي
يحتذيه الشاعر هنا . يقول تعالى: (٤) (واما عاد فاهلگوا بریح صرصر عاتية .
سخرها عليهم سبع ليال وثمانية ايام حسوما فتري القدم فيها صرعي كأنهم
اعجار نخل خاوية . فهل ترى لهم من باقية) .

ويقول ابن شرف القيرواني في وصف حالة اهل القيروان ومالاته ممن
العذاب الحسي والنفسي :

-
- (١) سورة الانشراح ، الاية : ٦٥ ، ٦٤
 - (٢) الامام مالك ، الموطأ ، كتاب الجهاد : ٤٤٦ / ٢ .
 - (٣) سورة الرعد ، الاية : ٢٩
 - (٤) سورة العاقه ، الاية : ٦ - ٨

بعد يوم كأنما حشر الخلق —————
 ولهم زحمة هنالك تحككي
 وعجيب وضجة كضجيج الـ
 ق حفاة به عواري رجلي
 زحمة الحشر والصحائف تتلي
 خلق يبكون والسراير تبلي

وهو يستمد في وصفه هذا من وصف القرآن الكريم والحديث الشريف
 لاهوال يوم القيامة حيث الموقف الرهيب في المحشر وتطير صحف الاعمال
 وغير ذلك . يقول تعالى : (١) (يوم تبلى السرائر) . ويقول - ايضاً - : (٢) واذا
 الصحف نشرت) ويقول الرسول - صلى الله عليه وسلم - : (٣) " يحشر الناس يوم
 القيامة حفاة غرلاً (٤) . . . الحديث" .

وفي وصف الاعداء وغدرهم يقول ابن رشيح القيرواني :

نقضوا العهد المبرمات واخفروا ذم الاله ولم يفوا بضمنا

فالفدر ونقض العهد واخفار الذم من صفات الكافرين التي بينها
 القرآن الكريم بقوله : (٥) (كيف وان يظهروا عليكم لا يرتبوا فيكم الا (٦) ولا ذممة
 يرضونكم بافواههم وتأبى قلوبهم واكفرهم فاستقن) . ويقول تعالى : (٧) ان شر
 الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون . الذين عاهدت منهم ثم
 ينقضون عهدهم في كل موة وهم لا يتقن) .
 ويقول ابن العسال :

جاسوا خلال ديارهم فلمهم بها في كل يوم غارة شعواء

-
- (١) سورة الطارق ، الاية : ٩
 (٢) سورة التكويم ، الاية : ١٠
 (٣) صحيح البخاري ، كتاب الرقاق : ٨ / ٩٢ .
 (٤) غرلاً : غير مختونين . اللسان (غول) .
 (٥) سورة التوبة ، الاية : ٨
 (٦) الال : العهد والقراة . الصحاح (ألل) .
 (٧) سورة الانفال ، الاية : ٥٥ - ٥٦

(١) وعبارة "جاسوا خلال ديارهم" هي عبارة قرآنية وردت في قوله تعالى
 (فاذا جاء وعد اولاهما بعثنا عليهم عبادا لنا اولي بأس شديد فجاسوا
 خلال الديار وكان وعدا مفعولا) .

وهي تحمل معنى شا ملا للقهر والتدمير لايتأتى لغرها .
 ويقول الشاعر الاندلسي المجهول في وصف حالة المدن الاندلسية
 التي استباحها العدو :

فانفسها في الصعق دون افاقة كنفس كليم الله اذ دك طورها

فهو يستأنس هنا بقصة سيدنا موسى - عليه السلام - حينما ذهب
 لميقات ربه والتي اوردها القرآن الكريم يقول تعالى : (٢) (ولما جاء موسى لميقاتنا
 وكلمه ربه قال رب ارني انظر اليك قال لن تراني ولكن انظر الى الجبل
 فان استقر مكانه فسوف تراني فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى
 صعقا فلما افاق قال سبحانك تبت اليك وانا اول المؤمنين) .

وكلمة الصعق توحى بعظم الخطب وجلال الموقف الذي لا تحتلمسه
 النفس، واذا كان موسى - عليه السلام - قد افاق من صعقته فان الشاعر جعل
 لتلك المدن المنكوبة انفسا لا تفيق ابدا .

اما شاعر طليطلة المجهول - ايضا - فيقول في وصف الهزيمة النفسية
 والخور الذي اصاب الناس :

ونلقى واحدا ويفر جمع كما عن قانس فرت حمير

وهو ينظر في هذا الى قوله تعالى في وصف الكافرين : (٣) (فمالهم عن
 التذكرة معرضين . كأنهم حمر مستنفرة . فرت من قسورة) . (٤)

(١) سورة الاسراء، الاية : ٥

(٢) سورة الاعراف، الاية : ١٤٣

(٣) سورة المدثر، الاية : ٥١

(٤) القسورة : الاسد، او الماهر من الصيادين . الصحاح (قسر) .

وفي مواقف الاستغاثة والحث على الجهاد يبرز عند الشعراء الاهتمام
بسور القتال كسورة التوبة وسورة محمد - عليه الصلاة والسلام - حيث فيهما
التفاصيل الكثيرة عن الجهاد واحكامه مما يتيح المجال للشاعر ليبدى في
تلك المعاني ويعيد اذ هو في موقف يحتاج معه الى كل مؤثر يصس القلوب
ويثير المشاعر . يقول ابن سهل الاندلسي :

ان الاله قد اشترى ارواحكم بيعوا ، ويهنكم ثواب المشتري

والبيت فيه حض شديد على الاقدام ، والموت في سبيل الله طلبا
لما اعده - تعالى - من التكريم للشهيد في جنات النعيم . يقول سبحانه :
(١)
(ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم واموالهم بان لهم الجنة يقاتلون في
سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا في التوراة والانجيل والقرآن ومن اوفى
بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم) .
ويقول ابن البار للامير الحفصي :

طهر بلادك منهم انهم نجس ولا طهارة مالم تفسل النجسا

والبيت يشتمل على التعبير القرآني الذي يصف المشركين بانهم نجس
بكل ما تحمله هذه الكلمة من معاني النجاسة الحسية والمعنوية . يقول
تعالى : (يا ايها الذين آمنوا انما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام
بعد عامهم هذا وان خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله ان شاء ان الله
عليم حكيم) . والشاعر عندما يصف الاعداء بانهم نجس يبعث في نفس الامير
حماسة قوية لاسراع في ازالة هذا النجس الذي ماخالط شيئا الا افسده .
اما شاعر طليطلة فيدعو بالحاح الى الحرب ونبذ السلم لان الحرب
وحدها هي الكفيلة برد الحقوق الى اصحابها . يقول :

(١) سورة التوبة ، الآية : ١١١

(٢) سورة التوبة ، الآية : ٢٨

ولا تجنح الى سلم وحارب عسى ان يجبر العظم الكسير

والبيت مستمد من قوله تعالى: (١) (فلأتتهنوا وتدعوا الى السلم وانتم الاعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم) . ونلاحظ ان الآية التي يعتضد بها الشاعر تؤيد موقفه اشد التأييد فهي تسمى الدعوة الى السلم في الوقت الذي يحتاج الى الشدة مهانة، والشاعر كان في موقف ليس له علاج الا الحرب فقد سقطت طليطلة ومسح النصارى كل معالمها الاسلامية واتخذوها عاصمة فأى سلم يمكن ان يعيد تلك المدينة الى حيز الاسلام ؟؟

ويخاطب ابن المرابط سلطانه مذكرا له بان يتزود بالاعمال الصالحة في هذه الحياة لانه مقبل على سفر طويل يحتاج الى زاد وافر . يقول :

او ما علمت بانه لا بد من زاد لكل مسافر فتزود
سفر عليك طويل ايامه لم تستعد لطوله فاستعدد

وهو متأثر بقوله تعالى: (٣) (وتزودوا فان خير الزاد التقوى واتقون يا اولى الالباب) .

ثم يبين من اين يكتسب هذا الزاد بقوله :

هذا الجهاد رئيس اعمال التقى خذ منه زادك لارتحالك تسعد
فالجار كان به يوصى المصطفى جبريل حقا في الصحيح المسند

والبيت الاول مستمد من حديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الذي يرويه معاذ بن جبل رضى الله عنه - ومنه: (٤) . . . قال الا اخبرك برأس الامر كله وعموده وذروة سنامه ؟ قلت بلى يا رسول الله ، قال : رأس الامر

(١) سورة محمد ، الآية : ٣٥

(٢) يتركم : ينقصكم . الصحاح (وتر) .

(٣) سورة البقرة ، الآية : ١٩٧

(٤) الجامع الصحيح ، كتاب الايمان : ١٢/٥ ، احمد بن حنبل ، المسند :

الاسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد الحديث). رواه الترمذى وقال حسن صحيح . وذروة سنامه اعلى شىء فيه ومن هنا قال الشاعر عنه :
رئيس اعمال التقى .

اما البيت الثانى فاستلهم من حديث ابن عمر -رضى الله عنهما - قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (١) : (ما زال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت انه سيورثه) .

ولقد استغل الشاعر مجاورة الاندلسيين لاهل المغرب الاقوياء فاخذ يضرب على هذا الوتر الحساس من خلال ايراد الاثار النبوية، والايات القرآنية التى تبين عظم حقوق الجار ووجوب نصرته .
ثم يبين مصير المجاهدين فى سبيل الله، وهو الافضاء الى احدى الحسينين : الشهادة او النصر . يقول :

وارضوا باحدى الحسينين واقرضوا حسنا تفوزوا بالحسان الخرد

وبيته ستة مد من قوله تعالى : (٢) : (قل هل تربصون بنا الا احدى الحسينين الاية) . ومن قوله تعالى : (٣) : (من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له اضعافاً كثيرة والله يقبض ويبسط واليه ترجعون) .
ويقول ابن المرحل حاضاً اهل المغرب على نصره الاندلس :

فاسترحمتكم فارحموها انه لايرحم الرحمن من لايرحم

فالشاعر يستعطف القلوب ويسترجمها فلا يجد ابلغ من حديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى التأثير على النفوس التى ترجو رحمتهم (٤) والحديث : عن اسامة بن زيد قال ، قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - :

-
- (١) صحيح البخارى ، كتاب الادب : ٩/٨ .
(٢) سورة التوبة ، الاية : ٥٢ .
(٣) سورة البقرة ، الاية : ٢٤٥ .
(٤) صحيح البخارى ، كتاب الجنائز : ٧١/٢ .

(انما يرحم الله من عباده الرحماء) . ومن حديث ابي هريرة ^(١) : (. من لا يرحم لا يرحم) .

وبعد الاسترحام تشتد عاطفة الشاعر فيحاول دفعهم الى القتال
دفعاً بصيغة الامر فيقول :

حدوا السلاح انفروا وسارعوا الى الذي من ربكم وعدتم

وهو في هذا ينظر الى قوله تعالى ^(٢) : (انفروا خفافاً وثقالاً ، وجاهدوا
باموالكم وانفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون) . وقوله ^(٣)
(وسارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والارض اعدت للمتقين) .
وعندما تستجاب دعوة الشاعر من قبل المستنجد به ، وتتحرك الجيوش
الجرارة صوب الاندلس ، يقول مهديداً النصارى المتفطرسين :

اليوم يدري كل شيطان بها ان قد رمتهم بالشعاع الانجم

فهو وعيد شديد للنصارى ، وتفخيم لقوة المسلمين التي شبهها
بالشهب المحرقة حيث لا قبل لاحد بمقاومتها ، وهو بهذا يخترق من معين
القرآن الكريم ، اذ يقول - عز وجل - علي لسان الجن ^(٤) : (وانا لمسنا السماء
فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهباً وانا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن
يستمع الان يجد له شهاباً رصداً) .

واما بالنسبة للحوادث التاريخية فقد اكر الشعراء من ذكرها وذلك
على سبيل الاعتبار وتهوين الخطب على نفوسهم ونفوس الناس بالتأسي
ولاظهار الثقافة وسعة العلم باحداث الزمان ، ولهذا نجد الشاعر مهما تأخر

(١) المصدر السابق ، كتاب الادب : ٧ / ٨ .

(٢) سورة التوبة ، الاية : ٤١

(٣) سورة آل عمران ، الاية : ١٣٣

(٤) سورة الجن ، الايتان : ٨ ، ٩

عصره يرجع الى التاريخ منذ بدايته، ومن لدن نوح - عليه السلام - مروراً بالاحداث المشهورة حتى يصل الى ما قبل الاسلام بقليل فيعرج على ذكر عظمة د ولتي الفرس والروم وكيف تولى الدهر ازالتهما من الوجود، وفي هذا المجال نلاحظ تشابهاً كبيراً بين الشعراء سواء في المشرق او في الاندلس مع الاختلاف في العاطفة لدى كل شاعر .

يقول عدى بن زيد العبادي :

وتبين رب الخورنق اذا أشم	رف يوماً وللهدي تفكير
سره حاله وكثرة مايم	لك والبحر معرضاً والسدير
فارعوى قلبه فقال : وماغب	طمة حتى الى الممات يصير

والشاعر هنا يصدد ذكر المالك الزائلة . التي عاشت ببذخ حيناً من الدهر، وينفذ من ذلك الى بيان تفاهة الدنيا وسرعة زوال لذاتها ومتعتها ويضرب لنا مثلاً بالنعمان الاكبر صاحب الملك العظيم، والقصور الفخمة الذي ادرك حقيقة هذه الحياة وانها لاتدوم على حال، فانخلع من ملكه وترك حياة الترف واللهو، ولبس المسوح وساح في الارض زاهداً مترهباً^(١) .
ويقول عمارة اليميني في رثاء الفاطميين :

باللهز ساحة القصرين وابك معي عليهما لاعلى صفين والجميل

فهو يشير الى معركة الجمل وصفين اللتين وقعتا في خلافة الامام علي ابن ابي طالب - رضي الله عنه - وكانتا بداية لمسلسل دموي افني آفا عديدة من المسلمين، ارتجت لها دولة الاسلام آنذاك . والشاعر هنا يريد ان يبين عظم المصيبة التي حلت بالناس من جراء زوال الدولة الفاطمية فجعلها اشد وقعاً واعظم اثراً من حروب الفتنة تلك . ولعله اختار صفين والجميل دون غيرها من معارك المسلمين، لمناسبة مقام قصيدته، فهو يرثي

(١) انظر : جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام : ٢٠٣/٣ .

دولة شيعية تعتبر الامام علي امامها ، وقد كان له الدور البارز في هاتين المعركتين .

ويصور ابن اللبانة العلاقة الحميمة التي بينه وبين المعتمد بن عباد بقوله :

حكيت وقد فارقت ملكك مالكا ومن ولهي احكي عليك متمما

ومالك ومتم هما ابنا نويرة بن حمزة اليربوعي التميمي وقد كان بينهما من المحبة والود والصفاء مايفوق الوصف ، فلما قتل مالك على يد جيش المسلمين لارتداده عن الاسلام^(١) - فيما يقال - حزن عليه متم وظل يبكيه شعرا طيلة حياته ، وقد استغل ابن اللبانة هذه الحادثة فاسقطها على نفسه وعلى المعتمد وذلك لشهرتها ومجرد قوله " ومن ولهي احكي عليك متمما " يسد مسد كلام كثير في تأكيد استمرار الولاء والاخلاص الى آخر لحظات حياته . ويقول ابن العديم في تتابع الدول وافناء الدهر لها :

اباد ملوك الفرس جمعا وقيصرا	واصمت لذي فرسانها منه اسهم
وافنى بني ايوب مع كثر جمعهم	وما منهم الا مليك معظم
وملك بني العباس زال ولم يدع	لهم اثرا من بعد هم وهم هم

ويقول ابو بكر بن عبد الصمد :

(١) كان مالك بن نويرة عاملا لرسول الله صلى الله عليه وسلم على صدقات قومه ، فلما بلغه ان الرسول قبض امسك الصدقة وفرقها في قومه ، فسار اليهم خالد بن الوليد وحاربهم ووقع مالك في الاسر فقتله ضرار بن الازهر صبيرا بامر خالد وهناك روايات تنفي رده وتزعم ان قتله كان خطأ . والله اعلم . انظر : ابن حجر : الاصابة : ٣ / ٣٣٦ ، ابن قتيبة : الشعر والشعراء : ١ / ٣٣٧ ، القرشي ، جمهرة انساب العرب : ٢ / ٧٤٢ وقد اورد رثاء متم له .

حازت بنو العباس ملك امية
والد هر اذ هب تبعا وجنود ه
وهم ذوو الاعداد والامداد
وازال ملك الارض عن شداد

واذا ما وصلنا الى قصيدة ابن عبدون في رثاء بنى الافطس نجد ان
الحوادث التاريخية التي اوردها قد شغلت اكثر من نصف القصيدة، وقد
بدأها بذكر الامم الغابرة كالساسانيين واليونانيين ثم سار بتسلسل زمني
منتظم معرجا على ملوك اليمن وقبائل العرب البائدة ثم على ايام العرب فسي
الجاهلية ثم معارك الاسلام والفتن التي حصلت في آخر عصر الراشدين
ثم يذكر الدولة الاموية فالعباسية وما فيها من فتن ماحقة كفتنة البرامكة، وفتنة
الامين والمأمون وغيرهما . ولكثرة هذه الاشارات التاريخية وتنوعها، فقد قام
ابن بدر بن الاندلسي بشرحها في مجلد كامل وقد اشرفنا الى هذا في
فصل سابق .

وجاء بعد ابن عبدون ابو البقاء الرندي الذي سار على الطريقة نفسها
ولكنه لم يطل في مقدمته التاريخية كما اطلال ابن عبدون ولم يفصل الحوادث
ويتسلسلها على العصور المختلفة وانما جاء بامثلة مشهورة كابن ذي يمين
وملوك اليمن والساسانيين، ثم يذكر قارون وخزائنه التي لم تفده عند ما رماه
الدهر بقوارعه وينتقل بعد ذلك الى ملوك الفرس دارا وكسرى صاحب الايوان
العظيم الذي حطمته فجائع الدهر، واخيرا يأتي بمثل كبير لسعة الملك
والسيادة وهو سليمان - عليه السلام - الذي ملك الدنيا وخضعت لامره الجن
والريح باذن الله تعالى . ومع ذلك زال وكأنه لم يكن .

ولعل اهتمام هذين الادبيين الكبيرين بهذه النواحي التاريخية
يوقفنا على ما كان لها من شأن في تخليد القصائد .

ويقول حازم القرطاجني :

وقد اعاد الفارسد مارب
والقت النمرود عن كرسيه
دكا كان لم يبينه من قد بني
بعوضة عدت عليه اذ عدا

والشاعر هنا يحذر من عواقب البغي والتطاول على الله - عز وجل -
وكانه يريد ان يبين السبب الاكبر في ضياع الاندلس وهو ارتكاب المعاصي
والبعد عن طاعة الله، ويستشهد بحادثتين من حوادث التاريخ القديم كان
الاعراض عن الهدى الرباني فيهما سببا في جلب العقاب الاليم الشامل .

الاولى حادثة سد مأرب العظيم الذي بناه ملوك دولة سبأ في اليمن
بهندسة عجيبة بحيث يحجز خلفه بحيرة كبيرة من المياه المنحدرة من الاودية
فكان القوم يشربون منه ويسقون زروعهم حتى اصبحوا يعيشون في جنات وارفة
الظلال كثيرة الثمار، ولكن عندما جاءهم الرسل من عند الله كذبوهم وانكروا
نعم الله ونسبوها الي قوتهم وجهدهم، فعاقبهم الله باضعف مخلوقاته
وهو الجرد الذي نقب ذلك السد حتى اذا جاء السيل العظيم جرفه
وجرف معه الجنات واغرق الارض والناس .^(١)

والحادثة الثانية هي حادثة الملك المتجبر النمرود بن كنعان بن سام
الذي كان يدعي الالهية ويفسد في الارض ويحرق من لا يطيعه بالنار، ولما
جاءه ابراهيم - عليه السلام - اخذ يجادل ويماري في الله، فسلب الله عليه
وعلى جنوده البعوض فاكلت لحومهم وشربت دماءهم، ودخلت احداها فسي
دماغ النمرود فاكته، فكان اغز الناس عنده من يضرب رأسه بمطرقة او بحذاء
حتى يهدأ مابه . ومكث في هذا العذاب اربعين يوماً .^(٢)

-
- (١) انظر : معجم البلدان ، مادة (مأرب) ، ابو حيان ، تفسير البحر
المحيط : ٢٦٨ / ٧ ، عند قوله تعالى عن سبأ : (فاعرضوا فارسلنا
عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى اكل خبط وائل
وشيء من سدر قليل) . سورة سبأ ، الاية : ١٦ .
(٢) انظر : تفسير القرطبي : ١٠٩٢ / ٢ ، عند قوله تعالى : (الم تر الى
الذي حاج ابراهيم في ربه الاية) .
سورة البقرة ، الاية : ٢٥٨ .

وإذا ما انتقلنا الى استفادة شعراء المراثي من الابيات المشهورة فى الشعر العربي نجد انهم تفتنوا فى ذلك فتارة يحتذون البيت وينسجون على منواله وتارة اخرى يأخذون البيت بلفظه كله او نصفه ويدخلونه فى القصيدة حينما يبرز مكانه المناسب، ونلاحظ على الاندلسيين - خاصة - الاحتفاء بمعارضة ابيات الشواهد النحوية والبلاغية وتضمينها . ويمكننا هنا ان نقسم الابيات التي بين ايدينا حسب موضوعات الرثاء كما يلي :

اولا : الحنين الى الوطن الذي اخرج منه الشاعر، وشدة شوقه اليه، وبكائه على ايامه الجميلة التي قضاها في ربوعه، يقول ابن عميرة الاندلسي فى شوقه الى مدينته بلنسية :

ملاعب افراس الصباة والصبا نروح اليها تارة ونبكر

وهو من قول زهير بن ابي سلمى :

صحا القلب عن سلمى واقصر باطله وعري افراس الصبا وواحله (١)

ولابن عميرة ايضا :

تغير ذاك العهد بعدى واهله ومن ذا على الايام لا يتغير

وهو صدى لقول كغير عزة :

وقد زعت انى تغيرت بعدها ومن ذا الذى يا عز لا يتغير (٢)

ويقول المعتمد بن عباد فى تذكار ايامه الخوالي وعيشه اللاهى باشبيلية :

فيا ليت شعري هل ابيت ليلة امامى وخلفى روضة وغدير

(١) ديوان زهير : ٦٤ .

(٢) ديوان كغير : ١٠٧ .

وهو من قول جميل بثينة :

الاليت شعري هل ابيتن ليلة
بواد القرى انى اذن لسعيد^(١)

ويقول ابن شرف القيرواني متشوقا الى القيروان ومن فيها : :

واذا تجدد لي اخ ومنادم
جددت ذكر اخاء خل اول

وهو متأثر بقول ابي تمام :

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى
ما الحب الا للحبيب الاول^(٢)

ويقول :

منازل ابائي الكرام ومنشئي
واول اوطان غذاني خرها

وهو احتذاء لقول الاعرابي في الحنين الى موطنه منعج

بلاد بها حل الشباب تميمتي
واول ارض مس جلدى ترايها^(٣)

اما ابن عميرة فيعرض عن لاعميه على البكاء والوجد قائلا :

اقلوا ملامي او فقولوا واكثروا
ملومكم عما به ليس يقصر

ونشم من قوله رائحة كبرياء المتنبي في قوله :

ملومكما يجل عن الملام
ووقع فعاله فوق الكلام^(٤)

(١) ديوان جميل : ١٦ .

(٢) ديوان ابي تمام : ٣٠٣/٤ .

(٣) معجم البلدان (منعج) .

(٤) ديوان المتنبي : ٤٨٢ .

ثانيا : الابيات العربية . كقول ابن حمديس الصقلي :

ويارب براق النصال تخالسه من النقع ليلا مشرق الشهب داما

وقول ابن عياش :

ويطلع ليل النقع فيه كواكبا من البيض او من مرهفات المناصل

وكلا البيتين من وحي بيت بشار الشهرور :

كان مشار النقع فوق رؤوسنا واسيا فنا ليل تهاوى كواكبها (١)

ويقول ابن المرابط في حني اميره على الجهاد ، والتأكيد على وقوع النصر وان تأخر بعض الشيء :

لا تغترر بنسيئة الاجل الذي ان لم يحن لك نقده فكان قد

وهو من قول النابغة الذبياني :

أفد الترحل غير أن ركابنا لما تزل برحالنا وكان قد (٢)

ثالثا : تضمن الابيات والاشطره ، وقد اكر الشعراء من ذلك اظهارا للثقافة ، ولان البيت المضمن او الشطر غالبا يأتي في موقع متمكن من القصيدة فيزيدها روعة ويساعد في جلاء المعاني التي يريدها الشاعر . يقول ابن المعتز العباسي في مدينته سامراء :

غدت سر من رأ في العفاء كأنها (قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل)
وأصبح اهلها وشبيها بحالها (لما نسجتها من جنوب وشمال)
وإذا ما امرؤ منهم شكك سوء حاله (يقولون لا تهلك اسي وتحمل)

(١) ديوان بشار: ٣١٨/١ . وفيه (رؤوسهم بدل رؤوسنا التي هي رواية

الاغاني وغيره) .

(٢) ديوان النابغة : ٣٠ .

والاشطر الاخيرة في هذه الابيات هي بعض صدر واعجاز معلقة امرىء
القيس المعروفة (١).

ويقول ابن خفاجة في رثاء مدينته :

كثبت يد الحدثان في عرصاتها (لانت انت ولا الديار ديار)

والشطر الاخير لابي تمام من بيته المعروف :

لانت انت ولا الديار ديار خف الهوى وتولت الاوطار (٢)

ويقول ابن خلصة في بلنسية :

لو انها نطقت قالت لفقد هم (بان الخليط ولم ياووا لمن تركوا)

وعجز البيت لزهير بن ابي لسلمي من قوله :

بان الخليط ولم ياووا لمن تركوا وزودرك اشتياقا اية سلكوا (٣)

ويقول ابن المرابط عن الاندلس :

كم جامع فيها اعيد كنيسة فاهلك عليه اسي ولا تتجلد

وعجز البيت لطرفة بن العبد وقد اجرى عليه ابن المرابط بعض التفسير

والبيت بتمامه من معلقة طرفة :

وقوفا بها صبحي على مطيهم يقولون لا تهلك اسي وتجلد (٤)

اما السهيلي فيأتي بببيت كامل لابي نواس خلال ابياته في رثاء بلده

والمبيت هو :

يادار ما فعلت بك الايام ضامتك والايام ليس تضام (٥)

(١) انظر ديوانه : ٨ - ٩ .

(٢) ديوان ابي تمام : ١٦٦ / ٢ .

(٣) ديوان زهير : ٤٧ .

(٤) ديوانه : ٦ .

(٥) ديوانه : ٤٠٧ .

الفصل الثالث

دراسة مضمون قصيدة الرثاء متممة

من خلال دراستنا للمعاني والافكار والظواهر التي يحويها شعر رثاء الدول والامصار استطعنا ان نقف على بعض الموضوعات او الظواهر التي تبرز بجلاء في هذا الفن بشكل عام وسنتناولها هنا بشيء من التفصيل ، وهي كما يلي :

المبحث الاول : الواقعية متممة

شعر رثاء الدول والامصار واقعي بطبيعته فهو يسجل حوادث تاريخية او ظواهر انسانية واجتماعية مشاهدة في المجتمع البشري ، ولكنه لا يوافق تماما المذهب الواقعي الذي يجهد عند الرصد المجرى للظواهر دون اي تدخل لعواطف الشاعر واحاسيسه ، لان ذلك يبعد بالشعر عن مفهومه الحقيقي كفن مؤثر كما يحصر الشاعر في مجال ضيق من القول لا يحس معه بقيمة شاعريته وفعالية ابداعه . ولا اخال الشاعر الصادق الذي يقف على مدينته المنكوبة اودولته الزائلة راثيا باكيا ، ومفصلا لدقائق الحادث وملابساته يستطيع ان يكون حيادي الاحساس والوجدان ، وان استطاع ان يقيم التحليل مقام التخييل ، والمنظور محل الموهوم الى حد ما . وذلك لان الشاعر في مثل ذلك الموقف يكون تعبيره - في الغالب - صادرا من منبع العاطفة الدفاق الذي لا يمكن للحياد والتجرد ان يقاوماه . ومن جانب آخر فان الشاعر الرثائي عندما يستمد عناصر تجربته الشعرية من احداث التاريخ لا حرج عليه فسي الخروج عن حرفية التاريخ وتخييل ما ليس في الواقع مع المحافظة على جوهر الفكرة . ان الواقعية التي نلمسها في شعر رثاء الدول والامصار هي الواقعية الروحية^(١) التي تعكس الواقع بحقائقه وتتسع لكل ما يحدث بداخل

(١) عز الدين اسماعيل ، الاسس الجمالية في النقد العربي : ٣٨٠ .

الشاعر من افكار وآلام ومشاعر . يقول ابو عدى الصبلي في رثاء دوللة
بنى امية :

وقتلى بگوة لم ترمس	افاض المدامع قتلى كدى
من يثرب خير ما انفس	وقتلى بوج وباللابتسين
وقتلى بنهر ابي فطرس	وبالزابين نفوس ثوت
نواب من زمن متعس	اولئك قوم تداعت بهم
والزقت الرغم بالمعطس	اذلت قيادى لمن رامنى

فالشاعر يصدر عن واقع تاريخى تجرى احداثه امام عينيه ، فهو يتحدث
عن مصارع قوم رآهم وعایشهم ، ويذكر اسماء الاماكن التى لقوا فيها حتفهم
بمنطق بعيد عن الخيال ، ولكنه لم يقدر على منع عاطفته من التدخل ، فراح
يشرح اثر ذهاب اولئك القوم على نفسه وحاله كما نلاحظ حزنه وجزعه من
نواب الزمن المتعسة لكل سعيد .

ويقول ابو يعقوب الخريمى في وصف مشهد من مشاهد الويلات التى
حدثت في بغداد اوان فتنة الامين والمأمون :

ياهل رأيت الثكلى مولولة	في الطرق تسعى والجهد باهرها
في اثر نعش عليه واحدها	في صدره طعنة يساورها
تنظر في وجهه وتهتف بالث	كل وجارى الدموع حادرها
غرغر بالنفس ثم اسلمها	مطلولة لا يخاف ثائرها

فهى صورة حقيقية يشاهدها الشاعر عن كعب ، ويعبر عنها بلفظ
(رأيت) التى تضع المنظر باجزائه امام عينيك وشعرك بان هذا المنظر ما هو
الاجزء بسيط من المناظر المتعددة المشابهة له والتى يتمزق الشاعر لها
اسفا وحسرة . كما نلاحظ في آخر قصيدة الخريمى هذه تأكيد على واقعيته
وانها بعيدة عن المبالغات والاختيلة الجامعة حين يقول :

لا طمعا قلتها ولا بطرا
سيرها الله بالنصيحة والـ
للك نفس هوى يؤامرها
خشية فاستد مجت مرائها
يفشر بز التجار ناشرها
جاءتك تحكى لك الامور كما

وهو في البيت الاخير يخاطب طاهر بن الحسين قائد جيش المأمون المنتصر، مؤكدا له هدف قصيده السامى وهو جلاء الحقيقة المأساوية التى تعرضت لها مدينة بغداد عسى ان يكون ذلك سببا فى وقف تلك الحرب المدمرة.

ويقول البحرى فى بكاء القصر الجعفرى :

اذا نحن زرناه اجد لنا الاسى
ووحشته حتى كان لم يقم به
كان لم تبت فيه الخلافة طلقه
ولم تجمع الدنيا اليه بهاءها
واين عميد الناس فى كل نوبه
تخفى له مغتاله تحت غيرة
وقد كان قبل اليوم يبهج زائره
انىس ولم تحسن لعين مناظره
بشاشتها والملك يشرق زاهره
وبهجتها والعيش غنى مكاسره
تنوب وناسى الدهر فيهم وآمره
واولى لمن يفتاله لويجاهره

ان الشاعر يصدر عن تجربة واقعية عاشها، فهو يصف لنا القصر الجعفرى الذى كان ينادم صاحبه الخليفة المتوكل ايام حكمه، ثم لم يلبث الزمان ان دار دورته فاغتيل المتوكل غدرا والشاعر بين يديه، وهدم القصر الزاهر وهجر واوحش، ولكن البحرى لازال يزوره ويتجرد لديه انفعال الحزن والاسى كلما وقف عليه. وهذا ما يمكن ان نسميه بالصدق الشعورى^(١) حيث تنطلق الشرارة العاطفية عند التقاء التيار النفسى المتدفق من اعماق نفس الشاعر بالتيار الحسى المنطلق من الحدث الخارجى المثير للانفعال. ومن هذا الضرب قول ابن الرومى فى رثاء البصرة ووصف اعمال الزنج الوحشية :

(١) انظر: انور المعداوى، نماذج فنية من الادب والنقد : ٣٠ .

ان هذا من الامور لا امر
لرأينا - مستيقظين - امورا
اقدم الخائن اللعين عليها
وتسمى بغير حق اماما
كاد ان لا يقوم في الاوهام
حسبنا ان تكون روبا منام
وعلى الله ايما اقدام
لاهدى الله سعيه من امام

الى ان يقول :

بينما اهلها باحسن حال
دخلوها كأنهم قطع الليـ
اي هول رأوا بهم اي هول
اذ رموهم بنارهم من يمين
اذ رماهم عبيد هم باصطلام
ل اذ راح مد لهم الظلام
حق منه يشيب رأس الفلام
وشمال وخلفهم وامام

ان الانفعال والدهشة قد بلغت مداها عند الشاعر من خلال معاينته
لعظام الامور التي ارتكبت والتي لم يكن يتوقع ان تصورها له الاحلام ، وذلك
كاقدام الزنج بهذه الصورة الرهيبة على اجتياح مدينة البصرة واحراقها
والفتك باهلها بابشع الوسائل والشاعر يذكر بعض الاشارات التاريخية كقوله
عن صاحب الزنج : " وتسمى بغير حق اماما " اذ انه انتحل هذا اللقب فعلا
ليظهر سلطته بمظهر ديني ، وقوله - ايضا - في وصف عملية الاحراق :

اذ رموهم بنارهم من يمين
وشمال وخلفهم وامام

فهذا الطوق المحيط من جميع الجهات يؤكد المؤرخون كالتطري وغيره
والبيت كما هو ملاحظ من ابلغ الابيات المكونة للتيار الحسى لانه يجسم
الحدث الخارجى وينصهر بالتالى في نفس الشاعر فتتفجر عواطفه الشعورية
الصادقة ، ولعله من هنا يتضح الفرق بين الصدق الشعورى الحقيقى الواقعى
والصدق الفنى الذى يلغى الواقع ويعتمد على نظرة الشاعر نفسه للحدث
او للشخص .

وتظهر النظرة الواقعية في رثاء بهاء الدين البهائي لدمشق ايام
التتار حيث يقول :

لوعاينت عيناك جامع تنكز
وتعطش المرجين من اورادها
لانت جفونك بالدموع ملونا
قطرات جفن ترجمت عن حرقتي
ابنى امية اين يمن وليدكم
شربوا الخمر بصحنه حتى انتشوا
والبركتين بحسنها الفنان
وتهدم المحراب والايمان
دمعا حكي اللولو على المرجان
فكأنهن قلائد العقيان
والمفل تفتل في ذرى الاركان
القوا عرايدهم على النسوان

فهو يذكر بعض المعالم البارزة في دمشق والتي صب التتار جحيمه
عليها فاحالها الى خرائب وانقاض . تلك المعالم كالمساجد والحصون وغيرها
يراه الشاعر تدنس وتحرق امامه فيذرف الدموع الممزوجة بالدماء من الالم
والقهير ، ونراه يبتعد عن الخيال لانه لا داعي له هنا حيث الواقع الموحى
هو الذي يعبر عن نفسه على لسان الشاعر ، ومالجوء الشعراء الى الخيال
الالتقريب الحقائق المحجبة بعيدا عن دنيا الواقع . ويصف الشاعر هارون بن
هارون زحف النصارى على اشبيلية بقوله :

ويمموا حمص في جمع يضيق به
واستوطنوا القبر في الوادي وقام لهم
فكم اسارى غدت في القيد موثقة
وكم صريع رضيع ظل مختطفنا
يا عين فابك على حمص وقل لها
سطا بها الكفر اذ قل النصر بها
ذرع الفضا بالمرهفات الماع فاكتما
جسر من الفلك لا تشكوبه الساما
تشكو من الذل اقداما لها حطما
عن امه فهو بالامواج قد فطما
منك البكاء اذا ما ترسله دما
فمن معز بها الاسلام ما سلما

فالشاعر الاشبيلي يمر بتجربة واقعية مؤيرة ، فهو يرى جموع الكفار
الهائلة تزحف على مدينته وتحاصرها ، وتعمل الجسور البحرية لاقتحامها
وتفتك بالناس صفارا وكبارا قتلا واسرا دون ان يجدوا نصيرا من المسلمين
فلاحيلة للشاعر اذن سوى البكاء والندب والرثاء .

وعلى الطريقة نفسها يسير الفقيه الدقن في وصف جيش النصاري
المهاجم لآخر معاقل الاندلس بزعامة فرناند واذ يقول :

سطا بجيش كموج البحر في عدد	نعم وفي عدد من رهط ابطال
مؤيدا باجتماع المصر يتبعه	شر الخلائق مسرورا باقبال
يسمي السامع بالانفاط مشبهه	وقع الصواعق في هد وزلزال
يبني ليهدم ما الاسلام شيده	والوصف يعجز من يدعي بقلقال
والمسلمون من الاشغان قد ملئت	قلوبهم وابوا تسديد اخلال
والحق مختلف والحق مؤتلف	والكل منصرف عن نصر ابطال

فهو يصف عدد الجيش وقوته وما كان يملك من ادوات الدمار كالانفاط
وغرها مما يعجز عنه الوصف في تقويض بنيان الاسلام، ثم يبين حالة المسلمين
السيئة مشفقا عليهم من الفرقة والاختلاف والقعود عن الجهاد مما ادى بهم
في النهاية الى الطرد من بلادهم .

اما شاعر طليطلة المجهول فيصف لنا موقفا محزنا اشعل قلبه عند ما
رأى فريقا من اهل مدينته طليطلة يصرون على البقاء تحت نير النصاري
المختصين وبرزون بدفع المغارم . يقول :

كفى حزنا بأن الناس قالوا	الى اين التحول السير
انترك دورنا ونفر عننا	وليس لنا وراء البحر دور
ولا ثم الضياع تروق حسنا	بناكرها فيعجبنا البكور
وظل وارف وخريبر ماء	فلا قر هناك ولا حورور
يؤدي مغرم في كل شهر	ويؤخذ كل صائفة عشور
فهم احمي لحوزتنا واولي	بنا، وهم الموالى والعشور
لقد ذهب اليقين فلا يقين	وغر القوم بالله الغرور
فلادين ولاد نينا ولكن	غره بالمعيشة ماغرور
رضوا بالرق ياالله ماذا	رآه وما اشار به مشور

فالشاعر يعرض لنا مشهد الذل الذي تسرب الي نفوس القوم حيث غرهم طيب العيش ولو كان فيه رثيم ، وهو يقف موقف المعالج لهذا الامر الخطير ويشارك مشاركة فعالة في تذكير قومه باوامر الدين التي تجاوزوها بفعل تزيين الشيطان لهم ، ويعلن انكاره - بصوت عال - لما هم فيه من الزيف والمهانة من اجل اللذات الدنيئة .

وفي بعض الاحيان يصدر الشاعر عن تجربة واقعية عاشها بكامل احساسه برأى احداثها ماثلة امامه ، ولكنه بدلا من سرد الاحداث بحجمها اثناء الرثاء يأخذ في المبالغة وتضخيم الحدث الي حد كبير ، فهل نعتبر هذا زيفا وخروجا عن حدود الصدق والواقع ؟ ولناخذ مثالا على ذلك قول ابن رشيح القيرواني في رثاء القيروان :

اعظم بتلك مصيبة ماتنجلي	حسراتها او ينقضي الملوان
لو ان شهلانا اصيب بعشرها	لتدكدت منها ذرا شهلان
حزنت لها كوالعراق باسرها	وقرى الشام ومصر والخرسان
وتزعزت لمصابها وتنكدت	اسفا بلاد الهند والسندان
وعفا من الاقطار بعد خلائها	ما بين اندلس الي حلوان
وارى النجوم طلعت غير زواهر	في افقهن واطلم القمران
والارض من وله بهاقد اصبحت	بعد القرار شديدة الميلاق

ان المبالغة في وصف حادث خراب القيروان ظاهرة في الابيات ولا يمكن لاحد ان ينكرها . ومع ذلك فالشاعر في حقيقة الامر واقعي وليس بمزيف ولا مهول لانه يعبر عما يرى ويحس ولا شك ان رهيته ادق واحساسه اعق ممن هم ليسوا بشعراء ، ولذلك فهو يرى ما لا يرون ، يرى الاشياء ضخمة هائلة فيعبر عنها بما يناسبها حسب رهيته لها . فيأتي شعره في نظر الناس غاصا بالمبالغات دون ان يدري هو انه يبالغ . ولعل هذا هو المقصود بالكذب الذي كان يستحسنه القدماء من النقاد كقول قدامة بن جعفر :^(١) " وقد بلغني عن

بعضهم انه قال : احسن الشعر اذبه " . فابن رشيق نظر السبي
بلده الذي احبه كل الحب وقد غدا خربا منكرا الهبئة بعد الجمال والازدهار
فهباله الامر وتصور المصيبة هذا التصور الكوني الواسع فهي تدر احزاننا
متواصلة لا تنقضي حسراتها ابد الدهر والدنيا بجميع جهاتها قد تملكها
الاسف والنكد ، والسما اظلمت اقمارها والارض اضطرب قرارها . ويقول ابن
اللبانة في غروب دولة المعتمد بن عباد واخذه اسيرا الى المغرب فـسـي
الفلك :

نسيت الاغداة النهر كونهم	في المنشآت كاموات بالحاد
والناس قد ملأوا العبرين واعتبروا	من لؤلؤ طافيات فوق ازباد
خط القناع فلم تستر مخدرة	ومزقت اوجه تمزيق ابراد
حان الوداع فضجت كل صارخة	وصارخ من مفداة ومن فاد
سارت سفائنهم والنوح يصحبها	تلك القطائع من قطعات اكباد

ويقول :

انفض يدك من الدنيا وساكنها	فالأرض قد اقفرت والناس قد ماتوا
وقل لعالمها السفلى قد كتمت	سريرة العالم العلوى اغمات

ان ابن عباد كان يمثل العصب الحيوى فى حياة الشاعر ماضف السبي
ذلك انه كان ذا سلطان وهيلمان كبيرين ، فلما كانت نهايته على تلك الصورة
من الالهانة والذل اصيب الشاعر بصاعقة من الحزن والفرع ، فتصور ان الكون
كله يتحطم وينهار وسط الضجيج والتمزيق والحويل ولذلك فهو ينفذ يديه عن
الدنيا ومن فيها . وهو فى هذا كله صادق الاحساس واقصى التعبير لانه
فى غمرة التجربة المريرة الحية ، فالمشهد المرعب المثير يجرى امامه ، فبرى عن
كعب آماله وهى تبتدد وتصفد وتدفن فى الحاد النفى والاسر .

وإذا ما انتقلنا الى شعر الاستغاثة والحث على الجهاد نجد انه ذو صبغة واقعية ايضا لانه منطلق من شعراء احسوا بالخطر المحدق باوطانهم فذهبوا يبحثون عن النصير في لهفة والم، وان كنا نلاحظ على شعرهم الاطناب في مدح المستغاث به فذلك امر يقتضيه الموقف وتنطق به العاطفة الثائرة . يقول ابن سهل الاندلسي مستصرخا عرب المعقل في افريقيــــــــــــا لنجدة الاندلس :

اضحى الهدى يشكو الظما ولا نتم	ظل هوى كالبريح الماطر
وعلا الجزيرة غيبه وغمودكم	مطوية فوق الصباح المسفر
الدين زادكم وفوق سروجكم	غوث الصريح وبغية المستنصر
لم يبق للاسلام غير بقيــــــــــــة	قد وطنت للحادث المتكسر
جدوا ونموا بالجهاد اجورككم	ماخاب قصد مشمر ومشمير
عند الخطوب الفكر بيد وفضلكم	والنار تخبر عن ذكاء العنبر
لو صور الاسلام شخصا جاءكم	عمدا بنفس الرنق المتخير
لو انه نادى لنصر خصكمكم	ودعاكم يا اسرتي يامعشري

فهو ينطلق من واقع ملموس، واقع الاسلام الذي يهدف النصارى فى المقام الاول الى القضاء عليه، واجلائه عن ارض الاندلس، ولقد مرت بنا مواقف كثيرة فى هذا البحث كان النصارى فيها يحولون المساجد الى كنائس بمجرد ان تطأ اقدامهم ارض المدينة الاسلامية الساقطة ثم يبحثون عن كل ما يتعلق بالدين الاسلامي كالمدارس والكتاتيب والكتب فيمحقونها على عجل، ولعلنا نلاحظ اثر ذلك جليا فى قلة الكتب الاسلامية التى وصلتنا من تراث الاندلس بالنسبة لكثرة ما الف فى مختلف الفنون منه . فابن سهيل يأخذ فى شرح حالة الاسلام فى البلد المستغيث وما هو فيه من الضعف والذبول، ويتوجه الى المستغاث بهم يحثهم على النجدة مستعينا بحقائق النصوص الاسلامية التى تدعو للحث على الجهاد وتبين عظم الاجر والغنيمة المترتبين على ذلك، ثم يستمر فى حثهم فيصفهم بانهم اهل الاسلام وحماته الشجعان الذين عليهم

دون غيرهم يقع عب نصرته والدفاع عنه .

ويقول ابن ابار في استصراخ الحفصيين لنجدة بلنسية :

هذي رسائلها تدعوك من كعب	وانت افضل مرجولمن يتسنا
وافتك جارية بالنجح راجية	منك الامير الرضى والسيد الندسا
خاضت خضارة يعليها ويخضها	عبابة فتعاني اللين والشرسا
تؤم يحيى بن عبد الواحد بن ابي	حفص مقبله من تربه القدسا
وقد تواترت الانباء انك من	يحيى بقتل ملوك الصفر اندلسا
طهر بلادك منهم انهم نجس	ولا طهارة مالم تغسل النجسا
واوطى الفيلق الجرار ارضهم	حتى يطاطىء راسا كل من راسا

فالشاعر كان هو الرسول من لدن امير مدينة بلنسية الي الحفصي فهو اذن صاحب قضية تشغل باله ، والانظار متطلعة اليه ترجوان يأتي على يديه الفرج ، ولذلك ذراه يحشد كل الاسباب التي تمكنه من تحقيق هدفه فيخاطب الامير في واقعية مشيرا الي الرسائل والرسائل التي تفد اليه وماتكبه من المشاق كخوض البحار وقطع القفار ، وهي تخصه دون سواه لانه قد تيقن لديها ان هذا الامير هو الذي سيظهر الاندلس من رجس النصارى ، والشاعر بهذا يعطي الامير الحفصي دفعة ساخنة من الحماس وبخاصة حينما يجعل الاندلس تسلم قيادها وولاءها له ، فلا بد له بعدئذ من تحمل هذه التبعة ، فليعد الفيالق ويجرد السيوف في الحال .

وهناك نوع من القصائد الرثائية الواقعية جاءت في ثوب قصصي ، حيث يقوم الشاعر بوصف الحصار والهجوم والسقوط واحوال الناس بشكل متسلسل ومفصل ، وذلك كقصيدة ابي الحسن المرافي في رثاء مراغة حينما اجتاحتها التتار . يقول :

او مارأيتم ان طوفان الردى
فظهيرة الاحد ابتداء حصارهم
هجموا وقد اخذوا عالي سورها
اخذ المرافعة من هجوم تتار
الاخذ في الاثنين شر نهيار
بمجانق يمتطرن بالا حجار

فهو هنا يهون لحادث الهجوم على اسوار المدينة، ثم يسقط السور:

بسقوطه ارتفع الغبار وراعاه
لما رأى الكفار سورا خاليا
صعدوا اليه رافعين لواءهم
ل الحق فانحدروا من الاسوار
وهوى برج تساقط منه هيار
قصاد فل الزمرة الابرار

ويعد سقوط السور والبرج الذي يعتبر بمثابة بداية للقصة نصل الى
العقدة وهي اقتحام الاعداء للمدينة، والى اين يلجأ الناس العزل؟ ثم
يأتى الحل :

لجأت الى دار الهمام امام ديب
فاجارهم ووقاهم فى داره
واطاب قلبهم بطيب وعوده
فحماهم يوما وليلة كاملا
ن الله آلاف من الاخيار
قاضي لحق اجارة وجوار
اذ قال احميكم انا فى دارى
عن ناب قوم كالغلاب ضوارى

ولكن القصة لم تنته عند هذا الحد، فدار القاضي لم تكن بعيدة
عن متناول يدا أولئك الضوارى وسرعان ما حاصروها ورموها بوابل القذائف ثم
دخلوها فكانت الخاتمة المأساوية لكل من فيها :

وعلا ليمنعهم اعالي داره
دخلوا وقد ظفروا بمن فى داره
قتلوا جميعهم بادنى خطة
فلهم تيسر فتح باب الدار
من نسوة ومشايخ وذوارى
ما من مجير عندهم ومجار

ونلاحظ ان الشاعر يعبر عما يجرى امامه كما هو دهن اي استخدام
للخيال او المبالغات الكبيرة .

وفي استغاثة الموبسيكيين بالسلطان العثماني بايزيد نجد - ايضا -
السرد القصصي لمجريات الاحداث . يقول شاعرهم :

فما ضعفنا خيموا في بلادنا	ومالوا علينا بلدة بعد بلدة
وجاءوا بانفاط عظام كثيرة	تهدم اسوار البلاد المنيعمة
فلما تفانت خيلنا ورجالنا	ولم نر من اخواننا من اغاثة
وقلت لنا الاقوات واشتد حالنا	اطعمناهم بالكره خوف الفضيحة
علي ان نكون مثل من كان قبلنا	من الدجن من اهل البلاد القديمة
ونبقى علي آذاننا وصلاتنا	ولا نتركن شيئا من امر الشريعة
الي غير ذلك من شروط كثيرة	تزيد علي الخمسين شرطا بخصمة

وبعد هذا الدخول بالاكراه في طاعة النصاري هل انتهت الحرب
واحترمت المواثيق ؟ كلا :

فلما دخلنا تحت عقد ذمامهم	بدا قدرهم فينا بنقض العزيمة
وخان عهدا كان قد غرنا بها	ونصرنا كرها بعنف وسطوة

وهكذا تستمر القصيدة في شرح ما يلاقيه المسلمون من التعذيب
والتضييق ، ونحس ان الشاعر كان يعترضه الالم وهو يتحدث عن هذا الواقع
المر الذي يعيشه هو ومن معه .

المبحث الثاني : التكرار

ان شعر الرثاء هو شعر العاطفة في المقام الاول ، فهي التي تحدد معالم القصيدة وتظهر جمالها من حيث اختيار المعاني وتصويرها في ثوب لائق بها من الالفاظ .

وظاهرة التكرار التي نشاهد ها في شعر رثاء الدول والامصار تهدف الى تقوية تلك العاطفة ومساعدتها على الاستمرار ، حيث تظل انفعالات الحزن والحنين والاستغراب وغيرها في تكرر متواصل لفترة طويلة ، ومن خلال ذلك تمد الشاعر بفيض زاخر من معينها الثر . يقول ابن رشيق القيرواني :
 " واولى ماتكرر فيه الكلام باب الرثاء لمكان الفجیعة وشدة القرحة التي يجدها المتفجع ، وهو كغير حيث التمس من الشعر وجد " .

ولاننسى ايضا مالتكرار من فائدة في تقوية موسيقى القصيدة واطهار كوامن وزنها ، وقد اشرنا الى هذا فيما سبق . وعند التدقيق في القوائد المشتملة على التكرار نجد الشعراء يستخدمونه بصور شتى ، فاحيانا يكررون عبارات تصل الى شطر بيت ، واحيانا اخرى يكررون حرفا او كلمة مع مراعاة التجانس والانسجام بين مايلي هذا الحرف او تلك الكلمة في ايضاح المعنى ورسم الصورة التي يريد ها الشاعر .

يقول ابن ابي طالب الاعمي في رثاء بغداد :

ابيني لنا اين الذين عهدتهم	يحلون في روض من العيش زاهر؟
واين الملوك في المواكب تفتدي	تشبه حسنا بالنجوم الزواهر؟
واين القضاة الحاكمون برأيهم	لورد امور مشكلات الاوامر؟

فهو يكرر كلمة (اين) التي يستفهم بها - في ذهل وحزن - عن مصير سادة البلاد من الملوك اولى المواكب والقضاة اصحاب المواهب في حـلـ

المشكلات من الامر والنوازل .

وهو عندما يتفجع على هذين الصنفين من الناس بواسطة التكرار يوحى بالصورة الكلية لخراب المدينة وهلاك الناس، لان الشاعر سيبقى مستمرا في تساوله باستغراب مؤلم اين... واين... واين... الخ وان لم يظهر كل ذلك في شعره .

ويقول ابن عبد بن في رثاء بني الافطس :

ابن الجلال الذي عمت مهابته	قلوبنا وعيون الانجم الزهر
ابن الالباء الذي ارسوا قواعده	على دعائم من عز ومن ظفر
ابن الوفاء الذي اصفوا شرائعه	فلم يرد احد منهم على كدر

وهنا - ايضا - يكرر (اين) ويأتي بعدها بعبارات شديدة الالتحام ببعضها، فالجلال، والالباء، والوفاء، تكون مجتمعة معنى اخلاقيا ذاهالة عظيمة اراد الشاعر ان يظهرها بطرق متعددة، ثم يحاول تضخيم تلسك المسألة ببيان اثار الموثيق على المجتمع عامة فيكرر مجموعة من الحروف، والادوات تتجاوز نصف الشطر حيث يقول :

من لى ولا من بهم ان اظلمت نوب	ولم يكن ليلها يفيض الى سحر
من لى ولا من بهم ان اطبقت محن	ولم يكن وردها يفيض الى صدر
من لى ولا من بهم ان عطلت سنن	واخفيت السن الاثار والسر

وبعد المكرر يأتي بعبارات : اظلمت نوب، اطبقت محن، عطلت سنن التي تشترك في الصفات السلبية، حيث تجعل الناس بدون وجود سنن الافطس كما مهملا لا يقدرهن على دفع ملمة او كشف محنة .

وفي بعض الاحيان نجد الشاعر يستهل قصيدته بالتكرار وذلك ليشيع جوا عاطفيا حزينا يشد انتباه السامعين لما سي قوله بعد ذلك كقول ابن الرومي :

شغلها عنه بالدموع السجام	ذاد عن مقلتي لذيد المنام
مرة ما حل من هنات عظام	اي نوم من بعد ما حل بالبصـ
ج جهارا محارم الاسلام	اي نوم من بعد ما انتهك الزنـ

انها صرخة استنكار و فزع يطلقها الشاعر في وجه النوم . فاي نوم
يمكن ان يتسلل الى الجفن المشتغلة بالدمع ، والنفوس المعذبـة
بالاحزان والمهموم ؟ ان مرجل الانفعالات المؤلمة ليغلى في نفس
الشاعر ويفور حتى يجعله يهذي كالمحموم ، ويتلفه مرددا اسم البلد
الذي يرثيه وصفاته :

رة لهفا كمثل لهب الضرام	لهف نفسي عليك ايتها البصـ
خيرات لهفا يعضني ابهامي	لهف نفسي عليك يا معدن البـ
لام لهفا يطول منه غرامي	لهف نفسي عليك يا قبة الاسـ
دان لهفا يبقي على الاعوام	لهف نفسي عليك يا فرضة البـ
لهف نفسي لعزك المستضام	لهف نفسي لجمعك المتفانسي

فهو يكرر كلمة (لهف) في كل بيت مرتين مما يدل على الاضطراب
والقلق النفسي ، ثم الحسرة العميقة التي يذكيها تكراره لاداة النداء (يا)
مع ما يليها من الصفات الفخمة المتناسقة في المعاني والموسيقى
يا معدن الخيرات ، يا قبة الاسلام ، يا فرضة البلدان ، والتي تجعل
البصرة في مقام عظيم الاهمية جدير بتلف الشاعر والمه .

وقصيدة ابن الرومي تعتبر فريدة في بابها من ناحية التكرار ، فقد
اكثر منه كثرة ملحوظة واستعمله بين كل فترة واخرى وكأنه يجعل منه فاصلة
انتقال من موقف الى آخر ضمن الاطار العام للقصيدة . فنراه في الموقف
التالي يدخل في اعماق الحادث مبينا شموله لكافة اهل البصرة ، فتزدحم
نفسه بالمعاني والشاعر ، التي لا يجد افضل من التكرار وسيلة لنقلها اليها .
يقول :

كم اغصوا من طاعم بطعام	كم اغصوا من شارب بشراب
قتلقوا جبينه بالحسام	كم ضمن بنفسه رام منجما
ترب الخسد بين صرعى كرام	كم اخ قد رأى اخاه صريعا
وهو يعلى بصارم صمصام	كم اب قد رأى عزيز بنييه
بشبا السيف قبل حين الفطام	كم رضيع - هناك - قد فطموه
فضحوها جهرا بغير اكتام	كم فتاة - بخاتم الله بگر -
بارزا وجهها بغير لثام	كم فتاة مصونة قد سب وهما

فتكرار (كم) التي تفيد التكثير يبين شدة الهول الذي لقيه الناس، كما يبين شدة الالم الذي تنفض به نفس الشاعر وهو يعدد الاجزاء التفصيلية للنكبة العامة . انه يكرر ويعيد ليفرغ ما يحويه صدره من الانفعالات، وفي الوقت نفسه يحرص على نقل تلك الانفعالات والمشاعر الى مستمعيه على الصورة التي يريد لها من الحرارة والتأثير، ففي وصفه لما لقيته النساء من المهانة يقول :

داميات الوجوه للاقدام	من رآهن في المساق سبايا
ج يقسمن بينهم بالسهام	من رآهن في المقاسم وسط الزند
بعد ملك الاماء والخدام	من رآهن يتخذن اماء

فعبارة (من رآهن) التي يكررها الشاعر، تجعل السامع او القارىء يحس بانه (اى الشاعر) يتمزق وتعتصر قلبه مرارة الارغام، فيجد نفسه ينتقل الى ذلك الجو، بمشاعره وعواطفه ويمر بنفس التجربة التي عاشها الشاعر بالرغم من الفترة الزمنية الطويلة بينهما . وبخاصة ان قضية اسر النساء واذلالهن ذات خطوة شديدة في نفوس العرب . ثم يستمر ابن الرومي في وصف افعال الزنج الشنيعة محالوا استقصاءها من كل جانب ليجرز عظم النكبة فيقول :

رب بيع هناك قد اخصوه	طال ماقد غلا على السوام
رب بيت هناك قد اخرجوه	كان مأوى الضعاف والايتام
رب قصر هناك قد دخلوه	كان من قبل ذاك صعبالرام
رب ذى نعمة هناك ومال	تركوه محالف الاعدام
رب قوم باتوا باجمع شمل	تركوا شملهم بغير نظام

اننا نحس هنا برنة موسيقية حزينة تنساب من خلال التكرار الذى يهيجه تذكر خراب البيوت العامرة والقصور الزاهرة، ونشاهد بعد ذلك الشاعر وهو يعرض اصابعه ندماً واسبافاً حين لم تعد نفسه تطيق صبراً او تحتمل وقع المآسى .

ان الشاعر الرائي حين ينطلق من عاطفة صادقة ويكهن مرهف الشعور فانه فى الغالب لن يستغنى عن التكرار لانه عامل مهم فى استقصاء الجزئيات والصفات والفضائل وما الى ذلك . يقول ابن الجار باكباً خراب المسجد الاقصى :

على المسجد الاقصى الذى جل قدره	على موطن الاخبات والصلوات
على منزل الاملاك والوحى والهدى	على مشهد الابدال والبدلات
على سلم المعراج والصخرة التى	انافت بما فى الارض من صفوات
على القبلة الاولى التى اتجهت لها	صلاة البرايا فى اختلاف جهات
على خير معمر واكرم عامر	واشرف مبني لخير بناءة

لاشك ان للمسجد الاقصى منزلة عليا فى نفوس المسلمين ، فهو قبلتهم الاولى ، وموضع معراج الرسول - عليه الصلاة والسلام - الى السماوات العلى ، وثالث الحرمين الشريفين . . . الخ ولذا فان الشاعر عندما يصطدم بما حل بهذا المكان المبارك يتضاعف فى نفسه جيشان الانفعالات ، ويثب الى ذهنه كثير من المشاهد التى يود رثاءها ، فلا بد حينئذ من التكرار للمحافظة على كمال الصورة . وشاعرنا فى هذه الابيات يكرر الحرف (على)

وكانه يرى انه مهما بكى وندب فلن يستطيع ان يحيط بتلك المعالم الجليلة ايكي على موضع الصلوات المقفوف من رواده ، ام على مكان الوحي وسلم المعراج ، ام على الصخرة ومشهد الابدال ولذلك فهو يهيج العالم كله على البكاء :

وتعلن بالاحزان والترحات	لتبك على القدس البلاد باسرها
وتشكو الذي لاقت الي عرفات	لتبك عليها مكة فهي اختها
وتشرحه في اكرم الحجرات	لتبك على ما حل بالقدس طيبة

وتكراره لكلمة (لتبك) المقترنة بلام الامر يدل على ثوة نفسه وعظم تصويره للفاجمة ، فلم يعد يرضيه بكاء اهل القدس ومن حوله ، بل لا بد للعالم كله ان يعلن حداده ، ولا بد لمكة والمدينة وهما افضل البلاد قاطبة عند المسلمين ، ان تشارك في هذا المأتم الكبير ، ولا سيما انهما ترتبطان بالقدس بروابط ووشائج قوية وقديمة .

اما ابن المرابط فيصف احوال الاسرى الاندلسيين بقوله :

كم من اسير عندهم واسيرة	فكلاهما يبغى الفداء فما فدى
كم من عقيلة معشر معقولة	فيهم نود لو انها في ملحد
كم من تقي في السلاسل موثق	يبكي لآخر في الكبول مقيد

وهذه الابيات من قصيدة يستصخر بها الشاعر بني مرين لنجدة الاندلس المهتدة بغزو النصارى ، فالتكرار هنا احد عوامل التأثر المنشود . وبخاصة انه يكرر (كم) التي تشير الى الكثرة ويتفجع معها على اولئك الاسرى الضعاف من النساء والولدان ، والشيوخ الاتقياء الذين تركوا بيد النصارى يفتنون بتعذيبهم واذلالهم دون ان يجدوا من يفتديهم .

ان اعادة مثل هذه المشاهد ملونة باحاسيس الشاعر على سامع الصغفث به تحرك من نفسه ساكنا ، وتدفعه الى الاستجابة .

وفي استغاثة الموريسكيين بالسلطان العثماني نلاحظ تكرار لفظ
السلام في مطلع القصيدة عشر مرات، ومن ذلك قول الشاعر :

سلام كريم دائم متجسسند	أخص به مولاي خير خليفة
سلام على مولاي ذي المجد والعل	ومن البس الكفار ثوب المذلة
سلام على مولاي من دار ملكه	قسطنطينة اكرم بها من مدينة
سلام على القاضي ومن كان مثله	من العلماء الاكرميين الاجلة
سلام عليكم من عبيد تخلفوا	باندلس بالغرب في ارض غربة
سلام عليكم من شيوخ تمزقت	شيوبيهم بالنتف من بعد عزة
سلام عليكم من وجوه تكشفست	على جملة الاعلاج من بعد ستره
سلام عليكم من عجائز اكرهست	على اكل خنزير ولحم لجيفة

ولعل الشاعر فعل هذا اعلانا عن خضوعه المسبق وتذلل به بين يدي
السلطان عسى ان يستمع لما يقول ويصغى ، فالموريسكيين كانوا في حالة
من القهر والذل لا تطاق ، فقد اكرهوا على اعتناق دين النصارى ، وكل
من عرف عنه انه فعل امرا يمت الى الاسلام بصله يقتل او يحرق حيا ، وقد
ذهبت كل محاولاتهم لطلب النجدة ادراج الرياح . فالشاعر هنا سفير
امة فقدت هويتها وفي نفسه من الالام والاحزان ماتنوه به الجبال ، وهذه
آخر المحاولات التي يمكن ان تجدى نفعا فبدأ قصيدته بهذا التكرار
ليعلن عن هدفه ، وهو استجداء النصرة ، وذلك باشاعة جو من التعظيم
والتبجيل للسلطان ثم يتبعه بعرض شامل للحالة المزرية والنفوس المعذبة
في الاندلس من جراء حكم النصارى الحاقدين حيث التعذيب والاستهتار
بقيم الاسلام والاكرام على فعل المحرمات وغير ذلك .

ثم ينتقل الشاعر الى عنصر آخر ربما يكون له اثر في اثاره قصة
السلطان ، وهو فعل النصارى بالقرآن والمساجد ، فيقول متأوها :

واحرق ما كانت لنا من مصاحف
وأها على تلك المساجد سورت
وأها على تلك الصوامع علقت
وأها على تلك البلاد وحسنها
وخلطها بالزبل او بالنجاسة
مزابل للكفار بعد الطهارة
نواقيسهم فيها نظير الشهادة
لقد اظلمت بالكفر اعظم ظلمة

وهذه التأوهات المتكررة، واللوعة النابغة من الوجدان الصادق
تدلان على مقدار الخذلان الذي لقيه اهل الاندلس، كما ان الشاعر
عندما يضع هذه الصورة امام السلطان بتلك الروح الملتهبة يطلب منه
حلا عاجلا يدفع به اليأس والاستسلام الذي بدأ يتسرب الى
آلاف النفوس .

المبحث الثالث : الجماعة

الشاعر فرد يعيش في مجتمع كبير تربطه به علاقات وشائج قومية فهو لا يمكن ان يبقى في برجه العاجي مغلقا على نفسه بعيدا عن آلام الناس الذين يعيش بينهم ، وكيف له ان يفعل ذلك ، وهو الذي ولد مهياً ليكون لسان حال امته بما منح من رهاقة حس ، ودقة شعور . والسروح الجماعية التي نلمسها في شعر رثاء الدول والامصار تكشف عن مدى العلاقة التي كانت تربط بين الشاعر ومجتمعه ، فعندما يصاب الوطن الذي يحتضن الجميع بكارثة عامة تودي به ، وتشتت اهله تثار عاطفة الشاعر وتدفعه الى القول ، فيكون اول همه التعبير عن آلام قومه الذين عاشروهم زمنا وعن تشرد هم وسببهم وما الى ذلك ، دون ان يندب الطبقة الحاكمة او يبكي لمصرها الا لماما . يقول الوراق :

لم يبق في بغداد الا امرؤ	حالفه الفقر كثير العيال
لام تحمي عن حماها ولا	خال له يحيى ولا غير خال
ليس له مال سوى مطرد ^(١)	مطرده في كفه رأس مال
هان على الله فاجرى على	كفيه للشقوة قتل الرجال

فالشاعر هنا بازاء حالة اجتماعية اوجدتها الحرب ، تلك هي الهجرة الجماعية التي ادت الى افقار بغداد من سكانها ، فالذي يستطيع الهرب نجاة بنفسه فعل ، حتى لم يبق فيها الا الضعاف والفقراء الذين لم يجدوا حيلة فاستسلموا لقدرهم ، او المجرمين واللصوص الذين يقتنصون الفرص في مثل هذه الاوقات لاثارة الفوضى والرعب والقتل في سبيل النهب والسلب .

فهذا الاحساس بمصائب الناس هو الذي يخذى قصائد الرثاء

(١) المطرد : رمح قصير يطعن به الوحش . الصحاح (طرد) .

ويجعلها ذات تأثير متجدد . وينطق ابو ناظرة السدوسى بلسان شعب
البصرة المشرد حين يقول :

ارى كل قوم لا يزال مظنة	منازلهم من آيب ومـووب
سوانا فانا حشو كل مدينة	والقاوها من نازح وقريب
ذود اوجه فيها كواب واعين	بواك وفقر ظاهر وشحوب
فذو العز منا مستكيل وذوالنفي	كان لم يكن ذا رتبة وكوب
فما حل بالاسلام مثل مصابنا	وسلطاننا للدين حق غصوب

الى ان يقول :

وماكل بصرى شكا بمفند	ولاكل بصرى بكى بمعييب
ولو انه بصريا بكى كنه شجوه	بكى بدم حتى الممات صبيب

فهو هنا جزء لا يتجزأ ممن يتحدث عنهم ، لانه يشاركهم الويلات
والنفي ، ويحس بما يدور في انفسهم ويعبر عنه ، فنراه ينطق بلسان
الجمع : " سوانا فانا حشو كل مدينة " ، فذو العز منا . . . " ، " فما حل
بالاسلام مثل مصابنا . . . " ولهذا نجد شعوره بالنكبة عظيما اليما حيث
شمله مع من شمل التغير المفاجي للحياة ، فذل واستكانة بعد عز
وسلطان وفقر وشحوب بعد غنى ونضارة عيش ، وتقلب دائم وهجرة مستمرة
فى شتى البلاد مع نضوب الامل فى العودة الى الوطن . كل هذا يشعل
قلب الشاعر ويقرح اجفانه ، فيطلق العنان لكل بصرى لكى يجتهد كل
الاجتهاد فى البكاء غير آبه بلوم اللائمين وعذ لهم .

والى نحو هذا يذهب ابن شرف القيروانى فى رثائه لحـال
المشردين من اهل القيروان ، حين يقول :

فاذا نجت المقادير منهم	راجلا بالخلاص يحمل رحلا
لقى الهون فى المذلة انسى	كان من سائر البلاد وحلا

ليس يلقى الا امراً مستطيلاً
فقرى اشرف البرية نفساً
فهم كلما نبت بهـــــــــــــــــــــــــم ار
مزقوا في البلاد شرقاً وغرباً
لا يلقى النسيب منهم نسيباً
طالباً عنده حقوقاً وذحلاً
ناكساً رأسه يلاطف نذلاً
ض مطايا الفراق خيلاً ورجلاً
يسكبون الدموع هطلاً ووبلاً
يتعزى به ولا الخل خلاً

وابن شرف - ايضاً - كان من الذين شردوا ومارسوا تجربة الغربة
عملياً بعد خراب موطنه القمروان ، وان كان قد لقي بعض المكانة عند ملوك
الاندلس فذلك عن طريق احراق بخور المدح والملق والتكلف فـــــــــــــــــى
البلاطات الكثرة المختلفة . فهو هنا يتميز غيظاً والمأ على الكرامات الابية
التي تمتهن عندما يضطر اصحابها الى فعل ما ليس من شيمهم ولا من
اخلاقهم في سبيل كسب رضى اولئك الوحوش الذين يعيشون وسطهم
والذين امتلأت قلوبهم بالحقده على هؤلاء المشردين ، واعتبروهم فريسة
ساقها القدر اليهم .

ولعل الفتك الشنيع والتخريب الهائل الذى لاقته القمروان على
يد العرب الهلاليين جعل شعراءها ينظرون الى الناس جميعاً نظرة
سوء وتشاؤم ، ويصوون الغربة بصورة موحشة مخيفة . فالحصرى القروانى
يبدأ رثاءه للقمروان بقوله :

موت الكرام حياة فى مواطنهم
اصبحت فى غربتى لولا مكاتمتى
فان هم اغتربوا ماتوا وماتوا
بكنتى الارض فيها والسموات

ويقول ابن رشيق القروانى فى تشرد قومه :

يستصرخون فلايفات صريخهم
خرجوا حفاة عائدنين برهبهم
هربوا بكل وليدة وفطيمــــــــــــــــة
حتى اذا سئموا من الارنان
من خوفهم ومصائب الــــــــــــــــوان
ويكل ارملة وكل حصان

وممن وصف حال المهاجرين المشردين - ايضا - حازم القرطاجنى
اذ يقول :

من كل ساهى الفكر مفشى على	فواده من كورة الوجد غمى
تململوا فوق ذرى اكوارهم	كأنما باتوا على حد المدى
اعدت جسم العيس اجسام لهم	قد كدن لا يبصرون من فوط الضوى
واعدت الانفس منها انفس	منهم فرقت من غرام وهوى

وهذا الوصف الدقيق لحال اولئك الهائمين على وجوههم
الظاعنين باستمرار الى غير قرار، يبين مدى ارتباط الشاعر بمجتمعهم
وولائه له، ومن هنا ينتج الادب الهادف الذى يخدم قضايا الاممة
ويحبر عن آلامها وآمالها . فالقرطاجنى عندما يعبر عن الانفس الستى
شفها الوجد والاجسام التى هزلت من كورة الاسفار والشاق حتى انتقلت
عد واما الى العيس لكثرة الملازمة ودوام الارتحال، عندما يعبر عن هذا
يشعرك بحدسه على اولئك الناس ومشا ركنه الوجدانية لهم، بالرغم من
كونه بعيدا عنهم، وينعم بعيش رغيد .

اما ابن العسال فى رثاء مدينة برشترو فيصف لنا حالة اهلها
عندما وقعوا فى قبضة النصارى بقوله :

كم موضع غنموه لم يرحم به	طفل ولا شيخ ولا عذراء
ولكم رضيع فرقوه من امه	قله اليها ضجة وبغاه
ولرب مولود ابوه مجدل	فوق التراب وفرشه البيداء
ومصونة فى خدرها محجوبة	قد ابرزوها مالها استخفاء
وعزيز قوم صار فى ايديهم	فعليه بعد العزة استغذاء

فهو يصور القسوة والوحشية التى عامل بها النصارى الحاقدين
ضعاف المسلمين من الاطفال والنساء والشيخ . والجدير بالذكر ان
التركيز على مصير الاطفال والنساء امر نلمسه عند معظم شعراء رثاء المدول

والمدن لأن ذلك اشد اثاره للنفوس والعواطف عند السامعين ، وانسح
مجالا لتفجع الشاعر ويكائه . يقول الشاعر المجهول في رثاء الاندلس بعد
سقوطها :

وكم من عجوز يحرم الماء ظمؤها	على الذل يطوى لبثها وسرهما
وشيخ على الاسلام شابت شيبه	يمزق من بعد الوقار قترها
وكم من صغير حيز من حجر امه	فاكبادهما حراء لفق هجرها
وكم من صغير بدل الدهر دينه	وهل يتبع الشيطان الا صغرها

ونلاحظ هنا انه زاد على سابقه امر جديداء وهو تغير الاديان
وخصه بالصغير لسرعة تقبله للاشياء الجديدة ، مما يجعل الامر اكر خطورة
وألم للنفوس المسلمة .

وقد لهج الشعراء بالبكاء على مصاب هؤلاء الضعفاء ورددوا ذلك
على مسامع المستغاث بهم لشدة وقعه وتأثيره . يقول ابن المرغل :

ان امام البحر من اخوانكم	خلقا لهم تلفت اليكم
ونحوكم عيونهم ناظرة	لا تطعم النوم وكيف تطعم؟
والروح قد همت بهم ومالهم	سواكم ردة فابين الهمم
كلهم ينظر في اطفاله	ودمعه من الحذار يسجم
ابن المفرا لا مفرا انما	هو الفيات او اسارا ودم

ويدخل في اطار الروح الجماعية - ايضا - تفجع الشعراء ، على
الشعائر الدينية والمعالم الاسلامية التي يعطلها الكفار ويعبثون بقدهتها
عندما تقع تحت ايديهم ، وذلك لان الدين امر يهم كل فرد من الامة ، بل
هو الاساس المتين الذي يقوم عليه المجتمع الاسلامي . وعندما يصاب هذا
الدين مثلا - بشعائره ومعالمه - بالنكبات الجسام تهتز المشاعر وتضطرب
القلوب فينبى الشعراء للتعبير عن هذه الموجة من الاحاسيس ايمانا منهم

برسالتهم في تخليد عظمة الاسلام ومجد الامة .
يقول احد هم في رثاء القدس :

احل الكفر بالاسلام ضيما	يطول عليه للدين النحيب
فحق ضائع وحمى مباح	وسيف قاطع ودم صبيب
وكم من مسجد جعلوه ديرا	على محرابه نصب الصليب
دم الخنزير فيه لهم خلوق	وتحريق المصاحف فيه طيب
اما لله والاسلام حقيق	يدافع عنه شبان وشيب

فهو يصور لوعة الدين وبكاهه لاستباحة حماه وتخريب معالمه ومن
اهمها المساجد التي هي هدف النصارى الاول ، فيحولونها فورا الى
اديرة وكنائس ، كما يقومون بتدنيس كل مقدس عند المسلمين ، فهذا القرآن
كتاب الله الاعظم ودستور المسلم من يمزق ويحرف ويهراق عليه دم الخنزير
داخل المساجد نكابة بالمسلمين وزيادة في آلامهم وتعذيبهم النفسى
ونرى الشاعر يستفزع ذلك وينادى المسلمين شيبا وشبانا للدفاع عن
حرمات الله ، ويتعجب من تخاذلهم وانصرافهم عن ذلك .
ويقول ابو البقاء الرندى في رثاء الاندلس :

تبكى الحنيفة البيضاء من أسف	كما بكى لفراق الالف هيمان
على ديار من الاسلام خالية	قد اقفرت ولها بالكفر عمران
حيث المساجد قد صارت كنائسها	فيهن الانواقيس وصلبان
حتى المحاريب تبكى وهى جامدة	حتى المناير ترثى وهى عيدان

انها صورة مؤثرة جدا لفداحة الخطب الذى حل بالاسلام ، فقد طوي
ذكره ولوائمه من بلاد الاندلس بكاملها . بعد ان انست به قرونا طويلية
فالمساجد الشامخة بالتوحيد ونور العلم ، اضحت كنائس تعلق فى محاربيها
الصلبان ، وتجتثم فوق منابر مانواقيس يسرى منها ظلام الشرك الاسود محاولا
اطفاء كل نور قد ينبعث من هنا او هناك ، انه تحول جذرى خطير ماتت فيه

حضارة قرون زاهرة، وتشرذ فيه شعب طالما ردد التاريخ اصداه جهاده
فلمثل هذا تبكي العين وتنخلع القلوب وتنظم قصائد الرثاء الحساسة
اللافتة .

وفي شعر الاستغاثة وطلب النجدة كان للحديث عن الاسلام
والمساجد مجال خص ب للتأثير في نفوس ولاة الامور المسلمين ، وقد افتن
الشعراء في ذلك ، فطورا يلزمون المستغاث به الحجة ويضعونه امام واجبه
المباشر في الذود عن حمسى الدين ويجعلونه هو المسؤول امام الله
والامة عن ذهاب بلاد الاسلام اذا قصر وتخاذل . يقول ابن سهل فى
استصراخ عرب افريقيا :

غوث الصريخ وبغية المستنصر
قد وطنت للحادث المتنكر
تمسك بذناب عيش اغبر

الدين ناداكم وفوق سروجكم
لم يبق للاسلام غير بقيسة
والكفر ممتد الطوالع والهدى

الى ان يقول :

من معشره كم غيروا من مشعر
من حلية التوحيد ذروة منبر
ابن العزائم مالها لاتنبرى؟
سيفا ودين محمد لم ينصر؟

كم نكروا من معلم ، كم دمروا
كم ابطلوا سنن النبي وعطلوا
ابن الحفائظ مالها لم تنبعث
ايهزمنكم فارس فى كفسه

واحيانا يكون الحث عن طريق التصوير الموحى لفعل الاعداء بمعالم

الاسلام كقول ابن البار :

وللنداء غدا اثناء ما جرسا
مدارسا للمثانى اصبحت درسا
عيت الدنيا فى مغانيها التى كبا

يا للمساجد عادت للعدا بيعا
لهفى عليها الى استرجاع فائتها
سرعان ما عاث جيش الكفر واحربا

فهذا العرض الذي يوحى به هتزاز مصر الامة، وتغيير معالم
شخصيتها بتدمير المشاعر وابطال السنن يحدث وقعا قويا في النفوس
المسؤولة .

واحيانا اخرى يعتمد الشاعر الى اظهار فضل المستغاث به
وابراز خدمات اسلافه القديمة في سبيل الاسلام ومن ثم يدفعه لاكمال
تلك المآثر والمحافظة عليها ، كقول ابن طفيل :

عليكم وهذا عوده جد واجب
ولا تغفلوا احياء تلك المناقب
ومهديه منكم بلا عيب عائب

بكم نصر الاسلام بدف فنصره
فتوموا بما قامت اوائلكم به
وقد جعل الله والنبي وآله

المبحث الرابع : اسباب النكبات

عند مطالعتنا لشعر رثاء الدول والامصار تطالعنا ظاهرة تلمس الشعراء للاسباب التي ادت الى حدوث الكوارث المتمثلة بسقوط الدول وزوالها ، ودمار المدن ووقوعها في يد الاعداء من الشائرين والكافرين وما يتبع ذلك من هيلات وآلام . ولكن الملاحظ ان ما يذكرونه من اسباب لا يصح جوهر الحقيقة التي ترويها كتب التاريخ بل يذهبون الى ذكر اسباب عامة تكاد تتشابه في اطارها العام الا في النادر ، فهل كان الشعراء لا يدركون حقائق الضعف السياسي وخيانة الحكام وضعفهم وما الى ذلك ؟ الواقع ان الشعراء كانوا من اعلم الناس بما يدور في مجتمعاتهم فقد كان منهم الوزراء والسفراء ، وخدام البلاط . . . ، ولكن جبروت الحكام وشدة نفقتهم على الناقدين والمعارضين جعلت الشعراء يجنحون الى جعل العين ، والمعاصي والمقادير هي سبب السقوط والدمار .

يقول الوراق :

من ذا اصابك يا بغداد بالعين الم تكوني زمانا قرة العين ؟

ويقول احد الشعراء :

بكيت دما على بغداد لما فقدت فضارة العيش الانيق
اصابتها من الحساد عين فافتت اهلها بالمنجنيق

والشاعران يبكيان بغداد في فتنة الامين والمؤمن ، وسبب الفتنة معروف ومشهور ، وهو الطمع في الاستئثار بالخلافة من اجل المصالح الشخصية الذاتية ، دون النظر فيما يجره ذلك على الامة ، فكانت العاقبة تدمير عاصمة الخلافة بغداد ، وقتل الالاف من الابرياء وتشرذم الكبر من مختلف فئات الناس . وعندما تلجلج القول في صدر الشاعرين حملا العين الحاسدة تبعه ذلك كله على سبيل الاعتبار والعظة من زوال الاشياء

وتبدلها ، ولم يوجهها اللوم الى اى من الطرفين المتنازعين طلبا للسلامة
ولم يفعلها كما فعل الخريمى حين قال فى الموقف نفسه واصفا السبب
الحقيقى الذى اشعل الفتنة :

قلم يزل والزمان ذو غمير	يقدم فى ملكها اصاغرهما
حتى تساقط كأسا مثلثة	من فتنة لا يقال عاثرهما
وافترقت بعد الفة شيعة	مقطوعة بينها او اصرهما
يا هل رأيت الاملاك ما صنعت	اذ لم يرعها بالنصح زاجرهما
اورد املاكا نفوسهم	هوة غي اعيت مصادرها
ماضرها لو وقت بموثقها	واستحكمت فى التقى بصاثرها

فهو هنا يصرح بالسبب المباشر الذى شهدته هو وعلمه الناس
جميعا من حوله ، وهو مجافاة الحكام للتقوى ، وضربهم بالموثيق المبرومة
عرض الحائط ، مع عدم وجود الناصحين المخلصين ، فكل حاكم كانت
بطانته تزين له انه احق بالامر من صاحبه . فجزء كبير من مسؤولية بيان
الحقيقة اذن يقع على الشاعر نفسه ، وقل من يفعل ذلك منهم ، وانسى
اعتقد ان قصيدة الخريمى هذه قد هربت حتى اننا لانجد لها ذكرا
الا فى احدى زوايا تاريخ الطبرى . على ان الشاعر يضيف الى هذا
السبب سببا آخر هو المعاصى التى تمادى الناس فى ارتكابهم لها
فعاقبهم الله تعالى ، ولعله قصد بهذا اشراك الرعية مع الحاكم فى
الافساد وجلب المصائب ، حتى يخفف النقمة عليه . يقول :

امهلها الله ثم عاقبها	لما احاطت بها كباثرها
كم قدر اينا من المعاصى ببغدا	د فهل ذوالجلال غاثرها
رق بها الدين واستخف بذى ال	فضل ، وعز النساك فاجرهما
وخطم العبد انفس سيده	بالرغم واستعبدت حواثرها
وصار رب الجيران فاسقهم	وابتزاز الدروب ذاعرهما

ويقول ابن رشيح القيرواني في نكبة القيروان :

نظرت لها الايام نظرة كاشح
ترنو بنظرة كاشح معيان
حتى اذ الاقدار حم وقوعها
ودنا القضاء عدو واوان
اهدت لها فتنا كليل مظلم
وارادها كالناطح العيدان

وفي رثاء قرطبة يقول بعضهم :

ابك على قرطبة الزين
فقد دعتها نظرة العين

ويشير الرندي الى سبب محنة الاتدلس بقوله :

اصابها العين في الاسلام فامتحت
حتى خلت منه اقطار وبلدان

ان الشاعر هنا قد يكون واقعا تحت تأثير امرين ، اولهما تقييد
حرياته عن التعبير الصحيح تحت طائلة الارهاب ، وثانيهما شعور الشاعر
بان سبب المصاب قد اصبح معلوما لدى الجميع فلا جدوى من ذكر خيانة
الحاكم وجهله وغفلته ، بل يذهب الشاعر ليفتش عن اسبب غامضة يرضى
بها انفعالات نفسه ، فيجد في العين رمزا خفيا لقوة رهيبية ربما تفعل
الاعاجيب . اما الذين ذهبوا الى ان المعاصي والذنوب هي سبب
الداء فمنهم ابو اليسر التنوخي الذي يقول في رثاء بغداد ايام التتار :

والله يعلم ان القوم اغفلهم
ما كان من نعم فيهن اكار
فاهملوا جانب الجبار اذ غفلوا
فجاءهم من جنود الكفر جبار

وهذا السبب ربما يكون اوجه من سابقه واكثر واقعية ، لان حقائق
التاريخ تثبت ان كثيرا من المصائب العامة الطامة ، كان سببها المعاصي
وكفران النعم ، وصرفها في غير محلها ، ولقد اشار القرآن الكريم الى هذا

بقوله (١) : (وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بانعم الله فاذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون) .

وقد يخصص بغداد ، فقد حبيت بنعم كثيرة ، وترفا هلهيا ايما ترف ، واسرفوا في الملذات والشهوات المحرمة ايما اسراف ، ومالوا الى الدعة واللهوه فمن حفلات غناء وطرب ، الى شعر خمري وغلما ني عابث ماجن ، الى غير ذلك . وكانت النتيجة ضعفا عاما في الحاكم والمحكوم وظهور العجز عن القيام بواجب الاستخلاف في الارض ، فجاءت السنة الالهية لتزيلهم عن ذلك بايدي اقوام موغلين في الوحشية والقسوة . فينما كانت بغداد تترقد في خمائل ناعمة من العيش جاءها العقاب على يد المنقول الجبابرة الذين لم يعرفوا النعيم ، ولا ذاقوا حياة الترف واللهوه فدروها تدميرا لازل التاريخ يرتجف من هولته .

ويقول ابن هارون في رثاء اشبيلية :

ياجنة زجرتنا عن زخارفها ذ نوبنا فلزمننا البت والندما

وابن العسال في رثاء مدينة بربشتر :

لولا ذنوب المسلمين وانهم ركبوا الكبائر ما لهن خفاء
ما كان ينصر للنصارى فارس ابدا عليهم فالذنوب الداء
فسرارهم لا يختفون بشرهم صلاح منتحلي الصلاح رياء

والمجهول في رثاء طليطلة :

انامل ان يحل بنا انتقام وفينا الفسق اجمع والفجر
واكل للحرام ولا اضطرار اليه فيسهل الامر العسر
يزول الستر عن قوم اذا ما على العصيات ارخيت الستور

وهنا - بلا شك - كان للمعاصي والكبائر التي ارتكبت جهرا
 دهر فعال في تكالب العدو على مدن الاندلس واحتلالها ، وبما كان
 الشعراء يقصدون الحكام ومن حولهم باهل الكبائر ، لانهم - وبخاصة
 ملوك الطوائف - كان ينهبون اللذات نهبا ويتوسعون في القتل وسفك
 دماء شعوبهم دون رحمة ، وهم مع ذلك جبناء يتهاقن على رضى
 النصارى باغلى الاثمان ، مما دفع ابن العسال الى القول بلامبالاة
 بالعواقب :

ماتت قلوب المسلمين برعبهم فحماتنا في حربهم جبناء

وابن شرف القيرواني يصف حال قومه بقوله :

جار فيهم زمانهم واولوا الامم رفقوا يرجون في الارض عدلا

وهذه الحقيقة التي تتفقت في كثير من الاحيان على السنة الشعراء
 تدل على الثورة التي يحملونها ضد اولئك الحكام الجبناء المستهترين
 بكل شيء ، وربما نستشف من ذلك ان كبرا من الشعر الذي يكشف عن
 مثل تلك الثورة قد وُعد ساعة مولده ، كما وُعدت اسمااء كثير من الشعراء
 فاصبحنا نجد كبرا من الشعر - وبخاصة في الاندلس - يروى لمجاهيل
 ويقول المجهول في رثاء الاندلس :

اضعنا حقوق الرب حتى اضعنا وفضلت عرى الاسلام الايسرها
 وملتنا لم نعرف الدهر عرفها من النكر فانظر كيف كان نكرها
 بما قد كسبنا نالنا ما انالنا كذ السيرة السواى لذي من يسرها
 بشقوتنا الخذلان صاحب جمعنا وهونا باحوال ذميم حضورها
 بعصياننا استولى علينا عدونا وعاشت بنا اسد العدا ونمرها

والشاعر هنا في لحظة يأس والم وتفكير عميق في المصير الذي آلت
اليه الاندلس، حيث اضحت بلاد كفر وضلال . فتقفز الى ذهنه جملة
من الاسباب التي ادت الى ذلك، ولكنه يرى في ندم واسف ان العصيان
والتفريط في حقوق الله، هو الجامع لها كلها، فتقصر الحاكم فسي
واجبه، وخيانتة للامة هو اذاعة لحقوق الله، وفساد الرعية وهجرها
للطريق القويم هو تفريط وغفلة ايضا . وهذا، وذاك هما السبب فسي
حدوث الهزيمة والشقاء .

وارجع بعض الشعراء سبب الكوارث الى القضاء والقدر، كقول

الاعمى :

كأن لم تكن بغداد احسن منظرا وملهى رآته عين لاه وناظر
بلى هكذا كانت فاذهب حسناتها ويدد منها الشمل حكم المقادر

والاوتارى في دمشق حين التتار :

حرقوها وخربوها وبادت بقضاء الاله رب العباد

وابن العديم في حلب :

ولكنما لله في ذا مشيئة فيفعل فينا مايشاء ويحكم

وابن عميرة في بلنسية :

وفرقهم ايدى سبا واصابهم على غرة منهم قضاء مقدر

ولعل لجوء الشعراء في كثير من الاحيان الى ذكر نفوذ القضاء
وقوة القدر، راجع لرفضهم في الهروب من ذكر الاسباب المادية التي
ادت الى الحادث الاليم، كالتقصر والنزاع والخيانة وما الى ذلك . كما ان
ذكر القدر يوحي بالعجز التام والتسليم المطلق لامر الله، فيعزى الشاعر
نفسه بذلك، ويخفف وقع الالم على نفوس السامعين حين يدركون ان الامر
خارج عن طاقتهم .

الخاتمة

لقد حملني تتبعي لقصائد رثاء الدول والأمصار في ادبنا العربي على العيش في عصور تاريخية وادبية مختلفة، ففي كل عصر - منذ الجاهلي والى آخر التاسع الهجري - اقف عند كل قصيدة اجدها، محللا لها تحليلًا ادبيًا، وتاريخيًا زمنيًا بغية الكشف عن اسباب السقوط او الدمار وعن الهيئة التي وقع عليها الحادث، وجاء وصفها في قصائد الشعراء وقد تبينت من هذا ان هناك علاقة وثيقة بين الشعر وعلم التاريخ فكلاهما مؤثر في الآخر متأثر به. فالشعر في كثير من الاحيان يعالج امورا لم تأت عليها اخبار التاريخ لسبب من الاسباب، وربما اغفلت عمدا لفرض من الاغراض. فهو يمثل في هذه الحالة لونا جديدا من ألوان الاغناء التاريخي يمكن الاطمئنان اليه في تقويم كثير من الاحداث التي سجلت في غير عصورها، وفسرت بنغم اسبابها، وعولجت باساليب بعيدة عن الموضوعية. قالشاعر عندما يكون شاهد عيان لسقوط دولته او مدينته ثم يقف على اطلالها راثيا، فانه يأتي بدقائق ولفقات ربما يُعتمد عليها في استنتاجات جديدة لم تخطر ببال المؤرخين. ولهذا نجد كتب التاريخ ومعاجم البلدان لا تمر بحادثة او تصف مدينة الا اوردت ما قيل فيها من الشعر.

واما من ناحية تأثير علم التاريخ في الشعر فربما يكون اقل من تأثير الشعر فيه، لانه تأثير غير مباشر، اي لا يمس جوهر فكرة الرثاء مثلا ولكنه موجود على كل حال. فدراسة ظروف العصر السياسية والاجتماعية تساعد كثيرا على فهم الجو العام الذي كان الشاعر يعيشه عند النظر وبالتالي يمكن تحليل ما يرمى اليه من اشارات وايحاءات.

هذا وهناك جملة من النتائج التي حققها هذا البحث يمكن للقارئ ان يتبينها من خلال مطالعته لفصول الرسالة، وسأثبت هنا اهمها :

ففي العصر الجاهلي وجدت لدينا قصائد في رثاء الاثار الدارسة كحصون الحميريين والتابعة في اليمن وقصور الاكاسرة والمناذرة ففى الحيرة، كما وجدت طائفة كبيرة من القصائد الجاهلية ترثى الممالك والامم التي هلكت في غابر الدهر، ولكن هذه الاشعار - في الغالب - تقصد الى اظهار تجربة الشاعر وحكمته، وتجري مجرى العظة والعبرة ففى غير عاطفة حية مشبوبة، لان العربي في جاهليته لم يعرف سكونى الحواضر والمدن، واذالم بها في اسفاره فعلى عجل، الامر الذى جعل وقوفه بالاطلال ويكاه على المراجع والدمع، والرسم اصدق من رثائه ذلك .

ثم توصل البحث الى ان ايوان كسرى ظل رمزا للعظمة الزائلة عبر عصور الادب العربي الطويلة، وكان الوقوف عليه ويكاهه يتخذ تعلية من قبل الشعراء لرثاء اقوامهم الهالكين في مجال لا يمكن به التصريح كفضل آدم بن عبدالعزيز الذى كان في الحقيقة يرثى قومه الامويين وهو في دولة اعدائهم العباسيين، والبحترى الذى كان يبكى المتوكل القليل وهو يعيش تحت حكم قاتله. ومن المحتمل جدا ان قصيدتيهما قد تأثرت لاحقتهما بالسابقة او تأثرتا بسينيتي ابي عدى العبلى وابى العباس الاعمى في رثاء دولة بنى امية .

واذا ماتقد منا قليلا الى الامام في العصر العباسى حيث برزت مدرسة الصنعة البيانية في الشعر واصبحت هي علامة الجودة القصيدة اورداءتها، وجدنا ان هذا الاسلوب ايضا يفرض نفسه على شعر الرثاء فقد مرت بنا قصائد في رثاء بغداد والشامحين دمرهما المغول، مثقلة بالسجع والزخارف اللفظية والمعنوية بحيث ادت الى طمس صوت العاطفة فيها وتخفيف حدة الانفعال. فحكمتنا على شعرائها - من منظور عصرنا - بالتكلف، وقد لا يكونون كذلك، لانهم محكومون بنمط معين، وليس بمقدور كل شاعر ان يخرج عن طوره وان يسبق عصره.

وتبعاً لثقافة الشعراء وتفاوت قدراتهم ، ومدى تحررهم او اتباعهم فقد تباينت طرق رثائهم فمنهم من سلك الطريقة التقليدية ، فوقف بالمدن والعواصم وقوفه بالاطلال الدائرة فاستوقف الراكب ، وخاطب الرفيق ، ودعا بالسقيا ثم انتقل الى الفرض الاصلى فركز على ابراز ماقى صدره من آلام ، واحزان لغراق الاحبة وهجر الديار . ومنهم من يكن ثائر المشاعر مضطرب النفس لشدة وقع الحدث ، فيفتح القصيدة بالرثاء والتفجع ، ويرفع صوته بالاهات مباشرة ، ثم يأخذ فى رسم صورة حية لمشاهد الدمار والخراب ، وينطلق محللاً نفسيات الناس المشردين والذاهلين كما يحس ويرى . وبعضهم يبدأ القصيدة بداية هادئة رزينة مذكراً بقضاء الله وقدره الذى لا راد له ، او مشيراً الى احاطة الموت بكل ما هو حى وما الى ذلك ، وقد اتبع بعضهم طريقة ابرز فيها ثقافته التاريخية فساق فى قصيدته مصائر عظماء الاقوام منذ القدم وكيف فنوا وكان لم يكونوا شيئاً ، ولا ينسى ايراد العبرة والعظة ويكر من ذكر الايات القرآنية والاحاديث النبوية التى تدعم مايقول .

واذا ما انتقلنا الى الاندلس نجد ان حرب النصارى ضد المسلمين كانت تتخذ الطابع الدينى الصليبي ، ولهذا ظلت المعارك مشتعلة على مدى قرون طويلة الى ان انتهت بالفاجعة العظمى ، حيث سقطت الاندلس كلها نهائياً بيد النصارى ، وتركها المسلمون الى غير رجعة . وقد واكب الشعر الرثائى هذه الحرب فى مسيرتها الطويلة الشاقة ، فوقف الشعراء عند كل مدينة وامارة تدمر او تسقط بيد الاعداء باكين لعالمها ، وواصفين فجائع شعبيها المسلم بمقدساته ومعالمه وشعائره فنسمع صراخ المساجد يعلومع ارتفاع الصليبان فوق مآذنها ، ونشاهد بكاء المنابر ونفر المحاربين من اصوات النواقيس التى ارغمت على احتضانها وهذه الروح الاسلامية طبعت شعر رثاء المدن والممالك فى الاندلس بطابع من صدق الشعور وحرارة العاطفة ، واكسبته شهرة جعلت الكثيرين يقصرون هذا اللحن الادبى على اهل تلك الجزيرة وينسبونه اليها . .

على ان جهد شعراء الاندلس لم يقتصر على المشاركة الوجدانية فحسب وانما تعدى ذلك الى المشاركة الفعالة، فاحدثوا غرضاً شعرياً جديداً هو الاستصراخ والحث على الجهاد لانقاذ البلاد والعباد من خطر النصارى المصدق، فعبروا البحر مرات كثيرة الى مراكش حيث الموحدون، ثم بنو مرين من بعدهم، والى تونس حيث بنو حفص وغيرهم وفي معظم رحلاتهم كانوا سفراء صدق يؤثرون فيمن يخاطبهم، فيعودون ويرفقتهم الجوارح المجاهدة، والمهن الكيرة والاسلحة.

وفي باب الدراسة التفصيلية لخصائص شعر رثاء الدول والامصار وظواهره، توصلت الى اثبات وجود شعر رثائي غزير في المشرق يشترك شعر الاندلس في حرارة العواطف وصدق الوطنية، وقد عصت الاقوال التي كانت تنكر وجود مثل هذا الشعر او التي كانت ترميه بالضعف والجمود عند العظة والعبرة مع ضعف العاطفة وانعدام صدقها وبينت خطأها واجحافها، واستنتجت ان سبب تلك الاقوال المجحفة ربما يعود الى تشتت هذا الشعر في بطن كتب التاريخ ومعاجم البلدان وان القصائد المشهورة منه تعد في حكم النادر بالاضافة الى عدم اعتناء كتب الادب به كما يجب.

كما توصلت - ايضاً الى ان القول بسبق الاندلس في ابتداء هذا اللون من الشعر ثم انتقاله بعد ذلك الى المشرق تقليداً واتباعاً ليس بسديد، وان عملية التأثر والتأثير بشكل واسع لا تنطبق عليه، لانه فيض عاطفة انسانية ومعانيه تكاد تتشابه ويشترك فيها الجميع، ودواعيه متوفرة في كل البلاد.

ومن الملاحظات الهامة كثرة تردد محور الشعر ذات التفاعيل الكيرة - كالطويل والبسيط - في شعر الرثاء وذلك لملائمتها واتساعها لفرزات الشعراء وآهاتهم المتوالية، التي يقذفها مرجل الانفعال على السنتهم بشكل مستمر، ومع هذا النوع من البحر نلاحظ كثرة القوافي المطلقة والمحركة بالكسر وذلك لانها تساعد على مد الصوت بالأنفاس

والعويل او بالصراخ الغاضب المستنجد ، كما تبين من شواهد هذا البحث
ضعف القول بان الشاعر لا ينظم عند الانفعال الحاد الا ابياتا قليلة ومن
بحر قليل التفاعيل .

وهناك ظاهرة اخرى لها انتشار واسع عند شعراء الرثاء ، ذلك هي
ظاهرة التكرار وذلك لما له من دور في مساعدة الشاعر على تفريغ ما يحمل
من شحنات الالم تدريجيا حتى تسكن نفسه ، كما يستخدم في ابراز ضخامة
النكبة حين يظهر الاطراف والاجزاء المتناثرة في صورة مجتمعة . كما
لانسى عمله في تقوية موسيقى القصيدة عن طريق وقع الجرس الناتج عن
تكرار الحروف والالفاظ .

واثبت البحث - ايضا - واقعية شعر الرثاء وابتعاده عن شطحات
الخيال ، لان الشاعر يتحدث ويصف امورا يشاهد ها امامه ، وتجارب
يعيشها بروحه واحساسه ، اما من ناحية المبالغة ، فالشاعر لا يقصد بها
وانما تأتي تبعاً لتصوره ورؤيته للاشياء على نحو لا يدركه الناس العاديون .
واما ما نلمسه من اسباب غير حقيقية يورد ها الشعراء للنكبات
والحوادث فان سببها سياسة القمع والتنكيل بالمعارضين التي كان
الحكام الخونة الجبناء ينتهجونها . وهكذا دائما عند ما يكون الحاكم
او الامير خوارا رعديدا مع الاعداء ، تجده يستأسد على الرعية فيقتل
ويسفك الدماء ويكبت الحريات وما الى ذلك ، وهذا ما دعى شعراء رثاء
الدول والامصار الى اللجوء الى ذكر العين والحسد ، والقضاء والقدر
والمعاصي وغيرها على انها اسباب كل ما يقع من كوارث ومحن .

ثبت المصادر والمراجع

أولاً : المصادر المخطوطة :

- ابن الأبار : أبو عبد الله محمد بن عبد الله القضاعي .
١ - ديوانه ، مخطوط بالخزانة الملكية بالرباط رقم
٠ ٤٦٠٢
- ابن بدرون : أبو القاسم عبد الطك بن عبد الله الشلبي .
٢ - شرح قصيدة ابن عبدون (البسامه) مخطوط بمركز
البحث العلمي بجامعة أم القرى برقم ٢٨١ أدب .
- ابن خيره الموايني : محمد بن ابراهيم الاشبيلي .
٣ - ريهان الألباب وريمان الشباب في مراتب الآداب . مخطوط
بالخزانة الملكية بالرباط برقم ٢٦٤٧ .
- ابن الشعار الموصلي : أبو البركات مبارك بن أبي بكر .
٤ - عقود الجمان في شعراء هذا الزمان ، مخطوط بمركز
البحث العلمي بجامعة أم القرى برقم ٢٥٤ تراجم .

ثانياً : المصادر المطبوعة :

- ٥ - القرآن الكريم .
- ابن الأبار القضاعي .
٦ - التكلمه لكتاب الصله ، نشر عزت العطار ، ط القاهرة
٠ م١ ٩٥٦
- ٧ - الحلة السيرا ، تحقيق حسين مؤنس ، ط القاهرة ١٩٦٣ م .
- ٨ - المعجم في أصحاب الصدف ، ط مدريد ١٨٥٨ م .

- ابن أبي دينار : أبو عبد الله أحمد بن أبي القاسم الرعيثي .
٩ - المؤنس في أخبار أفريقيا وتونس ، تحقيق محمد شمس ،
ط تونس ١٩٦٧ م .
- ابن أبي زرع : ١٠ - الأنيس المطرب بروح القوطاس ، ط الرباط ١٩٧٣ م .
ابن الأثير : عز الدين طي بن محمد الشيبانسي .
١١ - الكامل في التاريخ ، ط بيروت ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٦ م .
١٢ - اللباب في تهذيب الأنساب ، ط بيروت ، د . ت .
- ابن الأثير : المبارك بن محمد الجزري .
١٣ - النهاية في غريب الحديث ، تحقيق الزاوي والطناحي ،
ط القاهرة ١٣٨٣ هـ - ١٩٦٣ م .
- ابن الأحمر : أبو الوليد اسماعيل بن يوسف النصري .
١٤ - نثر الجمان في من نظمى واياها الزمان ، تحقيق
رضوان الدايبه ، ط دمشق ١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢ م .
- الادريسي : أبو عبد الله بن ادريس .
١٥ - نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، ط ليدن ١٨٦٤ م .
- الأزدي : أبو زكريا يزيد بن محمد .
١٦ - تاريخ الموصل ، تحقيق علي حبيبه ، ط القاهرة
١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧ م .
- الأصفهاني : حسين بن محمد الراغب .
١٧ - محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء ، ط بيروت ١٩٦١ م .
- الأصفهاني : أبو الفرج علي بن الحسين .
١٨ - الأفاني ، مصوره عن طبعة دار الكتب المصرية .

الأصفهاني : أبو عبد الله محمد بن حامد العماد الكاتب .

١٩ - خريدة القصر وجريدة العصر ، قسم شعراء الشام ، تحقيق شكسرى

فيصل ط دمشق ١٣٨٣ هـ - ١٩٦٤ م ، وقسم شعراء المغرب والأندلس

تحقيق أنرتاش آذرنوش والعروسي المطوى ومحمد المرزوقسي ، ط

تونس ١٩٧١ - ١٩٧٢ م .

الأعشى : ميمون بن قيس .

٢٠ - ديوانه ، ط بيروت ١٣٨٠ هـ - ١٩٦٠ م .

امرؤ القيس :

٢١ - ديوانه ، تحقيق أبي الفضل إبراهيم ، ط القاهرة ١٩٦٩ م .

ابن ابياس : محمد بن أحمد .

٢٢ - بدائع الزهور ووقائع الدهور ، ط القاهرة ١٩٥١ م .

البحري : الوليد بن عبيد الطائس .

٢٣ - الحطاسه ، ط القاهرة ١٣٨٠ هـ - ١٩٦٠ م .

٢٤ - ديوانه ، تحقيق حسن كامل الصيرفي ، ط القاهرة ١٩٧٢ م .

البخاري : محمد بن اسماعيل .

٢٥ - صحيح البخاري ، ط القاهرة ١٣٧٦ هـ .

ابن بسام : أبو الحسن علي الشنتري .

٢٦ - الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، تحقيق احسان عباس ، ط بيروت

١٩٧٦ - ١٩٧٩ م .

ابن بشكوال : أبو القاسم خلف بن عبد الملك .

٢٧ - الصلح ، ط القاهرة ١٩٦٦ م .

البغدادي : أحمد بن علي (الخطيب) .

- ٢٨ - تاريخ بغداد ، ط بيروت د . ت .
البكري : أبو عبيد الأنبي .
- ٢٩ - سخط الأكل ، ط القاهرة ١٣٥٤ هـ - ١٩٣١ م .
البكري : عبد الله بن عبد العزيز الأندلسي .
- ٣٠ - معجم ما استعجم ، تحقيق مصطفى السقا ، ط القاهرة ١٣٦٤ هـ -
١٩٤٥ م .
- ٣١ - المغرب في ذكر بلاد أفريقيا والمغرب ، ط باريس ١٩١١ م .
البلاذري : أحمد بن يحيى .
- ٣٢ - فتوح البلدان ، تحقيق رضوان محمد رضوان ، ط القاهرة
١٣٥٠ هـ - ١٩٧٢ م .
- البها ، زهير : أبو الفضل زهير بن محمد المهلب .
- ٣٣ - ديوانه ، ط بيروت ١٣٨٣ هـ - ١٩٦٤ م .
البيهقي : إبراهيم بن محمد .
- ٣٤ - المحاسن والمساوي ، ط بيروت ١٣٩٠ هـ - ١٩٧٠ م .
البلسوي : أبو محمد عبد الله .
- ٣٥ - سيرة ابن طولون ، تحقيق محمد كرد علي ، ط دمشق ١٣٥٨ هـ .
ابن تغري بردي : أبو المحاسن يوسف .
- ٣٦ - المنهل الصافي ، تحقيق أحمد يوسف نجاتي ، ط القاهرة ١٣٧٥ هـ -
١٩٥٦ م .
- ٣٧ - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، ط المؤسسة المصرية العامة
للتأليف والنشر ١٩٦٣ م .
أبو تمام : حبيب بن أوس الطائي .

٣٨ - ديوانه ، شرح الخطيب التبريزي ، تحقيق محمد عبده عسزام ، ط

القاهرة ١٩٦٤ م .

الثعالبي : أبو منصور عبد الملك بن محمد النيسابوري .

٣٩ - ثمار القلوب في المضاف والمنسوب ، تحقيق أبي الفضل إبراهيم ،

ط القاهرة ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٥ م .

الجاحظ : أبو عثمان عمرو بن بحر الكناني .

٤٠ - البيان والتبيين ، تحقيق عبد السلام هارون ، ط القاهرة ١٣٩٥ هـ .

٤١ - رسائل الجاحظ ، " " " ، ط القاهرة ١٩٦٥ م .

ابن جبير : أبو الحسن محمد بن أحمد الكناني الأندلسي .

٤٢ - رحلة ابن جبير ، ط ليدن ١٩٠٢ م .

الجراح : أبو عبد الله محمد بن داود .

٤٣ - الموقه ، تحقيق عبد الوهاب عزام وعبد الستار أحمد فراج ، ط القاهرة

١٩٥٣ م .

ابن الجوزي : عبد الرحمن بن طس .

٤٤ - المنتظم في تاريخ الطوك والأم ، ط حيدرآباد ١٣٥٨ هـ .

الجوهري : اسماعيل بن حماد .

٤٥ - الصحاح ، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار ، ط القاهرة ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٦ م .

حسان بن ثابت الأنصاري .

٤٦ - ديوانه ، تحقيق وليد عرفات ، ط بيروت ١٩٧٤ م .

ابن حزم : أبو محمد طس بن أحمد الأندلسي .

٤٧ - جمهرة أنساب العرب ، ط القاهرة ١٩٦٢ م .

الحموي : أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي .

- ٤٨ - معجم الأدياء ، ط القاهرة ١٣٢٧ هـ ، م1 بعناية المستشرق مرجليسيوت .
- ٤٩ - معجم البلدان ، ط بيروت ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧ م1 .
- الحميدى : أبو عبد الله محمد بن أبي نصر الأزدي .
- ٥٠ - جذوة المقتبس ، ط القاهرة ١٩٦٦ م1 .
- الحميري : محمد بن عبد المنعم .
- ٥١ - الروي المحطار في خبر الأقطار ، تحقيق احسان عباس ، ط بيروت ١٩٧٥ م1 .
- ٥٢ - صفة جزيرة العرب ، تحقيق بروقنسال ، ط القاهرة ١٩٣٧ م1 .
- الحنبلى : أبو الفلاح عبد الحى بن الحميد .
- ٥٣ - شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، ط بيروت د . ت .
- أبو حيان : محمد بن يوسف الخرناطى .
- ٥٤ - تفسيره المسوى بالبحر المحيط ، ط دار الشعب بالقاهرة د . ت .
- ابن خاتمه : أحمد بن علي الأنصارى .
- ٥٥ - ديوانه ، تحقيق محمد رضوان الدايم ، ط دمشق ١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢ م1 .
- ابن خاقان : الفتح بن محمد بن عبد الله القيسى .
- ٥٦ - قلائد العقيان . نشر المكتبة العتيقيه بتونس . د . ت . بعناية محمد العناين .
- ٥٧ - مطمح الأنفس وشرح التأنس في طح أهل الأندلس ، ط القاهرة ١٣٢٥ هـ .
- الخريمى : أبو يعقوب اسحاق بن قوهى .
- ٥٨ - ديوانه ، تحقيق جواد الطاهر ومحمد المعينى ، ط بيروت ١٩٧١ م1 .
- ابن الخطيب : أبو عبد الله محمد السلمانى ، لسان الدين .
- ٥٩ - الاحاطة في أخبار غرناطة ، تحقيق محمد عبد الله عنان ، ط القاهرة ١٣٩٢ هـ - ١٩٧٣ م1 .

- ٦٠ - أعمال الأعلام ، تحقيق أحمد مختار العبادي ، ط الدار البيضاء ،
١٩٦٤ م .
- ٦١ - ديوان الصيّب والجهام والماضي والگهام ، تحقيق محمد الشريف
قاهر ، ط الجزائر ١٩٧٣ م .
- ٦٢ - الكتيبة الكامنه في من لقيناه بالاندلس من المائه الثامنسه ،
تحقيق احسان عباس ، ط بيروت ١٩٦٣ م .
- ٦٣ - اللحه البدرية في الدوله النصرية ، ط بيروت ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م .
- ٦٤ - نفاضة الجراب في غلالة الاغتراب ، تحقيق أحمد مختار العبادي -
وهب العزيز الأهواني ط القاهره د . ت .
ابن خلدون : عهد الرحمن بن طو .
- ٦٥ - تاريخه المسمى بكتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ، ط القاهره
١٣٩١ هـ - ١٩٧١ م .
- ابن خفاجه أبو اسحاق ابراهيم الأندلسي .
- ٦٦ - ديوانه ، تحقيق مصطفى غازي ، ط الاسكندرية ١٩٦٠ م .
- ابن خلکان : شمس الدين أحمد بن محمد .
- ٦٧ - وفيات الأعيان ، ط بيروت ١٩٧٢ م .
- ابن الدباغ : عهد الرحمن بن محمد الأنصاري .
- ٦٨ - معالم الأيمان في معرفة أهل القيروان ، ط تونس ١٩٢٠ م .
- ابن دحيه : عمر بن الحسن بن طو .
- ٦٩ - المطرب من أشعار أهل المغرب ، تحقيق مصطفى البياري وحامد
عبد المجيد ، ط القاهره ١٩٥٥ م .
- ابن رسته : أحمد بن عمرو .
- ٧٠ - الأطلاق النفيسة ، ط لندن ١٨٩١ م .

- ابن رشيق : أبو طلى الحسن بن رشيق القيروانى .
٧١ - ديوانه ، جمعه عبد الرحمن يافى ، ط بيروت د - ت .
٧٢ - الحمد في نقد الشعر ، تحقيق محى الدين عبد الحميد ، ط بيروت
١٩٧٢ م .
ابن الرومى : طلى بن العباس بن جريج .
٧٣ - ديوانه اختيار وتصنيف كامل كيلانى ، ط القاهرة د - ت .
الزبيدى : محمد مرتضى .
٧٤ - تاج العروس ، ط بيروت ١٣٨٣ هـ - ١٩٦٣ م .
الزمخشري : أبو القاسم محمود بن عسر .
٧٥ - أساس البلاغه ، ط القاهرة ١٩٦٠ م .
ابن الزيات : محمد بن عبد الملك .
٧٦ - ديوانه ، تحقيق جميل سعيد ، ط القاهرة د - ت .
السخاوى : محمد بن عبد الرحمن .
٧٧ - الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، ط بيروت د - ت .
٧٨ - المقاصد الحسنه فى بيان كثير من الأحاديث المشتهره طلى الألسنه ،
تحقيق محمد عبد الله الصديق ، ط القاهرة ١٣٧٥ هـ - ١٩٥٦ م .
ابن سعيد : أبو الحسن طلى بن موسى المغربي .
٧٩ - الفصوص اليناعه فى محاسن شعراء المائه السابعه ، تحقيق ابراهيم
البيارى ، ط القاهرة ١٩٦٧ م .
٨٠ - القدح المعلق فى التاريخ المعلق ، تحقيق البيارى ، ط القاهرة
١٩٥٩ م .
٨١ - المغرب فى طلى المغرب ، تحقيق شوقى ضيف ، ط القاهرة ١٩٦٤ م .

ابن سلام : محمد بن سلام الجمحي .

٨٢ - "طبقات فحول الشعراء" ، تحقيق معصود شاكر ، ط القاهرة

٠ م ١٩٧٤

السلوى : أبو العباس أحمد الناصري .

٨٣ - "الاستقصا" لأخبار دول المغرب الأقصى ، تحقيق ولدي المؤلف ؛

جعفر ومحمد ، ط الدار البيضاء ١٩٥٤ م .

ابن سهل : ابراهيم الاشبيلى .

٨٤ - ديوانه ، تحقيق احسان عباس ، ط بيروت ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧ م .

السهيلي : عبد الرحمن بن عبد الله الخشعي .

٨٥ - الروض الأنف ، تحقيق عبد الرحمن الوكيل ، ط القاهرة ١٣٨٧ هـ -

٠ م ١٩٦٧

السيوطي : جلال الدين عبد الرحمن .

٨٦ - بغية الوعاة ، تحقيق أبي الفضل ابراهيم ، ط القاهرة ١٣٨٤ هـ -

٠ م ١٩٦٤

٨٧ - تاريخ الخلفاء ، تحقيق محي الدين عبد الحميد ، ط القاهرة

٠ م ١٩٥٢ - ١٣٧١ هـ

الشهاب الخفاجي : أحمد بن محمد بن عسر .

٨٨ - ریحانه الألباء ، تحقيق عبد الفتاح الحلوي ، ط القاهرة ١٣٨٦ هـ .

ابن شهيد : أبو عامر أحمد بن عبد الطك .

٨٩ - ديوانه ، تحقيق يعقوب زكي ، محمود مكسي ، ط القاهرة .

٩٠ - رسالة التوابع والزوابع ، تحقيق بطرس البستاني ، ط بيروت

٠ م ١٩٤٦

ابن صاحب الصلاة : عبد الطك .

٩١ - تاريخ المن بالامامه على المستضعفين ، تحقيق عهد الهادي

التاري . ط بغداد ١٩٧٩ م .

الصفدي : خليل بن ابيك .

٩٢ - نكت الهيمن في نكت العميان ، ط القاهرة د . ت .

٩٣ - الوافي بالوفيات ، ط أوروبا ١٩٧٤ م بعناية ديدر ينسغ .

صفوان : أبو البحر بن ادريس التجيبى .

٩٤ - زاد المسافر ، تحقيق عبد القادر محداد ، ط بيروت ١٩٣٩ م .

الضبي : أحمد بن يحيى بن عميره .

٩٥ - بغية الطتمس ، ط مدريد ١٨٨٤ م .

الضبي : أبو العباس الفضل بن محمد .

٩٦ - المفضليات ، تحقيق يعقوب لايسل ، ط بيروت ١٩٢٠ م .

الطهري : محمد بن جريس .

٩٧ - تاريخ الأمم والطوك ، تحقيق أبي الفضل ابراهيم ، ط القاهرة

١٩٦٩ م .

الطوطوشى : أبو بكر محمد بن الطيب .

٩٨ - سراج الطوك ، ط الاسكندرية ١٩٨٩ م بعناية أنطون غندور .

ابن الطقطيق : محمد بن طي بن طباطبا .

٩٩ - الفخرى في الآداب السلطانية ، ط القاهرة ١٣٥٧ هـ - ١٩٣٨ م .

ابن عهد ريسه : أحمد بن محمد .

١٠٠ - الحقد الفريد ، تحقيق ، محمد سعيد العميان ، ط القاهرة

١٣٧٢ هـ - ١٩٥٣ م .

عبد الله بن بلقين : الأمير الغرناطسى :-

١٠١ - التبيان أو (مذكرات الأمير عبد الله) ، تحقيق بروقتسال ، ط

القاهرة ١٩٥٥ م .

ابن العبرى : غرغور يوسى الطبقى :

١٠٢ - تاريخ مختصر الدول ، ط بيروت ١٩٥٨ م بعناية أنطون

اليسوعى .

العجلونى : اسماعيل بن محمد .

١٠٣ - كشف الخفا ومزيل الألباس ، ط حلب - ت بعناية أحمد

القلاش .

ابن عساكر : أبو القاسم على بن الحسن .

١٠٤ - تهذيب تاريخ دمشق الكبير ، هذبه عبد القادر بدران ، ط -

بيروت ١٣٩٢ هـ - ١٩٧٩ م .

العسقلانى : أحمد بن طس .

١٠٥ - الدرر الكامنه ، تحقيق محمد جاد المولى ، ط القاهرة

١٣٨٥ هـ - ١٩٦٦ م .

١٠٦ - الاصابه فى تمييز الصحابه ، ط القاهرة ١٣٥٨ هـ - ١٩٣٩ م .

العسكوى : أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل .

١٠٧ - ديوان المعانى ، ط القاهرة ١٣٥٢ هـ .

ابن عطيه : أبو محمد عبد الحق بن غالب المحارى .

١٠٨ - فهرس ابن عطيه ، تحقيق محمد أبو الأجنان ومحمد الزاهى ،

ط بيروت ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م .

ابن العمرانى : محمد بن على بن محمد .

١٠٩ - الانباء في تاريخ الخلفاء ، تحقيق قاسم السامرائي ، ط لبيد

٠ م ١٩٧٣

عياض : أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبي :-

١١٠ - ترتيب المدارك وتقريب المسالك ، تحقيق أحمد بكير محمود

ط ليبيا ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧ م .

الفبريني : أبو العباس محمد بن أحمد بن عبد الله .

١١١ - عنوان الدراية في من عرف من العلماء في المائة السابعة

ببجايه ، تحقيق عادل نصيف ، ط بيروت ١٩٦٩ م .

١١٢ - المختصر في أخبار البشر ، ط القسطنطينية ١٢٨٦ هـ .

ابن فرحون : ابراهيم بن طي بن محمد .

١١٣ - الديباج المذهب ، تحقيق محمد الأحمدى أبو النور ، ط القاهرة

٠ م ١٩٧٢

ابن الفوضى : أبو الوليد عبد الرحمن بن محمد الأزدي .

١١٤ - تاريخ طماة الأندلس ، ط القاهرة ١٩٦٦ م .

ابن الفوطي : عبد الرزاق بن أحمد الصابوني .

١١٥ - الحوادث الجامعة والتجارب النافعة ، نشره مصطفى جواد ،

ط بغداد ١٣٥١ هـ .

القالبي : أبو طي اسماعيل بن القاسم البغدادي .

١١٦ - الأمل ، ط القاهرة ١٩٢٦ م - ١٣٤٤ هـ .

ابن قتيبة : أبو عبد الله محمد بن مسلم الدينوري .

١١٧ - الشعر والشعراء ، تحقيق أحمد شاكر ، ط القاهرة ١٩٦٦ م .

قدامه بن جعفر .

- ١١٨ - نقد الشعر ، تحقيق كمال مصطفى ، ط القاهرة ١٣٩٨ هـ -
٠ م١٩٧٨
- القرشسي : أبو زهد محمد بن أبي الخطاب .
- ١١٩ - جمهرة أشعار العرب ، تحقيق محمد طو الهاشمي ، ط جامعة
الامام محمد بن سعود الاسلاميه ١٤٠١ هـ - م١٩٨١ .
- القرطاجيني : حازم بن حمد الأنصاري .
- ١٢٠ - ديوانه ، تحقيق عثمان الكفاك ، ط بيروت ١٩٦٤ م .
- ١٢١ - قصائد ومقطعات ، تحقيق الحبيب بن الخوجه ، ط بيروت -
٠ م١٩٧٢
- ١٢٢ - منهاج البلغاء وسراج الأدياء ، تحقيق الحبيب بن الخوجه ،
ط تونس ١٩٨١ م .
- القفطسي : جمال الدين بن أبي الحسن بونس .
- ١٢٣ - انباه الرواه ، ط القاهرة ١٣٧١ هـ - م١٩٥٢ .
- القلقشندی : أبو العباس أحمد بن طس .
- ١٢٤ - صبح الأعشى في صناعة الانشا ، ط المؤسسة المصرية
للتأليف والترجمة والنشر .
- ١٢٥ - مآثر الاناقه في محالم الخلافه ، تحقيق عبد الستار أحمد فراج
، ط الكويت ١٩٦٤ م .
- ابن القلانسي : أبو يعلى حمزه .
- ١٢٦ - ذيل تاريخ دمشق ، ط بيروت ١٩٠٨ م .
- الكتانسي : عبد الحى بن عبد الكريم .
- ١٢٧ - فهرس الفهارس ، ط بيروت ١٤٠٢ هـ - م١٩٨٢ م بعنوانه
احسان هاس .

الكتبي : محمد بن شاگرد .

١٢٨ - فوات الوفیات ، تحقيق عباس ، ط بيروت ١٩٧٤ م و تحقيق

محيى الدين عبد الحميد ، ط القاهرة ١٩٥١ م .

ابن كثير : أبو الفدا^١ اسماعيل بن عمر .

١٢٩ - البدايه والنهائيه ، ط بيروت ١٩٦٦ م .

ابن الكردبوس : أبو مروان عبد الملك .

١٣٠ - تاريخ الأندلس ، نشره مختار العبادي بصحيفة معهد الدراسات

الإسلاميه بمدريد مج ١٣ سنة ١٩٦٥ م - ١٩٦٦ م .

المسبرد : أبو العباس محمد بن يزيد .

١٣١ - التعازي والمراثي ، تحقيق محمد الديباجي ، ط دمشق

١٣٩٦ هـ - ١٩٧٦ م .

١٣٢ - الكامل في اللغة والأدب ، تحقيق أبي الفضل إبراهيم ، ط القاهرة

مجهول :-

١٣٣ - أخبار العصر في انقضا^١ دولة بني نصر ، ط جونتجن ١٨٦٣ م ،

بعناية المستشرق ميلسر .

مجهول :-

١٣٤ - الحلل الموشيه في ذكر الأخبار المراكشيه ، تحقيق سهيل زكار

وعبد القادر زمامه ، ط الدار البيضاء^١ ١٣٩٩ هـ .

مجهول :-

١٣٥ - الذخيره السننيه في تاريخ الدوله المرينييه ، ط الجزائر

١٩٢٠ م ، تحقيق محمد بن أبي شنب .

المراكشي : أحمد بن محمد بن عذاري .

- ١٣٦ - البيان المغربى فى أخبار الأندلس والمغرب ، تحقيق بروفسور سال ،
ط بيروت ١٩٦٧ م .
- المراكشى : أبو عبد الله محمد بن عبد الطاك الأنصارى .
- ١٣٧ - الذيل والتكملة ، تحقيق احسان عباس ، ط بيروت ١٩٦٥ م .
- المراكشى : عبد الواحد بن طوى .
- ١٣٨ - المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ، تحقيق سعيد الصريمان ،
ط القاهرة ١٣٨٣ هـ - ١٩٦٣ م .
- المرضى : طوى بن الحسين العلوى .
- ١٣٩ - أمالى المرضى ، تحقيق أبى الفضل ابراهيم ، ط بيروت ١٩٦٧ م .
- المسعودى : أبو الحسن طوى بن الحسين .
- ١٤٠ - مروج الذهب ، تحقيق محبى الدين عبد الحميد ، ط بيروت ١٩٧٣ م .
- ابن المعتز : عبد الله بن المعتز بن المتوكل العباسى .
- ١٤١ - ديوانه ، ط بيروت ١٣٨١ هـ - ١٩٦١ م .
- ١٤٢ - طبقات الشعراء ، ط القاهرة ١٩٦٨ م .
- المقدسى : شهاب الدين بن محمد المعروف بأبى شامه .
- ١٤٣ - الروضتين فى أخبار الدولتين ، ط بيروت ١٩٦٨ م .
- المقدسى : مطهر بن طاهر .
- ١٤٤ - البدر والتاريخ ، نشره كلمان هوار ، ط باريس ١٨٩٩ م .
- المقرئ : أحمد بن محمد التلمسانى .
- ١٤٥ - أزهار الرياض فى أخبار عباس ، تحقيق الابيارى والسقيا
و شلى ، ط القاهرة ١٣٥٨ هـ .
- ١٤٦ - نفح الطيب ، تحقيق احسان عباس ، ط بيروت ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨ م .

- المقرئزي : أبو العباس تقى الدين أحمد بن طو .
- ١٤٧ - اتعاط الحنفا بأخبار الفاطميين الخلفاء ، تحقيق محمد
حلى أحمد ، ط القاهرة ١٣٦٣هـ - ١٩٧٣م .
- ١٤٨ - الخطط المقرئزية ، ط القاهرة ١٣٢٤هـ .
- ١٤٩ - السلوك لمعرفة دول الملوك ، تحقيق سعيد عاشور ، ط القاهرة
١٩٧٢م .
- المكاسي : أبو العباس أحمد بن محمد .
- ١٥٠ - جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الاعلام مدينة فاس ، ط الرباط
١٩٧٣م .
- ١٥١ - درة الحجال في أسماء الرجال ، تحقيق محمد الأحمدي أبو
النور ، ط تونس ١٣٦٠هـ - ١٩٧٠م .
- مالك بن أنس : امام دار الهجرة .
- ١٥٢ - الموطأ ، ط القاهرة ، ١٣٧٠هـ - ١٩٥١م .
- ابن منظور : أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم .
- ١٥٣ - لسان العرب ، ط بيروت ١٣٧٥هـ - ١٩٥٦م .
- ابن منقذ : أبو المظفر أسامة بن مرشد الكناسي .
- ١٥٤ - الاعتبار ، ط جامعة برنستون بالولايات المتحدة الأمريكية
١٩٣٠م ، بعناية فليب هي .
- ١٥٥ - ديوانه ، تحقيق أحمد بدوي وحامد عبد المجيد ، ط القاهرة
١٩٥٣م .
- ١٥٦ - المنازل والديار ، تحقيق مصطفى حجازي ، ط القاهرة ١٣٨٥هـ
١٩٦٥م .

- الموسسوى : محمد باقر الأصهبانسى .
١٥٧ - روضات الجنات ، تحقيق أسد الله اسماعيليان ط . طهران
١٣٩٢ هـ .
- الحيدانسى : أبو الفضل أحمد بن محمد بن ابراهيم النيسابورى .
١٥٨ - مجمع الأمثال ، تحقيق محيى الدين عبد الحميد ، ط القاهرة
١٣٧٩ هـ .
- ابن النديم : أبو الفرج محمد بن أبي يعقوب الوراق .
١٥٩ - الفهرست ط طهران ١٣٩١ هـ - ١٩٧١ م .
- أبونواس : الحسن بن هانس .
١٦٠ - ديوانه ، تحقيق أحمد عبد الحميد الخزال ، ط بيروت .
- ابن هشام : أبو محمد عبد الطك .
١٦١ - السير النبويه ، تحقيق السقا والابيارى وشلبى ، ط القاهرة
١٩٥٥ .
- المهذانسى : رشيد الدين .
١٦٢ - جامع التواريخ (تاريخ المفلول) ، تحرير عبد المعطى الصبيح
وآخرون ، ط القاهرة د . ت .
- ابن واصل : أبو عبد الله محمد بن سالم المازنى .
١٦٣ - مفرج الكروب فى أخبار بني أميوط ، تحقيق جمال الدين
الشيال ، ط القاهرة ١٩٦٠ م .
- الونشريشى : أبو العباس محمد بن يحيى .
١٦٤ - أسنى المتاجر فى بيان من ظب طى وطنه النصارى ولم يهاجر ،
نشره حسين مؤنس بصحيفة معهد الدراسات الاسلاميه - مدريد
١٩٥٧ م .

- اليافعى : أبوهده الله بن أسعد بن سليمان .
١٦٥ - مرآة الجنات ، ط بيروت ١٣٩٠هـ - ١٩٢٠م .
اليمىنى : صاره بن أبى الحسن الحكى .
١٦٦ - أخبار اليمن ، تحقيق محمد بن الأكوخ الحوالى ط القاهرة
١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م .
١٦٧ - ديوانه ، تحقيق ذى النون المصرى . ط القاهرة د . ت .
اليونىنى : قطيب الدين موسى بن محمد .
١٦٨ - ذيل مرآة الزمان ، ط الهند ١٣٨٠هـ - ١٩٦٠م .

المراجعىع الحديثه :-

- ابراهيم أنيس :
١٦٩ - موسيقى الشعر ، ط القاهرة ١٩٧٢م .
ابراهيم العسدى :
١٧٠ - العرب والتتار ، ط القاهرة ١٩٦٣م .
احسان عباس :
١٧١ - فن الشعر ، ط بيروت ١٩٥٥م .
أحمد أمين :
١٧٢ - ظهرو الاسلام ، ط القاهرة ١٩٦٦م .
أحمد بدر :
١٧٣ - من كتاب المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ، ط دمشق ١٩٧٨م .
أحمد توفيق :
١٧٤ - المسلمون فى جزيرة صقلية ، ط تونس ١٩٦٥م .
أحمد سوسه :

١٧٥ - رى سامرا ، ط بغداد ١٩٤٨ م .

أحمد شوقى :

١٧٦ - الشوقيات ، ط القاهرة ١٩٧٠ م .

أحمد بن عامر :

١٧٨ - الدولة الحفصية ، ط تونس ١٩٧٤ م .

آنخل جنثالث بلنشيا :

١٧٩ - تاريخ الفكر الأندلسى ، ترجمة حسين مؤنس ، ط القاهرة

١٩٥٥ م أميليو غارسية فومس :

١٨٠ - الشعر الأندلسى ، ترجمة حسين مؤنس ، ط القاهرة ١٩٦٩ م .

أنور المعداوى :

١٨١ - نماذج فنية من الأدب والنقد .

بطرس البستانسى :

١٨٢ - أدباء العرب فى الأندلس وعصر الانبعثات ، ط بيروت ١٩٦٤ م .

جواد طلى :

١٨٣ - الفصل فى تاريخ العرب قبل الاسلام ، ط بغداد ١٩٧٨ م .

حسن ابراهيم حسن :

١٨٤ - تاريخ الدولة الفاطمية ، ط القاهرة ١٩٥٨ م .

حافظ حمدى :

١٨٥ - الشرق الاسلامى قبيل الغزو المفلولى ، ط القاهرة ١٩٥٠ م .

ستيفن رنسيمن :

١٨٦ - تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة الباز العرينى ، ط بيروت

١٩٦٧ م .

سعد اسماعيل شلبي :

١٨٧ - ابن حمد بن الصقلي ، ط القاهرة ١٩٧٧ م .

سميد زغول عبد الحميد :

١٨٨ - محمد بن تومرت وحركة التجديد في المغرب والأندلس ، ط بيروت

١٩٧٣ م .

سميد عاشور :

١٨٩ - بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى ، ط بيروت ١٩٧٧ م .

العروب الطليبيه ، ط القاهرة ١٩٧٨ م .

شوقي أبو خليل :

١٩٠ - معركة الحجاب ، ط دمشق ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م .

شوقي شريف :

١٩١ - دراسات في الشعر العربي المعاصر ، ط القاهرة ١٩٧٣ م .

١٩٢ - الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، ط القاهرة ١٩٦٠ م .

الطاهر أحمد مكس :

١٩٣ - دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة ، ط القاهرة

١٩٨٠ م .

عبد الرحمن طي الحجي :

١٩٤ - أندلسيات ، ط بيروت ١٣٨٨ هـ ، ١٩٦٦ م .

١٩٥ - التاريخ الأندلسي ، ط دمشق ١٤٠٢ هـ - ١٩٨١ م .

عبد الرحمن ياغسي :

١٩٦ - حياة القيروان وموقف ابن رشيق منها ، ط بيروت ١٩٦١ م .

عز الدين اسماعيل :

١٩٧ - الأسس الجمالية في النقد العربي ، ط القاهرة ١٩٥٥ م .

عبد العزيز سالم :

١٩٨ - تاريخ مدينة المريه الاسلاميه ، ط بيروت ١٩٦٩ م .

١٩٩ - تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ، ط بيروت ١٩٦٢ م .

٢٠٠ - قوطبة حاضرة الخلافة في الأندلس ، ط بيروت ١٩٧١ م .

عبد العزيز عتيق :

٢٠١ - ظم العروش والقافيه ، ط بيروت ١٩٧٤ م .

عبد الكريم التواتس :

٢٠٢ - مأساة انهيار الوجود العربي في الأندلس ، ط الدار البيضاء

١٩٦٧ م .

عبد الكريم خليفه :

٢٠٣ - ابن حزم الأندلسي : حياته وأدبه ، عمان د . ت .

عبد الله علام :

٢٠٤ - الدولة الموحدية في عهد عبد المؤمن بن علي ، ط القاهرة

١٩٧١ م .

عبد الله كسيون :

٢٠٥ - ذكريات مشاهير رجال المغرب ، ط بيروت د . ت .

عمر موسى باشا :

٢٠٦ - أدب الدولة المتتابعة (عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك)

ط دمشق ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٧ م .

علي الجبارم :

٢٠٧ - قصة العرب في اسبانيا ، ط القاهرة ١٩٦٨ م .

علي محمد حموده :

٢٠٨ - تاريخ الأندلس السياسي والعمراني والاجتماعي ط القاهرة

١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧ م .

على مصطفى المصراحي :

٢٠٩ - ابن حمديس المقلبي ، ط طرابلس لبنان ١٩٧٢ م .

فليب حقي وآخرون :

٢١٠ - تاريخ العرب المطول ، مطابع الغندور ١٩٦٥ م .

فؤاد الصياد :

٢١١ - المغنول في التاريخ ، ط القاهرة ١٩٧٥ م .

أبو القاسم كسرو :

٢١٢ - مصر القيروان ، ط تونس ١٩٧٣ م .

محمد ابراهيم حور :

٢١٣ - الحنين الى الوطن في الأدب العربي ، ط القاهرة ١٩٧٣ م .

محمد رجب البيومي :

٢١٤ - الأدب الأندلسي بين التأثير والتأثير ، ط جامعة الامام محمد

بن سعود الاسلاميه بالرياض ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م .

محمد رضوان الدايه :

٢١٥ - ابن خفاجه ، ط القاهرة ١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢ م .

٢١٦ - تاريخ النقد الأدبي في الأندلس ، ط دمشق ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م .

٢١٧ - مختارات من الشعر الأندلسي ، القاهرة ١٩٧٢ .

محمد زغلول سلام :

٢١٨ - الأدب في العصر الأيوبي ، ط القاهرة ١٩٨٠ م .

محمد صبيح :

٢١٩ - القدس معاركنا الكبرى ، ط القاهرة ١٩٧٠ م .

محمد عبد الله عنان :

٢٢٠ - الآثار الأندلسية الباقية في أسبانيا والبرتغال ، ط القاهرة ١٩٦٦ م .

٢٢١ - تراجم اسلاميه شرقيه وأندلسيه ، ط القاهره ١٣٩٠ هـ - ١٩٧٠ م .

٢٢٢ - دول الطوائف ، ط القاهره ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م .

٢٢٣ - نصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس ، ط القاهره

١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ م .

٢٢٤ - لسان الدين ابن الخطيب ، ط القاهره ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨ م .

٢٢٥ - مواقف حاسمه في تاريخ الاسلام ، ط القاهره ١٩٦٢ - ١٣٨٢ هـ .

٢٢٦ - نهاية الأندلس ، ط القاهره ١٣٦٨ هـ - ١٩٤٩ م .

محمد عبدالله حنطه :

٢٢٧ - التنصير القسري لسلمى الأندلس ، ط عمان ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م .

محمد فريد المحامى :

٢٢٨ - تاريخ الدوله العليه العثمانيه ، ط بيروت ١٣٦٧ هـ - ١٩٧٧ م .

محمد كرد طسى :

٢٢٩ - خطط الشام ، ط بيروت ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م .

٢٣٠ - رسائل البلغاء ، ط القاهره ١٣٦٥ هـ - ١٩٤٦ م .

٢٣١ - غابر الأندلس وحاضرها ط القاهره ١٩٢٣ م .

محمد كمال الدسوقي :

٢٣٢ - الدوله العثمانيه والمسألة الشرقيه ، ط القاهره ١٩٧٦ م .

محمد مجيد السعيد :

٢٣٣ - شعر ابن اللبانه الداني ، ط البصره ١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧ م .

٢٣٤ - الشعرفي عهد المرابطين بالأندلس ، ط الكويت ١٩٨٠ م .

محمد محمد مخلوق :

٢٣٥ - شجرة النور الزكيه ، ط بيروت ١٣٤٦ هـ .

محمد المرزوقسى :

- ٢٣٦ - أبو الحسن الحصرى القيروانى ، ط تونس ١٩٦٧ م .
محمود العابدى :
- ٢٣٧ - قدسنا ، ط القاهرة ١٩٧٢ م .
محمود المهجوسى :
- ٢٣٨ - محمد بن عبد الطك صاحب التنوير ، سلسلة أعلام العرب ،
ط الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر .
مخائيل شاروهميم :
- ٢٣٩ - الكافى فى تاريخ مصر القديم والحديث ، ط بولاق ١٣١٥ هـ -
١٨٩٨ م .
مصطفى هوفى الكريسم :
- ٢٤٠ - الأرب الأندلسى فى عهد المرابطين ، ط السودان ١٩٦٨ م .
مصطفى محمد الشكمه :
- ٢٤١ - رحلة الشعر من الأموية الى العباسية ، ط بيروت ١٩٧٩ م .
ول ديورنت :
- ٢٤٢ - قصة الحضارة . ترجمة محمد بدران ، ط القاهرة ١٩٦٤ م .
يوسف أشباج :
- ٢٤٣ - تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين ، ترجمة عنسان
ط القاهرة ١٣٧٧ هـ - ١٩٥٨ م .
يوسف المياس الديبسى :
- ٢٤٤ - تاريخ سوريا ، ط بيروت ١٩٠٢ م .
يونيس السامرائسى :
- ٢٤٥ - سامرا^١ فى أدب القرن الثالث الهجرى ، ط بغداد ١٩٦٣ م .

الدوريات :

عبد الرحمن الحجوي :

٢٤٦ - (رثاء الأندلس لشاعر مجهول) ، مجلة الرسالة مج ١ سنسنة

٠ ١٣٥٤هـ - ١٩٣٦م

عبد الله كنون :

٢٤٧ - (أبو البقاء الرندي وكتابه الواقف في نظم القوافي) ،

صحيفة معهد الدراسات الاسلاميه بتدريب ١٩٥٨م - ١٣٧٨هـ .

ليلى بروفنسال :

٢٤٨ - (السيد القمبيطوري) دائرة المعارف الاسلاميه (مسادة

السيد) ج ١٢ .

مهدي عالم .

٢٤٩ - (مقصورة حازم) ، حوليات كلية آداب عين شمس سنة ١٩٥٣م (م) .

الفهرست

<u>الموضوع</u>	<u>المفصلة</u>
المقدمة	١ - ١٦ .
التمهيد : الأوطان ومكانتها في نفوس الشعراء .	١٦ - ٤٠ .
الباب الأول :	
رثاء الدول والأصناف المشرق	٤٠ - ١٨٦ .
الفصل الأول : رثاء الدول والأصناف المعصر	
الجاهلي .	٤١ - ٥١ .
الفصل الثاني : رثاء الدولة الأموية	٥١ - ٦٤ .
الفصل الثالث : رثاء الدول والأصناف حتى عصر	
السلجوقية .	٦٤ - ١٥٨ .
المبحث الأول : الثورات والفتن الداخلية في الدولة	
العباسية :-	
* فتنة الأمين والمأمون وتد مير بنسداد .	٦٤ - ٨١ .
* الثورة على المتوكل وهدم قصره الجعفرى .	٨١ - ٨٦ .
* الوقوف على ايوان كسرى .	٨٦ - ٩٥ .
* رثاء البصرة عندما دمرت في ثورة الزنج	٩٥ - ١١٤ .
* ما قيل من الشعر في رثاء الحوادم بمصر	
انتقال الخلافة عنها .	١١٥ - ١٢٠ .
المبحث الثاني : رثاء الدول الطولونية والفاطمية	١٢٠ - ١٤٠ .
خراب المدن بالحوادث الطبيعية	
وما قيل في ذلك من الشعر .	١٤٠ - ١٤٤ .

المبحث الثالث : الشعر يرثى سقوط بيت المقدس

- ١٤٥ - ١٥٧ • بيد الصليبيين

الفصل الرابع : تدمير بغداد والشام على يد

- ١٥٨ - ١٨٥ • التتار ورثاء الشعراء لهما

الباب الثاني :

- ١٨٦ - ٤٥٤ • الشعر العربي ورثاء الأندلس والمغرب

- ١٨٧ - ١٩٠ • توطئته

- ١٩١ - ٢٨٦ • الفصل الأول : رثاء المدن

- ١٩١ - ٢٠٣ • الفتنة الجبرية وتدمير قرطبة

- ٢٠٤ - ٢٠٦ • مصر الطوائف وهداية السقوط

- ٢٠٦ - ٢١٢ • رثاء برهشتر

- ٢١٢ - ٢٢٦ • رثاء طليطلة

- ٢٢٧ - ٢٤٨ • رثاء بلنسية

- ٢٤٩ - ٢٥٤ • رثاء اشبيلية

- ٢٥٤ - ٢٥٥ • رثاء سهيل

- ٢٥٥ - ٢٨٦ • رثاء صقلية ومدن المغرب

- ٢٥٥ - ٢٦٣ • رثاء جزيرة صقلية

- ٢٦٤ - ٢٨٢ • رثاء القيروان

- ٢٨٢ - ٢٨٦ • رثاء مراکش

الفصل الثاني : شعر الاستغاثة والحث

- ٢٨٧ - ٣٥٩ • على الجهاد

<u>الصفحة</u>	<u>الموضوع</u>
• ٤١٦ - ٣٦٠	الفصل الثالث : رثاء الامارات الأندلسية :
• ٣٦٣ - ٣٦٠	رثاء امارة مريبطسور .
• ٣٩٨ - ٣٦٣	رثاء امارة بنى عباد
• ٤١٠ - ٣٩٨	رثاء امارة بنى الأفضس
• ٤١٦ - ٤١١	رثاء امارة بنى صمادح
• ٤٥٤ - ٤١٧	الفصل الرابع : رثاء الأندلس عامه
	الباب الثالث : دراسة تفصيلية لشعر
• ٥٥١ - ٤٥٥	رثاء الدول والأمصار
	الفصل الأول : رثاء الدول والأمصارين التأثير
• ٤٦٥ - ٤٥٦	والتأشير .
• ٥١٨ - ٤٦٦	الفصل الخامس : دراسة شكل قصيدة الرثاء
• ٤٧٥ - ٤٦٦	المبحث الأول : مقدمات القصائد
• ٤٩٠ - ٤٧٥	المبحث الثاني : الألفاظ
• ٤٩٩ - ٤٩١	المبحث الثالث : الأوزان والقوافي
• ٥١٨ - ٥٠٠	المبحث الرابع : الاقتباس والتضمين
• ٥٥١ - ٥١٩	الفصل الثالث : دراسة مضمون قصيدة الرثاء
• ٥٢٩ - ٥١٩	المبحث الأول : الواقعية
• ٥٣٧ - ٥٣٠	المبحث الثاني : التكسار
• ٥٤٥ - ٥٣٨	المبحث الثالث : الجماعية
• ٥٥١ - ٥٤٦	المبحث الرابع : أسباب النكبات
• ٥٥٦ - ٥٥٢	الخاتمة :
• ٥٨٣ - ٥٥٩	ثبت المصادر والمراجع
• ٥٨٦ - ٥٨٤	الفهرست